دوستويفسكي

الأعمال الأدبية الكاملة المجلد ٢

ترجمة الدكتور سامي الدروبي

قرية
بانتشيكوفو
سكانها

لم العم




دار ابن رشد



الأعمال الأدبية الكاملة

المجلد الثالث

دوستويفسكي: الأعمال الأدبية الكاملة - ١٨ مجلداً

ترجمها عن الفرنسية: د. سامي الدروبي

الطبعة العربية الاولى: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
القاهرة ١٩٦٧

الطبعة العربية الثانية: دار ابن رشد للطباعة والنشر
بيروت - لبنان - شارع فردان - بناية شبارو
ص. ب: ١٤/٥٥٣٧ - هاتف: ٣٥٢٨٣٢

الخطوط والغلاف: عماد حليم

طبعت بإشراف: نتوورك - ايطاليا ١٩٨٥

Progettazione grafica a cura della NETWORK ITALIANA - Via Bertini, 34 - 20154 Milano

- قرية ستيبانتشيكوفو وسكانها
- حُلم العَم

تقديم

يضم هذا المجلد الثالث من « أعمال دوستويفسكى الأدبية الكاملة » روايتين هما : « قرية ستيبانتشيكوفو وسكانها » و « حلم العم » · ولئن لم تنشر الرواية الأولى الا فى شهرى تشرين الثانى وكانون الأول (نوفمبر و ديسمبر) من عام ١٨٥٩ ، أى بعد نشر الرواية الثانية « حلم العم » ، فقد بدأ دوستويفسكى كتابتها قبل الأولى بزمن طويل · يقول دوستويفسكى فى رسالة تاريخها سنة ١٨٥٩ ان الشخصيات الرئيسية فى هذه الرواية كان قد رسم ملامحها وحدد صفاتها قبل ذلك بخمس سنين ، أى بعد الخروج من المعتقل رأسا ، ومعنى ذلك أنه فى السنين الأولى من اقامته بمدينة سيميبالاتنسك انما تصور هذه الرواية :

قرية ستيبانتشيكوفو وسكانها

١٨٥٩

سبق أن لاحظ النقاد أن هذه الرواية الهجائية تقتفى أثر مسرحية « تارتوف » لموليير ، حتى ان شخصية فوما فومتش هى ، كما قال موتشولسكى ، شخصية تارتوف نفسه ، والكولونيل روستانف يقابل أورجون ، وأمه تقابل مدام برنيل ، وابن أخى الكولونيل والفتاة ناستنكا ، اللذان يعارضان فوما ، يذكران بشخصيتى دانيس والمير ، كما أن كليانت تستحيل الى باختشايف الذى يساعد فى فضح «تارتوف» الروسى ·

ورغم أن هذا العمل من أعمال دوستويفسكى قد كتب على صورة رواية ، فانه أشبه بمسرحية هزلية (ملهاة) على طراز المسرحيات الهزلية الفرنسية الكلاسيكية ، حتى انها تلتزم القواعد الكلاسيكية الثلاث :

وحدة الحدث ، ووحدة المكان ، ووحدة الزمان • ان الأحداث الرئيسية تجرى فى مدى يومين •

تبدأ الرواية بعرض نماذج الشخصيات ويؤدى الصراع بين المبادىء المتعارضة الى انتصار « تارتوف » فى أول الأمر : فالكولونيل يستغفر ويطلب العفو • وتجتمع الشخصيات كلها فى الفصلين الرابع والخامس ، وتنبثق الفضيحة الأولى : البنية ساشا تثور على فوما فومتش الذى يريد أن يحتفل بعيد ميلاده فى غير يومه • ثم يتفجر الصراع الثانى فى الفصل السابع ، حين ينفد صبر الخادم جافريلا الذى يرغم على تعلم اللغة الفرنسية ، فيعلن الحقيقة للطاغية الذى يضطهده ويسومه سوء العذاب قائلا له انه انسان شرير مسعور • وينبجس صراع ثالث فى هذا الفصل نفسه حين يتجرأ ابن أخى الكولونيل فيصف فوما بأنه سكران • هكذا تتطور الرواية تطور مسرحية خاتمتها سعيدة ، فيرد فوما الى الصواب والحذر ، فيمثل دور الانسان المحسن الخير ، ويقبل أن يتزوج الكولونيل الفتاة ناستيا ، ويحقق السعادة للجميع • ان تأليف الرواية على هذا النحو الذى يضم محاورات حية جدا يجعل اقتباسها للمسرح أمرا سهلا ، وذلك ما نجح فيه نجاحا باهرا « المسرح الفنى بموسكو » باشراف ستانسلافسكى •

فى رسالة كتبها دوستويفسكى لأخيه فى الثالث من شهر أيار (مايو) ١٨٥٩ يقول الكاتب عن هذه الرواية : « لا شك فى أن هذه الرواية عيوبا كثيرة ، ولعل طولها أن يكون أكبر هذه العيوب • ولكننى على يقين من أنها تنعم فى الوقت نفسه بمزايا عظيمة ، وأنها خير أعمالى قاطبة • لقد كتبتها خلال عامين متواصلين (مع انقطاع عنها لكتابة « حلم العم » • وأحسب أننى أجدت صياغة بدايتها ووسطها ، أما ختامها فقد كتبته على عجل • ومهما يكن من أمر فقد أودعتها كل روحى ، أودعتها لحمى ودمى • لست أزعم أننى عبرت فيها عن كل ما بنفسى ، والا كنت أقول سخفا • فما يزال هنالك أشياء كثيرة يجب أن أعبر عنها• ثم ان هذه الرواية تفتقر الى عنصر القلب (أعنى عنصر الهوى كما نجد هذا العنصر فى قصة تورجنيف « أولاد الذوات ») • ولكنك واجد فيها شخصيتين نموذجيتين أحسنت تصويرهما تصويرا أرى أنه كامل لا مأخذ عليه ، وهما شخصيتان روسيتان حقا لم يحسن الأدب الروسى تصويرهما

الى الآن » • ان هاتين الشخصيتين النموذجيتين هما شخصية فوما فومتش وشخصية الكولونيل روستانف •

في ســـنة ١٨٦٠ أشار النــاقد الروسى دوبروليــوبوف الى أن « الأشخاص المجروحة كرامتهم يظهرون عند دوستويفسكى فى نموذجين اساسيين : الانسان الوديع ، والانسان الشرس » • فأما روستانف الذى ما ينفك يلقى المذلة والهوان من أمه ومن فوما فومتش فانه ينتمى الى النموذج الأول ، وأما فوما فومتش فانه ينتمى الى النموذج الثانى • أن الكولونيل روستانف رجــل وســيم الطلعة محبب الى القلب ، نبيــل الاندفاعات ، طيب الى غير حد ، مرهف العواطف الى حيث يقول : يجب على المرء أن يضاعف لطفه ورقته فى معاملة من أحسن اليهم • فهو يريد أن يرضى جميع الناس : يخضع فى كل أمر من الأمور لأمه التى تستبد به وتطغى عليه وتصفه بأنه أنانى ، ويخضع لفوما فومتش الدنىء الذى يعجب الكولونيل بعلمه وثقافته اعجابا ساذجا لأنه لا يملك هو الا حظا ضئيلا من العلم والثقافة ، وهو يحس مع ذلك ، من فرط تواضعه ، أنه أنانى وأنه آثم • فلما أظهره ابن أخيه على آرائه فى أن طبيعة الانســان طيبة أصلا ، ولما روى له شعر نكراسوف فى الفتاة الضائعة التى تبعث بعثا جديدا ، تأثر تأثرا شديدا وافتتن افتتانا عظيما ، فهتف يقــول : لماذا الانسان خبيث شرير يا رب ؟ لماذا أنا شرير خبيث فى أحيان كثيرة جدا ، مع أن فعل الخير جميل هذا الجمال كله ؟ وهو يشعر أمام جمال الطبيعة بنشوة كبرى ، لأنه يستشف فيها عظمة الخالق • وهو يحب المربية الفقيرة المعدمة ناستنكا حبا مثاليا ، فيه انكار لذاته وايثار لغيره ، ويرى أنه أكبر سنا من أن يستطيع تزوجها ، بل انه لمستعد ، حتى لا يغضب أحد منه ، أن يتزوج على مضض ، فتاة غنية وارثة هى تاتيانا ايفانوفا التى تشبه أن تكون مجنونة ، ثم لا يمنع زواجه السخيف هذا بها الا أن الشاب أوبنوسكين قد اختطفها وهرب بها • ان هذا الانسان الخجول الوديع لا ينسى وداعته الا مرة واحدة ، حين يعمد فوما فومتش الى اهانة حبه بقسوة ، فيغضب ويثور ويتمرد فيطرد الواشى النمام شر طردة وقد استبد به الاستياء والحنق ، كما فعل المسيح حين طرد التجــار من المعبد • ان روستانف هو النموذج الأول للمسيحى الحق الذى يصوره دوستويفسكى • انه يحقق المثل الأعلى المسيحى بأفعاله دون أن يتكلم كثيرا عن الدين ، يغفر لمن يسيئون اليه ، ويزرع الخير حوله • انه صورة

أخرى للروح المسيحية الحقة التى ستتجسد فى شخصية الأمير ميشكين بطل رواية « الأهبل » ٠ ومع ذلك فان هذه الشخصية الايجابية ليست بارزة فى هذه الرواية بروز الشخصية السلبية ، شخصية فوما فومتش ، وليس فيها من الحياة ما فى تلك الشخصية السلبية : ان هذا المنافق الذى يدعى التقى والورع زورا وبهتانا ، ويدعى اصلاح جميع من حوله مؤنبا مقرعا ، وناصحا واعظا ، قد أحسن الكاتب تصويره كما أحسن موليير تصوير شخصية « تارتوف » ٠ هو انسان أراد أن يكون أديبا فأخفق فأحنقه الاخفاق وألقى فى نفسه الضغن والموجدة ، ثم صار الى طفيلى يتخذه الجنرال مهرجا له ، فامتلأت نفسه بغضا وحسدا ورغبة فى التسلط والسيطرة ، وأصبح طاغية يسخر بكل من حوله ويتهكم عليهم ويستهزىء بهم ، ومنهم الكولونيل والخادم الشيخ جافريلا والغلام الساذج فالالى ٠ وهو يعظ بالأخلاق ويتكلم فى الدين ويدعى أنه سيعتكف ناسكا فى مغاور كييف بعد أن ينهى تأليف كتابه الأدبى العظيم ٠ ولكن ذلك كله ليس الا كذبا ونفاقا ، فهو لا يكتب شيئا ولا يريد بحال من الأحوال أن يترك المأوى المريح والمطعم الطيب والمشرب الشهى الذى وجده فى ستيبانتشيكوفو٠ وهو يستطيع بالحيلة أن ينتصر على كل عقبة وأن يذلل كل معارضة وأن يتغلب على كل تمرد ، وحتى بعد أن طرد عاد وفى ذهنه خطة محكمة وحيلة بارعة ، هى أن يبارك زواج الكولونيل ليمن عليه وليستبد به ما عاش ٠

ولعل من الشائق أن نلاحظ أن هذه « الشخصية السلبية » تشبه أن تكون صورة كاريكاتورية ضارية للكاتب الروسى الكبير جوجول الذى كان دوستويفسكى قد قرأه كثيرا وقلده كثيرا فى شبابه ، ولكنه كان كثيرا ما يثور ويتمرد عليه ٠ وقد أشار الى هذا التشابه ناشر المجلة التى ظهرت فيها رواية «قرية ستيبانتشيكوفو وسكانها» ، وهو آ٠ كرايفسكى الذى قال ان « شخصية فوما تعجبه كثيرا وتذكره بشخصية جوجول فى العهد الحزين الشقى من حياته » ، أى فى السنين الأخيرة من عمر هذا الكاتب الكبير ٠ وبعد ذلك ، فى سنة ١٩٢٢ ، وقف بورى تنيانوف بحثا خاصا على « دوستويفسكى وجوجول » ، وفيه بين أن دوستويفسكى قد تعمد أن يصور جوجول تصويرا كاريكاتوريا فى شخصية فوما فومتش ٠ والحق أن دوستويفسكى كان فى هذه الصورة الكاريكاتورية يستهدف خاصة « رسائل » جوجول الى أصدقائه ، فلقد كان جوجول يطمع فى أن

يصبح الموجه الروحى لجميع أصدقائه ، فهو يكتب اليهم رسائل مستفيضة فى النصح والوعظ والارشاد ، وهو يتحدث عن التواضع المسيحى ، على غروره الشديد وكبريائه القوية ، وعلى اغفاله الحالة الاجتماعية التى كانت عليهـا روسيا والتى كان جوجول يريد أن يراها ساكنة لا تتحرك ولا تتغير ، بل تظل جامدة على « المحافظة » • ان هذه « الرسائل » التى بعث بها جوجول الى أصدقائه ونشرت سنة ١٨٤٧ قد أثارت ثائرة الناقد الاشتراكى بيلنسكى ، فاذا هو يبعث الى جوجول برسالة تشتمل على احتجاج عنيف واستنكار صارخ • ويجب أن نتذكر فى هذه المناسبة أن بين التهم التى وجهت الى دوستويفسكى أثناء محاكمته أنه قرأ هـذه الرسالة الثورية التى كتبها بيلنسكى ، والتى منعتها الرقابة وحرمتها تحريما صارما قاسيا • فها نحن نرى اذن أن دوستويفسكى بعد أن قضى فى السجن والنفى عشر سنين مايزال متأثرا بالناقد بيلنسكى وما يزال يشاركه كره جوجول الذى صار الى تقى يعده دوستويفسكى تقى كاذبا • ومع ذلك فان دوستويفسكى سيصير فى المستقبل الى هذا التقى نفسه مخلصا كل الاخلاص ، مثلما صار اليه جوجول مخلصا كل الاخلاص كذلك ••• سوف يتطور دوستويفسكى الى حيث يذهب مذهب المحافظة ويتعصب للقومية ويتمسك بالدين ، كما فعل جوجول سواء بسواء • ولعل أبرز ما سيشارك فيه دوستويفسكى صاحبه جوجول قوله بأن المجتمع لا يحسن حاله باصلاحات اجتماعية مثلما يصلح حاله بانبعاث روحى أخلاقى يتحقق فى نفس كل فرد • ولكن لئن قلنا ان دوستويفسكى كان مخلصا فى تطوره هـذا كل الاخلاص ، فليس ينفى ذلك أنه كان مخطئا كل الخطأ أو بعضه ، فان الانبعاث الروحى الأخلاقى نفسه لايمكن أن يتهيأ للفرد الا فى كنف مجتمع تبدلت فيه العلاقات الاجتماعية بثورة قادرة تهيىء المناخ الصالح لتحقق ذلك الانبعاث بتحرير الفرد من ظروف الاستغلال وعوامل الضياع •

ومهما يكن من أمر فلئن كانت صورة جوجول ماثلة فى ذهن دوستويفسكى حين رسم شخصية فوما فومتش ، فان المسافة كبيرة بين فوما فومتش وجوجول • فالأول ليس الا مدعى أدب لم ينتج شيئا ذا بال، أما الثانى فهو قمة من القمم الأدبية التى تنعم بمواهب فذة ، وفوما منافق كاذب التقى زائف الورع ، أما جوجول فقد كان فى تباريحه الدينية صادقا معذبا • ثم ان جوجول ان أقام عند أصدقائه فانه لم يضطهدهم •

ومع ذلك فنحن نسمع كلمات من أقوال جوجول يجريها دوستويفسكى بنصها على لسان فوما فومتش كقول جوجول فى الوصية التى نشرها أثناء حياته : « لا تشيدوا على قبرى ضريحا » .

أما بعد ، فان الهجاء فى رواية « قرية ستيبانتشيكوفو وسكانها » هجاء لاذع ، وان عددا كبيرا من الشخصيات القلقة المضطربة التى تزخر بها هذه الرواية يدخلنا منذ الآن الى ذلك العالم الممزق المشوش ، عالم الروايات الكبيرة التى سيكتبها دوستويفسكى : المهرج المتطوع ياجفكين الذى يشبه بولزونكوف ، والذى سيظهر مرة أخرى فى مارملادوف أحد أبطال « الجريمة والعقاب » ، وفى لبيادكين أحد شخوص « الجن » ؛ والخادم فيدوبلياسوف الذى اكتسى طلاء من حضارة وأصبحت له دعاوى غريبة عجيبة ؛ والعانس المحمومة تاتيانا التى تحلم بزوج يتراءى لها مثلا أعلى ؛ والوغد الحقير أوبنوسكين الذى لا يستحى أن يشرح خطته لاختطاف تاتيانا والاستيلاء على مالها ..

حلم العم

١٨٥٩

فى عام ١٨٥٧ كانت حياة دوستويفسكى فى مدينة سيمبالاتنسك تجتاز منعطفا ملائما ، فقد رقى دوستويفسكى الى رتبة ضابط ، واسترد حقوق النبالة ، وتزوج ، وهيأت له زوجته شيئا من رخاء العيش ، وأنشأت صالونا أدبيا صغيرا . وهو يأمل أن يعود فى القريب الى روسيا ، وأن يستعيد مكانته فى عالم الأدب ، وهو يتصل بمحررى المجلات التى تصدر فى العاصمة . هذا ميشيل كاتكوف محرر مجلة « البشير الروسى » يطلب منه رواية ، ويبعث اليه بسلفة مقدارها خمسمائة روبل ، وهذا محرر مجلة « كلام روسيا » التى تصدر فى بطرسبرج يفعل ذلك نفسه . ولكن الكاتب لم يكن قد انجز شيئا كاملا . فها هو ذا يترك اتمام كتابة روايته الهزلية الكبيرة « قرية ستيبانتشيكوفو وسكانها » ، ويعكف سنة ١٨٥٨ على تاليف رواية غيرها مسرعا فى الكتابة ما أمكنه الاسراع ، فكذلك فرغ دوستويفسكى من كتابة « حلم العم » التى نشرت فى مجلة « كلام روسيا » فى شهر آذار (مارس) من عام ١٨٥٩ .

ولم يرض دوستويفسكى عن هذه الرواية ، حتى لقد أسرف فى

التنكر لها بعد ذلك ، فكتب يقول فى احدى رسائله : « ان هذه الرواية لا تعجبنى البتة ••• وانى ليحزننى أن أكون قد اضطررت الى العودة الى الظهور للجمهور رديئا هذه الرداءة ••• اننى مكره ، فى سبيل المال ، على أن أتخيل قصصا ، على أن ألفق حكايات • وما أشق ذلك على نفسى ! » •

الحق أن دوستويفسكى يظلم نفسه هنا كما ظلمها قبل ذلك ، ويظلم هذه الرواية كما ظلم غيرها من أعماله • هى أولا رواية وليست قصة أو حكاية ، أو هى قصة طويلة فى أقل تقدير • صحيح أنها رواية هزلية لا تشتمل الا على قليل من الجد • ولكنها فى بابها من أجمل الروايات وأرشقها • أى ضير فى أن يكتب دوستويفسكى رواية هزلية من أجل أن يضحك فى هذه السنة السعيدة بعض السعادة من حياته بعد مدة طويلة قضاها فى السجن والنفى ؟ كان دوستويفسكى يريد أن يضحك وأن يضحك • ويذكر البارون فرانجل الذى كان عشيره فى تلك المدينة النائية أن دوستويفسكى كان يحلو له كثيرا ويضحكه كثيرا أن يقلد نبرات الصوت الرخو المفكك المتداعى الذى يتكلم به بطل روايته ، الأمير الشيخ ••

والرواية تشبه أن تكون مسرحية هزلية ، حتى لكأنها حوار يتعاقب ، وتتخلله ملاحظات يجب أن ينتفع بها مخرج المسرحية • وبسبب ذلك انما فكر بعضهم ، أثناء حياة دوستويفسكى ، فى اقتباس هذه الرواية للمسرح ، واستشير دوستويفسكى فى ذلك فكتب الى فيدوروف سنة ١٨٧٣ يقول : « لا أجرؤ ولا اقدر أن أعكف على مراجعة هذه الرواية • اننى لم أعد قراءة « حلم العم » منذ خمسة عشر عاما • فلما أعدت قراءتها الآن وجدتها ضعيفة • كان همى الوحيد حين كتبت فى سيبريا هذه الرواية الأولى بعد المعتقل أن أستأنف حياتى الأدبية ، وكنت خائفا من الرقابة خوفا كبيرا (من حيث أننى سجين سابق) ، لذلك جاءت وجلة كحمامة ، بريئة براءة تامة • فمن الممكن أن تصنع منها مسرحية هزلية ، ولكن مضمونها أفقر من أن تخرج منه ملهاة ، رغم شخصية الأمير ، الشخصية الوحيدة التى أرى لها شأنا جديا فى هذه القصة » •

كان دوستويفسكى يرى اذن أن شخصية الأمير هى الشخصية الوحيدة التى لها شأن جدى ، فلماذا يكون لهذه الشخصية المضحكة ،

هذه الجثة التى « تحركها نوابض » ، شأن جدى فى نظر دوستويفسكى ؟ ذلك أمر يعجب له المرء • فلابد أن يكون دوستويفسكى قد حمّل تصويره لهذه الشخصية معنى أعمق من المعنى الذى يبدو لنا من أول نظرة ، لابد أن يكون قد حمّله معنى اجتماعيا كان هو الذى يعنيه أكثر ما يعنيه فى المرحلة التى كتب فيها تلك الرسالة • والحق أن عجبنا يزول اذا نحن انتبهنا الى أن الأمير ارستوقراطى روسى مفتون بالغرب ، يعرف أوروبا الغربية أكثر مما يعرف روسيا ، درس الفلسفة فى ألمانيا ، ويدعى أنه عرف بايرون فى مؤتمر فيينا ، وانتمى الى جمعية ماسونية أجنبية ، وله آراء فى حب الانسانية ، ويحب أن يعتق أقنانه ، ويريد أن يسافر الى الخارج « ليتابع تطور الحضارة الأوروبية » ، وقد أراد أن يتزوج بكونتيسة فرنسية ؛ وبأغنية فرنسية من نوع أغانى التروبادور انما فتنته زينا • وهو يؤثر اللغة الفرنسية على اللغة الأم (انه يستعمل فى كلامه كثيرا من التعابير الفرنسية والألفاظ الفرنسية) • معنى ذلك كله أن دوستويفسكى حين صور هذه الشخصية انما قدم الى القارىء صورة كاريكاتورية للأرستقراطية المنحلة المفتونة بحب الغرب • وسنرى نظيرا لهذه الصورة الكاريكاتورية ، بمزيد من السخر اللاذع ، فى رواية « الجن » : شخصية ستيبان فرخوفنسكى الذى درس هو أيضا فى ألمانيا، وتبنى الآراء الجديدة ، وافتتن بالحضارة الأوروبية ، وكان يحتقر روسيا التى لا يعرفها قط ، وكانت له كذلك آدابه الاجتماعية الغربية ، وكان يحب اللغة الفرنسية حبا عظيما • ولا يقتصر التشابه بين الروايتين على هذا التشابه بين الشخصيتين ، بل يتعداه الى تشابه فى حبكتى الروايتين • ففى رواية « حلم العم » نرى السيدة الأولى بالمدينة تقرر فجأة أن تزوج الأمير ابنتها زينا ، وفى رواية « الجن » نرى السيدة الأولى بالمدينة ، وهي الجنرالة ستافروجين ، تفكر فى أن تزوج الأمير فرخوفنسكى ربيبتها اليتيمة داشا • وكلتا الفتاتين تحب شخصا آخر ولكنهما كلتيهما توافقان على الزواج •

ولعل من الواجب أن نذكر أن رواية «حلم العم» التى كتبها دوستويفسكى على طريقته القديمة تشهد بقوة تأثره بجوجول فى النقد اللاذع والهجاء المر • ان وصفه لهذه المدينة من مدن الأقاليم يشبه وصف جوجول للمدينة التى نراها فى رواية « النفوس الميتة » • والنساء هن النساء هنا وهناك •

نعود فنقول ان دوستويفسكي قد ظلم نفسه وظلم روايته حين أسرف في القسوة فى حكمه على هذه الرواية.وهل يضيرها أو يدينها أن يكون مضمونها الاجتماعى فقيرا فيما ذهب اليه دوستويفسكى ؟ أليس يكفيها جمال البناء الفنى وروعة التصوير النفسى وقوة النفاذ الى أعماق الحياة الداخلية ؟ أليس يكفيها أن تكون غنية بالمضمون الانسانى ؟ ان هذه الرواية زاخرة بالمضمون الانسانى • أنظر الى محاورات السيدء موسكاليوفا مع ابنتها : ان فيها لبصيرة تنفذ الى الأغوار السحيقة من النفس الانسانية ! وأنظر الى زينا : ان هذه الفتاة المثالية الرومانسية الحالمة قد أحبت « المدرس الشاعر » الفقير فاسيا ، وهى تحتقر المجتمع وتتمرد على أمها وتناقشها فى ازدراء وعداوة ، ولكن الأم تعرف الثغرة فى درع ابنتها فتنفذ اليها منه ، فاذا صورت لها أن سيكون فى امكانها أن تتزوج حبيبها الفقير المسكين فترده الى الحياة ، بعد موت الأمير الشيخ قريبا ، واذا أهابت بروح التضحية فى نفس الفتاة ، استكانت الفتاة وأذعنت ورضيت بالصفقة الدنيئة ، ولكن الفتاة لا تستطيع أن تخفى عواطفها الحقيقية طويلا ، فما تلبث أن تعود الى التمرد ، حتى اذا رأت الشيخ لا يتكلم الا على حلم كشفت عن الحقيقة كاملة فى سورة من الصدق، ولم تبرىء نفسها من اثم التواطؤ عليه والتغرير به ، ثم ها هى ذى تسعى الى فاسيا المحتضر راكضة لا تبالى مواضعات المجتمع ولا أقاويل الناس ، وتقضى بجانب سريره أياما وليالى الى أن يقضى نحبه • وتدور الأحاديث بين زينا وفاسيا فى ظل شبح الموت الذى يخيم على الجو ، فهذا يستغفر عن خطاياه وتلك يتمزق قلبها تمزقا رهيبا • ذلك كله مضمون انسانى غنى بل انه لايخلو من مضمون اجتماعى أيضا • ان فيه اهابة الى تمرد وثورة ، فليس وجـلا كحمـامة ولا هو برىء كل البراءة كما قال دوستويفسكى • وليس يفقده هذه الصفة ألا تكون ثوريته رومانسية تغفل عن واقع النفس الانسانية • لقد تخلى دوستويفسكى فى هذه الروايه عن الرومانسية المندفعة التى نراها فى بعض أعماله السابقة • ان السنين

التى قضاها فى السجن خليقة بأن تصرفه عن تلك الرومانسية الساذجة. ان فاسيا تزل به قدمه فيهوى الى قاع الحطة والدناءة حين ينتقم من زينا باتخاذ رسالتها الغرامية اليه وسيلة للتشهير بها • وان زينا المثـــالية توافق على أن تتزوج الأمير الشيخ متنازلة عن مثاليتهـــا ، وهى ترضخ لنصائح أمها وتتزوج بعد ذلك شيخا آخر هو حاكم برتبة جنرال ، متخلية بذلك عن رومانسيتها التى رأيناها عليها حين كانت بجانب حبيبهـــا المحتضر • تلك كلها أعمـاق انســانية تزخر بالتناقضــات قد ســبرها دستويفسكى وأحسن تصويرها • ذلك كله مضمون انسانى غنى بل انه لمضمون اجتماعى كذلك •

قــرْيَــة
ستيبانتشيكوفو
وسُكانهــا

١٨٥٩

« قرية ستيبانتشيكوفو وسكانها »

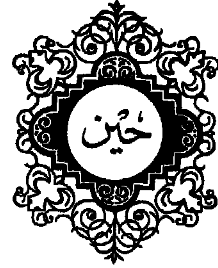
Selo Stépantchicovo i iego opitatéli

كتبت هـــذه الرواية فى ١٨٥٨ ـ ١٨٥٩ ونشرت فى مجلة « حوليـات الوطن » ، شـهرى تشرين الثـانى (نوفمبر) وكانون الأول (ديسمبر) ١٨٥٩

الجزء الأول

١

مقدمة



أحيل عمى الكولونيل ياجور ايلتش روستانف الى التقاعد ، مضى يستقر فى أرضه بقرية ستيبانشيكوفو التى كان قد ورثها من عهد قريب. وسرعان ما تلاءم هنالك مع الحياة التى يعيشها مالكو الأطيان ، حتى لكانه لم يعش حياة أخرى قبلها فى يوم من الايام . يقال ان من الناس من خلقوا للتلاؤم السريع والرضى السهل والتعود على كل شيء . ان من المستحيل عليك أن تتصور انسانا أميل الى المسايرة وأقدر على المجاراة من هذا الانسان . فلو خطر ببالك أن يحملك على ظهره مسافة فرسخ أو فرسخين * لوافق على ذلك فيما أعتقد . لقد كانت نفسه تفيض بطيبة تبلغ من القوة أن المرء يحس أنه مستعد لأن يهب كل شيء لأول قادم ، وأن يقاسمه كل شيء ، حتى آخر قميص يملكه . هو رجل طويل القامة متناسب أعضاء الجسم؛ عملاق ذو خدين نضرين وأسنان كالعاج ، وشاربين طويلين بلون الكستناء القائمة ، وصوت قوى مجلجل رنان صريح ، وضحكة مدوية ، ولهجة فى الكلام سريعة منطلقة . كان عندئذ فى نحو الأربعين من عمره، وكان قد قضى حياته فى سلاح الفرسان منذ السادسة عشرة من عمره اذا لم أخطىء . وقد تزوج فى سن مبكرة ، ولكنه سرعان ما ترمل ، فاحتفظ فى قلبه بذكرى لا تمّحى لزوجة كان يحبها الى حد الجنون . وبعد أن ورث قرية ستيباتتشيكوفو فأصبحت ثروته

الشخصية ستمائة نفس ، انما قرر ، كما ذكرت منذ هنيهة ، أن يحال على التقاعد ليستقر فى أملاكه مع ولده • وقد كان له ولدان : أحدهما صبى فى الثـامنة من عمـره كانت ولادته هى السبب فى وفاة أمه ، واسمه ايليوشا * ، والثانى فتاة فى نحو الخامسة عشرة اسمها ساشا قد تربت فى مدرسه داخلية بموسكو منذ ترمل أبوها • ولكن منزل عمى لم يلبث أن أصبح يذكر بسفينة نوح • واليكم تفصيل ذلك :

فى اللحظة التى تلقى عمى ميراثه وحصل على تقاعده ، ترملت أمه زوجة الجنرال كراخوتكين • ان زواجها بالجنرال يرجع عهده الى عشرين سنة خلت ، بينما كان ابنها ، وهو ضابط صغير فى سلاح الفرسان ، يفكر هو نفسه فى أن يتخذ له امرأة • لقد ظلت الأم زمنا طويلا تقرّع هـذا الابن الذى لا يحترم أمه ، على أثرته وأنانيته وعقوقه ؛ ورفضت أن تمن عليه بمـوافقتها على زواجه ، مبرهنـة له على أن الارض الوحيدة التى يملكها ، ولا يزيد عدد أقنانها على مائتين وخمسين ، لا تكفى منذ ذلك الحين للانفاق على أسرته (يجب أن نفهم من هذا انفاقه على أمه الطيبـة مع حاشيتها الكبيرة من الطفيليين ، وكلابها الكبيرة والصغيرة ، وقططها وما الى ذلك) • ومع ذلك ، فانها فى غمرة هذه التقريعات والتأنيبات ، وفى اللحظة التى لم يكن فيها ابنها يتوقع شيئا مما سيحدث البتة ، أنبأته أنها ستتزوج هى نفسها ، رغم سنيها الاثنتين والأربعين • حتى أن هـذا نفسه كان عذرا جديدا لها من أجل أن تزيد غضبها على ابنها ، ولومها له• وقد حلفت أغلظ الأيمان أنها لا تتزوج الا لهدف واحد هو أن تجـد لشيخوختها المأوى الذى يمنعه عنها ابنها مادام يبلغ من الجرأة والأثرة والأنانية هذا الحد الذى لم يسمع بمثله أحد من قبل : أن ينشىء لنفسه هو أسرة •

ولم أستطع أن أعرف فى يوم من الأيام السبب الذى دفع المغفور له

الجنرال كراخوتكين أن يتزوج امرأة تخطت العقد الرابع من عمرها ، مع انه ذكي • أغلب الظن أنه كان يظن أنها غنية ، أو أنه ، كمـــا قال بعضهم ذلك ، قد احس بقرب حاجته الى ممرضه ، وتنبا بجملة الامراض التي ستنصب عليه في ايام شيخوخته • ومهما يكن أمر فان الجنرال لم يبد عليه في يوم من الايام ، خلال حياتهما المشـــتركة ، أنه كان يقدر امرأته كثيرا ، حتى لقد كان لا يدع فرصه من الفرص الا ويسخر منها ويستهزيء بها • وكان الجنرال رجلا شاذا تماما • ولئن أعوزته الثقافة ، فانه لم يكن يعوزه الذكاء ؛ وكان يستعمل فكره في ثلب الآخرين وتعييرهم وتحقيرهم والتهكم عليهم ، ولا يتحرج من الخروج على أي مبـــدأ من المبادىء • وقد جعله مرضه ، الذي يرجع خاصة الى أنه عاش حياة فوضى، جعله مرضه انسانا شرس الطبع كالح المزاج لاذع اللسان حقودا لا يشفى له غليل • ورغم أنه كان موظفا لامعا مرموقا ، فان « حادثا مؤسفا » قد جعـله يُصرف من الخـدمة على حين فجأة محروما من أي معـاش ، فكان ذلك ضربة رهيبة أحالته انسانا حانقا مغتاظا حاقدا الى الأبد• وحين أصبح بغير موارد ، لأنه كان لا يملك الا مائة قن صاروا الى الفقر المدقع والبؤس الشديد ، فانه خلد الى الراحة مكتوف اليدين طوال الفترة الباقية من حياته ، لم يحاول في يوم من الأيام ، خلال السنين الاثنتي عشرة التي عاشها بعد ذلك ، أن يسأل من أين كانت موارده ، ولا همَّه أن يعرف من الذي كان ينفق عليه • غير أن هذا لم يمنعـه أبدا من أن يعيش حيـاة عريضة ، ينفق بلا حســـاب ، ويقتني عربة وخيولا • وسرعان ما فقـد استعمال ساقيه فقضى السنين العشرة الأخيرة من حياته على كرسي مريح يجره ، عند الضرورة ، خادمان أعجفان طويلان أبلهان ، لم يوجه اليهما مولاهما يوما الا أنواعا من هاجر الكلام وغليظ القول • وواضح أن من كان ينفق على العربة والخدم والمقعد انما هو عمي الذي كان يرسل الى

أمه آخر قرش يملكه ، ويرهن أملاكه بالقروض رهنا ، ويحرم نفسه من الاشياء الضرورية ، ويغرق مزيدا من الغرق فى ديون لم تكن تنفق وثروته آنذاك ، دون أن يعنيه ذلك من سماع التهم التى كانت تكيلها له أمه اذ تصفه دائما بأنه ابن أنانى عاق • ولكن هكذا خلق عمى • لقد انتهى الى الاقتناع بأنه أنانى ، فكان فى سبيل أن لا يكون أنانيـا ، وفى سبيل أن يعاقب نفسه على أنانيته ، ما ينى يزيد المبالغ التى تطلب أمه أن يرسلها اليها • وكانت أمه الجنرالة (زوجة الجنرال) تعبد زوجها عبادة ، غير ان الشيء الذى كان يفتنها فيه خاصة كان من غير شك هو رتبته التى تهب لها ، هى ، لقب «جنرالة» •

كان لها فى المنزل جناح خاص تعيش فيه مستقلة عن زوجها المصاب بداء النقرس ، بين طفيليها النمامين وحيواناتها الاليفة من قطط وكلاب • وكانت فى مدينتها الصغيرة وجها مرموقا وشخصية بارزة • ان حفـلات التعميد والزفاف التى تتربع هى فيهـا على عـرش العـرابه او الاشبينه ، وكذلك الاقاويل والنمائم والثرثرات ، وما يقوم من مقامرات « مفضلة » على كوبك واحد للفيشة الواحدة ، ولا سيما مظاهر الاحترام والتعظيم والتبجيل التى تحاط بها بفضل لقبها الجليل ، ان ذلك كله يعوضها عن منغصات حياتها المنزلية ويؤسيها عما تلقى من صنوف المكدرات • اليهـا انما كانت ناقلات الأنباء تأتيها بأحدث الأخبار قبل أن تنقلها الى أى انسان آخر • ومكان الشرف وقف عليها فى كل مكان وفى كل زمان • الخلاصة أن لقب « الجنرالة » هذا كان يضمن لها جميع الامتيازات الممكنة • وكان الجنرال يدع الأمور تجرى على أعنتها •• على أنه كان لا يعفى امرأته أمام الناس من الاساءات الجارحة والاهانات المؤلمة • كان يتساءل مثـلا لماذا ورط نفسه بهذه « السمينة المترهلة » دون أن يخطر ببال أحـد أن يحتج ••• ولقد كان الناس ينفضـون من حـوله شيئا بعد شيء ، ولكنه

كان لا يستطيع أن يستغنى عن مخالطة المجتمع ... كان فى حاجة الى أن يثرثر وأن يناقش ، وهو رجل متحلل ملحد على الطراز القديم ، لا يكره الكلام فى الموضوعات الرفيعة ، ولا بد له من أناس يستمعون اليه .

غير أن الناس فى مدينة ن ... الطيبة كانوا لا يهتمون كثيرا بهذا النوع من المواد ، فلما انفض عن الجنرال سامعوه ، أخذ أهل الدار ينظمون حفلات « ويست » عائلية ، غير أن ألعاب الورق هذه كانت تنتهى بالجنرال عادة الى موجات من الحنق والغيظ والغضب تبلغ من الشدة والعنف ان امرأته وحاشيتها يستبد بهن ذعر شديد وهلع رهيب ، فيحرقن شموعا لجميع القديسين ، ويقمن الصلوات والدعوات ، وينزع بعضهن من بعض اوراق اللعب ، ويمضين يبحثن عن النبوءات والفئول فى حبات الفول ، ويطفقن يوزعن الصدقات على السجناء دون آن يمنعهن ذلك من انتظار ساعة العصر بمزيد من الجزع والارتعاد والارتجاف ، حيث يستانف اللعب ، فاذا وقعت أية خطيئة ، أو حدثت أية غلطه ، ثارت ثائرة الجنرال عليهن صراخا وعويلا وشتما وسبا ، بل وضربا . كان الجنرال يفقد فى لحظات الانزعاج هذه كل قدرة على ضبط نفسه والتحكم بانفعاله ، فهو يرغى ويزبد ، ويصرخ كما يصرخ راع من رعاة البقر ، ويجدف كما يجدف حوذى ؛ وهو فى بعض الاحيان يمزق ورق اللعب ارباً ويرميه على الأرض غاضبا ، ثم يطرد جلساءه وهو يبكى من شدة الحنق والغيظ ، لا لشىء الا لأن ورقة «فاليه» قد جاءت بدلا من ورقة « تسعة » . وقد ضعف بصره آخر الأمر ، فأصبح لا بد له من قارىء يقرأ له . وفى ذلك الحين انما ظهر فوما فومتش أوبسكين* .

أعترف بأننى أقدم الآن هذه الشخصية الجديدة بشىء من الاحتفال والاجلال ، ولكن لهذه الشخصية فى قصتى دورا هو فى المقام الاول بين

أدوار سائر الشخصيات ، ما في ذلك ريب • ولا داعي لأن أشرح للقارىء لماذا يستحق صاحبنا هذا كثيرا من الاهتمام والانتباه • ولعل القصد يملي عليّ أن أدع للقارىء أن يحل بنفسه هذه المشكلة وأن يجيب عن هـذا السؤال •

لقد دخل فوما فومتش منزل الجنرال كراخوتكين طفيلياً لا أكثر ولا أقل ••• من أين خرج ؟ ان حجابا كثيفا ما يزال يحيط بأصوله حتى الآن • وقد حاولت مع ذلك أن أجمع بعض المعلومات عن ماضي هـذا الانسان الطريف العجيب ، فقيل لي انه كان موظفا خلال بضع سـنين ، وانه قاسى بعض العذاب في سبيل « الفكرة » في مكان ما ؛ وقيل لي أيضا انه جرب « الأدب » في موسكو ، وليس في هذا ما يدعو الى الدهشة أو العجب • فان الجهل المطبق لدى فوما فومتش لا يمكن أبدا أن يكون آفة تبعد صاحبها عن هذه الحرفة • والشيء المحقق على كل حال أنه بانحدار بعد انحدار ، قد سقط أخيرا قرب الجنرال قارئا وضحية • ويمكن القول انه دفع غاليا ثمن الخبز الذي مُنّ به عليه ، فما من نوع من أنواع الاذلال قد أعفي منه • ومع ذلك فان فوما فومتش الذي أصبح بعد ذلك ، أي بعد موت الجنرال ، شخصا خطير الشان رفيع المنزله ، قد صرح لنا غير مرة أنه ان ارتضى أن يقوم بدور المهرج ، فلقد كان ذلك منه سماحة وكرما وجودا ، وكان تضحية في سبيل الصداقة : فان الجنرال ، راعيه وحاميه ، وهو الرجل العظيم والانسان الكبير الذي لم يفهمه الناس ولا قدروه حق قدره ، كان لا يسر الا اليه ، هو فوما ، بأخفى ما في فكره من آراء ؛ فاذا اتفق للمرحوم اذن في يوم من الأيام أن يجد بعض المتعة في أن يرى فوما فومتش يقلد بعض الحيوانات ، أو اذا طلب من فوما فومتش أن يمثل له بعض المناظر الحية ، فلقد كان من واجب فوما فومتش أن يلبي رغبة الصديق الكسيح المحزون • غير أن دعاوى فوما فومتش هذه يجب أن

يُنظر اليها في حذر وارتياب . ومهما يكن من أمر ، فلا نكران أنه اذا كان يمثل قرب الجنرال دور المهرج ، فلقد كان لدوره في جناح السيدات مظهر آخر مختلف عن ذلك المظهر كل الاختلاف . فكيف استطاع أن يصل الى ذلك ؟ رب غر يصعب عليه أن يفهم هذا الأمر . ولكن الحقيقة هي أن الجنرالة قد محضته احتراما كبيرا وتبجيلا عظيما واجلالا يشبه أن يكون صوفيا ، لأسباب مجهولة على كل حال. فبفضل ذلك انما استطاع أن يكون له على عنصر النساء في المنزل ، شيئا بعد شيء ، نفوذ يشبه النفوذ الذي يمارسه أشخاص مثل ايفان ياكوفلفتش * وغيره من الرجال المتنبئين الملهمين ، على النساء التافهات السخيفات الثرثارات ، المعجبات بهم ، اللواتي لا يمنعهن شيء عن زيارتهم في غياهب أكواخهم الصغيرة المظلمة . كان فوما فومتش يقص على هاته السيدات حياته ومغامراته ، ويقرأ لهن كتبا أخلاقية ، ويشرح لهن ببلاغة تخضّلها الدموع مختلف فضائل المسيحية ، ويصحبهن الى الكنيسة حتى لصلاة الفجر . وكان في بعض الاحيان يتنبأ لهن بالمستقبل ، ولكن الشيء الذي كان يناسبه أكثر من أي شيء آخر انما هو تفسير الأحلام واغتياب الاقران بالقول الهاجر والنميمة السيئة . وقد حزر الجنرال نوع الحياة التي كان فوما فومتش يعيشها في الجناح الخلفي ، فكان ذلك يرغبه مزيدا من الترغيب في تعذيب صاحبه واضطهاده . غير أن العذاب الذي كان يلقاه فوما فومتش لدى الجنرال قد رفع شأنه وسما بقدره لدى الجنرالة وحاشيتها .

لقد تغير وجه الأمور اذن آخر الأمر ، حين فاضت روح الجنرال وذهبت الى بارئها ... على نحو غريب في الواقع . ذلك أن هذا المتحلل، هذا الملحد ، قد استبد به أثناء الاحتضار ذعر شديد وانتابه هلع رهيب لا يصدق ، فأخذ ينتحب باكيا ، ويعترف بأخطائه ، ويطلب كاهنا في اثر كاهن ، وصورة مقدسة في اثر صورة مقدسة ، فأُمر له بذلك كله ،

ودعيت له الدعوات ، وأقيمت من أجله الصلوات . وظل المسكين يعول ويصيح قائلا انه لا يريد أن يمـوت . حتى أنه فى لحظـة من اللحظات استغفر فوما فومتش فائض العينين دموعا ، وذلك أمر عرف فوما فومتش كيف يستغله بعد ذلك أحسن استغلال . ومع ذلك ، اليكم ما حدث لحظة ودعت روح الجنرال رفاته : ان عمتى براسكوفى ايلنتشنا ، بنت الجنرالة من زواجها الأول ، لم تكن قد تزوجت ، وكانت تعيش فى منزل الجنرال، فكانت منذ أصبح الجنرال مقعدا من عشر سنين ضحية من ضحاياه الأثيرة لديه، تتحمل فظاظته وتتقبل غلاظته... فكان زوج أمها لايستطيعالاستغناء عنها ، فهى الوحيدة التى استطاعت بالصبر والاخلاص والتفانى أن تنال رضاه وأن تنعم بحظوته . فلما كان الجنرال يحتضر اقتربت من السرير المنفوش وأرادت أن ترتب وسادة تحت رأس المحتضر ، فما كان من هذا المحتضر الا أن أمسكها من شعرها ، واستطاع أن يشدها من ضفائرها ثلاث مرات متتاليات وهو يكاد يزبد غيظا وحنقا ومات بعـد عشرة دقائق . وسرعان ما أعلنت الجنرالة أنها ترفض أن ترى الكولونيل وأنها تؤثر أن تموت على أن تقبله فى حضرتها فى لحظة كهذه اللحظة. ورغم ذلك أبلغ الكولونيل النبأ . واحتفـل بتشييع الجنازة احتفـالا مهيبا فخما ، وكان الكولونيل ، هذا الابن الذى لا يستحق أن يظهر أمام عينى أمه ، هـو الذى دفع نفقات الاحتفال بطبيعة الحال .

واليوم ، فى مدينة كنيازفكا ، الأرض المهجورة ، التى يملكها عدد من المالكين ، والتى يملك عمى منها مائة نفس ، ينتصب ضريح من المرمر الأبيض نقشت عليه كتابات فى مديح المتوفى ، تشيد بذكائه ، ومواهبه ، وعظمته ، ولا تغفل ذكر ألقابه ورتبته . ولم يهمل فوما فومتش أن يشارك مشاركة نشيطة فعالة فى عمل الكتابة هذا .

أما الجنرالة فكان لا بد من استرضائها زمنا طويلا قبل أن تغفـر

لابنها وأن تصفح عنه • وكانت لا تني تردد ، وهي محاطة بكلابها ونسوتها، منتحية متباكية ، أنها تؤثر أن تأكل خبزا يابسا « مغموسا بالدموع » ، وأن تمضي متكئة على عصا تستجدي تحت النوافذ وتستعطي أمام الأبواب ، على أن تستجيب لطلب ابنها العاق « العاصي » وانها ترفض رفضا قاطعا تلبيه رجائه في استضافتها بقرية ستيبانتشيكوفو •• لا •• انها لن تطأ بقدميها ذلك المنزل في يوم من الأيام • ان كلمة القدمين ، حين تستعمل بهذا المعنى ، هي من الكلمات التي تستمد منها بعض السيدات تأثيرا مذهلا• ولقد كانت الجنرالة تحسن استعمال هذه الكلمة بفن متقن لا يضارع •• والخلاصة أن البلاغة كانت تتدفق سيلا عارما ، وأن الفصاحة كانت تنبع ثرة لا ينضب لهـا معين •• ولكن ، رغم ذلك الصراخ كله ، رغم ذلك العياط والشيـاط والزياط •• كانت استعدادات الرحيل تجري في مجراها ••

وظل الكولونيل ، خلال خمسة عشر يوما ، يقطع الأربعين فرسخا التي تفصل بين أراضيه والمدينة ، يقطعها كل يوم تقريبا ؟ ولم يتلق الاذن بالظهور أمام عيني أمه الحانقة ، آخر الأمر ، الا وكانت جميع خيوله قد أضناها التعب حتى أصبحت عاجزة عن المسير • وكان فوما فومتش قـد تولى أمر المفاوضات ، فكان خلال هذه الفترة لا ينفك يرهق الابن العاصي باللوم والتقريع على سلوكه « الوحشي » ، فبلغ من اخجاله أنه أجرى دموعه سخينة سخية ، وأنه هوى به الى قاع الحـزن والكرب والكمد واليأس • والى هـذا العهد انما يرجع على وجه الدقة التـأثير الطاغي والسلطان المستبد والتسلط الساحق الذي أصبح لفوما فومتش على عمي• لقد فهم فوما فومتش نوع الناس الذي ينتمي اليه عمي ، وسرعان ما أدرك أن دور المهرج الذي كان يقـوم به قد انتهى ، وسرعان ما قال لنفسه :

العوران فى مملكة العميان ملوك • فها هو ذا الآن يثأر لنفسه •• أيما ثأر ! •••

كان يقول للكولونيل :

ـ لسوف تحرز نصرا كبيرا •• اذا مضت أمك ، أمك التى جاءت بك الى الحياة ، اذا مضت تطلب الصـــدقات ، متوكئة على عصـا بيديها المرتعشتين وقد أيبسهما الجوع ! ياله من أمر فظيع ! أولا بسبب الرتبة العالية التى تحملها ، رتبة الجنراله ، وثانيا بسبب مزاياها النادرة وفضائلها المثلى ! ما عسى تشعر به أنت عنـدئذ من خجل وعار يوم تجىء الى بابك (خطأً بطبيعة الحال ، ولكن ذلك يمكن أن يقع !) تطلب الصدقة بينما تكون أنت ، أيها الابن العـاق السىء ، بينما تكون انت ، ربمـا فى تلك اللحظه نفسها ، متقلبا على الرياش الوثيرة ، متنعما بالغنى الفاحش والثراء الطائل ! يا للفظاعه ! يا للفظاعة ! على أن أفظع ما فى الأمر ـ اسمح لى أن أقول لك هذا صريحا بلا لف ولا دوران ، أيها الكولونيل ـ هو أننى أراك متسمرا هنا ، أمامى ، كأرومة شجرة ، فاغر الفم ، طارف العينين•• ألا ان هذا ليوشك أن يكون نوعا من قلة الحياء •• لقد كان عليك ، من مجرد تصور ما قد يقع ، أن تشد شعر رأسك حتى تنتزع آخر شعرة فيه، وأن تذرف أنهارا من دموع •• ماذا أقول ؟ بل سيولا بل بحيرات بل بحارا بل محيطات من دموع ! ••

الخلاصة أن فوما فومتش قد بلغ من فرط الغضب والحميا أنه فقد تسلسل كلامه •• غير أن هذا كان هو الخاتمة المألوفة لفصاحته وبلاغته• وكما تقدرون فان الجنرالة قد انتهت الى تشريف ستيبانشيكوفو بحضورها ترافقها نسوتها وكلابها وفوما فومتش ومدموازيل بيريلســتين ، نجيتهـا ومستودع سرها ••• وكانت السيدة الطيبة تقول انها انما تريد أن تمتحن

ابنها ، وأن تعرف ما يضمره لها من احترام ، وما سيظهره لها من تعظيم وتبجيل !

ولعل القارىء يتصور كيف كان وضع الكولونيل أثناء هذه التجربة! يجب أن نذكر أولا أن ترمل الجنرالة حديثا كان يحملها على أن تستحضر ذكرى الفقيد الغالى العزيز مرتين أو ثلاث مرات فى الأسبوع ، وأن تطلق العنان لحزنها الشديد وكربها الرهيب • وكانت فى تلك اللحظات تصب هجومها على الكولونيل بدون سبب ظاهر ••• حتى لقد كانت فى بعض الأحيان تُجلس قربهـا حفيـدها اليوشا وحفيـدتها ساشا ، فتغمر الطفلين البائسين بنظرة مؤثرة ، وترثى لحالهما ، وتأسف على أن يكون أبوهما أبا كهذا الأب ، وتأخذ تطلق من صدرها تنهدات وآهات تفطر القلوب ، وتأخذ تذرف صامتة ، خلال ساعة طويلة أو تزيد ، دموعا عجيبة غريبة•• وويل للكولونيل اذا هو لم يستطع أن يفهم هذه الدموع •• والحق أن هذا الرجل الساذج لم يستطع ذلك فى يوم من الأيام •• كان يصل دائما فى اللحظة المحتومة فيشهد هـــذا المنظر ، ويخضع لامتحان الأم شاء أم أبى •• واذ أن الاحترام الذى يكنه الابن لأمه والتعظيم الذى يظهره لها قد ازدادا من ذلك ولم ينقصا ، فقد أحست الجنرالة وأحس فوما فومتش أنهما فى منجى الى الأبد من الصاعقة التى ظلت تهمهم زمنا طويلا فـوق رأسيهما أثناء حياة الجنرال كراخوتكين • وكان يتفق للسيدة المحترمة أن تتهـــاوى على ديوان ، وأن تسقط منهـــارة متهالكة مغشيا عليها •• فياللحركة التى تقوم عندئذ فى المنزل ! •• كان الكولونيل اذا حدث شيء من ذلك يتلاشى ويأخذ يرتعش ويرتجف كورقة فى مهب الريح •

حتى اذا استردت الجنرالة شعورها وثابت الى وعيها طفقت تصيح مزبدة مرغية :

ـ أيها الابن الشقى الفاسد ، انك تحطمنى تحطيما ، انك تمــزق أحشائى تمزيقا •• آه •• أحشائى •• أحشائى !

فكان الكولونيل يسألها خجلا وجلا :

ـ ماذا فعلت حتى مزقت أحشاءك هذا التمزيق يا أماه ؟

فتجيب الأم بقولها :

ـ لقد مزق أحشائى تمــزيقا •• ثم هو يجــرؤ ان يحاول تبرئه نفسه ! يا للوحشيه ! يا للقسوة الرهيبة ! •• اننى أموت ! ••

حتى اذا طاش صواب الكولونيل تماما استردت الجنراله حبها للحياة بطبيعه الحال • فاذا التقى ابنها بعد نصف ساعة باحد ، امسكه من أحد ازرار سترته واخذ يشرح له :

ـ أنت تفهم يا عزيزى ! انها سيدة عظيمة •• انها جنراله •• ان لها قلبا من ذهب ، أمى الحبيبة هذه •• ولكن عاداتها ارهف والطف من أن تطيق احتمال انسان تقيل الذهن أخرق السلوك مثلى ! لقد غضــبت منى •• فلا شك أننى أسأت اذن اليها واذيت شعورها •• صحيح اننى لا أعرف بماذا أسأت اليها ولا بماذا آذيت شعورها •• ولكننى مخطىء ليس فى ذلك ريب ••

وفى مثل هذه الأحوال كانت مدموازيل بيربلستين ، وهى مخــلوقة صعبة المراس شرسة الطبع ، تجاوزت الكهولة ، وتضع على رأسها شعرا مستعارا ، ولها عينان نهمتان بغير حاجبين ، ولها شفتان أرق من خيط ، ولها يدان بيضاوان بياض الخيار ، أقول كانت مدموازيل بيربلستين ترى أن من واجبها فى مثل هذه الأحوال أن تزجى للكولونيــل المواعظ وأن تسدى اليه بالنصائح • كانت تقول له مثلا :

ـ هذا كله ناشىء عن قلة لباقتك يا سيد • انك تبلغ من الأثرة أن ذلك يحنق السيدة والدتك ويثير سخطها وحفيظتها •• انها لم تألف عادات كعاداتك •• انك تنسى أنها جنرالة ، على حين أنك أنت كولونيل فحسب •

وكان الكولونيل يشرح لسامعه قائلا :

ـ هي مدموازيل بيربلستين •• انها انسانة ممتازة •• لا تتردد عن القاء نفسها الى النار في سبيل أمي •• حقاً انها لآنسة محترمة فذة • اياك أن تظن أنها شخص « كيفما اتفق » ! ليس هذا بقليل •• ما قولك ؟

على أن هذا كله لم يكن الا ورودا • فان هذه الجنرالة التى كانت تعبث بابنها بهذه الوسائل الكثيرة الوافرة ، كانت ترتجف ارتجافاً وترتعد ارتعاداً أمام ذلك الشخص الذى كانت قبل ذلك حامية له وراعية • لقد سحرها فوما فومتش سحرا كاملا • انها لا تتنفس الا برئتيه ، ولا ترى الا بعينيه ، ولا تسمع الا باذنيه • ان واحدا من أقربائى الفتيان ، وهو ضابط متقاعد من سلاح الفرسان أيضا ما يزال شابا ولكنه أُثقل بالديون الى حد لا يتخيله الخيال فاضطر لهذا السبب أن يلجأ الى السكنى عند عمي زمنا ، لم يخف عنى ما وقع فى ذهنه ورسخ فى اعتقاده وثبت فى اقتناعه من أن ثمة علاقات آثمة كانت قائمة بين الجنرالة وبين فوما فومتش •

وسرعان ما رفضتُ هذا الظن مستاءً أشد الاستياء ، وسرعان ماعددته ظنا سيئا فظا غليظا ، بل وساذجا أيضا • لا •• لقد كان هنالك شيء غير هذا تماما ، كما سيستطيع القارىء أن يدرك ذلك وأن يراه حين سأشرح له طبع فوما فومتش على نحو ما أتيح لى أن أفهمه بعد ذلك •

تخيلوا انسانا هو بين الناس أتفههم وأهونهم شأنا وأضيقهم عقلا

وأسخفهم فكرا ، تخيلوا شخصا هو فى المجتمع من تلك النفايات الحقيرة الوضيعة التى لا تصلح لشىء ولا تنفع فى شىء ، شخصا هو من تلك النفوس الدنيئة التى لاتكفر أيه مزية من مزاياها ، وا أسفاه ، عن اعتدادها بنفسها اعتدادا سريع الحنق شديد التأذى، وعن اعتزازها بفضائلها اعتزازا هو الى المرض أقرب بل هو المرض نفسه • اننى أحرص على أن أنبه قرائى الى أن فوما فومتش هو الغرور المر متجسدا وهو الأثرة المفرطة واضحةً قويه ، وذلك كله من صفات أولئك الاشخاص •• التافهين تفاهة مطلقة •• الذين يفاقم الاخفاق بعد الاخفاق غرورهم ، ويشحذ الذل بعد الذل أثرتهم ، فاذا هم ينضحون سما زعافا من جميع مسامهم متى شهدوا أى نجاح يصيبه غيرهم ، ومتى رأوا اى نصر يحققه مخلوق على هذه الارض • ولا داعى الى ان اضيف ان هذا «متبّل» و « مبهر » لديهم بسرعة خارقة الى التاذى ، وقدرة عجيبة على الشك فى الناس وسوء الظن فى الآخرين • رب سائل يسالنى : من أين يمكن أن يأتى مثل هذا الزهو وكيف يمكن أن ينمو مثل هذا الصلف لدى أناس يبلغون هذا المبلغ من التفاهة ، وينزلون فى المجتمع نفسه منزلة وضيعة كان ينبغى أن تبصرهم هى نفسها بحقيقه أمرهم وأن تقنعهم بانهم ليسوا شيئا ؟ ••

كيف الجواب على هذا السؤال ؟ ألا يمكن أن يكون بين هؤلاء الأفراد استثناءات منهم بطلى الذى أتحدث عنه ؟ الحق أن الأمر كذلك تماما ، كما سيبرهن على هذا باقى القصة • ومع ذلك اسمحوا لى أن ألقى عليكم سؤالا : أأنتم واثقون من أن هؤلاء الناس الذين يظهرون مذعنين مسلمين بما كتب لهم ، والذين يبدو لكم أنهم راضون سعداء بأن يكونوا لكم مهرجين وأن يعيشوا عليكم عالة طفيليين ، وأن يقوموا أمامكم بدور المتملقين المتزلفين ، أأنتم واثقون أنهم قد تنازلوا عن كل غرور وودعوا كل أثرة ؟ هلا فكرتم قليلا فى أنواع الحسد والغيرة ، وضروب

الأقاويل والنمائم ، وألوان الاشاعات المخنوقة التى تتسلل من أركان بيوتكم ومن تحت موائدكم ؟

من ذا الذى يستطيع أن يؤكد أن الغرور والأثرة لدى بعض هؤلاء التعساء الحزانى الذين اتخذتموهم مهرجين يسرون عنكم ويضحكونكم، لا ينموان نموا كبيرا مفرطا بسبب هذا الصغار نفسه الذى فرض عليهم ، وبسبب هذا الخضوع نفسه الذى أكرهوا عليه ، وبسبب هـــذه الأنواع نفسها من المجاراة والمسايرة التى تنزل بهم الى درك الهوان ؟ من الذى يستطيع أن يؤكد أن غرورهم العجيب هذا ليس ناشئا هو نفسه عن أن كرامتهم قد أهانها وأفسدها فى الصميم ما قاسوه من بؤس وما غاصوا فيه من وحل ، وما عانوه من اضطهاد ، وعن أن هذه الكرامة لعلها قد تخربت وساءت منذ الطفولة من رؤية أهلهم الذين قاسوا هم أيضا ما قاسوه من عذاب مصير قاتم وقدر غاشم ؟

مهما يكن من أمر فان فوما فومتش ، كما سبق أن ألمعت الى ذلك ، هو استثناء من القاعدة العامة • وانه لاستثناء حقا • لقد تألم فوما فومتش من أنه لم يُعترف به أديباً •• وواضح أن الادب حين لا يعترف به الناس لأهله يمكن أن يهلك أشخاصا أمكر من فوما فومتش وأوسع منه حيلة • لا أدرى ! ولـكننى أميـل الى الظن أن فوما فومتش قد أصيب بخيبات كثيرة •• ولو قد انصرف الى غير الأدب فلعله كان سيحظى بأنواع من النجاح والنصر أكثر مما نال من أنواع الاهانة والتحقير وما هو شر من ذلك أيضا • ذلك منى ظن وتخمين لا أكثر • ومع هذا فان التحريات التى قمت بها قد أثبتت لى أن فوما فومتش ، أثناء اقامته بموسكو ، قد ألف حقا رواية شبيهة بالروايات التى كانت تفرّخ دستات دستات فى «الثلاثينات» ، مثل « انقاذ موسكو » ، « الضابط عاصفة » ، « أبناء الحب أو الروس سـنة ١١٠٤ » ، الى ما هنالك من انتاج من هذا القبيل كان يشحذ أيامئذ قريحة

البارون برامبيثوس * • وقد حدث هـــذا منذ زمان بعيد • ولكن أفعى الغرور الأدبى تلدغ فى بعض الأحيان لدغات تبلغ من العمق أنها لا شفاء لها ولا برء منها ، ولا سيما لدى الحمقى الأغبياء • فلما تحطم فوما فومتش منذ خطوته الأولى لحق الى الأبد بذلك الجحفل من المدمَّرين الذين يخرج منهم هذا العدد الكبير من المختلِّين والعاطلين والشاذين • واحسب ان هذا التبجح وهذا الادعاء وهذا الظمأ الى سماع المديح والثناء والاحترام، وهذه الحاجة الملحة الى التبجيل والتعظيم والتفـــرد ، أحسب أن هـــذا كله انما يرجع عهده لدى فوما فومتش الى ذلك الأوان • فحتى أثناء ترديه الى دور المهرج عرف كيف يجمع حوله حلقة من البلهاء تعجب به • لقـد كانت رسالته الحقيقية هى أن يحتل المكان الأول فى مكان ما ، أيا كان هذا المكان ، وأن ينزل فى المنزلة الأولى بطريقة من الطرق ، أية كانت هذه الطريقة ، فها هو ذا يصعر وجهه ، ويمدح نفسه ، ويتنبأ بالمستقبل، الخ الخ ••• فاذا لم يتملقه أحد ، تملق نفسه بنفسه ••• واذا لم يثن عليه أحد أثنى على نفسه بنفسه ••• حتى لقد سمعته يقول ذات يوم ، بينما كان معززا مكرما فى ستيبانتشيكوفو ، وبينما هو فى منزل عمى سيد المنزل ونبيه ، سمعته يقول فى أبهة تفيض سرا : أنا لم أخلق لأمكث هنا ! لا ••• لن أبقى هنا الى الأبد •• فبعد أن أدبتكم وعلمتكم دينكم وهذبتكم على ما يجب أن يكون التأديب والتعليم والتهذيب ، سأودعكم ، ثم أمضى الى موسكو أنشىء مجلة ، فيشتهر اسمى أخيرا ويطير صيتى ••• وويل عندئذ لأعدائى ! » •

ولكن هذه العبقرية التى تقـــدر المجد كانت تتطلب بانتظار ذلك مكافأة مباشرة • لا شىء أمتع فى القلب ولا أجمل وقعا فى النفس من أن يكافأ المرء مقدما ، ولا سيما فى مثل هذه الحالة • سمعته يروى لعمى ذات يوم فى جد هادىء ووقار كامل الخزعبلة التالية ، قال : انه ، هو فوما ،

انما خلق في هذا العالم لهدف واحد هو أن يحقق رسالة عظيمة ؛ وان ملاكا مجنحا كان يذكره بهذه الرسالة ويهيب به الى تحقيقها ، ليلة بعد ليلة ... وهذه الرساله هى أن يؤلف كتابا فى الاخـلاق يصنع بروسيا ما قد يصنعه بها زلزال . وعندئذ ، بعد حدوث هذا الانقلاب في روسيا ، سوف يحتقر ، هو فوما ، كل مجد ... ويمضى يدفن نفسه في غياهب اقبيه دير كييف الشهير ، ليصلى هنالك ليل نهار مبتهلا الى الرب ان يهب للوطن الرخاء والازدهار . وقد انطلت على عمى هذه الترهات ...

وأدع لكم أن تتصوروا الآن التغير الذى طرأ على فوما ، هذا الانسان الذى كان دائما محل الاستهزاء والاحتقار ، هذا الانسان الذى ظل الى ذلك الحين مهزوما مغلوبا وربما مضروبا ، أن تتصوروا التغير الذى طرأ على فوما الانانى الشهوانى المكبوت ، فوما الكاتب الردىء المجهول ، فوما المهرج الماجور ، فوما النفس الطاغية التى لم يردعها أى هوان أو صغار ، فوما المدعى المتبجح ، فوما الوقح ـ حين رأى نفسه على حين فجأة متوجا بالامجاد مدللا معظما من قبل سيدة حمقاء تحميه ومن قبل رجل طيب القلب سحر به فهو له حام وراع . ولقد كان هذا الحامى يقدم له مأوى مضمونا بعد جميع ما اضطر اليه من أنواع التنقل والترحل ! ... أحس بأننى مضطر هنا الى أن أصف لكم طبع عمى بمزيد من التفصيل ؛ والا لما أمكن أن يفهم أحد نجاح فوما فومتش في ستيبانتشيكوفو . على أن في الرجل ما يسوغ المثل القائل : « اذا دعى الخنزير الى العشاء وضع قدميه في الطبق » . لقد كان فوما يريد أن يتدارك ما فاته ! ان كل نفس حقيرة طال اضطهادها تحب أن تضطهد هى أيضا . ان فوما الذى تعذب يريد أن يعذّب غيره ... ان فوما الذى فرض عليه النير يريد أن يفرض النير على غيره . لقد سخروا منه واستهزأوا به وتهكموا عليه ، فهو يريد أن يفعل هذا كله هو نفسه . لقد أكرهوه على أن يكون أضحوكة ، فهو يريد أن

يجعل غيره أضحوكة ••• وهو ما ينفك يدعى ويتبجح ، وهو ما ينفك يبدى نزوات ورغبات لا سبيل الى ارضائها واشباعها ، وهو ما ينفك يستبد ويطغى فى كل لحظة من اللحظات ، والناس الذين لم يشهدوا ذلك كله يابون ان يصـــدقوا ما يقـال عن هذا الســـيل الجـارف من أنواع الشذوذ والخروج على المالوف ••• أو لا يرون فى ذلك كله الا فخا ينصبه « ابليس » ، لا يرون فيه الا أحبولة من أحابيل « الشيطان » فهم يرسمون باذرعهم اشارة الصليب ، ويبصقون جانبا حتى يتفادوا سوء الحظ ••

ولكن فلنعد الى عمى • فلا بد ان نعرف طبعه معرفة عميقة ، كمـا سبق أن قلت ، حتى نفهم كيف استطاع فوما فومتش أن يستبد به هــذا الاستبداد ، وحتى نفهم كيف استطاع أن يستحيل هذا المهرج الى شخصية كبيرة • ان عمى انسان طيب الى أبعد الحدود ، رفيق رقة لا نهاية لها ، مرهف رهافة قصوى ، نبيل نبلا كاملا تاما ، شجاع شجاعة تصمد لأى امتحان ، وان يكن ذلك كله مختبئا وراء قشرة خشنة بعض الخشونة • واننى لألح على صفة « الشجاعة » فى عمى ؛ ان عمى انسان لا يمكن أن يحول شيء بينه وبين القيام بواجب من الواجبات • وهو رغم أنه قد بلغ الأربعين ما يزال ينعم بنضارة هى نضارة طفل • انه بطبيعته منفتح النفس، مبسوط الطبع ، مرح مرحا شديدا ، مستعد دائما لأن يضع الخير حيث لا خير •• وأن يتصور الحسن حيث لا حسن •• انه يرى ملائكة فى كل مكان ، ويتهم نفسه بأخطاء غيره ، ويلصق بنفسه عيوب الآخـرين ، ويمتدح مزايا جميع الناس ، ويشيد بسجاياهم وشمائلهم •• انه قلب من تلك القلوب الكبيرة العفة التى يخجلها أن تفترض الشر فى أى انسان ، فهى تزين البشر بجميع الفضائل ، وتفرح لما يحققون من نجاح ، وتهلل لما يصيبون من تقدم ، وتعيش دائما فى عالم مثالى ، ولا تلوم أحدا غـير

نفسها على ما تلقاه فى هذه الحياة من ضروب الاخفاق •• وليس لها من رسالة الا أن تضحي بنفسها في سبيل الناس •

ومن أجل ذلك سوف يرى بعضهم في عمى انسانا رخو الطبع ، قليل التبصر ، ضعيف الهمة ، واهن العزيمة • صحيح أن عمى كان مسالما الى درجة الضعف ، ولكن ذلك ليس ناشئا عن خور فى الهمة أو وهن في العزيمة ، بل هو ناشيء عن خوفه من الاساءة الى شعور الناس وعن خشيته من الظهور بمظهر الجفوة والقسوة ، وعن احترامه البشر وحبه الانسانية • ثم ان وهن العزيمة لا يظهر عنده الا حين يكون عليه أن يدافع عن مصالحه الخاصة التي ظل يضحي بها طول حياته مشرق القلب مبتهج النفس ، رغم سخريات أولئك الذين يضحى فى سبيلهم تضحية مبرأة من كل منفعة منزهة عن كل غرض خالصة لوجه التضحية ••• والأمر الذي يبدو له غير محتمل هو أن يكون له أعداء ، ولقد كان له مع ذلك أعداء • وكان يخشى الضوضاء والصراخ أكثر مما يخشى النار ، فهو لذلك يقبل كل شيء ويوافق على كل شيء تحاشيا للمشاجرات وتجنبا للمخاصمات • كانت طيبته الحيية الخجول المرهفة تجعله خضوعا ، وتدفعه الى « ارضاء جميع الناس » ، كما كان يسرع الى الاعتراف بذلك قطعا لدابر كل اتهام له بالضعف •

ولا حاجة الى الالحاح على هذه الحقيقة : وهى أنه اذا كان قادرا على أن يتأثر بكل مؤثر نبيل ، فلقد كان يمكن أن يصبح ضحية أى ماكر خبيث ، وأن يستدرجه هذا الماكر الخبيث الى قضية مؤسفة ، متى زينها له بألوان عمل نبيل ••• فما أكثر ما ندم على أنه محض أحد الناس ثقة لم تعرف الحدود ! ومع ذلك فانه كلما كان عليه أن يعترف بأن صاحبه كان امرءا سيئا ، وكلما خُدع وغُرِّر به ، كان ينتهى من ذلك بعد صراعات أليمة الى أن يصب على نفسه ألوان الملامات • فتصوروا الآن

منزله الهادىء المسالم وقد استلمت زمامه على حين فجأة عجوز ذات نزوات، عجوز ارتدت الى الطفولة ، وتعلقت بأذيال أبله آخر ، عجوز لم تخش حتى ذلك الحين الا جنرالها ، واصبحت لا تخشى الآن أحدا ••• وهذه العجوز التى تريد أن تثأر لماضيها ، كان عمي يحسب أن من واجبه أن يعظمها ويبجلها ويقدسها تقديسا ، لأنها أمه • لقد زعموا للمسكين في أول الأمر أنه امرؤ فظ غليظ القلب ، ضعيف العاطفة ، سيء العادات ، أنانى الطبع الى درجة تثير الحنق ••• وكانت العجوز من الجنون بحيث تصدق صحة هذه المآخذ ، ويمينا لقد كان فوما فومتش يصدقها أيضا ولو بمقدار • ثم رسخوا في ذهن عمي بعد ذلك ان الله نفسه هو الذى أرسل اليه فوما ليلجم أهواءه وينقذ روحه : أفليس يميل ، وهو الرجل المتكبر المتباهي بثرائه ، الى أن يلوم فوما على أنه يعيله ويطعمه خبزا ؟ ولم يلبث عمي المسكين أن أدرك فداحة خطاياه ، فهو يشد شعره ندما واسفا وحسرة ولوعة ، وهو يتوسل الى فوما أن يغفر له وأن يعفو عنه •••

كان يقول لمن يريد أن يسمعه :

ـ هى خطيئتى ، هى خطيئتى الكبرى ! ان على المـــرء أن يضاعف مداراته لمن يحسن اليهم •• لا •• لا •• ليست كلمـة الاحســان هى الكلمة اللائقة هنا •• لقد زل لسانى مرة أخرى وأساء •• اننى لا أحسن الى فوما ، بل ان فوما هو الذى يحسن الىّ حين يرضى أن يعيش فى منزلى! لكأننى أعيب عليه أنه يأكل من خبزى •• ولكن لا •• اننى لا اعيب عليه هذا •• لقد أفلتت من لسانى كلمة نابية كما يقع لى ذلك أحيانا كثيرة •• ثم •• ماذا تريدون ؟ هذا انسان تألم كثيرا ، وضحى بنفسه •• لقد ظل عشر سـنين يتحمــل أســوأ أنواع الاذلال من صديقه المريض •• فهو يستحق أن يكافأ على ذلك • وانه لبحر من العلم ••• انه كاتب ياعزيزى •• انه أنبل البشر ، أؤكد لك •

كان عمي اذا تصور العالم المسكين وقد انصب عليه الجنرال الكسيح المسعور بسخرياته اللاذعة ، يتفطر قلبه شفقة ، وتمتلىء نفسه ألما واستياء، وكان يعزو جميع ما يظهر في سلوك فوما فومتش من أنواع الغرائب وضروب الشذوذ وصنوف الحدة ، كان يعزو ذلك كله الى ألوان العذاب والمذله التي قاساها • لقد قال عمي لنفسه منذ البداية ، يدفعه الى ذلك كرم نفسه وجود طبعه ، ان للشهيد على الناس من حقوق التسامح معه ما ليس للانسان العادي ، وان على الناس أن لا يغفروا له فحسب ، بل ان عليهم ان يحاولوا مواساته ، ومصالحته مع الانسانيه ، وتضميد جراحه باللطف والرفه والنعومة • حتى اذا فرض عمي على نفسه القيام بهذه المهمة ، النهب حماسة لها ، فاعمته هذه الحماسة ، فأصبح لا يمكن أن يخطر بباله ان صاحبه الجديد ليس في حقيقة أمره الا انسانا أنانيا ، شاذا ، كسلان ، شرها ، ثقيل الظل غبي العقل • كان عمي مؤمنا ايمانا أعمى بان فوما عالم وعبقري • نسيت ان اذكر لكم أن عمي كان يتحمس لكلمتي «العلم» و «الادب» حماسة شديدة ساذجة مخلصة على قدر حرمانه من الاخذ باي نصيب من العلم في يوم من الايام •

كان ذلك عيبا من عيوبه المميزة ، ولكنه عيب بريء على كل حال •

كان يقول أحيانا وهو يمشي على رءوس الأصابع في غرفة تفصلها عن مكتب فوما فومتش غرفتان أخريان :

ـ انه يؤلف كتابا •••

ثم يضيف قائلا باعتزاز وبلهجة سريعة :

ـ أنا لا أعرف ما هو الكتاب الذي يؤلفه يا عزيزي ، ولكن لا شك أنه سيكون من ذلك النوع نفسه ••• بالمعنى الحسن طبعا • هذه الأمور واضحة عندهم كماء الصخر ، أما عندنا نحن فليست الا كلاما غير مفهوم

•• على كل حال ، فان فوما يهتم فى هـــذا الكتاب بأشياء يسميها القوى الخلاقة ••• هو قال لى ذلك ••• لا شك أنه يتدخل فى السياسة ••• نعم ••• وسيحدث اسمه دويا كبيرا •• وسيذيع صيتنا نحن جميعا بسببه ، فتصبح لنا شهرة عظيمة •• لقد أكد لى ذلك مرارا ••

والامر الذى أعلمه عـــلم اليقين أن عمى قـد حلق لحيتى عارضيه الكستاويتين الجميلتين بأمر أصدره اليه فوما ، لأن هاتين اللحيتين كانتـا تضفيان عليه مظهر رجل فرنسى ، فعاب عليه فوما قلة وطنيته • وشـيئا فشيئا أخذ فوما يتدخل فى ادارة الأملاك • فكان يسدى بنصائح من شأنها أن تقلق المرء حقا • ولم يلبث الفلاحون أن أدركوا من هو هذا السـيد حقا ، وماذا يجرى فى ستيبانتشيكوفو • لذلك أصبحوا يحكون قدالهم متحيرين مرتبكين •• واعترف أننى فاجأت حديثا بين فوما وبينهم عن قصد منى وعلى عمـد •• ألم يكن قد صرح لنـا بأنه يجـد متعة كبيرة فى أن يتحدث مع « الموجيك » العاقل الحكيم ؟ كان فى تلك المرة قد ذهب يلحق بالفلاحين فى البيدر • فسمعته يحدثهم أول الأمر فى البذار والحصاد ، هو الذى لا يفرق بين الحنطة والشعير •• ثم سمعته يتطرق الى نظـرية الكهرباء ونظرية توزيع العمل ، دون أن يكون هو نفسه عالما بألفباء هذه الأمور طبعا •• وبعد ذلك شرح لمستمعيه كيف أن الأرض تدور حـول الشمس ، وبلغ من شـــدة الفرح بفصـاحته وبلاغته أنه أخذ يلمع الى وزرائنا • ولا عجب فى ذلك • ألم يحدثنا بوشكين عن ذلك الأب الشاب الذى كان ، فى سبيل أن يغرس فى نفس ابنه البالغ من العمر أربعة أعوام، فكرة رفيعة سامية عن علو شأنه، يردد على مسامع الطفل بجميع اللهجات : « أرأيت يا بنى ؟ ان أباك شخص نبيل فما من أحد الا وهو به معجب ، حتى الامبراطور • • » • لقد كان الأب الشاب فى حاجة الى مستمع فى

الرابعة من عمره ، كما كان فوما فومتش فى حاجة الى فلاحين يصغون الى كلامه طائعين أذلاء •

سأله عجوز قصير أشيب الشعر تقدم نحوه من بين الفلاحين على حين فجأة :

ـ قل لى يا مولانا : هل كان القيصر يدفع لك أجرا كبيرا ؟

ان السائل هو آرشيب الذى كان يطلق عليه لقب « القصير » ؛ لقد ظن آرشيب أنه بهذا السؤال يتملق فوما فومتش • ولكن فوما فومتش الذى يكره رفع الكلفة وجد فى هذا السؤال اسرافا فى رفع الكلفة ••• فما كان منه الا أن أجابه وهو ينظر اليه نظرة شزراء فيها كثير من الاحتقار :

ـ هذا أمر لا يعنيك أيها الغبى ! ••• أبعد رأسك قليلا اذا أردت أن لا أبصق عليه !••

بهذه اللهجة انما كان فوما فومتش يحب أن يتباسط فى الحديث مع « الموجيك الروسى العاقل الحكيم » ! ••

قال فلاح آخر مزاودا :

ـ ماحيلتنا يا مولانا المحسن الينا المنعم علينا ؟ ••• نحن أناس لانفهم شيئا البتة • وليس فى وسعنا أن نعرف هل أنت ميجر أو كولونيل أو صاحب سعادة حتى نخاطبك بلقبك !

فأجابه فوما فومتش ، ولكن بلهجة ملطفة :

ـ الأجور أنواع يا مذهول•• هناك أناس هم جنرالات ولا يتقاضون قرشا واحدا : ان القيصر ليس مضطرا أن يدفع شيئا لمن لا يعملون شيئا• أما أنا فشأنى شأن آخر : فحين كنت أعمل فى الوزارة كان راتبى عشرين

ألف روبل فى السنة ، ولكننى لم أكن أقبض شيئا ، وانمــا كنت أخدم الدولة للشرف والمجد وحدهما ، لأن ثروتى الشخصية كانت تكفينى • وكل ما جنيته قد تبرعت به لوزارة التعليم العام ، ولضــحايا حــريق قازان * •

هتف فلاح يقول مشدوها :

ـ أوه ! أوه ! آأنت اذن من أعاد بناء قازان ؟

لقد كان فوما فومتش ينعم بموهبة اذهال أهــل الريف • فأجاب يقول ممتعضا بعض الامتعاض ، كانه ياسف على أنه تورط فى الحديث مع شخص « كهذا الشخص » :

ـ نعم •• فعلت ما استطعت أن أفعل •

كذلك كانت تجرى الاحاديث بينه وبين الفلاحين •

أما مع عمى فكانت الآحاديث تجرى مجرى آخر •

كان فوما يقول مثلا ، وهو جالس على مقعد مريح بعد وجبة دسمة:

ـ هيه •• قل لى •• ماذا كنت أنت قبل الآن ؟

ثم يكرر سؤاله قائلا بينما يكون أحد الخدم واقفا وراءه يدرأ عنه الذباب بغصن من أغصان شجر الزيتون :

ـ ماذا كنت تشبه ؟ اننى أنا الذى ألقيت فى نفسك شرارة من النار السماوية • ولا شك أنها الآن تشتعل • قل لى : أأنا الذى ألقيت فى نفسك شرارة من النار المقدسة أم لا ؟ أجبنى : أهذا صحيح أم غير صحيح ؟

والحق أن فوما فومتش لم يكن يعــرف هو نفسه لماذا يلقى هذا السؤال • ولكن الصمت الذى يلوذ به عمى ، والارتباك الذى يعتريه ، كانا يلهبان حنق فوما على الفور • ان فوما الذى كان فى الماضى يقاسى

ما يقاسي ، ويذعن لما يذعن له ، ويتحمل ما يتحمل ، يستشيط الآن غيظا لدى أيسر معارضة •• حتى لكأن صمت عمى اهانة له •• فلا بد له من جواب مهما كلف الأمر •

ـ لمـــاذا لا تجيب ؟ هلا قلت أخـيرا ؟ ألشرارة تشتعل فيك الآن أم لا ؟

فكان عمى يعض شفتيه مرتبكا أشد الارتباك ، مرتجا عليه الى أقصى الحدود ، لا يجد ما يجيب به على سؤال فوما •

ـ اسمح لى أن أنبهك الى أننى أنتظر جوابا •••

كذلك كان فوما يلح بلهجة مرة • فتتدخل الجنرالة قائلة وهى ترفع كتفيها استغرابا :

ـ مالك لا تجيب يا ياجور !

فيعود فوما يكرر سؤاله بلهجة فيها شىء من التلطف :

ـ أنا أسالك هل الشرارة تشتعل فيك الان أم لا !

يقول فوما ذلك ويتناول قطعة حلوى من الطبق الذى وضع قريبا منه بأمر الجنرالة •

وأخيرا تتساقط من فم عمى بضع كلمات ، وهو ينظر الى فوما نظرة يائسة :

ـ أنا لا أعرف شيئا •• ومن الجائز جدا أن يكون ما تقوله صحيحا •• ولكن لا تسألنى ، فمن الممكن أن أقول حماقات ••

ـ عظيم ! فى رأيك اذن أننى أصغر شأنا وأتفه قيمة من أن تحمـّل نفسك عناء الاجابة على أسئلتى ••• طيب ! •• لنسلم بأن الأمر كذلك•• لنفرض أننى رجل غبى ••

ـ ماذا دهاك يا فوما ! أنا لم أقل شيئا من هذا !

ـ بلى ! ذلك بعينه ما أردت أن تقوله •

ـأحلف لك أننى لم أرد أن أقول ذلك !

ـ طيب ••• لنفرض أننى كاذب ، لنفرض أننى أسعى الى مشاجرة ••• ما قيمة اهانة ، زيادة ً أو نقصانا ؟ أنا مستعد لتحمل كل شئ ••

فتقول الجنرالة مصعوقة :

ـ ولكن يا ابنى ••

فيهتف عمى قائلا بلهجة يائسة :

ـ ما هذا يا فوما ! ما هذا يا أمى ! أحلف لكما بأغلظ الأيان اننى ما فكرت فى سوء ولا خطر ببالى شر •• لا شك أن لسانى هو الذى زل •• لا تقم وزنا لما أقول يا فوما •• فأنت تعلم أننى بهيمة ، وأن فى عقلى نقصا ••

ثم يتابع عمى قوله وهو يحرك يده باشارة العجز :

ـ نعم نعم يا فوما •• أنا أعرف ذلك ، فلا تلح •• لقد ظللت خلال أربعين عاما ، أى الى أن عرفتك ، ظللت أظن أننى رجل •• نعم •• رجل لائق •• فلم أكن أدرى أننى انسان خاطئ كريه ، وأننى حيوان مقيت ، وأننى أنانى لا يلجم أنانيته شئ ، وأن الارض ، وأنا ما أنا عليه من ثقل هذا الشر كله وهذا السوء كله ، تجد مشقة كبيرة فى حملى على ظهرها•

فيقول فوما فومتش مؤيدا كلام عمى ، راضيا عن نفسه مزهوا بها :

ـ أما أنك أنانى فنعم ••

ـ نعم نعم •• أنا نفسي موقن بهذا الآن •• ولكن صبرا •• سأحاول أن أصلح عيوبي ، فأصير الى حال أفضل ••

ـ سمع الله لك ••

كذلك كان يقول فوما فومتش وهو يزفر زفرة تقي ، وينهض عن مقعده ليمضي الى قيلولته •• ذلك أن فوما فومتش كان ينام قليلا بعد كل طعام •

وختاما لهذا الفصل ، أستأذنكم في أن أشرح لكم العلاقات التي كانت قائمة بيني وبين عمي ، وأن أذكر السبب الذي جعلني فجأة أمام فوما فومتش ، ثم جرفني في اعصار أكبر الأحداث التي وقعت في قرية ستيبانتشيكوفو الوادعة السعيدة • فمتى انتهيت من ختام مقدمتي هذه شرعت أسرد قصتي •

لقد كنت صغيرا جدا حين مات عني أبواي ، فضمني عمي اليه ، وكان لي بمثابة أب بل أكثر ، لأنه صنع لي ما لا يصنعه الآباء لأبنائهم دائما • وقد تعلقت به تعلقا قويا منذ اليوم الذي ضمني فيه اليه • كنت يومئذ في العاشرة من عمري ، ولكن ذلك لم يمنعنا من أن نتفاهم خير تفاهم • كنا نلعب معا بالخذروف • ومعا اختلسنا في ذات مرة قبعة امرأة عجوز من قريباتنا ، هي سيدة سريعة الاهتياج شديدة الانفعال ، فسرعان ما ربطت القبعة بذيل طائرة من الورق أطلقتها في الفضاء• وبعد ذلك بسنين عدة رأيت عمي من جديد في بطرسبرج حيث كنت أتم دراستي بفضل أعطياته • وقد فتحت له نفسي في تلك المرة بكل حماسة الشباب ، وسحرني منه ، كما يمكن أن يسحر هذا كلّ انسان، ما كان يعمر قلبه من مزيج من النبل والرفعة ، والرقة والنعومة ، والصراحة والوضوح ، والمرح والفرح، والسذاجة والبراءة • فلما تخرجت من الجامعة لبثت في العاصمة عاطلا

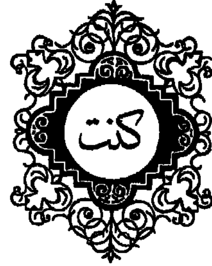
عن العمل ، معتقدا كما يعتقد كثير من الأغرار أنني مدعو فيها الى تحقيق أمور عظيمة ... فلم أكن أحب أن أبارحها . وكنت لا أكتب لعمي الا رسائل قليلة نادرة ، وذلك من أجل أن أطلب اليه ارسال المساعدات التي كان لا يضن علي بها في يوم من الايام . وفي أثناء ذلك حضر أحد خدمه الى بطرسبرج لبعض الاعمال ، فاسمعني أن أمورا غريبه تقع في ستيبانتشيكوفو ، فدهشت وتحيرت ، واصبحت اكتب الى عمي مزيدا من الرسائل . فكان عمي يجيب على رسائلي برسائل متحفظه لا تذكر شيئا مما ينبغي ذكره ، ولا تتحدث (كأنما عن قصد وعمد) الا عن دراستي وعما يتوقعه لي من نجاح يعتز به منذ الآن . وفجأة ، بعد صمت طويل ، تلقيت منه رسالة خارقة لا صله لها بما سبقها من رسائل ، فهي تبلغ من امتلائها باشارات غريبة وتلميحات عجيبة وتناقضات صارخة أنني لم أفهم منها في أول الأمر شيئا . فلا شك أن الذي كتب هذه الرسالة كان يعاني حالة قصوى من الانفعال الشديد . ثمة أمر واحد كان واضحا في تلك الرسالة هو أن عمي يطلب مني ، بل يرجوني ، بل يتوسل اليَّ أن أتزوج، بأقصى سرعة ، فتاة كان عمي قد احتضنها ورباها ، وهي ابنة موظف بسيط جدا من موظفي الارياف اسمه ياجفكين ، ثم أصبحت الآن معلمه لاولاده بعد ان علمها على نفقته في مدرسة داخلية ممتازة بموسكو . لقد كتب عمي يقول ان هناك ما يجعل الفتاة تشكو حظها العاثر وقدرها الغاشم ، وانها ستكون مدينة لي بالسعادة اذا أنا تزوجتها ، وانهذا سيكون مني عملا نبيلا وفعلا كريما . وهو يهيب بسمو قلبي ورفعة نفسي ان ألبي رجاءه ، ويعد بأن يقدم للفتاة بائنة ؛ على أنه فيما يتعلق بهذه النقطة الأخيرة لم يفصح افصاحا كافيا ، وختم رسالته بأن ناشدني أن يبقى هذا الأمر كله سرا مكتوما لا يعلم به أحد . لقد جعلتني هذه الرسالة في حالة من الاضطراب كدت أفقد معها صوابي . أي شاب وصل الى خاتمة

المطاف من دراسته ، كما كنت أنا في تلك اللحظة ، يمكن أن لا يغريه عرض كهذا العــرض ، أو أن لا يغريه الجـانب الروائي منه في أقل تقدير ؟ ثم انني كنت قد سمعت أن هذه المعلمة الصغيرة كانت فتاة آخاذة. ومعُ ذلك ما كان لي أن أعــزم أمري على أي شيء • فاقتصرت على ان أبلغت عمي أنني واصل قريبا • وكان قد ضمن الرسالة نفقات الرحله على كل حال • غير أن ترددي بل وخوفي قد احتلا مكانا كبيرا فتأخرت عن السفر ثلاثة أسابيع • وفجأة جعلتني مصادفة من المصادفات ألتقي برفيق قديم من رفاق عمي في الفرقة العسكرية التي كان يعمل فيها ، وهو رجل مسن قليلا ، عاقل جدا ، عازب قوي الشكيمة صلب العود • كان الرجل عائدا من رحلة بالقفقاس الى بطرسبرج، فتوقف أثناء عودته في ستيبانتشيكوفو • فحدثني عن فوما فومتش مستاء ، وأطلعني على ظرف كنت ما أزال أجهله جهلا تاما : لقد قرر فوما فومتش والجنرالة أن يزوجا عمي بعانس غريبه الأطوار ، تشبه أن تكون مجنونة ، عاشت حياة خارقة شاذة ، ولكنهـا تملك بائنة قدرها خمســمائة ألف روبل تقـريبا • وكانت الجنرالة قد استطاعت أن تقنع هذه الانسانه الغـــريبه بأنهما قريبتان ، واستطاعت أن تسكنها من الأسرة في مكان القلب ، فأغلب الظن أن عمي سيتزوج نصف المليون ••• هذا الى أن الرأسين القويين في المنزل وهما الجنرالة وفوما فومتش ، قد شنا حملة اضطهاد منظمة على المعلمة المسكينة العزلاء ، وهما يحاولان بجميع الوسائل والاساليب أن يحملاها على النزوح عن المكان ، تفاديا لوقوع عمي في حبها ، أو ربما لأنه يحبها •• فجأتني هذه الفكرة الأخيرة وأذهلتني الى أبعد الحدود • ولكنني رغم الحاحي على أن أعرف هل كان عمي يحب الفتاة حقا لم أستطع أن أنتزع من الرجل جوابا على هــذه السؤال ، اما لأنه لا يعرف هــذا الجواب ، واما لأنه لا يريد أن يعطيه • وكان يبدو عليه أنه يكره أن يفضي الىَّ بهذه القضية كلها وأن

يمدني بمزيد من التفاصـــيل • وكانت هذه الأنباء تبلغ من التناقض مع ما تضمنته رساله عمي من عروض ان حيرتي قد ازدادت وان بلبلتي قد تضاعفت • ولم يبق ثمة دقيقة أضيعها سدى ، فأسرعت أسافر • لقـــد قررت أن أشد ازر عمي وان أقوى عزيمته ، وأن أنقذه اذا أمكن انقاذه، أى آن أطرد فوما فومتش الذى دبر مؤامرة هذا الزواج الكريه بعـاس مجنونة • ولاقتناعي أخيرا بكذب ما يزعمونه من أن عمي يحب المعلمـة العاثرة الحظ ، ولشعورى بأنها فتاة تستحق الاهتمام ، قررت أن أخطبها، الح الخ ••• وقد بلغت من اطلاق العنان لخيالى أنني سرعان ما قفزت من النقيض الى النقيض ، يساعدنى في ذلك ما يعوزنى من خبرة وما أنا فيه من فراغ ، فاذا بحيرتي تزول زوالا تاما ، لتحل محلها الحماسة الشديدة والشوق المحرق الى القيام بأعمال نبيلة ، حتى رأيتني في صورة بطل عظيم يضحي بنفسه تضحية سامية في سبيل اسعاد مخلوقة ملائكية جميلة رقيقة عذبه • والخلاصة أنني كنت طوال الرحلة راضيا عن شخصي المتواضع بل معجبا به مزهوا • كان ذلك في شهر حزيران (يونيه) في ابان شمس مضيئة جميله ، بين حقول القمح الناضجه الممتدة على مدى البصر • وكنت قد بلغت من طول الانحباس في بطرسبرج أن تصـــورتني أرى الطبيعة الرائعة على حقيقتها لأول مرة •

٢

السيد باختشايف



كنت أقترب من خاتمة رحلتي . فلما صرت بمدينة «ب» الصغيرة التي لا تبعد عن ستيبانتشيكوفو الا عشر فراسخ ، اضطررت أن أوقف عربتي عند حداد على مسافة خطوتين من السور لأعيد تطريق السوار الذي كان قد أفلت من احدى عجلتي عربتي الأماميتين . ولم أكن في حاجة ، من أجل الفراسخ العشرة الباقية ، الا الى اصـــلاح بسيط ، فقررت أن أقف عند الحداد أنتظر أن يفرغ من هـــذا الاصلاح . فما كدت أثب عن عربتي حتى لمحت سيدا سميناً واقفا هنالك لأسباب من هذا النوع . كان الرجل قـد قضى في الشمس ساعة بكاملها ، فهـــو حانق غاضب ، يصرخ ويشتم ، مستحثا العمال الذين كانوا منهمكين حول عربته الجميلة جدا . ان هذا السيد الساخط الهائج قد أشعرني منذ النظرة الأولى بأنه انسان شرس.هو رجل مربوع القامة، شديد السمنة ، مجدور الوجه، لعله في الخامسة والاربعين من عمره . وكانت بدانته الشديدة ، وخداه المتهدلان ، وذقنه المـــزدوجة ، كان ذلك كله ينبىء بأنه يعيش الحيـاة الرخية العاطلة التي يعيشها سيد من الريف . والأمر الذي كان يخطف البصر خاصةً في منظره هو أن فيه شيئا من أنوثة لاأدرى ماهو ! وكان يبدو مرتاحا في ردائه العريض الفضفاض المحتشم ، ولكن الرداء كان من الزى القديم ...

لست أدرى كيــف أمكننى ، أنا الذى أراه أول مرة والذى لم أخاطبه بكلمة ، لست أدرى كيف أمكننى أن استثير غيظه . فانني ما ان وضعت قدمى على الارض حتى القى علىّ نظرات حانقة . ومع ذلك فانني حين ادركت من كلمات قالها لخدمه انه اتٍ من ستيبانتشيكوفو ، تصورت ان الفرصة مواتيه لارضاء حب الاسـتطلاع فى نفسى بالتحدث معــه . فسرعان ما رفعت قبعتى محييا ، وجازفت بملاحظه لطيفة عن انزعاج المرء من اضطراره الى التوقف اثناء الرحــله . ولكن الرجل السـمين الذى كنت أتمنى أن أعقد صلة به نظر الىّ نظرة شزراء من الرأس الى الحذائين وتمتم بما لا أدرى ، فى احتقار حانق ، وكان كل جوابه انه ادار لى ظهره بطيئا ثقيلا . ان الجزء الذى يعرض لبصرى الان من شخصه يمكن أن يكون ميدان معرفة خصبة ، ولكن لا يمكن التحدث معه ... ومهما يكن من أمر ، فان الحركه التى بدرت من السيد السمين تدل على أنه لايحرص حرصا شديدا على أن يكون لطيفا فى معاملتى .

صاح يخاطب خادمه فجأة ، كأنه لم يسمع ملاحظتى حول مكدرات السفر :

ـ جريشكا ! أما كفاك عياطا ؟ هل تريد أن أؤدبك ؟

ان جريشكا هــذا خادم عجــوز أشيب الشعر ، يرتدى ردنجوتا ضخما ، وله لحيتان طويلتان . وكان هو أيضا حانقا حنقا شديدا ، يدرك المرء ذلك من همهماته وزمجراته ومن امارات أخرى . وسرعان ما أخذ السيد والخادم يتراشقان الكلام .

قال جريشكا متمتما بين أسنانه ، ولكن بصوت يمكن أن يسمعه جميع الناس :

ـ تؤدبنى ؟ وددت لو أرى كيف تؤدبنى ؟ هل انتهيت من الصياح ؟

قال الخادم ذلك مغتاظا ثم أشاح بوجهه واندس في قرارة العربة •
أعول الرجل السمين وقد احمر وجهه استياء حتى صـــار بلون الارجوان :

ـ هه ؟ ماذا ؟ ماذا ؟ ماذا قلت ؟ أقلت انني أستطيع الصياح •••

قال الخادم :

ـ انك لا تكف عن تصديع رءوس الناس ••• وفوق ذلك لا تسمح لأحد بأن يقول كلمة !

قال الرجل السمين :

ـ ها ••• يا سلام ! هل تسمعونه ؟ حين يريد هذا السيد المحترم أن يعيط ، فيكاد يحق لى أن أصمت ••• أليس كذلك ؟

ـ أنا لا أعيط •

ـ يا سلام ! أأنت لا تهمهم متذمرا ؟ هل تريد أن أقول لك انك حانق مغتاظ لأنني سافرت قبل الغداء ؟

ـ لا يهمنى الغداء ! في وسعك أن تستغنى عن الطعام اذا شئت •

وأنا لا أتذمر منك ••• وانما أتذمر من صناع العربات ؟

ـ من صُنَّاع العربات ؟ أين تراهم عضُّوك ؟

ـ لم يعضونى في مكان ••• وانما السبب عربتك •••

ـ عربتى ؟ ماذا صنعت لك وفيم أساءت اليك ؟

ـ ما كان بها حاجة الى أن تتعطل وقـــد كانت تسير سيرا حسنا • ما كان ينبغى لها أن تفعل هذا ••• ليس هذا بضربة تُضرب ! ••

ـ دعك من العربة ، وكلمنى أنا •• انك مهما تكن مخطئا لا يمكن أن تعترف بخطئك •••

ـ قل لي يا سيدي : هلا تركتني وشأني أخيرا •• من فضلك ! ••

ـ لن أدعك وشأنك قبل أن تقول لي لماذا لم تنطق بكلمه واحدة طول الطريق ، ولماذا تعند هذا العناد ؟

ـ دخلت ذبابة في حلقي •• ثم انني لست من يجب أن يقص لك قصصا •• ذلك من شأن ميلاني •• فما دمت ترغب في ذلك الى هذه الدرجه فلماذا لم تصطحبها هي بدلا من اصطحابي أنا ؟

فتح السيد السمين فمه ليجيب ، ولكنه قرر أن يصمت لأنه لم يجد اعتراضا صالحا • فسر الخادم سرورا عظيما بمرة حجته ، ولا سيما بأنه أفحم مولاه فلم يستطع مولاه جوابا ، وذلك أمام شهود ••• ثم سارع الخادم يصطنع الانشغال ، ويلتفت نحو العمال يصدر اليهم أوامره بلهجة فخمة •

ما كان لجميع المساعي التي قمت بها أن تثمر ، ولا سيما بعد خراتي، لولا أن ظرفا لم يكن في الحسبان قد خف الى مساعدتي • ان رأسا وسنانَ أشعث متسخا قد ظهر فجأة من باب عربة مغلقة كانت قابعة هنالك محرومة من عجلاتها ، تنتظر اصلاحها منذ زمن سحيق • فما ان ظهر هذا الوجه حتى أثار لدى العمال قهقهة عامة شاملة • ان هذا الرأس هو رأس شخص كان قد وجد تلك العربة مكانا مناسبا لأن ينام بعد سكرة ثقيلة ، فنام فيها ، فأغلقوا عليه الباب أثناء نومه • حتى اذا استيقظ حاول أن يخرج من سجنه عدة مرات ، فلم يفلح فأخذ يستنجد متوسلاً الى العمال أن يأتوه بـ « أداته » ••• فكان هذا كله مثار تسلية وطرب وتهليل في المكان •

لا أدري لماذا يجد بعض الناس لذة خاصة في مشاهدة المناظر الأليمة فاذا رأوا سكيرا يتصعر وجهه ، أو شخصا ذاهلا تزل قدمه فيسقط على

الأرض ، أو متشاتمين يتراشقان السباب المقذع ، أو أى مشهد من هذا القبيل ، أغرقهم ذلك فى ضحك لذيذ وطرب واضح وتهليل صريح • ولا شك أن السيد الريفى السمين كان من هذا النوع من الناس • فما ان رأى وجه السكران حتى أخذت أسارير وجهه العابس تنبسط شيئا فشيئا، ثم اذا هو يصبح فرحا كل الفرح طربا كل الطرب •

قال فى تعاطف وشفقة :

ـ ولكن هذا فاسيليف ،فماذا هو صانع داخل العربة ؟

فأجابته أصوات تصيح من كل حدب وصوب :

ـ نعم يا ستيبان ألكسيفتش ••• انه فاسيليف •

وقال عامل طويل القامة نحيل الجسم متقدم فى السن يبدو عليه أنه رئيس العمال ، قال شارحا :

ـ لقد أوْلم وقصف •••

ثم اصطنع رئيس العمال هيئة القسوة المتعالية ، وردد يقول :

ـ نعم ، لقد أولم وقصف ! منذ ثلاثة أيام لم يره رب العمل الذى يعمل عنده ••• جاء الينا وسقط على أذرعنا • يستحيل التخلص من هذا الحيوان • ها هو ذا يطلب مطرقته ••• أمر غريب ••• ما عساك تصنع بها يا غبى ••• أتراك تريد أن ترهن آخر ما بقى لك من أدوات العمل ؟

ـ ماذا تريد يا أرشيب ! ••• لهذا انما وجد المال ••• لقد وجد المال ليجرى •• شأنه شأن الحمام •• يذهب •• يجىء •• يطير •• دعنى أخرج ناشدتك الله !

كذلك قال فاسيليف متوسلا بصوت واهن ضعيف وهو يقدم رأسه من باب العربة مرة أخرى •

فأجابه أرشيب يقول بلهجة خشنة :

ـ بل ابق فى القفص ••• لقد ظللت ترفع كوعك بما فيه الكفاية منذ أول امس ، وفى هذا الصباح لم تكن قد طلعت الشمس حين لمناك من الارض •• ان عليك أن تهب لنا شمعه شامخة لأننا دسسناك هناك • قلنا لرب العمل : « حال الفتى حسنة يا ماتفى ايلتش ••• عنـــده مغص فى رأسه •• »

وانطلقت القهقهات تجلجل مزيدا من الجلجلة •

ـ ولكن أين وضعت مطرقتى ؟

ـ أنت مطرقة يا سكير • انه لا يخطر بباله شيء غير أن يشرب •• هو كما ترى يا ستيبان ألكسيفتش •

قال السيد السمين وهو يضحك ضحكا شديدا :

ـ آه •• آه •• آه منك يا وغـــد ! آه •• هكذا اذن • تريد أن تمضى تعمل فى المدينة لتعلق أدواتك بالمسمار •• هكذا أنت ••

ثم أضاف يقول ملتفتا الىّ وقد عاد اليه المرح والبشر :

ـ ليتك تعرف أيها السيد مدى حذق هذا النجار ! •• لن تجد له مثيلا فى موسكو كلها ! ولكنه لا يعمل شيئا غير أن يسكر ، هذا الوغد•• لا يمكن الاعتماد عليه فى أمر من الأمور • افتح له يا أرشيب ، فلعله فى حاجة الى شيء ! ••

ورضوخاً لأمر السيد السمين نزعوا المسمار الذى كانوا قد سمروا به باب العربة من أجل أن يستمتعوا بانصعاق فاسيليف حين يستيقظ • وهذا هو المدعو فاسيليف يحملق ناظرا الى الحشد بعينين لم يلبث نور الشمس أن جعلهما تطرفان •• هذا هو يحملق ملطخا بالوحل ، ممـزق الأسمال ، باعثا على الاشمئزاز • وهـذا هو يعطس وما يزال يترنح ،

ثم يضع يده فوق عينيه ليحجب عنهما نور الشمس ، ويأخذ يتفرس فيمن حوله .

قال فاسيليف وهو يرجح رأسه فى رفق :

ـ ما أكثركم ! ما أكثركم !

ثم أضاف باللهجة الحـــزينة التى يتكلم بها من يشعر بالخجل والعار :

ـ صباح الخير يا رفاق .

وها هم أولاء الرفاق ينطلقون ضاحكين مقهقهين من جديد .

ـ أتقول صباح الخير ؟ يجب أن تقول مساء الخير يا أحمق ! ..

ـ أنت تهرف يا فتى .. ولكن تكلم .. ما دام قد جاء دورك فى الكلام ...

صاح السيد السمين وهــو ينظــر الىّ فى هذه المرة نظرة لطيفـة جدا :

ـ ها .. ها .. ها .. أنظر الى هذا المتكلم البارع ! .. ألا تستحى يا فاسيليف ؟

أجاب فاسيليف فى وقار وجد ، سعيدا بأن يتاح له أن يفتح قلبه وأن يعبر عن نفسه مرة أخرى :

ـ هذا من الحزن ياستيبان ألكسيفتش .. نعم .. من الحزن ..

ـ أى حزن يا كذاب ، يا مهرج ؟

ـ هو حزن لا يمكن تخيله : لقد أصبحنا جميعا رجال فوما فومتش.

صاح السيد السمين منتفضا :

ـ جميعا ؟ من جميعا ؟

وتقدمت أنا أيضا خطوة الى أمام • لقد جرت القضية مجرى لم يكن في الحسبان : انها تمسني رأسا •

ـ نحن جميعا •• أهل كابيتونوفكا • ان سيدنا الكولونيل ـ بارك الله فيه ـ يريد أن يقدم كابيتونوفكا ، ملك الأسرة ، هدية الى فومافومتش •• سبعون نفسا يا سيدى ••• قال له : « أنت يا عزيزى لا تملك لحسائك الا ارثا هزيلا : سمكتين صغيرتين بيضاوين تقصفان الآن في أعماق بحيرة لادوجا ••• » ذلك أن الرجل المحترم (كذلك تابع يقول فاسيليف وقد استبد به حنق ساخر) قد كان سيدا من الطراز الأول لا مثيل له •• كان اذا أريد أن يدحرج ، يهبط من أعلى السلم رأساً لا يلوى على شيء ••• ذلك أنه كان مثلك يا عزيزى دمية من الدمى يحركها صاحبها كما يشاء، ولا يجنى من الرزق الا ما يكفى للموت جوعا •• قال له صاحبه : " أما الآن يا صديقى فسوف يتغير كل شيء •• سأجعل منك سيدا له رجاله •• فتعيش عيشة كريمة دون أن تحرك أصبعك •• »

غير أن ستيبان ألكسيفتش كان قد انقطع عن الاصغاء الى فاسيليف • ان هذه الأقوال التى يقولها السكير قد بثت الاضطراب فى نفسه ، فأخذت جوزة عنقه ترتعش فى رقبته واحتقنت عيناه الصغيرتان بالدم ، حتى أن المرء يحس أنه يوشك أن يصاب بنوبة قلبية •

قال أخيرا وهو يختنق من اللهاث :

ـ لم يكن ينقصنا الا هذا •• وغد حقير كهذا الوغد الحقير •• فوما المستعطى يصبح مالك كابيتونوفكا •• هه ! •• الأحرى أن يأخذكم جميعا شيطان ! •• وأنتم هنالك ! هـــل انتهيتم ؟ هلا أسرعتم فأنصرف أخيرا !

قلت له وأنا أتقدم منه خطوة مترددة :

ـ من فضلك ••• لقد تكلمت منذ لحظة عن فوما فومتش أوبسكين، اذا لم يخطىء ظنى •• وأنا أتمنى لو •• ذلك أن هناك أسبابا خاصة جدا تدفعنى الى الاهتمام بأمر هذه الشخصية •• وأحرص حرصا شديدا على أن أعرف مدى صحة الأقوال التى قالها هذا الرجل السكران الطيب حين زعم أن سيده ياجور ايلتش روستانف ينوى ان يهدى أحد أملاكه الى فوما فومتش هذا • ذلك أمر يمسنى من قريب جدا •• وأنا ••

لم يدع لى الرجل السمين أن أتم كلامى ، بل قاطعنى قائلا :

ـ هلا سمحت لى أن أسألك بدورى عما يجعلك تهتم هذا الاهتمام كله بهذه « الشخصية » ، كما تقول أنت ، أو بهـــذا السافل الدنىء كما يحسن أن نقول •• أهــذا الرجل القذر ، أهــذا الرجل السافل يسمى « شخصية » ؟ ليس هذا الرجل بانسان ••• انه قاذورة ••

فشرحت له عندئذ أننى أجهل كل شىء عن فوما فومتش فلا أستطيع أن أقطع فيه برأى ، أو أن أصدر فى حقه حكما •• غير أن ياجور ايلتش روستانف هو فى مقابل ذلك عمى ، وان اسمى سرجى ألكسندروفتش ن •••

صاح السيد السمين يقول مهللا مبتهجا :

ـ ها •• أأنت العالم ؟ اذن ففى وسعك أن تقدّر أنك واقع هنالك شر وقعة •• أنا قادم كما ترى من ستيبانتشيكوفو ، ويجب أن أعترف لك باننى تركت مائدتهم قبل تناول الطبق الاخير •• لقد آثرت أن أستغنى عن الحلوى •• لم أطق مزيدا من الصبر على هذا الفوما فومتش ! فها قد ساءت علاقتى بالمنزل كله بسبب هذا الحيوان اللعين ••• ولكن يا لها من مصادفة ! يا لهذا اللقاء من مصادفة ! معذرة يا صديقى الشاب •• هأناذا

أعرفك بنفسى : ستيبان ألكسيفتش باختشايف •• لقد عرفتك حين لم يكن طولك يزيد على طول جزمتى •• لذلك اسمح لى أن ••

قال السيد السمين ذلك وارتمى يعانقنى •

وبعد بضعة دقائق قضيناها فى تبادل العاطفة على هذا النحو ، استأنفت القاء أسئلتى مسرعا ، فاننى لم أشأ أن أدع هذه الفرصة التى لم تكن فى الحسبان تفلت منى • قلت له :

ـ ولكن من هو فوما هذا ؟ ماذا عمل حتى استطاع أن يحكم المنزل كله ؟ لماذا لا يطردونه من المنزل ركلا بالأرجـــل على قفاه ؟ •• ان فى الامكان على الأقل ••

فقاطعنى الرجل قائلاً :

ـ لماذا لا يطردونه من المنزل ركلا بالأرجل على قفاه ؟ انك تقول قول مجانين أيها الفتى ! ان ياجور ايلتش نفسه ليسير أمام فوما فومتش على رءوس الأصابع ! هل تتصور أن هذا الزنديق قد قرر فى ذات مرة أن يكون يوم الخميس يومَ أربعـاء ؟ ثم كان له ما أراد •• فاذا ببلدة ستيبانتشيكوفو تعيش أسبوعا بأربعاءين •• أتظن أننى أبالغ ؟ أبدا ••• تلك مغامرة على طريقة الكابتن كوك !

ـ سبق أن سمعت كلاما عن هذا الامر ، ولكننى أعترف بأن •••

ـ أعترف •• أعترف •• لكأنك لا تحسن أن تقول كلمة غير هذه الكلمة • ما فائدة الكلام على هذا النحو ؟ الأحرى أن تسألنى من أى مغارة فى فرارة الغابة هربت ؟ ان أم الكولونيل امرأة مجنونة تستحق من فرط جنونها أن تكبل بالأغلال ، وان تكن جنرالة ؛ انها هى سبب كل شىء •

انها هى التى تولهت بهذا الفوما اللعين ، وزرعته فى المنزل •• لقد بلغ هذا الجرو من شدة التسلط عليها آنهـــا أصبحت لا تسـتطيع آن تنبس بكلمة •• آه •• أكان لا بد من الزواج مرة أخـــرى فى الخمسين من العمر برجل اسمه كراخوتكين للحصول على لقب صاحبة السعادة ؟!•• أما أخت ياجور ايلتش ، هذه الطيبة براسكوفى ايلنتشينا ، فالافضـــل أن نسكت عنها •• انها عذراء شهيدة فى الربيع الأربعين من عمرها لا تصلح لشيء الا أن تقول آه وأواه •• وأن تنقنـــق كدجاجة ! لشدما تستطيع براسكوفى أن تثيرنى وتحنقنى وتغيظنى •• صـــحيح أنهـــا من الجنس اللطيف ، ولكن هل يجب احترامها لهذا وحده ؟ ولكننى أسرف فى المضى بعيدا •• فمعذرة بل ألف معذرة •• ان هذه الآنسة هى عمتك •• فدعنا منها ، ولنتكلم عن ساشا ابنة الكولونيل • انها لم تتعد الخامسة عشرة من عمرها ، هذه الصبية الصغيرة ، ومع ذلك أؤكد لك أن فى اصبعها الصغيرة من الذكاء أكثر مما فى المنزل كله • لا شيء أمتع ولا أشفى للغليل من رؤية هذه الطفلة العزيزة فى طريقة معاملتها فوما • تستطيع أن تقول انها لا تهضمه • وفيم تهضمه ! فيم تهضم هـــذا الانسان الذى كان مهـــرجا للمرحوم كراخوتكين ، هـــذا الانسان الحقير الذى كان يسـلى صاحب السعادة الجنرال بتصعير وجهه وتشويه هيئته ، ويقلد الحيوانات تسرية عنه واضحاكا له • ألا انه ليصدق عليه قول القائل :

توماس كان يغسل الأطباقا

واليوم صار يحكم الحماقا

ان عمك الطيب يكنُّ لهذا الحقير المغرور احتراما كاحترام الابن أباه • انه يقدسه تقديسا •• يا للحماقة !

ـ واضح ••• ولكن الفقر ليس عيبا •• و •• أعترف لك أن ••

اسمح لى أن ألقى عليك هذا السؤال : هل فوما هذا رجل وسيم الطلعة جميل ؟ أهو على جانب عظيم من الذكاء ؟

ـ وسيم الطلعة جميل ؟ فوما ؟ هو الجمال نفسه ! ••

كذلك قال باختشايف بصوت جمله الغضب مرتجفا مختلجا •

لا شك أن أسئلتى قد أزعجته ، فهاهو ذا يعود ينظر الىّ نظرة شزراء • وتابع يقول :

ـ جميل جمال اله ! ••• هل تسمعون هذا يا ناس ؟ ان هذا السيد يعد فوما رجلا جميلا ! ألا انه لدميم دمامة قملة أيها الشاب ، ما دمت تريد أن تعرف كل شيء •• انه دميم دمامة الخطايا السبع الكبرى •• وياليته كان على جانب قليل من الذكاء •• يا ليت له من الذكاء قطرة أو قطرتين •• اذن لفهمنا •• ولكنه لا يملك من الذكاء شيئا البتة •• لا أثر للذكاء عنده •• صفر •• لا بد أنه سقاهم شيئا • آه •• كفانى كفانى •• دعنى وشأنى •• مالى ولهذا المشعبذ ! ان هذا كله ليثير فى نفسى الاشمئزاز •• هيه ! أنتم هناك ! هل انتهيتم ؟

قال جريجورى متذمرا :

ـ بقى أن يبيطر الحصان الأدهم •

ـ الأدهم ؟ الآن ؟ سحقا لك •

قال الرجل السمين ذلك ثم أردف يخاطبنى :

ـ نعم يا سيد ، فى وسعى أن أقص لك عن هــذه الأشياء الى يوم الساعه ، وأنا كفيل بأنك ستسمع كلامى فاغر الفم من الدهشة • تصور أننى أنا نفسى قد قدرته واحترمته • هل تصدق هذا ؟ نعم ، لقد قـدرته واحترمته •• أعترف بذلك الآن وأنا أشعر بالخجل والخزى والعار ••

لقد خدعت كما خُدع الآخرون . ماذا تريد ؟ انه يعرف كل شيء على أطراف أصابعه .. أو ذلك ما يدعيه على الأقل .. حتى لقد رضيت أن أتجرع دواء وصفه لى . يجب أن أعترف لك بأننى مريض ، فان فى جسمى شحما كثيرا . صدق أو لا تصدق : هذا ما وقع . وقد أوشك الدواء أن يقضى علىَّ . لا . اسكت . دعنى أتكلم. ما دمت ذاهبا الى هناك فسوف يتاح لك أن تفتح عينيك وأذنيك . أضمن لك ذلك ! أما صاحبنا الكولونيل ، فانه سيذرف دموعاً من دم ، ولكن حين يكون الأوان قد فات .. لقد استطاع هذا الفوما أن يفسد علاقات الكولونيل بجميع جيرانه ، وهم جيران أعلى منه مكانة وأعظم ثراء .. ثق بذلك . انه يحب اظهار مكره أمام أى حفل من الناس ! نعم نعم .. ان هذا السيد العالم متهيء دائما للنقد والتجريح ، واللوم والتقريع . ان الشيء الأثير عنده هو أن يعظ الناس بالاخلاق . « أنا أعلم منكم بالأمر أيها الجهلة السخفاء ، واذن فلى عليكم الغلبة » ، كأن الناس الذين تعلموا انما خلقوا فى سبيل أن لا يدعوا راحة لأولئك الذين لم يكونوا يوما فى المدرسة ؟ متى تحرك لسانه ، حسبت أن طاحونة تدور .. لكأنها كبة خيطان لا تنتهى .. ان له لسانا لا يكف عن الكلام ، فلو قطعت هذا اللسان ورميته فى المزبلة ، لظل يتحرك ويتحرك الى أن يتلقفه غراب من الغربان عابر . ولا تسل بعد هذا عن مدى عنجهيته وعجرفته .. يا للحيوان ! انه لأشبه بفأرة امتلأ بطنها جبنا ومضت تندس فى جحور لا يستطيع كرشها فيها أن يتبع رأسها . اليك آخر « تقليعاته » : لقد قرر أن يعلم اللغة الفرنسية للخدم. انك لا تستطيع أن تصدق كلامى . هو يدعى أن هذا يفيدهم ! فهل رأيت الى هذه الفظاعة ، هل رأيت الى هذه الوقاحة ! فيم يمكن أن تنفع اللغة الفرنسية رجلا بائسا تعيسا ... هلا قلت لى فيم يمكن أن تنفع اللغة الفرنسية مثل هؤلاء الناس ؟ انها لا تنفعهم فى شيء ، أليس كذلك ؟ وفيم

تنفعنا نحن أيضا ؟ في استغلال رقصة المازوركا لمخادعة الفتيات أو اغراء السيدات المتزوجات ؟ ذلك كله فحش ، ذلك كله فجور لا أكثر ... في رأيي أنه يكفي المرء أن يشرب ابريقا من الفودكا حتى يتكلم جميع لغات أهل الأرض .. ذلك رأيي أيها الشاب في لغتكم الفرنسية العزيزة ! اذ لا شك انك أنت أيضا ممن يحبون أن يرطنوا بها ... فأنت رجل عالم ، رجل على جانب عظيم من العلم ، هه ؟

بهذا ختم باختشايف كلامه وهو يرشقني بنظرة شزراء يمتزج فيها الاحتقار باستياء وامتعاض .

ـ والله .. الحقيقة أن ..

ـ نعم ، نعم .. مفهوم .. أنت بشر علم .

ـ أوه .. لا .. ليس هذا تماما .. اعترف لك أن ما يعنيني في هذه الآونة هو دراسة العادات والأخلاق خاصة . ولقد مكثت طويلا في بطرسبرج ، وأنا الآن حريص على أن أصل الى منزل عمي بسرعة .

ـ ما عساك فاعلا هناك ؟ الأفضل أن تبقى حيث أنت .. صدقني .. هل كان يعوزك هناك شيء ؟ لا .. لا .. يا صديقي ، لن يعصمك علمك ولا عمك من الوقوع في الفخ .. لقد فقدت أنا ، على ما تراني الآن ، بضعة أرطال من وزني خلال أربع وعشرين ساعة فقط . ولكنني ألاحظ أنك لا تصدقني . لك ما تشاء . اذهب الى هناك ، كان الله معك .

ـ بل أنا أصدقك ، أصدقك ولكنني لم أستطع حتى الآن أن أفهم ...

كذلك قلت وقد ازداد اندهاشي .

فأجابني يكرر كلماتي :

ـ أصدقك ! أصدقك ! ولكنني أنا لا أصدقك أيها الفتى • انكم ، معشر العلماء ، لستم الا أناسا مذبذبين لا تستقرون على رأى ، لستم الا أناسا هازلين لا تعرفون الجد ، لستم الا أناسا من هـــذا القبيـل •• انتم لا تصلحون لغير تبديل ارائكم حتى ينظر اليكم ! •• يا صديقى ، اننى لا أهضم أمثالكم •• لقد عرفت من أضرابك غير واحد ، عرفت غير واحد من « أذكياء » بطرسبرج هؤلاء •• انهم جميعا تافهون •• انهم يدعـون جميعا الى الجحود ، وتزيغ اعينهم كأواس سقين قدحا من خمر • انهم يثيرون فى نفسى الاشــمئزاز • ولكن كفى ! حسبى ما قلته الى الآن ! يا سيدى العالم لقد أخرجتنى عن طورى •• ولم تبق بى رغبة فى أن أقول لك شيئا آخر • ثم اننى غير مضطر الى أن أسليك بقصص أسردها لك ! ثم اننى متعب أيضا •• وكفانى ما قلته الى الآن من سوء فى حق الناس • تلك خطيئة قاتلة ، ذلك اثم كبير • ومع ذلك فاننى أضيف ما يلى : هـل تعرف ماذا فعل العالم هنالك؟ هل تذكر خادم عمك، المسمى فيدوبلياسوف؟ لقد انقلب الأن الى معتوه ! صار ثلاثة أرباع مجنون هذا الفيدوبلياسوف ، بسبب فوما فومتش !

صاح جريجورى الذى كان قد أصغى الى الحديث حتى ذلك الحين باحترام :

ـ لو كان الأمر لى لجلدت هذا الفيدوبلياسوف بالسياط ، فلعل ذلك أن ينظف دماغه • ان مائة جلدة أو مائتين يمكن أن تصلح من أمره •

قال له مولاه آمرا :

ـ اسكت • دع لسانك ساخنا • ما من أحد سألك شيئا !

قلت دون أن أعرف كثيرا لماذا أقول ذلك من فرط انصعاقى :

ـ فيدوبلياسوف* ؟ ألا ترى أن هذا اسم عجيب ؟

ـ عجيب ؟ لماذا ؟ اذن فأنت أيضا تتدخل فى أمر اسمه فتراه عجيبا ؟ يا لهؤلاء العلماء ! يا لهؤلاء العلماء !

وعيل فى هذه المرة صبرى فقلت محتجا :

ـ وددت لو أعرف أخيرا ما الذى يثير حفيظتك على ؟ ماذا صنعت لك ؟ اننى أصغى اليك منذ نصف ساعة دون أن أعرف ما هو الأمر على وجه الدقة !

قال الرجل السمين :

ـ ماذا ؟ أأنت زعلت ؟ لا داعى الى الزعل مع ذلك ! كل ما قلته انما قلته من باب الصداقة المحضة . لا يكفى أن تكون لهجتى عالية حتى يظن أننى أريد أن ألتهم العالم . لقد أخرست هذا السخيف التافه جريجورى ، ولكن ذلك لا يمنعنى من أن أحبه ، هذا الوغد ، أن أحبه من كل قلبى ، لا لشىء الا لأنه وغد . ان العاطفة هى التى تضيعنى أنا ، أقول ذلك بكل صراحة . ثم ان هذا الفوما القذر هو علة كل شىء ! سوف يقتلنى قتلا ، هذا اللص ، سوف يقتلنى قتلا . هأنذا أُشوى فى الشمس منذ ساعتين بفضله هو . كان فى وسعى أن أذهب الى الكاهن بينما يقوم هؤلاء البلهاء باصلاح عربتى . ان الكاهن هنا رجل طيب شهم . ولكن ذلك الفوما الحقير قد جعلنى فى حالة نفسية لا أستطع معها أن أعزم أمرى ! على كل حال ، لا ضير .. ليس يوجد هنا حتى فندق مناسب لائق .. والناس من أولهم الى آخرهم لؤماء وما أشبه .. ذلك شىء مؤكد . آه ... ويا ليت له رتبة ذات شأن أو خطر (كذلك أضاف باختشايف يقول عائدا الى موضوعه ، أى الى فوما فومتش الذى كان واضحا أنه حانق عليه أشد الحنق ، مغتاظ منه أشد الغيظ) ، فان الرتبة العالية تجعل المرء يغض النظر عن أمور كثيرة. ولكننى سألت عنه ، فعرفت

انه لم ينل في يوم من الايام وساماً ولا جزءاً من وسام ••• أنا من ذلك على يقين • وهو يدعي أنه قاسى كثيرا في سبيل « الفكرة » ، حتى ليجب ان يعبده الناس ركّعا • متى تم ذلك ؟ لعله تم في يوم القديس جلان جلان ! •• هه ! •• ولكن اذا صدقنا هذا السيد ، فان الملك ليس ابن عمه ! وما ان تعارضه في أمر حتى يأخذ يصرخ صراخ الظربان قائلا انه يهان ، وانه شعوره يجـــرح لفقره ، وانه يحتقر ! » • تخيل أن أحدا لا يجرؤ أن يجلس الى المائدة بدون فوما • وهو يختار هذه اللحظة بعينها ليحبس نفسه في غرفته • « آه •• ما أقسى هذه الاهانات التي أتحملهـا أنا الحاج الفقير الذي يقنع بخبز أســـود • » • ولكن ما ان يجلسوا الى المائدة حتى يظهر في قاعة الطعام ويعود يضرب على وتره المألوف : « لماذا تجلسون الى المائدة من دوني ؟ أتعدونني صفرا ؟ » • الخلاصة •• انه يجد في ذلك متعة كبيرة ولذة عظمى • آه يا عزيزي ! لقد سكت زمنا طويلا • ظن أنني سأتأدب أمامه ككلب صغير من أجل الحصول على شيء من سكر: « خذ يا عزيزي الصغير ، خذ ، هل تريد ؟ » • لا ، لا ، أيهـــا الفتى ، نحن لم نرع الخنازير معا ••• فأما ياجور ايلتش ، فأمره أمر آخر •• نحن رفاق فرقة واحدة •• كل ما هنالك من فرق أنني ما كدت أصل أنا الى رتبة ملازم حتى ودعت المهنة العسكرية منحنياً لها باجلال وتعظيم ، على حين أنه أصبح هو كولونيلا ، اذا شئت ، ثم لم يحل على التقاعد الا في السنة الماضية • ولم أتحرج من أن أقول له « هيا أسرع فضع هـذا الفوما في مكانه ، والا فالويل ثم الويل » ، فقال لي : « ما هذا الذي تقول ؟ ان فوما زبدة البشر • وهو صـــديقي يعلمني المبـادىء الخيرة » • فقلت لنفسي : هِمْ •• اذن لقـــد تدمر الرجل وانتهى الأمر ! •• » • انك لن تستطيع أبدا أن تتخيل المناسبة التي أحدث لنا فيها فضيحة وجرسة

هذا اليوم • فى غد يقع عيد القديس ايليا (ذكر باختشايف اسم القديس ايليا ورسم اشارة الصليب) ، وهو كما تعلم عيد ابن عمك ايليوشا • وقد عزمت أمرى على أن أقضى نهارى عندهم وان أتناول غدائى فى صحبتهم، حتى لقد استحضرت من العاصمة لعبة جميلة لاهديها الى الصبى ، وهى لعبة بديعة ذات نابض ، تمثل المانيا يقبل يد خطيبته التى تجففـ دمعـة بمنديلها • نعم ، انها لعبة رائعة ! ولكننى أحمد الله على أننى رجعت بها • انظر ! هاهى ذى فى داخل العربة ، وقد كسر أنف الرجل فيهـا ••• وكان ياجور ايلتش لا يتمنى طبعا أكثر من أن يسر الصغير وأن يبهجه ، ولكن فوما لم يكن يسمع بهذه الاذن ، لم يكن يفهم الامر من هذه‌الناحية، وها هو ذا ياخذ يصيح قائلا : « هل كل شيء اذن لايليوشا ؟ هل أُنسى اذن أنا ؟ ألم يبق لى من شان هنا ؟ » • يا للحيوان ! انه يغار من طفل فى الثامنة من عمره ! وأردف فوما يصيح : « لماذا تتجاهلون أن العيـــد هو عيدى ؟ » • وعبثا حاولوا أن يشرحوا له أن العيد هو عيد القديس ايليا لا القديس فوما * ، فانه لم يشا ان يتزحزح عن موقفه وظل يقول : «بل هذا عيدى أنا أيضا ! » • ولبثت أنا بعيدا عن المعمعة حتى لا أنفجر • فما رأيك ؟ ها هم أولاء الآن جميعا يسيرون على رءوس الأصابع ، فاغرين أفواههم ، لا يعـــرفون ماذا يقررون ولا على ماذا يعـزمون • ما عساهم فاعلين ؟ أيهنئون فوما بعيده فى يوم القديس ايليا أم لا ؟ اذا لم يهنئوه فذلك اهانة له واساءة اليه ، واذا هنأوه كان ذلك هزءا به وتهكما عليه فقد يستاء ! هوه ! ألا ان الأمر ليثير التقزز والاشمئزاز أخيرا ! فقل لى أيها الشاب ، هل تسمعنى ؟

ـ أسمعك ؟ طبعا •• اننى أصغى اليك مسرورا كل السرور •• انك تطلعنى على أشياء أعترف لك بأنها ••

ـ هيم •• مسرورا كل السرور ! سيادتك تسخر منى ! ••• هذا كل شىء !

ـ أبدا ! بالعكس •• ان فى تعابيرك من الطرافة والأصالة مايجعلنى أود تسجيلها •••

ـ تسجيلها ؟ كيف ؟

كذلك سألنى باختشايف وهو يرمقنى بنظرة مرتابة • فقلت :

ـ هى كلمة تقال •

ـ أنا أفهمك أيهـــا الشاب • انك تريد أن تســـتدرجنى ، أليس كذلك ؟

فسألته مدهوشا :

ـ ماذا تعنى ؟

ـ نعم نعم •• تدحرجنى الى الكلام دحرجة كما يُفعل بأبله ••• ثم اذا أنت تحشرنى ذات يوم فى رواية من رواياتك •

وعبثا حاولت أن أحتج وأن أحلف أغلظ الأيمان على صدق نيـاتى وخلوص أغراضى ، فان باختشايف لم يشأ أن يسمع • قال :

ـ من ذا الذى يعلم هل تتورع عن شىء أنت ايضا • ان على المـرء أن يتوقع أسوأ الأمور منكم معشر المتعلمين ! لقد هددنى فوما بأن يطبـع أمورا كثيرة عنى •

قلت لأصرفه عن مثل هذه الفكرة :

ـ قل لى ، هل صحيح أن عمى يريد أن يتزوج ثانية ؟

ـ وهب هذا حدث ، فأى ضير فيه ! لقد يتزوج الرجل العزيز اذا أمره قلبه بذلك ، ولست أرى فى هذا أى بأس •

قال باختشايف ذلك ثم صاح متعجبا وقد ألم به شىء من ذهول على حين فجأة :

ـ على أن ما يصدع رأسى شىء آخر • سؤالك يربكنى حقا • ان حول الكولونيل من « الفساتين » بقدر ما يكون حول طبق المربب من دباب ! فكيف نحزر من هى التى تريد أن نتزوجه ؟ وأقول لك ايها الشاب ، بينى وبينك ، اننى لا أحب الجنس « اللطيف » • مهما يقولوا عن المرأة فاننى لا أعدها انسانا • انها أداة ضياع ! فأما أن عمك عاشق موله كقط ، فذلك ما أضمنه لك •• ولكننى لا أريد أن ألح ، وسوف ترى الأمر بنفسك • وانما المصيبة أن القضية تطول •• فاذا كان يريد أن يخطو خطوته فليخطها وثبا وليعلن كل شىء ! ولكنه يخشى فوما الحقير، ويخشى كذلك السيدة العجوز التى ستظل تعول عويلا يوقظ الموتى من قبورهم ، وستظل ترمح ما استطاعت أن ترمح • انها تتحزب لفوما طبعا• وفوما لن ينظر نظرة ارتياح الى زوجة تنافسه هو فى المنزل • هو يعلم أنه لن يكون عليه بعد ساعتين الا أن يحمل متاعه ويرحل •• نعم ، لا بد للزوجة ان تطرده الى الخارج من كتفيه، اذا كان لها شىء من عقل ، ولابد أن تشهر بسمعته تشهيرا يغلق فى وجه جميع أبواب المقاطعة • ذلك هو سر المكائد الخفية التى يدبرها فوما مع السيدة العجوز ، ذلك هو السبب فى أنهما يحرصان هذا الحرص كله على أن يدبرا للكولونيل هذه الـ •• ولكن ليس لك أن تقاطعنى يا صديقى الشاب ، لقد أوقفتنى عن الكلام فى اللحظة التى كنت أوشك أن أقول لك فيها أهم ما فى الحكاية • أنا أكبر سنا منك ، وليس هذا من اللباقة من جانبك فى شىء •

اعتذرت له •

ـ لا حاجة الى الاعتذار ! واسمع يا عزيزى ••• ان هناك شيئا أريد أن أظهرك عليه أنت أنت العالم • اليك الطريقة التى عاملنى بها فوما منذ برهة • فانظر الآن ، واقض فى الأمر بنفسك اذا كان لك شىء من سلامة الحس والاخلاص والانصاف • لقد جلسنا اذن الى المائدة •

وكنت قد أدركت منذ البداية أن الرجل ملىء باللؤم والحقد والمرارة ، أو قل ان نفسه كلها كانت تغلى وتفور حنقا وغيظا • لست أبالغ ياصديقى ••• لقد كان قادرا على ان يلتهمنى نيئا ••• وكان يود لو يغرقنى فى كاس ماء ، هذه الأفعى القذرة ••• ان هؤلاء الناس الذين فطروا على خلق الارتباك وايجاد الحرج لا يستطيعون سبيلا الى الهدوء والسكينة• وهاهوذا يسعى الى مشاجرتى بحجة أنه يريد أن يعلمنى المبادىء القويمة ، يعلمنيها أنا كما يعلمها غيرى ، فيسألنى لماذا أنا سمين هذه السمنة كلها ، ويطالبنى بجواب على الفور ، قائلا : « هيا قل حالا لماذا أنت مفرط فى البـدانة بدلا من أن تكون مفرطا فى النحول ؟ » • فما رأيك يا صديقى ؟ أهذا سؤال يطرح ؟ هل ترى فيه شيئا من ذكاء ؟ ومع ذلك أجبته بما أملك من عقـل صغير : « ان الله تعالى هو الذى خلقنى يا فوما فومتش • والمرء لا يختار• ولا فائدة فى التذمر من ارادة العلى القدير » • أظن أن الجواب معقول ، ما رأيك ؟ ولقد حسبت أننى أفحمته ، أننى ألقمته حجرا• أبدا• فهاهو ذا يصيح قائلا : « لا بل أنت سمين لانك تملك خمسمائة نفس : انك تعيش كما يعيش ديك مرتاح دون أن تخـــدم وطنك • يجب على الانسان أن يعمل فى سبيل بلاده ، لا أن يعزف على الآكورديون طوال النهار • » • يجب أن أعـترف لك بأننى اذا راودنى شىء من كآبة أسرى عن نفسى بالعزف على الأكورديون • ولكننى أجبته أيضا بما أملك من عقل صغير : « فى أية فرقة من فرق الجيش يجب علىّ أن أخدم ؟ ما من بدلة عسكرية يمكن أن تتسع لجسمى البدين • فاذا وجدت من باب المصادفة بدلة تتسع لهذا الجسم فان جميع أزرارها ستتطاير اذا أنا عطست عطسة ! فتصور أن يحدث لى هذا أمام رئيس ، وأن يحمل الرئيس ذلك محمل السـخرية والهزل ، فما عسى يقع لى عندئذ ؟ هه ؟ » • ما رأيك يا صديقى ؟ هـل كان جوابى سليما ؟ ومع ذلك فان صاحبنا الشجاع لم يزد على أن يضحك

مقهقها : قه قه قه ••• هأ هأ هأ •• هيء هيء هيء ••• الى غير نهاية • وذلك كله دون أي احتشام أو حياء • وأكثر من ذلك انه ظن أن في وسعه أن يستعمل اللغة الفرنسية حتى يلقي في وجهي كلمة خنزير « كوشون » • ولكنني اذا كنت لا أفهم من الفرنسية شيئا كثيرا ، فانني أعرف معنى هذه الكلمة • قلت لنفسي : « يا للمشعبذ القذر ! ••• أيحسب رأسي رأس تركي مثله ! » • وصعد الخردل الى أنفي ، فنهضت عن مكاني وصحت في وجهه على مرأى من جميع الجلوس : « ألف عذر يا عزيزي الشهم فوما ، لقد كنت أعدك حتى هذه اللحظة انسانا مؤدبا مهذبا ، ولكن اتضح الآن حتما أنك وغد ، مثلنا جميعا » • أسقطت هذا الكلام في صحنه ، وتركت المائدة في اللحظة التي كانت تقدم فيها « الحلوى » • شيطان يأخذهم جميعا ، هم و « حلواهم » !

حاذرت في هذه المرة أن أقاطع السيد باختشايف وانتظرت أن ينهي كلامه فقلت :

ـ أنت ترى أني على أتم الاستعداد لأن أشاطرك رأيك ، غير أن بعض الأفكار قد راودت ذهني ، رغم أنني لا أعلم حتى الآن شيئا علم اليقين ، فمعذرة ••

ـ ما هي الأفكار التي راودت ذهنك ؟

كذلك سألني السيد باختشايف وقد عاوده الحذر والشك •

فأخذت أقول مرتبكا بعض الارتباك :

ـ قد لا تكون هذه اللحظة مناسبة لعرض هذه الأفكار • ومع ذلك •• اسمع •• لعلنا كلينا مخطئان في حق فوما فومتش • لعل شيئا من أصالته وحتى من عبقريته أن يكون مختبئا وراء هذا الشذوذ كله وهذا الغرابة كلها ••• من يدري ؟ لعل فوما لم يصبح شرسا الا بسبب ما قاسى

من آلام ، وما عانى من عذاب . لقد سمعت أنه كان يقوم بوظيفة مهرج للجنرال كراخوتكين . فلعل المعاملة السيئة التى لقيها حين كان مغلوبا على امره ، وحين كان يقوم بهذه الوظيفة ويمثل ذلك الدور هى التى شوهت فكره وأفسدت عقله . ان علينا أن نفهم الامور : رجل طيب المحتد ، شاعر بقيمته ، اضطر أن يمثل هذا الدور ! .. فمن الطبيعى ان ينتهى به الامر الى أن يحقد على الانسانية بأسرها ... فلعل من الواجب ان نصالحه أولا مع نفسه .. أقصد مع أقرانه .. فربما انتصرت عندئذ مواهبه الطبيعية ، وربما رأيناه يعود فيظهر انسانا فذا .. ذلك أنه .. أخيرا .. أخيرا .. لا بد أن يكون على شىء من الألمعية .. والا فكيف يسيطر على جميع الناس ، وكيف يستكين له جميع الناس ؟

بهذا هرفت .. وتلك آفة يمكن أن تعذر فى شاب . ولكن السيد ياختشايف لم ير الامر هذه الرؤية . فها هو ذا يرشقنى بنظرة قاسية ، وقد اصطبغ بحمرة قانية على حين فجأة ، وها هو ذا يلقى الىّ حانقا مهتاجا مغتاظا بهذا السؤال :

ـ أتعد الفوما اذن انسانا فذا ؟

فقلت :

ـ اننى لا أتسرع هذا التسرع ، وأنا حريص على أن لا أؤكد شيئا ، ولا أن أقطع برأى حاسم .. وما قلته لا يزيد على أن يكون افتراضا محضا ..

ـ اسمح لى يا صديقى أن أطرح عليك هذا السؤال : أنت درست الفلسفة ، أليس كذلك ؟

ـ الفلسفة ؟ لست أرى علاقة بين ...

ـ ليس المهم أن ترى علاقة أو أن لا ترى علاقة . أجب عن سؤالى بلا لف ولا دوران : أدرست الفلسفة أم لا ؟

ـ أعترف لك بأن فى نيتى أن ..

ـ ها .. لقد حزرت أنا هذا .

كذلك صاح باختشايف مستسلما لاستيائه وامتعاضه ، وتابع يقول :

ـ لقد حزرت هذا قبل أن تفتح فمك .. هل رأيت أن فراستى لا تخطىء ؟ اننى أشم الفلاسفة على بعد ثلاثة فراسخ ! هيا اذهب اذن فعانق صاحبك فوما فومتش وقبّله ! رجل فذ ! ... وماذا أيضا ؟ هه ! .. ألا ان المرء لا تخطر بباله سخافة كهذه السخافة ! غفر الله لى ... لقد ظننتك انسانا جادا ..

قال ذلك ثم صاح بالحوذى الذى كان يصعد الى مقعده فى العربة :

ـ امش ...

لم أستطع أن أهدئه الا بعد عناء كبير . ثم انتهى الى شىء من اللطف، وردّ الىّ بعض اعتباره وتقديره . وفى أثناء ذلك كان قد استقر فى عربته بمساعدةجريجورى وآرشيب العامل الذى كان قد وعظ فاسيليف .

جازفت وطرحت عليه هذا السؤال وأنا أقترب :

ـ هل تأذن لى بسؤال ؟ هل فى نيتك أن لا تأتى بعد اليوم الى منزل عمى ؟

ـ الى منزل عمك ؟ من ذا الذى دس فكرة كهذه فى رأسك ؟ أتظننى رجلا قوى الارادة صلب العزيمة قادرا على الوفاء بعهد قطعته أو كلام قلته ؟ لا يا عزيزى .. ما أنا الا خرقة رخوة وا أسفاه ! لسوف ترانى هناك قبل انقضاء ثمانية أيام . لماذا ؟ لا أدرى . ولكننى أعرف شيئا واحدا : هو أننى سأعود وسأتشاجر مرة أخرى مع فوما ! ان الله

تعالى هو الذى بعث الىَّ بهذا الانسان جزاءً ما جنيت من آثام واقترفت من خطايا ! نعم يا صديقى ! أنا رجل ضعيف الارادة خائر العزيمة ، لا أملك شيئا من ثبات ... ما أنا الا دجاجة مبتلة ! ...

افترقنا على مودة وصداقة ، حتى أنه استقطعنى عهدا بأن أزوره فى منزله وأتعشى عنده . قال لى :

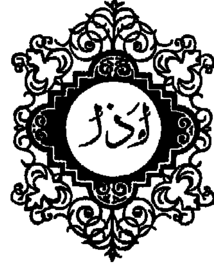
ـ زرنى يا صديقى ، زرنى . ان خمرى يصل من كييف سيرا على الأقدام ، أما طباخى فقد استقدمته من باريس بعربة . انه طباخ ممتاز خبير فى الأعشاب المرهفة ، يهيىء لك أطباقا شهية تبلغ من طيب مذاقها أنك تلعق أصابعك حين تأكل منها . هو من الحذق والمهارة بحيث لا يضيرك أن تحييه منحنيا حتى الأرض ، هذا الوغد .. أنا أضمنه .. بالمناسبة .. لقد ذكرتنى .. اننى لم أجلده منذ زمن طويل .. فان لم أفعل فلسوف تفسد يده من الدلال ، هذا الحيوان . زرنى يا صديقى . كنت أود لو أصطحبك رأسا ، ولكننى أحس أننى مقصوم الظهر ، مهشم العظام ، لا أكاد أستطيع الوقوف على قدمى .. ذلك أننى مريض . ولكن لعلك لا تصدق ذلك . وداعا يا صديقى وداعا . لقد آن لى أن أنصرف. وعربتك أنت أيضا جاهزة . قل لصاحبك فوما أن يحاذر لقائى . اننى أبيّت له ما يستحقه من شراستى ، هذا الحقير ، و ...

فاتنى ما قاله السيد باختشايف بعد ذلك . فان العربة التى تجرها أربعة أحصنة قوية غابت فى سحاب من الغبار . استقدمت عربتى ، وركبت أنا أيضا ، وخرجت من المدينة بسرعة . قلت لنفسى : « لا شك أن الرجل يبالغ . ان غضبه يمنعه من أن يكون منصفا غير متحيز . لا يمكن الاعتماد على رأيه . غير أن ما قاله عن عمى المولة حبا يستحق التفكير . هذان صوتان يطبقان على رأى واحد . آه .. أترانى أتزوج حقا أم لا ؟ » .

وفى هذه المرة أخذت أشك فى ذلك شكا قويا .

٣

عمّي



كان لا بد من الاعتراف فيجب أن أقـول انني شعرت ، عنـد اقترابي من ستيبانشيكوفو ، بأن ثقتي بنفسي تفارقني . وشيئا فشيئا أخذت حماستي الرومانسية تبـدو لي مضحكة . كانت الساعة تقترب من الخامسة . والطريق تحاذي الحديقة العامة . هأنذا بعد انقضاء ذلك العدد من السنين أرى تلك الحديقة الواسعة التي قضيت فيهـا أياما سعيدة كثيرة من طفولتي ، تلك الحديقة التي كانت لا تبارح أحلامي في بطرسبرج طالبا . قفزت من العربة بسرعة وهمة ونشاط واتجهت نحـو البيت سالكا أقصر طريق يقودني اليه . ان أقوى رغبة تجيش في نفسي هي أن أصل خفية ، وأن أقوم بتحقيق في الأمر ، أسأل هذا وأسـأل ذاك ، وأجرى مع عمي حديثا خاصا قبل كل شيء . وكذلك كان . فبعد أن سرت في طريق تحف به أشجار الزيزفون الهرمة وصلت الى السطحة التي توصل الى أجنحة المنزل عبر باب من زجاج . وعلى هذه السـطحة نفسها التي تحيط بها أحواض مزهرة وتزينها نباتات نادرة في أصص ، التقيت فجأة بواحد من أهل البلد هو الشيخ العجوز جافريلا الذي كان لي في الماضي بمثابة مربية والذي يقوم الآن بوظائف كبير الخدم لعمي. كان واضعا على أنفه نظارتين ، ممسكا بدفتر يستغرق انتباهه كله . واذ كنا قد

التقينا قبل ذلك بسنتين أثناء رحلة عمى الى بطرسبرج فقد عرفنى الشيخ العجوز فورا وهرع الى لقائى يريد أن يقبل يدىّ ممتلىء العينين بدموع الفرح ، وأسرع اسراعا تدحرجت من شدته نظارتاه •

تأثرت بذلك تأثرا عميقا ، غير أن انتباهى لم يلبث أن انصب على هذا الدفتر الذى يمسكه الشيخ بيديه ، بعد الذى سمعته من السيد باختشايف • سألته :

ـ ما هذا يا عم جافريلا ؟ أأنت تتعلم الفرنسية ؟

ـ نعم يا سيدى الشاب • انه يريد أن يحملنى على أن أرطن بكلمات أجنبية كطفل صغير •

ـ هل فوما هو الذى يعلمك هذه الكلمات ؟

ـ هو نفسه يا سيدى الشاب • لا شك أنه مثقف ثقافة هائلة •

ـ هائلة حقا ! ولكن ما هى طريقته فى التعليم ؟ أهى المحادثة •

ـ بل الدفتر يا سيدى الشاب •

ـ الدفتر ؟ أرنى ! آ ••• نعم هى كلمات فرنسية مكتوبة بأحرف روسية • هه ••• يا للمكر ! ألا تستحى يا جافريلا أن تستكين لهذا الأحمق ، أن تنقاد لهذا الحمار ؟

كذلك صحت قائلا وقد نسيت ، فى طرفة عين ، الافتراضات الكريمة الطيبة التى أيقظتْها فى نفسى شتائم السيد باخشايف اللاذعة فى حق فوما فومتش •

أجابنى الشيخ الطيب قائلا :

ـ كيف يكون حمارا وهو يعلم سادتنا ؟

جمجمت أقول :

ـ هِمْ ... هِمْ ... قد تكون على حق يا جافريلا .

ذلك أن حجته قد أفحمتنى فعلا . وأضفت :

ـ طيب قدنى الى عمى .

ـ لا يا سيدى ! لا أجرؤ أن أظهر أمامه ! اننى مختبىء ههنا أقضم لجامى ، فلو رأيت عمك مقبلا لأسرعت أختفى .

ـ مم أنت خائف ؟

ـ لم أتعلم درسى . ومنذ قليل أراد فوما فومتش أن يجعلنى أركع على ركبتى ؛ ولقد رفضت ، فأنا رجل طاعن فى السن ، فلا يجوز أن أعامل مثل هذه المعاملة يا سرجى أليكسندروفتش ! وعندئذ فان مولاى هو الذى غضب . قال لى : « لماذا لا تطيع فوما فومتش ؟ ان ما يأمرك به هو فى سبيل مصلحتك أيها الشيخ الهرم ! هو يريد أن يعلمك ! هو يريد أن يثقفك! هو يريد أن يجعل لك نطقاً جميلا.» وهأنذا أراجع دروسى وأحاول أن أحفظه ياسيدى ! سوف يمتحننى فوما فومتش مرة أخرى هذا المساء .

ذلك كله لم يبد لى واضحا جدا . لا بد أن وراء حكاية اللغة الفرنسية هذه سرا يعجز الشيخ الطيب عن شرحه .

عدت أسأله :

ـ ما شخص هذا الرجل ؟ أهو طويل فارع القامة ؟ أهو وسيم جميل الطلعة ؟

ـ مَن ؟ فوما فومتش ؟ لا يا سيدى الشاب انه قصير قمىء دميم .

ـ حقا ؟ طيب ! لا تصدع رأسك يا جافريلا ! سيسوى كل شىء . أعدك بأن كل شىء سيسوى ! ولكن .. أين هو عمى اذن ؟

ـ أظن أنه وراء الحظائر مع الفلاحين • لقد جاء شيوخ كابيتونوفكا يضرعون اليه فى مذلة •• سمعوا أنه سيهب كابيتونوفكا الى فوما فومتش، وهم لا يريدون ذلك !

ـ ولماذا يتم هذا وراء الحظائر ؟

ـ لان عمك يخاف يا سيدى الشاب !

ووجدت عمى فعلا وراء الحوش • كان يناقش فى حرارة ونشاط وسط جماعة من الفلاحين يبدو أنها كانت تتوسل اليه ، فلما اقتربت منه ناديته فارتمى كل منا بين ذراعى الآخر •

ان السعادة التى شعر بها حين رانى سعادة نشوى • انه يقبلنى ويشد على يدى فكانه آب يعثر على ابن له أفلت من الموت بأعجوبة ، او كان مجيئى ينقذه من خطر لا يقل عن ذلك فداحة ويطرد جميع أعداءه ويولد له من الفرح الذى لا تشوبه شائبة ما ينبغى أن يشارك فيه جميع ذويه • ان عمى هو من أولئك الناس الذين لا يقبلون أبدا أن ينفردوا بالتمتع بأى مسرة وحدهم دون غيرهم • ولكن الحماسة لم تلبث أن حل محلها قلق ، فسرعان ما رأيت الرجل المسكين يقع فى حيرة شديدة •

امطرنى فى أول الامر بوابل من الاسئلة ، وأراد أن يقودنى الى داخل المنزل ، ولكن ما ان قطعنا بضع خطوات حتى غير رأيه فزعم أنه يريد أن يقدم الىّ أولا فلاحى كابيتونوفكا • ثم حدثنى فجأة ، لا ادرى بأية مناسبة ، عن رجل يقال له السيد كوروفكين ، وهو شخصية مرموقة فيما قال ، قد عرفها منذ ثلاثة أيام على الطريق الكبير وهو ينتظر زيارتها الآن بفارغ صبر ؟ ثم لم يلبث أن ترك موضوع كوروفكين ، وانتقل الى موضوع آخر ••• وكنت فى ثناء ذلك أشعر من النظر اليه والتأمل فيه بلذة رائعة وبهجة عظيمة • وقد أجبت عن جميع أسئلته المحمومة ، مشيرا

الى أننى أؤثر مباهج العلم المتقشفه على مهنة الوظائف الادارية ، فما كدت أنطق بكلمة « العلم » حتى اعتقد أن عليـــه أن يصطنع هيئة الجد مقطبا حاجبيه ، فلما علم اننى قد عنيت فى الاونه الاخيرة بعلم المعادن رفع جبينه وأجال حوله نظرة زهو وخيلاء كما لو كان هو نفسه قد اكتشف وحده علم المعادن ووضعه فى كتاب من الألف الى الياء •• لقد سبق أن قلت ان عمى يقدس العلم تقديسا عظيما على قدر جهله تماما •

لقد قال لى ذات يوم ، ساطع العينين اعجابا :

ــ ما أكبر حظنا نحن بوجود افراد من أولئك الناس الذين يعرفون أعمق اعماق الاشياء ! ان المرء يصــغى الى ما يقــولون فيبتهج به من كل قلبه مهما يكن على يقين من أنه لم يفهم منه شيئا • ولعلك تسألنى لماذا ؟ ذلك أن المرء يشعر حين يسمع كلامه ان هنالك هدفا ، أن هنالك فكرا ، أن هنالك سعادة لجميع الناس ! أنا أستطيع على الاقل أن أفهم هذا • أنا مثلا أسافر الآن بالقطار ، ولعل عزيزى اليوشا سيسافر فى المستقبل على الهواء ••• ثم هنالك أخيرا التجارة والصناعة اللتان هما ثروات عظيمه ! أشياء مفيدة باقية ! ألا تراهما نافعتين ؟

ولكن لنعد الى لحظة وصولى •

بدأ يقول بلهجة متقطعة قليلا وهو يفرك يديه احديهما بالأخرى :

ــ صبرا يا صديقى صبرا ! سوف ترى أى انسان هو ! انه رجل نادر • أقول لك ذلك منذ الآن • انه مثقف طويل الباع فى العلم • انه عالم فذ سيكون « عمله فتحا جديدا » • تعبير جميل أليس كذلك ؟ ان فوما هو الذى علمنى هذا التعبير ••• انتظر قليلا حتى تتعرف عليه •

ــ عمن تتكلم ؟ عن فوما فومتش يا عمى ؟

ـ لا يا صديقى لا ، وانما أتكلم عن كوروفكين ••• فالى كوروفكين انما ينصرف ذهنى الآن •

ثم أضاف يقول وقد احمر وجهه يعلم الله لماذا :

ـ وفوما أيضا رجل ممتاز على كل حال •

ـ هل يعمل صاحبك كوروفكين فى العلم يا عمى ؟

ـ فى العلم يا بنى فى العلم ! لا اعرف فى اى شىء يعمل على وجه الدقة ! ولكنه يعمل فى العلم طبعا •• ليتك تسمعه وهو يتحدث متـدفقا عن السكك الحديدية ! •••

قال عمى ذلك ثم تابع كلامه بصوت خافت وهو يغمز بعينه اليمنى غمزة ذات دلالة :

ـ وتصور أن له أفكارا تقدمية • لقد لاحظت ذلك ، ولا سيما حين تكلم عن السعادة الزوجية •• خسارة ! خسارة ! لم يتسع وقتنا لشرح التفاصيل • لم أفهم كثير شىء ، والا لأعدت على مسامعك كل ما قاله كلمة كلمة • هذا الى أنه أفضل الناس وأنبل البشر ! لقد دعوته وأنا أنتظر وصوله الآن من لحظة الى أخرى •••

كان الفلاحـــون فى أثناء ذلك يتأملوننى فاغـرى الأفواه محملقى الأعين كأننى حدث غريب •

قاطعت عمى قائلا :

ـ اسمع يا عمى ! ألا تظن أن وجودى يحرج هؤلاء الناس ؟ لاشك أنهم جاءوا الى هنا لسبب هام ، فما هو الأمر ؟ أظن أننى أدرك القضـية التى جاءوا من أجلها ، وسيسعدنى جدا أن أصغى اليهم •

فما لبث عمى أن استبد به تعجل محموم فقال :

ـ ها •• نعم •• لقد نسيتهم •• ولكن ما عساني فاعلا لهم ؟ ••• انهم يظنون ـ وليتني أعلم من الذى أمكن أن يدس مثل هذه الفكرة فى رؤوسهم ـ أننى سأقدمهم هـــدية هم وكابيتونوفكا كلها •• هل تتذكر كابيتونوفكا ؟ هناك انما كنا نمضى نتنزه فى المساء مع المرحومة زوجتى العزيزة كاتيا •• كابيتونوفكا كلها مع سبعين نفسا •• هدية لفوما فومتش! •• لقد جاءوا يقولون لى انهم لا يريدون أن يتركونى •

صحت فيما يشبه النشوة :

ـ أفليس هذا صحيحا يا عمى ؟ ألن تهب كابيتونوفكا ؟

ـ ولماذا أهبها ؟ لم تراودنى هـــذه الفكرة أبدا ! ولكن من الذى حدثك عن هذا ؟ هى كلمة أفلتت من لسانى فكيف سارت فى الناس هذا السير؟ ولكن ما الذى يأخذونه على فوما ؟ ما الذى يثيرهم عليه ؟ ســوف ترى يا سرجى ! سوف أعرفك به •••

قال عمى ذلك ثم أضاف وهو يرشقنى بنظرة وجلة كأنه أوجس فىّ عدوا من أعداء فوما فومتش :

ـ انه يا عزيزى رجل •••

صاح الفلاحون بصوت واحد يقولون ضارعين متوسلين :

ـ لا نريده ! لا نريده ! لا نريد الا أنت •• احتفظ بنا ••• أنت أبونا ونحن أبناؤك •

هتفت أقول :

ـ قل لى يا عمى • أنا لم أر فوما فومتش بعد ، ولكن ••• ولــكن ســمعت شــيئا ••• يجب أن أذكر لك اننى التقيت منــذ برهة بالسيد باختشايف ، وان لى فى هذا الأمر آراء شخصية • أرى يا عمى ان تصرف

الفلاحين ، وأن نتناقش فى الأمر معا على انفراد • ثم اننى من أجل هذا انما جئت ••

أجاب عمى :

ـ أنت على حق • سنصرف الفلاحين • وبعد ذلك سنتناقش نحن الاثنين فى مودة وروية ودراية •

قال عمى ذلك ثم تابع يخاطب أقنانه بصوته المتقطع :

ـ طيب ! انصرفوا يا أصـــحاب • وفى المســـتقبل ، اذا كان لكم ما تقولونه فتعالوا الىّ ، تعالوا الىّ رأسا فى أية لحظة •

صاح الفلاحون مرة أخرى :

ـ أنت أبونا ! أنت أبونا ونحن أبناؤك ! لا تدعنا للعذاب مغ فــوما فومتش ! نتوسل اليك ، نضرع اليك ••

ـ ما أغباكم ! قلت لكم اننى لن أهبكم لأحد ، ألا تسمعون ؟

ـ لسوف يميتنا يا أبانا ! لسوف يميتنا كما يميت من هنا بما يعلمهم اياه •

سألتهم متعجبا شبه مذعور :

ـ هل يعلمكم الفرنسية أنتم أيضا ؟

ـ لا •• لمّا يحاول أن يعلمنا شيئا بعد•• الحمد لله•• لا يا سيدى•• نحمد الله على أنه لما يحاول ذلك بعد •

بهذا أجاب أحد البارعين فى الكلام من الحشد ، وهو رجل أحمر اللون أصلع الرأس له لحية هزيلة تبدو كأن لها حياة خاصة من فـــرط اهتزازها لدى كل كلمة يقولها •

ـ ماذا يعلمكم اذن ؟

ـ يعلمنا وضع المحراث أمام الأبقار يا سيدى اذا جاز القول ...

ـ كيف هذا ؟

صاح عمي وقد احمر وجهه من الخجل احمرارا شديدا يقول :

ـ حذار يا سرجى ! انهم لم يفهموا شيئا مما شرحه لهم فوما ، هؤلاء الأغبياء . كان يريد أن يقول لهم ...

وهنا اتجه عمي الى الفلاح وأردف قائلا له بلهجة العتب :

ـ لقد أفسدت كل شيء ! وها أنت ذا تصرخ ! انك تتغابى حين يراد لك الخير ! يجب على المرء أن لا يصيح قبل أن يفهم !

قلت :

ـ وقضية اللغة الفرنسية يا عمي ؟

فقال عمي محتجا بصوت ضارع :

ـ هذا بسبب النطق يا سرجى ، بسبب النطق وحده . فوما نفسه قال ان هذا بسبب النطق ! وتلك ، على كل حال ، حكاية لم تطلع عليها فلا تستطيع أن تقضى فيها برأى . ان على المرء يا بنى أن يطلع قبل أن يحكم ، والا فما أسهل أن يطلق المرء أحكامه جزافا !

التفت نحو الفلاحين وقلت لهم محتدا :

ـ ولكن ماذا ؟ ألا تستطيعون أن تقولوا رأسا لفوما فومتش كيف يجب أن تجرى الأمور فى رأيكم ؟ ان لكم لسانا فعليكم أن تستعملوه .

ـ سهل أن يقال هذا الكلام ! ولكن أين الفأرة التى تستطيع أن تضع جرسا فى عنق القطة يا مولانا الشاب ؟ انه يقول لأحدنا : « يا لك

من متوحش متخلف ! أريد أن أعلمك الترتيب والنظافة •• لماذا قميصك وسخ ؟ • والقميص وسخ يا سيدى لاننا نعرق ولأننا لا نستطيع أن نبدل قمصاننا كل يوم • لا النظافة هي التي ستحيينا ولا الوساخة هي التي ستميتنا !

وقاطعه فلاح اخر • انه رجل طويل نحيل هزيل ضاو يرتدى أسمالا باليه وينتعل حذاءين ممزقين متفتقين مهترئين • هو واحد من اولئك الناس الذين يظل في نفوسهم الى الابد شيء من مضض ، هو واحد من اولئك المستائين المتعضين الذين بهم حاجه الى ان يقولوا فى كل مناسبة كلمات مسمومة• لقد ظل الى ذلك الحين مختبئا وراء الاخرين يسمع دون أن يتحرك ، عابس الوجه مع ابتسامة تحيلها المرارة الى تصعير ملتبس المعنى • ها هو ذا ينبرى الآن فيقول :

ـ نعم لقد جاءنا منذ أيام على جناح السرعة فسألنا : « هل تعرفون كم فرسخا تبلغ المسافة بين الارض والشمس ؟ » • من يستطيع أن يعلم ذلك ؟ ليس العلم لنا بل للسادة • وقد قال أيضا : « يا لك من جاهل أحمق ! انك لا تعرف ما تصنع على هذه الارض ! أنا ، أنا عالم فلك ! أعرف جميع الكواكب التى خلقها الله ! »

ـ وهل ذكر لك كم فرسخا تبلغ المسافة بين الأرض والشمس ؟

بهذا قاطعه عمى الذى انتعش على حين فجأة وغمزنى غمزة ماكرة معناها : « سوف نرى سوف نرى ! » •

فأجاب الفلاح ممتعضا وقد حيره هذا السؤال الذى لم يكن فى حسبانه :

ـ نعم ذكر لى ذلك • ويظهر أن المسافة كبيرة جدا •••

ـ ولكن كم فرسخا ، كم فرسخا ؟

ـ سيدي ، انك تعرف ذلك خيرا منا • نحن أناس جهلة حمقى !

ـ ولكن تذكر يا بنى ، تذكر ، كم فرسخا ؟

ـ بضع مئات أو بضـــعة ألوف من الفراسخ • لا أتذكر على وجه الدقة • رقم ضخم على كل حال ، يمكن أن يملأ ثلاث عربات او اربعا !

ـ حاول أن تتذكر ، ابذل بعض الجهد ! أكنت تظن اذن ان المسافة فرسخ تقريبا ، وان الشمس يكاد يمكن لمسها ؟ لا يابنى ! الارض كرة•• هكذا •• هل تفهم ؟ (كذلك تابع يقول عمى ، وهو يمثل بيديه فى الهواء ضخامة الكرة المذكورة) •

ابتسم الفلاح ابتسامة من تبددت أوهامه •

ـ نعم ، كرة ! معلقة فى الفضاء من تلقاء نفسها •• وتدور حـــول الشمس • والشمس تبقى فى مكانها ، وانما يتراءى أنها تتحرك • فمهت؟ شيء يبدو عجيبا ! ان الذى اكتشف هذا الاكتشاف هـو الكابتن كوك ، أحد البحارة •• بالمناسبة ، من الذى اكتشف هذا الاكتشاف ؟ (كذلك سألنى عمى بصوت خافت وهو يلتفت نحوى) أنت تعلم أننى لا أعرف شيئا••• وأنت ، هل تعرف كم فرسخا تبلغ المسافة بين الأرض والشمس ؟

أجبته وقد ازدادت حيرتى وازداد ارتباكى من هذا :

ـ نعم يا عمى ، ولكن هل تريد أن أقول لك رأيى ؟ لئن كان الجهل لطخة عار ، فليس معنى ذلك أن تعليم الفلاحين علم الفلك •••

ـ تماما ! تماما ! هو لطخة ! هو لطخة !

كذلك ردد عمى يقول مأخوذا بهـــذا التعبير الذى بدا له موفقـا محكما الى أبعد الحدود • وتابع يقول :

ـ هو لطخة حقا !! فكرة رائعة ! كلام صحيح صادق ، قلته دائما ، أو بالأحرى لم أقله يوما ، وانما خطر ببالى وفكرت فيه •

ثم صاح يقول للفلاحين :

ـ هل تسمعون ؟ الجهل لطخة كوساخة الجسم سواء بسواء • لذلك أراد فوما ان يعلمكم • لقد أراد لكم الخير لا أكثر • والعلم درجات يا أصحابى ، كالرتب العسكرية • نعم ••• كذلك هو العلم ! ولكن يكفى هذا الان يا أصحاب ! انصرفوا فى امان الله ! وأنا راض •• راض جدا •• واهدأوا بالا •• فلن أترككم ولن أهجركم •

ـ احمنا يا أبانا !

ـ انقذنا من الشقاء !

بذلك هتف الفلاحون وأسرعوا ينحنون على قدمى عمى ساجدين•

ـ هيا ! كفى سجودا ! فانما ينبغى أنتسجدوا لله ولقيصر! انصرفوا ! انصرفوا فى أمان الله ! وليكن سلوككم مستقيما شريفا •• ولتقوموا بعملكم مخلصين •• أما ما عدا ذلك ••

وما ان انصرف الفلاحون حتى التفت عمى نحوى بغتة منبسط الأسارير مشرق المحيا وقال لى :

ـ هل رأيت ؟ ان الفلاح يحب الكلمة الطيبة ، ولا يبصق على هدية صغيرة •• ما رأيك فى أن أهب لهم شيئا ؟ هه ؟ ما رأيك ؟ بمناسبة وصولك ؟ أيجب أم لا ؟

قلت :

ـ أنت يا عمى أشبه بشخصية فرول سيلين * • انك المحسن الى هؤلاء الناس الفقراء فيما أرى •

ـ أوه ! لا قيمة لهذا يا بنى ! ليس هذا بشيء ذى بال ! اننى أتمنى منذ زمن طويل أن أهب لهم شيئا (كذلك شرح معتذرا) . هل بدا لك أمرا مضحكا أننى أخذت أعلم الفــلاحين ؟ ألا ان هذا من شدة فرحى بعودتك يا عزيزى سرجى ! لقد حرصت على أن أذكر لهم المســافة بين الأرض والشمس لا لشيء الا أن أرى أفواههم فاغرة من الدهشة . اننى أحب أن أراهم على هذه الحال حبا كبيرا ... ذلك يبهجنى منهم كثيرا . ولكن أرجوك .. لا تقل كلمة واحدة فى الصالون عما جرى . لقــد استقبلت الفلاحين وراء الحوش عمدا حتى لا يروهم . لم يكن ثمة سبيل غير هذا : ان الامر يحتاج الى احتياطات ولقد جاءوا هم أنفسهم خفية ، ومن أجلهم خاصة انما عمدت الى هذا ..

ولكننى قاطعت عمى فجأة من شــدة رغبتى فى الانتقال الى النقطــة الهامة بأقصى سرعة . قلت له :

ـ هأنذا أخــيرا يا عمى ! .. أعترف لك أن رسالتك قد أقلقتنى وأن ...

فما ان قلت هذا الكلام حتى اعترى عمى نوع من الرعب ، فقاطعنى بدوره قائلا :

ـ لا تقل كلمة عن هذا يا عزيزى . انتظر . سيتضح كل شيء . لعلنى مذنب فى حقك . نعم لعلنى مذنب ذنبا كبيرا ، ومع ذلك ...

ـ مذنب يا عمى ؟

ـ انتظر يا صاحبى ! صبرا ! سيتضح كل شيء ! آه ! لكم أصبحت فتى جميلا ! آه يا بنى العــزيز ! لطالما انتظرتك ... أنا فى حاجة الى

مسارّتك والبوح لك والافضاء اليك •• أنت متعلم مثقف ••• وليس لى غيرك ••• نعم انت وكوروفكين • والان يجب آن آقول لك ان جميع من بالمنزل هنا يضمرون لك ضغينة •• فانتبه وكن على حذر واتصف بالحكمة والتعقل والرويه ••

ـ يضمرون لى ضغينة ؟ لماذا ؟

كذلك سألت عمى وانا لا افهم كيف أمكن أن أحنق على أناساً لا أعرفهم •

ـ نعم •• انهم يحملون لك ضغينة • ولكن ماحيلتنا فى ذلك ؟ فوما فومتش هو الذى بدا ، ثم تبعته أمى • وانماالمهم ان تكون أنت على حذر• عليك خاصة باظهار الاحترام ، نعم باظهار الاحترام ، ودعهم يقولون ما يشاءون ••

ـ اظهار الاحترام لفوما فومتش يا عمى ؟

ـ لا بد من هذا يا صاحبى • أنا لا أحاول أن أتحيز له • هو رجل لا شك أن فيه عيوبا ، والآن ••• فىهذه الدقيقة نفسها•• آه •• ما أكثر ما يصدع رأسى هذا كله يا عزيزى سرجى ! •• ان من الممكن أن تسوى جميع الأمور بحيث يعيش كل انسان سعيدا على ما يشاء له هواه ! ••• ولكن ماذا تريد ؟ من المبرء من العيوب ؟ من المعصوم من الأخطاء ؟ نحن أيضا لسنا من ذهب خالص ••

ـ كفى يا عمى أرجوك ! هلا نظرت الى سلوكه ؟

ـ ترهات يا عزيزى ترهات •• ليس فيها ما يستحق أن تُجلد من أجله قطة • اليك مثالا : انه غاضب علىّ الآن •• هل تتصور لماذا ؟ على أننى قد أكون مذنبا ، ولكن الأفضل أن أقص عليك ذلك فيما بعد ••

قلت مستعجلا أن أنقل اليه الأفكار التي خطرت ببالي (كأننا نتنافس في هذا نحن الاثنين) :

ـ ومع ذلك يا عمي فان دماغي يفكر كثيرا في هذا الامر • لقد كان هذا الرجل مهرجا ، فلا شك ان ذلك قد أذله وأمض نفسه وأهانه واساء الى تطلعاته ، وذلك ما جعل طبعه مشاكسا مناكدا مريضا كثير الشك شديد الريبه والحذر ، فهو يحقد على الانسانية كلها ، فاذا استطعنا أن نصالحه مع نفسه ومع غيره ••

صاح عمي يقول وقد عصفت به حماسة شديدة :

ـ تماما ! تماما ! تماما ! لا يجوز لنا أن نسيء الحكم عليه • ذلك عيب • ذلك عار • تماما • اه يا صديقي ! انك لتفهمني حق الفهم ! ما أعظم سروري بكلامك ! ولكن ليت الامور تجري مجرى حسنا هناك ! أنت لا تتصور انني آكاد أكون خائفا من الظهور بينهم • ان وصولك سيؤلبهم علي •

اضطربت من اعترافه هذا فقلت :

ـ ما دام الامر كذلك يا عمي فلماذا •••

فقاطعني عمي بقوله صائحا :

ـ لا ، لا ، لا ثم لا •• أبداً •• انت في منزلي •• وأحب أن تبقى فيه •

ولكن ذلك لم يمنع ازدياد اضطرابي ، فاستأنفت أقول ملحا :

ـ قل يا عمي : لماذا استدعيتني ؟ لماذا ترى أنك مذنب في حقي ؟

ـ آه يا بني ! لا تسألني ! أرجيء هذا السؤال ! أرجيء هذا السؤال ! سيتضح لك كل شيء •• قد أكون مذنبا ذنبا كبيرا •• ولكنني

أردت مع ذلك أن أسلك سلوك رجل شريف •• و •• و •• ستتزوجها ! ستتزوجها اذا كنت تملك ذرة من نبل (كذلك أضاف) •

واستبد به انفعال قوى على حين فجاة ، فشد على يدى شدا قويا كاد يحطمها وتابع يقول :

ـ ولكن كفي ! لا كلمة بعد هذا ! ستطلّع على الأمر قريبا • كل شيء مرهـون بك متوقف عليك • وانما المهـم الان ان تحظى بالرضى والاعجاب ، أن تحدث أثرا حسنا • حاول خاصة أن لا تفقد سيطرتك على نفسك ! ••

ـ قل لى يا عمي : من عنـدك من الزائرين الآن ؟ اننى لم الف صحبة الناس والاختلاف الى المجتمع واننى أبلغ من ذلك أننى •••

ـ أنك تشعر بحرج وضيق •

قال عمي ذلك مبتسما وأردف يقول :

ـ طمئن بالك ، هدىء نفسـك ! نحن فى منزلنا •• نعـم هدىء روعك ، لا تخف ، والا لم أستطع أن أكون هادئا أنا أيضا ! تسالنى من يوجد هنا ؟

قال عمي ذلك ثم تابع كلامه منطلقا بحرارة :

ـ هناك أولا أمي • هل تتذكرها ؟ انها عجوز ممتازة شهمة ، بغير ادعاء ، ذلك أسـتطيع أن أؤكده • لها أفكار بالية بعض الشيء ولـكن لا ضير ••• ولها فى بعض الاحيان بدوات ونزوات •• تقول هذا أو تقول ذاك •• وهى الآن غاضبة منى حانقة عليّ •• أنا مذنب •• أعرف ذلك •• على كل حال يجب أن لا نؤاخذها • انها سيدة عظيمة • انها جنرالة • كان زوجها رجلا فذا • كان جنرالا • وكان على جانب عظيم من الثقافة •

لم يترك قرشا واحدا • ولكن جسمه كان مليئا بالجـراح • الخلاصة : رجل يستحق الاحترام • ثم هنالك الانسة بيربلتسين • هذه •• لا ادرى ما الذى استبد بها •• فى هذه الاونة الاخيرة •• ان لها الان مزاجا •• ولكن لمـاذا نحكم على الناس ؟ اسال الله ان يسـبغ عليهـا بركته ! •• لا تحسبنها متطفلة عامية • لا يا صاحبى • انها بنت ليوتنان كولونيل فى الجيش • وهى لامى صديقتها ونجيتها ومحل ثقتها ومستودع سرها • ثم هنالك يا عزيزى اختى براسكوفى ايلينتشنا • وليس ثمه كبير شىء يمكن ان اقوله عنها فهى الطيبه عينهـــا ، وهى البســاطة ذاتها •• صحيح انها مناكدة قليلا •• ولكن قلبها من ذهب •• وفى القلب انما يجب ان ننظر يا عزيزى •• وها هى ذى عانس رغم كل شىء •• ومع ذلك •• تصور أن هذا الرجل الطريف باختشايف يلاطفها ويريد ان يخطبها زوجة له •• حذار ان تقول شيئا عن هذا الامر ، فهو سر ! من ذا هنالك ايضا ؟ لن أحدثك عن الاولاد ، فسوف تراهم بنفسك • غدا عيد اليوشا •• ها•• كدت أنسى : عنـــدنا منذ شهر ايفـــان ايفانتش ميزنتشيكوف أحد أبناء أعمامك • لقد كان ملازما فى سلاح الفرسان ، وأحيل الى التقاعد منــذ برهة قصيرة • انه ما يزال شابا • وهو انسان نبيل • تصور مع ذلك أننى لا أستطيع أن أفهم كيف تسنى له أن يبدد ثروته كلها بمثل تلك السرعة• صحيح أنه لم يكن يملك شيئا كثيرا ، ولكنه تدمر تماما ، وهو غارق فى الديون فوق ذلك • لم أكن أعرفه من قبل • وصل الى هنا من تلقاء نفسه وبقى • انه شاب مؤدب مهذب ، لا يحدث صخبا • اننى أتساءل هل فتح فمه مرة واحدة • هو صامت دائما • لقد لقبه فوما مازحا بلقب « الصموت المجهول » • واذ أنه لا يقاوم ولا يحتج فان فوما راض عنه جدا • على أنه يصفه بأنه انسان محدود العقل ضعيف الذكاء • ومهما يكن من أمر فان ميزنتشيكوف لا يعارضه ، بل يجاريه فى آرائه • وفى اعتقادى أنه

خجول ، ولكن أسأل الله أن يباركه .. ستدرك بنفسك .. عندنا أيضا زائرون من المدينة : بافل سميونتش أوينوسكين وأمه . هو شاب واسع الذكاء ، فيه شيء من صلابة ونضج .. لا أعرف كيف أعبر عن رايي فيه تعبيرا مناسبا .. هو على كل حال انسان قوى الشكيمة رفيع النفس الى أبعد الحدود . عندنا ايضا كما سترى تاتيانا ايفانوفنا .. وهي تمت الينـا بقربى بعيدة . أنت لا تعرفها. هي عانس. هذا صحيح. ولكن لها مزاياها. تستطيع بثروتها الطائلة أن تشترى قريتين مثـــل ستيبانتشيكوفو . وهي لا تملك هذه الثروة الا منذ زمن قصير . أما قبل ذلك فقد كانت فقيرة . عليك أن تنتبه يا عزيزى سرجي . هذه انسانه مريضة . ان لها طبعـا عجيبا شاذا . غير أن لك من كرم طبعك وسماحة نفسك ما يكفيك من اجل ان تفهم انها قاست عذابا كثيرا وانها كانت بائسة شقية . ان على المرء أن يضاعف الرعاية والعناية في معـــاملة من كانوا أشقياء بؤساء . واياك خاصة أن يذهب بك الظن الى بعض الافكار .. صحيح ان فيها جوانب ضعف .. فانه ليتفق لها أن تتكلم بدون تفكير ، وان لا تقول الالفاظ التى يجب أن تقولها .. ولكن لا تظن أنها كاذبة .. لا يا صديقى ! ان كلامها يصدر عن قلبها رأسا .. وهو قلب طاهر نقى طيب ، أؤكد لك ذلك . وحتى حين لا تقول الحقيقة ، فان المرء يشعر أن ذلك ناشيء عن رهافة نفسها وعن نبل روحها .. هل تفهم ؟

كان في وجه عمى من التعبير عن الارتباك ما جعلنى لا أستطيع أن أمسك عن سؤاله . قلت :

ــ قل لى يا عمى .. انت تعرف كم أحبك ، ولسوف تغفر لى هذا السؤال : أأنت عازم على الزواج ؟

أجابنى عمى وقد احمر وجهه كطفل :

ــ لقد حُدثت اذن عن هذا الامر ، أليس كذلك ؟ اسمع ! سأشرح

لك كل شيء : أولا ، أنا لا أريد أن أتزوج • أمي تريد ذلك • وأختي تريده قليلا • وفوما فومتش هو الذي يحرص عليه اشد الحرص • ان أمي تعبد فوما عبادة • وهي على حق • فمـــا أكثر ما صنع في سبيلها ! الخلاصة أنهم جميعا يحضونني على ان اتزوج تاتيانا ايفانوفنا هذه ، في سبيل المصلحة ، من أجل الاسرة طبعا ! واضح أنهم لا يرون في هـذا الا خيرا لي • أنا أعلم ذلك • ولكنني لن أتزوج بحال من الأحـوال • لقد اليت على نفسي ان لا أفعل • ولكنني لم اجرؤ حتى الان ان اجيب بشيء ، فلا قلت نعم ولا قلت لا • ذلك في طبعي كما ترى • وهم لذلك يظنون أنني موافق ، ويلحون عليّ أن اطلب يدها غدا ، بمناسـبة العيد الذي تحتفل به الاسرة ! من هنـــا ترى ارتباكي ، فانا لا اعرف كيف احتال على الأمر ؟ وبانتظار ذلك أرى فوما فومتش غاضبا مني حاقدا علي، الله يدري لماذا ! وكذلك أمي •• وهانذا انبهك يا عـــزيزي الى انني اعتمد كثيرا عليك وعلى كوروفكين •• انني أريد أن أتحلل من العبء ان صح التعبير •••

ــ لست أرى يا عمي فيم يمكن أن يساعدك كوروفكين !

ــ سوف يساعدني يا صاحبي ، سوف يساعدني • لقد قلت لك اي رجل هو • انه عالم • انه من رجال العلم • انني أعتمد عليه اعتمادي على صخرة صلبة • لقد خلق للانتصـــار ! ليتك سمعته يتـكلم عن السعادة العائلية ! ولا أكتمك أنني أعتمد عليك أيضا • لقد قلت لنفسي : لا بد أن تجد سبيلا الى ردهم الى الصـــواب • احكم في الأمر بنفسك : هبني مذنبا ، وأنا أعترف بأنني مذنب ، لأنني لست مجردا من العاطفة ، ولكن في امكانهم مع ذلك أن يصفحوا عني وأن يغفروا لي ! ما أكثر ما يمكن أن نصبح سعداء ! انك لا تتصور كم كبرت ابنتي ساشا ! لسوف تكون صالحة للزواج في القريب • واليـــوشا أيضا ينمو بسرعة كفطـر من

الفطور ! وسنحتفل غدا بعيده • ولكنني أرتعش خوفا على ساشا • هذه هي القضية •

– قل لي يا عمي : أين حقيبتي ؟ سأبدل ملابسي وأعـــود فورا • أظنها هناك !

– هي فوق يا عزيزي في الطابق الاوسط • لقد أصدرت أمري سلفا بان يقودوك الى الطابق الاوسط عند وصولك حتى لا يراك احد • حسن رايك • هيا بدل ملابسك بسرعه ! فكرة عظيمه ممتـــازة ! وفي أثناء ذلك أمضي أنا الى قاعة الطعام لاهيئهم قليلا •• هيا •• الى اللقاء •• هل فهمت يا بني ؟ لا بد من شيء من المكر • لا بد أن يحذو المرء حذو تاليران* رغم انفه • ولكن لا ضير • هم الان بسبيل احتساء الشاي • نحن هنا نجلس الى المائدة في ساعة مبكرة • ان فوما فومتش يحب تنـــاول الشاي منذ يستيقظ من نومه • يظهر أن في هذا فائدة للصحة •• اتفقنا اذن : أذهب أنا الى هناك وتصــــل أنت ورائي رأســـا ، حتى لا تتركني وحيدا • انني أشعر بحرج وضيق حين أكون وحدي • ولكن استمع الى هذا الرجاء : لا تعمد الى التأنيب والتقريع هناك كما فعلت هنا منذ برهة • اتفقنا ؟ فاذا كان لك ملاحظات تريد أن توجهها اليّ فالأفضل أن تبديها حين نختلي ؛ فالى أن نختلي عليك بالصبر ، هل فهمت ؟ لقد دبرت لهـم « مقالب » رائعة ، فهم الآن هائجون غاضبون •

– اسمع يا عمي : يخيل اليّ بعد كل الذي سمعته ورأيته أنك ••

– أنني رخو ! لا تتحرج من قول ذلك (هكذا صاح عمي على نحو لم يكن في حسباني) أنا أعرف هذا منذ زمن طويل ، ولكن ماحيلتي ؟ هيا ! أأنت آت ؟ عجّل ما استطعت التعجيل ! هل تريد ؟

صعدت الى الطابق الأوسط وأسرعت أفض حقيبتي انصياعا لرغبة

عمي الملحة • ولاحظت وأنا أرتدي ملابسي أنني ما زلت لا أكاد أعرف شيئا مما كنت احرص على معرفته رغم الساعة الطويلة التي قضيتها مع عمي • أدهشني هذا • شيء واحد كان واضحا لي بعض الوضوح : هو أن عمي يحرص حرصا قاطعا على زواجي • معنى هذا ان جميع الشائعات التي تروج عن حبه للفتاة كاذبة • اذكر ان قلقا كبيرا اعتراني على حين فجاة ، فقد خطر ببالي ان وصــولي وصمتي تجاه عمي خاصــة معناهما الموافقة ومعناهما انني قطعت على نفسي عهدا وارتبطت • قلت لنفسي: «ليس من الصعب على المرء أن يقول الكلمة التي تجعل منه رجلا موثق القدمين واليدين مدى الحياة ! ويا ليتني رأيت خطيئتي على الأقل ! » •

ثم ان هذه العداوة التي تضمرها لي الاسرة كلها كانت تصدع راسي أيضا • ما مصدر هذه العداوة ؟ لماذا يعدون وصولي تحديا واستفزازا كما قال عمي نفسه ؟ واي دور غريب يمثله هو نفسه في منزله ذاته ؟ فيم كل هذا السر وهذه الخشية وهذا القلق والعذاب ؟ بدا لي ذلك كله على حين فجأة غريبا غرابة تبلغ من القوة أن جميع أحلامي التي هي مزيج من البطولة والاخيلة الروائية قد طارت من رأسي عند أول اتصال بالواقع، وأصبحت لا أرى من جميع حديث عمي شيئا الا ذلك الجانب العجيب الشاذ من الاقتراح الذي تقدم به الي ، وأدركت أن عمي هو الانســان الوحيد الذي يمكن أن يقدم اقتراحا من هذا النوع فيمثل هذه الظروف، وأدركت أيضا أنني أنا نفسي لا بد أن أكون غبيا الى أقصى حدود الغباء بل معتوها الى أبعد درجات العته حتى أهرع مليا أول نداء له مفتونا عن نفسي فاقدا زمام عقلي • وقد بلغت من اضطراب أفكاري أثناء ذلك أنني ارتديت ملابسي بسرعة محمــــومة دون أن ألاحظ الخــادم الذي كان يخدمني •

ولكن الخادم تكلم فجأة بتأدب مفرط وتهذيب شديد قائلا :

ـ أي ربطة عنق يختار مولاي؟ أتلك التي هي من لون «أديلائيد»*
أم تلك التي لها مربعات ؟ فحدقت اليه ، فرايت انه يستحق انتباهي • انه رجل لا يزال شابا ، وهو لا يرتدي ثياب خادم بقدر ما يرتدي ثياب فتى ريمي مزهو بنفسه • انه يلبس رداء بلون القـــرفه ، وسروالا ابيض ، وصديرة صفراء ، وربطه عنق ورديه ، وحذاتين من جلد لامع ، وذلك كله مقصود متعمد ، لابراز الرشافة واعلان حسن الدوق • ولا شك ان هذا نفسه هو الذي يتحكم في الموضع البارز الذي كانت تحتله من صدره سلسله ساعته • والرجل دقيق قسمات الوجه ، شديد شحوب اللون حتى لكانه الشمع صفرة • والابتسامة التي تتحرك على شفتيه الرقيقتين تسبغ على وجهه تعبيرا عن حزن رفيع • وعيناه الكبيرتان الجاحظتان تبدوان كابيتين، وهما تغرسان فيك نظرة بلهاء لا تخلو مع ذلك من دعوى الرقة والرهافه• وأذناه الصغيرتان الشفافتان محشوتان قطنا لهـــذا الداعي نفسه من غير شك • وشعره طويل أشقر شقرة باهته ، مجعد ومطيب بكثير من الاتقان والاحكام • أما يداه اللتان لهما اظافر طويله معتنى بهما فهما من شـدة البياض والنصاعه بحيث لا بد أنه يغسلهما بماء الورد • ذلك كله كان يدل فيه على افـــراط في تكلف الرفه وتصـنع اللطف والعجب بالنفس والتواني • وكان يقــرز شفتيه ، ويلثغ بالراء تجمـــلا على « الموضه » ، ويجيل طرفه بحركة دائرة ، ويتنهد ويتأوه ، ويتغنج ويتدلل ، وينشر جسمه عطرا قويا • وهو متوسط القامة ، أميل الى الهزال ، يثني ركبتيه حين المشي على نحو خاص لا شك أنه يبدو له آخر صيحة من صـيحات « الموضة » • وباختصار : كان هو الرفاهة بعينها ، والغنج بذاته ، والتصنع بعينه • ولكن شعوره بخطورة شأنه نفـــرني منه وكرهني به من أول نظرة •

قلت وأنا أتأمل الخادم الشاب بقسوة :

ـ هل لون ربطة العنق هذه هو لون « آديلائيد » ؟

فأجابني بلهجة متصنعة واثقا من نفسه :

ـ نعم ... « آديلائيد » !

ـ وهل يوجد لون يدعى لون « آجرافينا » * ؟

ـ لا ياسيدى . لا يمكن أن يوجد لون بهذا الاسم .

ـ لماذا ؟

ـ لان اسم « آجرافينا » غير لائق .

ـ غير لائق ؟ لماذا ؟

ـ الأمر واضح ومفهوم . ان اسم « آديلائيد » اسم أجنبى ملىء نبلا، أما اسم اجرافينا فتسمى به نساء من أدنى درجات الشعب ..

ـ يمينا انك لمختل العقل !

ـ أبدا . عقلى سليم كل السلامة . فى وسعك أن تنعتنى بأبشع الصفات ، ولكن هذا لا يمنع أن كثيرا من الجنرالات بل ومن الكونتات كانوا راضين عن أقوالى .

ـ ما اسمك ؟

ـ فيدوبلياسوف .

ـ ها .. أأنت اذن فيدوبلياسوف ؟

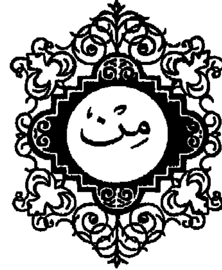
ـ نعم أنا .

ـ اذن فانتظر يا صاحبى ! سوف نتعارف مزيدا من التعارف .

ولم أستطع وأنا أهبط السلم أن أمتنع عن التفكير فى أن هذا المنزل يبدو فرعا من فروع مستشفى للمجاذيب .

٤

الشاي



تلك السطحة نفسها التي التقيت فيها بجافريلا ، يدخل المرء الى القاعة التي تقدم فيها الشاي • كانت الطريقة الغريبة التي حذرني بها عمي من الاستقبال الذي ينتظرني في هذه القاعة تقلقني كثيرا • انه ليتفق للشباب أن يكونوا مسرفين في الحفاظ على كرامتهم وغرورهم حفاظا تصاحبه الخشية ويرافقه الخوف في جميع الأحيان تقريبا • لذلك شعرت بضيق شديد وحرج كبير لا حيلة لي في دفعه حين هممت أن أجتاز عتبة الباب فرأيت جميع الحضور حول المائدة على حين فجأة ، فاذا أنا أتعثر بحافة السجادة من سوء حظي ، فأترنح ، ثم اذا أنا أجدني أثب وثبة واحدة فأصبح في وسط الغرفة ، حتى لا أفقد توازني• حتى اذا صرت هنالك تجمدت وقد اصطبغ وجهي بحمرة شديدة، وأخذت أنظر قدامي نظرة غريبة كمن فقد في آن واحد عمله وسعادته وسمعته•

واذا كنت أذكر هذه الحادثة الطارئة التي تبدو غير ذات بال ، فانما أذكرها لما كان لها من ترجع كبير في حالتي النفسية طوال ما بقي من النهار ، ولما كان لها تبعا لذلك من تأثير كبير على علاقاتي ببعض شخصيات هذه القصة التي أرويها •

لقد أردت أن أنحني ، ولكنني بعد أن ملت الى الأمام قليلا من باب

الاحترام اشتدت حمرة وجهي كما لم تشتد في يوم من الأيام ؛ فما كان مني الا أن هرعت الى عمي فتناولت يده وقلت بصوت لاهث :

ـ صباح الخير يا عمي •

ان ما كنت أريد أن أقوله هو غير هذا تماما : كنت أريد أن أقول كلاما مختارا منمقا، ولكنني لم أعثر على غير هاتين الكلمتين «صباح الخير»، لا أدري لماذا !

أجابني عمي وقد أحرجته خراقتي كثيرا :

ـ صباح الخير ، صباح الخير يا صديقي العـــزيز • لقد سبق أن التقينا •

ثم همس يوشوشني :

ـ لا تكن خجولا مضطربا الى هذا الحد ، أرجوك • ليس هـــذا بشيء • ذلك يحدث لجميع الناس ! ••

والتفت الى أمه يقول :

ـ اسمحي لي يا أماه أن أقدم اليك عزيزنا الشاب • انه مضطرب بعض الاضطراب ، ولكنك ستحبينه حتما •

وأضاف يخاطب الحفل كله :

ـ هو سرجي ألكسندروفتش ، ابن أخي •

ولكن اسمحوا لي أيها القراء الأعزاء ، قبل أن أتابع سرد قصتي ، أن أقدم لكم كل شخصية من هذه الشخصيات التي وجدتني أمامها• ذلك شيء لا بد منه لتسلسل القصة •

كان هنالك عدة سيدات ، ورجلان فقط ، عدانا أنا وعمي • ان فوما

فومتش الذى كنت أرغب كثيرا فى أن أراه ، والذى كان سيد المنزل غير منازع فيما كنت آحسه فى تلك اللحظة ، لم يكن هناك • وكان غيابه قد دهب بكل ضياء الغرفة • فكل واحد غارق فى هم كالح• ذلك امر يخطف البصر • وقد أدركت ، رغم خجلى واضطرابى وقلقى ، أن عمى كان هو أيضا فى خرج وضيق ، وانه كان يبذل جهودا كبيرة فى سبيل أن يخفى اضطرابه وراء مرح مصطنع مجلوب • لكان صخرة ثقيلة كانت تجثم على صدره • وكان أحد الشخصين الجالسين الى المائدة فتى فى نحو الخامسة والعشرين من عمره هـــو اوبنوسكين الذى كان عمى قد اطـرى فكره واخلاقه منذ برهه • لم يعجبنى هذا الرجل • ان كل شيء فيه يكشـف عن تكلف يدل على فساد الذوق • كان رداؤه خلقا رثا رغم حرصه على الظهور بمظهر الاناقة • أما وجهه فهو يعبر هذا التعبير نفسه عن البـلى والرثاثة • ان شاربيه الدقيقين الاصفرين المعقوفين ، ولحيته المنثورة كشثما متفاوتة ، تدل دلالة واضحة على أن صاحبها يدعى الظرف وطرافة الذهن بل والتحرر والانعتاق الفكرى •

وهو لا ينفك يغمز بعينه ويبتسم ابتسامة مكر مصطنع ودهاء متكلف، ويصعر وجهه وهو جالس على كرسيه ، ويحدق الى من خلال نظارته • ولكنه يسقط نظارته كلما التفت نحوه كأننى أقبض عليه متلبسا بالجرم • أما السيد الثانى فهو شـــاب فى نحو الثامنة والعشرين من عمــره • انه ميزنتشيكوف ، قريبى • كان يبدو صموتا جدا فى الواقع • فانه طـوال فترة تناول الشاى لم ينطق بكلمة واحدة ، ولم يشارك أية مشاركة فى الضحك الذى انطلق فيه جميع الحضور • ولكننى لم ألمح فيـه أى شيء يذكر بذلك « الخجل » الذى حدثنى عنه عمى • بالعكس : ان عينيـه الصافيتين الواضحتين الناتئتين قليـــلا تدلان على أنه صلب العزيمة قوى الطبع •

وان له شعرا اسود ، وبشرة ملفوحة ، وقسمات جميلة • وكان يرتدى ثيابا انيقه ـ على نفقه عمي طبعا ، كما عرفت ذلك فيما بعد •

اما بين السيدات فان تلك التى لاحظتها قبل غيرها انما هي الآنسه بيريبلستين ، وذلك بسبب ما يتصف به وجهها الكالح الباسر من زرقه ضاربه الى سواد • كانت جالسة قرب الجنرالة التى ساصفها فيما بعد ، ولكنها متاخرة عنها قليلا من باب الاحترام والاجلال • وكانت تميل عليها، بين الفينة والفينه لتهمس فى آذن حاميتها ببعض الكلام • وكان ثمة امرآتان عجوزان أو ثلاث نسوة عجائز مصطفات قرب النافذة لا يقلن شيئا ولا يتفوهن بكلمة • وانما هن ينظرن الى السيدة الجنرالة ويرقبن باحترام ان يؤمر لهن بالشاى • وقد لفتت انتباهي آيضا سيدة بدينة سمينة فى نحو الخمسين من العمر ، مترهلة اللحم ، مثقلة الوجه بالزينة ، محزومة حزما فظيعا بثوب صارخ الالوان ، وليس لها من الاسنان الا بقايا جذور مسودة ، ولكن ذلك لا يمنعها قط من اطلاق صرخات صغيرة ، أو من اجالة طرفها ذات اليمين وذات الشمال ، أو من التظرف والتدلل والتغنج • ان أنواعا من السلاسل تزين صدرها ، وهى ما تنفك تضع نظارتيها على عينيها لتحدق الىّ وتتفرس فى ، كما كان يضع السيد أوبنوسكين نظارته لهذا الغرض • انها آمه على كل حال • وكانت عمتى اللطيفة براسكوفى ايلينتشنا تصب الشاى • أحسست أنها تحترق شوقا الى تقبيلى بعد طول الفراق ، بل الى تقبيلى باكية • ولكنها كانت تكبح جماح نفسها وتسيطر على عاطفتها • كان كل شيء يبدو ممنوعا محظورا فى هذا المنزل • وكانت البنت الصغيرة ذات العينين السوداوين ، الجالسة قربها ، تحدق الىّ بنظرة ثابتة واستطلاع طفولى • انها بنت عمى ساشا ؟ وهى صبية فى الخامسة عشرة من عمرها • وأخيرا فان السيدة التى أثّرت فى نفسى أكثر من غيرها بين سائر السيدات كان لا بد أنها فى نحو الخامسة

والثلاثين ، ولكنها كانت تتزين زينة فتـــاة شابة • كان لهـــذه المخلوقه الغريبه وجه نحيل شاحب كانه يابس ، ولكنه وجه كثير الحركه• فالحمرة تصعد الى خديها الشاحبتين عند ايسر تاثر ، ولدى اقل حركه ؛ وكانها لا تستطيع ان تلبث في مكانها هادئة ، من فرط ما تتحرك وتضطرب على كرسيها • وكانت تنظر الى باستطلاع شره نهم ، ثم تميل بغير انقطاع على ساشا او على جارتها الاخرى لتهمس في اذنهما ببعض الكلام ، ثم ما تلبث ان تنطلق في ضحكه فرحه ولكنهـا ضـــحكه طفـولية بغـير تكلف • وما كان أشد دهشتي حين لاحظت انه ما من احد كان يولى شذوذها أي انتباه كانما هم قد تعاهدوا على ذلك • وقد حزرت انها تاتيانا ايفانوفنا ، الانسة التي وصفها عمي بانها غريبة الاطوار ، والتي يريدون ان يتزوجها عمي بسبب ثرائها الطائل ، والتي يدللها جميع من في المنزل لهذا الغرض• ومع ذلك فان عذوبه عينيـــها الزرقاوين قد فتنني • ان في هاتين العينين من المرح والصراحة والطيبة ما يجعل المرء يسر للقائهما ، رغم الغضون التي تخددهما منذ الان • ولما كانت تاتيانا ايفانوفنا هذه احدى « البطلات » الرئيسيات في قصتي ، فسأتكلم عنها فيما بعد بمزيد من التفصيل • ان سيرة حياتها شائقة جدا • وبعد وصـــولي الى القاعه بنحو خمس دقائق اسرع ابن عمي اليوشا يأتي من الحديقة • انه هو الطفـــل الفتان الذي سيحتفلون بعيده في الغداة • كانت جيوبه ملأى بعظيمات صغيرة مما يلعب به الأطفال ، وكان في يده خذروف • ووراءه دخلت فتاة رشيقة القوام بارعة الجمال كان يبدو أن وجهها قد شحب من التعب • ألقت على الحفل نظرة فاحصة وجلى خجلى في آن واحد ، وحدقت الىّ ، ثم مضت تجلس قرب تاتيانا ايفانوفنا • أتذكر أن قلبي أخذ يخفق عندئذ خفقانا قويا رغم ارادتي • لقد أدركت أنها هي المعلمة الشابة التي سبق الكلام عليها •• وأتذكر أيضا أن عمي رشقني عنـــد دخولها بنظرة خاطفـة ، وسرعان

ما احمر وجهه ، فمال على اليوشا ، وتنـــاول يده ، وجاءني به لاقبله • ولاحظت كذلك أن السـيدة اوبنوسكين ، بعـد أن تفرست في عمي ، وجهت نظارتها نحو المعلمة الشابه مبتسمه • واحتار عمي فيما يصنع ، وأحسست انه ود لو يقود ساشا نحوي ليعرفني بها ، ولكن البنية اكتفت بان نهضت وحيتني من مكانها منحنية انحناءة الاحترام ، فراقني ذلك منها كثيرا ، لأنه يناسبها •

وفجاة لم تطق عمتي الطيبه براسكوفي ايليتشنا صبرا ، فاذا هي تنقطع عن صب الشاي وتسرع نحوي فتضمني بذراعيها • ولكن ما كدت اقول لها كلمتين ، حتى دوى صوت الانسة بيريبلستين هاتفا :

ـ لا شك ان براسكوفي ايلينتشنا قد نسيت السيدة الجنراله امهـــا التي طلبت شيئا من الشاي وما زالت تنتظر •

فسرعان ما تركتني براسكوفي ايلنتشنا وهرعت تؤدي واجباتها • ان الجنراله ، وهي الشخصية الرئيسيه في هذه الحلقة ، الشـخصية التي يخفض لها الجميع جناح الذل ، عجوز نحيلة الجسم جهمه الوجه ترتدي ملابس الحداد ـ ولعلها جهمة الوجه بسبب السن وبسبب فقدانها آخـر ما تملكه من ملكات عقلية ، وهي ملكات لم تكن لامعه منذ أن لم تكن الا امرأة مختلة • ولم يزدها لقب الجنرالة الا حماقه وعجرفة ، فاذا غضبت استحال المنزل كله الى جحيم • وكان لها في ذلك طريقتان ، فأما الطريقة الأولى فهي الصمت : فالعجوز تظل أياما بكاملها لا تفتح فمها ، وترفض متجهمة الوجه كل ما يقدم اليها أو ترميه على الأرض • وأما الطـريقة الثانية فهي نقيض ذلك • فالجنرالة تتدفق عندئذ في الكلام تدفقا غزيرا • ويبدأ الأمر في العادة على النحو التالي : تهوي جدتي (فهي جدتي) الى حزن قريب من اليأس ، وتأخذ تتنبأ بقرب الساعة ونهـــاية العالم ودمار

أسرتها وتقول ان البؤس وأفظع أنواع الشـقاء تهم أن تقـع • ويزداد غمها وكربها أثناء كلامها على تنبؤاتها ومخاوفها ، حتى تصل من ذلك الى أن تأخذ تعد الكوارث المقبله على اصابعها ، وتسقط اخـيرا فى نوع من « الاغماء » ؛ وهى تعلن عندئذ بطبيعة الحال أنها اذا لم تكن قد قالت حتى ذلك الحين شيئا ، فلأنها مضطرة الى هذا اضطرارا : افليس عليها « فى هذا المنزل » ان تسكت عما يعذبها ويقلقها أكثر من أى شىء اخر منـذ زمن طويل ؟ اه •• ليتهم أظهروا لها شيئا من الاحترام على الاقل ! •• ليتهم أصغوا الى كلامها مزيدا من الاصـــغاء ! •• اذن لكانت الحال غير الحال •• الخ الخ •• وكان قطيع سيدات حاشيتها ، ثم الآنسة بيريبلستين، يؤيدن كلامها فورا ، وكذلك فوما فومتش الذى يجد فى جميع الأحيـان سبيلا الى تعزيز قولها فى تفخم وتعاظم • حين رأيت جدتى كانت تحضن غضبها على الطريقة الاولى ، وهى ارهب الطريقتين من غير شك • كانت صامتة وكان كل واحـــد من الحضـور يتأملها مهموما مغموما خائفا •• الا تاتيانا ايفانوفنا التى يبدو أن كل شىء كان مباحا لها •• فقد كانت مشرقة المزاج لم يفسد صفاءها شىء • قادنى عمى الى جدتى فى شىء من الوقار والجلال • ولكن جدتى مطت شفتيها امتعاضا واستياء ، ودفعت عنها فنجان الشاى بحركة عنيفة •

وضغضغت تقول مخاطبة السيدة بيربلتسين :

ــ هو البهلوان ؟

فما ألقت جدتى هذا السؤال حتى ارتبكت ارتباكا شديدا ، ولم أفهم لماذا تصفنى بالبهلوان • ولكن المرء يمكن أن يتوقع أشياء كثيرة أخـرى من الجنرالة •

مالت بيربلتسين عليها ، وهمست فى أذنها ببعض الكلام ، فهـزت

الجنراله عندئذ يدها بحركة تنم عن العداء • وكنت واقفا أمامها ، فالتفت الى عمي بنظرة مسائلة وقد فغر فمي من الدهشة • وتبادل جميع الحضور نظرات خاطفة ؛ وحتى آوبنوسكين كشف عن أسنانه ، وذلك أمر تقززت منه كثيرا •

همس عمي يقول لى مرتبكا كارتباكى :

ـ انها تخرف من حين الى حين • ولكن ليس هذا بشيء • ان طيبة قلبها هى التى تجعلها كذلك • وانما ينبغي للمرء أن ينظر الى القلب •

صاحت تاتيانا ايفانوفنا تقول فجأة بصوت واضح ترجَّع مدوياً فى وسط الصمت :

ـ نعم ، الى القلب ، الى القلب •

كانت لا تحوّل عنى بصرها ، ولا تستقر فى مكانها • لا شك آن كلمه « قلب » التى نطق بها عمي بصوت خافت قد بلغت سمعها •

ولكنها ، رغم رغبتها الواضحة فى اصدار رأى ، لم تكمل كلامها ، بل صمتت ، سواء عن خجل أو لأى سبب آخـــر ، واحمرت احمرارا شديداً ، ومالت على المعلمة بحركة عنيفة لتهمس فى أذنها بشيء ، ثم لم تلبث أن حملت منديلها الى فمها بغتة ، وارتدت الى وراء على ظهر مقعدها، وانفجرت تضحك ضحكا بدا لى هستريا • نظرت الى الحضور مذهــولا مصعوقا • فما كان أشد دهشتى حين رأيت كلا منهم محافظا على جده ووقاره كأن لم يحدث شيء غريب • فأدركت عندئذ ماذا يجب أن يكون رأيى فى تاتيانا ايفانوفنا • وصُبَّ لى الشاى أخيرا ، فاستعدت شـيئا من هدوئى ورباطة جأشى • ولا أدرى لماذا اعتقدت عندئذ أن علىَّ أن أشرع فى حديث متودد لطيف مع السيدات • قلت :

ـ لقد كنت على حق يا عمى حين نبهتنى منذ قليل الى أن علىَّ أن لا أضطرب •

ثم اردفت أقـول مخاطبا السـيدة أوبنوسكين وأنا أبتسـم ابتسامة مشجعة :

ـ يجب أن أعترف صراحة ـ وفيم أخفى ذلك ؟ ـ أننى لم آكـد أختلف حتى الان الى سيدات • وان دخولى المتعثر الى هذه القاعة قـد أسبغ على هيئة رجل اخرق • هل قرأتم قصة « الاخرق» *؟

كـذلك أضفت وقد احمـر وجهى • لم يبـق لى كثير من رباطة الجاش • ولكن هذا لم يمنعنى من ان ارشق السيد اوبنوسكين الذى كان لا يزال كاشفاً عن اسنانه وكان ينظر الى من الراس الى القـدمين ، ان أرشقه بنظرة متوعدة مهددة •

صاح عمى يقول بحماسة وقد أبهجه أن يبدأ الحديث أخيرا ، وأن يرى ابن اخيه مستردا هدوءه :

ـ صحيح جدا ، صحيح جدا • يا صاحبى ، ليس شيئا أن يضطرب المرء بعض الاضـطراب • وليس يبقى لهـذا اثر من الاثار • هل تعرف ما وقع لى أنا فى أول عهدى ؟ لقد كذبت • أيمكنك أن تصدق ؟ أؤكد لك يا انتوز بتروفنا أنها حادثة مضحكة جدا • كنت قد قبلت فى المدرسة الحربية • فما ان وصلت الى موسكو حتى ذهبت الى سيدة كبيرة كنت أحمل لها كتاب توصية • انها امرأة كبيرة القلب رغم أنها متكبرة متعالية• دخلت الى صالون غاص بأناس أكثرهم من عليـة القـوم • انحنيت محييا وجلست • فما هى الا لحظة حتى سألتنى السيدة : « هل تملك أطيانا ؟»• ولم أكن أملك حتى خماً حقيرا للدجاج ! فبماذا كان يجب أن أجيب ؟ اضطربت اضطرابا شديدا • وكان جميع من فى الصالون ينظـرون الىَّ

نظرة معناها : « مالك أيها الغر ؟ ألا تريد أن تتكلم ؟ » • لا أدرى لماذا لم اقل انني لا أملك شيئا ! لو قلت ذلك لكان خيرا ، لأنه هو الحقيقة • غير أنني لم أجرؤ ، فقلت : « نعم ، أملك أرضا عدد أقنانها مائة وسبع عشرة نفسا » • لماذا مائة وسبع عشرة بدلا من رقم كامل ، هه ؟ فكرة غريبة ! وها هم أولاء يعرفون بعد دقيقة واحدة ، من رسالة التوصية التي احملها للسيدة ، أنني صعلوك كفأرة كنيسة ، وكذاب فوق ذلك ! ماذا بقي عليّ ان افعل ؟ بقي عليّ أن أهرب بأقصى سرعة ، وأن لا أضع قدمي في هذا المنزل بعد الان في يوم من الأيام ! •• في ذلك الاوان لم أكن أملك ما أملكه الآن • ان الثـــلاثمائة نفس التي ورثتها عن جدي آناستازي ماتفئتش والمـــائتي نفس التي ورثتها مع كابيتونوفكا من جدتي آكيلين بانفيلوفنا •• ومجموع ذلك خمسمائة نفس •• ذلك كله ليس بالأمر اليسير •• ومنذ ذلك اليوم انما آليت على نفسي أن لا أكذب قط •

قال أوبنوسكين وهو يبتسم ابتسامة ساخرة :

ـ لو كنت في مكانك لما آليت على نفسي شيئا •

فقال عمي مؤيدا ببساطة وبراءة :

ـ نعم ، صحيح ، صحيح جدا • فليس يعرف أحد ما يمـــكن أن يحدث !

فانفجر أوبنوسكين مقهقها وهو ينقلب على ظهر كرسيه • ابتسمت أمه ، وضحكت الآنسة بيربلتسين ضحكا كريها • أما تاتيانا ايفانوفا التي أخذت تضحك أيضا ، فقد صفقت يديها دون أن تعـــرف لمـــاذا تصفق • الخلاصة أنني رأيت أن عمي لا يعد شيئا مذكورا في منزله نفسه • وألقت ساشا على أوبنوسكين نظرات تشتعل حنقـــا • واحمرت المعلمـــة من الاضطراب • ودهش عمي •

قال وهو يجيل بصره فى الحلقة كلها قلقا :

ــ ماذا ؟ ماذا هناك ؟

وفى أثناء ذلك ، ظل ابن عمى ميزنتشـــيكوف صامتا منتحيا • ان هذا المرح الشامل لم ينتزع منه حتى ابتسامة • كان مكبا على قدح الشاى يحتسيه هادئا ، وينظر الى الناس الذين يحيطون به نظرة فيلسوف • وقد بدا لى غير مرة انه يهم ان يصفـر على العادة القديمة دفعا لضجر لايطاق ، ولكنه كان يكبح جماح نفسه كل مرة فى الوقت المناسب • وتراءى لى آن اوبنوسكين الذى كان يتهكم على عمى صراحة ، ويلتهمنى بعينيه التهاما ، كان لا يجسر ان ينظر الى ميزنتشيكوف وجها لوجه • ولاحظت أيضا أن ابن عمى الصموت كان يتاملنى خلسة باستطلاع واضح ، كأنه يحاول آن يروز قيمتى كانسان •

نبصت السيدة أوبنوسكين تقول على حين فجأة :

ــ أنا متأكدة ، أنا متأكدة كل التأكد يا سيد سرجى ــ أليس هـــذا هو اسمك ؟ ــ انك لم تكن فى عاصمتنا بطرسبرج من عباد الســـيدات المتحمسين ! اننى أعرف أن كثيرا من الشباب فى هذه الأيام ينفرون من صحبة النساء • وهؤلاء فى رأيى ملاحدة • لست أستطيع أن أصف هذا الا بأنه غاية التحلل • وأؤكد لك ، أيها الفتى ، أن هـــذا يدهشنى الى أقصى حدود الادهاش ، نعم الى أقصى حدود الادهاش ! ••

أجبتها بسرعة مفرطة :

ــ أنا لم أختلف الى المجتمع قط •• غير أن هذا ليس بذى بال •• كنت أعيش فى مسكن صغير ، وكنت أمكث فى بيتى كثيرا ••• لا ••• ليس هـــذا بذى بال ••• تستطيعين أن تصدقينى ••• ســـوف أرتاد المجتمع •••

قال عمى شارحا معللا فى أبهة :

ـ كان يدرس العلوم •

ـ آه ••• أتعود الى الكلام على هذا يا عمى ؟

كذلك هتفت أقول ، ثم أضفت بلهجة طليقة وأنا التفت مرة أخرى نحو السيدة أوبنوسكين ، مبتسما ابتسامة تودد وتحبب :

ـ تصورى أن عمى يبلغ من عبادته للعلم أنه عثر فى الطريق العام على رجل يعده حدثا خطيرا • انه فيلسوف عملى اسمه كوروفكين • حتى أن أول كلمة بادرنى بها بعد كل هذه السنين الطويلة من الفراق هى آنه ينتظر وصول هذا الحدث نافد الصبر محموما ••• هه ؟ أرأيتم الى ما يمكن أن يفعله حب العلم ؟! •••

ولتأكدى من أن فكاهتى ستبهج جميع الحضور ، انطلقت أضحك•

سألت الجنرالة على حين فجأة متجهة الى الآنسة بيربلتسين :

ـ من ؟ من الرجل ؟

قالت الآنسة تشرح بلهجة ساخرة متكبرة :

ـ لقد دعا ياجور ايلتش علماء • انه يذهب الى الطريق العامليلتقط عددا منهم •

فنظر الىّ عمى نظرة عتاب ، وقد شعر بانزعاج وحرج ، ثم هتف يقول :

ـ صحيح ! نسيت أن أقول لكم • اننى انتظر كوروفكين • هـو عالم كبير ••• ستكون أعماله فتحا جديدا •••

قال عمى ذلك وصمت فجأة كأن الكلمات اختنقت فى حلقه • وفى

هذه المرة قامت الجنرالة بحركة بلغت من الاحكام أنها دفعت فنجانا من الفناجين فانكسر متدحرجا من الطاولة على أرض الغرفة • فتبع ذلك انفعال عام •

همس عمي يقول لي مضطربا اضطرابا شديدا :

ـ ذلك يحدث كلما غضبت • لا بد لها أن تتناول شيئا من الاشياء وأن ترميه على الارض ••• حين تغضب فقط ••• لا تنظر ••• أدر رأسك الى الجهة الاخرى ••• لماذا جئت على ذكر كوروفكين ؟

ولكنني كنت قد أدرت رأسي الى الجهة الاخرى قبل أن يوصيني بذلك • وفي تلك اللحظة نفسها التقيت بنظرة المعلمة • كانت حمرة الاستياء تخضب وجنتيها الشاحبتين • وبدا لي أن نظرتها كانت مشحونة بعتاب واحتقار في آن واحد ؟ أو هذا ما فهمته من تلك النظرة على الأقل ، وادركت أن رغبتي الطائشة الغبية في أن أضحك الناس على عمي بغية أن أظهر لهم أقل سخفا منه قد حرمتني من عطفها وحدبها •• لا أستطيع أن أعبر عن مدى ما شعرت به عندئذ من خجل ، ومدى ما أحسست به من عار •

فلما هدأ الانفعال الذي أثاره انكسار الفنجان صاحت آنتوز بتروفنا تقول :

ـ فلنتكلم عن بطرسبرج أيضا • انني أتذكر هذه المدينة الأخاذة ، فتتملكني فتنة • كنا آيامئذ عند الجنرال بولوفستين أصدقاء حميمين ••• هل تتذكر يا بافل ؟ ••• آه ••• ما كان أروع زوجته الجنرالة ! ••• المجتمع الراقي ••• المجتمع الارستقراطي ••• لا شك أنك التقيت بها •• يجب أن أعترف لك بأنني انتظرتك طويلا بصبر نافد ••• انني آمل أن أعرف منك أشياء كثيرة عن أصدقائنا ببطرسبرج •

ـ يؤسفني أنني لا أستطيع أن أحقق ظنك ••• فكما قلت منذ هنيهة ••• أنا لم أختلف الى المجتمع ••• ولاأعرف الجنرال بولوفستين، ولا سمعت أحدا يتكلم عنه •••

كذلك قلت بشيء من التململ والتبرم •

هتف عمي الذي لا يتعظ ولا يعتبر ، هتف يقول :

ـ كان منصرفا الى علم المعادن ••• وعلم المعادن هو دراسة مختلف أنواع الحجارة ، أليس كذلك ؟

قلت :

ـ نعم يا عمي ، هو دراسة الحجارة •••

ـ هـم ••• العلوم شتى ••• ولكل علم من العلوم فائدته ! الحق أنه يلبكني ان أشرح ما هو علم المعادن • فأنا في شئون العلم لا أحسن غير السماع ••• اما أن أفهم شيئا فذلك شأن آخر ••• أنا لا أفهم في هذا الميدان شيئا ••• أعترف بذلك بكل اخلاص •••

قال أوبنوسكين يردد كلماته ضاحكا :

ـ تعترف بذلك بكل اخلاص ؟

صاحت ساشا وهي تلقي على أبيها نظرة متوسلة ضارعة :

ـ بابا !

ـ ماذا يا عزيزتي ! آه ••• معذرة يا آنتوز بتروفنا ••• لقد قاطعتك ••• اعذريني ••• أرجوك •••

كذلك قال عمي الذي يرغب دائما في الاعتذار ، ولم يفهم ماكانت تريد منه ساشا •

أجابت آنتوز بتروفنا وهى تبتسم ابتسامة مدببة :

ـ أوه ! ليس الأمر بذى بال ••• لقد انتهيت من سؤال ابن أخيك عما كنت أحرص على معرفته ••• ومع ذلك يا سيد سرجى ـ أليس هذا هو اسمك ؟ ـ اليك النتيجة التى خلصت اليها : عليك أن تصلح نفسك •• أنا مقتنعة بأن للعلوم والفنون •• كفن النحت مثـــلا •• أن لجميع الأفكار العظيمة جانبا أخاذا ••• ولكنها لا تغنى عن السيدات • ان النساء، نعم النساء ، أيهـــا الفتى ، هن اللواتى سيثقفنك ••• لذلك لن تستطيع الاستغناء عنهن ••• مستحيل ••• مستحيل •

ورددت تاتيانا ايفانوفنا بصوتها المجلجل تقول :

ـ مستحيل ••• مستحيل •••

وأضافت بنوع من التعجل كتعجل الأطفال وهى تحمـر احمرارا شديدا :

ـ اسمع ، أريد أن أسألك •••

فأجبتها وأنا أنظر اليها بانتباه شديد :

ـ أنا مصغ اليك يا آنسة !

ـ أريد أن أسألك • أأنت باق هنا زمنا طويلا ؟

فأجبت :

ـ والله ••• لا أدرى ••• هذا رهن بأعمالى •••

ـ أية أعمال ؟ كيف يمكن أن تكون له أعمال ؟ ما هذا المختل ؟

قالت تاتيانا ايفانوفنا ذلك واصطبغ وجههـــا بلون الأرجوان حتى

الأذنين ، وأخفت وجهها وراء مروحتها ، ومالت على الخـادمة فأخـذت توشوشها ثم صفقت بيديها فجأة وانطلقت تضحك •

قالت وهي تترك نجيتها لتخاطبني مرة أخرى بحرارة وقوة كأنها تخاف أن لا يتسع وقتها لشرح ما بنفسها قبل أن أنصرف :

ـ انتظر ، انتظر ••• اليك ما يجب على أن أقوله لك : انك تشبه أحد الناس شبها كبيرا ، شبها كبيرا ، هو فتى كان ••• نعم فتى رائع •• ساشا ، ناستيا ، ألا يشبه ذلك المختل الاخر ؟ هل تتذكرين يا ساشا ••• ذلك الذي التقينا به ••• الذي كان راكبا حصانا ، وكان يرتدي صديرة بيضاء ••• ونظر الىّ من خلال نظارته ••• ذلك الوقح ! وعنـدئذ لم أطق صبرا، فخفضت حجابي وقفزت من العربة وصحت اقول له : «ياللك من وقح وغد ! » وأنا أرمي ياقتي على الطريق ••• هـــل تتذكرين يا ناستيا ؟

قالت هذه الآنسة الولهى ذلك منفعلة ، ودفنت وجهها في يديها ، وبعد لحظة وثبت من مكانها وركضت الى النافذة • وهناك تناولت وردة من مزهرية فرمتها على الأرض قربي ، ثم هربت الى غرفتهـــا قائلة : « وداعا ، لقد رأيتك » • وأعقب ذلك شيء من اضطراب • ومع ذلك فان الجنرالة احتفظت بهدوء كامل ، كأنما لأول مرة • ولم تظهر الدهشـــة كثيرا على آنتوز بتروفنا ، ولكنها لم تلبث أن اضطربت فجأة ، لا يدري أحد لماذا ، ونظرت الى ابنها بشيء من القلق والخوف • واحمرت الآنسات •• وأظلم وجه بافل أوبنوسكين دون أن أستطيع عندئذ أن أدرك علة ذلك ، ونهض من مكانه ومضى الى النافذة • أما عمي فقـد أخذ يومىء الىّ • وفي تلك اللحظة ظهر شخص جديد لفت اليه كل الانتباه •

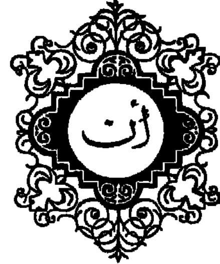
صاح عمي دون أن يخفي فرحه :

ـ ها ••• هذا أوجراف لاريونتش ! يا للمفاجأة الجميلة ! أأنت واصل من المدينة ؟

قلت لنفسى : « ياله من معرض حيوانات! لكأنهم قد اختيروا اختيارا دقيقا ! » • قلت لنفسى ذلك دون أن أفهم كثيرا ما يجـرى أمام عينى ، ودون أن يخطر ببالى أننى أصبحت واحدا من هذه المجموعة منذ ظهورى بين هؤلاء الناس •

٥

ياجيفلكين



شخصا مضحكا قد دخل الى الغرفة ، أو قل تسلل مواربا رغم أن الباب كان مفتوحا على مصراعيه . انه منذ كان فى العتبة ينحنى احتراما ويتثنى اجلالاً ، وينثر الابتسامات العريضة يمنة ويسرة . ولكن هذا لا يمنعه أن يفحصنا باستطلاع قوى . انه عجوز قصير مجدور حاد البصر متهرب النظرة أصلع الجبين ، له فم غليظ الشفتين تتلاعب عليهما ابتسامة هى أقرب الى الهزء والسخر . كان الرجل يلبس رداء متهرئا لا يتناسب وقامته ، قد تدلى أحد أزراره فى طرف خيطه ، وأعوزه زران آخران ؛ وهو ينتعل حذاءين معقوفين الى وراء ، ويضع على رأسه قبعة متدرنة تكمل رداءه الفقير البائس ، ويحمل بيده منديلا ذا مربعات ، متسخا اتساخا شديدا ، كان يجفف به عرق جبينه وصدغيه .. رأيت المربية تلقى علىّ نظرة سريعة وتحمر قليلا ، ولكن بدا لى أن نظرتها كانت نظرة متحدية ولا تخلو من كبر وخيلاء .

ـ من المدينة رأسا يا عزيزى المحسن الى ، المنعم على ! من المدينة رأسا ... سأقص عليك الأمر تفصيلا ... ولكن اسمح لى أولا أن أقدم احترامى لمن يجب علىّ أن أقدمه له .

كذلك قال القادم الجديد ، وهو يتجه نحو الجنرالة . ولكنه سكن متجمدا فى منتصف الطريق اليها ، وأردف يقول مخاطبا عمى :

ـ أيها العزيز المحسن الىّ المنعم على ، انك تعرف صفتى المميزة • أنا رجل مسكين ، ما ان أدخل حتى أتسلل نحو الشخصية الرئيسية فأمثل أمامها لأحظى برضاها ، فاننى أحرص على الحظوة بهذا الرضى منذ أول خطوة أخطوها• أنا رجل مسكين ، أيها المحسن الىّ ، المنعم علىّ ، أنا انسان صعلوك ••• اسمحى لى يا سيدتى المحترمة الجليلة ، اسمحى لى يا صاحبة السعادة ، أن أقبل طرف ثوبك حتى لا أوسخ بشفتى يدك الغالية التى هى يد جنرالة !

وما كان أشد دهشتى حين رأيت الجنرالة تمد اليه بيدها بكثير من الرضى •

وتابع الرجل يقول متجها الى الآنسة بيربلتسين :

ـ وأنت يا جميلة الجميلات ، اليك تحياتى واحترامى ! لا حيلة لى يا سيدتى العظيمة ••• أنا انسان بائس • لقد تقرر هذا منذ سنة ١٨٤١ ، حين طردت من الوظيفة ، ورقّى فالانتان تيخونتسيف • لقد عينوه « معاون قاض » * ، وردونى أنا رجلا مسكينا بائسا • ما حيلتى ؟ كنت سأحاول أن أبقى رجلا شريفا ، أما الآن فيجب أن أعرف كيف أدبر أمورى ! وأنت يا الكسندرا ياجوروفنا (تابع يقول ذلك بعد أن دار حول المائدة ليقترب من ساشا) ، يا تفاحة صغيرة جميلة ، اسمحى لى أيضا أن أقبل ثوبك ! نعم انك كالتفاح عبقا وشذى ! ويا اليوشا ، اليك احترامى• لقد حملت اليك يابنى العزيز قوسا ونبالا • أعددت ذلك فى الصباح ،واشترك معى فيه كل من فى المنزل • سوف يتاح لنا استعمال القوس ، حتى اذا كبرت أصبحت ضابطا وقطعت رءوس الترك ••• تاتيانا ايفانوفنا ••• آه ••• انها ليست هنا ، هذه المحسنة الكريمة ، فلا سبيل الى تقبيل ثوبها

•• ويا براسكوفى ايلينتشنا ، يا فاتنة ، لو استطعت أن أصـل اليك اذن لقبلت يديك وقدميك ! نعم ••• تماما ••• آنتوز بتروفنا ••• أقـدم اليك تحياتى المتواضعة الذليلة • فى هـذا اليوم نفسه ، أيتها المحسـنة ، دعوت لك راكعا على ركبتى ، والدموع تملأ عينى ، سائلا المولى أيضـا أن يغمر ابنك بالرتب والمـواهب ، بالمـواهب خاصـة ! وأنت يا ايفـان ايفانوفتش ميزنتشيكوف ، اسمح لى أن أحييك ••• أسأل الله أن يهب لك كل شىء محققا جميع أمنيـاتك ••• ولكن المـرء لا يعـرف ما هى أمنياتك ، فأنت صامت دائما ••• نعمت صباحا يا ناستيا ••• الاطفـال يبعثون اليك بتحياتهم • اننا نتكلم عنك كل يوم • والآن ، تحيتى العميقة لرب المنزل ، لسيد الدار • هأنذا عائد من المدينة تواً يا صاحب النبالة ! ها ••• هذا هو ابن أخيك عاد من الجامعة ولا شك ••• أقدم اليك كل احتراماتى يا سيدى ، هات يدك ، أرجوك •

ضحك الجميع • كان من السهل أن يدرك المرء أن الرجل يهرج •• لقد جاء بمجيئه الفرح والمرح • ان أكثر الحضـور لم يفهمـوا سخرياته ، مع أنه لم يقتصـد فيها كثـيرا ••• وقد لاحظت أن المربيـة وحدها ، وهى التى أدهشتنى أن يخاطبهـا باسـمها المصغر ناستيا ، قـد احمرت وقطبت حاجبيها •

سحبت يدى بدلا من أن أمدها • ولكن الرجل لم يكن ينتظر الا هذا •

ــ كنت أريد أن أصافحك يا صديقى ، ولم تكن لى نية غير هـذه النية ! آ ••• ظننتَ أنت أننى أريد أن أقبل يدك ! أخطأت الظن ! ما كنت أنوى الا أن أصافحك أولا • أفتظننى مهرج المنزل ؟ (أضاف ذلك وهو يرمقنى بنظرة ساخرة) •

قلت :

ـ أبدا ، وانما أنا •••

ـ طيب يا صديقي العزيز ! لئن كنت أضحك النـــاس هنا فلست بالوحيد • أما أنت فما يزال في وسعك أن تحترمني • لست بالتافه الى الحد الذي قد تتوهمه • وأي ضير في أن أريد أنا ذلك على كل حال ؟ انني مســتعبد ، وامرأتي كذلك ، ويجب علينــا أن نتملق ، أن نتملق دائما • ذلك هو الأمر حين يكون ثمة أطفال لا بد من اطعامهم • أقول لك سراً قد ينفعك في يوم من الأيام • حين لا يواتي الحظ ، فلا بد من التهريج ! •••

صاحت آنتوز بتروفنا :

ـ هيء هيء هيء ! يا للعجوز الفاجر ! لا تعوزه كلمة مضحكة في لحظة من اللحظات !

ـ أيتها الحامية العزيزة ، أنت تعلمين أن الاغبياء هم الذين يعرفون كيف يدبرون شئونهم خيرا من غيرهم ! ولو قد أدركت ذلك في أوانه اذن لمثلت دور المجنون منــذ شبابي ، ولربحت من ذلك ذكاء • ولكنني أردت أن أكون عاقلا حكيما في وقت مبكر فأصبحت غبيا أحمق أثنـــاء شيخوختي• •

وكان أوبنوسكين غائصا في مقعده ، واضـــعا نظارته على عينيه ، يتأمل العجوز بوقاحة • لعله قد استاء من الماع العجوز الى « مواهبــه » ، فها هو ذا يقاطعه الآن سائلا :

ـ قل لي ، من فضلك ، ما اسم أسرتك ؟ انني أنساه دائما •

ـ يا سيدي العزيز ، اذا كنت تحرص على أن تعـرف اسمي فان

اسمي ياجفكين ، ولكن ليس هذا بأمر ذى بال ! لقد فقدت منصبى منذ ثمانى سنين ، وما زلت أعيش بحكم العادة ، وأنجبت أولادا بعد أولاد ، فصار لى أسرة يجب أن تسمى هولسكى حقا * • لم يكذب المثل حين قال :

عند الغني تزخر الحظيرة

عند الفقير ، الكل حول المائدة

ـ دع الأمثال جانبا ، واسمعنى ! أريد منذ زمن طويل أن أسألك لماذا تلتفت الى وراء كلما دخلت علينا ؟ ذلك أمر غريب !

ـ لماذا ألتفت الى وراء ؟ لأننى أتخيل أن أحدا سيلطمنى على ظهرى فجأة كما تلطم ذبابة • ومن أجل هذا انما ألتفت الى وراء • لقد أصبحت مجنونا تحاصرنى هذه الفكرة الوحيدة محاصرة مستمرة •

استأنف الحضور الضحك قويا • ونهضت المعلمة كأنها تريد أن تنصرف ، ولكنها عدلت عن رأيها وعادت تجلس فى مكانها ، فكان وجهها، رغم الحمرة الشديدة التى تغشاه ، يكشف عن ألم مرضى •

همس عمى فى أذنى يقول :

ـ ألم تفهم ؟ انه أبوها !

نظرت الى عمى محملقا • لم يكن قد بقى لاسم ياجفكين وجود فى ذهنى البتة • لقد ظللت طوال رحلتى أحلم فى أن أبرهن على بطولتى الشخصية • بنيت لخطيبتى المستقبلة جميع أنواع الخطط والمشاريع ، ونسيت ما عسى يكون اسم أسرتها ، أو قل بالأحرى أهملت منذ البداية أن أنتبه الى هذا الاسم •

همست فى أذن عمى أقول :

ـ كيف ؟ أبوها ؟ لقد كنت أحسبها يتيمة •

ـ هو أبوها يا صاحبي ، هو أبوها • وهو انسان شريف جـدا • وليس يشرب الخمرة قط • كل ما هنالك انه يحب المزاح • وما أشـد البؤس في منزله ! ثمانية أولاد ! يعيشون جميعا من أجرة ناستيا ! لقـد فقد وظيفته بسبب طول لسانه ! وهو ياتى الينا مرة فى الاسبوع • انه رجل طيب شديد الكبرياء عزيز الكرامة لا يقبل من احد شيئا • حاولت غير مرة أن أنقده بعض المال ، فلم أفلح ••• حتى لقد نالنى بلسانه • لقد جعله الشقاء سريع التأذى •

سأله عمى وقد لاحظ أن العجوز الرياب يصغى الينا :

ـ هيه يا أوجراف لاريوفتش ، ماذا عندك من جديد ؟

سأله عمى هذا السؤال وضربه ضربة قوية على كتفه •

ـ ماذا عندى من جديد أيها المحسن الى ؟ ان فالانتين اجناتتش قد قدم أمس تقريره عن قضية تريشين • كانت اكياس دقيق تريشين ناقصة الوزن • ان تريشين هو ذلك الرجل الذى ينظر من تحت كمن يريد أن ينفخ على جمرات السماور • لعلك تتذكرين الرجل يا سيدتى العزيزة؟ فاسمعوا ماذا قال فلانتين اجناتتش فى تقريره عنه : « لئن لم يعـــرف تريشين كيف يصون عرض ابنة أخيه ـ وهى تلك الفتاة التى خطفهـا ضابط فى السنة الماضية ـ فانىّ له أن يحافظ على الغلال العامة كما يجب أن يحافظ عليها ؟ • ذلك ما ورد فى التقرير كلمة كلمة ، أقسم لكم على ذلك بشرفى •

صاحت آنتوز بتروفنا تقول :

ـ ما هذا الكلام الذى تقوله ؟

وأضاف عمى مؤيدا :

ـ نعم نعم ••• انك تسرف يا ياجور ، يا صديقي ! لسوف يضيعك لسانك ! أنت رجل مستقيم شريف حسن السلوك ، ذلك أمر نستطيع أن نؤكده جازمين ، ولكن لك لسانا كلسان الأفعى • أنا لا أستطيع أن أفهم كيف لا يمكنك أن تتفاهم معهم هناك • أولئك أناس يبدون بسطاء جدا ، طيبين جدا •••

صاح العجوز بنوع الحماسة والنشوة :

ـ يا أبي والمحسن الى ، ان الاناس البسطاء هم بأعينهم من يخيفونني •

أعجبني هذا الجواب كثيرا • فاقتربت من ياجفكين بحركة سريعة وصافحته • الحق أنني قد استبدت بي حاجة قوية الى الاحتجاج بصورة من الصور على رأي الاخرين مبرهناً صراحة على اعجابي • ومن يدري ؟ لعلني كنت أحرص أيضا على أن أرفع قدري في نظر ناستيا •

قلت له وأنا أحمر وأتعجل الكلام على عادتي :

ـ اسمح لي أن أسألك : هل سمعت عن اليسوعيين ؟

ـ لا يا صاحبي ، لم أسمع عنهم أبدا ، أو قل لم أسمع عنهم الا قليلا • تلك أمور تفوق حدود علمي وتتجاوز مستوى معرفتي ، ولكن لماذا هذا السؤال ؟

ـ ذلك ••• ذلك أنني أردت أن أروي لك ••• ذكّرني بهذا في مناسبة من المناسبات • أما الآن فثق أنني أفهمك ••• وأنني قادر على أن أقدرك حق قدرك •

قلت له هذا وصافحته مرة أخرى وأنا مضطرب أشد الاضطراب •

قال :

ـ لن يفوتنى أن أذكّرك ، ثق بذلك يا عزيزى ! لسوف أسجل هذا فى رأسى بأحرف من ذهب ! أنظر ••• : هأنذا أعقد طرف منديلى حتى لا أنسى !

وفعلا بحث الرجل عن ركن جاف من منديله المتسخ بالتبغ ، فجعل فيه عقدة •

قالت عمتى :

ـ هلا شربت شايك ، يا أوجراف لاريونتش !

ـ حالا يا سيدتى الجميلة ، حالا يا أميرة ! سوف أشرب الشاى • لقد لقيت ستيبان آلكسيفتش باختشنايف • ما رأيته فى حياتى فرحا هذا الفرح كله • حتى لقد تساءلت : أتراه يتهيأ للزواج ؟

قال ذلك ثم أضاف يهمس لى بصوت خافت وهو يمر قربى بفنجان الشاى ويغمز لى بطرف عينه :

ـ التملق ، التملق دائما •

ثم أردف :

ـ ولكن كيف لم أر المحسن الرئيسى الىّ ، فوما فومتش ؟ لماذا لا يتناول الشاى ؟

فانتفض عمى كمن لسع ، ونظر الى الجنرالة وجلا • ثم أجاب يقول دفعة واحدة باضطراب غريب :

ـ لا أدرى ••• لقد دعوناه ••• ولكنه ••• لا أدرى ••• من الجائز أن يكون معتكر المزاج ••• أرسلت اليه فيدوبلياسوف ••• هل ينبغى أن أمضى أرى بنفسى ؟

قال ياجفكين بلهجة كأنها لغز :

ـ لقد مررت به منذ قليل .

فصاح عمي مذعورا :

ـ صحيح ؟ فماذا هنالك اذن ؟

ـ أردت أن آراه أول من أرى لاقدم اليه تحياتي واحتراماتي ، فقال لي انه سيشرب الشاي في غرفته ، وحده ، وأعلن لي بعد ذلك ان في وسعه أن يكتفي بكسرة خبز يابس ، لا أكثر .

أحدثت هذه الكلمات في عمي رعبا شديدا .

وقال للعجوز أخيرا وهو يلقي عليه نظرة عتاب :

ـ كان عليك أن تشرح له يا أوجراف لاريونتش ، كان عليك أن تقنعه .

ـ قلت له كل ما كان يجب قوله .

ـ وعندئذ ؟

ـ لبث زمناً طويلاً لا يجيبني . كان بسبيل حل مسألة رياضيه ، وكان واضحا أن هذه المسألة الرياضية تصدع رأسه . حتى لقد رأيته يرسم شكلا هندسيا : هي نظرية فيثاغوروس فيما لاح لي . وقد استأنف رسم الشكل ثلاث مرات . وفي المرة الرابعة انما تنازل فأنهض رأسه ، فانتبه أخيرا الى وجودي ، فقال لي : « لن أمضي اليهم . لقد وصل « العالم » منذ قليل ! فأين تريد لي أن أختبيء حين تسطع شعلة كهذه الشعلة ؟ » . تلكم هي أقواله بنصها : « شعلة كهذه الشعلة » ...

قال الرجل ذلك ورشقني بنظرة ساخرة .

صاح عمي متعجبا وهو يحرك يده حركة يائسة :

ـ كنت أتوقع ذلك ، كنت أتوقع ذلك ! أنت المقصود بقوله «العالم» يا سرجي . ما عسانا صانعين الآن ؟

أجبت وأنا أرفع كتفي مستاء :

ـ يخيل الىّ يا عمي أن رفضا فظا كهذا الرفض لايستحق أن يُنتبه اليه ولا أن يحتفل به . وانني ليدهشني حقا أن أراك قلقا هـــذا القلق كله !

هتف عمي يقول معززا كلامه بحركة قوية :

ـ آه يا عزيزي ، انك لا تعرف ماذا تقول !

فقاطعته الآنسة بيربلتسين فجأة تقول :

ـ فات أوان التشكي ! أنت سبب البلاء كله منذ البداية ، يا ياجور ايلتش . ما وقع قد وقع . لو قد أصغيت الى كلام أمك لما وصلت الى ما وصلت اليه اليوم !

سألها عمي راغباً في الشرح :

ـ ولكن ماذا فعلت يا آنا نيلوفنا ؟ بماذا تتهمينني ؟ ماذا تأخذين عليّ ؟

ثم أضاف يقول بصوت ضارع :

ـ ألست تبالغين ؟

أجابت الآنسة بيربلتسين بلهجة قاسية :

ـ أبدا يا ياجور ايلتش . الذنب كله ذنب أنانيتك وقلة عاطفتك نحو أمك . لماذا لم تحترم ارادتها منذ البداية ؟ انها أمك على كل حال .. ولست في حاجة الى أن أكذب عليك ... ما أنا بالمرأة النكرة ! أنت تعرف أن أبي كان « ليوتنان كولونيل » !

تراءى لى أن الآنسة بيربلستين لم تتكلم الا لتعلمنا جميعا ، ولتعلمنى أنا خاصة ، انها ليست شخصا كيفما اتفق ••• وانما هى بنت « ليوتنـان كولونيل » •

قالت الجنرالة بلهجة مهددة متوعدة :

ـ انه يهين أمه •

ـ ماما ••• أرجوك ••• فيم أهنتك ؟

وتابعت الجنرالة كلامها وقد ازدادت حماستها :

ـ أنت أسوأ الأنانيين طراً •••

صاح عمى يائسا :

ـ ماما ••• ماما ••• فى أى شىء أعـــد أنانياً الى هذه الدرجة ؟ انك غاضبة منى حانقة على منذ خمسة أيام كاملة ، ترفضين أن تكلمينى ، فلماذا ؟ لماذا ؟ هلا حكمتم على أخيرا ؟ هلا أنصفتمونى ؟ أريد أن يحكم على الجميع ! اسمعوا الحكاية وأنصفونى ! لقد سكت طويلا يا أماه ! لم تشائى أن تصغى الىَّ قط ! ألا فليسمعنى الجميع اذن ! آنتـوز بتروفنا ، بافل سيميوفتش ، يا أيها الانسانان النبيلان ، وأنت يا سرجى، ياصديقى، أنت لست من المنزل ، أنت مشاهد محايد ان صح التعبير ، ففى وسعك أن تحكم بلا تحيز •••

قالت آنتوز بتروفنا :

ـ شيئا من الهدوء يا ياجور ايلتش ، شيئا من الهدوء ، والا فلسوف تقتل أمك الطيبة !

ـ لن أقتل أمى يا آنتوز بتروفنا ••• بل اليكم صدرى فاطعنوه !

كذلك تابع عمي قوله وقد بلغ ذروة الهياج • (هذا شأن من لاارادة لهم الناس حين ينفد صبرهم ، ولكن هياجهم ليس الا نار قش) •

وأضاف عمي يقول :

ـ أحلف لك يا آنتــوز بتروفنــا أنني لم أ هن أحــدا في يوم من الأيام • دعوني أقول أولا ان فوما فومتش هو أكثر الناس نبــلا وشرفا وموهبة ••• ولكن هذا لا ينفي أنه ظالم في معاملتي •

ـ همْ •••

كذلك همهم أوبنوسكين كأنه يحرص على أن يضرم هيــاج عمي مزيدا من الاضرام •

ـ بافل سيميونتش ••• يا بافل سيميونتش النبيل الشهم ! أتظنني قطعة من خشب ؟ آلا انني لارى وادرك ، نعم ارى وأدرك ، على تمزق في قلبي ، أن جميع أنواع سوء التفاهم هذه انما مردها الى الحب الذي يحمله لي « هو » • ولكنني آؤكد لكم أنه يظلمني • وسأروي لكم كل شيء على كل حال. • انني في حاجة الآن الى أن أقص هذه الحكاية • سأحكي لك هذه القصة يا آنتوز بتروفنا بكلوضوحها وكل تفاصيلها حتى تستطيعي أن تتابعي مجرى الامور • ستحكمين عندئذ في الواقع هل من حق أمي أن تغضب علي ، ستعرفين لمـاذا لم يرض عني فــوما فومتش • واستمع أنت أيضا يا سرجي (هكذا تابع عمي يقول ملتفتا نحوي ، ثم لم يتجه الى أحد غيري بعد ذلك ، كأنه يخشى مستمعيه الآخرين ، ويشك في تعاطفهم معه) • استمع اليّ واحكم : أأنا على خطأ أم على صــواب ؟ اليكم كيف جرت الأمور : منذ أسبوع ، نعم منذ أسبوع ، لا أكثر ، مرّ بمدينتنا رئيسي القديم ، الجنرال روسابتوف ، مع زوجته واختها ، فتلبثوا في المدينــة بعض الوقت • وقد سرني كثيرا أن انتهز هــذه الفرصة

فمضيت أدعوهم الى العشاء هنا • ووعدني الجنرال بأن يأتي • انه انسان ممتاز ، في وسعك أن تثق بذلك وأن تعتمد عليه ••• انه انسان يتحلى بفضائل جمه •• وهو فوق هذا من وجوه القوم وسادتهم •• لقد غمر اخت زوجته بالنعم •• كانت يتيمة فزوجها شابا مرموقا (هو اليوم موظف في مالينوفو : شاب يملك ثقافة واســـعه شامله) • الخلاصه ان رئيسي القديم جنرال فذ بين الجنرالات ! وطبيعي ان العادة عندنا ان الاطبـاق الصغيرة توضع في الكبيرة ، فاستقدمت انا موسيقيين •• كنت سعيدا كأنني أحتفل بعيدي •• ولكن تصور ان هذا اغضب فوما فومتش • لقد اغضبه ان يراني مسرورا ذلك السرور كله • أتذكر أننا كنا جالسين الى المائدة• وفيما كانت تقدم لنا حلوى بالقشدة ، وهي من أطباقه المفضلة عنده الاثيرة لديه ، اذا هو ينهض فجاة ويقول صارخا بعد أن تنفرج شفتاه عن كلمة واحدة : « انني أهان ! انني أهان » • سألته : « غريب ! لماذا تقول هذا الكلام يافوما فومتش ! » • فأجابني : « نعم ، انك تحتقرني • أنت الآن في حاجة الى جنرالات ! الجنرالات يعجبونك أكثر مني ! » • وأنا انما أقص عليك الحكاية الآن موجزة مجملة ، أما اذا أردت أن أسرد لك تفاصيل ما قاله •• المهم انني امتعضت من كلامه •• ما عسى أن تفعـل لو كنت في مكاني ؟ لقد أذهلني هذا التصرف الى درجة لا أستطيع أن أصفها •• ثم شعرت بساقيّ ترتخيان كأنهما من قطن • وأخيرا انفرجت الغمة • أبلغني الجنرال معتذرا أنه لا يستطيع المجيء • الحمد لله ! قلت عندئذ لفوما : « أأنت راض الآن ؟ لن يجيء أحد • » فهل تصدق أن فوما ظل غاضبا مني حاقدا علي ؟ لقـــد استمر يردد بلا توقف : « لقــد أُهنت •• لقد أهنت » • حاولت أن أهدىء روعه بجميع الأســاليب • فكان يجيبني : « لا •• لا •• اذهب مع جنرالاتك • انهم يعجبونك أكثر مني ، لقد فصمت عُرى صداقتنا » • يا رب ! يا رب ! انني أعرف ما الذي

أغضبه • فلست بالغبي أو الاحمق أو الابله • ان الصداقة العظيمة التي يشعر بها نحوى هي التي تجعله غيورا ، اعترف لى بذلك هو نفسه • لقد غار من الجنرال ، لانه خاف ان يفقد عاطفتى نحوه • وهو الآن يمتحنني ليعرف الى أى حد أستطيع أن اضحى فى سبيله • قال : « لا •• لا •• فانما يجب ان تكون قيمتى عندك كقيمه جنرال •• يجب ان أكون فى نظرك : صاحب سعادة ! ساصالحك حين تبرهن لى على تقديرك واحترامك » • قلت له : « وكيف يجب ان ابرهن لك على تقديرى واحترامى ؟ » • فقال : « تخاطبنى بقولك طوال يوم كامل : يا صاحب السعادة ! تلك هى الوسيلة الوحيدة التى تستطيع ان تبرهن لى بها على تقديرك واحترامك » • ذهلت ذهولا شديدا كأننى هبطت من بين السحب • تستطيع أن تتصور المسألة طبعا ، أليس كذلك ؟ وأضاف فوما فومتش يقول : « سيكون لك هذا درسا • سوف يعلمك هذا أن لا تعجب فى المستقبل بجنرالات حين يكون الى جانبك رجال آخرون لعلهم فوق جميع الجنرالات قدرا ! » • عندئذ لم أطق صبرا •• أعترف بذلك ، نعم اعترف به صراحة •• فقلت له : « ما هذا الكلام الذى تقوله يا فوما فومتش ؟ هل فى وسعى أن أقبل أمرا كهذا ؟ هل من حقى أن أنصبك جنرالا ؟ فكر فيما تطلبه ! كيف تريد منى أن أناديك : يا صاحب السعادة دون أن أقارف اثما حقيقيا ؟ ان الجنرال رجل يعد فخرا ومجدا للوطن ، رجل خاض غمار الحرب وسكب دمه فى ساحات القتال ! فكيف أستطيع أن أناديك يا صاحب السعادة الجنرال ؟ » • ولكنه لم يشأ أبدا أن يتزحزح عن موقفه وأن يعتقنى من هذا الأمر • ومع ذلك قلت له : « فوما ، سوف أفعل كل ما تريده• انظر: حين طلبت منى أن أحلق لحيتى عارضىّ لأنهما ليسا من الوطنية فى شيء ، فعلت ذلك ؛ ولقد فعلته على مضض والحق يقال ، ولكننى فعلته • وأنا مستعد لأن أفعل أيضا كل

ما سيرضيك ، ولكن اعفني من لقب صاحب السعادة ! » فأجابني : « لا ٠٠ لن يهدأ بالى قبل أن أنادى بصاحب السعادة ٠ لا بد من هذا قطعا لتقويم حسك الأخلاقي وانقاص كبريائك وصـــلفك وغرورك » ٠ وها هو ذا يقاطعني منذ ثمانية أيام ، نعم منذ أسبوع بكامله ٠ وهو ناقم على جميـع من يجيئـون الى هنـا ٠ ومن هـؤلاء أنت ٠ لقـــد عرف ، عـرف منى وا أسفاه ، أنك عالم ٠٠ كنت من فرط ابتهاجي بعودتك أنني لم أستطع أن أحبس لساني ٠٠ فأعلن أنه سيبارح المنزل اذا أنت وضعت قدميـك فيه ٠ انه يدعي أن وصولك يعني أنني أصبحت لا أعده هو عالما ٠٠ فما عسى يحدث حين يصل كوروفكين ؟ فكر اذن ، وقل لى ، أرجوك ، فيم أنا مذنب ؟ هل عليّ أن أخاطبه بقولى : ياصاحب السعادة؟ هل يمكن للمرء أن يعيش فى مثل هذا الجو ؟ لماذا طرد من المائدة ، في هذا اليوم نفسه ، باختشايف المسكين ؟ لنسلم بأن باختشايف لم يخترع البارود ٠٠٠ أنا أيضا لم أخترع البارود ٠٠٠ وأنت لم تخترعه ٠٠٠ فلماذا كل ذلك ، لمـــاذا ؟

قالت الجنرالة :

ـ لأنك لست الا غيورا يا ياجور ٠

صاح عمي يقول وقد أوشك أن يشـــارف غاية الكرب والكمــد واليأس :

ـ ماما ٠٠ لسوف تجعلينني مجنـــونا ! انك ترددين أقوالا رهيبة يا ماما ! أتراك تظنينني قطعة من حطب ؟ أتراك تحسبينني صخرة ؟ يقينا انك لا تعدينني ابنك !

قلت وقد صعقتني القصة التي سمعتها :

ـ لقد روى لى باختشايف ، يا عمي ، ولست أدرى هل هذا صحيح،

أن فوما فومتش قد بلغ من غيرته من عيد اليوشا أنه يدعي أن غدا عيده هو • وانني لاعترف بان هذه الصفة المميزة قد بلغت من ادهاشي أن ••

قاطعني عمي يقول بصوته المتقطع :

ـ لا •• لا عيده ، بل عيد ميلاده • لقد أخطأ التعبير • ليس عيد فوما فومتش غدا ، بل عيد ميلاده • يجب أن نقول الحقيقة •

فصاحت ساشا :

ـ كلا •• ليس عيد ميلاده غدا •

فهتف عمي متعجبا :

ـ كيف ؟ كيف ؟

ـ كلا يا بابا • أنت لا تقول الحقيقة ، لأنك تريد أن توهم نفسك، وأن ترضي فوما فومتش • لقد احتفلنا بعيد ميلاده في شهر آذار (مارس) ، ألا تتذكر ؟ ذهبنا أولا الى الدير ، وأزعج فوما فومتش في العربة جميع الناس وصدع رءوسهم ، ولم ينقطع طوال الطريق عن الادعاء بأن ابن عمي « يضغط » أضلاعه ، ثم أخذ يقرصنا •• نعم لقد قرص عمتي مرتين خبثا وشرا • وبعد ذلك، حين جئنا نهنئه ونعبّر له عن تمنياتنا غضب لأن الباقة التي حملناها اليه كانت خالية من أزهار الكاميليا، وقال : « أنا أحب أزهار الكاميليا ، لأن أذواقي هي أذواق المجتمع الراقي ؟ وأنتم انما أبيتم أن تقطفوا ما تحت الزجاج من أزهار الكاميليا ضنا بها عليّ وبخلا وشحاً ! » وظل طول النهار لا يزيد على أن يتأوه ويتنهد شاكياً ، ورفض أن يكلمنا ••

أحسب أنه لو سقطت قنبلة في وسط الغرفة لما أحدثت من الدهشة والذعر والرعب ما أحدثه هذا التمرد الصريح يصدر عمن ؟ عن بنيّة

صغيرة ليس من حقها أن تتكلم بصوت عال بحضور جدتها • تبلد ذهن الجدة دهشة وذهولا وغضبا وغيظا ، فاذا هي تقوم فجأة ، فتنظر أمامهـا بعينين خرجتا من حجاجيهما • وتجمد عمى هلعا وجزعا •

وأعولت بيربلتسين تقول :

ـ انظروا الى ما يُسمح به هنا ! انهم يدعون للبنيَّة أن تقتل جدتها!

وصاح عمي يقول وهو يركض ذاهبا آيبا بين أمه وابنته :

ـ ساشا ، ساشا ، ماذا دهاك ؟ اسكتي •••

فصاحت ساشا وقد سطعت عيناها :

ـ لا •• لا أريد أن أسكت •

ووثبت عن كرسيها وقرعت الأرض بقدمها ، وكررت تقول :

ـ لا •• لا أريد أن أسكت • لقد طالما تألمنا بسبب فوما فومتش ، بسبب صاحبك هذا المقزز اللئيم فوما فومتش ! انه يظن أن كل شيء مباح له في معاملتك ، لأنهم يكررون على مسامعه دائما أنه ذكي ، وأنه ذو قلب كبير ، وأنه نبيل ، وأنه عالم ، وأنه يملك جميع الفضائل ، وأنه قدر مملوءة لا يدري الا الله بماذا ! ان فوما فومتش يصدق هذا كله كأبله • ان جميع الناس كان يمكن أن يخجلوا من أن تكتظ معدهم بكل هـــذه المقادير من الحلوى ، أما هو فانه يحسد جميع أولئك الذين لم يحصلوا منها على شيء ، ويطالب بهـا في الحـاح ولجاجة • لسـوف ترون • انه مقزِّز •• مقزز ! •• أنا أقول ما يجب أن أقوله دون أن أخشى أحدا •• فوما فومتش غبي ، قذر ، قليل الأدب ، لا قلب له ••• رجـــل صاحب نزوات ، طاغية ، ثرثار نمَّام كذاب •• أنا أريد أن أطرده فورا ، نعم أريد أن أطرده الآن ••• لأنه يُطيش لب بابا ••

تهاوت الجنرالة على الديوان مغشيا عليها وهي تقول :

ـ آه •

فصاحت آنتور بتروفنا :

ـ عزيزتي آجاتي تيموفيفنا ، ملاكي ! استنشقي قارورتي •• هاتوا ماء ! هاتوا ماء ! ••• أسرعوا اليّ بماء •

وردد عمي ينادي :

ـ هاتوا ماء •• ماما •• ماما •• هدئي نفسك ! أضرع اليك راكعا •• هدئي نفسك ••

وفحّت بيربلتسين تقول وهي ترتجف غضبا وتلتفت نحو ساشا :

ـ يجب أن تُسجني في غرفة مظلمة على الخبز والماء ، أيتها المجرمة !

فأجابت ساشا وقد عصف بها الاستياء :

ـ فلأسجن على الخبز والماء •• سيان عندي •• يجب عليّ أن أدافع عن بابا ما دام لا يدافع عن نفسه • ما صاحبكم فوما فومتش اذا قيس بأبي ؟ هلا قلتم لي ؟ رجل عاق يأكل خبز بابا ويجيز لنفسه أن يذله ! نعم وددت لو أقطعه لكم اربا اربا ، صاحبكم فوما فومتش القذر هذا ! وددت لو أدعوه الى المبارزة وأن أقتله بطلقتين من مسدس !

قال عمي ضارعا وقد خرج عن طوره وفقد رشده :

ـ ساشا ، ساشا ، لو قلت كلمة أخرى لضيعتني ، لضيعتني الى الأبد !

صرخت البنية غارقة في دموعها ، وهي ترتمي بسرعة نحو أبيها وتعانقه بذراعيها :

ـ أبت ! أنت لا يمكن أن تضيع • انك انسان طيب ، وجميل ، ومرح ، وذكي ! ليس على مثلك أن يطيع هذا العاق القذر ، ليس على

مثلك أن يكون ألعوبة بين يديه ، وأن يصبح أضحوكة الناس جميعا ! أبت •• أبت العزيز ! ••

قالت ذلك وانفجرت منتحبة ، وأخفت وجهها بيديها ، وهربت من القاعة •

وتبع ذلك لغط رهيب • الجنرالة راقدة على الديوان مغشيا عليها • عمي يتهالك أمامها مقبلا يديها • بيربلتسين تتحرك حولهما وتلقي علينا نظرات انتصار كاسر • آنتوز بتروفنا تضع على صدغي الجنرالة كمادات ماء بارد ، وتجعلها تستنشق قارورتها • براسكوفي ايلتشنا ترتجف من قمة رأسها الى أخمص قدميها وتسكب دموعا سخينة • ياجفكين وجد ركنا يختبيء فيه عن الأنظار ، بينما تجمـــدت ابنته في مكانها شاحبة الوجه طائشة العقل ذعرا • ميزنتشيكوف وحده بقي في منجي من هذا الانفعال الذي شمل الجميع • لقد نهض فاقترب من النـــافذة وأخـــذ ينظر الى الخارج دون أن ينتبه أي انتباه الى ما يجري •

وفيما كانت الجنرالة راقدة على الديوان ، اذا هي تنتصب فجأة ، وترشقني بنظرة متوعدة ، وتصيح بي قائلة وهي تقرع الأرض بقدمها :

ـ اخرج من هنا •

ولم أكن أتوقع هذا •

وعادت تصرخ :

ـ اخـــرج من هنا ! اخرج من هنـــا ! ماذا يفعل في هذا المنزل ؟ اخرج ، اخرج ، حالا •

تمتم عمي يقول وهو يرتجف كورقة في مهب الريح :

ـ ماما •• ماما •• هذا صغيرنا سرجي •• جاءنا في زيارة !

ـ أي سرجى ؟ دعك من هذا الغباء ! لا حاجة الى شرح ! اخرج من هنا ! انه كوروفكين ، أنا متأكدة من أنه كوروفكين ! لم يخدعنى ظنى ! جاء ليطرد فوما فومتش ! استدعي خصيصا لهذا الغرض ! لقد أحس بذلك قلبي ! اخرج أيها الجرو !

قلت وقد أصبحت لا أعثر على الكلمات اللازمة من فرط استيائى :

ـ عمي ، اذا كان الامر كذلك ••• اذا كان الامر كذلك ••• معذرة •••

وتناولت قبعتى •

ـ سرجى ، سرجى ، دعك من الحماقات ! لا تبدأ ! ماما ! أقول لك انه سرجى ، عزيزنا سرجى •

ثم صاح وهو يركض ورائى لينتزع منى قبعتى :

ـ ناشدتك الله يا سرجى ••• أنت ضيفى ••• ولسوف تبقى ••• أريد ذلك • لا قيمة لما تقوله هي • انها ما تزال غاضبة • هل فهمت ؟ (كذلك أخذ يشرح لى هامسا) • اختف الآن ، وسينقضى كل شيء ، فما نفكر فيه بعد ذلك قط • سوف تصفح عنك ، أحلف لك لتصفحن عنك • انها طيبة جدا ، ولكنها لا تملك وعيها كاملا • ألم تر أنها ظنتك كوروفكين ؟ سوف تغفر لك قريبا ، أحلف لك على هذا •• وأنت (كذلك صاح يخاطب الآن جافريلا الذى كان يتقدم في الغرفة وهو يرتعش خوفا وجزعا) ، ماذا هنالك ؟

لم يكن جافريلا وحده ، بل كان يصحبه فتى في نحو السادسة عشرة من العمر ، فتى وضعته وسامة وجهه في خدمة المنزل ، كما علمت بعد ذلك • ان اسمه فالالى ، وهو يرتدى زيا خاصا : قميصا من الحرير احمر ، ذا ياقة محفوفة بشريط ، وحزاما مضفورا من خيوط ذهبية ،

وسروالين من مخمل أسود ، وحذاءين من جلد الماعز لهما قفاز أحمر • ان هذا الزى هو من ابتكار الجنرالة • كان الفتى ينتحب ، وكانت العبرات تتساقط قطرة قطرة من عينيه الكبيرتين الزرفاوين •

قال عمى :

ـ ماذا هنالك أيضا ؟ ماذا حدث ؟ تكلم •• تكلم ! ولكن هلا تكلمت أيها الوغد !

أجاب جافريلا :

ـ أمر فوما فومتش بأن نجيء الى هنا ، وسيصل هو بعد قليل • أما أنا فمن أجل أن يمتحنني ••• وأما هو فلأنه ••

ـ لأنه ماذا ؟

ـ لأنه رقص •

بهذا أجاب جافريلا دامع الصوت •

فردد عمى مذعورا ؟

ـ رقص ؟

فأجابه جافريلا منتحبا :

ـ رقصة كارمانسكايا !

ـ رقصة كارمانسكايا * !

ـ نعم رقصة كامارنسكايا !

ـ ورآك فوما فومتش ؟

ـ رآني !

صاح عمى :

ـ انتهى الأمر فى هذه المرة ! لقد ضعت ، ضعت !

قال ذلك ووضع رأسه بين يديه يائسا !

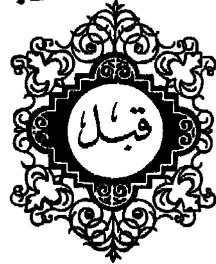
دخل فيدوبلياسوف القاعة معلنا عن وصول فوما فومتش بقوله :

ـ فوما فومتش !

وظهر فوما فومتش بشخصه أمام هؤلاء الحضور المتحيرين •

٦

البقرة البيضاء وفلاح كامارينو



قبل آن أشرف بأن أقدم لكم فوما فومتش ، أحسب آنه لا بد أن أقول بضع كلمات عن فالالى ، بغية أن أشرح الجانب الرهيب من الواقعة التى أشرت اليها منذ هينهة ، وهى أن فوما فومتش فاجـأه يرقص رقصة «كارامنسكايا» . فالالى يتيم ولد في المنزل ، وكانت المرحومة عمتى اشبينته . ان عمى يحبه كثيرا . وهذا وحده كاف لأن يجعل فوما فومتش حاقدا عليه ممسكا بتلابيبه منذ استقراره فى ستيبانشيكوفو . وكان كلما اشتد سلطان فوما فومتش على عمى ازداد كرهه لهذا الفتى الأثير . ولكن فوما فومتش لم يستطع أن ينال الفتى بشىء ، ذلك أن فالالى قـد أعجب الجنرالة كثيرا ، لذلك حافظ الفتى على مكانه بالمنزل فى خـدمة السادة . كان لا بد أن يخضع فوما فومتش ما دامت الجنرالة حريصـة على الصبى . ولكن هذا كان اهانة له لم ينسها ـ وكل شىء كان يهينه على كل حال ـ فكان يثأر لنفسه من هذه الاهانة كلما سنحت الفرصة ، وذلك على حساب عمى طبعا ، فان عمى هو الذى لا يستطيع أن يدافع عن نفسه . كان فالالى حسن الهيئة وسيم الطلعة : ان وجهه أشـبه بوجه فتـاة من فتيات الحقول . فكانت الجنرالة تدلله كثيرا ، وتحرص عليه حرصها على لعبة جميلة نادرة ، ولعلها كانت تحبه أكثر مما كانت تحب «آمى» كلبهـا الهافانى . لقد سبق أن وصفت الزى الذى ابتكرته له . وكانت الآنسات

يهدين اليه عطرا ، وكان كوزما ، الوصيف الحلاق ، قد أ مر بأن يجعد له شعره يوم الاحد • ان هذا الفتي مخلوق غريب • ليس هـو بالابله قط ، ولكنه كان يظهر من السذاجة ومن البساطة ومن سرعة التصديق مايحمل على الظن في بعض الاحيان بانه ضعيف العقل • كان اذا راى في منـامه أى حلم من الأحـلام اسرع الى سادته يقص لهم حلمه بأدق التفاصيل • وكان يتدخل في محادثاتهم دون أن يلاحظ أنه يقاطعهم أثناء كلامهم • وكان يقص عليهم أشياء كثيرة مما يحتفظ به المرء لنفسـه في العادة • وكان يجهش باكيا اذا أغمي على سيدته الجنرالة أو اذا قرّع سيده • وكان يشارك مشاركة أليمة في جميع متاعب المنزل ومنغصاته • وكان يقترب من الجنرالة في بعض الأحيان ، فيقبل يدها ضارعا اليها أن لا تغضبها منه هذه الدالّة المفرطه ، فكانت الجنرالة تصفح عنه وتغفر له كريمة نبيلة النفس • وكان شديد الحساسية ، وكان وديعا وداعة حمل، وكان في الوقت نفسه مرحا مرح طفل سعيد •

انه يلبث أثناء الطعام واقفا وراء كرسى الجنرالة ، وكان الطاعمـون يناولونه بعض ما يأكلون من حلوى ، وكانوا يعطونه قطعا من السكر من فرط حبه للسكر ، فيأخذ يقضمها بأسنانه الجميلة ـ وهى أسنان قـوية بيضاء كالحليب ـ بينما يشرق فى وجهه وفى عينيه الزرقاوين عندئذ رضى عظيم وفرح لا يوصف •

قلت ان فوما كان حاقدا عليه منذ زمن طويل • ولكنه حين لاحظ أن كرهه لن يؤدى الى شيء قرر فجأة أن يصـبح للفتى حاميـا وراعيا ، فأخذ عندئذ بتلابيب عمى وراح يلومه على أنه لا يُعنى بتعليم خدمه ، ثم لم يلبث أن طفق يعلم هذا الصبى المسكين الأخلاق وآداب السلوك واللغة الفرنسية •

ومن اجـــل ان يسوغ قراره السخيف هـذا (وان كاتب هـذه الصفحات قد راى بعينيه اشـخاصا كثيرين اخـرين غير فـوما فومتش يحملون في رءوسهم هذه الفكرة نفسها) ، اقول : من اجل ان يسوغ قراره السخيف هذا ، كان يردد قائلا : كيف يمكن ان لا يكون الصبى ملما باللغة الفرنسية ؟ انه دائما قريب من سيدته فوق ، فماذا يحدث اذا اتفق مرة على حين فجاة ان نسيت سيدته انه لا يفهم الفرنسيه ، فامرته قائلة بالفرنسية : « هات منديلى » * ! اما ينبغي ان يفهم كلام سـيدته حتى يقوم بواجب خدمتها على الوجه الأكمل ؟

ولكن فالالى المسكين بدا عاجزا عن تعلم اللغه الفرنسية كعجزه عن تعلم اللغه الروسية : ان عمه اندرونيك ، الطباخ ، كان قد حاول ان يعلمه القراءة باللغة الروسية ، فلما بذل جهودا كبيرة فى هذا السبيل دون أن يظفر بطائل ، لم يسعه الا آن يرمي الالفباء الروسية على احدى المناضد فى مطبخه .

ان فالالى موصد الذهن تماما دون الدراسة فى الكتب . ومن هنـا انما جاء البلاء . ولم يلبث الخدم أن أخذوا يناكدون فالالى ويغيظـونه بسبب لغته الفرنسية . حتى أن العجوز جافريلا ، وصيف عمى ، قـد مضى بالجرأة والجسارة الى حد انكار استفادة هذا الصبى من تعلم اللغة الفرنسية أصلا . قال جافريلا ذلك صراحة . ولكن الأمر سرعان ما بلغ مسامع فوما فومتش ، فأورى ذلك غيظه وحنقه ، فأخـــذ يعلم جافريلا نفسه اللغة الفرنسية ، معاقبة له على أنه انتقده .

ذلك هو أصل هذه القصة ، قصة اللغة الفرنسية التى استاء منـا باختشايف ذلك الاستياء كله . أما آداب السلوك فقد كان أمرها أنكى وأدهى : فان فوما لم يستطع أن يروّض فالالى على ما يحب . وقد ظل الصبى المسكين يجىء الى فوما فى كل صـباح يقص عليه أحـلامه التى

رآها فى المنام ، رغم أن فوما منعه من ذلك وحرّمه عليه ونهره عنه ، لأن فوما كان يعدُّ هذا الأمر متبذلا الى أقصى الحدود ، خاليا من الاحتشام الى أبعد الدرجات • ان فالالى مصر اصرارا عنيدا على أن يبقى فالالى • وطبيعى أن ذلك كله كان يقع على رأس عمى •

صاح فوما فى ذات يوم (وكان يختار لتعزيز تأثيره اللحظة التى يجتمع فيها الجمع كله) ، صاح يقول لعمى :

ـ هل تعلم ماذا فعل اليوم ؟ هل تعلم ؟ هل تعرف أيها الكولونيل الى أى حد يصل ضعفك المطرد ؟ لقــد التهم اليوم قطعة الحلوى التى مددتها اليه من المائدة ! فهل تعلم ماذا قال بعد ذلك ؟

سأل فوما هذه الأسئلة ثم التفت نحو الصبى وقال له :

ـ تعال الى هنا أيها البوم الأبله ، تقدم أيها المعتوه ، ائت أيها الوجه المنتفخ شراهة ونهماً •

تقدم فالالى وهو يبكى ويمسح عينيه بيديه •

ـ ماذا قلت بعد أن التهمت الحلوى ؟ كرر على مســامع الجميــع ما قلته !

فلم يجب فالالى الا بسكب مزيد من الدموع المرة •

ـ طيب •• اذا كنت لا تريد أن تقول أنت فسأقول أنا • لقد قلت وأنت تلطم كرشك بحركة غير محتشمة ، بحركة بذيئة : « ملأت بطنى حلوى كما ملأ مارتين بطنه صابونا ! » • فقل لى ، أيها الكولونيل ، هل أمثال هذه العبارات مقبولة بين أناس مهذبين ، هل هى مقبولة فى مجتمع راق ؟

كذلك سأل فوما ، ثم قال للصبى :

ـ أقلت هذا الكلام أم لا ؟ أجب !

فاعترف فالالى يقول ناشجا :

ـ نعم قلته !

ـ والآن اشرح لى قليلا من هو مارتين هذا الذى يأكل صابونا ؟ أين رأيت شخصا اسمه مارتين يلتهم صابونا ؟ هيا .. تكلم ! حدثنى عن هذا الشخص !

لزم فالالى الصمت . فسرعان ما أردف فوما يقول :

ـ أنا أسألك من هو مارتين هذا ، هل سمعت ؟ اننى أريد أن أراه ، اننى أريد أن أتعرف به ! ما عساه يكون ؟ أهو كاتب ديوان ؟ أهو عالم فلك ؟ أهو بيشوخونيزى ؟ * أهو شاعر ؟ أهو خادم ؟ انه لا بد أن يكون شيئا ، فما هو ؟ أجب !

قال فالالى وهو ما يزال يبكى :

ـ هو خادم !

ـ خادم من ؟ من هم أسياده ؟

ولكن فالالى لم يستطع أن يذكر من هم أسياد هذا الخادم. وطبيعى أن ينتهى ذلك كله بأن يُجن جنون فوما غيظا ، فهاهو ذا يترك القاعة صارخا انهم يتعمدون الهزء به والسخر منه ؟ وها هى ذى الجنرالة تصاب بنوبة عصبية ؟ وها هو ذا عمى ، الذى يلعن اليوم الذى ولد فيه ، يعتقد أن من واجبه أن يعتذر لهؤلاء وأولئك ، ويظل طوال اليوم يمشى على رءوس الأصابع فى منزله نفسه .

وشاءت المصادفة التى تشبه أن تكون عمدا ، شاءت أن يأتى فالالى فى الغداة (وقد نسى قضية مارتين نسيانا كاملا ، ونسى ما لقى من حزن وكرب نسيانا كاملا أيضا) فيقص على فوما فومتش حين حُمل اليه الشاى ،

أنه رأى في منامه بقرة بيضاء • فكان ذلك ذروة البلاء ! لقد استاء فوما فومتش استياء شديدا لا سبيل الى وصفه ، فها هو يستدعي عمي ويأخذ يحدثه طويلا في موضوع الأحلام التي يراها « عزيزه » فالالى في منامه• واتخذت في هذه المرة اجراءات قاسية : عوقب الفتى بابقائه راكعا في ركن من الغرفة ، ومنع صراحة من ان يرى في منامه أحلاما من هذا القبيل ، أحلاما تبلغ هذا المبلغ من العامية والابتذال ، أحلاما خليقة بأن يراها الفلاحون أهل القرى • وقال فوما شارحا : « هذا هو السبب في انني أغضب : فبالاضافة الى أنه لا ينبغي له ولا يجب أن يسمح لنفسه ، اذا هو كان مهذبا ، أن يزعجني بقص أحلامه علي ، ولا سيما حين يكون موضوعها بقرة بيضاء ، بالاضافة الى ذلك يجب أن تعترف ، يا كولونيل ، ان بقرة بيضاء كهذه تدل على أن صبيك فظ غليظ قليل الأدب • ان أفكار الانسان تُعرف من أحلامه • ألم يسبق لى أن قلت لكم ان هذا الصبى لن يخرج منه شيء ، ولن يصلح أمره بحال من الأحوال ، وان من غير المفيد ابقاؤه في خدمة سادة ؟ لن تستطيعوا يوماً ، لا لن تستطيعوا يوماً أن تدخلوا في دماغ هذا الغبى الأحمق أى شيء رفيع ، أى شيء شعرى •

قال فوما ذلك ، ثم التفت الى فالالى فأضاف :

ـ أليس في امكانك اذن أن ترى في منامك حلما من الأحلام فيه رشاقة وفيه رفعة وفيه عقل كما ينبغي أن تكون الأحلام ، كأن ترى مشهدا من حياة المجتمع الراقي ، كأن ترى سادة يلعبون بالورق أوسيدات يتنزهن في حديقة جميلة ؟ •

فقطع فالالى على نفسه عهدا ليرينّ في الليلة المقبلة في أحلامه سادة أو سيدات يتنزهون في حديقة جميلة •

فلما رقد على فراشه لينام ابتهل الى الله أن يهب له هذه النعمة ،

وفكر مليا فى الطريقة التى يجب عليه أن يعمد اليها حتى لا يحلم بالبقرة البيضاء • ولكن امال الانسان خـــداعة • فان فالالى ، حين استيقظ فى الغداة ، تذكر مذعورا انه حلم مرة اخـــرى ، طوال الليـــل ، بالبقرة البيضاء ، وانه لم يتح له ، مرة واحدة ، ان يرى اية سـيدة تتنزه فى حديقة جميلة • وكانت النتائج فى هذه المرة خطيرة • فأعلن فوما بلهجة لا رد عليها انه لا يصدق ان فى الامكان أن يتكرر هـــذا الحلم ، وان فالالى انما يفعل هذا اذن عامدا ، باوامر يتلقاها من أحد فى المنزل ، لاشك أنه الكولونيل نفسه ، بغـــيه أن يهينـــه ، هو فوما فومتش • وتكاثرت الصيحات والملامات والدموع • وسقطت الجنرالة مريضة فى ذلك المساء نفسه ، وارتعب جميع من بالمنزل وتجهمت وجوههم • وبقى امل ضعيف، هو ان يحلم فالالى فى الليله التالية بشىء يتصل بالمجتمع الراقى • فمـا كان أشد انزعاج الجماعه كلها حين ظل فالالى طوال أســبوع كامل على التالى لا يحلم الا ببقرته البيضـــاء ، ببقرته البيضاء فقـط •• وأصبحوا لا ياملون أبدا أن يروه يحلم بالمجتمع الراقى •

وأطرف ما فى هذا الامر أن فالالى كان عاجزا عن الكذب ، مع أن الكذب فى مثل هذه الحالة اثم يغتفر •• لم يخطر ببال فالالى ولا دار بخلده أن يقول مثلا انه رأى فى منامه فوما فومتش مع سيدات كثيرات • ان فالالى يبلغ من الشرف أنه يعجز عن الكذب حتى لو أراده • لذلك لم يجازف أحد فيوحى اليه بشىء • كان كل واحد فى المنزل يعلم أن فالالى سيفضح نفسه لدى أول اشارة ، وأن فوما فومتش سيقبض عليـه عندئذ متلبسا بجرم الكذب • وأصبح وضع عمى صعبا حرجا الى آخر درجات الصعوبة والحرج • ما عساه فاعلا ما دام فالالى لا سبيل الى اصلاحه • وأخذ الصبى المسكين يهـــزل ويضوى حزنا وشـجنا • وأكدت ميلانى الغسالة أن الصبى قد أوذى بسحر، وأخذت ترشه بماء مبارك• وشاركت

براسكوفى ايلتشنا الطيبة التى انقبض صـدرها غماً وهماً ، شاركت فى هذا العمل النافع • ولكن ذلك كله لم تكن له كذلك أية جدوى : فمـا من شيء أمكن أن يصلح الحال • وكان فالالى يقـول : « لعن الله هـذه البقرة البيضاء ! انها تعود فى كل ليلة • وأنا أردد فى كل مرة عند المساء ابتهالى قائلا : أيها الحلم لا تكن بقرة بيضاء • ولكن دعواتى تذهب سُدى، فالبقرة البيضاء اللعينة تنتصب كل ليلة أمامى بقرونها الطويلة وشـفتيها الضخمتين ، ثاغية : موء •• موء ! •• موء ! •• » •

وفيما كان عمى بالغا ذروة الكرب والكمد بسبب هذا الأمر ، اذا بفوما فومتش يبدو عليه فجأة ، لحسن الحظ ، أنه نسى قصة البقرة البيضاء هذه ! واضح ان أحدا لم يكن يتصور أن فوما فومتش يمكن أن ينسى قضية تبلغ هذا المبلغ من الخطورة • فقال كل واحـــد بينه وبين نفســه مرعوبا : لا شك أنه يحتفظ بها ذخيرة يخرجها عند أول مناسبة • ولم يدركوا الا بعد ذلك أن فوما فومتش كان فى تلك اللحظة قد ترك البقرة البيضاء جانبا ، لأن فكره كان مشغولا بأمور أخرى ، لأن خططا أخرى كانت تنضج فى دماغه الخصب القوى • فذلك هو السبب فى أنه وهب للصبى فالالى هدنة يتنفس أثناءها •

تخفف فالالى وتخفف معه الجميع• استرد مرحه ، حتى لقد بلغ من نسيان الماضى أن ظهور البقرة البيضاء فى منامه أصبح يقل ليلة بعد ليلة ، دون أن تنقطع البقرة البيضاء رغم ذلك عن التذكير بوجودها من حين الى حين • الخلاصة أن كل شيء كان يمكن أن يجرى على خير حال لولا رقصة « الكامارنسكايا » •

من الضرورى أن نلاحظ أن فالالى كان يرقص رقصا رائعا يفتن اللب حقا • هذا هو الاستعداد الوحيد الذى يملكه والذى يشبه أن يكون

موهبة طبيعية • انه يرقص في حماسة ونشاط وفرح وبهجة لا ينضب لها معين • ولكنه كان يؤثر الرقصة التي تنسب الى « موجيك كامارينو » ، لا لان ما تقتضيه هذه الرقصة الخفيفة من دورات على قدم واحدة كانت تحظى منه باعجاب خاص ، بل لمجرد أنه كان يستحيل عليه أن يسمع أنغام هذه الرقصة دون أن يأخذ جسمه بالتحرك • ففي بعض الأحيان، أثناء السهرة ، كان يجتمع خادمان أو ثلاثة والحوذي والبستاني الذي يعزف على الكمان ، وسيدة أو سيدتان من الخادمات ، كان يجتمع هؤلاء منتحين جانبا وراء حوش قصي في أبعد مكان عن فوما فومتش • وتبدأ الموسيقى ثم تبدأ الرقصات ، الى أن تنطلق رقصة « الكارامنسكايا » مدوية مظفرة • ان الأوركسترا تتألف من آلتي بالالايكا وقيثارة وكمان وطبل؛ وان متيوشا السائس هو الذي يحسن قرع الطبل باتقان كامل • فليتك ترى عندئذ كيف كان فالالي يدور على قدمه راقصا ! كانت صرخات التشجيع والفرح التي يطلقها مشاهدوه تحفزه مزيدا من الحفز، وتحرضه مزيدا من التحريض ، فاذا هو يأخذ يقرع الأرض بقدميه قرعا ينسى معه نفسه ، وتنهك به قواه • وهو في أثناء ذلك يطلق صيحات حادة ، ويضحك ملء صدره ، ويصفق بيديه ، ويثب من مكانه وثوب من تحركه قوة غريبة عنه ، قوة عارمة تجبره على أن يقرع الأرض بكعبه قرعا ما ينفك يستعر ويشتد على قدر تسارع الايقاع مزيدا من التسارع • تكلم دقائق متعة كبيرة للصبي كان يمكن أن تستمر طويلا لولا ان فوما قد بلغته أنباؤها أخيرا •

ذهل فوما حين بلغه النبأ ، فأرسل يستدعي الكولونيل ، وقال له :

ـ يا كولونيل ، ليس لدي الا سؤال واحد ألقيه عليك : أتراك حلفت لتفقدن هذا الأبله صوابه تماماً ؟ نعم أم لا ؟ اذا كانت الأولى فانني انسحب ، أما اذا كانت الثانية فانني •••

فصاح عمي مذعورا :

ـ ولكن ماذا هنالك ؟ ماذا جرى ؟

ـ ماذا جرى ؟ أأنت تجهل اذن أنه يرقص رقصة «كارامنسكايا».؟

قال عمي :

ـ ولكن أى ضير فى هذا ؟

فصرخ فوما :

ـ اى ضير فى هذا ؟ أأنت تقول هذا الكلام ، أنت سيده الذى يجب أن تكون له من بعض الوجوه بمثابة أب ؟ ولكن أتراك تفهم حق الفهم ما تمثله رقصة « كامارنسكايا » ؟ هل تعلم أن مدار الأغنية على رجل ساقط يقترف أحقر عمل وهو فى حالة سكر ؟ هل تعرف الى أى حد يمضى هذا الفاسد الفظ المنحل ؟ انه يدوس أقدس الصلات ويسحقها سحقا، ان صح التعبير، بحذائيه اللذين تعودا أن يدوسا أحقر الخمارات؟ أتراك تدرك أن جوابك يسىء الى أنبل عواطفى ويؤذى اسمى مشاعرى ؟ أتراك تدرك ذلك أم لا ؟

ـ ولكن يافوما .. ما هى الا أغنية يافوما ..

ـ ما هى الا أغنية ! ألا تستحى أن تعترف بأنك تعرفها أنت يا من تنتمى الى المجتمع الراقى ، يا من أنت أب لأولاد طاهرين أبرياء ، يا من أنت كولونيل فوق ذلك كله ؟ ليست الا أغنية ؟! .. أنا متأكد من أنهذه الأغنية انما أوحت بها حادثة واقعة . ليست الا أغنيـــة ! .. ولكن أى انسان يمكن أن يعترف ، دون أن يموت من الشعور بالخـزى والعار ، بأنه يعرف هذه الأغنية ، وبأنه سمعها ولو مرة واحدة ؟ أى انسان ؟ أى انسان ؟

ـ ولكن يا فوما •• لا بد أنك تعرفها أنت أيضا ما دمت تتكلم عنها على هذا النحو •

كذلك قال عمى منقادا لبساطة نفســـه وبراءة قلبه • فصاح فوما يقول :

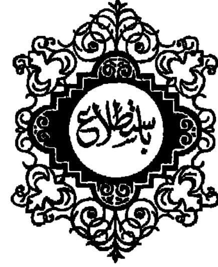
ـ ماذا ؟ أنا أعرفها ؟ أنا ؟ أنا ؟ أيجرؤ أحد أن يقول اننى •• آه ! •• يا لها من اهانة !

بهذا أعول فوما فجأة وهو يثب عن كرسيه ويتأنىء غضبا وحنقا • كان لا يتوقع هذا الجواب الذى يمليه الحس السليم •

لن أحاول أن أصف الغيظ المسعور الذى اعتــرى فوما فوفتش • وحسبى أن أقول ان الكولونيل ، بسبب هذا الجواب الذى « ليس فى محله » ، رأى نفسه يطرد شر طردة ، بعيدا عن بصر هذا المدافع عن مكارم الأخلاق • .ومنذ ذلك اليوم حلف فوما فومتش ليقبضنّ على فالالى متلبسا بالجرم حين يرقص « الكارامنسكايا » • فكان اذا هبط المســـاء ، واعتقد كل من بالمنزل انه مشغول ، نزل هو الى الحديقة خفية ، ودار حول بستان الخضار ، ومضى يلطو فى حقل القنب الذى يستطيع أن يرى منه المكان الذى يؤثره الراقصون • لقد تربص بالمسكين فالالى كمايتربص الصياد بطائر ، متلذذا سلفا بالدرس الذى سيلقنه أهــل المنزل جميعا ، والكولونيل خاصة • وتكلل جهده المستمر بالنجاح آخر الأمر ، فقبض على الراقصين وهم يرقصون • والآن تفهمون لماذا همّ عمى أن يشـــد شعر رأسه حين رأى فالالى أمامه باكيا ، وحين سمع فيدوبلياسوف يعلن فجأة ، فى تلك اللحظة من الحيرة والاضطراب، عن وصول فوما فومتش بذاته •

٧

فوما فومتش



نهم انما نظرت الى القادم الجديد • لم يخطىء جافريلا حين وصفه بالدمامة • هو قصير القامة ، أشقر الشعر أشيبه ، معقوف الأنف ، مغضّن الوجه بأخاديد دقيقة، يزين ذقنه ثؤلول ضخم• انه فى نحو الخمسين من العمر • دخل من غير ضوضاء ، بخطى موزونة، خافضا عينيه • بيد أن زهوا وقحا يُلاحَظ فى حركاته المتعاظمة المتعالمة المتفيهقة كلها • وما كان أشد دهشتى حين رأيته يدخل علينا بثوب المنزل ! صحيح أن تفصيلة الثوب تفصيلة أجنبية ، ولكنه ثوب منزل على كل حال • وأكثر من ذلك أنه كان ينتعل «شبشبا» ! وكانت ياقة قميصه مقلوبة على طريقة ياقات الأطفال ، بدلا من أن تحزمها ربطة عنق ، فكان ذلك يسبغ على فوما هيئة بليدة جدا • مضى قدما نحو الكرسى الشاغر ، فقربه من المائدة ، وقعد عليه دون أن ينطق بكلمة • ان كل الضجة التى كانت تملأ الغرفة ، وكل الهياج الذى كان قائما فيها منذ دقيقة ، قد حل محله الآن صمت عميق مطبق • أصبح من الممكن فجأة أن يُسمع طيران ذبابة • هدأت الجنرالة فأصبحت وديعة كوداعة حمل • ان العبادة التى تحملها هذه البلهاء المسكينة لفوما فومتش تسطع فى وضعها كله • ان بصرها لا يشبع من النظر الى معبودها • كانت تأكل فوما فومتش وتشربه بعينيها •

وبينما كانت الآنسة بيربلتسين تفرك يديها وتصطنع ابتسامة تكشف عن أسنانها ، كانت عمتي المسكينة براسكوفي ايلنتشنا ترتعش من الخوف ارتعاشا واضحا • أما عمي فما لبث أن أخذ يتحرك بسرعة ويكثـر من الكلام حتى لكأنه عدة أشخاص •

ـ صبِّي ••• صبى شايا ياأختي العزيزة ••• وأكثرى من السكَّر ••• فان فوما فومتش يحب الشاى كثير السكَّر بعـد القيلولة • تريد الشاى كثير السكر ، أليس كذلك يا فوما ؟

ـ ليست المسألة الآن مسألة شـــاى ! ألا تفكر أنت يوما الا فى السكر ؟ •

كذلك قال فوما وهو يتكلف الوقار ويبدو مشغول البال •

شاقتنى هذ الكلمات كثـيراً ، بعد ذلك الدخـــول المتعاظم المتفيهق المضحك • كنت أحترق شوقا الى أن أعرف الى أى حد من نسيان اللياقه والأدب يمكن أن يمضى هذا الشخص الوقح المزهو بنفسه •

هتف عمى يقول :

ـ فوما ، أقدم اليك ابن أخى ، سرجى الكسندروفتش، الذى وصل منذ برهة قصيرة ••

فنظر الىَّ فوما فومتش من القدمين الى الرأس ، ثم أجاب يقول بعد صمت بليغ الدلالة ، كأننى لا وجود لى :

ـ يا كولونيل ، ان من حقى أن أستغرب كيف تقاطعنى أثناء كلامى هذه المقاطعات المطردة • أكلمك فى قضية هامة فتجيبنى لا يدرى الا الله بماذا ! هل رأيت فالالى ؟



فوما فومتش أوبسكين

بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

ـ رأيته يا فوما !

ـ ها ••• رأيته ! ومع ذلك ، رغم أنك رأيته فسوف أريك اياه أيضا • سوف تستطيع الآن أن تعجب بهذا المخلوق الذى هو «مخلوقك» بالمعنى المجازى لهذه الكلمة •

ثم التفت فوما نحو الصبى فقال له :

ـ تعال الى هنا أيها الأبله ! اقترب يا وجه سكير هولاندى ! هيا ، تقدم ، تقدم ، لا تخف !

دنا فالالى فاغر الفم وهو ينشج خانقا بكاءه • فنظر اليه فوما فومتش راضيا مسرورا •

قال فوما فومتش وهو يتخذ على مقعده وضعا مريحا ويلتفت برأسه نحو أوبنوسكين ، جاره :

ـ لقد تعمدت أن أصفه بأنه وجه سكير هولاندى ! وفيم ألطف تعابيرى فى حالة كهذه الحالة ! الحقيقة قبل كل شىء ! والأقذار تبقى أقذارا مهما تغطّها • فعلام يكلف المرء نفسه عناء البحث عن عبارات التلميح والتورية ، علام يخدع المرء نفسه ويخدع غيره ؟ ان الاهتمام السخيف بلباقات من هذا القبيل لا يمكن أن ينبت الا فى رأس رجل امعة خفيف العقل ! قل لى ••• اننى أحتكم اليك ••• هل تجد شيئا جميلا فى هذا الوجه المقزز ••• أقصد هل تجد فيه شيئا نبيلا رفيعا معبرا ، لا مجرد وجه مصطبغ بالحمرة هو وجه سكير ؟

كان فوما فومتش يتكلم بصوت معتدل رقيق عذب ، وهو يصطنع قلة الاكتراث ويظهر العظمة •

أجاب أوبنوسكين باحتقار متقزز :

ـ تسألنى أهو جميل ؟ ألا اننى لا أحس حين أراه الا بأننى أرى شريحة من لحم البقر المقلى •

تابع فوما فومتش بلهجة فخمة :

ـ فى هذا الصباح اقتربت من المرآة وفى نيتى أن أرى نفسى (قال ذلك ملحا على كلمة « نفسى ») • صحيح أننى لا أعدنى رجلا جميلا • ولكن كان لا بد لى من الاعتراف بأن فى هذه العين الشهباء شيئا يميزنى حتما عن شخص مثل فالالى • ان عينى تدل على التفكير ، على الحياة ، على الذكاء ! وما أطريه بهـــذا الكلام الذى أقوله لا تدفعنى الى اطرائه حماسة لشخصى ••• فانما أنا أتكلم عن طبقتنا جملةً • والآن ما رأيك ؟ هل يمكن أن يوجد فى هذه الشريحة المتجولة من لحم البقر المقلى أى اثر من روح ، أى قبس من روح ؟ كلا ••• لاحـــظ أيضـــا ، يا بافل سيميونتش ، ان أمثال هذه المخلوقات المحرومة من الفـكر ومن المثـل الأعلى حرمانا تاما ، والتى تتغذى على وجه العموم باللحم علفـا ، يكون جلدها نضرا نضارة قصوى ، الا أنها نضارة منفرة مقززة فظة غبية ! هل تحب أن تقيس درجة ذكائه ! اذن فانظر !

ثم التفت فوما الى الصبى فقال له :

ـ هيه ••• أنت يا كسلان ! اقترب قليلا حتى نستطيع الاعجـاب بك ! لماذا تفتح فمك على هذا النحـو كأنه فوهـة فرن ؟ أتراك تريد أن تبلع حوتا ؟ قل لى : هل أنت جميل ؟ أأنت جميل أم لا ؟

أجاب فالالى وهو يخنق نشيجه :

ـ جميل •

فانفجر أوبنوسكين مقهقها ، وشعرت أنا بجسمى يقرقف غيظـا •

عاد فوما يقول بلهجة الظافر المنتصر وهو ما يزال يوجه الكلام الى آوبنوسكين :

ـ هل سمعت ؟ لسوف تسمع المزيد ! فانما جئت الى هنا وأنا أنوى أن أمتحنه • اسمع يا بافل سيميوفتش • ان هناك أناسا يحرصون على ان يفسدوا هذا الأبله المسكين ، وأن يكونوا السبب فى ضياعه ضياعا كاملا ! لعلنى أبالغ قليلا فى حكمى ، غير أن ما أقوله انما أستلهمه من حبى للانسانية • لقد كان هذا الصبى يرقص منذ لحظة قصيرة رقصة هى أبعد الرقصات عن الأخلاق ! وما من أحد هنا يبدو عليه أنه يلاحظ ذلك • ولكنك ستطلع على المسألة الآن •

واتجه فوما الى الصبى فقال له :

ـ أجب ! ماذا كنت تفعل منذ هنيهة ! لماذا لا تجيب ؟ أجب حالا •• حا ••• لا •••• هل تسمع ؟

قال فالالى وقد اشتد نشيجه :

ـ كنت أرقص ••

ـ أية رقصة كنت ترقص ؟ أية رقصة ؟ قل حالا •••

ـ « الكارامنسكايا » •

ـ آ ••• آ ••• « الكارامنسكايا » ! وما هى رقصة «الكارامنسكايا» هذه ؟ حاول أن تجيب اجابة مفهومة •• قل لنا من هو بطل هذه الرقصة •

ـ فلاح (موجيك) •

ـ موجيك ؟ فقط ؟ انك تدهشنى • اذن لقد كان شخصا بارزا

جدا ، شهيرا جدا ، ذلك الموجيك الذى ألفوا الأغانى والرقصات تكريما له ؟ هه ؟ هل كان أى موجيك ؟ هيا ... أجب ! ...

ان فوما يهوى اثارة الاعصاب هوى جامحا . كان يعبث بضحيته عبث القطة بالفأرة . ولكن فالالى الصامت الباكى لم يفهم من هذه الأسئله شيئا .

ألح فوما يسأل :

ـ ألن تجيب أخيرا ؟ لقد سألتك من أين جاء هذا الفلاح ! تكلم ... هلا تكلمت ؟ الى من كان ينتمى ؟ الى سيد من السادة ؟ الى دير من الأديرة ؟ الى مقاطعة من المقاطعات ؟ هل كان حرا ؟ ان الفلاحين أنواع وأنواع ...

ـ الى دير ...

ـ ها ... الى دير ! هل سمعت يا بافل سيميوفتش ؟ هذه واقعة تاريخية جديد تظهر . لقد كان فلاح كامارينو ينتمى الى دير من الأديرة ... هم ! ... ولكن ما هى حسنات هذا الشخص العظيمة ؟ ما هى الأعمال المجيدة التى قام بها فاستحق أن يكرم فى أغان ورقصات ؟

ان هذا السؤال الشائك ، الموجه الى فالالى ، لا يخلو من خطر .

قال أوبنوسكين وهو ينظر الى أمه التى أخذت تتحرك على مقعدها تحركا ذا دلالة :

ـ اسمع يا فوما فومتش ... أحسب أنك تسرف بعض الشىء ...

ولكن كيف كان يمكن أن يتدخل أحد . ان لنزوات فوما فومتش قوة هى قوة القانون .

همست أقول في أذن عمي الذى كان حائرا لا يدرى ماذا يصنع :

ـ رحماك يا عمي ••• أسكت هذا الآبله ••• انك ترى الى أين يريد أن يصل من ذلك ••• لسوف يضطر هذا المسكين فالالى أن يلفق كذبة ضخمة •

فقال عمي أخيرا يخاطب فوما :

ـ على كل حال يا فوما ••• مهمـا يكن من أمر ••• فوما ••• دعنى أقدم لك ابن أخى ، انه شاب مختص فى علم المعادن •••

ـ يا كولونيل ، أرجوك أن لا تقاطعنى بكلامك هـذا عن علم المعادن ! ثم انني ، اذا صدق ظنى ، أعتقد أنك لا تفهم من علم المعـادن شيئا ، لا انت ولا « آخرون » فى أغلب الظن • ما آنا بطفل • انني اريد أن يجيبنى عن ذلك الرجل الساقط الحقير الذى كان يتسكع فى الشوارع ثملا ، بدلا من أن يعمل لسعادة ذويه ، وما ينفك يلهـو ويقصف حتى يبيع معطفه فى سبيل أن يشرب بثمنه خمرا • ذلك هو مضـمون تلك القصيدة التى تتغنى بالسكر ، كما يعرف جميع الناس ذلك • فلا تخف من شيء • انه يعرف الآن بماذا ينبغى أن يجيب •

وعاد فوما يسائل الصبى :

ـ هيا ••• اشرح لى : ماذا كان يعمل ذلك الفـلاح ؟ لقد لقنتك الجواب ••• وضعت لك الجواب على لسانك ، وأحب الآن أن أسمعـه بصوتك أنت ! ماذا كان يعمل ذلك الفلاح ؟ لماذا نظمـوا فى تكريمه القصائد وألفوا الرقصات ؟ ما هو الشيء الذى استحق من أجله الخلود ؟ ما الذى تتغنى به أناشيد شعراء « التروبادور » هيا ••• قل •••

كان فالالى الشقى يلقى على الجميع نظرات طائشة زائغة ، وكان

من فرط حيرته يفتح فمه ثم يغلقه كشبوط أخرج من الماء الى الأرض •

وتمتم المسكين أخيرا يقول :

ـ أستحي أن أقول •••

قال فوما ظافرا منتصرا :

ـ ها ••• يستحي أن يقول • ذلك ، يا كولونيل ، هو الجواب الذي كنت أنتظره ••• يستحي أن يقول ، ولكنه لا يستحي أن يفعل ، أليس كذلك ؟ تلك هي الأخلاق التي غرستها في منزلك ، تلك هي الأخلاق التي أنبتّها ••• تلك هي الاخلاق التي تتعهدها الآن بالعنايه والسقاية ! ••• ولكن فيم الكلام كثيرا في غير طائل ! اذهب الى المطبخ الآن يافالالى ! لن أقول لك كلمة أخرى ••• وذلك احتراما مني للحضور ••• ولكنك في هذا اليوم نفسه ، نعم في هذا اليوم نفسه ستلقى العقاب القاسي الذي تستحقه • فاذا لم يعاقبوك في هذه المرة ، اذا انحازوا الى جانبك ضدي ، فسوف تبقى أنت هنا ترقص « الكارامنسكايا » مسريا عن سادتك ، أما أنا فأترك المنزل ••• نعم ••• في هذا اليوم نفسه ••• كفى ! قلت كل شيء ! انصرف

جمجم أوبنوسكين يقول :

ـ يخيل الى أنك أسرفت في القسوة ! •••

فهتف عمي يقول :

ـ تماما ! تماما !

ولكنه لم يلبث أن توقف عن الكلام فورا ، لأن فوما فومتش شمله بنظرة قاتمة •

وتابع فوما يقول :

ـ وانه ليدهشني بعد هذا يا بافل سيميونتش ما ألاحظه من جمود أدبائنا المعاصرين ، وشعرائنا ومفكرينا ! كيف لا يلتفتون بانتباههم الى الأغاني التي يرقص على انغامها الشعب الروسي ! أي عمل قام به الى الان هؤلاء الكتاب والشعراء أمثال بوشكين ولرمونتوف وبوروزدنا* وغيرهم؟ ألا ان هذا الأمر ليذهل ! الشعب الروسي يرقص « الكارامنسكايا » ، يرقص الأغنية التي تمجد السكر ، ثم هم مشغولون عن ذلك بوصف جمال أنواع الأزهار ! لماذا لا يدعون هذه الأزهار ويفرغون لنظم أغان شعبية أقرب الى الحشمة والأدب ؟ أليست هذه القضية قضية اجتماعية ؟ اذا أرادوا أن يصفوا فلاحاً فليصفوه في صحبة أناس كرام الأخلاق ، أو قل بتعبير أصح فليصفوا لا فلاحا خشن الطبع فحسب ، بل فلاحا رفيع النفس سامي الروح. فليصفوا قرويا عاقلا بسيطا بساطة طبيعية، وليجعلوه منتعلا حذاءين من قشر القنب اذا كانوا يحرصون على ذلك ، ولكن فليصفوه متحليا بجميع فضائله وهي فضائل لا أخشى أن أقول ان من الممكن أن يحسده عليها الاسكندر المقدوني الذي طالما كيل له المديح ! « انني أعرف روسيا ، وتعرفني روسيا »*. ولهذا نفسه انما أقول هذا الكلام على كل حال. فليصفوا لي هذا الفلاح أشيب الشعر عائلا مرهقاً بكثرة أعبائه وواجباته نحو أسرته ، مختنقا في كوخه ، بل ومتضورا من الجوع ، ولكن فليصفوه راضيا عن مصيره قانعا بما كتب له ، لا يتذمر ولا يشكو ، بل يبارك فقره ، ولا ينفس على الأغنياء أنهم يملكون ذهبا .. وليقولوا عن الغني انه من حنانه ورقة عاطفته يقاسمه ذهبه ، بل فليروا فضيلة رجل الحقول تتحد بعد ذلك بفضيلة سيده العظيم اذا شاءوا ، فاذا القروي والسيد العظيم ، اذا بالطرفين الأقصيين من السلم الاجتماعي يجتمعان على الفضيلة ! يا لها من فكرة رائعة ! ومع ذلك فما الذي نراه بدلا من هذا ؟ نرى في جهة أزهارا ونرى في جهة أخرى سكيرا يشب من

الخمارة ويجعل يضرب فى طول الشارع وعرضه خالعا عذاره ! أين الفكر والروح ؟ أين الجمال والرشاقة ؟ أين الأخلاق ؟ اننى لا أفهم !

هتف ياجفكين يقول بلهجة مفتتنة :

ـ فوما فومتش ، اننى مدين لك بمائة روبل لهـذه الأقوال التى تفوهت بها !

والتفت ياجفكين الىّ يهمس في أذنى بصوت خافت :

ـ تملق يا عزيزى ، تملق ، تملق دائما ! ...

وتمتم أوبنوسكين يقول :

ـ نعم ، لقد أجدت التعبير عن هذه الأمور أيما اجادة !

وهتف عمى الذى أصغى الى كلام فوما فومتش بانتباه شديد وألقى علىّ نظرة انتصار :

ـ تماما ! تماما ! ما أجمله من موضوع !

ووشوشنى يقول وهو يفرك يديه :

ـ ما رأيك ؟ هكذا فلتكن الأحاديث !

ثم صرخ وقد عصف به الانفعال قائلا :

ـ فوما فومتش ، أقـدم اليك ابن أخى . انه يعنى هو أيضـا بالأدب !

وفى هذه المرة أيضا لم يول فوما فومتش تقديم عمى أى انتباه .

همست أقول لعمى بلهجة قاطعة :

ـ أرجوك ، لا تقدمنى اليه بعد الآن !

واستأنف فوما فومتش الكلام يخاطب ميزنتشيكوف الذى أخـذ يحدق اليه :

ـ ايفان ايفانوفتش ، ما رأيك فى النقطة التى عالجناها ؟

فأجابه ميزنتشيكوف يقول كمن يستيقظ متنفصا :

ـ تسألنى أنا ؟

ـ نعم ، أسألك أنت ! وانما أسألك أنت لأن الرأى الذى يصدر عن رجل مثقف صادق أحب الى نفسى كثيرا من رأى يصدر عن أناس يظن أنهم علماء ، أناس لا فضيلة لهم الا اطراء فكرهم وعلمهم بغير انقطاع ، أناس يُستدعون فى بعض الأحيان عمدا من أجل أن يعرضوا على الناس فى مبنى خشبى بمعرض أو ما أشبه ذلك ! ...

لا مجال للشك أبدا : ان فوما فومتش يعرِّض بى تعريضا صريحا .. انه يرمى حجره فى حديقتى رأسا . انه مع رفضه أن يولينى أى انتباه انما بدأ حديثه كله عن الأدب فى سبيل أن يستطيع منذ أول دقيقة أن يبهر وأن يحقِّر وأن يسحق ، فى شخصى ، العالم المطلع والمفكر القوى الوافد من بطرسبرج ... أو ذلك ما وقع فى ذهنى ورسخ فى اقتناعى !

أجاب ميزنتشيكوف يقول متململا تململا واضحا :

ـ اذا كنت تحرص هذا الحرص كله على معرفة رأيى ، فاعلم أننى أوافق على ما ذهبت اليه ...

قال فوما :

ـ أنت دائما توافق ... ذلك أمر يضيق به المرء ذرعا آخر الأمر ...

وعاد بعد لحظة من صمت يقول مخاطبا أوبنوسكين من جديد :

ـ أقول لك صراحة ياباڤل سيميونتش انىاذا كنت أقدر كارامزين* الخالد فما ذلك لأنه وضع كتابه العظيم فى « التاريخ » لا ولا لأنه كتب

« مارتى ونوفجورود » ولا لأنه كتب دراســته عن « روســيا القديمــة والجديدة » ، وانما لأنه كتب « فرول سيلين » • هذه ملحمة رائعـــة ! ذلك عمل ينبع من الشعب وسيخلد أبد الدهر ! تلك ملحمة رفيعة !

قال عمى مؤيدا وقد استعاد هدوء نفسه ورباطة جأشه :

ـ تماما ! تماما ! هى ملحمة رائعه ! • « فرول سيلين » رجل الخير والفضيلة ! أتذكر أنه بعد ان افتدى امرأتين من الأقنان اتجه ببصره الى السماء وبكى ! تلك لفتة رائعة !

مسكين ! انه لا يستطيع أن يمتنع عن أن يقول كلمته حــين تدور الألسنة من حوله فى أحاديث « متعالمة » •

وابتسم فوما ابتسامه مرة ولكنه صمت •

قالت آنتوز بتروفنا تشارك فى الحديث على حذر :

ـ على كل حال تُكتب اليوم أيضا أشياء ذات قيمة ••• مثال ذلك : « أسرار بروكسل » •

قال فوما فومتش على أسف :

ـ لا أشاطرك الرأى • لقد قرأت أخيرا قصيدة من هذه القصائد •• فاذا سألتنى رأيى فيها قلت انها تتغنى بالأزهار أيضا ! أما اذا أردت أن تعرفى من هو الكاتب الذى أوثره بين الكتاب الجدد ، فاننى أقول لك انه « الناسخ » * • ذلك قلم رشيق !

صاحت آنتوز بتروفنا :

ـ « الناســخ » ! ذلك الذى يبعث برسائل الى المجـــلة ! آ ••• ما أروعه وما أجمل تلاعبه بالألفاظ !

ـ تماما ! تلاعبه بالألفاظ ! انه في التلاعب بالألفاظ كالبهلوان ان صح التعبير ! وان له لقلما محكما كل الاحكام !

قال اوبنوسكين مجازفا :

ـ نعم ! ولكنه متفيهق !

ـ متفيهق ! متفيهق ! لا أقول نقيض ذلك ! ولكنه متفيهق قريب من القلب محبب الى النفس ، هو متفيهق رشيق ! صحيح أنه ما من رأى من آرائه يصمد للنقد ، أنا أسلم بذلك ••• ولكنه ثرثار زاخر بالمتعة ملىء بالرشاقة ، هل لاحظتم أنه يذكر فى احدى مقالاته أن له أملاكا ؟

ـ أملاكا ؟ عظيم ••• في أية مقاطعة ؟

كذلك سأل عمى •

فتوقف فوما ، وحدق الى عمى ثم تابع يقول دون أن يغير لهجته :

ـ فهل يجب أن يعنينى ، أنا القارىء ، أن أعرف أن له أملاكا ؟ يجب أن نعترف مخلصين بأن ذلك أمر لا يهم القـــارىء • فاذا كانت للرجل أملاك ، فطوبى له ! ولكن ما أمتع وما أجمل كتابته ! انه يتوقد فكرا ، انه يتفجر فكرا ، انه يغلى فكرا ••• هو نبع ثر لا ينضب ! نعم ، هكذا فليكتب الكاتبون ! أحسب أننى لو كتبت للمجلات لكتبت على هذه الطريقة وبهذا الأسلوب •

صاح ياجفكين يقول بلهجة الاحترام :

ـ بل لكتبتَ بطريقة أفضل وأسلوب أجمل !

ـ نعم ••• بأسلوب فيه مزيد من الموسيقى •

كذلك قال عمى مؤيدا •

هنا فار فائر فوما فومتش أخيرا فقال :

ـ يا كولونيل ، هل لى أن أرجوك ، بكل التهذيب المطلوب طبعا ، أن لا تزعج نفسك وأن تسمح لنا باتمام حديثنا فى سلام وهدوء ؟ انك عاجز عن فهم شيء فى هذا المجال ! فلا تعكر اذن مناقشتنا الادبية الشائقة بملاحظاتك التى لا محل لها . اهتم بادارة أعمالك ، واشرب شايك ، ودع الأدب وشأنه . واذا تركت الادب وشأنه فلن يخسر الأدب من ذلك شيئا ، أؤكد لك ...

تجاوز هذا الكلام حدود الوقاحة ، فأصبحت لا أعرف كيف أفكر ...

قال عمى محتجا وقد اعتراه غم مؤثر :

ـ ولكنك أنت الذى قلت ، يا فوما ، ان أسلوبك سيمتاز بمزيد من الموسيقى .

ـ صحيح ... قلت أنا هذا ... ولكننى قلته عالما بمعنى ما أقول ... أما أنت ...

فردد ياجفكين يقول وهو يدور حول فوما فومتش :

ـ هذا هو الأمر ... لقد قلنا ما قلنا عالمين بمعنى ما قلنا .. نحن عندنا من الفكر فيض نستطيع أن نبيع منه ... عندنا من الفكر ما يمكن ان نوزعه على وزيرين فى آن واحد ، ثم يبقى لدينا منه ما نُسعد به ثالثا ! أولئك نحن !

قال عمى وهو يبتسم ابتسامة طيبة :

ـ طيب ... هأنذا أدرك أننى قلت حماقة جديدة !

قال فوما :

ـ أحسنت اذ اعترفت !

ـ لا ضير يا فوما ، لا ضير البتة ••• أنا لست غاضبا قط ••• أنا لم أزعل أبدا ••• انا أعلم أنك تلومني لوم الصديق صديقه ، كما لو كنت قريبي ، كما لو كنت أخي • انا نفسي سمحت لك بذلك ، بل رجوتك فيه • هذا يفيدني كثيرا ، كثيرا جدا ••• هو يستهدف خيري وحده • أنا شاكر لك هذا ، انني أنتفع به ! •••

نفد صبري • ان كل ما كنت قد سمعته حتى تلك اللحظة عن فوما فومتش كان قد بدا لي مشتملا على شيء من التحيز ضده • أما الان ، وانا أرى الأمور بعيني ، فان دهشتي قد تجاوزت كل حد • لم استطع أن أفهم كل هذه الوقاحة وكل هذا الطغيان والاستبداد من جانب ، وكل هذه العبودية المرتضاة وكل هذه السذاجة الغرة من جانب آخر • على ان عمي قد تأثر من هذه السفاهة المستمرة ••• كان ذلك واضحا ••• واحترقت رغبة في أن أتماسك مع فوما ، في أن أغلبه ، في أن أظهر له الفظاظة دون أن أعبأ بالعواقب ! خنقني هذا الخاطر خنقا •• أخذت أرتقب الفرصة ، وكنت أثناء هذا الانتظار أحك حافة قبعتي فأفسدها شيئا بعد شيء • غير أن الفرصة لم تعرض ••• فقد دبر فوما أمره بحيث لا يراني •

وتابع عمي يقول محاولا أن يسيطر على نفسه وأن يمحو في الوقت نفسه بأي ثمن الأثر المؤلم الذي خلفه الحديث السابق :

ـ صدقت يا فوما • أحسنت القول يا فوما • أشكرك • يجب على المرء أن يعرف الشيء قبل أن يقضي فيه • أعترف لك بذلك • ما هذه أول مرة أجدني في هذه الحالة • تصور يا سرجي (كذلك تابع عمي يخاطبني الآن) ••• لقد كان عليّ في ذات يوم أن أشارك في اجراء

امتحانات ••• أهذا يضحككم ؟ انتظروا اذن ! يمينا لقد شـــاركت فى اجراء امتحانات ! دعانى الى ذلك معهد للشباب • و ضعت مع المتحنـين الاخرين ، اذ كان يوجد مكان شاغر ، وكانوا يريدون أن يكرمونى • أما أنا فلم أشعر باعتزاز ، بل كنت خائفا ••• يجب ان أعترف اننى فى مجال العلم لا اعرف شيئا • ماذا تريدون ؟ لقد كنت طول عمرى اخشى أن ادعى الى السبورة ! ومع ذلك ألفت الآمر ، حتى لقد أردت أن ألقى أنا نفسى سؤالا ، فسألت من هو «نويه» ؟ يجب أن أذكر أننى أجبت على خير وجه • وبعد انتهاء الامتحان تغدينا وشربنا الشمبانيا متمنين الازدهار والرخاء للمعهد ••• انه معهد محترم جدا •

انفجر فوما فومتش وأوبنوسكين يضحكان مقهقهين ، وابهج عمى أن يعود الجميع الى المرح ، فصاح يقول وهو يضحك ببراءة :

ــ وأنا أيضا ضحكت بعد ذلك من كل قلبى ••• انتظر يا فوما • لا تتحرك • سأضحكك مزيدا من الاضـحاك اذ أروى لك الآن كيف ارتكبت خطيئة • تصور يا سرجى • كنا أيامئذ كتيبة من الحـــرس فى جراسنوجورسك •••

ولكن فوما قاطعه :

ــ لحظة يا كولونيل ! هل قصتك هــــذه التى تريد أن ترويهــا طويلة ؟

ــ آه ••• فوما ••• قلت لك انها مضحكة جدا ••• هى قصـــة ينعقف لها الجسم من فرط الضحك ••• اسمع ••• سترى أنهامضحكة جدا ، جدا ••• سأروى لكم كيف قُرصت ، كيف قرصت جيدا ! •••

قال أوبنوسكين وهو يتثاءب :

ـ انني أصغي اليك دائما بسرور حين تكون قصصك من هذا النوع !

وقا لفوما يحسم الأمر :

ـ فلنذعن •••

ـ فوما ، يمينا انها مضحكة جدا • أريد أن أروي كيف ارتكبت غلطة في ذات مرة يا آنتوز بتروفنا • واسمع أنت ايضا يا سرجي : هي قصة مفيدة •

قال عمي ذلك وبدأ يروي قصته بصوته المتقطع ، مشرق الوجه ، مجزئا جمله ، كما يفعل ذلك دائما حين يريد تسلية جمهوره :

ـ وصلنا كتيبة من الحرس الى كراسنوجورسك • فذهبت منذ المساء الاول الى المسرح لأسمع الممثلة المشهورة المرموقه كوروباتكينا • لقد هربت هذه الممثلة ، فيما بعد ، مع الكابتن زفروكوف ، ذات مساء ، في المسرح ، أثناء التمثيل ، حتى اضطروا الى اسدال الستارة ! ولكن يا لزفروكوف هذا من وغد ! كان لا يفكر الا في شرب الخمرة واللعب بالورق • لم يكن سكيرا بمعنى الكلمة ، ولكنه كان على استعداد دائما لان يزجي الوقت مع الرفاق • حتى اذا نال حظه من الشراب نسي عندئذ كل شيء : منزله ، والبلد الذي هو فيه ، أي كل شيء ، كل شيء ••• حتى اسمه ••• ومع ذلك ما كان أروعه من فتى ! طيب ••• ذهبت الى المسرح • فلما كان وقت الاستراحة بين الفصلين نهضت من مكاني ، فاذا أنا أجدني أمام رفيقي القديم كورنوخوف أنفا لأنف • يجب أن أذكر لكم أن كورنوخوف كان فتى فريدا في نوعه • لم أكن قد رأيته منذ ست سنين • كان في الحرب ، وكان قد حصل على أوسمة • وكنت قد سمعت أخيرا أنه ترك الجيش وأصبح مدنيا ، فهو يشغل الآن مركزا

ضخما ، وقد نال رتبا عالية ، واحدة بعد أخرى • أسعدنا كثيرا أن نلتقي بعد طول غياب ، كما تقدرون ذلك ، وثرثرنا طويلا • ولكن في الشرفة القريبة منا كان هنالك ثلاث سيدات • فاما التي في الشمال فقد بدت لي دميمة دمامة مخيفة ••• علمت بعد ذلك أنها امرأة جديرة باعظم الاعجاب ، فهي ربة أسرة ممتازة ، وهي قادرة على ان تجعل زوجها سعيدا جدا ••• وهأنذا أسأل كورنوخوف ، كما يفعل غبي أحمق : « قل لي يا صديقي ، هل تعرف هذه الفزاعة ؟ » • قال : « اية فزاعة ؟ » قلت : « تلك ••• » قال : « هي ابنة عمي » • فاحكموا كيف يمكن ان يكون موقفي ! وحاولت ان أخرج من المأزق فقلت له : « لا ••• لا ••• تلك ••• اين عيناك ؟ أقصد الاخرى ••• اقصد الجالسة في الطرف ••• من هي ؟ » • قال : « هي أختي » ••• ويل لي ••• ولقد كانت اخته في حقيقة الامر فتاة بارعة الجمال أشبه ببرعم ورد ، وكان كل ما ترتديه وكل ما تتزين به من جواهر وأساور وغيرها يناسبها ويخطف البصر بجماله حقا ••• الخلاصه انها كانت فتانه أخاذة •• وقد تزوجت، فيما بعد ، برجل لائق جدا اسمه بيتين ، هربت معه وتزوجته بدون موافقه ابويها ، ولكن الأمور سويت بعدئذ ، وقد ابتسم لهما الحظ وأصابا ثراء كبيرا ، والأبوان مغتبطان الآن بهذا الزواج أشد الاغتباط ! ••• ارتبكت فاصبحت لا أدري أين أدس أنفي ، ثم هانذا أصيح قائلا له : « لا ••• لا تلك ••• بل الجالسة في الوسط ••• مالك لا ترى ؟ » فقال : « الجالسة في الوسط ؟ هي زوجتي يا عزيزي ! » • والحق آن المرأة كانت ساحرة الحسن يتمنى المرء من فرط جمالها أن يأكلها اكلا! ••• فقلت له عندئذ : « اسمع ••• اذا كنت لم تر في حياتك شخصا أبله ••• فان شخصا أبله يقف الآن أمامك ••• حتى ان رأسه في متناول يدك ، فاقطع هذا الرأس ، دون أن يعذبك ضميرك على ما فعلت ! »

فأخذ يضحك .. فلما انتهت المسرحية عرفنى بالسيدات الثلاث اللــواتى لا شك أنه روى لهن كل شيء ، هــذا الخبيث ، لأنهن لم ينقطعن عن الضحك لحظة واحدة . . لا أظن أننى قضيت فى حياتى سهرة أحسن من تلك السهرة ! فانظر يا عزيزى فوما كيف يغلط المرء أحيانا ... هأ هأ هأ ! ...

ولكنْ عبثا ضحك عمى ، وعبثا أجال نظـرته الطيبــة الفرحة فيما حوله ، فان صمتا كصمت الموت قد استقبل حكايته . كان فوما فومتش لا يتحرك ، وكان غارقا فى وضع متجهم كالح يقلـــده فيه الجميع ، الا أوبنوسكين الذى ارتسمت على شفته ابتسامة يسيرة لأنه تصور الموعظـة التى سيتحمل عمى ثمنها ... وقد أخذ عمى المسكين يحمر فعلا ... وذلك ما كان ينتظره فوما .

قال فوما للقاصّ المضطرب ، بلهجة فخمة :

ـ هل انتهيت ؟

ـ انتهيت .

ـ وأنت مسرور ؟

ـ مسرور بماذا يا فوما ؟ ماذا تريد أن تقول بهذا الكلام ؟

كذلك أجاب عمى المسكين وقد حزن حزنا شديدا منذئذ .

ـ هل تشعر الآن بتخفف وارتياح ؟ هل أنت مغتبـــط بأنك قطعت مناقشة أدبية كانت تجرى بين أصدقاء ، من أجـــل أن ترضى غرورك التافه ؟

ـ فوما ! ما هذا الكلام ؟ أنا لم يدر فى خلدى الا أن أسر الجميع ... لماذا تريد أن ....

هنا استعر فوما فجأة فقال صارخا :

ـ ان تسر الجميع ؟ انت قادر على أن تضجر الناس لا على أن تسرهم ... هل تعلم ان قصتك التى رويتها لم تكن غير لائقة فحسب ، بل توشك أن تكون منافية للأخلاق ايضا ؟ ... لقد بينت لنا ، بفظاظه نادرة في العواطف ، كيف سخرت من سيدة نبيلة بريئة ، لا لشيء الا لانها لم تنل سعادة الحظوة باعجابك ! اما نحن ، نعم نحن ، فقد حاولت أن تضحكنا ، أي حاولت ان تجبرنا على التهليل لك وتاييدك ؟ معنى ذلك أنه كان علينا أن نحبذ سلوكك المشين ، لا لشيء الا لانك هنا سيد المنزل . على رسلك يا كولونيل ، ان في وسعك أن تبحث لنفسك عن متطفلين وعن مجاملين ، بل في وسعك أن تستورد أناسا من هذا النوع من بلاد بعيدة تعزيزا لحاشيتك على حطام الصدق والاخلاص والصراحه ونبل الاخلاق ، ولكن فوما فومتش لن يكون في يوم من الأيام واحدا من المتطفلين المجاملين لك ... هذا أمر أستطيع أن أضمنه منذ الآن ...

ـ فوما ! انك لم تفهمني !

ـ بل أنا أعرفك يا كولونيل ! لقد كشفتك منذ زمن طويل . ان غرورا مسرفا يقضم نفسك قضما . أنت تطمع في أن تكون رجلا ذا فكر عظيم ، وتنسى أن الطمع يضعف الفكر ويطفئه . أنت ...

ـ كفى يا فوما كفى ! يجب أن تستحي من قول هذا الكلام أمام الجميع !

ـ نعم ، ولكن هذا الذى أراه يبلغ ضيقي به وحزني منه أنني لا أستطيع أن أسكت . انني فقير ، وأنا « ضيف » تلك التي وهبت لك الحياة . فلا أحب أن يظن أحد أنني أقبل أن أتملقك بسكوتي .. لا أحب ان يقع في وهم شخص « غر » انني متطفل عليك ! ربما

كان صحيحا أننى حين دخلت الى هنا منــذ قليل قد تعمـــدت أن أفاقم صراحتى السليمة ، وتعمدت أن أوشك أن أكون فظا ، ولكن سبب ذلك هو انك اخرجتنى عن طورى ! انك مسرف قليلا فى العجرفة والغطرسة معى يا كولونيل ، حتى لقد يحسب أحد اننى عبد لك ، أو اننى طفيـلى عندك • انك تسر سرورا كبيرا اذا استطعت أن تهيننى وأن تذلنى أمام « غرباء » ، على حين أننى ندك ••• نعم ندك ••• هل تسمع ؟ آنا ندك فى كل شىء • ولعلنى آنا الذى أشرفك باقامتى عندك ، ولست « أنت » الذى تشرفنى باستقبالى فى منزلك • اننى أذل ، ومعنى هذا أننى أجبر على امتداح نفسى ، وذلك أمر طبيعى ••• يستحيل علىّ أن أسـكت • يجب أن اتكلم ••• يجب أن أحتج بغير ابطاء • ذلكهو السبب فى اننى أرانى مضطرا الىأن أبين بغير لف ولا دوران أنك انسان أنانى أنانيـــه نادرة ! ترانى مثلا أجرى حديثا وديا فأظهر ثقـــافتى وقراءاتى وذوقى ومعلوماتى على غير ارادة منى ، فسرعان ما تحس أنك شخص لا لزوم له ، وسرعان ما تعمد الى مقاطعتى بغية أن تظهر معلوماتك واذواقك تقليدا لى ! وانى لأسألك عن أذواقك : ما هى ؟ معذرة يا كولونيل ، انك لا تفهم فى شئون الرشاقة أكثر مما تفهم بقرة فى مذاق اللحم • ان ماأقوله لك قاطع وفظ ، أعترف لك بذلك ••• ولكنك واجد فيه مزية الصراحة على أقل تقدير ••• ليس متملقوك هم الذين يمكن أن يخاطبوك بهـذه اللغة يا كولونيل !

ـ آه ••• فوما ! •••

ـ نعم نعم ••• أعرف « آه ••• فوما ! » ••• واضح أن الحقيقة قاسية صعب بلعها ! ••• كفى الآن ! سنتكلم عن هذا كله فيما بعد • أما الآن فاسمح لى أن أسرى عن هذا الجمع قليلا • لست بالوحيد الذى يجب أن يتميز • بافل سيميوفتش ، هل لاحظت هذا الشيطان الذى له

وجه انسان ؟ اننى أراقبه منذ مدة طويلة • أنعم النظر اليه : ألا ترى أنه يتمنى لو يبلعنى لقمة واحدة ؟

كان هذا الكلام كله يتناول جافريلا • ان الخادم العجوز ، الواقف على الباب ، كان قد شهد تعذيب مولاه فشعر بحزن شديد •.

ـ أحب أن أرفه عنك بمشهد صغير يا بافل سيميونتش • هيـه ! أنت يا غراب ! اقترب ! مزيدا من الاقتـراب من فضـلك يا جافريلا اجنافتش • هذا يا بافل سيميونتش هو جافريلا الذى ينبغى ، عقابا له على فظاظته ، أن يتعلم اللغة الفرنسية • أنا مثل أورفيه ••• ألطف أخـلاق الناس فى هذا الزمان ••• لا بالاغانى ••• هذا صحيح ••• وانمابتعليم اللغة الفرنسية • هيه أيها المسيو الفرنسى ! هيه أيها المسيو المتسكع ! انه لا يطيق أن أناديه بالمسيو المتسكع ••• هل تعلمت درسك ؟

أجاب جافريلا خافضا رأسه :

ـ تعلمته

– Et parlez-vous français

– Voui moussié, jé-lé-par-lin-pé...

لا أدرى ماذا أضحك الحضور : هل وجه جافريلا الحزين هـو ينطق بهذه الجملة ، أم تلبية رغبة فوما فى أن يراهم جميعايضحكون •• المهم أنهم انفجروا يقهقهون منذ فتح جافريلا فمه •

حتى الجنرالة ارتضت أن تتنازل فتضحك • وانقلبت آنوز بتروفنا على ظهر المقعد وهى تنقنق مخفية وجهها وراء مروحتها • والشىء الذى زاد قهقهة الجميع انما هو الحركة التى قام بها جافريلا : فانه حين لاحظ

كيف يجرى الامتحان ، بصق جانبا وجمجم يقول مستاء : « هذا هـو العار الذى يجب أن أتحمله وأنا فى هذه السن ! » •

ـ هه ؟ ماذا قلت ؟ أتحسب أن فى وسعك أن تتواقح ؟

قال جافريلا بوقار :

ـ لا يا فوما فومتش ، ليس كلامى وقحا • ليس من حق مخلوق فقير مثلى أن يكون وقحا امام انسان ولد نبيلا مثلك • ولكن كل فرد من أفراد البشر يحمل فى نفسه صورة الله وشبهه • أنا فى الثالثة والستين من عمرى • أبى يتذكر بوجاتشف • لقد شنق بوجاتشف * جدى مع سيده ماتفاى نيكيتتش ••• رحمهما الله ••• نعم ••• شنقهما على شجرة حور واحدة ••• وهذا هو السبب فى أن أبى تميز على سـائر الأقنان لدى آناستازيا ماتفايتش ، سيدنا المرحوم • كان فى أول الامر خادما له ثم اصبح مدير الخدمة فى المنزل حتى مماته • أما أنا يا سـيدى فوما فومتش فرغم أننى قن ٌ فقير ، لم ألق منذ ولدت عارا كهذا العار !

فلما وصل جافريلا الى آخر كلمة حرك يده باشـارة تعبر عن العجز ، وخفض رأسه • وكان عمى لا يحول عنه عينيه •

هتف عمى يقول :

ـ كفى كفى يا جافريلا ! لماذا تدقق فى الأمور هـذا التدقيق ! كفى !

وقال فوما وقد اصفر قليلا لكنه حاول أن يبتسم :

ـ لا بأس ••• لا بأس ••• دعه يشرح ••• يا كولونيل ، انك تجنى ثمرات ما زرعت ! •••

انتعش جافريلا فتابع يقول بحرارة شديدة :

ـ سأقول كل شيء . لن أسكت عن شيء . في وسعكم أن تكبلوا يدي ، أما لساني فلا تستطيعون أن توثقوه ... يا فوما فومتش ، ما انا في نظرك الا فلاح خشن ، ولكن هذا لا يهب لك حق اهانتي . أما أنا فان واجبي هو ان أحترمك وأن أخدمك لانني ولدت قنا ، فينبغي لي أن أقوم بجميع واجباتي نحوك خائفا قلقا . فاذا كنت تؤلف كتابا كان عليّ أن لا أدع لاحد أن يدخل عليك . ذلك هو واجبي الحق ... وحين استطيع ان أفعل ما يرضيك فانني أفعله من كل قلبي . ولكن هذا لا يسوغ أن أُجْبَرَ وأنا في هذه السن من الشيخوخة على أن انبح بلغه أجنبية ، وان أتخذ أهزوءة أمام الناس ! اصبحت الان لا أستطيع أن أمكث في حجرة المدخل ، فانهم ينادونني صائحين : « هيه ... يافرنسي ... يا فرنسي ... » . ولست يا سيد فوما فومتش بالشخص الوحيد الذي يتذمر ... صحيح أنني غبي مسكين ... غير أن هنالك أشخاصا كثيرين من أخيار الناس أخذوا يقولون بصوت واحد انك رجل شرير وانك تعامل سيدنا معاملة صبي صغير لا قيمة له ... هبك ابن جنرال ، بل هبك كنت أنت نفسك جنرالا أو شبه جنرال ، فان هذا لا ينفي انك رجل سيء وربما كنت أسوأ من امرأة مسعورة !

توقفت جافريلا عن الكلام . وشعرت أنا بفرح شديد . وكان فوما شاحب الوجه من فرط الحنق على مرأى من الجميع ، وكان يبدو كأنه لا يستطيع أن يتصور الى أي مدى يجب أن يمضي هو بالغضب . وأخيرا حدث الانفجار المعتاد المألوف :

ـ ماذا ؟ أيجرؤ أن يشتمني أنا ، أن يشتمني أنا ؟ ولكن هذا عصيان صريح مكشوف .

كذلك أعول فوما وهو يثب عن مقعده .

ووثبت الجنرالة وراءه وهي تلوح بذراعها ، وقالت :

ـ كبلوه بالأغلال ! أوثقوه بسلاسل الحديد ! ياجور ، أرسله فورا الى المدينه ، الى الثكنة • والا منعت عنك رضاى وبركتى • أثقلوه بالقيود حالا ، واذهبوا به الى الثكنة •

وانطلق فوما يصرخ هو أيضا :

ـ ما هذا ؟ ما هذا ؟ أيهينني انا ، عبد ذليل ، فلاح خشن ، قروى حقير ، رجل ساقط ! أهو يهينني ، هو ؟ انه لا يساوى نعلى حذاءى ، ثم يجرؤ ان يصفنى باننى اشبه بامراة مسعورة ؟

عندئذ تقدمت بحزم قوى ، ونظرت الى فوما فومتش فى بياض عينيه ، وصحت اقول له بصوت يرعشه الانفعال والهياج :

ـ يجب ان اعترف لك باننى اؤيد ما قاله جافريلا كل التاييد •

فبلغ فوما فومتش من الانصعاق فى الوهلة الاولى أنه لم يصدق أذنيه •

ثم صاح أخيرا يقول وهو يصب علىّ عينيه المحتقنتين بالدم ، مذهولا :

ـ ماذا أيضا ؟ وددت لو أعرف من أنت ، من أنت ؟

تمتم عمى يقول وقد طاش صوابه تماما :

ـ يا فوما فومتش ! انه سرجى ، انه سرجى ابن أخى •••

فاعول فوما قائلا :

ـ العالِم ! ها ••• اذن هو العالم ؟ حرية ـ مساواة ـ أخوة ! «جريدة المساجلات» ! عليك بغيرنا ياعزيزى • ماهنا بطرسبرج ! لن ينطلى علينا شيء ! اننى أهزأ «بمساجلاتك» ! لك أن تظل مأخوذا ماشئت ! أما أنا فاننى أصرخ قائلا : فليسقط ••• فليسقط ••• ومهما تظن فى نفسك العلم ، فقد نسيت أنا من العلم سبعة أضعاف ما تعلمت منه أنت !

يقيبى أنه كان سينهال عليّ بالضرب لولا أنه منع ·

تابعت أقول وأنا أنظر الى من حولى قلقا :

ـ انه سكران !

فزار فوما يقول بصوت لم يعد صوته هو :

ـ من ؟ أنا ؟

ـ نعم أنت

ـ سكران ؟

ـ سكران !

لم يستطع فوما أن يحتمل هذا · فها هو ذا يطلق صرخة حادة هى صرخه انسان يدبح ، ثم هاهو ذا يركض خارجا من الغرفه · ونوت الجنرالة أن تسقط مغشيا عليها ، ولكنها عدلت عن رايها واثرت ان تركض وراء فوما فومتش · وهرع الجميع فى اثرهما ، واسرع عمى يهرول خلفهم جميعا · فلما ثبت الى نفسى ، نظرت حولى فلم ار فى الغرفة أحدا الا ياجفكين · كان ياجفكين يبتسم ويفرك يديه احديهما بالأخرى ·

قال لى بصوت متلو :

ـ لقد وعدتنى بقصة عن يسوعى ·

فسألته دون أن أفهم ماذا يقول :

ـ نعم ؟

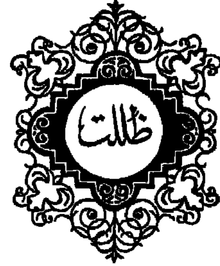
فقال :

ـ وعدتنى بأن تروى لى قصة عن يسوعى ··· قصة ···

واندفعت أهرب الى شرفة المنزل ، ومنها الى الحديقة · كان رأسى يدور ·

٨

تصـــديح



أطوف فى الحديقة أكثر من نصف ساعة ، مستاء من نفسى أشد الاستياء ، مفكّرا فيما بقى علىّ أن أعمله • كانت الشمس تغــرب • وفجأة ، عنــد منعطف طريق محفوف بالأشجار ، رأيتنى أمام ناستيا وجها لوجه • كانت تمسك بيدها منديلا تجفف به عينيها المخضلتين بالدموع • قالت لى :

ـ كنت أبحث عنك •

فأجبتها قائلا :

ـ وأنا أيضا • أوضحى لى ، أرجوك : أأنا فى مستشفى للمجانين ؟

فقالت وهى تحدق الىّ ويبدو عليها أن كلامى ساءها :

ـ أبدا •

ـ فما هذا الذى يجرى هنا اذن ؟ انصحينى ، ناشدتك الله ! الى أين ذهب عمي ؟ هل أستطيع اللحاق به ؟ اننى سـعيد جدا بلقائك ، فلعلك تخرجيننى من الارتباك الذى أنا فيه •

ـ لا ••• الأفضل أن لا تتحرك • أنا نفسى آتية الآن من عندهم•

ـ فأين هم ؟

ـ من يدرى ؟ لعله هرب هو أيضا الى بستان الخضار •

قالت ذلك صائحة بشيء من الغضب •

ـ لماذا الى بستان الخضار ؟

ـ في الأسبوع الماضي صرح فوما فومتش حالفا أنه لن يبقى هنا ؛ وفجأة أخذ يركض في بستان الخضار حتى وصل الى مستودع الأدوات، فتناول هناك معزقة وأخذ يحرث الأرض • اضطربنا جميعا ، وتساءلنا أتراه جن • فقال عندئذ « الآن لن يلومني أحد على الخبز الذى أُعطاه• سوف أحرث الأرض لأجنى الخبز الذى أطعمه هنا ، حتى اذا فرغت من عملى ذهبت • ذلك ما صرت اليه » • فسرعان ما أخذ الجميع يبكون، وابتهلوا اليه راكعين ، وحاولوا أن ينتزعوا منه المعزقة • ولكنه لم يشأ أبدا أن يتخلى عنها • وهكذا خرّب مربعا بكامله مزروعا باللفت • لقد خضعوا له مرة ، ولا شك أنه سيعاود الكرة • يمكن أن يتوقع المرء منه كل شيء !

صحت أقول بشيء من الاستياء :

ـ وأنت ••• تقصين ذلك بهذا الهدوء كله ، وهذا البرود كله ؟

فتأملتنى بعينيها الساطعتين •

قلت :

ـ معذرة ••• أصبحت لا أعرف ماذا أقول ••• اسمعى ! هل تعرفين لماذا جئت أنا الى هنا ؟

ـ لا •••

كذلك أجابت وهى تحمرّ ويكتسى وجهها الفتان تعبيرا أليما • فعدت أقول ملحاً :

ـ سامحيني ••• انني مضـطرب ••• أحس الآن أنه كان عـلىَّ أن أخاطبك بغير هذا الكلام ! ولكن لا ضير •• يخيل الى أن الصراحه في مثل هــذه الحالة أولى من كل شيء • اعترف ••• أريد أن أقول بالأحرى •• هل تعرفين ماينتويه عمي ؟ لقد طلب اليَّ أن أخطبك •••

ـ هه ! يا للغباء ! •• لا تتحدث عن هذا الأمر ، أرجوك ! •

قالت ذلك تقاطعني بقوة بينما كان الدم يثب الى وجهها •

فشعرت بحيرة كبيرة وحرج شديد • ثم قلت محتجا :

ـ كيف ؟ غباء ؟

سألتني بحرارة :

ـ هل كتب اليك ؟ آه •• أهذا ممكن ؟ لقد وعدني بأن لا يفعل ! ما هذه الحماقة ؟ يا رب ! ما هذه الحماقة ؟

تمتمت أقول :

ـ اغفري لى •• لعلني تصرفت تصرفاً فظاً أخرق ، كمن ذهب عقله وطاش صوابه •• ولكن فكّري فيما يجرى هنا •

ـ ناشدتك الله ، لا تتهمني ! ثق أن هذا كله يؤلمني سماعه ايلاماً كافياً •• على أنني كنت أحرص أنا نفسي على أن أكلمك بغية توضـيح الأمور •• آه •• ما أشد ما يؤسفني هذا كله ، وما أشد ما يبعث الحزن في نفسي ! اذن لقد كتب اليك ! ذلك ما كنت أخشاه أكثر من أى شيء آخر ! رباه ! ما هذا الانسان ! وأنت ، كيف صدقته ؟ وكيف رضيت أن تجيء مذعنا طائش العقل ؟ لماذا جئت ؟

كانت لا تخفى حزنها ، وذلك أمر جعلني في وضع لا يسر ••

دمدمت أقول مضطربا أشد الاضطراب :

ـ أعترف بأنني لم أكن أتوقع أن أرى الأمور تجرى هذا المجرى .. بالعكس ، كنت أقدّر .. كنت أحلم أن ..

فقالت وهى تبتسم ابتسامة ساخرة مكظومة وتعض على شفتيها :

ـ آ ... كنت تحلم ! .. هل تعرف ما أنت فاعل ؟ أرنى الرسالة التى كتبها اليك !

ـ لك ما تشائين !

ـ لا تحقد علىّ ،أ رجوك .. لا ولا تمتعض أو تتكدر ! ... ان ما وقع حتى الآن من سوء وشر لهو كبير الى درجة كافية ...

كذلك صاحت تقول بصوت ضارع بينما كانت شفتاها الساحرتان ترسمان ابتسامة ساخرة .

قلت أحتج فى ضراوة :

ـ أوه ! لا تحسبينى مع ذلك غبيا أبله ! لا شك فى أنك قد حُذرت منى .. لا شك فى أن احدا قد قال لك عنى سوءا .. ولعلك أيضا تحقدين علىّ بسبب الغلطة التى ارتكبتها الآن ! ليتك تعلمين أن هذا لا قيمة له . اننى افهم انا نفسى أننى ابدو أمامك أحمق . فلا تسخرى منى ، أرجوك ! أؤكد لك أننى أصبحت لا أعرف ماذا أقول .. ذلك كله لأننى لم أتجاوز الثانية والعشرين من عمرى ! اه .. سحقاً لسن الشباب !

ـ أواه ! ولكننى لا أرى أنك ..

ـ كيف لا ترين ؟ حين لا يكون عمر المرء أكثر من اثنين وعشرين عاما ، فانه يحمل هذا مكتوبا على جبينه . ولقد برهنت عليه حين تعثرت منذ قليل فى وسط القاعة ، وأنا أبرهن عليه الآن أمامك .. نعم ، قاتل الله سنى !

قالت ناستيا وقد أصبحت أقل قدرة على كظم رغبتها في الضحك :

ـ لا •• لا •• أنا أعتقد أنك طيب ولطيف وذكى •• أقول لك ذلك صادقة مخلصة ! ولكنك على جانب كبير من الأثرة أو حب الظهور• ذلك ما يجب اصلاحه فيك •

ـ لا أحسب أننى أتفوق فى هذا على غيرى •

ـ بلى ! فمنذ قليل كنت مضطربا اضطرابا شـديدا • لماذا ؟ لأنك أوشكت ان تسقط على الارض ! •• ولكن آى حق لك فى أن تضحك الناس على عمك ، الانسان الطيب ، العظيم ، الـذى أحسن اليـك ذلك الاحسان كله ؟ لماذا أردت أن تضحك الناس على حسابه ، مع آنك كنت وحـدك الجـدير بأن يُضحَك عليه ؟ لم يكن هـذا جميلا منك ! هذا لا يشرفك •• واننى لأعترف لك بأنك قد أثرت فى نفسى الاشمئزاز منك فى تلك اللحظة ••

ـ أنت على حق ! لقد تصرفت تصرف جبان •• بل تصرفت تصرف أجبن جبان •• ولاحظت أنت ذلك ، وهذا عقابى •• أهينينى ، اسخرى منى ، تهكمى علىَّ ، ولكن أصغى الى كلامى مع ذلك : فلعلك تغيرين رأيك فىَّ ذات يوم (كذلك تابعت أقول تجرفنى عاطفة غريبـة) •• أنت لا تعرفيننى الا قليلا جدا ، ولعـلك حين سـتعرفيننى فى المستقبل مزيدا من المعرفة ، لعلك عندئذ •••

ـ كفى ، ناشدتك الله •

هكذا صاحت ناستيا متململة تململا واضحا •

ـ طيب •• لندع هذا الآن ! ولكن متى أسـتطيع أن أراك مرة أخرى !

ـ ترانى مرة أخرى ؟ كيف يمكن هذا ؟

ـ وهل يعقل أن لا يكون قد بقى هنالك ما يقوله أحدنا للآخر ، يا آناستازى أوجرافوفنا ؟ أضرع اليك ، هبى لى موعدا آخر ، وليكن اليوم ان أمكن ! ولكن لا •• هذا هو الليل يهبط •• فليكن لقاؤنا اذن فى صباح غد ، فى ساعة مبكرة من صباح غد• سوف آمر بايقاظى خصيصا لهذا • هل توافقين ؟ هناك ، عند الغدير ، عريشة •• ما زلت أتذكرها • وأنا أعرف الطريق اليها • تعلمين اننى عشت هنا زمنا ، أيام كنت صبيا صغيرا •

ـ أهب لك موعدا ؟ لماذا ؟ يكفينا هذا اللقاء الآن •

ـ ولكننى لم أكد أعرف شيئا بعد ، يا آناستازى أوجرافوفنا ! ان عمى سيطلعنى على الأمر ، ولا بد أن يقص على كل شىء كما تقدرين ، وسيكون علىّ بعد ذلك أن أذكر لك أمرا هاما جدا •

صاحت ناستيا تقول :

ـ لا •• لا •• لا داعى الى هذا ، لا داعى اليه البتة • سوف ننتهى من القضية فورا ، ثم لا نعود اليها قط • دع عريشتك وشأنها ! احلف لك اننى لن أجىء ، وأنا أرجوك ، جادة كل الجد ، أن تخرج من رأسك جميع هذه الحماقات !

قلت محتجا وأنا أشعر بحسرة لا تطاق :

ـ اذن فقد تصرف عمى معى تصرف مجنون ؟ لماذا استدعانى الى هنا ؟ •• ما معنى هذه الجلبة ؟

وكنا قريبين جدا من المنزل ، فكانت تصـــل الى مسامعنا أصوات عويل وصراخ كريه •

قالت ناستيا شاحبة كل الشحوب :

ـ رباه ! أيضا ؟ لقد توقعت هذا !

قلت :

ـ توقعت هذا ؟ اسمحي لى بسؤال آخر يا آناستازى أوجرافوفناه ليس لى في القاء هذا السؤال حق ، ولكننى أحرص على القائه حفاظا على مصلحة الجميع • قولى لى ـ وسيظل جوابك مدفوناً فى أعمــاق نفسى لا يطلع عليه أحد يوما ـ قولى لى بصراحة : هل يحبك عمى ؟

صرخت تقول وقد احمرت غضبا :

ـ أرجوك أن تنتزع من رأسك هذه الحماقات الى الأبد •• أأنت تقول هــذا أيضا ؟ لو كان يحبنى لمـا طلب منك أن تتزوجنى (كذلك أضافت تقول وهى تبتسم ابتسامة مرة) • من أين ، من أين جئت بهذه الفكرة ؟ هل يعقل أن لا تفهم ما الذى يجرى هنا ؟ هل تسـمع هــذا الصراخ ؟

ـ هو فوما فومتش أيضا ••

ـ طبعا •• والصراخ الآن هو بسببى أنا • ان الشك الذى راودك يراودهم هم أيضا • يدعون « أنه » يحبنى •• واذ لم أكن أملك شيئاً، اذ لم أكن شيئا مذكورا ، فانهم لا يتحرجون من التقول علىَّ • يريدون أن يزوجوه أخرى ، ومن أجل أن يصلوا الى ذلك ، يطلبون منــه أن يطــردنى من المنزل •• يريدون أن يصرفنى الى بيت أبى من قبيــل الاحتياط والاحتراس • ولكن حين يكلمونه فى هذا الأمر ، يبـلغ هو من الغضب أنه يصبح قادرا على تمزيق فوما فومتش نفسه اربا اربا • أقسم لك أنهم من أجل هذا انما يصرخون الآن هذا الصراخ كله ! نعم، لقد تنبأت بذلك !

ـ أصحيح اذن أنه سيتزوج تاتيانا هذه قريبا ؟

ـ أى تاتيانا ؟

ـ أنت تعرفين .. تلك المجنونة .

ـ ليست مجنونة . وهى فتاة طيبة شهمة . ليس من حقك أن تقول هذا الكلام . ان لها قلبا من ذهب ، ان لها قلبا هو خير من قلوب كثير غيرها ! ليس الذنب ذنبها .. لقد عانت شقاء كبيرا !

ـ سامحينى . لنسلم بأنك فى هذا على صواب تماما . ولكن لا تخطئى فيما يتعلق بالشىء الأساسى . قولى لى : لماذا يحسنون استقبال أبيك الى هذه الدرجة ، فيما يبدو لى على الأقل ؟ لو كانوا حاقدين عليك حقا ، وكانوا يريدون طردك كما تقولين ، لتحفظوا فى معاملة أبيك .

ـ ألست ترى اذن ما الذى يفعله أبى فى سبيلى ؟ انه يقوم لهم بدور المهرج . واذا كانوا يحسنون وفادته ، فانما هم يفعلون ذلك لأنه حظى باعجاب فوما فومتش . واذا كان قد حظى باعجاب فوما فومتش ، فلأن فوما فومتش كان هو نفسه مهرجا ، فيسره أن يكون له الآن مهرج خاص به . ولئن فعل أبى ذلك ففى سبيلى أنا ، فى سبيلى أنا وحدى . ليس هو فى حاجة الى هذا . ليس هو فى حاجة الى أن يغض من قيمة نفسه أمام أحد . لقد يبدو مضحكا جدا فى نظر بعض الناس ، ولكن هذا لا ينفى أنه أنبل البشر طراً . وهو يعتقد ، لا يعلم الا الله لماذا ـ وما ذلك أبدا لأننى أتقاضى هنا أجرا حسنا ، أؤكد لك ـ هو يعتقد أن الأفضل أن أبقى فى هذا المنزل . ولكننى فتحت له الآن عينيه تماما . كتبت اليه رسالة أنبئه فيها بما عقدت عليه العزم . وقد جاء ليأخذنى منذ الغد اذا مضت الأمور بعيدا . والأمور تمضى الآن بعيدا جدا حتى ليتمنون أن يلتهمونى التهاما . أنا على يقين من أننى سبب جميع هذا الصراخ . سوف « يمزقونه » بسببى ، سوف يقتلونه بسببى ، هو الذى أعده لى

أبا بل أكثر من أب • لا •• لا •• أصـــبحت لا أطيق الانتظـار • أنا أعرف بالأمر من غيرى • ولذلك سأرحل غـــدا فى أبعد تقدير ! ومن يدرى ؟ لعل رحيلى أن يؤخر زواجه بتاتيانا ايفانوفنا •• ها قد أصبحت على علم بالامر •• فانقل اليه هذا كله ، انقله «اليه» • انه ليستحيل علىّ أنا أن أكلمــه • فهم يتجسســون عليه ، ويتبعـــونه ، ولا ســيما تلك البيربلستين • قل له أن لا يقلقه مصيرى ، قل له اننى أفضّل أن آكل خبزا أسود وأن أسكن فى كوخ أبى ، على أن أكون هنا مصدر عــذاب «له» • أنا فقيرة ، ويجب أن اعيش كما تعيش فقـــيرة • ولكن ما هذه الجلبة يا رب ! ما هذه الصرخات ؟ ما الذى يحدث أيضا ؟ لا بأس •• يجب أن أذهب اليهم مهما كلف الأمر ، يجب أن أذهب حتما • الوداع •

جعلت تركض • بقيت فى مكانى جامدا • أدركت الدور المضحك الذى كنت أمثله ، فأخذت أتساءل عما عسى يقع • شعرت بنفسى تفيض شفقه على المعلمة المسكينة ، وتفيض خــوفا على عمى • وفجــأة انبجس جافريلا قربى • كان ما يزال يمسك بيده دفتره •

قال لى بلهجة كالحة :

ـ من فضلك ! عمك يطلبك ••

انتفضت •

ـ عمى ؟ أين هو ؟ ماذا يجرى ؟

ـ هو فى القاعة التى احتسيتم فيها الشاى منذ قليل •

ـ من معه ؟

ـ هو وحده • انه ينتظرك •

ـ من ؟ أنا ؟

ـ لقد أرسل يستدعى فوما فومتش •

ثم أضاف وهو يزفر زفرة عميقة •

ـ آه •• لقد انقضت أيامنا الجميلة !

سألته :

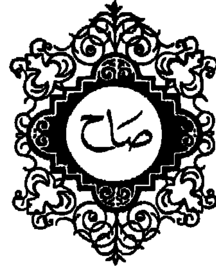
ـ عمى أرسل يستدعى فوما فومتش ؟ هم •• والآخرون ، أين هم ؟ أين السيدة ؟

ـ فى جناحها بالمنزل • لقد أغمى عليها • فهى ترقد الآن غائبة عن وعيها والدموع تسيل من عينيها •

وفيما كنا نتبادل هذا الكلام ، وصلنا الى السطحة • كان الظلام قد أطبق تقريبا • ووجدت عمى فعلا فى الغرفة التى شبت فيها المشاجرة بينى وبين فوما فومتش • كان عمى يذرع الغرفة جيئة وذهابا بخطى طويلة • وكان على المناضد شموع مشتعلة • فلما رآنى هب الى لقائى وصافحنى مصافحة قوية كادت تحطم أصابعى • كان شاحبا شديد الشحوب ، وكان يتنفس فى عناء ومشقة • ان يديه ترتعشان ؟ ومن حين الى حين تسرى فى جسمه قشعريرة عصبية •

٩

صاحب السعادة



عمي يقول بلهجة فاجعة :

ـ انتهى الأمر هــذه المرة ، انتهى يا صديقى العزيز •

سألته :

ـ قل لى يا عمى : لقد سمعت منذ هنيهة صرخات !

ـ صرخات ؟ ها •• نعم •• انطلقت صرخات كثـيرة •• وأغمى على أمى ، وانقلب الجميع رأسا على عقب •• ولكننى عقدت نيتى واتخذت قرارى ، وأحلف لك لأبرنّ بالعهد الذى قطعته على نفسى • لن أخشى أحدا بعد الآن يا عزيزى سرجى • سوف يدركون أن لى ارادة قوية ، وعزيمة صلبة • لسوف أريهم ارادتى وعزيمتى • ومن أجل هـذا انما استدعيتك • يجب أن تساعدنى فيما سأظهره لهم من قوة ارادتى وصلابة عزيمتى •• لقد تحطم قلبى يا سرجى •• ولكن لا ضير •• وانما يجب الآن أن أعمل بقوة وقسوة وعنف • الحقيقة لا ترحم •

ـ ما الذى جرى يا عمى ؟

صاح عمى يقول بصوت جازم قاطع :

ـ سأنفصل عن فوما •

فهتفت متحمسا :

ـ عمى العزيز •• حسنا تفعل •• واذا كان فى وسعى أن أعينك فى تنفيـذ قرارك ، فتصرف بى كما تشـاء •• أنا فى خـدمتك جسما وروحا •

ـ شكرا يا بنى شكرا • ولكن لا تخش شيئا • ان قرارى لارجوع عنه • لقد استدعيت فوما ، وأنا أنتظره • لا بد من الاختيار : اما أنا واما هو • يجب ان نفترق • غدا يترك فوما المنزل ، أو أترك أنا كل شيء واعود الى سلاح الفرسان ، اقسم على ذلك • سيعيدوننى الى الخدمه • سيضعوننى على رأس كتيبتين من الفرسان • اغير الجبهة ، امحو الماضى ، أبدأ من جديد • لماذا تحمل بيدك دفتر اللغة الفرنسـية هذا (كـذلك صاح يخاطب جافريلا حانقا وهو يلتفت اليه) ارم هذا الدفتر ! ارمه فى النار ، هل سمعت ؟ مزّق هذا الدفتر ، قطعه اربا والقه الى النار ! «أنا» هنا سيدك ، «أنا» آمرك بأن لا تتعلم اللغة الفرنسية • ليس فى وسـعك أن تعصى أمرى ! أنا هنا سيدك ، لا فوما فومتش ، أليس كذلك ؟

دمدم جافريلا يقول بصوت خافت جدا :

ـ الحمد لله ••

لاشك أن الامور تجرى مجرى خطيرا •

وتابع عمى يقول بلهجة نافذة :

ـ انهم يا صاحبى يطلبون منى المستحيل ! أحكم علىّ : ضع نفسك بينى وبينهم قاضياً غير متحيز • أنت لا تعرف ولا تسـتطيع أن تتصور ما الذى يطلبونه منى • لقد أعربوا عنه آخر الامر صراحه ، وشرحـوه شرحا واضحا : شيء يجافى الشرف ، يتنافى مع الانسانية ، شيء حقير•• سأقول لك كل شيء ، ولكن قبل ذلك •••

قاطعته قائلا :

ـ انني على علم بالأمر يا عمي •• وأنا أحزر •• لقد تحدثت منذ برهة قصيرة مع آناستازيا أوجرانوفنا •

قال يقاطعني هو أيضا بتعجل يشبه أن يكون رعباً :

ـ صه •• لا تزد كلمة واحدة • اعدك بان اقص عليك كل شيء فيما بعد •• أما الآن ••

هنا دخل علينا فيدوبلياسوف ، فصاح عمي يسأله :

ـ هيه •• أين فوما فومتش ؟

لقد جاء فيدوبلياسوف ليعلن أن فوما فومتش « يرفض أن يجيء ، وأنه يعد أمر عمي غلظة في غير محلها ، وفظاظة لا داعي اليها ، وأن فوما فومتش يعد نفسه لذلك مهانا جدا » •

صاح عمي يقول وهو يقرع الأرض بقدمه :

ـ جئني به عنوة ، جرّه جراً اذا لزم الأمر ! هل تسمع ؟ ••• قده الى بالقوة ! بالقوة !

لم يكن فيدوبلياسوف قد رأى سيده قبل اليوم في مثل هذه الحالة من الغضب ، فأسرع ينسحب مذعورا جزعا • وذهلت أنا •

قلت لنفسي : « في هذه المرة ، لا بد أن تكون القضية على جانب عظيم من الخطورة ، حتى يستطيع رجل في مثل طبع عمي ان يبلغ هذا المبلغ من الغضب والعزم » •

ظل عمي يذرع الغرفة ذاهبا آيبا خــــلال عدة دقائق وهو صامت لا يقول شيئا • ان صراعا أصم قد نشب في نفسه •

وهتف أخيرا يقول :

ـ جافريلا ، لا تمزق دفترك • انتظر • ابق هنا • قد أحتـــــاج اليك •

ثم تابع يخاطبني :

ـ لعلني قد أسرفت في الصياح قليلا يا صاحبي العزيز • ان على المرء أن يكون معتدلا مقتصدا وقورا رضيا في كل ما يعمـل ، لا يهين أحدا ولا يسيء الى أحد • نعم ، هو كذلك • هل تعلم يا سرجي ؟ لعل من الافضل ان تخرج من هنا • وسيان عندك ان تبقى وان تخـرج ، ما دمت سأروي لك كل شيء • هه ؟ ما رأيك ؟ أرجوك أن تخـرج ، ارضاءً لي •

سألته وأنا أحدق اليه :

ـ أأنت خائف يا عمي ؟ أأنت نادم على ما قررت ؟

فصاح يقول باندفاع قوي :

ـ لا •• لا •• يا صـــديقي •• لم يبق هنالك ما أداريه وأخاف عليه • لقد اتخذت قراراتي ، وهي قاطعة جازمة حاسمة • انك لاتعرف ولا تتصور ما يطلبونه مني • كيف يمكنني أن اوافق على طلبهم ؟ لا•• ولسوف ابرهن لهم على ذلك • انني أثور واتمرد ، وســـوف يرون • كان لا بد ان تصل الامور الى هذا الحد • ولكن هل تعلم يا صديقي ؟ انني نادم على انني استدعيتك : سيشق كثيرا على فوما ان تكون هنا شاهدا على مذلته ان صح التعبـــير • هل تفهم ما اريد ان اقوله ؟ انا احب ان تجري الامور على ما وصفت لك ، اي بدون اذلال له • ذلك انني ساسيء اليه مهما احترس • انا امرؤ فظ غير متقف ، فقد تفلت مني كلمة ، وقد تند عني حركه لا أرضى عنها بعدئذ • لقد فعل كثيرا من اجـلي على كل حال •• اذهب يا صاحبي اذهب • ها هم أولاء قد جاءوا به ! نعم لقـد جاءوا به ! اذهب يا سرجي ، يا بني ، ارجوك ••• ساروي لك كل شيء فيما بعد • اذهب ، ناشدتك الله ! •

قال عمي ذلك وقادني الى الســـطحة • وفي تلك اللحظة نفســها

دخل فوما الغرفة • ولكن يجب أن أعترف بأنني ، بدلا من أن أبتعد ، لبثت على السطحة نفسها حيث الظلام كثيف لا يتيح أن يروني من الداخل • حتى لقد دنوت أتنصت على الحديث عند الأبواب •

لا أحاول أن أسوغ سلوكي • ومع ذلك أجرؤ أن أؤكد انني قمت بعمل شاق جدا اذ بقيت على هذه السطحة نصف ساعة طويله ، دون أن أحدث أية ضجة • وكان في وسعي ، من المكان الذي أنا فيه ، أن أرى وأسمع في آن واحد ، لأن الأبواب كانت ذات زجاج •

والآن أرجوكم أن تتخيلوا فوما فومتش الذي تلقى «أمرا» بالمثول بين يدي عمي ، فاذا رفض أن يطيع الأمر اقتيد بالقوة !

ما ان دخل فوما الغرفة حتى أعول يقول :

ـ لعل أذنيّ قد خدعتاني يا كولونيل ! أصحيح أنك أنت الذي اصدرت هذا الأمر المهدد ؟

قال عمي باعتزاز :

ـ لا يا فوما ، لم تخدعك اذناك •• اطمئن من هذه الناحية • اجلس • سوف نتحدث في أمور هامة ، حديث صديقين ، حديث اخوين • هيا اجلس يا فوما !

استقر فوما على أحد المقاعد في أبهة • وعاد عمي يذرع الغرفة بخطى متقطعة سريعة ، وكان واضحا انه يتساءل من أي طرف يبدأ الكلام • وعاد يقول :

ـ نعم •• حديث أخوين • سوف تفهم يافوما• لستَ الآن بطفل، ولا أنا بطفل •• كلانا أصبح شيخا •• هيم •• أنت تعرف يا فوما أننا في بعض الأمور لسنا على اتفاق •• نعم •• في بعض الأمور ! •• أفلا ترى والحالة هذه يا صديقي أن نفترق ؟ أنا على يقين من أن لك قلبا

نبيلا ، وأنك لا تريد لى الا الخير ، وأن هـــذا هو السبب فى أنك •• ولكن لماذا الافاضة فى الشرح ! •• فوما ، أحلف لك بجميع القديسين أن صـــداقتى لك خالدة • اليك خمســـة عشر ألف روبل •• ذلك كل ما أملك يا صـــديقى من مال منقول •• وأكثـــر المبلغ أوراق نقدية من المصرف العقارى • فخذ المـــال ولا تتحرج • وليس عليك أن تقول : شكرا • لن أستطيع فى يوم من الأيام أن أرد لك كل جميلك • نعـــم ، ذلك هو رأيى تماما ، رغم أننا فى هذه اللحظة مختلفان فى أمر هام • سوف نفترق ، غدا أو بعد غد ••• فى اليوم الذى يرضيك •• اسكن فى مدينتنا الصغيرة يا فوما ، انها على بعد فرسخين من هنا • وراء الكنيسة ، فى الشارع الصـــغير ، على اليمين ، يوجـــد منزل صـــغير له مصراعان اخضران • لكان هذا المنزل قد شيد لك • المنزل تملكه أرملة كاهن ، وهى تريد أن تبيعه • فسوف أشترى لك هذا المنزل دون أن أمس المبلغ الذى أقدمه اليك الآن • اسكن فى هذا المنزل • سوف تكون قريبا منا كل القرب ، وسوف تنصرف هنالك الى الادب ، والى العلوم ، وســـوف تصبح رجلا شهيرا • ان جميع الموظفين هناك ، من اولهم الى اخرهم ، أناس نبلاء مهذبون كرماء • والأسقف عالم من العلماء • سوف تزورنا فى ايام الاحاد وفى ايام الأعياد ، وسيكون هذا جنة حقيقيه لنا ! اتوافق أم لا ؟

قلت لنفسى : « أبهذه الطريقة يكون طرد فوما ؟ ان عمى لم يذكر لى شيئا عن المال ! » •

وتبع ذلك صمت طويل ثقيل • كان فوما يبدو على مقعده مصعوقا • انه ينظر الى عمى محدقا •• وكان واضحا أن هذا التحديق وهذا الصمت يضعا نعمى فى حالة من ضيق •

وهتف فوما يقول أخيرا بتوان مقصود :

ـ مال ؟ أين المال ؟ اعطني المال •• اعطنيه حالا !

ـ خذ يا فوما ، هذا آخر ما أملك من فتات •• خمسة عشر ألف روبل •• كل ما عندي من مال سائل •• هل ترى ؟ هناك أيضا سندات من المصرف العقاري • خذ !

قال فوما بصوت هادىء :

ـ جرافيلا ! خذ هذا المال • أنت تدلف الى الشيخوخة ، وسيفيدك هذا المال !

ثم صاح فجأة وهو يثب عن مقعده معولا اعوالا ليس فيه شيء انساني :

ـ لا بل هات المال يا جافريلا ، هات هذا المال لادوسه بنعلي ، هات هذه الاوراق النقدية لامزقها ، لأبصق عليها ، لالطخها ! ••• اانا يقدم الي مال ؟ أنا ؟ أأنا يدفع لي مال من أجل أن أغادر هذا المنزل ؟ هل يعقل أن لا يكون ما أسمعه الآن وهما من أوهام الحواس ؟ أأنا من يجب ان يحتمل هذا العار الاخير ؟ خذ ، خذها ، خذ ملايينك ، انظر اليها ، ها هي ذي ! أنظر ماذا أصنع بها ! انظر كيف يفعل اوبسكين ، اذا كنت حتى هذه اللحظة لا تعرف كيف يفعل فوما اوبسكين يا كولونيل !

قال فوما هذا ونثر الصرة كلها على الأرض •

يجب أن نلاحظ أنه لم يمزق ايه ورقه ، وانه لم يلطخ ببصاقه أية ورقة ، كما اعتز بأنه سيفعل • انه لم يزد على أن جعدها قليلا ، لا كثيرا ، محترسا بعض الاحتراس • ومن جهة أخرى أسرع جافريلا يلم المال المبعثر ، حتى اذا انصرف فوما ، وضعه بين يدي سيده في عناية•

أحدث سلوك فوما في عمي تأثيرا بلغ من القوة أن عمي لبث مسمرا

فى مكانه لا يتحرك • انه هو الآن الواقف الساكن الفاغر الفم بلا تفكير، أمام فوما الغارق فى مقعده ، اللاهث كأنه نهب انفعال لا يوصف •

وصاح عمى أخيرا وهو يثوب الى رشده ، صاح قائلا :

ـ أنت انسان نبيل يا فوما ، أنت أنبل الملأ طراً •

فقال فوما بصوت ضعيف ووقار لا يمكن التعبير عنه :

ـ أعرف ذلك •

ـ فوما ، سامحنى ، أنا آخر أواخر الناس بالقياس اليك •

فقال فوما مؤيدا :

ـ أنت تقول ذلك ، ولا أجبرك على قوله •

وتابع عمى يقول فى نشوة ووجد :

ـ فوما ، ان نبل نفسك لا يدهشنى ، وانما الذى يدهشنى أننى استطعت أن أبلغ من الفظاظة والعماوة والجبانة أن أعرض عليك مالا فى مثل هذه الظروف • ولكنك يا فوما مخطىء فى نقطه : انا لم يخطر ببالى أبدا أن أدفع لك مالا من أجل أن تغادر المنزل ، وانما أردت أن يكون لك بعض المال ، أن لا تكون فى عوز وأنت تنصرف •• اقسم لك على ذلك يا فوما • فوما ! أنا مستعد لان استغفرك راكعا يا فوما • نعم يا فوما ، اذا كنت تحرص على أن أركع ، فسأركع فورا •••

ما أنا فى حاجة الى ركعاتك يا كولونيل !

ـ آه •• يارب ! فوما، ليتك تعلم •• لقد كنت خارجا عن طورى، كنت حانقا ، كنت مسعورا •• ولكن قل لى : باية وسيلة يمكننى ان أمحو الاهانة التى وجهتها اليك ؟ تكلم •• اصدر حكمك ••

ـ أبدا يا كولونيل أبدا • وكن على ثقة بأننى سأنفض الغبار عن حذاءى على عتبة هذا المنزل منذ الغد •

قال فوما ذلك وهم أن ينهض عن مقعده • فهرع اليه عمى جـزعا ليجبره على البقاء قاعدا فى مكانه • وصاح يقول له :

ــ لا •• يمينا لن تذهب •• لا تتحدث عن غبار حذاءيك يا فوما • لن تذهب هكذا ، والا ذهبت أنا أيضا •• أتبعك بلا توقف حتى آخـــر العالم ، الى أن تغفر لى • يمينا لأفعلن هذا يا فوما •

ــ أغفر لك ؟ أأنت اذن مذنب ؟ أأدركت اذن أنك صرت آثما فى حقى ابتداء من اليوم الذى مددت الىّ فيه هنا كسرة من خبز ؟ أأدركت انك الآن قد سمّمت ، دفعـة واحدة ، كل فتـاتة طعمتهـا عندك ؟ لقد آخذتنى على جميع قطع الخبز ، على جميع لقم الخبز التى أكلتها هنا • لقد بينت لى أننى عشت فى منزلك عبدا ، اننى عشت فى منزلك خادما ، أننى كنت فى نظرك أهون شأنا من نعلى حذاءيك ! بينما كنت أنا أظن ، لبساطة قلبى وبراءة نفسى ، كنت أظن حتى هذا اليوم أننى استقبلت تحت سقف منزلك صديقا وأخا ! ألم تؤكد لى انت نفسك الوف المرات انك تحمل لى اعمق المحبة وأجمل العواطف الاخـــوية ؟ لماذا حفرت تحت قدمى هذه الحفرة التى تريد ان تدفعنى اليها ؟ لماذا لم تقتلنى منذ زمن طويل بضربة واحدة من هذه الهراوة ؟ لماذا لم تعقف عنقى منذ البدايه كما يُفعل بدجاجة ••• بدجاجة ••• لا يمكنها أن تبيض ؟ ••• نعـم يا كولونيل نعم •• هذا هو التشبيه •• اسوقه رغم انه مستمد من حياة الريف ، ورغم انه مبتذل ابتذال الادب الرخيص الذى نقرؤه فى هذا الزمان ! اننى أحرص على هذا التشبيه لاننى أرى فيه كل ما فى اتهاماتك من سخف •• أو قل ان شئت اننى أشـــعر بأننى آثم فى حقك اثم تلك الدجاجة التى غضب منها مولاها الذى لا عقل له لانها لم تبض له بيضا ! •• قل لى من فضلك يا كولونيل ! هل يـدفع مال لصديق ؟ هل يدفع مال لأخ ؟ ما هـو السبب الذى يدفعك الى أن تتصرف هـذا التصرف ؟

لكأنك تقول لى : « خذ يا أخي ، خذ يا عزيزى •• اننى مدين لك بهذا لأنك أنقذت حياتى •• اليك دراهم يهوذا الثلاثين •• خذها واغرب عن عينى ! » ألا ما أغرب هذه السذاجة منك ! ألا ما أغرب هـذه الغلظـة وهذه الفظاظة ! آه •• لشدما حطمت قلبى ! لقد عبثت بأنبل عواطفى كما يعبث طفل بخذروفه ! تصورت أننى أستعطي ذهبك ، بينما كنت أنا أعمل في سبيل سعادتك ، تدفعنى الى ذلك عواطف تشـــبه أن تكون عواطف العبادة ! لقد تنبأت بهذا كله يا كولونيل ، تنبأت به منذ زمن بعيد ؛ ومن أجل ذلك انما أصبح خبزك ، منذ زمن بعيد ايضا ، يخنقنى خنقا ؛ من أجل ذلك انما أصبحت رياشك الوثيرة تخـزنى وخزا ؛ من أجل ذلك أصبح سكَّرك وأصبحت حلواك ، وأصبحت أطبـاقك اللذيذة ، أصبح ذلك كله كالعلقم مذاقا في فمى ! لا يا كولونيل ، ابق وحدك ، كن سعيدا بدونى ، ودع فوما يصعد الى صليبه الأليم حاملا خـرجه على ظهره ! ذلك ما سيكون يا كولونيل •

تنهد عمى يقول متهدما :

ــ لا يا فوما ، لا •• لن يكون ذلك •• لا يمكن أن يكون •

ــ بلى يا كولونيـل •• ذلك ما سـيكون ، لانه يجب أن يكون • سأترككم منذ الغد • انثر ملايينك •• افرش طريقى باوراقك النقـدية حتى موسكو ان كان يحلو لك ذلك، أما انا فسأمشى فوق اوراقك النقدية هذه باستكبار ، باحتقار ! بهذه القدم سأدوسها ، سأسحقها ، ساوسخها ! ان فوما أوبسكين يملك ما به يشبع • انه يملك نبل نفسه • لقـد قلت ما أردت أن أقوله • وداعا يا كولونيل •• و •• دا •• عا •

ومرة أخرى همَّ فوما أن ينهض ، ومرة أخرى كرر عمى يقول له مبتهلا ضارعا :

ـ عفوك يا فوما ، عفوك ، انس ما وقع !

ـ عفوى ؟ لماذا تطلب عفوى ؟ هبنى عفوت •• هبنى غفرت لك ! أنا مسيحى ، ولا يمكننى أن أرفض العفو والمغفرة •• بل لقد كدت أعفو وأغفر منذ الآن • ولكن احكم فى الأمر بنفسك : هل فى وسع أى انسان يملك ذرة من عقل أن يتخيل أن أبقى فى منزلك ولو دقيقة واحدة أخرى ؟ لن يكون هذا لائقا • ألم تطردنى طردا ؟

ـ بل سيكون لائقا جدا يا فوما ، أؤكد لك أنه سيكون لائقا جدا يا فوما !

ـ سيكون لائقا ؟ أما نزال الآن ندين متساويين ؟ هل يُعقل أن لا تكون قد أدركت اذن أننى أنا قد سحقتك بنبل نفسى سحقا ان صح التعبير ، وأنك أنت قد هويت بسلوكك الدنىء الى الدرك الأسفل ؟ أنت الآن تتمرغ فى الأرض ، أما أنا فأحلق فى السماء • فأين المساواة بيننا فى هذا ؟ اننى أقول ذلك متمزق النفس منتحب القلب ، لا أغتبط به ولا أبتهج له ولا أحاول أن أمجد نفسى على حسابك كما قد يقع فى وهمك •

ـ أنا أيضا متمزق النفس منتحب القلب يا فوما ، أؤكد لك ذلك !

تابع فوما يقول وقد انتقلت لهجته من القسوة الى الطلاوة :

ـ أهذا هو ذلك الانسان نفسه الذى بت فى سبيله مسهدا ليالى كثيرة ؟ آه •• ما أكثر ما نهضت عن فراشى ، أثناء ليالىّ البيضاء ، لأشعل شمعة ، قائلا لنفسى : « انه ينام الآن نوما هادئا لأنه يعتمد عليك يا فوما•• فعليك أنت أن لا تنام يا فوما ، عليك أنت أن تسهر بدلا عنه •• فلعلك واجد وسيلة أخرى تسهم فى اسعاده ! » ذلك ما كان يفكر فيه فوما أثناء لياليه المؤرقة يا كولونيل ! فانظر كيف كافأه هذا الكولونيل نفسه ••• ولكن كفى •• حسبنا ما قلناه !

ـ لا يا فوما ، اننى سأستحق صداقتك ، أحلف لك على ذلك !

ـ ستستحق صداقتى ؟ أين ضمانة ذلك ؟ اننى كمسيحى أغفر لك، بل سأحبك أيضا ، ولكننى كانسان ، كانسان سوى لن أملك الا أن أحتقرك على رغم ارادتى . أنا مضطر الى احتقارك . يجب علىّ أن أحتقرك . تدفعنى الأخلاق الى ذلك . أعود فأقول لك انك لطخت شرفك بينما كنت أنا أقوم بأنبل التضحيات . قل لى : من ذا الذى يمكنه بين « ذويك » أن يفعل ما أفعل ؟ من منهم كان يمكن أن يرفض ذلك المبلغ من المال المقيت الذى رفض فوما أن يمسه من فرط تعلقه بالرفعة والنبل والسمو ، فوما الشحاذ ، فوما المحتقر ؟ لا يا كولونيل ... فمن أجل أن تكون ندا مساويا لى ، سيكون عليك الان ان تعزم امرك على القيام بعدد كبير من الاعمال المجيدة . ولكن آية تضحية تستطيع انت ان تقدمها ، انت يا من لم تقدر ان تخاطبنى يوما بصيغه الجمع قائلا : « انتم » ، كما يجب ان تخاطب ندا لك ، انت يا من تخاطبنى دائما بصيغه المفرد كما تخاطب خادما من الخدم ؟ ...

قال عمي محتجاً :

ـ ما هذا الكلام يا فوما ؟ لئن كنت أخاطبك بصيغة المفرد ، فذلك من باب الصداقه ، من باب الصداقه وحدها : رباه ! انه لم يخطر ببالى أن هذا يمكن أن يسوءك ! ليتنى قد فكرت في أن ...

تابع فوما يقول :

ـ أنت يا من لم تستطع ، بل لم تقبل أن تلبى لى رجاء هو أتفه رجاء يمكن أن أرجوه ، هو أيسر رجاء يمكن ان ارجوه ! لم أطلب منك أكثر من أن تخاطبنى كما تخاطب جنرالا بقولك : «ياصاحب السعادة !».

ـ ولكن سبب ذلك يا فوما أن فى هذا مخالفة لقانون الرتب ...

ـ مخالفة لقانون الرتب ؟ انك قد حفظت جملة من كتاب على ظهر القلب ، فأنت ترددها كببغاء ! هل تقدِّر مدى الاهانة التى ألحقتها بى ، ومدى الاحتقار الذى نلتنى به حين رفضت أن تنادينى بقولك : «ياصاحب السعادة» ؟ لقد ألحقت بى اهانة لأنك بدلا من أن تقدر الأسباب التى دفعتنى الى طلب ذلك منك حق قدرها ، ظننت أننى انسان خرف شاذ خليق بأن يسجن ! أفتظن اذن أننى أجهل أن من المضحك أن استعطى لقب « صاحب السعادة » ، أنا الذى أحتقر جميع الألقاب ، وجميع علائم العظمة على هذه الأرض ، ما لم تكن مشفوعة بالفضيلة ؟ أنا لن أقبل لقب جنرال بغير فضيلة ولو أعطيت مليونا ! ومع ذلك حسبتنى مجنونا ! والحق اننى فى سبيل خيرك انما ضحيت بكرامتى تلك التضحيه التى اتاحت لك ان تعدنى مجنونا أنت و «علماؤك» ! لم يكن لى الا هدف واحد حين الزمتك بان تهب لى لقب جنرال : هو أن اضىء نفسك ، وان انمى فضيلتك ، وان اغرقك بسيل من الافكار الجديدة وأنشر نورها عليك ••• لقد حرصت على ان اقنعك بأن الجنرالات ليسوا اعظم نجوم الكرة الارضية ••أردت أن أبرهن لك على أن اللقب ليس شيئا ما لم ترافقه الفضيله ، فلا محل لاغتباطك بزيارة صاحبك الجنرال ما دام الى جانبك اناس اخرون تضيئهم الفضيله : ولكنك كنت من فرط زهوك بلقبك ، لقب الكولونيل ، انه شق على نفسك أن تعاملنى كما يعامل جنرال فتخاطبنى قائلا « يا صاحب السعادة ! » . تلك هى العقدة ! ذلك هو سبب رفضك ، لا مخالفة قانون الرتب : كل الامر انك أنت كولونيل ، واننى انا فوما فحسب ! •••

ـ لا يا فوما ، لا •• أؤكد لك أن الأمر ليس كما تقول ••• أنت عالم من العلماء ، ولست فوما فحسب •• أنا أحترمك •••

ـ تحترمنى ؟ عظيم ••• اذا كنت تحترمنى حقا فقل لى : أأنا

أستحق فى نظـــرك رتبة جنرال أم لا ؟ أجب بلا لف ولا دوران ••• وأجب فورا : أأنا أستحق هذا اللقب أم لا ؟ اننى أحرص على اختبـار ذكائك ، على امتحان فكرك •

ـ انك بما تتصف به من شرف السلوك وعظمة النفس ، وما تمتاز به من اخلاص وصدق وتنزه عن المنفعة تستحق هذا اللقب •

كذلك قال عمى مزهوا بعض الزهو •

قال فوما :

ـ فما دمت أستحق هذا اللقب ، فلماذا لا تخاطبنى قائلا : «ياصاحب السعادة » ؟ •

ـ أنا مستعد أن أقول ذلك اذا كنت تحرص عليه يا فوما •••

ـ بل أنا أطالب بذلك ! ••• نعم أنا أطالب بذلك الآن ، وألح فى المطالبة • اننى أرى أن الأمر يشق على نفسك ، ولهذا انما أطالب به • ان قيامك بمثل هذه التضحية هى الخطوة الأولى نحو أعمال جليلة تقوم بها •• ذلك أن عليك أن تقوم باعمال جليلة كثيرة حتى تصبح خليقا بان تقرن بى •• لا تنس هذا •• يجب أن تنتصر على نفسك ، وبذلك وحده يمكننى أن أصدق أنك مخلص •

ـ منذ غد سأخاطبك قائلا : « يا صاحب السعادة » !

ـ بل الآن يا كولونيل ، وغدا أيضا بطبيعة الحال •• اننى أطالبك بأن تخاطبنى الآن ، فورا ، بقولك : « يا صاحب السعادة » !

ـ أنا مستعد لذلك يا فوما اذا شئت •• ولكن كيف أقول لك ذلك فجأة يا فوما ؟

ـ ولم لا ؟ أتستحى أن تقول لى ذلك ؟ هذه اذن اهانة جديدة تلحقها بى •

ـ طيب يا فوما طيب • أنا مستعد ••• بل انني فخور باطاعتك ••
ولكن كيف تكون هيئتي اذا أنا قلت لك على الفور : « نعمت صباحا يا صاحب السعادة ! » لن يكون لهذا معنى •••

ـ لا •• ليس عليك أن تقول لى : « نعمت صباحا يا صاحب السعادة » •• هذه اهانة •• ان قولك هذا يشبه أن يكون مزاحا •• يشبه أن يكون هزلا •• انني لا أسمح لك بهذه اللهجة • عد الى صوابك فورا يا كولونيل ••• غيِّر لهجتك •• أرجوك ••

ـ أأنت تمزح يا فوما ؟

ـ أولا لا تقل : «أنت» بل قل : «أنتم» ••• وثانيا لا تقل فوما بل فوما فومتش ••• نعم هكذا يجب أن تقول يا ياجور ايلتش •

ـ يشهد الله يا فوما فومتش أنه يسعدني أن ••• يشهد الله أنني مستعد من كل قلبي لأن ••• ولكن ما الذي يجب أن أقوله ؟

ـ أنت لا تُحسن استعمال كلمة « صاحب السعادة » • معقول • كان ينبغي أن تشرح لى ذلك من قبل • وأنت تُعذر على كل حال ، فانك لم توهب لك موهبه الكلام ، اذا شئت أن أكون مهذبا في التعبير ••• سوف أساعدك ان أذنت • كرر بعدي : « يا صاحب السعادة ! » •

ـ طيب ! « يا صاحب السعادة ! » •

ـ لا •• لا •• لا تقل « طيب يا صاحب السعادة ! » •• بل فقط « يا صاحب السعادة ! » • قلت لك يا كولونيل : غيِّر لهجتك ! وامل أن لا تتحرج أيضا اذا أنا طلبت منك أن تنحني قليلا أمامي في الوقت نفسه • فانه يقال ان المرء اذا انحنى أمام جنرال كان يعبر عن احترامه وعن مسارعته الى التقاط أوامره التقاطا من الهواء ان صح التعبير • لقد

ترددت أنا نفسى على مجتمع الجنرالات ، فأنا أعرف هذا كله ••• هيا قل : « يا صاحب السعادة » •

ـ « يا صاحب السعادة ! » •

ـ « يسعدنى أقصى السعادة أن تتاح لى أخيرا فرصة الاعراب عن رجائى فى ان تغفر لى أننى لم أدرك فى اول الامر نبل نفسك يا صاحب السعادة • وانى لاجرؤ أن أؤكد لصاحب السعادة اننى لن أدخر شيئا من قواى الضعيفه فى سبيل العمل للصالح العام ••• » • يكفى هذا ••

مسكين عمي : لقد اضطر ان يكرر كل هذا الهراء جمله جمله ، كلمة بعد كلمه •

كنت واقفا على السطحة محمر الوجه كمذنب ، اشعر بالحنق يخنقنى خنقا •

قال لعمى جلاده :

ـ والان ، ألا تشعر بأن نفسك تخففت من ثقلها فجاة ؟ الا تحس كان ملاكا قد هبط اليها ؟ انت تشعر بهبوط ملاك ، أليس كذلك ؟ أجب !

ـ نعم يا فوما •• فعلا •• أشعر بأننى تخففت ••

ـ فكأن قلبك ، بعد هذا الانتصار على نفسك ، قد مسته يد الرحمن فبرىء !

ـ فعلا يا فوما ، أشعر بأننى ازددت قوة !

ـ ماذا ؟ ازددت قوة ؟ هم ••• وربما ازددت انشراحا • لقد بعدنا عن البرء •• ولكن لا ضير ! •• هذا يا كولونيل ما يفعله بالمرء قيامه

بواجبه ! تعلم كيف تنتصر على نفسك ! ان بك أثره شديدة ! انك مزهو زهواً لا حدود له •

قال عمي متنهدا :

ـ نعم يا فوما نعم •• أدرك ذلك •• أدرك ذلك ••

ـ أنت أناني ، بل أنت شر الأنانيين ••

ـ نعم أنا كذلك • هذا حق يا فوما • أدرك الآن هذا • لقد علمت منذ عرفتك ، أنني أناني •

ـ انني أخاطبك الآن كما يخاطب أب ابنه ، بل كما تخاطب أم حنون ابنها • انك تنبذ جميع الناس لأنك تنسى أن العجل الصغير نفسه يعرف كيف يحنو على الثدى الذى يرضع منه •

ـ أنت على حق يا فوما !

ـ انك انسان فظ غليظ ، تصدم القلوب بخشونتك • انك تبلغ من الطمع في المطالبة بالانتباه اليك والرعاية لك أنك تجبر كل انسان مهذب على ان يلوذ بالفرار الى أقصى ركن في الأرض !

مرة أخرى زفر عمي زفرة عميقة متنهدا •

ـ فلتكن اذن في معاملة الناس أكثر رقة وحنانا ، وأكثر انتباها وعناية ، واكثر تلطفا وتوددا • انس نفسك في سبيل اخيك حتى لا ينساك اخوك • انني اعيش ، وأدع لغيري ان يعيش : ذلك هو قانوني• على المرء أن يذعن، وأن يعمل ، وان يصلي ، وان يامل: تلك هي القاعدة التي أحب أن أعلِّمها للانسانية بأسرها • فطبِّق هذه القاعدة ، تجدني مستعدا لان أفتح لك قلبي ، بل ولان ابكي على صدرك أيضا •• ولكنك بدلا من ذلك لا تعنى الا بنفسك ••• ولا تهتم الا بذاتك ••• دائما

بذاتك •• ذلك أمر مضجر آخر الأمر •• اسمح لى أن أقول لك هذا صراحة • ان المرء ليشمئز حين لا يراك تفكر الا فى نفسك •

تمتم جافريلا يقول فى تقى وورع :

ـ ما أجمل كلامه !

وقال عمى وقد بلغ ذروة التأثر :

ـ صحيح يا فوما • اننى أحس بهذا كله • على أننى لست مسئولا عن كل شيء يا فوما • هنالك التربيه التى تلقيتها • لقد عشت فى الجو العسكرى • يمينا يا فوما اننى قادر على ان اكون انسانا حساسا • حين تركت الكتيبه بكى جميع فرسان فرقتى ورددوا انهم لن يجدوا لى شبيها ••• وقد قدرت عدئذ اننى لا أكون سيئاً كل السوء •

ـ هذا أيضا من أنانيتك • هأنذا أقبض عليك مرة أخرى متلبسا بجرم الانانية • انك تمدح نفسك متباهيا بالدموع التى سكبها اصحابك فرسان كتيبتك عند فراقهم ! هل رأيتنى فى يوم من الأيام أتباهى بدموع سكبها أحد حزنا على فراقى ؟ ومع ذلك هناك ما كان يمكن أن يدعونى الى التباهى •

ـ فاتنى هذا يا فوما فأخطأت القول •• لقد ذكرت هذا رغماً عنى حين تذكرت العهد الجميل الماضى •

ـ العهد الجميل لا يهبط من السماء ، وانما نحن نصنعه • انه يثوى فى قلوبنا يا ياجور ايلتش • لماذا ترانى فى جميع الأحوال سعيدا راضياً هادىء النفس ساكن البال رغم جميع ما أقاسيه من صروف الدهر ؟ اننى لا أزعج أحدا ، اللهم الا الحمقى والادعياء و «العلماء» •• فهؤلاء لا أوفرهم ولا أريد أن أوفرهم •• فأنا لا أحب الحمقى ! وما هؤلاء

العلماء ؟ رجال علم ! •• ألا ان على المرء أن يعرف ما الذى يملأ دماغهم من علم ! ماذا قال « هو » منذ برهة ؟ ائتنى به الى هنـا ! ائتنى بجميـع العلماء ! لسـوف أعرف كيف أفحمهـم كافة ! نعـم اننى قادر على أن أفحمهم ! ناهيك عن نبل النفس !

ـ طبعا يا فوما طبعا ! •• ومن ذا الذى يشك فى ذلك ؟

ـ منذ برهة مثـلا برهنت على أملك من قوة الفكر ، ومن سعة العلم ، ومن كمال المعرفة بالقلب الانسانى ، ومن تمام الاطلاع على الآداب المعاصرة •• بينت بتفوق باهر كيف أن من الممكن أن أدير حتى حـول موضوع تافه كموضوع رقصة « الكامارنسكايا » مناقشة رفيعـة ! فأى واحد من الذين كانوا يستمعون الى كلامى عرف كيف يقـدرنى حق قدرى ؟ لقد أشاحوا بوجوههم عنى •• وانى لعلى يقين من « أنه » قد أكد لك أننى لا أعرف شيئا البتة •• رغم أن الشخص الذى كان امامـه رجل قد لا يقل عن مكيافيلى او عن ميركادانتى* ••• وكل ذنبه انه فقير مجهول العبقريه •• لا •• لا •• ذلك من جانبه امر لايطاق ولا يحتمل •• ثم هناك كوروفكين ، فمن هو هذا الحيوان ؟

ـ انه رجل مثقف يا فوما ، انه عالم •• انا انتظر قدومه • سيعجبك حتما يا فوما •

ـ هـمّ •• أشك فى ذلك •• لا بد انه واحد من اولئك الادعياء المحدثين ، المحشوة رءوسهم كتبا • هؤلاء اناس لا روح لهم يا كولونيل• القلب لا وجود له عندهم ! وما نفع العلم بلا فضيلة ؟

ـ لا يافوما لا •• ليتك تسمعه يتكلم عن السعادة الزوجية ! ••• لسوف يدخل الى قلبك رأسا يا فوما !

ـ هـمْ •• سنرى •• سوف نمتحنه هو أيضا هذا الكوروفكين ••

ولكن كفى الآن ! (كذلك قال فوما يختم كلامه وهو ينهض عن مقعده)• لا أستطيع حتى هذه اللحظة ان أهب لك غفرانا كاملا يا كولونيل : لقد نلتني باهانة تدمي النفس • ولكنني ساصلي وادعو الله عسى ان يمن على نفسي التي ألحق بها الاذى شيئا من السكينة والطمأنينة • سنتحدث في هذا كله غدا ، اما الان فاسمح لي ان انصرف • انني اشعر بتعب وضعف شديد ••

قال عمي متعجلا :

ـ فعلا يا فوما •• لا بد ان تكون متعبا • واحسب انك ستسترد بعض قواك اذا أنت تناولت وجبه صغيرة • سامر فورا باعداد ما يجب •

ـ الآن آكل ؟ هه هه هه !

كذلك قال فوما بلهجه احتقار ، ثم اضاف :

ـ يسقونك السم ثم يطلبون منك ان تاكل فوقه لقمه ! يظنون انهم يضمدون جراح القلب بتفاح مسلوق او فطر متبل : الا انك لمادى يرثى لحالك يا كولونيل !

ـ أوه •• فوما •• أؤكد لك أنني اقترحت ذلك بنيه سليمه :

ـ طيب طيب •• دعنا الآن من هـذا كله ! أنا منصرف • اما انت فامض فورا الى السيدة أمك ، فاركع أمامهـا على ركبتيك ، وانتحب ، واسكب دموعا ، والتمس عفوها وغفرانها خاصة • ذلك هو واجبك •• ذلك أول واجب يقع على عاتقك !

ـ لم انقطع عن التفكير في هـذا لحظة واحدة يافوما ، حتى أثناء حديثي معك • انني مستعد لأن أقضي الليلة كلها راكعاً أمام أمي اذا لزم الأمر • ولكن فكّر أيضا فيما يطلبونه مني يا فوما ! هـذا ظلم ، هذا

قسوة ! كن كريما الى النهاية ، اجعلنى سعيدا ، حقق سعادتى ، فكر ، وقرر ، وعندئذ •• عندئذ •• أحلف لك أن •••

قال فوما :

ـ لا يا ياجور ايلتش ، هذا ليس شأنى • أنت تعلم أننى حتى الان لم أتدخل فى شىء • أعرف أنك تظن أننى دبرت كل الأمر • ولكننى أؤكد لك أننى منذ أول هذه القضية لم أقحم نفسى فيها بل لبثت بعيدا عنها• فعليك أن تعتقد أن هذه ارادة أمك ، التى لا تريد لك الا الخير طبعا •• فهلم اذن •• اسرع اليها •• طِرّ اليها طيرانا ، وأصلح الأمر بالرضوخ لمشيئتها وباطاعة ارادتها • أسأل الله أن لا تشرق الشمس الا ويكون غضبك قد زال •• أما أنا •• أما أنا •• فسأقضى الليل كله أدعو لك • اننى منذ مدة طويلة لا أعرف ما هو النوم يا ياجور ايلتش • الوداع • وقد غفرت لك أنت أيضا أيها الشيخ (كذلك قال فوما ملتفتا نحو جافريلا) •• ذلك أنهم قد شحنوا رأسك من غير شك ، والسوك على • فاغفر لى أنت أيضا اذا كنتُ قد أسأت اليك •• وداعا •• وداعا لكم جميعا ••• وليبارككم الله ! •

خرج فوما ، فسرعان ما هرعت أدخل القاعة •

قال عمى :

ـ كنت تتنصت علينا ، أليس كذلك ؟

ـ نعم يا عمى • كيف رضيت أن تخاطبه بقولك « يا صاحب السعادة » ؟ •

ـ ماذا كان فى وسعى أن أعمل يا عزيزى ؟ بل اننى لفخور بأننى فعلت ذلك •• ما هذا بالتضحية الكبيرة • ألا ما أعظم ما يتحلى به هذا الانسان من فضيلة وعفة وتنزه ورفعة ! سرجى ، لقد سمعت •• ترى

كيف أمكنني أن أعرض عليه هذا المال ؟ لست أفهم كيف فعلت ذلك ! لقد كنت خارجا عن طوري ، غائبا عن نفسي يا عزيزي .. كنت حانقا جدا ، كنت قد أصبحت لا أفهمه .. كنت أشك فيه واتهمه ! .. ولكن لا .. انه لا يمكن ان يكون عدوا لي . انني ادرك الان ذلك .. هل رايت التعبير النبيل الذي ظهر في وجهه حين طرح المال ؟

ـ طيب يا عمي ، كن فخورا ما شئت . اما انا فانني مسافر : لقد نفد صبري . ولكنني أسالك مرة اخيرة : لماذا استدعيتني وماذا كنت تنتظر مني ؟ اذا كان قد انتهى كل شيء ، واذا كنت قد اصبحت في غير حاجه الي ، فلم يبق لي الا ان امضي . انني لا اطيق احتمال مشهد كهذا المشهد . انني مسافر في هذا اليوم نفسه !

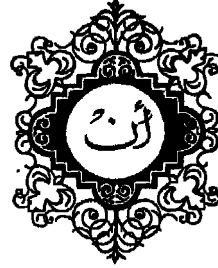
قال عمي وقد عاوده قلقه المالوف :

ـ انتظر يا صديقي العزيز ، ارجوك .. دقيقتين لا أكثر .. يجب أن أذهب الى امي .. هناك ، فانهي قضية هامه ، قضية ضخمة ، قضية ساحقة ! واذهب انت الى غرفتك بانتظار ذلك . سيقودك جافريلا الى الجناح الصيفي . ألا تتذكر هذا الجناح الواقع في اخر الحديقة ؟ لقد أمرت باعداده ، وقد نقلوا اليه حقيبتك . أنا ذاهب الآن الى هناك ، ألتمس مغفرة أمي ، وأتخذ قراري ـ الآن أعرف ماذا يجب علي أن أعمل .. وسأعود اليك فورا ، في مثل لمح البصر . وعندئذ أقص عليك كل شيء ، كل شيء ، الى آخر التفاصيل ... أفتح لك قلبي كله ... لسوف نعود نرى أياما جميلة آخر الأمر ! دقيقتين ، دقيقتين لا أكثر يا سرجي !

صافحني عمي ، وخرج مسرعا . ولم يبق عليّ الا أن أتبع الشيخ جافريلا مرة أخرى .

١٠

ميزنت شبلكوف



الجناح الذى قادنى اليه جافريلا يسمى « بالجناح الجديد » ، وهو مبنى قـــديم يرجع عهـده الى أصحاب هـــذه الأملاك القدماء ، ولكنه احتفظ باسم الجناح الجديد من باب الذكرى • هو منزل صغير لطيف من خشب ، لايبعد عن المنزل الكبير، ويقع على حافة الحديقة• ان أشجارا هرمة من أشـــجار الزيزفون تحيط به من ثلاث جهـات ، وتلامس أغصانها الطويلة سطحه • وقد أثثت حجراته الأربع تأثيثا حسنا وأعدت للزائرين • فلما دخلت الغـــرفة التى هُيِّئَت لى ووضعت فيها حقيبتى ، لمحت على منضدة الليل ورقة من أوراق الرسائل تغطيها كتابة مزخرفة زخرفة رائعة بتواقيع ورسوم أزهار وتشـــابك أحـرف • ان الأحرف الكبيرة والرسوم المصبوغة بعدة ألوان لهى عمل رائع من أعمال حسن الخط • فما ان قرأت الكلمات الأولى حتى أدركت أنها عريضـــة يوجهها كاتبها الىّ ، ويسمينى فيها « بالمحسن المستنير » • وكان عنـوان العريضة : « ظلامات فيدوبلياسوف » • ولكننى حاولت أن أفهم مضمون هذه العريضة مركزاً انتباهى ، فلم أظفر ، فانها لم تكن الا ركاما من ألفاظ يجمعها أســلوب متنفخ هو أســـلوب خادم • ومع ذلك حـــزرت أن فيدوبلياسوف فى مأزق حرج ، وأنه يلتمس مساعدتى ، وأنه يعقد علىّ

أمله معتمدا على « ثقافتى » ، وأنه أخيرا يرجونى أن أستعمل ما لى من نفوذ على عمى ، وأن أعمد الى ما أملك من « حيلة » ، على حد التعبير الذى يختتم به كاتب العريضة كلامه • وفيما أنا أقرأ الرسالة فتح الباب ودخل ميزنتشيكوف •

قال بلهجة طلقة ، ولكنها مهذبة تهذيبا ساخرا وهو يمد الىّ يده :

ـ أرجو أن لا يسوءك أن تسمح لى بمعرفتك • اننى ، منذ قليل ، لم أستطع ان ابادلك كلمة واحـــدة ، ولكننى شعرت من النظرة الاولى برغبة فى أن أعرفك مزيدا من المعرفه •

فأجبته على الفور بأن ذلك يسعدنى أنا أيضا ، الخ الخ ، رغم آننى كنت فى تلك اللحظة فى حالة نفسية فظيعة • وجلسنا •

قال وهو ينظر الى الورقة التى كانت ما تزال فى يدى :

ـ ما هذا ؟ « ظلامات فيدوبلياسوف * » هل أسعفه الوقت ؟ كنت واثقا أنه سيصطادك • لقد حمل فيدوبلياسوف الى انا ايضا ورقه من هذا النوع تضم هذه الشكاوى نفسها • وهو ينتظرك منذ مدة طويله ، فلا شك أنه هيا نفسه سلفا • لا تعجب ، فان وقائع غريبة تجرى هنا ، واكثرها يبعث على الضحك •

ـ على الضحك فحسب ؟

ـ لأن يضحك المرء خير من أن يبكى • واذا شئت عرضت لك قصة حياة فيدوبلياسوف • وأنا واثق أنك لن تستطيع أن تمنع نفسك من الضحك •

قلت له ضجرا :

ـ أعترف لك بأن فيدوبلياسوف ليس هو الذى يهمنى أمره الان • لقد أدركت حق الادراك أنه اذا كان السيد ميزنتشيكوف قد رغب

فى معرفتى وأظهر لى هذا التودد كله ، فلأن له هدفا ولأنه فى حاجة الى ٠ لقد ظل منذ قليل جالسا فى مكانه لا يتحرك ، وكان يبدو عليه أنه مشغول البال شديد الرصانة ٠ وها هو ذا الآن يتظاهر بالمرح ويبتسم ويريد أن يروى قصة طويلة ٠ لا شك أن هذا الرجل مسيطر على نفسه سيطرة كاملة ، وأنه يعرف العالم الذى يعيش فيه ٠

قلت مغتاظا وأنا أضرب المائدة بقبضة يدى :

ـ لعن الله قوما ! أنا متأكد من انه يصب على النار زيتا ، وأنه يحشر أنفه فى كل شىء !

قال ميتزنشيكوف بلباقة :

ـ يخيل اليك أنك مسرف قليلا فى مؤاخذته ٠

صحت وقد عصفت بى النار فجأة :

ـ مسرف ؟ اعترف بأننى كنت عنيفا بعض العنف منذ قليل ، وأننى أعطيت عن نفسى رايا سيئا ٠ أدرك أننى بلغت من الاندفاع حدا فقدت معه صوابى ، فلا داعى ادن لان يشرح لى احد ذلك ٠ وانا ادرك أيضا اننى لم أتصرف تصرف رجل مهذب ، ولكن هلا فكرت فقلت لى أكان يمكننى ان لا اخرج عن طورى ؟ نحن هنا فى منزل مجانين ، اذا شئت أن تعرف رأيى ٠٠٠ وانا مسافر ٠٠٠ هذا كل شىء !

سألنى ميزنتشيكوف بهدوء :

ـ هل تدخن ؟

ـ نعم

ـ فاسمح لى اذن أن أشعل سيجارة ٠ التدخين ممنوع هناك ، وقد أصبحت لا أطيق هذا الحظر ٠

ثم تابع يقول بعد أن أشعل سيجارته :

ـ أوافقك على رأيك ! ان ما يجـــرى هنا يذكر المرء بمستشفى مجانين . لذلك أرجو أن تثق بأننى لم اسمح لنفسى بأن أؤاخذك ؛ ولو كنت فى مكانك ، فلعلنى كنت أندفع اندفاعا أشد من اندفاعك مرتين ..

ـ فما الذى صدك اذن عن الانفجار اذا كنت قد ثرت حقا ؟ بالعكس: لقد لزمت هدوءا تاما . وأنا أعترف لك بأنه قد أدهشنى أن لاأراك تنصر عمى المسكين ، المستعد دائما لان يشكر هذا ويعتذر لذاك ! ..

ـ صحيح ! ان عمك يحسن الى طائفة كبيرة من الناس . ومع ذلك أرى من غير المفيد أن ينصره أحد . أولا لأن هذا يكون فى نظره زائدا لا لزوم له ، بل ومهينا كذلك . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فاننى لو نصرته لرأيت نفسى أطرد من المنزل فى الغداة ، ويجب أن أقول لك صراحة باننى فى ظروفى الراهنة أحرص على البقاء ضيفا على هذا المنزل أشد الحرص .

ـ ليس لى أن آخذ عليك صراحتك فيما يتصل بظروفك ... ومع ذلك أود لو أسألك ، ما دمت تقيم هنا مذ شهر ...

ـ اسأل ، اسأل ، أرجوك ... أنا رهن أوامرك .

بهذا قاطعنى ميزنتشيكوف وهو يدنى كرسيه .

ـ قل لى مثلا : لماذا رفض فوما فومتش خمســـة عشر ألف روبل وضعت بين يديه منذ لحظة . لقد رأيت ذلك بعينى رأسى .

ـ كيف ؟ هذا مستحيل ! قصَّ على هذا ، أرجوك .

كذلك صاح يقول ميزنتشيكوف .

رويت له ما رأيت ، دون أن أقول شيئا عن مسألة «صاحب السعادة»،

فكان ميزنتشيكوف يصغى الى كلامى باستطلاع شره ، حتى لقد تغير وجهه حين ذكرت له رقم خمسة عشر ألف روبل .

قال حين فرغت :

ـ حاذق ! لم أكن أتوقع مثل هذا من فوما !

ـ هذا ما حدث مع ذلك ! لقد رفض المال ! فكيف نفسر هذا الرفض ؟ أهو نبل وشهامة ومروءة ؟

ـ لقد رفض خمسة عشر ألفا من أجل أن يحصل على ثلاثين ...

وفكر ميزنتشيكوف لحظة ثم تابع يقول :

ـ على كل حال ، لا أعتقد أن فوما قادر على الحساب . هذا رجل لا يتصف بأنه عملى : هو شاعر من طراز خاص به .. خمسه عشر ألف روبل ! هم .. أحسب أنه كان يتمنى لو يأخذ المال ، لكنه لم يعرف كيف يعزم أمره ، لأن تصعير الوجه وخلق المشاكل يغريه اغراء أقوى من اغراء المنفعه . هو كما اقول لك : انسان يستحق ان يرثى له ، انسان بكاء رغم فرط غروره وشدة اثرته .

تحمس ميزنتشيكوف . كان واضحا أنه ممتعض جدا ، بل كان واضحا أن شيئا من الشعور بالحسد قد اعتراه . أخذت أتفرسه مستطلعا مستغربا ، بينما كان يتابع كلامه وقد عاد اليه وجومه :

ـ هم ... يجب أن نتوقع تغيرات كبيرة . ان ياجور ايلتش مستعد الآن لأن يعبد فوما عبادة ؟ بل انه قادر على أن يتزوج من قبيل المجاراة والوداعة (كذلك أضاف يقول من بين أسنانه) .

ـ أتعتقد اذن بوشك هذا الزواج الكريه الاجرامى .

نظر الىّ ميزنتشيكوف متفرسا . وصحت مندفعا حانقا :

ـ يا للأوغاد !

ـ ومع ذلك فان فكرتهم تقوم على أساس • انهم يؤكدون أن على عمك أن يفعل شيئا في سبيل خير أسرته •

صحت اقول بمزيد من الاستياء :

ـ الم يعمل اذن في سبيل خيرهم ما فيه الكفاية ؟ وأنت ، كيف تجرو ان تقول عن زواجه بمثل هذه المجنونه انه شيء معقول ؟

ـ انا من رايك : انها مجنونه ••• هيم ••• حسن جدا منك ان تحب عمك هذا الحب • انني اشاركك شعورك •• ولكن هذه المراة تملك من المال ما يربي الاطيان ويضاعف الاملاك ••ثم ان هنالك أسبابا أخرى تدفعهم الى هذه الفكرة : انهم يخشون أن يتزوج ياجور ايلتش المعلمة •• هل لاحظت تلك الفتاة الشائقة ؟

سألته منفعلا :

ـ أهذا جائز حقا ؟ يخيل الى أن هذه أقاويل ونمائم لا أكثر •• اشرح لي ، أرجوك ••• فان هذا الأمر يهمني كثيرا •

ـ هو متعلق بها ! ولكنه يخفي ذلك طبعا •

ـ يخفي ذلك ؟ أتعتقد أنه يخفي ذلك ؟ طيب ، وهي ؟ هل تحبه ؟

ـ جائز جدا • أليس من مصلحتها أن تتزوجه ؟ انها شديدة الفقر •

ـ ولكن على أي شيء تستند من أجل أن تقول انهما متحابان ؟

ـ ذلك واضح كل الوضوح ! ثم انهما يجتمعان خفية على غير مرأى من أحد • حتى لقد قيل ان صلاتهما أوثق من ذلك • ولكنني أرجوك أن لا تنقل عني هذا الكلام • فانما أنا أفضي به اليك وهو سر •

صحت أقول متعجبا :

ـ هل يمكن تصديق متل هذا الامر ؟ وأنت ، هل تعتقد أن هـذا صحيح ؟

ـ لست متأكدا منه ، لأنني لم أر شيئا بعيني • ولكنه ليس بمستحيل•

ـ كيف ؟ هلا فكرت فيما ينعم به عمي من شرف واستقامة ؟

ـ طبعا ! ولكن قد ينساق المرء حين يكون متأكدا من أنه يستطيع اصلاح الأمر بزواج شرعي • هذا يحدث كثيرا • ومع ذلك أعود فاقول لك انني لا أضمن صحة هذه الشائعه قط ، خاصة وانهم لا يتورعون هنا عن قول شيء في حق الآنسة ، حتى لقد مضوا الى حد الادعاء ان لهـا علاقات مع فيدوبلياسوف ؟

هتفت أقول :

ـ ارايت ؟ مع فيدوبلياسوف ! يا له من اتهام ! اليس التفكير وحده في هذا يبعث على الاشمئزاز ؟ هل تصدق أنت هذا الادعاء ؟

قال ميزنتشيكوف بهدوء :

ـ سبق ان قلت لك انني لا اصدق من هذا شيئا ، ومع ذلك فهذه امور تقع ! في هذا العالم ، كل شيء يمكن ان يحدث • انا اولا لم أبصر شيئا ، وانا ثانيا أرى أن هذا الامر لا يعنيني • ولكن لما كنت ألاحظ أنك تولى هذه القصة كل هذا الاهتمام ، فانني أرى أن من واجبي أن أؤكد لك أنها غير جائزة ، غير محتملة • هي من تلفيق آنا نيلوفنا ، من تلفيق بيربلتسين • لقد حلمت بيربلتسين هي نفسها أن تتزوج ياجور ايلتش، ولم تنشر هذه الأقاويل الا من باب الغيرة ! نعم ، لقد ظنت أنها يكفيها من أجل هذا أن تكون ابنة « ليوتنان كولونيل » ! وهي الآن تقضم لجامها

حنقاً ، وما ينفك غيظها يستعر مزيدا من الاستعار ! أحسب أنني قلت لك الآن كل شيء • على أنني أعترف بأنني أكره جميع هـــذه النمائم التي لا تزيد على أن تفقدنا وقتا ثمينا • يجب أن أعترف لك بأنني انما جئت اليك الآن لأطلب منك خدمة يسيرة •

ـ خدمة ؟ لك مني ما تريد من خدمات ، اللهم أن أكون قادرا على أدائها !

ـ عظيم ! بل انني أعتقـــد أن الامر سيهمك ، ما دمت أرى مدى ما تضمره لعمك من حب ، ومدى ما تولى أمر زواجه من عناية • ولكن قبل أن أطلب منك هذه الخدمة يجب أن أستأذنك في تمهيد •

ـ أي تمهيد ؟

ـ اسمع : قد توافق على أن تسدي الي المعونة التي سأطلبها منك ، وقد لا توافق على ذلك ••• ولكن يجب علي في الحالين ، قبل ان أشرح ما بنفسي مزيدا من الشرح ، أن أرجوك أن تمنّ عليّ بهذه المنة ، وهي أن تقطع لي عهـــد رجل محترم مهـــذب أن تكتم في أعماق صدرك كل ما سأقوله لك ، سراً لا يطلع عليه أحـــد • يجب أن تعدني بأنك لن تفضحني في أية حالة من الحالات ولا لأي شخص من الأشخاص ، وأنك لن تستغل الفكرة التي أرى أن من الضروري أن أبلغك اياها • هل تقطع لي على نفسك هذا العهد ؟

كانت المقدمة فخمة • ووافقت •

قلت له :

ـ هيه ؟

فبدأ ميزنتشيكوف يقول :

ـ المسألة بسيطة جدا فى الواقع • اليك هى : أريد أن أخطف تانيانا ايفانوفنا وأن أتزوجها فى مكان يقال له « جريتنا جرين * » ، هل فهمت ؟

شخصت ببصرى الى السيد ميزنتشيكوف ، وعجزت خلال برهة من الوقت عن ان أنطق بكلمه واحدة • ثم قلت له أخيرا :

ـ اعترف لك باننى لا افهم شيئا البتة • ثم اننى كنت اظن أننى أمام رجل عاقل ، ولم اكن أتوقع ان •••

ـ لم تكن تتوقع ؟ •• معنى هذا أنك تعد مشروعى غبيا ، اليس كذلك ؟

ـ أبدا ، ولكن •••

ـ هوه ! أرجوك •• افصح عن رأيك بلا لف ولا دوران . لا تخش شيئا ••• بالعكس : ستسرنى صراحتك لانها ستقربنى من الهدف • ثم اننى أوافقك على رأيك : فالمسألة تبدو فى النظرة الاولى غريبة بعض الغرابة • ولكننى أستطيع أن أؤكد لك أن مشروعى ليس فيه من الغباء شىء • هو مشروع حكيم عاقل الى أبعد الحدود • واذا تكرمت فأصغيت الى كلامى حتى النهاية •••

ـ تكلم تكلم •• فأنا أصغى أشد الاصغاء !

ـ ليس عندى كلام كثير • اليك المسألة :

ـ أنا غارق فى الديون حتى العنق ، ولا أملك قرشاً واحدا • يضاف الى هذا أن لى أختاً فى التاسعة عشرة من عمرها ، هى يتيمة تماما ، تعيش عند غرباء ، ولا تملك أى مورد من موارد الرزق ، وذلك ذنبى أنا • لقد ورثنا قرابة أربعين نفسا • وقد حدث أن عينت فى تلك اللحظة

نفسها ضابطا • فما لبثت أن رهنت أملاكي ، ثم بعثرت مالى بجميع الوسائل وعلى جميع الصور • كنت أشبه ببورتسوف * •• أي عشت حياة قمار وشراب •• الخلاصة •• انني أخجل من نفسي وأشعر بالخزى والعار متى خطر ببالى ما فعلت • ولقد فكرت الآن ، وأنا أحرص على أن أصلح حالى وأقوم اعوجاج حياتي • ولا بد لى في سبيل ذلك من مائة ألف روبل • ولما كنت لا أتوقع شيئا من وظيفتي العسكرية ، ولما كنت لا أملك أنا نفسي أية كفاءة ، ولا أية ثقافة تقريبا ، فلم يبق لى كما ترى الا أحد امرين : فاما ان اسرف واما أن اتزوج امراة غنية • لقد وصلت الى هنا سيرا على القدمين ، ومن غير حذاءين تمريبا • ولم اتحرك منذ وصولى • لقد اعطتنى اختي الروبلات الثلاثه الاخيرة التى كانت معها حين تركت موسكو • ولكننى ما ان رايت تاتيانا ايفانوفنا هده حتى قلت لنفسي : يجب ان اضحي وان اتزوجها • فهل ترى في هذا سيئا عير معقول ، لا سيما وانني افعله من أجل اختى •• ومن اجلى أنا أيضا بطبيعة الحال ؟ •••

ـ اسمح لى : اانت تنوى ان تخطب تاتيانا ايفانوفنا رسميا ؟

ـ لا سمح الله ! لو فعلت لطردت من المنزل فورا ••• ولرفضت هى أيضا •• أما اذا عرضت عليها ان اختطفها فستوافق توا • ذلك هو مفتاح القضيه : التآمر على القيام بمغامرة روائيه ليست في الحسبان ! •• وسيعقب هدا زواج شرعى طبعا ، في أقرب فرصه • وانما المهم انتزاعها من هذا المكان !

ـ قل لى : لماذا أنت متأكد من أنها ستوافقك ؟

ـ أوه ! اطمئن بالا من هذه الناحية ! أنا واثق من أنها ستتبعنى ، وثقتى هذه تقوم على أسس راسخة وطيدة • ان تاتيانا ايفانوفنا قادرة على أن تتواطؤ على القيام بمغامرة مع أي انسان ، مع أي رجل يمكن أنتخطر

بباله هذه الفكرة • وهذا هو السبب فى أننى رجوتك سلفا أن تقطع لى على نفسك عهدا بكتمان السر • فانا أحرص على أن تستغل هذه الحقيقة • ولا شك أنك تدرك أننى أجرم فى حق نفسى اذا لم أنتهز هذه الفرصة ، لا سيما فى الظروف التى أنا فيها •

ـ اذن لا مجال للشك فى أنها مجنونة جنونا تستحق معه أن تكبل•

قلت ذلك ثم استدركت أقول وقد احمر وجهى :

ـ آه •• معذرة •• ما كان لى أن اقول هذا الكلام وأنت تريد أن تتخذها زوجة لك •

ـ لا داعي الى الاعتذار •• وقد سالتك أنا نفسى أن تكون صريحا كل الصراحة • هل يهمك أن تعرف أهى مجنونة تماما ؟ كيف أجيبك ؟ الحق أنها ليست مجنونة تماما ؛ والدليل على ذلك انها لم توضع فى مستشفى للمجانين حتى الآن •• أما تخيلها ان كل من حولها من رجال هم عشاق لها هائمون بها ، فليس فيه ما يدل على الجنون دلالة خاصة • وهى فتاة شريفة جدا رغم كل شىء • احكم فى الأمر بنفسك : لقد قاست هذه الفتاة كثيرا من الشقاء حتى السنة الماضية • كانت منذ ولادتها تعانى العذاب عند المحسنين الذين ربوها • وهى حساسة الى أقصى الحدود ، واذ لم يخطبها أحد ، فلك أن تتصور ما قام فى نفسها من أحلام ورغبات وآمال اضطرت أن تكبتها •• ولك أن تتصور كم خفق قلبها خفقانا شديدا اضطرت أن تخفيه ! من السهل على المرء أن يدرك أن ذلك كله من شأنه أن يجعل النفس الحنون متوفزة متحفزة • وها هى ذى ترث ثروة على حين فجأة • لا شك أن هذا من شأنه أن يدير الرأس ويطيش اللب •• والرجال يسعون اليها الآن ، ويتملقونها ، ويغازلونها ، فها هى ذى أحلامها جميعا تتجسد •• لقد تكلمت منذ قليل عن فتى متأنق يرتدى صديرة بيضاء ••• والواقعة صحيحة كما روتها تماما ••• وهذا يتيح لك

ان تتصور البقيه بنفسك . انه ليكفي الرجل من أجل اغرائها واغوائها أن يتنهد لها ، وان يرسل اليها اشعارا . يكفي أن يحدثها رجل عن سلم من حرير ، وعن اغنيه عاطفية اسبانية ، يكفي أن تقال لها سخافتان أو ثلاث من هذا النوع حتى تهب له أن يصنع بها ما يشاء . ولقد قمت ببعض المحاولات في هذا السبيل لارى أأنا مخطىء .. فسرعان ما ظفرت منها بموعد .. انني انتظر اللحظة المناسبة ... ولكن لا بد لي من انتزاعها من هنا قريبا ... بعد يومين أو ثلاثة في أبعد تقدير .. سأبدا أثناء النهار بان أقول لها ترهات ، وان اتنهد .. وأنا أعزف قليلا على القيثارة ، وأغني غناء لا بأس به .. حتى اذا جاء الليل حصلت منها على موعد في هذا الجناح ؛ فمتى طلع الفجر قدتها الى عربة مهيأة، فأركبتها العربة، وانطلقت بها .. هأنت ذا ترى أنه ليس ثمة أية مخاطرة . انها بالغة راشدة ، وستكون قد وافقت على الزواج بارادتها الحرة . فما دامت قد هربت معي ، فلن يبقى عليها الا أن تتزوجني .. سآخذها الى منزل شريف لكنه فقير ، منزل هو على مسافة أربعين فرسخا من هنا . والى أن يحين يوم الزواج ، سنحتفظ بها ولا ندع لأحد أن يقترب منها . ومن جهتي ، لن أضيع الوقت . سوف « يسلق » الزواج في ثلاثة أيام . ذلك أمر ممكن . ولكني لا بد لي من المال قبل كل شيء . ولقد أجريت حسابي . لست في حاجة الا الى خمسمائة روبل من أجل أن أتم الامر على خير وجه . وأنا أعتمد على ياجور ايلتش للحصول على هذا المبلغ . سوف يعطيني اياه دون أن يخطر بباله الوجه الذي سأنفقه فيه . والآن ، ما رأيك ؟

قلت وقد فهمت أخيرا :

ـ طيب .. ولكن في أي شيء يمكن أن أنفعك ؟

ـ في ألف شيء ! ولولا ذلك ما أزعجتك . لقد ذكرت لك أنني

سأمضى الى أسرة شريفه لكنها فقيرة • وفى وسعك أن تنفعنى هنا ، ثم هناك ، وأن تكون لى بعد ذلك شاهدا • وأعترف لك بأننى ما لم تساعدنى سأكون مكبل اليدين •

ـ سؤال آخر : لماذا اخترتنى نجياً تفضى اليه بأسرارك ، وأنت لا تعرفنى ، ولم أصل الى هنا الا منذ ساعات ؟

أجاب ميزنتشيكوف وهو يبتسم ابتسامة متوددة متلطفة :

ـ ان سؤالك يحدث فى نفسى أكبر سرور والحق يقال ، لأنه يتيح لى فرصة البرهان على ما أضمره لك من تقدير واعتبار •

ـ هذا شرف عظيم لى •

ـ لا •• اسمع : لقد درستك ، منذ قليل • صحيح أنك سريع الغضب و ••• أنك شاب قليلا • ولكننى واثق كل الثقة من أنك متى قطعت على نفسك عهدا بررت به ولم تخنه • أولا ، أنت لا تشبه فى شىء شخصا مثل أوبنوسكين ؟ وثانيا ، أنت أشرف من أن تستغل فكرتى هذه لنفسك ، الا أن ترغب طبعا فى أن تقاسمنى مقاسمة الصديق صديقه •• وأنا مستعد فى هذه الحالة أن أتركها لك ، أى أن أترك لك تاتيانا ايفانوفنا، وأن أساعدك مخلصا على اختطافها ، ولكن شريطة أن تتعهد بأن تدفع لى مبلغ خمسين ألف روبل بعد زواجك بشهر واحد ، وأن تعطينى سندا ممهورا بتوقيعك من قبيل الضمانة منذ الآن • ولن نثير مسألة النسبة المئوية •

صحت أقول :

ـ ماذا ؟ أأنت تهدى الىّ تاتيانا ايفانوفنا ؟

ـ طبعاً • أوافق على ذلك اذا نحن رتبنا الأمر على هذا الأساس بعد تفكير • لاحظ من جهة أخرى أننى سأخسر خسارة كبيرة • ولكن الفكرة

فكرتى فانا آحرص على أن أجنى منها نفعاً وربحا • والسبب الذى يدفعنى أخيرا الى أن آعرض عليك هذا العرض هو أننى ليس لى خيار • ثم ان الأمر لا يحتمل الابطاء اذا نحن نظرنا بعين الاعتبار الى ما يجرى هنا • ناهيك عن أن صيام « الصعود » قريب ، والزواج أثناء الصيام حرام • آمل أن تكون قد فهمت الآن كل ما آريد أن أقوله •

ـ كل الفهم • لك عليّ عهد أن أكتم السر • أما أن أكون شريكك فى هذه القضـيـة ، فذلك أمر لا أسـتطيعه ؛ وأرى أن من واجبى أن أحذّرك منه •

ـ لماذا لا تستطيعه ؟

صحت عندئذ منقادا لعواطفى أخيرا :

ـ تسألنى لماذا ؟ ألست تدرك اذن أن القيام بمثل هذا العمل أمر ينافى الشرف ؟ لنفرض أن اعتمادك على ما تتصف به هذه الآنسة من ضعف العقل واضطراب الذهن ناجح ؛ ولكن هذا بعينه هو ما يجب أن يصدك عن هذا العمل ، اذا كان فيك ذرة من شرف • انك تعترف بأنها جديرة بالتقدير والاعتبار رغم ما تتصف به من صفات مضحكة ؛ أفنعترف بهذا ثم لا تتورع عن اشـقائها ، لا لشيء الا لأنك تريد أن تسلبها مائة ألف روبل ؟ لا شك أنك لا تنوى أن تكون لها زوجاً يعرف واجبـات الزوج ويؤديها حق أدائها • أنت تنوى أن تهجرها بعد قليل •• فما هذه الدناءة ؟ اغفر لى صراحتى ، ولكننى لا أفهم كيف تعرض عليّ أن أتعاون معك فى مشروعك هذا !

ـ هوه ! يا لها من رومانسية !

كذلك صاح يقول ميزنتشيكوف وهو يتأملنى بدهشة غير مصطنعة •

ثم أضاف :

ـ على كل حال ... قد لا يكون هذا رومانسية ! ولكنه يدل عندئذ على أنك لا تفهم من القضية شيئا . أنت تقول ان مشروعى ينافى الشرف، أما أنا فأؤكد لك أن تاتيانا ايفانوفنا تربح منه أكثر مما أربح . فكر جيدا تجد الأمر كذلك .

قلت وأنا أبتسم ابتسامة ساخرة :

ـ طبعا ، اذا نظرنا الى الأمور من وجهة نظرك ، كنت أنت التي تقوم بمأثرة حين تتزوج تاتيانا ايفانوفنا !

ـ تماما ، مأثرة !

كذلك صاح ميزنتشيكوف وقد تحمس هو أيضا ، وتابع يقول :

ـ فكر في الأمر مرة أخرى . أنا أولا أضحى حين أرتضى أن أصبح زوجها . هذا شيء ، أليس كذلك ؟ وأنا ثانياً ، رغم انها تملك أربعمائة ألف روبل لن آخذ لنفسى الا مائة ألف لا تزيد كوبكا واحدا . لقد آليت على نفسى أن لا آخذ أكثر من مائة ألف روبل . ان فى وسعى أن آخذ أكثرمن ذلك ، ولكننى لن أفعل . وهذا شيء أيضا ! وأخيرا ، اذا أمعنت فى التفكير فى المسألة كان فى وسعك أن تتساءل : أهى تستطيع أن تعيش حياة هادئة على هذا النحو ؟ لا .. انها لن تستطيع أن تعيش حياة هادئة الا اذا انتزع مالها من بين يديها واحتجزت فى مستشفى للمجانين . ذلك أن من الجائز ، من لحظة الى أخرى ، أن يحوم حولها وغد من الأوغاد ، فارس محترف له شارب معقوف ولحية مدببة ، رجل مثل أوبنوسكين ، يعزف قليلا على القيثارة ، ويغنى لها أغانى عاطفية اسبانية ، فيغويها ويتزوجها ، ثم يتركها فى أى مكان بعد أن يجردها من مالها . أرأيت اذن ما قد يحل ؟ واذا كانوا يحتفظون بها ، فى هذا المنزل المحترم ، فانما يحتفظون بها طمعا فى مالها . فيجب تخليصها من هذه

المخاطر ، يجب انقاذها • وهذه الأخطار كلها تزول متى تزوجتها • ان من واجبى أن أصونها من كل سوء • أولا سآخذها الى موسكو ، فأعهد بها الى منزل شريف لكنه فقير ـ لا المنزل الذى ذكرته لك فى البداية ، بل منزل اخر • وستكون اختى الى جانبها دائما ، تسهر عليها من قرب• وسيبقى لها مبلغ يتراوح بين مائتين وخمسين آلفا وثلاثمائة ألف ، وسوف تستطيع أن تعيش بهذا المبلغ عيشا كريما • سوف تحقق جميع رغباتها ، وسوف تتمتع بجميع المسرات والمباهج : حفلات الرقص ، الحفلات التنكرية ، الحفلات الموسيقية • بل سوف تستطيع كذلك أن تحلم بالحب• على أننى ، من هذه الناحية ، سأتخذ احتياطاتى طبعا ، سأهب لها حق ان تحلم بالحب ، اما ان تمضى الى أبعد من ذلك فلا ! ••• الآن مثلا يستطيع كل انسان أن يحاول الاساءة الى سمعتها • أما حين تصبح زوجتى فلن يجسر أحد أن يندفع فى مثل هذه المغامرة •• سيكون اسمها عندئذ السيدة ميزنتشيكوف ، وأنا أحرص طبعا على أن لا يلطخ اسمى • هذا أيضا شىء • ما رأيك ؟ طبعا ، لن أعيش معها • ستكون هى فى موسكو وأكون أنا فى بطرسبرج • هذه حقيقة أذكرها لك بصراحة ، لأننى أحب أن أكون معك مستقيما فى شئون الأعمال • ولكن ما قيمة مثل هذا الانفصال فى نظرك ؟ ينبغى لنا أن ننظر هنا الى طبعها • هل فى وسعها حقا أن تكون امرأة متزوجة تعيش مع زوجها ؟ هل تاتيانا ايفانوفنا واعية ؟ كلا ••• انها امرأة لا عقل لها ! انها فى حاجة الى تغيير دائم مستمر • وقد تنسى غدا أنها تزوجت أمس • ثم اننى اذا سكنت معها وطالبتها بأداء جميع واجباتها الزوجية فسأشقيها آخر الأمر • طبعاً سأزورها مرة فى السنة ، وربما أزورها أكثر من مرة واحدة فى السنة ، ولن أفعل ذلك من أجل مالها طبعا ، أحلف لك • لقد سبق أن قلت اننى لن آخذ منها الا مائة ألف روبل لا تزيد على ذلك كوبكا واحدا ! ففيما يتعلق

بالمال ، تستطيع أن تطمئن كل الاطمئنان الى أننى سأتصرف أشرف تصرف •• فاذا جئت اقضى معها يومين أو ثلاثة كنت لها أثناء ذلك مصدر مسرة ، لا مبعث ضجر • سوف أسليها ، سوف أحكى لها قصصا طريفة ، سوف أصطحبها الى حفلة رقص ، سوف أغازلها ، سوى أهدى اليها هـــدايا صغيرة ، سوف أغنى لها أغنيات عاطفية ، ســوف أجيئهــا بكلب صغير • وسوف أسبغ على كل فراق جديد بينى وبينها طابعاً روائيا ، ولن انسى أن أبادلها رسائل الحب والغرام • نعم ، سيكون ثمة ما يسرها ويطـير بلبها فرحا ، سوف يكون لها زوج أحلامها المحب المرح • وعندى أن هذا التصرف العاقل يجب أن يكون تصرف جميع الأزواج • ان الأزواج لا يرتفع قدرهم عند زوجاتهم ولا يغلو ثمنهم الا حــين يكونون غائبين • لسوف يكون من شأن طريقتى وأسلوبى أن أشد الىّ قلب تاتيانا ايفانوفنا بأرق عواطف الحب على مدى الأيام • فما الذى يمكن أن ترغب فيــه تاتيانا ايفانوفا فوق ذلك ؟ قل لى ••• ما الذى يمكن أن ترغب فيه فوق ذلك ؟ اعترف بأننى أقدم لها الجنة •••

بلغت دهشتى من القـــوة عند سماع كلامه أننى كنت أصغى اليه صامتا لا أتكلم • لقد أدركت أنه لا جدوى من معارضة آرائه برأيى • لقد كان مؤمنا ايمانا مطلقا بأنه على حق ، فكان يفصّل القول فى الكلام على مشروعه العظيم بحماسة هى أشبه بحماسة مخترع • ومع ذلك كان ثمة نقطة لا بد من توضيحها • قلت له :

ـ هل فكرت فى أنها تكاد تكون خطيبة عمى ؟ لسوف تلحق بعمى أكبر اهانة ولسوف تناله بأســوأ اساءة اذا أنت اختطفت الآنسة عشيــة زواجها ، ولا سيما اذا كنت ستقترض منه المال اللازم لتحقيـــق هذا الهدف •

ـ ها ••• ها قد وصلنا الى النقطة الهامة !

كذلك صاح ميزنتشيكوف وقد التهب حماسة ثم أضاف :

ـ اطمئن بالا • لقد تنبأت باعتراضك هذا • فيجب أن أقول لك أو لاوقبل كل شيء ان عمك لما يخطبها بعد ، ومن الممكن والحالة هـذه أن أعد جاهلا بأنها ستخطب له • وأرجوك أن تلاحظ فيما يتعلق بهذه النقطة اننى قد وضعت خطتى هذه منذ ثلاثة آسابيع ، واننى كنت عندئذ أجهل المشاريع التى تصوروها هنا فى هذا المنزل • فمن الناحية الأخلاقية لا مأخذ اذن علىّ ، بل اننا اذا أردنا أن نقسو فى الحكم كان علينـا أن نعترف بأننى لست أنا الذى يسلب عمك خطيبته ، وانما عمك هو الـذى يسلبنى خطيبتى ، ما دمت قد حصلت منها على موعد سرى تحت العريشة ليلا ؟ واسمح لى أخيرا أن ألفت نظرك الى ما يلى : لقد أعربت منذ برهة عن استيائك من أنهم يريدون اجبار عمك على تزوج تاتيانا ايفانوفنا ، ثم هأنت ذا الآن تحبذ هـــذا الزواج زاعما أن مشروعى يسىء الى الأسرة وينافى قوانين الشرف ••• مع اننى ، فى حقيقة الامر ، انما أسدى الى عمك خدمة جلى ، فأنا أنقذه لا أكثر ، وعليك أن تفهم هذا • ان عمك يقبل على هذا الزواج كارها ••• ثم انه يحب آنسة أخرى ••• ثم هل تصلح تاتيانا ايفانوفنا زوجة له ؟ هذا عدا أنها ستكون شقية بزواجها منه ؛ ذلك أنها ـ وأرجو أن لا يسوءك قولى ـ ستكون بعد الزواج فى حاجة الى أن تراقب مراقبة محكمة دقيقة ، اذا اريد لها أن لا ترى تراشق الشباب ورودا ! ••• لاحظ أيضا أننى اذا اختطفتها ليلا فلن تصمد الجنرالة ولن يصمد فوما فومتش ••• فما من أحد يمكن أن يسترد ، بغير فضيحة ، خطيبة هربت مع رجل عشية زفافها ! فهأنت ذا ترى اذن مدى الخـــدمة التى أؤديها لعمك ياجور ايلتش ! اننى أكفل سعادته لا أكثر !

لا بد لى من الاعتراف بأن هذه الحجة الأخيرة قد أحدثت فى نفسى أثرا كبيرا •

قلت :

ـ فماذا لو خطبها غدا ؟ ستضيع عندئذ فرصتك ، لأنها ستكون قد خطبت رسميا .

ـ طبعا ، ولذلك كان عليّ أن أعرقل الأمور ، ومن أجل هذا انما جئت أطلب معاونتك ومشاورتك ؟ سوف يكون الامر صعبا عليّ وحدى ، أما اذا تعاونا فيه ، استطعنا أن نرتب الأمور ترتيبا يمنع ياجور ايلتش من التقدم الى خطبتها . يجب علينا أن نبذل فى هذا السبيل جميع قوانا ، حتى لقد يجب أن نضرب فوما فومتش اذا اقتضى الأمر ذلك ، فنصرف الأنظار عن المشروع ، ونمنع هؤلاء وأولئك من التفكير فى الموضوع . ولكننا لن نصل الى هذا الحد الا فى حالة اليأس من أية وسيلة أخرى ، وانما ذكرت لك هذه الوسيلة حتى لا أكون قد أسقطت من الحساب شيئا ، ولاننى مضطر الى الاعتماد عليك .

قلت له :

ـ سؤال أخير : هل كاشفت أحدا غيرى بمشاريعك ؟

فحك ميزنتشيكوف نقرته ، وصعر وجهه فى حزن ، ثم قال :

ـ أعترف لك بأن بلع هذا السؤال يشق عليّ أكثر مما يشق بلع أشد الأدوية مرارة . لقد كشفت عن خطتى هذه ... لأحد الناس ... وا أسفاه ! كنت غبيا كل الغباء ! هل تتصور من كاشفت فى هذا الأمر ؟ لقد كاشفت فيه أوبنوسكين ! انه ليصعب عليّ أنا نفسى أن أصدق اننى فعلت ذلك ! كان يحوم حولى بغير انقطاع ، وكنت لا أعرفه الا قليلا جدا ، وكان ذلك فى اللحظة التى أوحى الى فيها بهذه الفكرة ، فكنت محموما .. وكنت منذ ذلك الحين أدرك أننى لا بد لى من حليف ، فاتجهت الى أوبنوسكين ... ذلك خطأ فادح لا يغتفر ... لا يغتفر ! ...

ـ ماذا قال لك أوبنوسكين ؟

ـ وافق متحمسا ، ثم غاب في صباح الغد . وبعد ذلك بثلاثة أيام رجع مصطحبا أمه . ولكنه لم يرض حتى أن يخاطبني بكلمة . وأكثر من ذلك أنه يتهرب مني كأنه يخشاني . فسرعان ما أدركت الأمر . ان أمه ذبابة ماكرة ... قادرة على اللجوء الى أفظع الحيل . لقد سبق لي أن عرفتها من قبل . لا شك أنه قص عليها الحكاية . وأنا الآن أنتظر . انني أحس أنهما يتجسسان علي . فهأنت ذا ترى أن الأمور أصبحت حرجة . ذلك هو السبب في استعجالي على كل حال .

ـ ما الذي تخشاه منهما على وجه الدقة ؟

ـ الحق أنني لا أخشى منهما كبير شيء . ولكنهما سيلحقان بي أذى ، ولاشك . سيطلبان مالا من أجل أن يسكتا عني وأن يعاوناني . انني أتوقع هذا ... ولكنني لا أستطيع أن أعطيهما مبلغا كبيرا . لن أعطيهما أكثر من ثلاثة آلاف روبل . أحسب أنت نفسك : ثلاثة آلاف هنا ، خمسمائة نفقات الزفاف التي يجب أن أردها الى عمك فورا ، ثم مبلغ لأختي ، فهل يبقى لي من المائة ألف شيء كثير ؟ لو أعطيتهما أكثر من ثلاثة آلاف روبل كنت أدمر نفسي ... وعلى كل حال فقد سافرا .

ـ سافرا ؟

كذلك سألت مستطلعا متعجبا .

ـ نعم ، بعد الشاي فورا . شيطان يأخذهما . لسوف تراهما غدا عائدين . وبعد ؟ أأنت موافق ؟

أجبته منزعجا جدا :

ـ الحق أنني لا أدرى بماذا أجيبك . المسألة خطيرة ... سأكتم

السر طبعا ••• ما أنا أوبنوسكين ••• ولكن ••• يخيل الى أن عليك أن لا تعتمد عليّ في شيء البتة •

قال ميزنتشيكوف وهو ينهض عن كرسيه :

ـ أرى أن جدتك وفوما فومتش لم يضايقاك بعـد ، وأنك رغم ما تحمله لعمك النبيل الشهم الطيب من حب ، لم تتصور حتى الآن كيف يسومانه سوء العذاب • ولكن صبرا ••• انتظر الى الغد ••• راقب ما يجرى ••• أنا واثق أنك ستوافقني متى حل المساء • والا فقد ضـــاع عمك ••• هل تفهم ؟ سوف يجبرونه على الزواج • لا تنس انه سيخطبها غدا في أغلب الظن ، وعندئذ يكون أوان انقاذه قد فات • اليوم انما يجب أن نعزم أمرنا ، ونتخذ قرارنا !

ـ حقا ••• أتمنى لك كل نجاح ممكن ••• أما أن أساعدك فانني لا أعرف كيف •••

قال ميزنتشيكوف وهو يبتسم ابتسامة ساخرة :

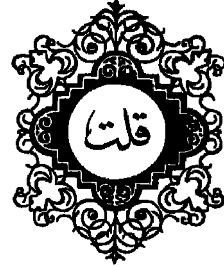
ـ ستعرف ! فلننتظر الى الغد • « الليل يحمل النصح » • الى اللقاء •• سأجيئك في ساعة مبكرة من الصباح • ستكون قد فكرت في الأمر ••

قال ميزنتشيكوف ذلك ، ثم استدار وخرج وهو يصفر •

خرجت في أعقابه لأتنسم الهواء قليلا • لم يكن القمر قد طلع • الليل حالك الظلام ، والهواء حار بل خانق • ما من ورقة تهتز على أغصان الشـجر • وكنت أود ، رغم تعبي الشـديد ، أن أمشي ، أن أسرى عن نفسي ، أن أسـتجمع أفـكاري • ولكن ما ان سرت عشر خطوات حتى سمعت صوت عمي على حين فجأة • كان يصعد درجات المدخل من الجناح الجديد في صحبة شخص ، وكان يتحدث متدفقا في حرارة • فسرعان ما قفلت راجعا وأدركته • كان عمي مع فيدوبلياسوف •

١١

بسلبلة قصوى



ـ هأنت ذا أخيرا يا عمى !

قال عمى :

ـ أنا أيضا أستعجل لقاءك يا صديقى ، فمتى مضى فيدوبلياسوف استطعنا أن نتحدث طويلا • هناك أمور كثيرة أحب أن أرويها لك •

ـ دعنا من فيدوبلياسوف ! اصرفه يا عمى !

ـ هى دقائق خمس أو عشرة يا صديقى ، ثم أفرغ لك • انه فى حاجة الىّ كما ترى •

قلت ضجرا :

ـ نعم هو فى حاجة اليك ليقول لك ترهات وحماقات !

ـ ما العمل يا صاحبى ! هناك أناس ما ينفكون يصدعون رأسك بحكاياتهم فى غير الأوان المناسب • اسمع يا جريجوار ، يا عزيزى ، ألم يكن فى وسعك أن تختار لحظة أخرى للتشكى والتوجع ؟ هلا رحمتنى يا صديقى ! ألست ترى اذن أننى منهوك القوى ؟ انكم تقتلوننى ، انكم تلتهموننى حيا ، أنتم جميعا • حقا يا سرجى ، لقد نفد صبرى •

قال عمى ذلك وأجرى بكلتا يديه حركة تنم عن سأم عميق •

ـ ما عسى أن تكون القضية الهامة التى يريد أن يتكلم فيها ؟ ان فى وسعه أن ينتظر • ونحن فى حاجة يا عمى الى أن نتكلم معا •••

ـ ما حيلتى ؟ ما أكثـــر ما يصيحون فى أذنى قائلين اننى لا أعنى بأخلاق رجالى • وغدا سيمضى هذا يشكو مرة أخرى من أننى لم أشأ أن أسمع له وأن أصغى اليه ، وعندئذ •••

وكرر عمى الحركة التى تنم عن السأم •

قلت حين صرنا فى الغرفة :

ـ طيب • فلنفرغ منه بأقصى سرعة ممكنة ! وسوف أساعدك اذا شئت • ما قضيته ؟

ـ اليك قضيته يا صاحبى ! ان اسمه (اسم أسرته) لايعجبه ، فهو يطلب الاذن له بتغييره • فما رأيك فى هذا ؟

ـ اسمه ؟ آه ••• آه ••• دعنى أقول لك يا عمى من قبـــل أن اسمعه ان هذه الأمور لا يمكن أن تحدث الا فى منزلك •••

قلت ذلك وأنا أقوم بكلتا يدى بحركة تدل على الضجر والســـأم أيضا •

ـ أنت على حق يا صديقى العزيز • وأحسب أننى أســـتطيع أنا أيضا أن أجرى هذه الحركات الكبيرة ، ولكن فيم ينفعنى هـــذا ؟ انه يلاحقنى بهذه الفكرة منذ شهرين •••

قاطع فيدوبلياسوف قائلا :

ـ اسمى غير لائق •

قلت له مدهوشا :

ـ لماذا ؟

ـ فيه اشارة الى أشياء كثيرة سخيفة !

ـ ماذا تعنى بذلك ؟ وما السبيل الى تغييره ؟ ما من أحد يغير اسمه .

ـ نعم . ولكن ما من أحد له اسم كاسمى .

ـ صحيح . ان اسمك أميل الى الغرابة . ولكن ما حليتنا ؟ لقد كان اسم أبيك ! ...

كذلك هتفت أقول وقد استولى على الضجر .

قال فيدوبلياسوف :

ـ انه لمن الظلم أن أتألم أنا الى الأبد بسبب أبى ؛ وأن أتحمل بسبب اسمى أنواع السخرية ، وأقاسى ألوان المرارة .

صحت أقول لعمى :

ـ أراهن يا عمى أن وراء هذا كله شيئا من فوما فومتش !

ـ أبدا يا صديقى ، أبدا . أنت مخطىء . الحق أن فوما فومتش يحمى هذا الفتى . لقد اتخذه سكرتيرا له . وهذا هو سبب استخدامه فى منزلى على كل حال . وفوما يعنى بتربيته طبعا . لقد نشأه وغرس فيه عواطف جميلة ، حتى بلغ من ذلك أنه يمكن أن يوصف الآن من بعض النواحى بأنه رجل نير مثقف ... سوف أذكر لك تفاصيل عن هذا كله ...

قاطع فيدوبلياسوف مرة أخرى يقول :

ـ هذا صحيح • ان فوما فومتش هو المحسن الى المنعم على • انه هو الذى جعلنى آدرك تفاهة شأنى ، فأنا بفضله انما أدرك الآن أننى لست الا دودة من دود الأرض ، وأدرك المصير الذى ينتظرنى •

ـ سوف ترى يا سيرجى ، سوف ترى ما هى القضية (كذلك تابع عمى يقول بتعجله المألوف) • لقد عاش فى موسكو منـــذ نعومة أظفاره خادما عند معلم خط • آه ••• ليتك ترى كم يجيد زخرفة الكتابة ! انه يحسن استعمال الذهب والألوان • انه يصنع زينات ويرسم ملائكة • انه فنان ! وأنا أدفع له روبلاً ونصف روبل أجر الدرس فى تعليم ايليوشا الكتابة • وفوما هو الذى حدد هذا الأجر • وان فيدوبلياســوف يعطى دروسا لدى ثلاثة ملاكين آخرين يدفعون له هذا الأجر نفسه • هل ترى كيف يعنى بهندامه ! ثم هو فوق ذلك ينظم شعرا •

ـ ينظم شعرا ؟ ما كان هذا ليخطر لى على بال !

ـ شعرا يا صديقى ، شعرا ••• لا تظن أننى أمزح ! ••• انه ينظم شعرا حقيقيا ، شعرا موزونا مقفى ••• فى جميع الأغراض ! وهو ينتهز كل مناسبة من المناسبات من أجل أن ينظم شعرا • نظم بمناسبة عيد ماما قصيدة مدح تبلغ من الجمال اننا جميعا فغرنا أفواهنا دهشــة • وضع فى هذه القصيدة شيئا من الأساطير ، تكلم عن عرائس الشــعر طـائرة فى السماء ، وعماذا أيضا يا جريجوار ؟ ما اسم تلك الأخرى التى تكلمت عنها ؟ الخلاصة ••• والقصيدة كلها جيدة النظم سليمة القوافى • لقـد صححها فوما قليلا • وأنا لا أرى فى هذا بأسا ، بل اننى لأغتبط به وأبتهج له • ألا فلينصرف الى الشعر ما شاء له هواه ، ولكن شريطة أن يكف عن الجنون ! أقول لك هذا ياجريجوار قولة الاب لابنه • وانما أراد فوما أن يشجعه فاتخذه قارئا له وناسخا ، حين علم بالامر وقرأ شعره ؟ أى ان

فوما فعل ما في وسعه ليصبح محسنا اليه كما سمعت منذ لحظة • ولكن هذا أنبت في رأسه أفكارا رومانسية ! •• ألقى في روعه الشعور النبيل بالاستقلال • لقد شرح لى فوما هـــذا ، ولكنني نسيت الآن ماذا قال ، أعترف بذلك • كل ما أعلمه حق العلم أنني كنت سأعتقه لولا فوما • انني آخجل من الاحتفاظ به ، فهمت ؟ ولكن فوما يعارض في ذلك • فوما يقول انه في حاجة الى الفتى ، وانه يحبه ••• وقد ذكر لى خاصة ان امتلاكي شاعرا بين رجالي شرف عظيم لى • يظهر أن الأمر كان كذلك لدى البارونات في الزمان القديم ، وأنه يضفي شيئا من الأبهة والعظمة•• دعنا من الابهة والعظمـــة على كل حال ••• الحـــق أنني يا عزيزى قد أخذت أقدر هذا الفتى ••• ولكن المؤسف أنه أصبح من ذلك يزهـــو بنفسه • فمنذ ان مدح صار يحتقر الخدم وبلغ من هذا أنه بات لايريد أن يكلم أحدا • لا تزعل مني يا جريجوار ، فانما أنا أكلمك كما يكلم اب ابنه • ولقد وعد في الشتاء الأخير أن يتزوج • ان عندنا هنا فتـــاة لطيفة شريفة نشيطة في عملها مرحة ، اسمها ماترونا • ولكنه أصبح لا يطيق أن يسمع اسمها بحال من الأحوال • أتراه أسرف في الاعجاب بنفسه ؟ أتراه يريد أن يصبح مشهورا ذائع الصيت قبل أن يتخذ لنفسه امرأة ؟ •••

قال فيدوبلياسوف :

ــ أنا أتبع نصيحة فوما فومتش أولا وقبل كل شيء ، ما دام هـــو المحسن الى •

صحت أقول رغما عني :

ــ هذه هي المسألة ! ما من سبيل الى الاستغناء عن فوما فومتش !

فأسرع عمى يقاطعنى قائلا :

ـ ليس الأمر أمر فوما فومتش يا صديقى العزيز ! وانمـا هم لا يدعونه وشأنه مرتاح البال ••• ان البنت قليلة الحياء •• لقد مكرت به ، فألّبت عليه جميع الخدم ، فأصبحوا يسخرون منه ، ويستهزئون به ••• حتى الأطفال أصبحوا يشاركون فى هذا •••

قاطع فيدوبلياسوف مرة أخرى يقول :

ـ ماتريونا هى التى تحرضهم • ان هذه الغبية سيئة الطبع ، وبسببها انما تسممت حياتى •

استأنف عمى كلامه يخاطب فيدوبلياسوف بلهجة العتاب :

ـ ألم أقل لك ياجريجوار ؟ اليك ما فعلوه به ياسرجى • لقدعثروا على كلمة سيئة المعنى يجانس لفظها اسمه ••• فأصبح منذ ذلك الحين لا يكف عن الشكوى الىّ وعن المطالبة بتغيير هذا الاسم • وهـو يدعى انه منذ زمن طويل يتألم من أن فى اسمه شيئا من سوء الحشمة •

ـ ومن الابتذال أيضا •

كذلك أضاف فيدوبلياسوف •

قال عمى :

ـ اسكت يا جريجوار ! على أن فوما يرى هذا الرأى ••• لا هذا الرأى تماما ••• وانما هو يقول ان علينا أن ننظر بعين الاعتبار الى أن هذا الاسم سيسىء الى الفتى حين ستنشر قصائده ، وذلك أمر ينتـويه فوما • ألست ترى هذا الرأى أنت أيضا ؟

ـ فى نيته اذن أن ينشر أشعاره يا عمى ؟

ـ طبعا يا صديقى العزيز • لقد تقرر هـــذا وانتهى الأمر ، على

نفقتي طبعا • ستحمل الصفحة الأولى هذه العبارة : « مؤلفات قن فلان » ، وسيهدى المؤلف الكتاب الى فوما فومتش اعترافا منه بفضـــله عليه فى تعليمه • وقد تعهد فوما بكتابة المقدمة • في وسعك أن تتصور الأثر الذى يحدثه هذا العنوان على الغلاف : « أشعار فيدوبلياسوف » •••

فصحح فيدوبلياسوف قائلا :

ــ بل « انتحابات فيدوبلياسوف » •

ــ نعم ••• وهأنت ذا ترى أن اسناد هذه « الانتحابات » الى اسم كهذا الاسم شيء لا يرضى عنه الذوق المرهف ••• أنا أكرر الآن اقوال فوما ••• وهناك نقاد ساخرون لا يرحمون ••• برامبيئوس مثلا ••• كل شيء يصلح مادة لسخرهم ••• لا شيء يصدهم ••• لســوف يستهزئون بهذا الاسم : فيدوبلياسوف • ومن أجل ذلك يحسن أن يمهر أشــعاره بتوقيع آخر ، أليس كذلك ؟ اليك رأيي : أنا أرى أن لكل انسان أن يمهر أشعاره بالتوقيع الذى يستحسنه ، أن يمهرها باســم « مســتعار » (أليس هذا هو الاصطلاح ؟) ••• وينبغى أن ينتهى الاسم على كل حال بهذا المقطع : « فيم » • غير أن فيدوبلياسوف يرفض • فهى يقول لى : مر جميع رجالك أن ينادونى باسم جديد يناسب موهبتى ويكون له وقع محترم •

ــ أراهن على أنك وافقت يا عمى !

ــ نعم ، فى سبيل أن أقطع دابر المناقشات معهم يا سرجى • فليدبر أمره ! وقد قام بينى وبين فوما فومتش فى تلك اللحظة شيء من ســـوء التفاهم • على أنه يختار فى كل أسبوع اسما جديدا يبدو له أجمل وقعا • أوليآندروف ، توليبوف ••• ماذا أيضا يا جريجوار ؟ لقد طلبت فى أول الأمر أن تسمى فيرنى ، جريجوار فيرنى ، ثم لم يعجبك هذا الاســم لأن ساخرا من الساخرين عثر على وسيلة للعبث اللفظى مقربا بين اسم

« فيرنى » وكلمة « فرن » * وشكوت الرجل فعوقبت ؟ ثم لبثت بعد ذلك خمسة عشر يوما لا تعمل شيئا غير البحث عن أسماء أخرى ـ ما أكثـر الأسماء التى اخترتها ! ـ وأخيرا بعد أن فكرت مليا جئت تطلب أن تسمى أبلانوف . فهل هناك اسم أسخف من اسم أبلانوف ؟ ومع ذلك وافقت على هذا الاسم ، وأصدرت أمرى مرة أخرى أن ينادوك آبلانوف ! ولم أقبل الا لأتخلص منه. (كذلك شرح عمى ملتفتا الى) . ولبثت تنادى بهذا الاسم ثلاثة أيام . فما تركت خلال هذه الأيام الثلاثة جدارا من الجدران أو حافة من حافات نوافذ الجناح الا وخربشت عليها هذا الاسـم مقرونا بتواقيع ، واضطررنا أن نطلى الجدران والنوافذ بدهان جـديد لمحو ما خططته عليها بالقلم الرصاص . واستهلكت أيضا كدسة بكاملها من الورق الهولاندى كاتبا عليـه هاتين العبـارتين : « أجرب ريشتى ، أبلانوف . أبلانوف ، جـرب ريشـتك » . ولكن لم يواتك الحظ . فهـاهم أولاء يعثرون على كلمة تجانس هذا الاسم لفظا قائلين : « أبلهنوف » فكرهت الاسم وأصبحت تريد تبديله . فما هو الاسم الذى اخترته هذه المرة ، هه ؟ لقد نسيت أنا ...

أجاب فيدوبلياسوف قائلا :

ـ دانستيف . فاذا كان لا بد أن يمثل اسمى حركة رقص ، فليكن من أصل أجنبى على الأقل : دانستيف !

ـ نعم . ووافقت على اسم دانستيف يا عـزيزى سرجى ، ليرتاح بالى . ولكنهم وجدوا للاسم الجديد جناسا يبلغ من البشاعة أن المـرء لا يستطيع لفظه من فرط التقزز والاشمئزاز . وهذا هو يعود اليـوم ليقترح اسما آخر . أهذا صحيح يا جريجوار أم لا ؟ قل ...

ـ فعلا ••• اننى أود منذ مدة طويلة أن أضع بين قدميك اسما أجمل وقعا •

ـ ما هو ؟

ـ اسبوكيتوف •

ـ ألا تستحى يا جريجوار ؟ أترضى أن تسمى باسم عطر ؟ أهذا كل ما وجدته أنت الرجل الذكى بعد أيام من البحث ؟ هذا اسم يليق بزجاجات العطور يا جريجوار !

قلت بصوت خافت :

ـ ولكن هذا الفتى أبله يا عمى ، انه أغبى الأغبياء !

فأجابنى عمى بصوت خافت أيضا :

ـ ما حيلتنا يا عزيزى ؟ انهم جميعا يؤكدون له أنه على جانب عظيم من الذكاء ، وأن قلقه ناشىء عن العواطف النبيلة التى تهز نفسه •••

ـ ولكن اصرفه يا عمى ، ناشدتك الله ! ••

قال عمى بصوت ضارع كأنه يخاف حتى من فيدوبلياسوف :

ـ اسمع يا جريجوار ! أنت ترى أن ليس فى وقتى متسع • فكر فى الأمر • ما هذه هى اللحظة التى يمكننى فيها أن أستمع الى شكاواك ! تدعى أنهم أساءوا الى شعورك من جديد ! طيب ••• لك علىّ عهد أن أرتب الأمر غدا • أما الآن فاتركنا ••• انتظر ••• ماذا يفعل فوما فومتش ؟

ـ انه راقد • ولقد أمر بأن يقال لمن يسأل عنه انه سيقضى الليلة فى الصلاة •

ـ هم ••• طيب ••• اذهب يا عزيزى ، اذهب ••• هل أدركت يا سرجى ؟ انه لا يترك فوما لحظة ، حتى أصبحت أخشاه • والخـــدم لا يحبونه أيضا ، لأنه ينقل الى فوما كل ما يحدث • لقد انصرف الآن • ولكن ثق انه سيقول لفوما كل شيء • أما أنا يا عزيزى فقد رتبت جميع الأمور هناك ، لذلك أشعر الآن بالهدوء والطمأنينة • كنت أستعجل لقاءك، وهأنذا أراك (قال ذلك هاتفا وهو يصافحني بحـــرارة) • لقد ظننت يا صديقى العزيز ، أنك غاضب جدا وأنك ستسافر • أمرت بأن تراقب• لكم يسعدنى أن يكون الأمر قد انتهى ! منذ قليل ! هـــه ! جافريلا ، وفالالى ، وأنت أيضا ! آه ••• لقد ما يسرنى أن الخطـــر قد انقضى ! أصبح في وسعنا أخيرا أن نتحدث الى أن نشبع ! سأفتح لك قلبى • ابق يا سرجى ! ليس لى الا أنت ، نعم الا أنت وكوروفكين ! •••

ـ قل لى يا عمى ، ما الذى رتبته هناك ، ولماذا يجب علىّ أن أبقى بعد الذى حدث ؟ أعترف لك بأن رأسى يوشك أن ينفجر !

ـ وهل تظن أن رأسى أنا لا يوشك أن ينفجر ؟ منذ ستة أشهر ، كل شيء فى رأسى يرقص ! ولكن الحمد لله ••• سيجـرى الآن كل شيء كأحسن ما يكون • أولا ، لقد غفروا لى ••• غفرانا كاملا ••• على بعض الشروط والحق يقال ••• فلم يبق ثمة ما أخشاه اذن ! وقد غفروا أيضا لساشا • ان ساشا ، ان ابنتى ساشـــا ، قد تحمست منذ قليـــل ، فاندفعت وتمادت • ولكن يا لقلبها الصغير ما أطيبه ! اننى أعتز ببنيتى يا سرجى ! ألا فليباركها الله ••• وقد غفروا لك أنت أيضا ! هه ! ••• تستطيع الآن أن تفعل ما تشاء ، تستطيع أن تذهب وتجيء فى البيت طولا وعرضا ، من أقصاه الى أقصاه ، تستطيع أن تتنزه فى الحديقة ، أن تبقى مع الضيوف ، أن تفعل ما يحلو لك ••• ولكن بشرط واحـــد ، هو ان لا تقول فى الغد شيئا بحضور ماما وفوما فومتش • ذلك شرط مطلق•

سوف تصمت . لقد وعدت أنا بذلك ... لن تزيد على أن تصغي الى ما يقوله الآخرون . ولا يسوءنك هذا ... حقا ... انك ما تزال شابا .

نعم انني لشاب فعلا ، وسرعان ما برهنت على ذلك اذ صرت أغلي استياء وغيظا من هذه الشروط المهينة .

صرخت أقول لعمي لاهثا :

ـ قل لي يا عمي ، فانني أريد أن أرتاح : أأنا في ملجأ مجانين ؟

ـ هل رأيت يا بني العزيز ؟ انك لا تستطيع الا أن تنتقد على الفور. انك لا تستطيع أن تكبح جماح نفسك لحظة ! (كذلك قال عمي وقد ظهر عليه الحزن) . لا ... لسنا بين مجانين ، ولكن الطرفين كليهما يندفعان ويهتاجان ... اعترف يا عزيزي سرجي أنك تصرفت تصرفا مستهجنا ... تذكر ما تجرأت أن تقوله صارخا في وجه رجل محترم السن !

ـ ما من سن محترمة يا عمي !

ـ آه يا صديقي ... انك تسرف ... انك تجاوز القصد والاعتدال ... انك تكابر ... أعترف لك بأنني أنا أيضا أحرص على شيء من الاستقلال في الرأي أحيانا ، ولكنني أعود فأقول لك انك تتجاوز حدود القصد والاعتدال . وان هذا ليدهشني منك يا سرجي .

ـ لا تزعل يا عمي . أنا أخطأت . أعترف بأخطائي في حقك ... أما في حق صاحبك فوما ...

ـ صاحبك « فوما » ! لا يا عزيزي سرجي ... كفّ عن الحكم عليه بمثل هذه القسوة والعنف ! فوما انسان ينفر من الناس ، انسان مريض ، لا أكثر من ذلك ! ليس في وسع المرء أن يقسو في الحكم عليه.

انه في مقابل ذلك رجل نبيل ! نعم ••• هو أنبل الناس طرا •• لقد أتيح لك أن تدرك ذلك منذ قليل ••• لقد شهدت بنفسك نزاهته وعفته وعزوفه عن المنفعة • ولئن كانت تعصف به نزوات في بعض الأحيان ، فيجب أن نصفح عنه ••• ان لجميع الناس نزوات تعصف بهم ••• أي امرىء كامل ؟

ـ أنا أعرف أناسا لا نزوات لهم •

ـ هأنت ذا تعاود الكرة • اعترف يا سرجي أنك لا تملك كثيرا من التسامح ••• انك يا سرجي لا تغفر لأحد شيئا •

ـ طيب يا عمي طيب ••• دعنا من هذا وقل لي : هل رأيت آناستازيا أوجرافوفنا ؟

ـ يا عزيزي ، ان كل ما جرى كان بسببها ! ولكن دعني أقول لك أولا أهم ما في الامر : لقد قررنا جميعا أن نمضي في الغد نهنىء فوما بعيده ، لأن غدا هو يوم ميلاده حقا • ان ساشا خير طفلة في العالم ، ولكنها أخطأت التقدير • سنذهب في الغد جماعة قبل الصلاة ، في ساعة مبكرة جدا ••• سيقرأ له اليوشا أشعارا ، ولا شك أن هذا سيعطر قلبه ويرضيه كثيرا ! آه ••• ليتك تجيء معنا أنت أيضا يا سرجي فتجامله وتمتدحه ! فلعله يغفر لك عندئذ غفرانا كاملا • لشدما يسعدني أن تتصالحا يا سرجي ! هيا يا سرجي ••• انس الاساءة ، ما دمت قد أسأت أنت أيضا ! ••• ان فوما رجل محترم !

قلت وقد فقدت صبري كله :

ـ عمي ، عمي ، أنا لا يهمني أن أحدثك الا في شئوني ، ثم اذا أنت ••• قل لي ، وأنا ألقي عليك هذا السؤال للمرة الثانية : هل تعلم ما تفعله الآن آناستازيا أوجرافوفنا ؟

ـ طبعا يا صديقى ! ماذا دهاك ؟ لقد سبق أن قلت لك ان المسألة كلها تامر عليها • وذلك لا يرجع عهده الى أمس ، وانما هو مستمر منذ زمن طويل • لم أشأ أن أحدثك فى هذا الموضوع ، حتى لا تجـزع • تصور انهم كانوا لا يكتفون بأن أصرفها ، بل يريدون اكراهى على أن أطردها طردا ••• لقد كنت فى مأزق رهيب ، أؤكد لك ••• ولكن كل شىء قد سوى الآن والحمد لله ••• اسمع : ســأفضى اليك بسر • هم يظنون اننى أحبهـا ، واننى أريد أن أتزوجهـا ••• أى أننى أسعى الى ضياعى ••• ذلك أن هذا سيكون ضـياعا لى حقـا ••• وقد شرحوا لى ذلك ••• ومن أجل انقاذى انما قرروا عندئذ طردها • هذا كله من أمى، ومن آنا نيلوفنا أيضا • أما فوما فهو حتى هذه اللحظة صامت لا يتكلم • ولكننى قد اقنعتهم الآن • ويجب أن أبلغك اننى ، فى ســبيل أن أبرىء نفسى من التهمة ، أعلنت لهم انك خطيب ناسيتا •• بل وانك لم تجىء الى هنا الا بهــذه الصفة • وقد طمأنهم هــذا قليلا • والان ستبقى ناستيا فى المنزل ••• على سبيل الاختبار ••• طبعا ••• ولكن لا ضير ••• فانما المهم أنتبقى ••• وأنت قد ارتفع قدرك عندهمجميعا منذ أعلنت عنزواجك •• مهما يكن أمر ، فقد هدأت أمى على الأقل • أما آنا نيلوفنا فما تزال تتهم ! لم أستطع أن أعرف كيف السبيل الى ارضائها ••• ماذا تريد هذه الانا نيلوفنا ؟ اننى ألقى على نفسى هذا السؤال •••

ـ أنت مخطىء يا عمى ، أنت مخطىء كل الخطــأ ! هل تعلم أن آناستازيا أوجرافوفنا مزمعة على السفر غدا ، هذا اذا لم تكن قد سافرت فعلا ؟ هل تعلم أن أباها انما جاء اليوم خصيصا ليصطحبها ؟ لقد عزم على ذلك عزما جازما لا تراجع عنه ، أعلنت لى ذلك هى نفســها فى هــذا الصباح وكلفتنى أن أحمل اليك منها تحيات الوداع • قل لى : هل تعلم أنت ذلك ؟

كان عمي يصغى الى كلامي فاغر الفم من الدهشـــة • وخيل الى فجأة أنني أراه يرتعش ، بينما كان يخرج من صدره أنين •

وسرعان ما أعدت على مسمعه كل الحديث الذي جرى بيني وبين ناستيا ، فذكرت له انني طلبتهـا للزواج ، وانهـا رفضت ، ووصفت له غضبها منه للرسالة التي بعث بها الى ، وأعلمته انها تأمل أن ينقذه سفرها من الزواج بتاتيانا ايفانوفنا ••• الخلاصة : لم أخف عنه شيئـا • حتى لقد حرصت على أن أضخم كل ما يمكن أن يسوءه فيما أكشف له عنه • لقد كنت أحرص على أن أدفعه الى اتخاذ تدابير حاسمة ، وظفرت بذلك ، فانه ما لبث أن أمسك رأسه بيديه وصرخ يقول وقد شحب لونه شحوبا شديدا من فرط الخوف :

ـ هل تعلم أين هى ؟ أين هى الآن ؟ يا رب ! آه ما أغبانى ! كنت أظن حين وصلت الى هنا هادىء البال أننى قد سويت الأمور (ذلك ما أضافه وقد استولى عليه الغم وعصف به اليأس) •

قلت :

ـ لا أدرى أين هى • ولكننى أعلم أنها منذ قليل ، حين سمعت ذلك الصراخ الرهيب، مضت تريد أن تلقاك • كانت تحب أن تعلن لك ماعقدت نيتها عليه ، جهارا ، على مسمع من الجميع • فأغلب الظن أنهم لم يدعوا لها أن تدخل •

ـ أكيد • منعـــوها ! ما الذى كان يمكن أن تأمله منهم ! آه من اندفاعها ! آه من كبريائهـا ! لمـاذا رفضتك ؟ وأنت ، وأنت ، كيف لم تفز برضاها ؟ هذا غباء منك ؟ كان ينبغى أن تحظى باعجابها ! لماذا لم تنل رضاها واعجابها ؟ أجب ! لماذا لا تجيب ، بدلا من أن تبقى على هذه الحال كغبى من الأغبياء ؟

ـ أرجوك يا عمى ! كيف تريد أن أجيب على أسئلة كهذه الأسئلة ؟

ـ هذا مستحيل ! عليك أن تتزوجها ••• يجب أن تتزوجها ! لماذا استدعيتك من بطرسبرج ؟ ينبغى أن تحقق لها سعادتها ! انهم يريدون الان طردها • ولكن اذا صارت زوجتك ، اذا صارت زوجة ابن أخى ، فلن يسنطيعوا بعدئذ طردها • وأين عساها تذهب ؟ ما عساها تصبح ؟ أتعمل مربية للأطفال ؟ تلك فكرة حمقاء ••• ومعنى هذا أنها بانتظار العثور على عمل ستمكث فى البيت ••• ومعنى هذا انها سترفض آنتأخذ منى قرشا واحدا اذا كانت ستمضى مع أبيها بعد كل تلك الافاويل ! كيف يمكن آن أراها تمضى على هذه الحال ؟ يا للهول ! ويا لها هنا من فضيحة! انى لأحس الفضيحة مقبلة منذ الآن ! وماذا عن الرواتب التى تقاضتها سلفا لمساعدة أسرتها المعوزة ؟ انها تطعمهم يا عزيزى • هبنى استطعت أن أزكيها مربية للأولاد ، أن أجد لها عملا فى اسرة نبيلة محترمة ! ولكن هل يمكننى أن أصطاد لها هذه الأسرة النبيلة الشريفة حقا ؟ من المحتمل جدا أن أستطيع العثور على أسرة كهذه ، بل على أسر كثيرة كهذه • ولكن ذلك خطر يا عزيزى ! هل يمكن الاعتماد على أحد ؟ ثم ان المسكين حساس سريع التأذى ، يخيل اليه دائما أن الناس يبيعونه خبزه باذلالات يتحملها ، وتملقات يضطر اليها ! لسوف يهان ! وما عسى يحدث وهى على ما هى عليه من أنفة وشمم وكبرياء ؟ وماذا اذا حدث فوق ذلك كله أن سعى اليها وغد من الأوغاد يحاول اغواءها ؟ •• لسوف تبصق فى وجهه •• نعم سوف تبصق فى وجهه ، ولكنه يكون قد أهانها مع ذلك • وقد يرجمونها بحجر رغم كل شىء ، قد يتهمونها ، قد يلطخون شرفها بالعار ••• وعندئذ •• آه •• اننى أحس بأن رأسى ينفجر ! •• رباه ! •• رباه !

قلت بلهجة رصينة :

ــ عمى ، اغفر لى السؤال الذى سـألقيه عليك ، ولا تغضب منى خاصة ، واعلم أنك ان أجبتنى بصراحة حللت أمورا كثيرة ؛ بل انى لأشعر أن من حقى أن أطلب منك جوابا يا عمى !

ــ ما هو هذا السؤال ؟

ــ قل لى بصراحة ، قل لى بصدق ، كما لو كنت تناجى الله : ألست تشعر بأنك تعشق آناستازيا أوجرانوفنا قليلا ؟ ألا تتمنى أنت نفسك أن تتزوجها ؟ ان هذا بعينه هو السبب الذى يحضهم على طردها من هنا !

حرك عمى يده باشارة تنم عن نفاد الصبر والتبرم ، اشارة قوية محمومة فى آن واحد ، وقال :

ــ أنا ؟ أعشقها ؟ أنا أعشقها هى ؟ أى كلام هذا الذى يقولون ! أم تراها مؤامرة علىّ ؟ اسمع : ما هو السبب الذى دعانى الى استدعائك ان لم يكن رغبتى فى أن أبيّن لهم أنهم يضعون أصابعهم فى أعينهم ؟ وعلام أحرص على أن أراك تتزوجها ؟ أأنا أعشقها ؟ لقد فقدوا صوابهم ، لا أكثر ولا أقل !

ــ اذا كان الأمر كذلك يا عمى ، فاسمح لى أن أكلمك بصراحة . أؤكد لك صادقا أننى لا أعترض بشىء على هذا الظن . بالعكس : اذا تزوجت أنت هذه الفتاة حققت لها سعادتها ، لأنك تحبها ... واننى لأسأل الله أن يستجيب لى فيهب لكما السعادة والوفاق .

صاح عمى مذعورا :

ــ ما هذا الذى تقول ؟ انه ليدهشنى أن أراك تقول هذا الكلام بمثل هذا الهدوء .. انك تندفع دائما .. ذلك عيب من عيوبك ، لاحظت

ذلك فيك منذ زمن طويل•• اسمع : ان ماتقوله جنون ! كيف تريد لى ان اتخذها امرأة لى على حين أنني أعدها ابنتي لا اكثر ؟ لسوف اشعر بالخزى والعار اذا نظرت اليها غير هذه النظرة • ولسوف يكون ذلك اثماكذلك • انا شيخ وهى فى ميعة الصبا ! ان فوما هو الذى شرح لى الامر مستعملا هذه الالفاظ نفسها ! ان قلبى يحترق حبا أبويا لها ، ثم تجىء أنت فتحدثنى عن الزواج بها ! قد لا ترفضنى اذا أنا خطبتها ، وسيكون ذلك من قبيل الاعتراف بالجميل من جانبها ، ولكنها ستحتقرنى بعدئذ ، لاننى أكون قد عبثت بعواطفها •• لو فعلت لقدتها الى الضياع ، ولفقدت محبتها ! آه •• نعم •• اننى مستعد لأن أهب لها كل قلبى •• هذه الطفلة العزيزة •• اننى أحبها قدر ما أحب صغيرتى ساشا ، وربما كنت أحبها أكثر من ذلك، أعترف بهذا •• ان ناستيا هى ابنتى التى اخترتها •• انتزعتها من أحضان البؤس ، ونشأتها ورعيتها • وكانت عزيزتى المرحومة كاتيا تحبها ، وهى التى أورثتنيها •• نعم •• لقد علمتها ، فهى تتكلم الفرنسية ، وهى تعزف على البيانو ، وهى تقرأ ، وهلم جرا •• وماأروع ابتسامتها ؟ هل لاحظتها يا سرجى • من رآها ظن أنها تسخر ، ولكنها في الوقت نفسه لا تسخر. بالعكس : هى رقيقة العاطفة •• اليك اذن ما كنت أتصوره : تصل أنت ، فتخطبها ، فيدركون أننى لا أطمع فيها ، وتنتهى تلك الأقاويل والنمائم كلها •• ويكون فى وسعها أن تبقى عندئذ معنا فى هدوء وسلام ، وتتحقق السعادة عندئذ كاملة •• نعم كاملة • أنتما كلاكما ولداى ، وأنتما كلاكما يتيمان تقريبا ، نشأتكما كليكما ، وأحببتكما كثيرا •• وسوف أقف عليكما حياتى فما ننفصل بعدئذ يوما •• بل نكون معا على الدوام ! لماذا لا بد أن يكون هنالك دائما أناس حانقون غاضبون مهيأون فى كل لحظة لأن يبغض بعضهم بعضا ؟ آه •• ليتنى أستطيع أن أشرح لهم الأمور ، ليتنى أستطيع أن أشركهم فى معرفة حقيقة قلبى ! يا رب ! يا رب !

ـ عمي •• كلامك هذا كله جميل ، ولكنك تنسى أنها رفضتني •

ـ رفضتك •• هيمْ •• هـل تعلم أنني كنت كمـن يوجس ذلك من قبل ؟

كذلك قال مطرقاً ثم أضاف يصيح :

ـ لا •• لا •• انني لا أصدق هذا • مستحيل ! ان ما يجرى هو الذى أفسد كل شيء • لا شك أنك لم تحسن التصرف والمداورة• لعلك آذيت شعورها على نحو من الأنحاء • لعلك لم تحسن مجاملتها كما كان يجب ، وتدفقت تقول لها لغواً لا معنى له • قص عليَّ مرة أخرى كيف جرت الأمور يا سرجى !

أعدت على مسمعه كل شيء مكثرا من التفاصيل • فلما وصلت الى قولى ان ناستيا تريد الابتعاد أملا فى انقاذ عمى من تاتيانا ايفانوفنا ، ابتسم ابتسامة مرة ، ثم قال :

ـ تنقذنى الى صباح الغد ، لا الى أبعد من ذلك !

صحت أقول مذعورا :

ـ أتريد أن تقول بهذا يا عمى ، انك ستتزوج تاتيانا ايفانوفنا ؟

ـ كان لا بد لى من التضحية فى سبيل أن تبقى ناستيا مرتاحة هادئة البال ! نعم ، يجب أن أخطب تاتيانا ايفانوفنا غدا • لقد وعدت بهذا وعداً قاطعا •

ـ هل عزمت على هذا حقا يا عمى ؟

ـ ما حيلتى يا صديقى ، ما حيلتى ؟ ان ذلك ليمزق قلبى تمزيقا ، ولكن لا بد منه • غدا أخطبها • وسيتم الزواج بلا جلبة ولا ضوضاء ، فى المنزل ، فهذا أفضل • وستكون أنت فتى الشرف لى فى حفلة الزفاف • تقرر هذا • وسيدعونك هادئا حتى ذلك الحين • ما حيلتى يا صديقى ؟

انهم يقولون ان عليّ أن أوفر الغنى والثراء لاولادى ! فهل يمكن أن يمنع المرء عن شىء فى سبيل أولاده ؟ ان المرء لمستعد أن يمشى على رأسه فى سبيل أولاده ، لا سيما وأنهم على صواب والحق يقال . يجب على ان افعل شيئا فى سبيل اسرتى . لا يمكن ان يظل المرء مدى الحياة غير صالح لشىء !

هتفت أقول منقبض الصدر :

ـ ولكنها مجنونة يا عمى !

ـ ليست مجنونة الى هذا الحد ، لا .. ليست مجنونة الى هذا الحد. كل ما هنالك أنها قاست كثيرا من الآلام .. ماذا تريد يا صاحبى ؟ اننى أتمنى لو اتزوج امراة أعقل منها وأذكى ... ومع ذلك فان بين النساء نساء هن رغم كل عقلهن .. ولكنك لا تعرف تاتيانا ايفانوفنا ! ليتك تعرف مدى ما تتصف به من طيب القلب ونبل الشعور !

هتفت أقول يائساً :

ـ رباه ! لقد استقرت الفكرة فى رأسه منذ الآن فالفها !

ـ ماذا تريد ؟ انهم يدفعوننى الى ذلك فى سبيل خيرى . ثم اننى لا أسترسل فى الاوهام ، فلا بد لى من هذا الزواج عاجلا أو آجلا ، فمن الأفضل أن يتم الآن فافرغ منه . أقول لك يا سرجى اننى وصلت من هذا الامر الى الاغتباط به والارتياح له . فمتى اتخذ المرء قرارا أنزل عن كتفه حملا وأصبح خليّ البال . لقد غدوت هادئا كما ترى . ثم ان حظى هو الذى أراد لى ذلك على كل حال . والمهم أننى أربح من هذا بقاء ناستيا هنا . فأنا لم أوافق الا بهذا الشرط ، يجب أن أقول ذلك . وها هى ذى الآن تريد أن تسافر . ولكن ذلك لن يكون (قال عمى هذا صارخا وهو يقرع الأرض بقدمه) . اسمع يا سرجى (كذلك تابع يقول بلهجة

جازمة) : انتظرني هنا . لا تتحرك من هذا المكان . سأعود بعد لحظة .

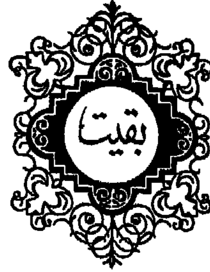
ـ الى أين تركض يا عمي ؟

ـ ربما مضيت الى لقائها يا بني سرجي . سوف يتضح كل شيء ، صدقني ، سوف يتضح كل شيء ، كل شيء ... وسوف تتزوجها ، أقسم لك ...

خرج عمي من الغرفة مسرعا متحمسا . وتابعته بنظري من النافذة. فرأيته يمشي خلال الحديقة ، بدلا من أن يرجع الى المنزل .

١٢

كارثة



بقيت وحدي . ان وضعي يبدو لي مأزقاً حرجاً . لقد رفضتني ناستيا ، وعمي يطمع في تزويجي بالقوة . كل شيء يدور في رأسي صاخبا . ولم أستطع أن أخرج من ذهني ميزنتشيكوف وما عرضه علي . يجب انقاذ عمي بأي ثمن . خطر ببالي أن أمضي أبحث عن ميزنتشيكوف لأقصَّ عليه كل شيء . ولكنْ عمي نفسه ، أين تُراه ذهب ؟ لقد زعم أنه ماض الى ناستيا ، ثم رأيته يذهب خلال الحديقة . استولت عليَّ فكرة المواعيد السرية ، فانقبض صدري لهذه الفكرة فجأة . تذكرت ما أفضى به اليَّ ميزنتشيكوف من أن هناك علاقة سرية .. ولكنني نبذت هذه الفكرة بعد دقيقة من تأمل . ان عمي لا يمكن أن يكذب . ذلك أمر هو البداهة بعينها . ومع ذلك ظل قلقي يزداد ويعظم . خرجت الى درجات المدخل دون أن أشعر بما أفعل ، وأوغلت في أعماق الحديقة سائرا في الطريق المحفوفة بالأشجار ، التي رأيت عمي يغيب فيها . كان القمر قد بدأ يطلع . انني أعرف الحديقة طولا وعرضا ، ولا أخشى أن أتيه . فلما وصلت الى العريشة العتيقة المنعزلة التي تقوم على حافة غدير موحل مهجور توقفت فجأة كمن تسمر في مكانه تسمرا . لقد سمعت أصواتا آتية من هناك . لا أستطيع أن أصف ذلك الشعور الغريب بالضيق الذي اعتراني على حين بغتة . واذ أيقنت أن الأصوات التي أسمعها هي

أصوات عمى وناستيا تابعت سيرى مقتربا ، وأنا أقول لنفسى بغية تهدئة ضميرى : ما دمت لن أغيّر سيرتى فليس علىّ أن أختبىء .. وفجأة دوى صوت قبلة ، ثم سمعت كلمات تقال بحرارة وحميًّا ، ثم سمعت على الفور صرخة حادة تصدر عن امرأة . وفى تلك اللحظة نفسها هربت من العريشة امرأة ترتدى ثوبا أبيض ، ومرّت قربى حتى لتكاد تلامسنى كطائر من طيور السنونو . بدا لى أنها تخفى وجهها بيديها حتى لا تُعرف: أغلب الظن أنهما لم يلاحظانى من حيث كانا تحت العريشة . ولكن ماكان أشد دهشتى حين رأيت الرجل يخرج بعد المرأة المذعورة ، فاذا هو أوبنوسكين ، أوبنوسكين الذى ينبغى أن يكون قد سافر اذا صدقنا ميزنتشيكوف . واضطرب أوبنوسكين هو أيضا حين لمحنى . زالت غطرسته كلها ..

تأتأ يقول وهو يحاول أن يبتسم :

ـ معذرة .. لم أكن أتوقع أن ألقاك ..

فأجبت بلهجة ساخرة :

ـ ولا كنت أتوقع أن ألقاك أنا أيضا .. كنت أحسب أنك سافرت .

ـ لا .. لم أسافر تماما .. وانما صحبت أمى جزءا من الطريق . وهل ... هل لى أن أخاطبك كما يخاطب رجل شريف كل الشرف ؟

ـ فى أى أمر ؟

ـ رب لحظات ، ولا شك أنك توافقنى على هذه النقطة ، رب لحظات يشعر فيها رجل شريف حقا بأنه مضطر الى الاستعانة بكل ما يتمتع به رجل شريف آخر من نبل النفس .. آمل أن تكون قد فهمت ..

ـ لا تعتمد علىّ . اننى لا أفهم شيئا قط .

ـ هل رأيت السيدة التى كانت معى تحت العريشة ؟

ـ رأيتها ولكننى لم أعرفها •

ـ لم تعرفها ؟ هى سيدة ستكون زوجتى قريبا •

ـ لك كل تهانىّ • ولكن فيم أستطيع أن أفيدك ؟

ـ فى أمر واحد : هو أن تكتم فى أعماق صدرك سر لقائى مع هذه السيدة •

قلت لنفسى : « من عساها تكون ؟ أرجو أن لا تكون هى ••• »

وأجبته قائلا :

ـ حقا اننى لمحرج أشد الحرج •• ولكن اعذرنى ••• لا أستطيع أن أقطع لك على نفسى عهدا بذلك •

ـ أرجوك ، ناشدتك الله •• هذا سر •• أنت أيضا ستكون خطيبا فى ذات يوم ، وعندئذ فأنا سوف •••

ـ اسكت •• هذا أحد يجىء !

ـ من أى جهة ؟

وفعلا ، على بعد ثلاثين خطـوة منا ، ظهـر طيف شخص لا يكاد يـرى •

همس أوبنوسكين يقول وهو يرتعش من قمـــة رأسه الى أخمص قدميه :

ـ لا شك أنه فوما فومتش • اننى أعرفه من مشيته • يارب ! وهذه خطوات أيضا من هذه الجهة ! هل تسمع ؟ وداعا •• أشكرك •• وأبتهل اليك أن •••

وغاب أوبنوسكين • فماهى الا دقيقة حتى انبجس عمى أمامى كأنه يخرج من بطن الأرض •

صاح عمى يقول :

ـ أهذا أنت ؟ ضاع كل شيء يا سرجى •• ضاع كل شيء !

لاحظت أنه كان هـو أيضا يرتعش من قمـة الرأس الى أخمص القدم •

ـ ما الذى ضاع يا عمى ؟

قال لى لاهثا وهو يمسكنى من ذراعى ليقودنى :

ـ تعال •

لم ينطق بكلمة واحدة طوال الطريق الى الجناح ولا سمح لى بأن أتكلم • كنت أتوقع شيئا خارقا • ولم يخطىء ظنى كثيرا • فلما وصلنا لاحظت أن عمى سيسوء حاله • كان وجهه شاحبا شحوب الموت فأسرعت أرشه بماء بارد • قلت لنفسى : « لا بد أن أمرا رهيبا قد وقع حتى يغمى على مثل هذا الرجل هذا الاغماء » •

ـ ضاع كل شيء يا بنى سرجى •• لقد فاجأنى فوما فى الحـديقة مع ناستيا لحظة كنت أقبلها !

صحت وأنا أتأمله مذهولا :

ـ كنت تقبلها !

ـ فى الحديقة يا صديقى ! نسيت نفسى • ذهبت الى هناك آملا أن ألقاها • كنت أريد أن أكلمها ، أن أردها الى الصواب ، أن أحدثها عنك خاصة • وكانت تنتظرنى منـــذ ساعة طويلة قرب المقعـد المكسور وراء

الغدير ••• انها تذهب الى ذلك المكان أحيانا كثيرة متى كان لديها ماتحب أن تقوله لى ••

ـ أحيانا كثيرة يا عمى !

ـ نعم أحيانا كثيرة يا صديقى • وأصبحت فى الآونة الأخيرة تذهب الى ذلك المكان كل مساء • لا شك أنهم تبعونا • أعرف ذلك • وقد بلغت آنا نيلوفنا من احكام مراقبتهـا أننا كففنا عن الالتقـاء فى الأيام الأربعـة الأخيرة • ولكن كان لا بد من الالتقاء اليوم • رأيت بنفسك أن ذلك كان ضرورة لا بد منها • لم يكن ثمة سبيل غير هذا السبيل من أجل التحدث اليها • وصلت آملا أن ألقـاها ، وكانت هنالك فعـلا منذ ساعة طـويلة تنتظرنى • كانت هى أيضا فى حاجة الى التحدث الىّ •

ـ ما هـذا الطيش ! كيف لا تحاذر وأنت تعلم أنهم يراقبـونك ويتبعونك ؟

ـ ماذا كان فى وسعى أن أعمل فى ظرف حرج كهذا الظرف• كان لا بد من أن نتكلم خفية • اننى لا أجرؤ أن أنظر اليها طوال النهار • فهى تقبع فى ركن ، وأنا أقبع فى ركن آخر متظاهرا بأننى لا أراها حتى لكأنها لا وجود لها •• ولكن متى هبط الليل التقينا وتكلمنا دون حرج •

ـ وبعد يا عمى ؟

ـ لم أسـتطع أن أقول كلمتين • كان قلبى يخفق خفقانا قويا ، وكانت الدموع تنهمر من عينى • أردت أن أقنعها بأن تتزوجك ، ولكنها قالت لى : « أصحيح أنك لا تحبنى ؟ أصحيح أنك لا ترى شيئا ؟ » ؟ ثم ها هى ذى ترتمى على عنقى فجأة ، وتحيطنى بذراعيها ، وتجهش باكية ! واستأنفت كلامها تقول : « أنا لا أحب سواك ، ولا أريد أن أتزوج أحدا•

انني أحبك منذ زمن طويل ، ولكنني لن أتزوجك ولن أتزوج غـيرك • سأسافر غدا ، وسأدخل ديرا من الأديرة ! » •

ـ يا رب ! هل يمكن أن تكون قد عبرت عن نفسها هذا التعبير ؟ كمّل يا عمى كمّل !

ـ رفعت بصرى • فاذا أنا أرى فوما واقفا أمامنا ! من أين خـرج ؟ أمن وراء دغل ؟ أكان ينتظر مختفيا أن يقبض علينا لحظة تلبسنا بالجرم ؟

ـ وغد حقير !

ـ جمدت في مكاني • وهربت ناستيا • ومر فوما الى جانبي صامتا لا ينطق وهو يلوح باصبعه مهـــددا • هل تتصور يا سرجى الجلبة التى ستحدث غدا ؟

ـ طبعا أتصورها !

صاح عمى يقول يائسا وهو يثب عن كرسيه :

ـ هل تدرك أنهم يريدون أن يضيعوها ، أن يلطخوا شرفها بالعار، أن يجعلوها في محل الازدراء والاحتقار ؟ انهم يبحثون عن حجة من الحجج ليتهموها بالسقوط وليستطيعوا طردها • وهم الآن يملكون هـذه الحجة ! هل تعلم أنهم زعموا أن لى علاقة خفية بها ؟ بل لقد زعموا ماهو شر من ذلك ! زعموا أن لها علاقة خفية مع فيدوبلياسوف ! ذلك كله من آنا نيلوفنا ! ما عسى يحدث الآن ؟ ما الذى سيقع غدا ؟ هل يمكن أن يروى لهم ما رأى ؟

ـ سيرويه لهم ما في ذلك ريب !

همهم عمى يقول وهو يعض على شفتيه ويهز قبضتى يديه :

ـ آه•• لو نطق بكلمة واحدة ، لو فاه بحرف واحد ••ولكن لا••

لا أظن .. لن يروى لهم شيئا .. انه يفهم الأمور .. انه رجل لبق ! لن يرضيه أن يسيء اليها ..

قلت بلهجة قاطعة :

ـ سواء أرضى أن يسيء اليها أم لم يرض ، فان واجبك أن تخطب آناستازيا أوجرافوفنا غدا !

تأملنى عمى مذهولا . قلت :

ـ اعلم يا عمى أنك تلطخ شرف هذه الفتاة بالعار اذا هم قالوا أى شيء فى هذا الموضوع ! اعلم أن عليك أن تتدارك الأمر وتدفع الشر بأقصى سرعة ممكنة ! ان عليك أن تحملق فى أعينهم بكبرياء وجرأة ! أن تتقدم الى خطبتها على مرأى من الجميع لا تحفل بما عسى يقال ، وأن تقصى فوما كدودة حقيرة اذا هو سمح لنفسه بأن يقول فى حقها كلمة سوء واحدة !

هتف عمى يقول :

ـ فى هذا انما كنت أفكر حين كنا فى الطريق الى هنا يا صديقى العزيز !

ـ هل عزمت اذن ؟

ـ عزما قاطعا . وكنت قد عزمت من قبل أن نبدأ هذا الحديث .

ـ مرحى يا عمى !

قلت ذلك وارتميت على عنقه .

وتكلمنا بعد ذلك طويلا . بسطت له جميع الأسباب التى تجعل زواجه بناسيتا واجبا لا مفر منه ، وهى أسباب كان يدركها مثلما كنت

أدركها على كل حال • غير أنني كنت شـــديد الحماســة قوى البلاغة • واغتبطت لعمى اغتباطا كبيرا • ان الواجب الذى يدفعــه الآن يقضى على جميع تردده • ان عمى يحل الواجب فى المنزلة الأولى • ومع ذلك كنت لا أعرف كيف سيدبر عمى الأمر • فرغم علمى بأن عمى لا يتراجع أمام أية عقبة متى كان الأمر أمر واجب ، ورغم أن ايمانى بذلك ايمان أعمى، لم أكن واثقا من أن قواه لن تخونه فى مكافحة ارادة هؤلاء الناس الذين يحيطون به • لذلك كنت أجهد بكل ما فى الشباب من حماسة فى سبيل أن أقوى عزمه وأشد أزره • قلت :

ـ لا سيما •• لا سيما وأنه لم يبق الآن مجال لشك • فلئن قررت كل شىء فمعنى ذلك أنك اكتشفت حقيقة لم تكن فى حسبانك ، ولكن رآها جميع الناس ولاحظوها ، ألا وهى أنك تحب آناستازيا أوجرانوفنا !

وأردفت أقول صارخا :

ـ فهل تسمح بأن يتحول هذا الحب العف عدوا لها ، وأن يجللها بالعار والاحتقار ؟

ـ مستحيل ! ولكن هل يمكن ، يا صديقى العــزيز ، أن أصــبح سعيدا هذه السعادة كلها آخر الأمر ؟

كذلك هتف عمى يقول وهو يرتمى على عنقى • وتابع يقول :

ـ ما الذى يجعلها تحبنى ؟ لقد كنت أحسب أننى لا أملك ماأستحق به حبها ••• أنا شــيخ اذا قورنت بها •• آه •• لم أكن أتوقع هــذا ! يا للملاك العزيز ! يا للملاك الغالى ! اسمع يا بنى سرجى : لقد سألتنى منذ قليل هل أحبها ، فهل كنت تبيِّت فى ذهنك شيئا حين ألقيت علىّ هذا السؤال ؟

ـ لقد لاحظت يا عمي أنك تحبها حبا لا مزيد عليه ، تحبها دون أن تعي أنت نفسك ذلك • اسمع : ألم تستدعني لغرض واحد هو أن‌تستطيع الاحتفاظ بها قريبةً منك متى أصبحت زوجة لى فأصبحت أشبه بنت لك؟

ـ وهل تغفر لى •• أنت •• يا سرجى ؟

ـ عمى !

وعانقنى عمى من جديد • قلت :

ـ انتبه ياعمى• انهم جميعا ضدّك• فينبغى لك أن تقف فى وجههم، وينبغى أن يتم هذا غدا لا بعده !

قال عمى مهموما :

ـ نعم •• نعم •• غدا •• هل تعلم ؟ ذلك أمر يجب أن أنهض به نهوض رجل ، أن أضع فيه كل شرفى وكل روحى ، أن أبرهن فيه على قوة ارادتى وصلابة عزيمتى •• نعم يجب أن أبرهن على قوة ارادتى وصلابة عزيمتى !

ـ فامض فى الأمر لا تثنيك عنه عقبة من العقبات !

ـ لن تثنينى أية عقبة يا بنى سرجى • وانما المصيبة أننى لا أعرف من أين أبدأ ولا كيف أعمل •

ـ دعك من هذا الآن يا عمى • سيتقرر غدا كل شىء • حسبك اليوم أن تحاول تهدئة روعك • لا جدوى من تصديع رأسك الآن ، فلن ينفعك هذا فى شىء • واذا فتح فوما منقاره ، فاطرده الى الباب واسحقه سحقا !

ـ لماذا نصل الى هذا التطرف ؟ اليك ما عزمت عليه : فى ساعة مبكرة من صباح الغد ، أذهب الى فوما فوما فأفضى اليه بكل شىء ، كما فعلت

معك الآن .. ويستحيل أن لا يفهم فوما الأمر .. ان له قلبا نبيلا كريما .. غير أن ما يشغل بالى ويعذبنى هو أن تكون أمى قد أبلغت تاتيانا ايفانوفنا أننى سأخطبها غدا . اذا صحّ هذا فالأمر مزعج محرج حقا !

ـ لا تصدع رأسك بأمر تاتيانا ايفانوفنا يا عمى !

قلت لعمى ذلك ، ثم رويت له مشهد العريشة مع أوبنوسكين . ذُهل عمى . وحاذرت مع ذلك أن أنطق بكلمة واحدة عن قصة ميزنتشيكوف .

هتف عمى يقول :

ـ يا لها من شاذة ! نعم شاذة ! هذا هو الوصف الصحيح ! مسكينة! انهم جميعا يحومون حولها ، ويستغلون بساطتها ! أوبنوسكين ؟ أهذا ممكن ؟ كنت أحسب أنه سافر .. شىء غريب .. شىء مقلق .. أنا مصعوق من الدهشة يا سرجى .. غدا يجب أن تُعرف الحقيقة وان تتخذ التدابير اللازمة .. أأنت متأكد أنها تاتيانا ايفانوفنا ؟ أأنت متأكد ؟

أجبت بأننى لم أر وجهها ، ولكننى على ثقة مطلقة بأننى لم أخطىء .

ـ هِمْ ... ماذا لو كنتَ قد حسبت احدى الخادمات تاتيانا ايفانوفنا ؟ ماذا لو كانت هى داشا ، بنت البستانى ؟ ان داشا فتاة ذات مكائد ، ولذلك أتكلم عنها ... لقد راقبتها آنا نيلوفنا ... ولكن لا ... ما دام يقول انه سيتزوجها ! أمر غريب .. غريب !

وافترقنا أخيرا . عانقت عمى ، وتمنيت له حظا سعيدا .

كرر يقول :

ـ غدا ، غدا تتقرر الأمور قبل أن تنهض أنت من فراشك . أنا ذاهب الآن الى فوما أفتح له قلبى .. افتح له جميع طوايا قلبى ، جميع

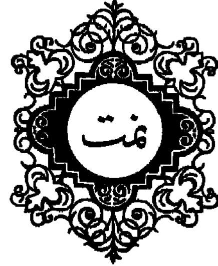
أعماق قلبى •• بصراحة ، بنبل ، كأخ •• الى اللقـاء يا بنى سرجى • يجب أن تنام • لا بد أنك متعب • أما أنا فلن يغمض لى جفن حتما •

خرج عمى • فسرعان ما رقدت منهـوك القـوى بعـد ذلك النهار المشحون الملىء • كانت أعصابى مرهقة ؛ وقبـل أن أنام حقـا انتفضت انتفاضات أيقظتنى من وسنى غـير مرة • ولكن جميـع الاحساسات التى عانيتها منذ وصولى حتى هذه اللحظة لا يمكن رغم شدة غرابتها أن تعد شيئا مذكورا اذا هى قيست باليقظة التى كانت تنتظرنى فى الغداة •

الجـــزء الثاني والأخير

١

المطاردة



فورا بلا أحلام . وفجأة أحسست بثقل يزن ثلاثمائة رطل يهوى على ساقىّ . كان النهار قد طلع ، فالشمس تدخل من النافذة ساطعة . والسيد باختشايف جالس على سريرى أو قل على ساقىّ

لا مجال للشك فى ذلك . انه هو بعينه . فبعد أن سللت ساقىّ من تحته بطريقة من الطرق ، جلست ، وأخذت أنظر اليه بعينين مدهوشتين هما عينا رجل يفيق من نومه .

صاح الرجل السمين يقول :

ـ وينظر الىّ ! ماذا دهاك ؟ انهض يا بنى انهض ! اننى أحاول أن أوقظك منذ نصف ساعة . هيا .. افتح عينيك !

ـ ماذا جرى ؟ كم الساعة الآن ؟

ـ ما نزال فى الصباح المبكر ، ولكن دجاجتنا لم تنتظر انبلاج الصبح حتى تطير ! انهض ، سنجرى نطاردها !

ـ أى دجاجة ؟

ـ صاحبتنا البريئة ! لقــد هربت •• هربت قبل طــلوع النهــار يا صديقي •• وقد جئت أنوي ايقاظك بغير مشقة ولاعناء ، ثم اذا أنا أقضي ساعتين جاهدا في سبيل ذلك • هيا ! قم ! ان عمــك ينتظرك ! وما أكثر ما سنرى ! (أضاف يقول ذلك بصوت يمتزج فيه الشر بالحنق) •

قلت نافد الصبر :

ـ من تعنى ، وماذا تعنى ؟

ولكننى لم ألبث أن حزرت • فسألته :

ـ أهي تاتيانا ايفانوفنا ؟

فقال :

ـ هي بعينها ! ومن عسى يكون غيرها ! طبعا هي ! •• لطالما نبهتهم الى ذلك وحذرتهم منه ، فلم يشاءوا أن يصدقوا ! وهاهي ذى الآن تهنئنا بالعيد على طريقتها الخاصة ! أخذ الحب عقلها ! •• أطاش دماغها ••• وحبُّ من ؟ حبُّ لحية صغيرة قذرة !

ـ أهو ميزنتشيكوف ؟

ـ شيطان يأخذك ! انك ما تزال ثملا ! افرك عينيك يا بنى ، واسترد عقلك ، احتفالا بالعيد وتكريما له على الأقل ! لا شك أنك شربت قليــلا في الليلة البــارحة ، هه ؟ لا يا عزيزى ليس هـــو ميزنتشــيكوف ، بل أوبنوسكين ! ان ايفان ايفانوفتش ميزنتشيكوف رجل محترم ، وسيشترك معنا فى مطاردتها !

صرخت أقول وأنا أثب عن سريرى :

ـ ماذا تقول ؟ هربت مع أوبنوسكين ؟

أجابنى الرجل السمين وهو ينهض بقوة :

ـ حقا انه لانسان متعب مضجر ! أجيء أكلمه كما يكلّم انسان عاقل ، وأشرح له الأمور على حقيقتها ، ثم يظل يشك ! اسمع يا بنى : اذا كنت تحرص على أن تتبعنا ، فانهض أخيرا ، والبس سروالك . لقد سئمت تضييع وقتى ولعابى سدى .

صعقنى النبأ فأسرعت ألبس ثيابى ، ثم هرولت أخرج . واذ كنت آمل أن ألقى عمى فى داخل المنزل ، حيث كان يبدو كل شيء ما يزال نائماً ، واذ كنت ما أزال لا أعى ما جرى وعيا واضحا ، فقد صعدت سلم المنزل محاذرا ، فاذا أنا ألتقى بناستيا فى حجرة المدخل . كانت ناستيا قد ارتدت على عجل ثوبا مما يُلبس فى الصباح، أو كانت فى ثوب الغرفة. وكان شعرها فوضى ، فما يكاد يراها المرء حتى يقدّر أنها قد وثبت عن سريرها منذ لحظة ، وأنها تترقب أحدا .

سألتنى بصوت مختنق ، واندفاع قوى :

ـ قل لى ، هل صحيح أن تاتيانا ايفانوفنا قد سافرت مع أونبوسكين؟

ـ يقال ذلك . وأنا أبحث عن عمى ، وسنمضى نطاردها فورا .

ـ أعيدوها ! أعيدوها بلا تأخر ولا ابطاء ، فان لم تعيدوها فقد ضاعت !

ـ ولكن أين عمى ؟

ـ لا شك أنه فى الحظائر حيث يُعدُّون العربة. ولقد كنت أنتظره. اسمع : قل له على لسانى اننى أريد أن أنصرف من هنا فى هذا اليوم نفسه . فقد عزمت على ذلك عزماً قاطعاً . سيصطحبنى أبى . ولو أمكن لسافرت فى هذه اللحظة نفسها . لم يبق الآن أمل ، لم يبق أى أمل .

وبينما كانت تنطق بهذه الكلمات رشقتنى بنظرة زائغة ، وأجهشت باكية . وخيّل الىّ أنها توشك أن يغمى عليها .

توسلت اليها قائلا :

ـ هدئى روعك • سوف ترين أن كل شىء يجرى على خير وجه ، خلافا لما تتصورين • لماذا تلطمين نفسك هكذا يا آناستازيا أوجرافوفنا ؟

ـ لا •• أدرى •• ما بى •• قل له ••

كذلك قالت متقطعة الأنفاس وهى تشد على يدى بغير ارادة • وفى تلك اللحظة سمعت حركة وراء الباب الأيمن •

ذعرت ناستيا أشد الذعـر ، فتركت يدى تسـقط ، وهربت تهبط السلم دون أن تضيف كلمة واحدة •

وجدت العصبة كلها ، أى عمى وباختشايف وميزنتشيكوف ، فى الحوش الخلفى قرب الحظائر • كانت عربة باختشايف قد قرنت بها خيول غير خيولها ، خيول مرتاحة • وكان كل شىء مهيأ للسفر ، فهم لا ينتظرون الا وصولى •

صاح عمى يقول وقد لمحنى :

ـ ها هو ذا !

ثم أضاف يخاطبنى وقد ظهر فى وجهه تعبير لم أعهده فيه من قبل :

ـ هل تعرف ماذا جرى يا صديقى العزيز ؟

لقد كان الهلع والاضـطراب وأمل غامض ، كان هـذا كله يُقرأ دفعة واحدة فى نظرته ، وفى صـوته ، وفى حـركاته • كان يدرك أن مصيره قد أصبح الآن على منعطف •

وسرعان ما أطلعـونى على الأمر • قالوا ان باختشايف ، بعـد أن قضى ليلة سيئة جدا ، غادر منزله عند الفجر لحضور الصلاة الأولى فى دير

يقع على مسافة خمسة فراسخ من أرضه • فلما وصل الى حيث يتقاطع الطريق الكبير والطريق الصغير المؤدى الى الدير ، لمح على حين فجأة عربة صغيرة تجرى مسرعة ، ولمح فى العربة تاتيانا ايفانوفنا مع أوبنوسكين • وكانت تاتيانا ايفانوفنا تبكى بكاء شديدا ، وكانت خائفة خوفا قوياً ، فلما لمحت باختشايف أطلقت صرخة كبيرة ومدت اليه ذراعيها كأنما هى تضرع أن يخف الى نجدتها : أو هذا ما خيّل الى باختشايف •

تابع باختشايف يروى القصة قائلا : « أما هو ، الجرو ذو اللحية الصغيرة ، فقد كان أقرب الى الموت منه الى الحياة ، وكان يختبىء ماوسعه الاختباء • انتظر قليلا أيها الوغد ، فلن تختفى طويلا ! » • ولم يُطل ستيبان ألكسيفتش التفكير ، فسرعان ما أدار عربته وأسرع الى ستيبانشيكوفو ، فأيقظ عمى ثم أيقظنى ثم أيقظ ميزنتشيكوف • وتقررت المطاردة على الفور •

ـ يا لهذا الاوبنوسكين ! يا لهذا الأوبنوسكين ! •• من ذا الذى كان يمكن أن يتوقع هذا !

كذلك كان يردد عمى ، وهو يحدّق الىّ كمن يريد أن يقول لى شيئا آخر •

صرخ ميزنتشيكوف يقول باستياء شديد :

ـ كل هذا منتظر من شخص كهذا الشخص !

ثم سرعان ما أشاح بوجهه تفادياً لنظرتى •

وقاطعه باختشايف قائلا وهو يركب العربة :

ـ هيه ! أنسير أم تؤثرون أن تبقوا متسمرين حتى الليل تتبادلون رواية القصص وسرد الحكايات ؟

فأسرع عمي يقول :

ـ هيًّا بنا ! هيا بنا !

همست أقول له في أذنه :

ـ حادثة عظيمة ••• سوف ترى أن كل شيء سيجري جريانا سهلا لينا هينا كأنه يجري على مخمل !

ـ حسبك يا صديقي العزيز ! ••• حسبك ابتهاجا ! ••• لسوف يطردونها الآن ، لا لشي الا لأنهم لم ينجحوا ••• لسوف يعاقبونها لأن أمانيهم قد أحبطت ••• هل تفهم ؟ رهيب ما أتنبأ به !

صرخ السيد باختشايف مرة اخرى يقول :

ـ وبعد يا ياجور ايلتش ؟ ماذا قررت ؟ أنمشي أم تظلون تتهامسون؟ في وسعنا أن نحل الخيل ، وأن نمضي نتناول افطارنا ••• هه ؟ لن يسيء الينا أن نشرب قدحا ••• هه ؟

كان في هذه الكلمات من السخرية ما يستحيل معه أن لا نبادر الى اطاعة السيد باختشايف مسرعين • فهرعنا نركب العربة ، وسارت الخيل•

أطبق الصمت خلال فترة من الوقت • كان عمي ينظر الى قلقا ، ولكنه يحرص على أن لا يبوح بما بنفسه أمام الآخرين • وغرق أخيرا في أفكاره • ولكنه كان يفيق في بعض اللحظات كمن ينتفض انتفاضا ، ويلقي على ما حوله نظرات زائغة • كان ميزنتشيكوف يدخن سيجارابوقار هادىء رصين هو وقار امرىء أسيء اليه ظلما وعدوانا • أما السيد باختشايف ، فقد كان حانقا على الناس جميعا • لكأنه من القلق على مثل الجمر • كان لا ينفك ينظر الى صحبه ، ويدمدم بكلام بين أسنانه ، ويزداد احمرارا ، ويزداد تنفسه لهاثا ، وتزداد حركته اضطرابا، ويبصق الى جانب في عنف وقوة •

سأله عمي فجأة :

ـ أأنت متأكد يا ستيبان ألكسيفتش أنهما كانا ذاهبين الى ميشينو ؟

ثم أردف يقول ملتفتا الىّ :

ـ ان ميشينو تقع على مسافة عشرين فرسخا من هنا . هي قرية صغيرة لا تضم الا ثلاثين نفسا . وقد اشتراها منذ مدة قصيرة موظف من موظفي البندر أحيل الى التقاعد ، وهو من أكثر الناس شراسة ، أو هذا على الأقل ما يقال عنه ، ربما ظلماً . ان ستيبان ألكسيفتش يزعم أن أوبنوسكين قد ذهب الى منزل هذا الرجل ، وأن هذ االرجل شريكه في المؤامرة .

صاح السيد باختشايف وهو يرتعش :

ـ هوه ! قلت لك انهما ذهبا الى ميشينو ! هل تظن أن صاحبك أوبنوسكين هو من الأدب بحيث ينتظرك ؟ لقد قضيتم ثلاث ساعات في وشوشات تافهة .

قال ميزنتشيكوف مقاطعا :

ـ سوف نجدهما ، اطمئن بالا !

ـ أي نعم ... سنجدهما ! حتما ! وبانتظار ذلك يكون الرجل قد استولى على « الكنز » ... والسلام عليكم ...

قال عمي :

ـ اطمئن بالا يا ستيبان ألكسيفتش ، سندركهما ونقبض عليهما . سوف ترى . لم يتسع وقتهما لأن يفعلا شيئا بعد !

صاح باختشايف يقول بلهجة العداوة :

ـ لم يتسع وقتهما ؟ سيكون وقتها قد اتسع لأن يفعل كل ما أراد ، هذه « التقية النقية » !

ثم قال بصوت كصوت الزمارة ، محاولا أن يقلد صوت أحـد من الناس ولا شك :

ـ آه ••• ما أعذبها ! ما أحلاها ! لقد قاست كثـيرا من المحن ، وعانت ألوانا من الشقاء ! ••• ولكن هذا لم يمنعها من أن تهرب ••• هه ؟ عزيزتنا المسكينة الصغيرة ! ••• هيا اركضوا وراءها فى الطرقات منذ الفجر لاهثين ••• وذلك فى يوم عيد كان ينبغى لنا فيه أن نصلى وندعو الله •••

قلت :

ـ انها ليست قاصرة ، وليس عليها وصاية • فاذا لم تشأ أن تعـود راضية ، فلن نستطيع أن نرجعها بالقوة • فماذا يجب علينا أن نعمل فى هذه الحالة ؟

قال عمى :

ـ هذا صحيح • ولكنها ستريد أن تعود راضية ، أنا أكفل ذلك ! لقد غرر بها ••• فمتى رأتنا فستحب أن ترجع ، أنا مسئول عن هـذا • ليس من حقنا أن نتركها هكذا ، أن نضحى بها ، أن ندفعها الى هـوة الشقاء دفعا • ان من واجبنا أن •••

صاح السيد باختشايف وهو يلتفت فجأة نحوى :

ـ عن أية وصاية تتكلم ! انها مجنونة يا بنى، مجنونة الى حد تستحق معه أن توثق وأن تكبل ••• لم أشأ أن أقول لك شيئا عن هـذا الأمر بالأمس ، ولكن هأنذا أروى لك الآن : لقد ضللت الباب منذ بضعة أيام،

ففتحت باب غرفتها ، فماذا رأيت ؟ رأيتها واقفة أمام المرآة ، واضعة يديها على خاصرتها ، ترقص على الطريقة الايقوسية ! ويا للثوب الذى كانت ترتديه ! ••• يا سلام ! رفعت كتفى ، وأغلقت الباب ! ••• ومنذ تلك اللحظة تنبأت بما يجرى كأننى قرأته فى كتاب !

قلت خجلا وجلا :

ـ فيم هذه القسوة كلها ؟ ما دامت تاتيانا ايفانوفنا ، على مرأى ومسمع من الجميع ، لا تتمتـــع بصحة كاملة ، أو قولوا اذا شـــئتم مزيدا من الانصاف ، ما دامت لها نزواتها الشاذة ••• فان المجرم الوحيد فى رأيى انما هو أوبنوسكين •

عاد الرجل السمين وقد احمر فجأة من الغضب :

ـ لا تملك صحة كاملة ! يا لهذا الفتى ما أعجبه ! لقد آلى على نفسه أن يثير حنقى ••• وذلك منذ الأمس ! ••• هى مجنونة يا بنى ، مجنونة خليقة بأن تكبل ••• لا شأن لصحتها فى الأمر ! هى مجنونة من مجانين الغرام منذ طفولتها الأولى ، وها أنتم أولاء ترون ماذا فعل بها اله الغرام كوبيدون ! أما الآخر ، ذو اللحية الصغيرة ، فالأفضل أن لا أتكلم عنـه بشىء • لقد استولى على « الكنز » وسيهرب زاحفا عـلى الأرض متى آن الأوان • ان من حقه أن يفرح ! •••

ـ أتعتقد حقا أنه سيتركها ؟

ـ ما أفهمك ! أتحسب اذن أنه يأخذها لؤلؤة نادرة يعلقهـــا على ربطة عنقه ؟ دعك من هذا ••• سوف يجردها من مالها يا صديقى ، ثم يزرعها فى دغل من الأدغال على حافة الطريق ••• والسلام عليكم ••• ولن يكون عليها بعدئذ الا أن تجلس فى ظل الدغل تشم الأزهار •••

قال عمي محتجا :

ـ أنت تغالى قليلا يا ستيبان ! لن تجرى الأمور على هذا النحو ! كفاك تذمرا ! ما نفعك من هذا كله على كل حال ؟

ـ اسمع ! ماذا تظنني ؟ أفي صدرى قلب أم لا ؟ صحيح أنني غريب عنها ، ولا شأن لى بها ، ولكن هذه الأمور تخرجنى عن طورى ! على كل حال ، قد تكون العاطفة هي التي تحركني ! شيطان يأخذني ! هل تستطيع أن تقول لى ماذا أعمل أنا هنا ، ولماذا تحولت عن طريقى ؟ هل تستطيع أن تقول لى فيم يعنيني هذا الأمر ؟ هه ؟ فيم يهمني هذا الأمر ؟

كذلك كان يعبر باختشايف عن حزنه . ولكنني أصبحت لا أسمع الا ضجة أقواله ، لأنني أخذت أفكر تفكيرا عميقا فى مصير هذه الانسانة التي نطاردها . واليكم بعض تفاصيل قصة حياة تاتيانا ايفانوفنا على نحو ما عرفتها بعد ذلك من مصدر موثوق فيه ، وهي تفاصيل لا غنى عنها لفهم ما سيتبع :

هي يتيمة نشأت فى منزل أجنبي غير مضياف ، ثم هي بعد ذلك آنسة تعيسة ، فعانس شقية ، اضطرت أثناء حياتها البائسة أن تشرب كأس العذاب حتى الثمالة ، لم تنج من نوع من أنواع الحقد الذى تحمله لها النفوس كلما حملت لها الأيدى كسرة من خبز . ولقد كانت مع ذلك ذات طبيعة لطيفة ، محبية ، مرحة ، يرضيها أيسر شيء ... لذلك لم تشعر فورا بمرارة وضعها وسوء حالها . حتى لقد ظلت تضحك فى بعض الأحيان ضحكا صريحا فرحا . وشيئا فشيئا ، مع انقضاء السنين تلو السنين ، انما تغلب عليها مصيرها الحزين وقدرها الشقى . يبست تاتيانا ايفانوفنا شيئا بعد شيء ، وسنخت، وأصبحت فريسة اهتياج مفرطوحساسية مرضية .. ثم هوت الى الاسترسال فى أحلام مجنونة ، تتخللها فى كثير

من الأحيان نوبات بكاء مرير ، أو نحيب متشنج • وكلما قل حظها من سعادة الارض ، ازداد ما يحمله لها خيالها من نصفة وعزاء ؛ وعلى قدر شعورها بفقدان الأمل كاملا فى حياة سعيدة مزيدا من الشعور ، كانت تغرق فى أحلام تنقلها بعيداً عن الواقع ، فاذا هى ترى نفسها ثرية ثراء لا اخر له ، جميلة جمالا فوق الطبيعه ، محاطة بعشاق نبلاء أغنياء أنيقين هم جميعا أبناء أمراء أو جنرالات يحملون لها حبا طاهرا نقيا ، ويرتمون على قدميها غراما وهياما • ويظهر « هو » أخيرا ، « هو » المثل الأعلى للكمال ، المتحلى بجميع الفضائل ، المتمتع بكافة المزايا ، الرقيق القلب ، المشبوب العاطفة ، الفنان ، الشاعر ، ابن الأمير ••• ذلك كله كان يتحرك فى خيالها ، وينتعش بحياة تنتقل من نومها الى الواقع • فلما أخذ عقلها يضعف، وأصبحت عاجزة عن احتمال أفيون هذه الرؤى الخفية المستمرة، جاءها القدر فجأة بآخر ضربة •

كانت فى آخر درجات الانهيار ، فى بيئة قادرة على أن تمضّ أقوى القلوب وعلى أن تدمر أعتى النفوس • كانت وصيفة لسيدة عجوز شمطاء ثرماء كثيرة التأنيب والتقريع ، لا تكف لحظة عن لومها على كل فتاتة خبز تاكلها ، وعلى كل حرفه رثة تهديها اليها ••• كانت وقد أضنتها هذه الحياة المرهقة ، وأحرقها خيالها الملتهب المسعور ، كانت مهيأة لأن يعبث بها أول قادم ••• وفيما كانت كذلك اذا هى تعلم بموت رجل يمت اليها بقربى بعيدة ، ولكنه ، لخفة عقلها ، لم يخطر ببالها يوما • كان هذا الرجل الذى يمت اليها بقربى بعيدة ، والذى عاش بعد موت جميع أقربائه ، شيخا متفردا شاذا ، يعيش فى أحضان عزلة شديدة ، بمكان ناء بعيد • انه شيخ جهم الطبع ، صموت ، لم يتزوج ، منصرف الى علم الفراسة وتعاطى الربا فى آن واحد •

ها هى ذى معجزة تهبط على تاتيانا ايفانوفنا اذن • ها هى ذى ثروة

طائله تنزل عليها من السماء وتمتد أمام بصرها بساطا كبيرا من ذهب يساوى وزنها .. انها الوريثة الوحيدة للمتوفى . مائة ألف روبل فضـــة رنانة مبسوطة أمامها موضوعة تحت تصرفها ! يا لسخرية القدر ! ان هذا كفيل بأن يجهز على الفتاة ! هل كان يمكن لهذا الدماغ الضعيف أن لا يؤمن بصدق أحلامه وقد تحقق بعضها منذ الآن ! لقد كان لا بد أن تفقد الفتاة بسبب هذا الحادث آخر شعاع من عقل سليم ! لقد انهارت من فرط النشوة والوجد ، فها هى ذى تندفع طائشة اللب فى هذا العالم المسحور ، عالم التهاويل التى لا يلجمها لجام ، والأخيلة التى لا يحدها حد ، والأطياف التى لا نهاية لمغرياتها ومفاتنها ! ... ألا فلتسقط الوساوس والشكوك ، ألا فلتسقط الوقائع الملموسة ، والحقائق الراهنة ، والأحداث الجارية ، ألا فلتسقط جميع الحواجز القائمة والقوانين الصارمة ! ألا فليسقط كل ما هو يقين ووضوح كقولك ان اثنين واثنين أربعة . ان تانيانا ايفانوفنا ، رغم أنها بلغت الخامسة والثلاثين من العمر ، ورغم اقترابها من خريف الحياة الذى يحمل البرد ، لم تحاول قط أن تقاوم ما يملأ رأسها من أحلام عن الجمال الباهر ، والحب الأبدى الرائع العظـيم ! . ألم تكن هـــذه الأحلام جزءا من وجودها ؟ ألا يجب أن تتحقق جميع هذه الأحلام بعد أن تحقق أولها ؟ فلماذا اذن لا يظهر « هو » ؟ وبانتظار أن يظهر « هو » ، « هو » الخطيب المثالى ، الخطيب الفارس ، الذى يملك جميـــع الرتب العسكرية والمدنية ، أخذ ضباط حسان من ضباط الحرس ، أو من ضباط القتال فحسب ، وسادة عظام ، وشعراء يسكنون باريس أو يسكنون موسكو فحسب ، لهم لحى على الطريقة الاسبانية أو ليس لهم لحى ، اسبان أو غير اسبان ، ولكنهم اسبان خاصة ، أخذوا يتخاطرون فى مخيلتها فى الليل والنهار جهرةً تبلغ من الكثافة والاقلاق أنهم أصبحوا خطرا جديا ... فما هى الا خطوة واحدة حتى تصبح الفتاة خليقـــة بأن تودع مستشفى

للمجانين ! أصبحت تاتيانا ايفانوفنا تنقل هذه الأطياف البراقة السكرى حباء التى تحاصرها ، أصبحت تنقلها الى الحياة الواقعية، وأخذت أيسر العلامات تتضخم فى خيالها تضخما عجيبا ، فجميع من تلقى عليهم تاتيانا ايفانوفنا نظرها يقعون فىغرامها ويتولهون بحبها، والرجل الذى مرت به منذلحظة هو اسبانى ، والشخص الذى مات آمس انما مات من فرط هيامه بها •
وكأنما أرادت المقادير آن تتعزز هذه الأخيلة فى عقلها وأن تقوى وتشتد، فهؤلاء رجال متلطفون كثيرون من أمثال أوبنوسكين أو ميزنشيكوف ، قد أخذوا يغازلونها مضمرين نيةً واحدة • حاول كل واحد منهم أن يفوز برضاها ، وأن ينال بالتملق حظوة لديها ، وأن يأسر قلبها • ولم يخطر ببال تاتيانا المسكينة أنهم انما يسعون اليها فى سبيل الحصول على مالها • كانت على يقين من أن ضربة سحر قد أصلحت الانسانية على حين فجأة ، وأن جميع الناس من أولهم الى آخرهم قد أصبحوا مرحين لطافا حنونين طيبين • وتأخر « هو » عن الظهور • ولكنه سيظهر من غير شك • ولا داعى الى التسرع والتعجل ، فالحياة الآن تفيض ببهجة وفتنة ، وتزخر بما يسرى عن النفس ويسلى القلب • وكانت تاتيانا ايفانوفنا أثناء ذلك تمص سكرا وتقطف أزهارا وتتلهى بقراءة روايات • ولكن الروايات تلهب خيالها مزيدا من الالهاب ، فما تكاد تقرأ صفحتين حتى تترك الكتاب؟ ما تكاد تجد فى الرواية أيسر اشارة الى حب حتى تسترسل فى أحلامها بدلا من أن تستمر فى قراءتها ؟ وقد يكفيها من أجل هذا وصف لمكان ، أو لغرفة ، أو لزينة • وهى لا تكف عن اقتناء أغرب الأثواب الجديدة ، وتبعث من يشترى لها تخاريم وقبعات وزينات للشعر وأشرطة وأقمشة ونماذج للخياطة ومربيات وأزهار وكلاب • وهذه ثلاث وصيفات يخطن لها من الصباح الى المساء بينما تجرب سيدتهن ملابسها وحليها مستديرة أمام المرآة ، من الصباح الى المساء ، وحتى فى الليل • ثم ان ميراثها قد أعاد

اليها شيئا من الشباب • وأسبغ عليها شيئا من الجمال • لم أستطع أن أعرف كيف اتفق أن أصبحت قريبة المرحوم الجنرال كراخوتكين ؟ وغلب على ظني أن هذه القرابة انما تخيلتها الجنرالة ، رغبة منها في الاستيلاء على تاتيانا ايفانوفنا ، وفي اجبار عمي على تزوجها بأية وسيلة من أجل مالها •

لقد كان السيد باختشايف اذن على حق حين اتهم اله الحب كوبيدون بأنه هو الذي دفع تاتيانا ايفانوفنا الى الجنون • ولقد كان عمي على صواب حين اندفع يطاردها منذ علم بهربها مع أوبنوسكين ، وحين اعتقد أن عليه أن يردها الى المنزل راضية أو كارهة • فلقد كانت المسكينة لا تستطيع أن تعيش بغير وصاية عليها ، فلا بد أن تسير الى الضياع اذا وقعت بين أيدي أناس أشرار •

وصلنا ميشينو في نحو الساعة العاشرة • انها ضيعة حقيرة تقع في قرارة ركن منخفض يبعد عن الطريق الكبير مسافة ثلاثة فراسخ ؛ ولا تضم الا ستة أو سبعة أكواخ سودها الدخان وتناثرت معوجة وغطى أسقفها قليل من قش عفن ، فمن رآها أحس أنها ترشقه بنظرات كالحة جهمة • لا جنيات ولا شجيرات تحيط بها • لا شيء الا صفصافة تغفو حالمة على ضفة مستنقع مخضر يسمونه غديرا • ان مقاما كهذا المقام لا يمكن أن يحدث أثرا حسنا في نفس تاتيانا ايفانوفنا • أما منزل صاحب الضيعة ، وقد شيد منذ مدة قصيرة بألواح قدت من جذوع الشجر ، فانه بناء طويل له ست نوافذ متراصة ، وقد غطي مؤقتا بالقش • ان الموظف الذي اشترى هذه الضيعة قد أخذ يستقر فيها منذ حين قصير • ليس لفناء المنزل من حاجز • وان جهة واحدة من جهاته قد جعل لها سياج من فروع شجر الجوز ما تزال أوراقها خضرا لما تجف بعد • فعلى حافة هذا السياج كانت ترابط عربة أوبنوسكين • لقد سقطنا على المجرمين سقوط مطرة من

مطرات شهر آذار التي يصاحبها البرد • ووصل الى مسامعنا من نافذة مفتوحة صراخ وبكاء •

فلما ولجنا حجرة المدخل وجدنا طفلا حافي القدمين ، فما ان رآنا حتى هرب خائفا مذعورا • دخلنا الغرفة الأولى • ان أثاثها ديوان طويل من الطراز التركي مغطى بقماش من قطن ، وليس له ظهر • فعلى هذا الديوان كانت تاتيانا ايفانوفنا متهالكة غارقة في دموعها • فلما رأتنا أطلقت صرخة وأخفت وجهها في يديها • وأمامها كان يقف أوبنوسكين حائرا مضطربا يثير منظره الشفقة ، حتى لقد بلغ من فقدان سيطرته على نفسه ومن نفاد صبره أنه أسرع يستقبلنا مادا ذراعيه كأن وصولنا قد أنزل عن كاهله عبئا ثقيلا • ورأينا حافة ثوب تظهر من شق الباب الذي يؤدي الى الحجرة التالية • لا بد أن أحدا كان واقفا وراء الباب يسترق النظر والسمع من خلال ثقب دون أن نراه • لم يظهر سكان المنزل ، فكأنهم غائبون • لا شك أنهم مختفون في ركن من الأركان •

صاح السيد باختشايف يقول حين دخل الغرفة وراءنا :

ـ آه ••• هذه صاحبتكم المسافرة ! لكأنها تتصنع الخجل !

ـ هدىء حماستك يا ستيبان ألكسييفتش ! ليس يجمل أن نقول هذا الكلام • ان شخصا واحدا يحق له أن يتكلم الآن ، هو ياجور ايلتش • أما نحن ، فاننا هنا أجانب تماما •

كذلك قال ميزنتشيكوف بلهجة قاطعة لا رد عليها •

ألقى عمي على السيد باختشايف نظرة قاسية ، ثم اقترب من تاتيانا ايفانوفنا التي ما تزال تخفي وجهها ، وكأنه لم يلاحظ أوبنوسكين الذي

كان مقبلا عليه مادا له ذراعيه ؟ وقال لها بصوت عذب رقيق يحس فيه المرء الاهتمام الصادق المخلص :

ـ تاتيانا ايفانوفنا ! اننا جميعا نحبك ونقدرك ، لذلك أردنا أن نعرف منك انت ما عقدت عليه النية • هل تريدين أن ترجعي معنا الى ستيبانشيكوفو ؟ اليوم عيد اليوشا • وأمي تنتظرك بصبر نافد • ولا بد أن ساشا وناستيا تبكيان منذ هذا الصباح •••

رفعت تاتيانا ايفانوفنا رأسها خجلى ، ونظرت الى عمي من خلال أصابعها ، ثم ارتمت على عنقه فجأة والدموع تنهمر من عينيها سيلا طافحا؛ وقالت له منتحبة :

ـ خذني من هنا بسرعة ، بسرعة ، بأقصى سرعة !

قال عمي مخاطبا أوبنوسكين بلهجة خشنة دون أن يكلف نفسه عناء القاء نظرة عليه :

ـ انتهى اذن كل شيء •

وأضاف يخاطب تاتيانا ايفانوفنا :

ـ تاتيانا ايفانوفنا ، هذه ذراعي ولنمض حالا !

سمعنا شخشخة وراء الباب الذي صر وانفتح قليلا •

قال أوبنوسكين وهو ينظر قلقا الى شق الباب :

ـ ولكن يا ياجور ايلتش •• اذا نظرنا الى الأمر من زاوية أخرى، كان لا بد من الاعتراف بأن دخولك منزلي ••• بأن دخولك منزلي بغير حق يا ياجور ايلتش ••• لاحظ أنت نفسك ••• الخلاصة ••• لقد سلمت عليك فلم تشأ أن ترد السلام يا ياجور ايلتش •••

ـ بل ان دخولك منزلي ، يا سيد ، هو الذي كان شائنا •••

بهذا أجاب عمى وهو ينظر الى أوبنوسكين نظرة صارمة ٠ وأضاف يقول :

ـ ما أنت هنا فى منزلك ٠ ولقد سمعت بأذنيك : ان تاتيانا ايفانوفنا تحرص على أن لا تبقى فى هذا المكان دقيقة أخرى ٠ فماذا تريد أكثر من هذا ؟ لا تقل كلمة واحدة ، هل سمعت ؟ لا تقل كلمة واحدة ، ارجوك ! وأريد ، قبل كل شىء ، أن أتحاشى أى تفسير لا داعى اليه ٠٠ ولن يكون التفسير فى صالحك على كل حال ٠

أحدثت هذه الأقوال فى أوبنوسكين أثرا بلغ من القوة أن سيطرته على نفسه ضعف أكثر من أى وقت مضى ، فاخذ يتدفق فى كلام سخيف٠

بدأ يقول بصوت خافت وهو يكاد يبكى من شعوره بالخزى والعار ، ولكن عينيه تتجهان نحو الباب المشقوق بغير انقطاع :

ـ لا تحتقرنى يا ياجور ايلتش ٠ لست أنا من أراد هذا ، بل أمى ٠ لم أفعل ذلك فى سبيل منفعه ياجور ايلتش ، وانما فعلته صادقا كل الصدق ، مخلصا كل الاخلاص ٠٠٠ لا ٠٠٠ لم تدفعنى المنفعة الى هذا السلوك يا ياجور ايلتش ، وانما كانت لى فكرتى ٠ كنت سأستعمل المال فى وجوه شريفة ٠٠٠ لقد كنت أسعى الى غاية نبيلة ، حتى حين كنت أنظر الى مصلحتى ٠ كنت أريد أن أمد يد العون الى الفقراء ، وأن أساهم أيضا فى حركة النهضة الروسية ٠ حلمت فى انشاء صندوق لمساعدة الطلاب بالجامعة ٠ تلك هى الوجوه التى كنت أنوى أن أنفق فيها ثروتى يا ياجور ايلتش ٠ لم أكن أفكر فى شىء آخر يا ياجور ايلتش ٠

شعر كل واحد منا بحرج ٠ واحمر ميزنتشيكوف وأشاح وجهه ٠ وخجل عمى واضطرب فلم يجد ما يجيب به ٠٠٠ ثم قال أخيرا :

ـ كفى ، كفى ! هدىء نفسك يا بافل سيميونتش ٠٠٠ تلك أمور

تقع ••• طيب يا صديقى ••• تعال الى العشاء معنا فى هذا المســـاء ••• سيسرنى أن أراك ، سيسرنى كثيرا أن أراك •

ولكن السيد باختشايف لم يفهم الأمر على هذا النحو • وهذا هو يزأر حانقا :

ـ هه ! ••• تريد انشاء صندوق لمساعدة الطلاب بالجامعة ! ألا ان هذا ليليق بك ! ويليق بك أكثر من ذلك أن تسرق صندوق غـيرك ! انه لا يملك سروالا يستر به عورته ، ثم هو يتكلم عن انشاء صــــندوق لمساعدة الطلاب بالجامعة ! آه من الوغد الرث ! ••• أنت وغد رث ! هل تسمع ؟ لقد أردت أن تغرر بقلب برىء وأن تستولى عليه ؟ أين هى أمك؟ أهى مختبئة ؟ أراهن أنها مختبئة غير بعيد ••• وراء هذا الحاجز ••• أو تحت السرير ••• وقد اخضر لونها اخضرارا من شدة الخوف !

صاح عمى يقول :

ـ ستيبان ! ستيبان !

تخضب وجه أوبنوسكين بحمرة شديدة ، ولم يتسع وقتـه للكلام محتجا ، ففى اللحظة التى فتح فيها فمه يريد الكلام دفعت آنتوز بتروفنا الباب ، وأسرعت تدخل الغرفة وقد احمر وجهها حنقا ، وقدحت عيناها شررا •

صرخت تقول :

ـ ما هذا ؟ ماذا يجرى هنا ؟ بأى حق تدخل ، أنت يا ياجـــور ايلتش ، الى منزل محترم مع هذه الطائفة من الناس ؟ بأى حق تأتى تروع السيدات وتحدث هذه الجلبة ؟ ••• ما معنى هذا ؟ أحمد الله على أننى لما أفقد عقلى بعد يا ياجور ايلتش ! •••

ثم أضافت تخاطب ابنها بصوت صافر :

ـ وأنت يا حبيبي ••• كيف تخضع لهم وتمكنهم من أن يهينوا أمك في منزلها دون أن تحرك ساكنا ! تعال كلمني بعد الآن بلهجة رجل ! أنت خرقة لا أكثر ! خرقة لا أكثر !

اختفى كل ما كان يرى بالأمس في آنتوز بتروفنا من ظرف ولطف وغنج • تبدلت آنتوز بتروفنا تبدلا كاملا • أصبحت امرأة مجنونة مسعورة •• نزعت عن وجهها القناع !

وما ان لاحظ عمي ذلك حتى تأبط ذراع تاتيانا ايفانوفنا ، واتجه نحو الباب • ولكن آنتوز بتروفنا سدت طريقه ، واستأنفت كلامها تقول بصوت قاطع :

ـ لا ••• لن تمضي هكذا يا ياجور ايلتش ! بأي حق تأخذ تاتيانا ايفانوفنا ؟ انك تأسف على أنها أفلتت من الأحبولة الحقيرة التي مدتها لها أمك العزيزة مع ذلك الأبله فومتش ! تريد أن تتزوجها أنت في سبيل مصلحة دنيئة! عفوك أيها السيد •• ان لنا هنا مطامح أعلى وأهدافا أسمى• ان تاتيانا ايفانوفنا ، وقد رأت مايحاك لها من مؤامرات في منزلك وأحست أنها سائرة عندك الى الضياع ، قد وثقت بابني واتكلت عليه • انها هي التي توسلت اليه أن ينقذها من أحابيلك ، انها هي التي شعرت بأن عليها أن تهرب ليلا • فانظر أيها السيد ، أنظر الى أين دفعتها ! أليس هذا صحيحاً يا تيانا ايفانوفنا ؟ فاذا كان الامر كذلك فكيف تجرؤ أن تقتحم باب منزل شريف مع عصابتك هذه لتأخذ بالقوة آنسة شريفة ، غير حافل بصراخها وبكائها ؟ لا ••• لن أسمح بهذا ! لن أدع لك أن تفعل ! ماأنا بفتاة صغيرة ! ••• ستبقى تاتيانا ايفانوفنا لأنها تريد أن تبقى ! تعالى يا تاتيانا ايفانوفنا ، فليس ينفعنا في شيء أن نصغي اليهم • ان هؤلاء الناس

أعداؤك ! لا تخشى شيئا ! تعالى الى جانبى • سأردهم فورا ! •••

صرخت تاتيانا ايفانوفنا تقول وهى ترتعش ارتعاشا شديدا :

ـ لا أريد ، لا أريد ••• ليس هذا بزوج ! لا أريد ابنك ! ما هو بزوج !

فأعولت آنتوز بتروفنا تقول بصوت حاد ، وهى تلهث من شدة الحنق :

ـ لا تريدين ابنى ؟ لا تريدين ابنى ؟ أتجيئين الى هنا ثم تقولين الآن انك لا تريدينه ؟ أسمحت لنفسك اذن بأن تخدعينا ؟ أتعدينه بالزواج وتهربين معه ليلا وترتمين على عنقه ، دون أن تفكرى فيما سنلقى من متاعب ، وما سنبذل من نفقات ؟ لقد يخسر ابنى بسببك مبلغا ضخما ، عشرات الألوف من الروبلات ! فلا بد أن تدفعى أولا ، لا بد أن تدفعى ، ان لدينا براهين واثباتات ••• لقد هربت مع ابنى ليلا •••

غير أننا لم نسمع هذا الكلام الطويل الى آخره ، وانما اندفعنا نتجمع دفعة واحدة حول عمى وسرنا قدما لا نعبأ بآنتوز بتروفنا ، واجتزنا عتبة الباب ، وما لبثت العربة أن تقدمت نحونا •

أخذت آنتوز بتروفنا تصرخ صراخا قويا وهى واقفة على درج المدخل ، قائلة :

ـ لا يفعل هذا الا رجال لا ضمير لهم ، لا يفعل هذا الا رجال جبناء • سوف أرفع شكوى ••• وستدفعون ••• لا تذهبى معهم الى ذلك المنزل الدنىء يا تاتيانا ايفانوفنا ! انك لا تستطيعين أن تتزوجى ياجور ايلتش ما دامت له بتلك المعلمة علاقات ترينها بأم عينك !

ارتجف عمى وامتقع لونه وعض على شفتيه وأسرع يركب تاتيانا

ايفانوفنا العربة • وكنت قد انتقلت الى الجهة الأخرى لأركب العربة أنا أيضا ، حين انبجس أوبنوسكين بالقرب مني وقد بدا في وجهه كرب شديد •

قال لي وهو يمسك يدي ويصافحني بقوة :

ـ اسمح لي بأن أسعى الى صداقتك على الأقل •

قلت له وأنا أصعد درجة العربة :

ـ أية صداقة ؟

قال :

ـ صداقتك • لقد رأيت فيك مساء أمس رجلا عالي الثقافة •• فلا تحكم عليّ حكما سيئا ••• ان أمي هي التي حرضتني ••• أنا بريء من هذه القضية كلها • أنا أشد ميلا الى الأدب ••• الذنب ذنب أمي ، فهي التي فعلت كل شيء •

قلت له :

ـ أصدقك • وداعا !

اتخذ الجميع أماكنهم في العربة ، فانطلقت الخيل تجري مسرعة • ولاحقتنا صرخات آنتوز بتروفنا وشتائمها مدة طويلة • وتزينت نوافذ البيت كلها بوجوه مجهولة على حين فجأة ، وجوه مجهولة أخذت تشخص الينا بأبصارها مستطلعة متعجبة !

نحن الآن في العربة خمسة أشخاص • صعد ميزنتشيكوف الى المقعد المجاور لمقعد الحوذي ، تاركا مكانه للسيد باختشايف الذي أصبح الآن قبالة تاتيانا ايفانوفنا • ان تاتيانا ايفانوفنا سعيدة برجوعها ، ولكنها لم تنقطع مع ذلك عن البكاء • وكان عمي يبذل قصاراه في سبيل أن يواسيها ويسري

عنها • وكان يبدو حزينا مفكرا : واضح أن الكلمات الدنيئة التى قالتها آنتوز بتروفنا عن ناستيا قد أثرت فيه وأيقظت عذابا فى نفسه • ومع ذلك كان يمكن أن تنتهى رحلة عودتنا بلا حوادث لولا ان السيد باختشايف كان معنا •

كان السيد باختشايف جالسا قبالة تاتيانا ايفانوفنا فى العربة ، وكان واضحا أنه متضايق غير مرتاح • واذ كان لا يستطيع أن يصطنع هيئة من لا يبالى ولا يكترث ، فقد كان يضطرب فى مكانه وقد احمر وجهه احمرارا شديدا ، وكان يجيل على ما حوله نظرات مروعة • فلما سمع هذا الرجل السمين ما يقوله عمى فى تهدئة تاتيانا ايفانوفنا خرج عن طوره ، وأخذ يهمهم همهمة كلب ضخم من كلاب الحراسة حين يتأكد • ولم تلبث تاتيانا ايفانوفنا أن لاحظت هذه الحالة النفسية العجيبة التى يعانيها جارها ، فأخذت تحدق اليه وتتفرس فيه ، ثم نظرت الينا جميعا وهى تبتسم ، وما لبثت أن تناولت شمسيتها على حين فجأة وضربت بها السيد باختشايف على كتفه ضربة خفيفة ، وقالت فى مرح شديد ولهجة فاتنة :

ـ وهذا خرف مسكين آخر !

ثم أخفت وجهها وراء مروحتها •

كانت تلك هى القطرة التى أطفحت الكيل •

قال الرجل السمين :

ـ ماذا ؟ ماذا تقولين يا مدام ؟ أأنا الذى أصبحت بمثابة دمية لك الآن ؟

ـ مسكين هذا الرجل الخرف ! مسكين هذا الرجل الخرف !

كذلك رددت تاتيانا ايفانوفنا وهى تنفجر مقهقهة وتصفق بيديها •

صرخ السيد باختشايف يقول للحوذى :

ـ قف ! قف !

فوقفت العربة ، ففتح باختشايف الباب ، وأسرع ينزل •

هتف عمي يقول مدهوشا :

ـ ماذا دهاك يا ستيبان ألكسيفتش ؟ الى أين أنت ذاهب ؟

فأجابه الرجل السمين وهو يرتجف حنقا :

ـ لا ••• كفى كفى ! شيطان يأخذكم ! أنا يا مدام شيخ لا أصلح للعبـــة الحب ••• فلا داعى الى التمهيـد ••• وداعا يا مدام •• كيف صحتك الآن ؟

قال ذلك وانصرف ماشيا • وسارت العربة وراءه • ونفد صبر عمى أخيرا فصرخ يقول له :

ـ كفى يا ستيبان ألكسيفتش ! كفاك حماقة ! اركب ••• لقد آن لنا أن نعود !

ـ امضوا وحدكم •

كذلك قال ستيبان ألكسيفتش لاهثا من المشى بعد أن فقد عادة المشى منذ سمن •

صرخ ميزنتشيكوف يقول للحوذى :

ـ هيا ، اسرع !

ـ ماذا تقول ؟ قف ••• قف •••

كذلك أراد عمي أن يقول ، ولكن العربة كانت قد انطلقت • ولم يخطىء ميزنتشيكوف • فها هو ذا يجنى الثمرة التى قدر أنه سيجنيها فقد صاح وراءنا صوت يائس يقول :

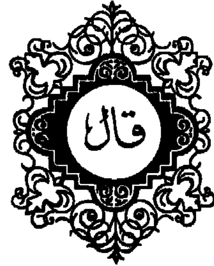
ـ قف ! قف ! قف أيها اللص! قف أيها الوغد ! قف! أيها اللص! قف أيها الوغد !

وظهر الرجل السمين وقد أخذ منه التعب كل مأخذ ، فأنفاسه لاهثة ، وجبينه تغطيه قطرات كبيرة من العرق ، وربطة عنقه محلولة ، وقبعته في يده • ركب العربة مقطبا عابسا متجهم الوجه دون أن ينطق بكلمة • وأسرعت في هذه المرة أخلي له مكاني • فبذلك لا يكون قبالة تاتيانا ايفانوفنا التي لم تكف طوال هذا المشهد عن الضحك وصفق يديها، ولا استطاعت طوال بقية الرحلة أن تنظر الى ستيبان ألكسيفتش نظرة هادئة • ولم يفتح هو فمه بكلمة واحدة ، وظل معلقا بصره بالعجله الخلفية الى أن وصلنا الدار •

كان الوقت ظهرا حين وصلنا الى ستيبانشيكوفو • مضيت رأسا الى جناحي ، فما لبثت هنالك لحظة حتى ظهر جافريلا حاملا الى الشاي• وكنت على وشك ان ألقي عليه بعض الأسئلة حين دخل عمي وراءه فصرفه •

٢

هناك جديد



قال عمي بسرعة :

ـ ما جئت يا صديقي الا لدقيقة واحدة • لقد حصلت على معلوماتي• لم يذهب أحد الى الصلاة في هذا الصباح الا اليوشا وساشا وناستيا • قيل لي ان أمي أصيبت بنوبة عصبية • فأخذوا يدلكونها لتدفئتها ولم يستطيعوا أن ينعشوها الا بكثير من العناء • وهم ينتظرونني الآن عند فوما • فقد قرروا أن يجتمعوا هناك • ولكني لا أعرف حتى الآن هل يجب على أن أقدم تهنئاتي وأمنياتي لفوما ؟ تلك هي النقطة الهامة ! الخلاصة أنني أتساءل الآن كيف نظروا الى هذه القضية • ان ما أتنبأ به لرهيب يا عزيزي سرجي •••

أسرعت أقول محتجا :

ـ بالعكس يا عمي • ان كل شيء يسوى الآن على خير وجه • لم يبق مجالا لاجبارك على الزواج بتاتيانا ايفانوفنا • هذا وحده يساوي وزنه ذهبا • لقد أردت أن أقول لك ذلك منذ كنا في العربة •

ـ صحيح يا صاحبي صحيح • ولكن المسألة ليست هذه • لا شك أن عناية الله قد تدخلت في هذا كله كما تقول • ولكن ليس هذا ما أفكر

فيه . مسكينة تاتيانا ايفانوفنا ! ما أسخف ما يقع لهذه الفتاة المسكينة من مشكلات ! وما أحقر هذا الأوبنوسكين ! على أننى أتساءل لماذا أعـــده حقيرا ! ألم أكن أنوى أنا أن أتزوجها ؟ ... ولكن المسألة ليست هــذه .. هل سمعت ما صاحت به آنتوز بتروفنا فى حق ناستيا ؟

ـ سمعت يا عمى ؟ فهل أدركت أخيرا أن عليك أن تسرع ؟

ـ فورا ، مهما يكلف الأمر . لقد حان حين اللحظة الحاسمة ! غير أن هناك أمرا لم نعالجه فى مساء الأمس يا صاحبى ، وقد حرمنى من اغماض جفنى طول الليل : هل تريدنى هى ؟ هه ؟ ما رأيك ؟

ـ ما هذا الكلام يا عمى ؟ لقد قالت هى نفسها انها تحبك ...

ـ ولكن ماذا قالت فى الوقت نفسه يا عزيزى ؟ لقد قالت : « لن أتزوجك بحال من الأحوال »

ـ هذا كلام يا عمى ! ثم ان أمورا كثـيرة قد تغيرت من أمس الى اليوم ...

ـ أتظن ذلك ؟ ان الموقف حرج يا عزيزى سرجى ، حرج ، حرج جدا ... هـِمْ ... هل تعلم أننى لبثت طول الليل ، رغم قلقى وعذابى، موجع القلب من فرط السعادة ؟ ... هيا ... الى اللقاء ! ... يجب أن أذهب الى هناك . انهم ينتظروننى ، وقد تأخرت .

ثم صاح وهو يعود أدراجه :

ـ ها ... لقد نسيت الأمر الأساسى ! ... لم أذكر لك ما كتبته له ، لفوما !

ـ متى ؟

ـ الليلة ! وفي هذا الصباح ، عند مطلع الفجر ، بعث اليه الرسالة مع فيدوبلياســـوف • لقد حكيت له كل شيء يا عزيزى ، على ورقتين ، حكيت له كل شيء ، بصراحة ، بصدق • قلت له ان واجبى يملى علىّ ، نعم ان واجبى يملى علىّ ، هل تفهم ؟ أن أخطب ناستيا • وتوسلت اليه ان لا يذكر شيئا عن لقائى بها في الحديقة ، وخاطبته كما يخاطب انسان هو أنبل من يســتطيع أن يعيننى على أمى • صحيح أننى كتبت هـــذا كله بلغة رديئة يا صاحبى ، ولـكننى كتبته بقلبى ، حتى لقـــد بللت الورق بدموعى ان جاز هذا التعبير •••

ـ وبعد ؟ ألم يصلك أى رد ؟

ـ لم يصلنى أى رد حتى الآن • ولكن ، في هذا الصباح ، حـين كنا على وشك السفر ، قابلته في حجرة المدخل ••• كان ما يزال في لباس الليل ، منتعلا خفى المنزل ، ومعتمرا بطاقية ـ انه ينام بطاقيـة من قطن • كان ذاهبا الى مكان ما ••• لم يقل كلمة واحدة ، كأنه لم يرنى • لقد حدقت اليه ، نظرت في وجهه ، تفرست فيه ••• أما هو ، فلا شيء ، لا شيء •••

ـ لا تعتمد عليه يا عمى ! لسوف يدبر لك « مقلبا » جديدا •

صرخ عمى يقول وهو يحرك يده باشارة احتجاج .

ـ لا لا يا عزيزى • لا تقل هذا الكلام ! أنا واثق • وهـــذا آخر أمل لى أيضا • سوف يفهم • سوف يدرك • هو يحب الدندنة والتقريع ، وهو يميل الى النزوات والبدوات ، لا أقول خلاف ذلك ، ولكن المسألة الآن مسألة شرف محض ، فلسوف تراه يسطع كما تسطع ماسة ••• نعم كما تسطع ماسة • وانما أنت تقول هذا الكلام يا عزيزى سرجى لأنك لم تره حتى الآن في نبـل نفســه ••• ولكن ما عسى يحـــدث ، يا رب ،

اذا هو فشا سر الأمس ؟! ••• لن أكون مسئولا عندئذ عما قد يقع يا سرجى ! فيمن يمكن أن يثق المرء على وجه هذه الأرض بعد ذلك ؟ ولكن لا ••• ليس فى وسعه أن يمضى فى الدناءة الى هذا المدى ••• انه انسان نبيل ! أنا الذى لا أرقى الى مستوى نعله ! لا تهز رأسك يا صديقى ! اننى أقول الحق : لست أرقى الى مستوى نعله !

هتف صوت حاد من أسفل ينادى (هو صوت بيربليتسين الكريه ، ولا شك أنها قد أصاخت بسمعها من النافذة المفتوحة الى حديثنا كله) :

ـ يا جور ايلتش ! أمك قلقة ! بحثنا عنك فى المنزل فلم نجدك !

قال عمى مضطربا :

ـ رباه ! لقد تأخرت ! يا للشقاء ! ارتد ثيابك يا صديقى العزيز ، لتلحق بنا وتنضم الينا ، ناشدتك الله ••• لقد جئت أيضا لاطلب منك أن تصحبنى ••• آنا آت حالا • يا آنا نيلوفنا ، أنا آت حالا ، حالا •

ومضى عمى راكضا • فلما لبثت وحدى ، تذكرت لقائى مع ناستيا فى الصباح ، وغبطت نفسى على أننى لم أتحدث عنه الى عمى ، فلو قد فعلت لفاقمت قلقه • كنت أتوقع هبوب عاصفة قوية ، دون أن أستطيع أن أتصور بأية طريقة سيتوصل عمى الى خطبة ناستيا • أعود فأقول : اننى رغم ايمانى باستقامة عمى ، كنت لا أستطيع أن أمنع نفسى من الشك فى نجاحه •

وكان علىّ أن أسرع مع ذلك• كنت أرى أن من واجبى أن أساعد عمى ، فسرعان ما شرعت أعتنى بهندامى • غير اننى أضعت وقتا ثمينا ، كما يحدث دائما حين يسرف المرء فى الاسراع ويحرص مع ذلك على أن لا يغفل من أمر زينته شيئا • وهذا هو ميزنتشيكوف يدخل علىّ فجأة • قال :

ـ جئت أبحث عنك • ان عمك يرجوك أن تأتي فورا •

ـ هيا بنا !

كنت قد فرغت من هندامي ، فمضينا •

سألته في الطريق :

ـ هل هناك جديد ؟

فأجاب ميزنتشيكوف :

ـ الجميع عند فوما • ولا يبدو أن فوما يريد أن يقول شيئا كثيرا ، على خلاف المالوف فيه من نزوات • انه غارق في تأملاته ، مكتف بتحريك شفتيه • حتى لقد قبل اليوشا ، فسُرّ ياجور ايلتش من ذلك سرورا عظيما • وفي هذا الصباح ، أرسل بيربلستين تأمر بأن لا يُهنَّأ بالعيد ، وذكر أنه لم يطلب ذلك الا ليرى ما عساهم صانعين •• والعجوزة لا تنقطع عن شم قارورة أملاحها ••• ولكنها قد هدأت منذ بدا فوما هادئا • وما من أحد يقول كلمة واحدة عن قصتنا ، فكأن شيئا لم يقع • انهم صامتون ، لأن فوما صامت • لم يشأ أن يستقبل أحدا طوال الصباح • وفي أثناء غيابنا أرسلت العجوزة من يتوسل اليه ، باسم جميع القديسين ، أن يجيء اليها ليتفاهما ، ثم جاءت بنفسها تطرق بابه ، ولكنه ظل حابسا نفسه ، وأجاب بأنه يصلي في سبيل الانسانية ، أو بكذبة أخرى من هذا القبيل • انه يطبخ شيئا ، انه يدبر أمرا ، ذلك يرى في هيئته • ولكن ياجور ايلتش لا يعرف كيف يقرأ في الوجوه ، لذلك تراه مفتونا بلطافة فوما • ألا ان ياجور ايلتش لطفل حقا ! سينشد اليوشا أشعارا ، ومن أجل هذا انما أوفدوني اليك لآتي بك •

ـ وتاتيانا ايفانوفنا ؟

ـ مالها ، تاتيانا ايفانوفنا ؟

ـ أهي هنالك أيضا ؟ معهم ؟

ـ بل هي في غرفتها •

كذلك أجاب ميزنتشيكوف بخشونة • وأضاف :

ـ انها ترتاح ، وتبكي • ولعلها تشعر بشيء من الخزي أيضا • وأظن أن تلك ••• المعلمة قد بقيت الى جانبها • ما هذا ؟ كأن عاصفة توشك أن تهب • أنظر الى السماء كيف اكفهرت !

قلت وأنا أنظر الى كتل الغيوم التي تسد الأفق :

ـ فعلا •

وفي تلك اللحظة وصلنا الى السطحة •

تابعت أقول وأنا لا أستطيع منع نفسي عن مساءلة ميزنتشيكوف في هذا الموضوع :

ـ قل لي : ما رأيك في أوبنوسكين ؟

فصاح ميزنتشيكوف قائلا :

ـ لا تكلمني عنه ! لا تذكرني بهذا الحيوان !

وتوقف فجأة ، واحمر وجهه ، وقرع الأرض بقدمه • ثم أضاف :

ـ يا له من أبله ! كيف يفسد قضية حلوة كهذه القضية ، كيف يفسد فكرة مضيئة كهذه الفكرة ؟ اسمع : كان ينبغي لي أن أراقبه ، وأنا أكبر حمار لأنني أتحت له أن يتلاعب هذا التلاعب • أعترف لك بأنني أكبر حمار على الأرض ! لعلك لا تتوقع مني هذا الاعتراف الصريح ! ومع ذلك أحلف لك أنني كنت سأغفر له لو عرف كيف يقود القارب الى شاطيء السلامة كما يجب! يا له من غبي أبله! كيف يُستقبل أمثال هؤلاء الناس في المجتمع الراقي ؟ كيف يمكن أن يحتمل أمثال هؤلاء الناس في

المجتمع الراقى ؟ ألا انه ليجب ابعادهم الى سيبيريا ، يجب نفيهم ، يجب الحكم عليهم بالأشغال الشاقة ! ولكنهم لن يكسبوا المعركة ! لقد حصّلت خبرة ، وأنا الآن بسبيل وضع خطة جديدة ••• ان من الاسراف فى الغباء أن تهجر فكرة لمجرد أن غبيا عابرا سرقها منك ! ذلك سخف ••• ان تاتيانا ايفانوفنا هذه فى حاجة الى زوج آخر الأمر ، انها مهيأة لهـــذا • ولئن لم تحتجز حتى الآن مع المجانين ، فما ذلك الا لتستطيع أن تتزوج • سأشرح لك مشروعى الجديد •••

قلت أقاطعه :

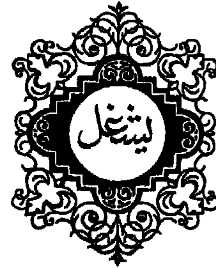
ـ نعم ، فيما بعد ••• ها قد وصلنا !

أجاب ميزنتشيكوف يقول وقد صعر فمه بابتسامة :

ـ طيب طيب ، فيما بعـــد ••• أما الآن ••• ولكن الى أين أنت ذاهب ؟ قلت لك انهم عند فوما فومتش ! ألا تعرف أين يقيم فوما فومتش؟ انتظر ••• لسوف ترى هنالك تمثيلية هزلية أخرى •• أو هذا ما يبدو •

٣

عيد اليوشا



فوما غرفتين واسعتين جميلتين ، أثاثاهما خير من أثاث سائر غرف المنزل . ان هذا الرجل العظيم محاط بأكبر ترف وأعظم رخاء . ان فُرُش الجدران الوضاءة ، وستائر النوافذ الحريرية ذات الألوان الزاهية ، وسجادات الأرض، والمرايا ، والمدفأة ، والأثاث الأنيق الوثير ، ان كل شيء يشهد بالاهتمام الكبير والعناية الشديدة التي يحيط بها أرباب المنزل فوما فومتش. وهذه آنية الأزهار ترتاح على النوافذ وعلى أعمدة المرمر قائمةً عند الفرج من الحيطان . وفى وسط غرفة المكتب ، تمتد منضدة كبيرة مغطاة بجوخ أحمر ، مثقلة بالكتب والمخطوطات . وتلك محبرة ضخمة من البرونز مع عدد كبير الاقلام تبدو كأنها قد وضعت فى مكان ظاهر عمدا حتى تعطى فكرة سامية عن الأعمال العظيمة التى يقوم بها فوما فومتش ، وذلك كله معهود به الى عناية فيدوبلياسوف . يجب أن أذكر هنا أن فوما ، خلال السنين الثمانى التى قضاها فى منزل عمى ، لم يكتب شيئا ذا بال . لقد دققنا فى أوراقه التى تركها حين انتقل الى العالم الآخر ، فرأينا أنها جميعها لا قيمة لها . لقد وجدنا ، على سبيل المثال ، بداية رواية تاريخية تتم أحداثها فى القرن السابع بمدينة نوفجورود ؛ ووجدنا قصيدة من شعر مرسل عنوانها : « ناسك المقبرة » وهى تنتمى الى

الشعر « المظلم » ؟ ووجدنا كلاما على الطبيعة وعلى مزايا فلاحينا وعلى الطريقة الواجب اتباعها في معاملتهم ؟ ووجدنا آخر الأمر قصة لم تكمل، عنوانها : « الكونتيسة فلونسكي » ، وهي تصف حياة المجتمع الراقي . ذلك كل ما وجدناه . ورغم هذا كان فوما فومتش يجبر عمي على أن ينفق في كل عام مبالغ ضخمة لطلب كتب ومجلات . وقد اتفق لي غير مرة بعد ذلك أن أفاجىء فوما فومتش وهو يقرأ رواية من روايات بول دوكوك ، فما ان يرني حتى يخفي الرواية . وفي جدار آخر غرفة المكتب باب من زجاج يؤدي الى فناء المنزل .

كانوا ينتظروننا . ان فوما فومتش جالس على مقعد مريح كأنه العرش . وهو يرتدي ردنجوتا متدليا حتى الكعبين ، ولكنه ما يزال بغير رباط للعنق . وحقا كان يبدو ممسكا عن الكلام صامتا لا يريد أن ينطق. فلما دخلنا رفع حاجبيه قليلا وألقى عليّ نظرة متفرسة .

انحنيت ، فأجابني بانحناءة ، ولكنها انحناءة يسيرة جدا هي الانحناءة التي لا بد منها لمن أراد أن يكون على شيء من الادب . فلما رأت جدتي أن فوما فومتش لم يسيء استقبالي حيتني بحركة من رأسها مع ابتسامة . ان العجوز المسكينة لم تتوقع طوال فترة الصباح أن ترى أثيرها يستقبل هرب تاتيانا ايفانوفنا بمثل هذا الهدوء . لذلك كانت مبتهجة أشد الابتهاج رغم ما عانته في الصباح من نوبات عصبية وما أصيبت به من اغماءات . وكانت بيربلتسين واقفة وراء كرسي الجدة على عادتها ، وقد زمت شفتيها زماً شديدا حتى لكأنهما خيط ، وكانت تصطنع ابتسامة مرة وهي تفرك يديها المعروقتين احديهما بالأخرى . والى جانب الجنرالة كان هناك امرأتان من محمياتها ، عجوزان تنتسبان الى محتد نبيل ، صامتتان لاتتكلمان قط . وكان هناك أيضا راهبة متجولة قد وصلت في الصباح بعد الصلاة تبارك للسيدة الجنرالة بالعيد وتعرب لها عن تحياتها وأمنياتها . وكانت

عمتي براسكوفي ايلتشا مختبئة في ركن من الأركان تنظر الى فوما فومتش والى أمها قلقة • وكان عمي يشغل أحد المقاعد على فرح شديد يسطع في عينيه ؛ وأمامه يقف اليوشا مجعَّد الشعر ، جميلا جمالا فتاناً ، يرتدي لعيده قميصا أحمر • لقد علمته ساشا وناستيا ، خفية ، قصيدة من الشعر عليه أن يلقيها في الاحتفال فيبهج أباه ويظهره على ما حقق من تقدم • كان عمي يوشك أن يبكي حنانا • ان هذه الرقة التي يظهرها فوما على غير توقع ، وهذا الرضى البادي في وجه الجنرالة ، وهذا الاحتفال بعيد اليوشا ، وهذه الأبيات من الشعر التي سيلقيها ابنه ، ان هذا كله قد دفعه الى نشوة بلغت من القوة انه أرسل يستدعيني ، ذلك ان من الواجب أن أشارك أنا أيضا في هذه الفرحة الشاملة ، وأن أسمع أنا أيضا قصيدة الشعر • وكانت ساشا وناستيا قد دخلتا وراءنا تقريبا ، فمضتا تجلسان الى جانب اليوشا • كانت ساشا سعيدة كطفلة ، وكانت تضحك بغير انقطاع • وقد سرت عدوى هذا المرح الى ناستيا فأخذت تبتسم رغم شحوب لونها وحزن وجهها • انها الوحيدة التي ذهبت الى لقاء تاتيانا ايفانوفنا عند عودتها ثم لم تتركها بعد ذلك الى هذه الدقيقة • وكان اليوشا « الشيطان » لا يكاد يستطيع منع نفسه عن القهقهة وهو ينظر الى معلمتيه • ان المرء يحس أن هؤلاء الثلاثة قد أعدوا فصلاً هزليا يتوقعون له نجاحا كبيرا •

وكنت قد نسيت باختشايف تقريبا •

ومع ذلك كان باختشايف هناك ، منتحياً جانباً على كرسي • لم يكن قد انقضى غضبه ولا زال احمرار وجهه • انه صامت ، وما يزال مستاء ممتعضا ، وكان يتمخط ، فهو في هذا العيد العائلي يقوم بدور أقرب الى الجهامة والعبوس • وكان ياجفكين يسرع اليه ويحتفي به • على ان هذا

الرجل المسكين كان يعني بكل واحد من الحضور فهو يقبل يد الجنرالة ويقبل أيدي الزائرات ، ويهمس بكلام في أذني بيربلستين ، ويلاطف فوما فومتش ، ولا ينسى أحدا على وجه الاجمال • لقد كان هو أيضا يتوقع لقصيدة اليوشا أن تصيب نجاحاً • فلما دخلت هبَّ يحييني بانحناء كبير ليبرهن على ما يكنه لى من احترام وتقدير واخلاص • ما كان ليخطر ببال أحد قط أنه لم يجيء الا ليحمى ابنته وليأخذها من ستيبانشيكوفو الى الأبد •

ـ ها •• هذا هو !

كذلك صاح عمى فرحاً حين رآنى ، وأردف يقول :

ـ لقد أعد اليوشا أبياتا من الشعر ياصاحبى • ما أجملها مفاجأة ! هه ! اننى متأثر لهذه المفاجآة أشد التأثر ! لقد استدعيتك خصيصا لتسمع هذه الأبيات من الشعر •• تعال اجلس هنا ! سوف نصغى الآن • واعترف يا فوما فومتش ، اعترف يا صديقى العزيز ، أنك أنت من أوحى اليهم بهذه الفكرة الطيبة التى تسرنى كثيرا ! اننى مستعد أن أحلف على أنك أنت الذى أوحيت اليهم بهذه الفكرة الطيبة !

لئن كان عمى يتكلم فى غرفة فوما بمثل هذه اللهجة وبمثل هذا الصوت ، فلا شك فى أن هذا يدل على أن الأمور جميعها تجرى مجرى حسنا •• ولكن عمى كان لا يحسن القراءة فى الوجوه وا أسفاه ، كما سبق أن قال لى ذلك ميزنتشيكوف • كنت كلما نظرت الى فوما أحس بالرغم منى أننى مضطر الى التسليم بأن ميزنتشيكوف على حق ، وأن علينا أن نتوقع حدوث جرسة •

قال فوما بصوت خافت ، بصوت انسان يغفر لأعدائه :

ـ اطمئن بالاً من جهتى يا كولونيل • انه لأمر طبيعى أن أقدِّر

هذه المفاجأة ، فهي تدل على ما يملكه أولادك من عواطف طيبة وحكمة . والأشعار مفيدة أيضا ، لتحسين النطق على الأقل .. غير أن ما شغلنى فى هذا الصباح ليس هو الشعر يا ياجور ايلتش ، وانما كنت أبتهل الى الله كما تعلم .. ومع ذلك فأنا مستعد لأن أسمع القصيدة .

كنت فى أثناء ذلك أقبّل الصبى وأتمنى له عيدا سعيدا .

ـ صحيح يا فوما ، صحيح جدا .. أعذرنى .. لقد نسيت ! ولكننى أعتمد على صداقتك يا فوما . وأنت يا سرجى ، قبّله مرة أخرى ! انظروا الى هذا الصبى الكبير ما أجمله ! هيّا ابدأ يا اليوشا ! ما موضوع القصيدة ؟ لا بد أنها نشيد رائع من نظم لومدنوسوف ، هه ؟

قال عمى ذلك ، وانتصب واقفاً فى وقار كبير . لقد أصبح لا يطيق السكون فى مكانه من شدة نفاد صبره ، ومن قوة فرحه .

قالت ساشا وهى توشك أن ينفجر ضاحكا :

ـ لا يا أبى . ليست القصيدة من نظم لومونوسوف . فلأنك كنت عسكرياً ولأنك قاتلت الأعداء ، فقد حفظ اليوشا أبياتاً من الشعر عسكرية ... ان عنوان القصيدة هو : « حصار بامبا » * يا أبت !

ـ حصار بامبا ؟ اننى لا أتذكر ... ماذا فعلوا فى بامبا ؟ هل تعلم أنت يا سرجى ؟ لا شك انهم فعلوا أشياء بطولية ، هه ؟

قال عمى ذلك وانتصب واقفاً من جديد . وقالت ساشا آمرة :

ـ ابدأ يا اليوشا .

بدأ الصبى يقول بصوت واضح ، لا هو بالعالى ولا هو بالخافت ؛ بدأ يقول متدفقاً بغير توقف ، على عادة الأطفال حين ينشدون أبياتاً من الشعر حفظوها على ظهر القلب :

تسع سنين مرت كسلى
مذ حاصر جوميز بدرو القصر
مذ القسم الا يطعم الا لبنا ..
وتنادى حتى النصر
وتنادى الفرسان فجاؤوا رجلا .. رجلا
وهُمْ تسعة آلاف من كاستيللا
قالوا وجموعهم تتكسر عند الباب الصخر
لا خبز ، ولا حلوى
بل لبنا نشرب .. حتى النصر !

ـ يشربون ماذا ؟ يشربون ماذا ؟ ما شأن اللبن هنا ؟

كذلك صاح عمى وهو ينظر الىّ وقد استبدت به دهشة شديدة .

ولكن ساشا شجعت أخاها على الاستمرار قائلة :

ـ تابع يا اليوشا .

فى كل صباح
يستيقظ دون بدرو ارقا
يبكى ، ويداه فى الوجه الناضح عرقا
فلقد مرت تسع سنين
متباطئة كسلى
ومغاربة القصر الشامخ مازالوا منتصرين
بينا يسقط فى الموت رجالك يا دون بدرو غرقى !
حتى صاروا تسعة عشر !

صرخ عمى يقول قلقاً :

ـ ولكن هذا خلط ! اسمعوا اسمعوا ! لم يبق الا تسعة عشر رجلا من جيش بكامله كان جيشاً ضخماً ! ما هذا الكلام يا صاحبى ؟

لم تستطع ساشا أن تحبس نفسها عن الضحك فانطلقت تقهقه كما يقهقه طفل • والقصيدة ليس فيها ما يضحك كثيراً حتى الآن • ولـكن المرء لا يملك أن يرى ضحك الصبية دون أن يشاركها فيه •

قالت ساشا تشرح مبتهجة أشد الابتهاج باكتشافتها الطفولية :

ـ هي قصيدة هزلية يا أبت ! لقد جعلها الشاعر هكذا عامداً يا أبت !

فقال عمي وقد أشرق وجهه :

ـ آ ••• قصيدة هزلية ! الآن فهمت ! قلت لنفسي لا بد أن تكون القصيدة هزلية ، نعم هزلية •• صحيح •• ألا انها لمضحكة حقاً ، مضحكة جدا • جيش بكامله يموت لأنه آلى على نفسه أن يتخذ طعامه من اللبن وحده ! ما كانت حاجتهم الى هذا التندر ! يا للخبث ! ما رأيك يا فوما ؟ هل رأيت يا أمي الى هـؤلاء السادة الشـــعراء ماذا ينظمــون ؟ ما قولك يا سرجي ؟ شعر مضحك جداً ! طيب ، هيًّا يا اليوشا ، كمِّل •

لما صاروا تسعة عشر
وقف خطيبا فيهم دون بدرو وارتجلا :
« دقوا الطبلا
واعدوا الخيلا
ولننشر راية كاستيللا
ولنتزك هذا القصر الملعون
انا ان كنا لم ننتزع النصر
فلنا ان نقسم واليد فوق الصدر
أنا لم نخن العهدا
ابدا •• أبدا

فلقد مرت تسع سنين ماذقنا الا اللبنا
وبهذا اللبن أقمنا الأودا » !

قال عمي مقاطعاً :

ـ يا للأبله ! ما أسهل ما يعزي نفسه ! هه ! خـــلال تسع سـنين لا يشربون الا اللبن ! يا له من محسن عظيم ! لقد كان الأولى به أن يأكل خروفاً برمته بدلا من أن يميت رجاله جوعاً ! طيب •• طيب •• رائع ! لقد أدركت الآن ! هذه قصيدة هجاء ! ألا يسمون هذا النوع من الشعر هجاء ؟ أم تراهم يسمونه رمزاً ؟ لعل الشاعر يصف هنا جنرالا أجنبيـا (كذلك أضاف عمي ملتفتاً نحوي ، رافعاً حاجبيه ، غامزاً بعينيه) • هه ؟ ما قولك ؟ ولكن هذا الهجاء لا يؤذي أحداً ، لا يسيء الى أحد • طيب • طيب • جميل جداً ، رائع جداً • هيَّا يا اليوشا ! كمِّل ! آه منكم أيها الصغار ؟ (هكذا هتف عمي متجهاً نحو ساشا ، مختلساً نظرة الى ناستيا التي احمرت وابتسمت) •

طرب الكاستيليون التسعة عشر لهذا الحل
صاحوا كالمسعورين
وظهورهمْ تترنح فوق الخيل
« سانتوياجو ! كومبو ستيللو !
المجد المجد لدون بدرو !
أسد مدينتنا الصامد »
لكن الكنسي « رييجو » دمدم من وسط الجند :
ـ لو أني كنت انا القائد
لو أني قائد هذا الجيش التعس لهذا الحد
لدفعت الى فمه تللا من لحم
وصببت به بئرا من خمر
نخب النصر !

صاح عمى يقول وقد استخفه الطرب وغمره الفرح :

ـ ها •• وصلنا •• ان الذكى الوحيد فى هذا الجيش كله انما هو الكنسىُّ ! نعم الكنسى ! قل لى يا سرجى ، ما رتبة الكنسى ؟ أهو نقيب ؟

ـ بل هو راهب يا عمى ، هو رجل من رجال الكنيسة •

ـ ها •• طيب ، طيب • الآن فهمت : كنيسة ، كنسى • تذكرت • لقد رأيت هذه الكلمة فى رواية من تاليف آنا رادكليف*• وهناك أنواع من الرهبان ، أليس كذلك ؟ هناك البندكتيون مثلاً ••• ألا توجد جماعة من الرهبان باسم البندكتيين اذا لم يخطىء ظنى ؟

ـ بلى يا عمى •

ـ هِمْ •• ذلك ما قدَّرته • هيَّا يا اليوشا ! أكمل ! جيد جدا ، عظيم ، رائع !

وتأمل دون بدرو قول دييجو
وابتسم محياه
آه ! آه ! آه !
وانطلق يصيح بصوت فخم
مازلت ظريفا يا دييجو ! مازلت ظريفا !
هيا •• أعطوه خروفا !

ـ لقد أحسن اختيار اللحظة التى يضحك فيها ! يا للغبى ! لعله أحس بسخفه أخيراً ! خروف ؟ اذن كان عنده خراف ؟ فلماذا لم يأكل منها ؟ هيَّا يا اليوشا ، أكمل ! جيد جدا • نكتة لاذعة ••• نكتة فكهة جداً •

ـ انتهت القصيدة يا أبى !

ـ آ .. انتهت ! نعم لا بد أن تكون قد انتهت ! لم يبق ثمة ما يمكن أن يضاف . أليس كذلك يا سرجى ؟ عظيم يا اليوشا ! جيد جدا ! آه يا عزيزى ! ولكن من ذا الذى خطرت بباله هذه الفكرة ؟ أأنت يا ساشا ؟

ـ بل ناستيا ! لقد قرأنا هذه القصيدة منذ زمن ، فلما فرغنا من قراءتها قالت ناستيا : « انها مضحكة مسلية ! يجب أن يحفظها اليوشا على ظهر القلب لينشدها فى عيده . سوف يضحك منها الجميع ! » .

ـ آ .. هى اذن ناستيا ! شكراً يا ناستيا ، شكرا جزيلا !

كذلك دمدم عمى يقول وقد احمر وجهه فجأة كطفل .

ثم أضاف متجهاً الى اليوشا :

ـ قبلنى مرة أخرى يا اليوشا !

وضمّ ساشا بين ذراعيه وهو يتفرسها فى حنان وقال :

ـ وأنت أيضا يا ساشا !

ثم أردف يقول بصوت كأن الفرح يقطّعه :

ـ انتظرى يا ساشا ، فى قريب سيكون عيدك أنت .

اتجهت الى ناستيا أسألها عن ناظم هذه القصيدة . فأسرع عمى يسأل أيضا :

ـ فعلا ! من ناظم هذه القصيدة ؟ لا بد أنه شاعر كبير ، أليس كذلك يا فوما ؟

فدمدم فوما من بين أسنانه :

ـ هيم ...

وكانت بسمة ساخرة خبيثة لم تفارق شفتيه طوال مدة انشاد القصيدة .

أجابت ناستيا وهى تنظر الى فوما فومتش خجلة وجلة :

ـ لا أتذكر .

فقالت ساشا شارحة :

ـ القصيدة من نظم السيد كوزما بروتكوف* يا أبى . قرأناها فى مجلة « المعاصر » * .

قال عمى :

ـ كوزما بروتكوف ! لا أعرفه . أنا أعرف بوشكين مثلا . على كل حال ، واضح أنه شاعر موهوب ، ما رأيك يا سرجى ؟ وهو انسان يفيض عواطف نبيلة بوجه خاص .. ذلك واضح وضوح قولنا ان اثنين واثنين أربعة ! .. ولعله ضابط ! .. اننى أقدّره كثيرا ! ومجلة « المعاصر » مجلة ممتازة . يجب أن نواصل الاشتراك فيها ، لأن أمثال هؤلاء الشعراء المجيدين انما ينشرون قصائدهم فيها دائماً .. أنا أحب الشعراء ! أولئك أناس شجعان ! هل تتذكر يا سرجى ذلك الأديب الذى رأيته عندك فى بطرسبرج ؟ كان فى أنفه شىء خاص ، أليس كذلك ؟ ما قولك يا فوما ؟

كان يبدو على فوما أن صبره قد نفد ، فها هو ذا ينفجر فى قهقهة مجلجلة ، ويقول كمن لا يستطيع أن يحبس ضحكه :

ـ لا شيء ، لاشيء ! كمل يا ياجور ايلتش ! كمل ! سأقول كلمتي فيما بعد . ما يزال في الوقت متسع ! هذا ستيبان الكسيفتش يصغي مغتبطا الى ما تقصه عن علاقاتك برجال الأدب في بطرسبرج ...

وكان ستيبان ألكسيفتش ما يزال منتحيا جانبا ، كالح الوجه مكفهر الهيئة ، فرفع رأســه على حين فجأة ، واحمــر مزيدا من الاحمــرار ، واضطرب على كرسيه اضطرابا عصبيا ، وقال وهو يحدق الى فوما فومتش بعينيه الصغيرتين المحتقنتين دما :

ـدعني وشأني ، من فضـــلك ! ان أدبك لا يهمني في قليل ولا كثير ! أنا لا أسأل الله الا العافية (قال ذلك مدمدما) . ما جميع هـؤلاء الذين ينشئون الجمل ويدبجون العبارات الا مثل فولتير ، الا فولتيريون .

صاح ياجفكين متدخلا بعد السيد باختشايف رأسا :

ـ نعم ، فولتيريون ! قلت عين الصواب ياستيبان ألكسيفتش ، وهذا نفسه هو ما عبر عنه فالانتان اجناتتش منذ أيام . لقد وصفني أنا أيضـا بأنني فولتيري ، قبحه الله ، مع أن جميـع الناس يعلمون أنني لم أكتب أشياء كثيرة . أصبح النـــاس في بلادنا ، اذا اندلق حليب من الجرة في أرض المطبخ ، يقولون ان الذنب في ذلك ذنب فولتير . أما لهذه العادات من آخر ؟

قال عمي بلهجة وقورة :

ـ أنت مخطيء . ما كان فولتـير الا كاتبا ســـاخرا ، تهـكم على الخرافات . انه لم يكن فولتيريا في يوم من الأيام . ان أعداءه هم الذين روّجوا هذه الشائعة عنه . لماذا يحمل هذا المسكين تبعة كل شيء ؟ ...

وسمعت قهقهة فوما فومتش المسمومة من جديد • ألقى عليه عمى نظرة قلقة ، واضطرب اضطرابا واضحا • وقال يخاطب فوما حيران كل الحيرة ، محاولا أن يبرر نفسه من غير شك :

ـ أنا أتكلم عن المجلات يا فوما • لقد كنتَ على حق تماما حين قلت لى ان علينا أن نشترك فيها • أنا أيضا من رأيى هذا • هم ••• ذلك يساعد فى نشر الثقافة • ان المرء لا يكون ابنا بارا بوطنه اذا هو لم يشترك فى هذه المجلات ! ما قولك يا سرجى ؟ هم ••• نعم ••• انظروا فى مجلة « المعاصر » هل تعلم أن فى رأيى يا بنى سرجى أن أقوى المقالات العلمية تنشر فى المجلة ذات الغلاف الأصفر !

ـ هى « حوليات الوطن » * يا أبى !

ـ نعم ••• « حوليات الوطن » ! وهو اسم جميل يا سرجى ، ألا ترى ذلك ؟ لكأن الوطن كله قد آخذ يكتب ! ما أسماه من هدف ! ما أنفعها من مجلة ! وهى سميكة جدا ••• تبلغ من السمك أن نقلها يكاد يحتاج الى عربة ! وما أكثر ما تضمه من علم غزير ! ••• ان فيها من العلم ما يجعل عينيك تخرجان من رأسك ! وصلت منذ أيام ، فوجدت المجلة ، فتناولتها ، وفتحتها من باب حب الاطلاع ، فقرأت ثلاث صفحات• لقد فغر فمى من الدهشة ! هل تعلم أنها تضم بين دفتيها كل شىء ! فيها مثلا : ما معنى مكنسة ؟ ما معنى معزقة ؟ ما معنى غربال ؟ ما معنى مجرفة ؟ ان المكنسة فى نظرى أنا مكنسة ، والمجرفة فى نظرى أنا مجرفة ••• ولكن لا يا صديقى ! وانما هذه الأدوات شعارات ورموز ، هى أساطير ، أو شىء من هذا القبيل ! ••• فانظروا الى أين وصلنا الآن ! انظروا فيم يبحثون ، وماذا ينشدون !

لا أدرى ما الذى كان فوما فومتش يتهيـأ لأن يعمله بعد هـذه الأقوال التى صدرت عن عمى ، ولكن جافريلا ظهر فى تلك اللحظة عند عتبة الباب ، وتجمد واقفا خافض الرأس •

غمزه فوما فومتش غمزة ذات معنى • وسأله بصوت خفيض ولكنه جازم :

ـ أكل شىء مهيأ ؟

فأجاب جافريلا حزينا وهو يزفر زفرة عميقة :

ـ نعم يا سيدى !

ـ هل صرتى الصغيرة فى العربة ؟

ـ نعم يا سيدى !

بدأ فوما يقول بلهجة رضية :

ـ اسمح لى الآن يا كولونيل أن أرجوك أن تترك كلامك الشـائق المستفيض عن المجارف الأدبية ، أن تتركه الى حين قصـير ••• فانك تستطيع أن تستأنفه بعد انصرافى • ولكننى أريد قبل أن أودعك الوداع الأبدى أن أقول لك بضع كلمات •

صرخ عمى يقول :

ـ فوما ! فوما ! ماذا دهاك ؟ الى أين أنت ذاهب ؟

وتابع فوما كلامه يقول بصوته الهادىء :

ـ اننى على وشك أن أترك منزلك يا كولونيل • لقد قررت أن أمضى الى أقصى مكان ، ومن أجل ذلك انما استأجرت عربة على نفقتى ، عربة حقيرة من عربات الفلاحين • وصرتى موجودة فيها الآن • ما هى بالصرة الضخمة : كتبى المفضلة ، وقليل من ملابسى ، هـذا كل ما فى

الصرة ! أنا رجل فقير يا ياجور ايلتش ، ولكنني لن آخـــذ الآن ذهبك بحال من الأحوال ، لن آخذ الآن الذهب الذى رفضت أن آخذه أمس •

ـ فوما ! ناشدتك الله ، ما معنى هذا الكلام ؟

كذلك صاح عمى وقد اصفر وجهه اصفرارا شديدا •

وأطلقت الجنرالة صيحة تنم عن كرب شديد وحزن عظيم ويأس رهيب ، ونظرت الى فوما فومتش مادةً اليه ذراعيها• وارتمت بيربلستين الى أمام لتسندها • وتجمدت سيدات صحبتها فى أماكنهن لا يستطعن حراكا • ونهض السيد باختشايف من كرسيه ثقيلا بطيئا •

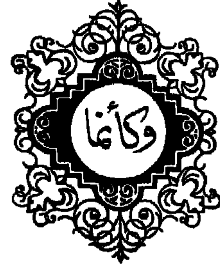
وهمس ميزنتشيكوف يقول لى :

ـ بدأت التمثيلية الهزلية •

وفى تلك اللحظة ، دوت همهمة رعد فى بعيد • ان العاصفة توشك أن تهب •

٤

الطـــرد



استطاب فوما هذا الاضطراب الشامل فقال بلهجة مفخمة :

ـ أحسب يا كولونيل أنك تسألنى مامعنى هذا ؟ فاعـلم اذن أن هـــذا السؤال كفيل بأن يدهشنى . ألا قل لى أنت كيف تجرؤ ، كيف تجرؤ أن تنظر الىّ وجها لوجه ! ألا اشرح لى هذه المسألة النفسية التى تتعلق بانسان فقد الحيـاء والخفر، فانصرفَ عندئذ مزودا على الأقل بمعرفة جديدة عن فساد النوع الانسانى وانحلاله وتفسخه .

ولكن عمى لم يكن فى حالة تسمح له أن يجيب . كان فاغر الفم من الدهشة ، ينظر الى فوما بعينين جاحظتين ، مصعوقاً مذعورا .

أنَّت الآنسة بيربلتسين تقول :

ـ يا رب ! يا للهول !

وتابع فوما كلامه :

ـ افهم يا كولونيل أن عليك أن تتركنى أنصرف ببساطة ، دون أن تلقى علىّ أسئلة . فحتى أنا ، أنا الرجل المسن الغارق فى التأمل، أصبحت

أخشى على طهارة أخلاقي أن تتدنس في منزلك • وثق أن أسئلتك لن تؤدي الا الى كشف سقوطك الفاضح !

صاح عمي يقول وقد تغطى جبينه بعرق بارد :

ـ فوما ! فوما !

وتابع فوما كلامه :

ـ لذلك استأذنك ، بلا شروح لا فائدة منها ولا خير فيها ، أن أقول لك قبل رحيلي بضع كلمات وداعية ، هي آخر ما سأنطق به في هـــذا المنزل يا ياجور ايلتش • ما وقع فقد وقع • ولا شيء يمكن أن يرجع الى وراء ! آمل أن تفهم ما ألمع اليه ! ولكنني أتوسل اليك راكعا ، اذا كان قد بقي في نفسك قبس من حسٍ أخلاقي ، أن تحاول السـيطرة على جنون أهوائك المستعرة • فاذا كان سمها الوبائي لما يهز كيانك كله فاجهد أن تطفيء الحريق الذي سيلتهم هذا الكيان بأسره !

صرخ عمي وقد أخذ يثوب الى نفسه شيئا فشيئا ويتنبأ بالخاتمة :

ـ فوما ، أؤكد لك أنك مخطيء •

فتابع فوما يقول بتلك اللهجة الفخمة نفسها ، دون أن يبدو عليه أنه سمع احتجاج عمي :

ـ اخنق أهواءك ! انتصر على نفسك ! « اذا أردت أن تنتصر على العالم فانتصر على نفسك » تلك هي القاعدة التي التزمتها خـــلال حياتي كلها ! أنت رجل من أصحاب الأملاك ؟ وعليك أن تسطع فوق أراضيك سطوع الماس ، فأي مثل سيء من أمثلة الفجور والعهر تضرب لمرءوسيك ! لقد دعوت لك ليالي بكاملها ، وتعذبت وتألمت ، وحاولت أن أخلق لك سعادة ، ولكنني أخفقت في الوصول الى ذلك ، لأن السعادة لا وجـود لها الا في الفضيلة •••

قال عمى مقاطعا مرة أخرى :

ـ ولكن هذا مستحيل يا فوما ! انك لم تفهم المسألة حق فهمها ، وما أحسب أن هذا هو ما تريد أن تقوله .

ولكن فوما تابع كلامه غير حافل بمقاطعة عمى :

ـ تذكر اذن أنك من أصحاب الأملاك . ولا تظن أن الكسل والملذات نصيب السادة ملاك الأراضى. تلك فكرة خاطئة مشئومة ! فليس لسيد من أصحاب الأملاك أن يستسلم للكسل ، وانما يجب عليه أن يهب نفسه للعمل ، وللعمل أمام الله والقيصر والوطن ! الجهد ، الجهد الدائب ، ذلك هو واجبه . ان عليه أن يتعب وينصب كأى فلاح من فلاحيه .

دمدم باختشايف يقول :

ـ ألا يكون علىّ اذن أن أجر المحراث بدلا من الفلاحين ؟ أنا أيضا سيد من أصحاب الأملاك ...

تابع فوما كلامه ملتفتا نحو جافريلا ، ثم نحو فالالى الذى ظهر على عتبه الباب :

ـ واليكم انما اتجه الآن بالكلام ، اليكم يا خدم المنزل . أحبوا سادتكم ، وأطيعوا ارادتهم بلطف وحماسة ؛ فبذلك انما تنالون محبتهم وعطفهم . وأنت ياكولونيل ، كن فى معاملتهم عادلا وشفوقا . فانهم هم أيضا بشر قد خلقوا على صورة الله ؛ هم أطفال ان صح التعبير عهد بهم اليك القيصر والوطن منذ نعومة أظفارهم . ألا انه لدين عظيم ، وعلى قدر هذا الدين ينبغى أن تكون واجباتك !

صرخت الجنرالة تقول وهى توشك أن تقع مغشيا عليها :

ـ فوما فومتش ، صديقى ! ماذا أنت فاعل ؟

وختم فوما فومتش كلامه دون أن ينتبه أي انتباه الى الجنرالة ، ختم كلامه قائلا :

ـ ولكنني أظن أن ما قلته في هذا كاف • فلننتقل الآن الى بعض التفاصيل • انني أعد هذه التفاصيل لا غنى عنها ، وان لم تكن ذات بال • يا ياجور ايلتش ، ان العلف لم يُحصد حتى الآن في مروج هارنسكوي: فاحصدوه بأقصى سرعة • تلك نصيحة أسديها اليك •

ـ فوما !

ـ ولقد كنت تريد أن تقطع أشجار جزء من غابة زريانوفو ، أنا أعلم ذلك • فحذار أن تفعل • تلك نصيحتي الثانية • دع الغابة سليمة ولا تمسسها بأذى ، لأنها تحفظ الرطوبة التي تفيد الأراضي •• ويؤسفني كذلك أن تكون قد تأخرت هذا التأخر كله في بذر قمح الربيع ••• انه لأمر يثير الدهشة والاستغراب أن تتأخر هذا التأخر •

ـ فوما !

ولكن حسبي هذا • لا يتسع وقتي لأن أقول كل شيء : وسأرسل اليك نصائحي الاخرى مسجلة في دفتر • والآن ، وداعا ، وداعا لـكم جميعا • أسأل الله أن يكلأكم بعنايته وأن يسبغ عليكم بركاته • وأنت يا بني (قال هذا مخاطبا اليوشا) أسأل الله أن يباركك وأن يحميك من السمّ الوبائي الذي ستنفثه فيك أهواؤك المسعورة في المستقبل ! وأسأل الله أن يباركك أنت أيضا يا فالالي، وعليك أن تنسى رقصة الكارامنسكايا ! أما أنتم ••• أنتم جميعا ••• فتذكروا فوما ولا تنسوه ••• هيا ياجافريلا، تعال ساعدني في ركوب العربة يا عزيزي •

واتجه فوما نحو الباب • فأطلقت الجنرالة صرخة ، وأسرعت في اثره •

وصاح عمي يقول له وقد أدركه وأمسك بذراعه :

ـ لا يافوما ، لن أدعك تتصرف هكذا !

فسأله فوما متعاليا متكبرا :

ـ أأنت تريد أن تستعمل القوة اذن ؟

ـ نعم يا فوما ، سأستعمل القوة اذا اقتضى الأمر • لقد قلت كلاما كثيرا فلا بد أن تشرح • لقد أسأت قراءة رسالتي يا فوما •

كذلك قال عمي وهو يرتجف غضبا • فزأر فوما يقول ، وكأنه لم يكن ينتظر الا هذه اللحظة لينفجر :

ـ رسالتك ! رسالتك ! اليك رسالتك ، اليك رسالتك ! انني أمزقها ، انني أبصق عليها ، انني أدوسها بقدمي • واذا دست عليها ، فأنا انما أقوم بواجبي المقدس كانسان ! فانظر ماذا أفعل برسالتك اذا أنت أجبرتني على الشرح بالقوة ! انظر ، انظر !

قال فوما ذلك ومزق الرسالة قطعا صغيرة وبعثرها في الغرفة •

صاح عمي وقد ازداد وجهه شحوبا :

ـ أعود فأقول انك لم تفهم يا فوما ! أنا أريد أن أتقدم بطلبي يا فوما ، أنا أنشد سعادتي •••

ـ تريد أن تتقدم بطلبك ؟ أنك قد أغويت هذه الفتاة ، فهل تظن أنك تستطيع أن تخدعني بالكلام على الزواج ؟ أرأيتك أمس مساءً في الحديقة تحت الأدغال أم لا ؟

أطلقت الجنرالة صرخة كبيرة وتهاوت على مقعدها مغشيا عليها • وتبعت ذلك جلبة رهيبة • وجمدت المسكينة ناستيا على كرسيها ساكنة

لا تستطيع حراكا . وذعرت ساشا فأحاطت أخاها الصغير بذراعيها وهي ترتجف كورقة في مهب الريح .

قال عمي حانقا :

ـ اسمع يا فوما ! اذا أنت كشفت عن هـذا السر ، فانك ترتكب جريمة هي أبشع الجرائم وأحقرها !

فصفر فوما يقول :

ـ سأكشف عن هذا السر ، وأنا اذ أفعل ذلك انما أقوم بعمل هو أنبل الأعمال وأشرفها . ان الله هو الذي عهد الي بهذا ، ان الله هو الذي أرسلني لاقناع العالم الخاطئ . أنا مستعد أن أصـعد الى سطح كوخ فأصيح معلنا لجميع فلاحيك ، ولجميع جيرانك ، ولجميع المارة العابرين ، عن سلوكك الشائن الذميم . نعم . ألا فاعلموا جميعـا أيها الناس ، اعلموا جميعا ، انني في مساء أمس ، ليلا ، قد فاجأته مع هذه الفتاة التي تبدو بريئة كل هذه البراءة ، فاجأته معها في الحديقة ، تحت الأدغال .

هتفت بيربلتسين تقول وهي تصعر وجهها :

ـ يا للفعل الكريه !

وصرخ عمي وهو يلوح بيديه وقد جحظت عيناه :

ـ فوما ! حذار ثم حذار ! انتبه الى نفسك !

وتابع فوما كلامه صائحا :

ـ أما هو فانه ، وقد روّعه أن رأيته ، تجرأ أن يغـريني برسالة كاذبة ؟ تجرأ أن يحاول اشراكي في جريمته ، اشراكي أنا ، أنا الانسان الشريف المستقيم ... نعم حاول اشراكي في جريمته . ذلك أنك قـد جعلت من هذه الشابة البريئة ....

ـ لو قلت كلمة واحدة مهينة فى حقها ، فسوف أقتلك يا فوما ! يميناً لأقتلنك اذا قلت كلمة واحدة مهينة فى حقها !

ـ سأقول هذه الكلمة جهارا نهارا : لقد استطعت أن تجعل من هذه الفتاة البريئة بنتاً ساقطة لا خلاق لها ! •••

فما كاد ينطق بهذه الكلمات حتى قبض عمى على أحـــد كتفيه ، وأخذ يديره بقوة ، ثم رماه على الباب الزجاجى الذى يفضى الى فنـــاء المنزل • وبلغت الضربة من العنف أن الباب انفتح فخرج فوما متدحرجا تدحرج كرة على درجات السلم السبع ليستقر به المقام بعد ذلك متمددا فى الفناء• وتحطم زجاج الباب فى الوقت نفسه وتناثر حطامه على الدرجات محدثا ضجة كبيرة •

قال عمى وقد أصبح أشد صفرة من ميت ، قال يخاطب جافريلا :

ـ هيا انهض يا جافريلا ، ثم دسه فى عربته ، وليرحل عن هـــذا المنزل فى أقل من دقيقتين !

لعل فوما كان يتصور لهذا المشهد خواتيم كثيرة ، ولكن لا شــك أن هذه الخاتمة التى كانت تنتظره لم تدر فى خلـــده ولا خطرت له ببال •••

لا أستطيع أن أصف شيئا مما حدث خلال الدقيقة التى أعقبت ذلك: لا الأنات التى تمزق القلب خارجة من صـــدر الجنـرالة المتهالكة فى مقعدها ، ولا ذهول بيربلتسين ازاء سورة الغضب التى عصفت بعمى وكان الى ذلك الحين خاضعا مستكينا ، ولا ذعر ناســتيا التى كادت تقــع مغمى عليها فأسرع أبوها اليهــا ، ولا هلع ساشا التى طاش صــوابها من فرط الجزع ، ولا اضطراب عمى الذى استبد به حنق لا يوصف وأخذ يذرع أرض الغرفة جيئة وذهابا وهو يحدق الى أمه التى لم تسترد وعيهــا ،

ولا البكاء الصاخب يبكيه فالالى حزينا أشد الحزن مع سادته • ذلك كله يؤلف « لوحة » لا سبيل الى وصفها • وانما يجب أن أضيف أن رعدا قويا قد دوى فى تلك اللحظة • ان همهمات العاصفة تقترب مزيدا من الاقتراب شيئا بعد شيء • وأخذ مطر غزير يقرع زجاج النوافذ ويسيل عليها مدرارا •

جمجم السيد ياختشايف يقول خافضا رأسه محركا يده باشارة عجز :

ـ حقا انه لعيد سعيد ! *

همست أقول له مضطربا كاضطرابه :

ـ الحالة سيئة • ولكن فوما قد طُرد على الأقل ، فلن نراه بعد اليوم !

ـ أمى ! هل استرددت وعيك ؟ هل تشعرين بتحسن ؟ هل تستطيعين أن تصغى الىّ أخيرا ؟

كذلك سأل عمى أمه وهو يقف جامدا أمام مقعدها • فرفعت العجوز رأسها ، وصالبت ذراعيها ، وألقت نظرة ضارعة متوسلة على ابنها الذى لم تره فى يوم من الأيام غاضبا مثل هذا الغضب المسعور !

وتابع عمى يقول :

ـ أمى ، لقد طفح الكيل ، كما لعلك رأيت • ما كان لى أن أعرض لك الأمر على هذه الصورة ، ولكن الوقت يستحثنى ، وليس ثمة مايدعونى أن أنتظر مزيدا من الانتظار ! لقد سمعت النميمة ، فأرجوك أن تسمعى الآن الحقيقة • أمى ! اننى أحب هذه الفتاة النبيلة الشريفة ، أحبها منذ زمن طويل ، وسوف أظل أحبها الى الأبد • سوف تسعد أولادى ،

وستخصك أنت بأقصى الاحترام ، وستكون لك خير ابنة • ولذلك فانني الآن ، أمامك ، بحضور أقربائي وأصدقائي ، أضع طلب خطبتها بين قدميها ، وأتوسل اليها أن تهب لى هذا الشرف العظيم ، أن ترتضيني زوجا •

ارتجفت ناستيا ، ثم تخضب وجهها بحمرة شديدة ، ووثبت عن مقعدها • نظرت الجنرالة الى ابنها برهة وكأنها لا تفهم أقواله ؟ ثم اذا بها ترتمي راكعة أمامه على حين فجأة وهي تتأوه تأوها يمزق القلب ••• وصرخت تقول له :

ـ بني ياجور ، عزيزي ، أرجع فوما ! أرجعه فورا ، والا مت في هذا المساء نفسه !

فلما رأى عمي أمه التي عرفها طاغية جبارة ذات نزوات ، لما رآها راكعة أمامه لبث كالمتجمد دهشة ، وطاف في وجهه تعبير عن ألم ممض ؛ ثم لم يلبث أن ثاب الى وعيه ، فمال على أمه ، وأنهضها ، وأجلسها فوق مقعدها •

تابعت الأم توسلها منتحبة :

ـ أرجع فوما فومتش يا بني ياجور ! أرجعه يا عزيزي ! انني لا أستطيع أن أعيش بدونه !

فصاح عمي يقول بمرارة :

ـ أمي ! ألم تسمعي اذن ما قلته لك منذ هنيهة ؟ انني لا أستطيع أن أرجع فوما ، فافهمي هذا ! لا أستطيع أن أرجعه ، وليس من حقي أن أرجعه ، بعد الذي قاله من كلام سفيه حقير نذل عن هذه الملاك من ملائكة الطهارة والفضيلة• افهمي يا أمي أن الشرف يوجب عليّ أن أنتصف لهذه

الفتاة من الاهانة التى ألحقها بها . أما سمعت ما قلته ؟ اننى أخطب هذه الآنسة وأتوسل اليك أن تباركى زواجنا .

وثبت الجنرالة مرة أخرى عن مقعدها ، وارتمت راكعة فى هـــذه المرة أمام ناستيا ، وأعولت تقول لها :

ــ عزيزتى اللطيفه الحلوة ، حمامتى الصغيرة الجميلة ! لاتتزوجيه ! لا تتزوجيه أبدا ! وتوسلى اليه يا عزيزتى الصغيرة أن يرجع فوما فومتش! ملاكى اناستازيا أوجرافوفنا ! اننى اهب لك كل شىء ، واضـــحى فى سبيلك بكل شىء ، شريطة أن لا تتزوجيه ! مهما أكن فقيرة ، فاننى لم أنفق كل ما أملك ، وما يزال عندى شىء مما تركه المرحـــوم زوجى ؛ ساهبه لك كله . وسوف يقدم ياجور اليك هدية أيضا . ولكن لاتدفعينى الى التابوت حية ، واساليه أن يرجع فوما فومتش ! ...

كان يمكن أن تستمر العجوز فى ضراعاتها المتنهدة الآنة زمنا طويلا لولا أن بيربلتسين وسيدات الحاشيه قد هرعن اليهـــا صارخات صرخات استياء كبيرة ، لينهضنها من هذا الوضع الذليل بين قدمى معلمة مأجورة ! وكانت ناستيا لا تكاد تستطيع الوقوف على ساقيها من فـــرط الخـوف ، وكانت بيربلتسين توشك أن تبكى كرها وبغضا .

صاحت بيربلتسين تقول لعمى :

ــ انك تجهز على أمك ، انك تقتلها !

ثم قالت لناستيا :

ــ أما أنت يا آناستازيا أوجرافوفنا ، فليس لك أن تفسدى ما بين أم وابنها ... ان الله نفسه يحرم هذا ! ...

هتف عمى يقول :

ـ احبسى لسانك يا آنا نيلوفنا ! لقد تحملت الى الآن ما فيه الكفاية ! •••

ـ وأنا تحملت الى الآن ما فيه الكفاية ! بأى حق تستغل يتمى ؟ ألم تلحق بى حتى الآن ما يكفى من اهانات ؟ أنا لست عبدتك ، هل تسمع ؟ أنا بنت ليوتنان كولونيل أنا • لسوف أرحل ، ثم لا أضع قدمى فى منزلك بعد اليوم أبدا • أبدا ! أنا مسافرة فى هذا اليوم نفسه ! •••

ولكن عمى لم يصغ اليها ، بل اقترب من ناستيا ، وتناول يدها باحترام ، وسألها وهو يلقى عليها نظرة قلقة خائفة تشبه أن تكون يأسا :

ـ هل سمعت ما أعرض يا آناستازيا أوجرافوفنا ؟

فأجابت ناستيا مرتجفة أشد الارتجاف هى أيضا :

ـ بل دعنا من هذا يا ياجور ايلتش •

ثم أضافت وهى تجهش باكية :

ـ لا فائدة •

وشدت على يده ثم استأنفت كلامها تقول :

ـ أنت تريد ذلك بسبب ما جرى مساء أمس • ولكن هذا مستحيل ••• هأنت ذا ترى أنه مستحيل ••• لقد أخطأنا يا ياجور ايلتش ••• ولكننى سأظل أذكرك محسنا الىّ منعما علىّ ••• وسأدعو لك الله من أعماق قلبى ••• الى الأبد !

وخنقت الدموع صوتها • كان واضحا أن عمى المسكين قد توقع هذا الرد • فلم يخطر بباله لا أن يلح ولا أن يحتج • كان مائلا على ناستيا التى لم يترك يدها ، يصغى الى كلامها عاجزا عن النطق بكلمة

واحدة ، وقد استولى عليه حزن شديد وكرب عظيم . وأخذت الدموع تملأ عينيه .

وتابعت ناستيا تقول :

ـ ذكرت لك منذ أمس أنني لا أستطيع أن أصبح زوجتك . وهأنت ذا ترى بنفسك : ما من أحد يريدني هنا ... ولقد أحسست أنا بهذا كله ، وتنبأت به منذ زمن طويل . لن تبارك أمك زواجنا ... ولا الآخرون . وستذعن أنت آخر الأمر ، لأنك انسان كريم ، ولكنك ستتعذب بسببي ... لأنك نبيل مسرف في النبل شهم مسرف في الشهامة ! ...

وأمن ياجفكين على كلامها مرددا :

ـ هذا صحيح يا ناستيا ، انه مسرف في الشهامة ، مسرف في الشهامة . هذا صحيح . تلك هي الكلمة التي يجب أن تقال .

وكان ياجفكين واقفا عند الجهة الأخرى من مقعد ابنته .

وتابعت ناستيا كلامها :

ـ لا أريد أن أكون سبب اضطراب في منزلك . ولا تقلقن لمصيري يا ياجور ايلتش . لن يؤذيني أحد ، لن يسيء الي أحد ... سأسافر مع أبي ... في هذا اليوم نفسه ... والأفضل أن يودع كل منا الآخر الآن يا ياجور ايلتش ...

قالت الفتاة المسكينة ذلك وسكبت سيلا جديدا من الدموع .

سألها عمي وهو يتأملها بعينين تفيضان يأسا لا سبيل الى مغالبته :

ـ أهذه كلمتك الأخيرة حقا يا آناستازيا أوجرافوفنا ؟ ما عليك الا أن تتكلمي فأضحي في سبيلك بكل شيء ! ...

فردد ياجفكين يقول :

ــ لقد قالت كلمتها الأخيرة يا ياجــور ايلتش • وقد شرحت لك الأمر شرحا واضحا جدا • أنت أطيب الناس طرا يا ياجور ايلتش • أردتَ خيرا كثيرا ؟ وشرفتنا كثيرا ، كثيرا ، كثيرا • ولكن لسنا أهلا لك يا ياجور ايلتش ! أنت فى حاجة الى خطيبة غنية ، نبيلة المحتد ، جميلة ، وذات صوت أيضا • أنت فى حاجة الى زوجة تمشى فى أجنحة منزلك مزدانةً بأحجار الماس وريش النعام••• ولعل فوما يرضى عندئذ أن يعود وأن يباركك • ذلك أنك سترجعه • ولقد أخطأت ، نعم أخطأت خطأ كبيرا حين أسأت معاملته ! وانه لم يقل ما قال الا من باب الشهامة تدفعه الى ذلك حماسة الفضيلة فى قلبه النبيل ! وسوف تعترف أنت نفسك بهذا فى المستقبل ، سترى ••• انه انسان موهوب ، انسان عظيم ! تذكر أنه لابد أن يكون الآن مبللا حتى العظام ••• فالأولى أن تأمر بارجاعه ، ما دام راجعا على كل حال •••

صرخت الجنرالة قائلة :

ــ فأرجعه يا بنى أرجعه ••• لقد قال صاحبنا الحقيقة بعينها !

وتابع ياجفكين :

ــ نعم • ان أمك الطيبة حزينة أشــد الحــزن • ولا فائدة من اصرارك ••• أما نحن ، أنا وناستيا ، فقد آن لنا أن نرحل •••

صاح عمى يقول :

ــ انتظر يا أوجراف لاريونتش ، أرجوك ، أتوسل اليك •• كلمة أخرى ، كلمة واحدة •••

هتف عمى بذلك ثم ابتعد ومضى يجلس على مقعد فى آخر الغرفة ، ومال برأسه نحو الأرض ، وغطى عينيه بيديه ، وغرق فى التأمل •

وفى هذه اللحظة دوى صوت رعد رهيب ، وسقطت الصاعقة على المنزل تقريبا • اهتز كل شيء • أطلقت الجنرالة صرخة حادة ، وكذلك بيربلتسين • ورسمت سيدات الحاشية اشـــارة الصليب وقد كدن يمتن خوفا ، وكذلك فعل السيد باختشايف فى الوقت نفسه •

وهمست خمسة أصوات أو ستة فى آن معا تقول :

ـ ادع لنا الله يا قديس ايليا •

وأعقب الصاعقة مطر رهيب ، فكأن بحيرة برمتها تنسكب مياهها على ستيبانتشيكوفو •

قالت بيربلتسين :

ـ مسكين فوما فومتش ••• انه الآن وحيد فى البرارى !

وصرخت الجنرالة بلهجة يائسة وهى تندفع نحو الباب كالمجنونة :

ـ أرجعه يا بنى ياجور !

ولكن سيدات الحاشية أدركنها قبل أن تخرج من الباب ، وأحطن بها يواسينها بآهات وأنات ! وبلغت الجلبة أوجها !

وتابعت بيربلتسين كلامها تقول :

ـ خرج بردنجوته فقط • ليت له معطفاً على الأقل ••• ولم يأخذ مظلة أيضا • لسوف تهلكه الصاعقة •••

فأمن باختشايف على كلامها قائلا :

ـ لا شك أن الصاعقة ستصعقه ••• ثم ان المطر سيغرقه •

همست أقول له :

ـ الأفضل أن تسكت !

فأجابني باختشايف حانقا :

ـ أهو انسان أم لا ؟ أهو انسان أم كلب ؟ أتخرج أنت من المنزل في جو كهذا الجو ؟ هيا استحم بماء المطر اذا كان يحلو لك ذلك الى هذه الدرجة !

قلت لعمي وأنا أميل على أذنه :

ـ أتراك توافق على عودة فوما فومتش ؟ انه لعيب كبير أن توافق على عودته ، ما ظلت آناستازيا أوجرافوفنا موجودة هنا على الأقل ...

أجاب عمي وهو يرفع رأسه ويرمقني بنظرة حازمة :

ـ يا صديقي العزيز ، لقد قلت كلمتي وعزمت أمري ؛ وأنا أعرف ماذا بقي عليّ أن أفعل! لا تخش شيئا ! لن تمس ناستيا بسوء . أنا مسئول عن ذلك !

قال عمي ذلك ونهض عن مقعده واقترب من أمه .

ـ أمي ، هدئي روعك ! سأرجع فوما فومتش . سوف أدركه . لا يمكن أن يكون قد ابتعد كثيرا . ولكنني أقسم بالله أنه لن يدخل الا بشرط : هو أن يعترف بذنبه ، هنا ، على رءوس الأشهاد ، أمام جميع من رأوا الاهانة ، وأن يطلب العفو والصفح والمغفرة صراحة من هذه الفتاة النبيلة . انني أصر على أن يفعل هذا ، سوف أجبره على أن يفعل هذا ؛ فان لم يفعل ، فلن يجتاز عتبة هذا المنزل . وانني أقسم بالله أيضا ، يا أمي ، أنني مستعد ، اذا هو ارتضى ذلك ، أن أرتمي على قدميه وأن أعطيه كل ما أستطيع ، ولكن دون أن أضر بمصلحة أولادي ! سوف أترك ستيبانشيكوفو ، فتعيشين فيها سعيدة هادئة البال . وأعود أنا الى الخدمة في الجيش ، فأختم حياتي في معمعة الحرب على ساحات القتال .. كفى ... أنا ذاهب !

وفى تلك اللحظة فتح الباب ، وظهر جافريلا مبللا ملوثا بالوحل ، أمام المشاهدين الذين اهتزت نفوسهم لظهوره أشد الاهتزاز .

صاح عمى يسأل جافريلا وهو يرتمى نحوه :

ـ ما بك ؟ من أين أنت آت ؟ أين فوما ؟

وهرع الجميع فى شراهة حول الخادم العجوز الذى كان يتصبب منه ماء موحل . فكانت الآهات والأوهات ... كانت التنهدات والصرخات تقاطع كل كلمة يقولها .

بدأ جافريلا كلامه يقول بصوت دامع :

ـ تركته عند مدخل غابة أشجار البتول ، على بعد ربع فرسخ من هنا . لقد خاف الحصان من الرعد فرمى العربة فى الحفرة .

صاح عمى :

ـ وبعد ؟

ـ انقلبت العربة ؟

ـ وفوما ؟

ـ سقط فى الحفرة .

ـ هلا أوضحت يا مجرم !

ـ أوذى جنبه فأخذ يبكى ، فحللت الحصان ، وعدت الى هنا راكبا على الحصان لأنبئكم بما وقع .

ـ وفوما ، هل هو هناك ؟

ـ نهض واستأنف السير متكئا على عصا .

تضاعفت دموع الجنس اللطيف وانتحاباته .

وصرخ عمى وهو يندفع الى خارج الغرفة مناديا :

ـ بولكان !

فأخرج له بولكان من الزريبة ، فامتطى عمي صهوة الجواد دون أن يضيع الوقت في وضع السرج ، وما هي الا دقيقة واحدة حتى أدركنا من وقع حوافر الحصان الذى راح يجرى مسرعا ان عمي مضى يلاحق فوما. ولقد خرج عمي حاسر الرأس .

هرعت السيدات جميعا الى النوافذ . واختلطت فى أقوالهن التفجعات بالنصائح . فمن ناصحة بحمام ساخن على الفور ، ومن قائله بتدليك بالكحول ، ومن موصية بشاى للصدر . وقيل فيما قيل « ان بطن فوما لا بد أن تكون خاوية لأنه لم يذق لقمة من طعام منذ الصباح » . ولمحت الآنسة بيربلتسين نظارتى المنفى فى غمدها مصادفة ، فتضخم هذا الأمر تضخما كبيرا : ارتمت الجنرالة على الغمد منتحبة ، وأسرعت الى النافذة تنظر فى الطريق من جديد وهى ما تزال تمسك غمد النظارتين . وبلغ الانتظار أعلى درجة من درجات الانفعال ... وفى الزاوية المقابلة كانت ساشا تواسى ناستيا . انهما متعانقتان تختلط دموع كل منهما بدموع الأخرى . وكانت ناستيا ممسكة باليوشا تقبله من دقيقة الى دقيقة . انها تودع تلميذها . واليوشا يبكى بدموع سخان دون أن يعرف كثيرا لماذا يبكى . وياجفكين وميزنتشيكوف يتناقشان فى ركن من الأركان . وخيل الى أن باختشايف الذى كان يتأمل الفتيات ، يوشك أن يبكى هو أيضا ، فاقتربت منه ، فاذا هو يصيح قائلا :

ـ لا ياصديقى ، اذا كان لا بد أن يرحل فوما عن هذا المنزل فى يوم من الأيام فان هذا اليوم لم يحن بعد . انهم لما يعثروا على الأبقار ذات القرون الذهبية التى يجب أن تجر عربته حين يرحل . اهدأ بالا يا بنى . ان رب الدار هو الذى سيرحل . أما فوما فسيبقى .

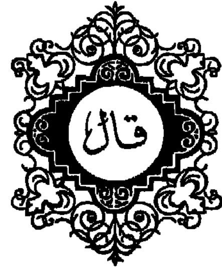
واضح أن باختشايف أصبح لا يرى الأمور على نحو ما كان يراها، بعد أن انقضت العاصفة ! ...

وفجأة سمعنا صياحا يهتف : « وصلا ... وصلا ... » . فهرولت السيدات نحو الباب معولات . لم يكن قد انقضى على خروج عمى الا عشرة دقائق . ان المرء لا يستطيع آن يفهم كيف أمكنه آن يرجع فوما بمثل هذه السرعة . ومع ذلك كان حل هذا اللغز سهلا كل السهوله : ان فوما فومتش ، بعد ان صرف جافريلا ، قد تابع طريقه متكئا على عصا فعلا ؛ ولكنه وقد أحس بأنه مهجور لرحمة العاصـــفة والمطر الوابل ، استولى عليه خوف رهيب ، فقفل راجعا يركض وراء جافريلا، وقد التقى به عمى لحظه بلوغه القرية .

وسرعان ما اســـتوقف عمى عربة كانت مارة ، وأسرع عدد من الفلاحين يحملون الى العربة فوما الذى أصبح وديعا وداعة حمل . وعلى هذه الحالة من الوداعة انما اقتيد رأسا الى ذراعى الجنرالة التى أوشكت أن تجن فرحا حين رأته . وكان مبتلا وملوثا بالوحل أكثر من جافريلا أيضا . وقامت قيامة المنزل حينذاك . فبعض يريد أن ينقل فوما رأسا الى فوق ، لتغير له ملابسه ؛ وبعض ينادى أن هاتوا مغلىّ أعشابٍ وغير ذلك من أشربة منعشة ؛ والجميع يتحركون هنا وهناك فى كل مكان بغير هدف وعلى غير هدى ؛ والجميع يتكلمون معا فى آن واحد . ولكن فوما كان يبدو عليه أنه لا يرى شيئا ولا يسمع شيئا . واقتيد فوما الى أحد المقاعد مسنودا من ابطيه . فتهالك عليه ثقيلاً وأغمض عينيه . وأعول أحـــدهم قائلا انه يحتضر ، فانطلقت صرخات مروعة رهيبة . وكان الذى يعول عويلا أشد من عويل سائر المعولين هو فالالى الذى كان يحاول أن يتسلل بين السيدات من أجل أن يقبل يد فوما فومتش .

٥

فوما فومتش يحقق السعادة للجميع



فوما فومتش بصوت انسان يموت فى سبيل الفضيلة :

ـ الى أين أُخذت ؟

فهمس ميزنتشيكوف قربى يقول :

ـ يا للدجال اللعين ! كأنه لا يرى الى أين أُخذ ! لسوف يُحدث الآن ارتباكات !

صاح عمى يقول :

ـ أنت عندنا يا فوما ، أنت فى أسرتك ! هدىء روعك ، استرد عزيمتك ! ثم ان عليك أن تمضى تغير ملابسك اذا أردت أن لا تمرض ، صدقنى يا فوما ! ألا تحب أن تشرب شيئا لتنتعش قليلا ؟ هه ؟ ... كأس من كحول يدفئك ؟ ...

ـ نعم ، قليلا من المالاجا !

هكذا قال فوما فى أنين وأغمض عينيه .

قال عمى :

ـ قليلا من المالاجا ؟

والتفت نحو أخته قلقا يسألها بعينيه :

ـ ولكن أرجو أن يكون عندنا شيء من المالاجا •

فقالت براسكوفي ايلنتشنا مؤكدة :

ـ نعم ، عندنا مالاجا •• •ما يزال عندنا أربع زجاجات •••

وسرعان ما هرعت تأتي بالمالاجا حاملة مجموعة مفاتيحها ، تشجعها في ركضها صيحات جميع السيدات اللواتي تهافتن حول فوما تهافت الذباب على طبق من مربب الفاكهة •

فكان من شأن هذا الاهتمام كله وهذا السعي كله أن بلغ استياء السيد باختشايف أوجه فهمهم باختشايف يقول بصوت مسموع :

ـ يريد الآن أن يشرب مالاجا ، يريد أن يشرب خمرا لا يشرب منه أحد • هل يغسل منقاره بالمالاجا الا وغد من هذا النوع ؟ أف ••• شيطان يأخذهم جميعا ! اني لأتساءل : ما بقائي هنا ؟ ماذا أنتظر ؟

وأخذ عمي يخاطب فوما بكلام مفكك متقطع :

ـ فوما ، الآن وقد استرددت وعيك ، ورجعت الينا وأصبحت بيننا •• يجب أن أقول لك يا فوما ••• انني أرى ••• أنك تدرك ••• الاهانة التي ألحقتها بمخلوقة بريئة ••

فقال فوما يكرر كلمة البراءة كمن يهذي :

ـ أين هي براءتي ؟ أين أيامي المباركة ؟ أين أنت يا طفولتي السعيدة ، أين أنت يا تلك الأيام التي كنت فيها أركض خلال الحقول بريئا مضيئا وراء الفراشات ؟ أين أنت أيها الربيع المبارك ؟ أعد لي براءتي، ردّ اليّ براءتي ! •••

وكان فوما ، وهو يقول هذا الكلام ، باسطا ذراعيه ، ينقل بصره بين الحاضرين واحدا بعد واحد كأن أحدنا قد أخفى عنه براءته في جيب من

جيوبه • ولاح على باختشايف أنه يوشك أن ينفجر حنقا مسعورا •

وهمهم باختشايف يقول خارجا عن طوره :

ــ ماذا يريد أيضا هــذا الفتى الشجاع ؟ يريد براءته ؟ ليعانقها ويقبلها ؟ ألا ان أغلب ظنى أنه كان فى طفولته وغداً حقيراً مثله الآن ! بل هذا أكيد ••• لأضعنّ يدى فى النار ان لم يكن الأمر كذلك ! •••

أراد عمى أن يحتج فقال :

ــ فوما !

فصاح فوما بمزيد من القوة يقول :

ــ أين هى الأيام التى كنت ما أزال أعتقد فيها أننى هائم موله ؟ أين هى الأيام التى كنت أحب فيها الانسانية ؟ أين هو الزمان الذى كنت أعانق فيه البشر لأبكى على صــدورهم ؟ أين أنا من ذلك كله الآن ، أين ؟

كرر عمى يقول :

ــ أنت عندنا يا فوما ، هدىء روعك ! ولكن اليك ما أحرص على أن أقوله لك يا فوما •••

قالت بيربلتسين فيما يشبه الصــفير ، وقد لاح فى وجهها الـكره والبغض وحدقت الى عمى بعينيها الصغيرتين اللتين تشبهان عينى أفعى :

ــ تحسن صنعا اذا سكت ، أنت !

وتابع فوما :

ــ أين أنا ؟ من يحيط بى ؟ ما لهذه الثيران كلها وهذه الجواميس كلها تريد أن تنشب قرونها فى جسمى ! أيتها الحياة ، ما أنت فى نظرى ؟ امض يا فوما ، امض ! ألا فليُستهزأ بك ! ألا فلتُحتقــر ، ولتُــذل ،

ولتُضرب، حتى اذا ووريت التراب ، وأهيلت على قبرك الرمال ، تذكرت الناس يومذاك ، فشادوا فوق مثواك ضريحاً يسحق عظامك !

همس ياجفكين وهو يضغط يديه احديهما بالأخرى :

ــ رباه ! انه يتكلم عن ضريح يشاد تخليدا لذكراه !

أعول فوما يقول :

ــ لا أريد لى ضريحاً ، لا أريد ! ليس بى الى ضريح حاجة ! ففى قلوبكم انما أحب أن يكون لى ضريح ، فى قلوبكم وحدها ، نعم وحدها ، وحدها ، وحدها !

قال له عمى مقاطعا :

ــ كفى يا فوما ، هدىء روعك ! دع الأضرحة وشأنها ! واستمع الى ما أقوله لك ... أنا أدرك يا فوما أن نار الفضيلة هى التى كانت تحرقك حين وجهت الىّ اللوم والتقريع منذ قليل ... ولكنك أسرفت يافوما ، مضيت بعيدا جدا باسم الفضيلة . أؤكد لك أنك أخطأت التقدير يا فوما !

صفرت بيربلتسين من جديد تقول :

ــ هلا سكت أخيرا ؟ أيجب أن تقتل هذا المسكين قتلا وقد أصبح الآن تحت رحمتك ؟

اضطربت الجنرالة لدى سماعها أقوال بيربلتسين ، واضطربت بعدها سيدات الحاشـــية ، ولوحن بأيديهن احتجـــاجا يردن اجبار عمى على السكوت .

فأجاب عمى بلهجة حازمة يقول :

ــ بل اسكتى أنت يا آنا نيلوفنا ! أما أنا فأعرف ماذا أقول . هــذه قضية مقدسة . هذه قضية تمس الشرف والعدالة . فوما ، ان لك عقلا، فعليك أن تطلب المغفرة فورا من الآنسة النبيلة التى أهنتها .

قال فوما وهو يجيل علينا جميعا نظرات ذاهلة هى نظرات انسان نسى نسيانا تاما كل ما جرى ، فهو لا يفهم شيئا مما يقال له :

ـ أية آنسة ؟ أية آنسة أهنت ؟

ـ نعم يا فوما . اذا أنت فى هذه اللحظة اعترفت بخطئك راضيا ، اعترافا نبيلا ، فيمينا لأرتمين على قدميك ، وعندئذ ...

أن فوما يقول مقاطعا :

ـ من أهنت ؟ أية آنسة ؟ أين هى ؟ أين تلك الآنسه ؟ ذكرونى بها ، أرجوكم !

فى هذه اللحظة ، دنت ناستيا من عمى وشدته من ذراعه ، وقد اضطربت من الخوف أشد الاضطراب ، وقالت بصوت ضارع :

ـ لا يا ياجور ايلتش ، دعه وشأنه ، لا أريد منه اعتذارا ... لا تستمر ... أرجوك .

صاح فوما :

ـ آه ... تذكرت ! رباه ! بدأت أتذكر ... أوه ! ساعدونى على التذكر (كذلك طلب وقد اعتراه انفعال شديد) . قولوا : أصحيح أننى طُردت من هنا كما يطرد كلب أجرب ؟ أصحيح أن الصاعقة أصابتنى ؟ أصحيح أننى رُميت من أعلى السلم ؟ أصحيح هذا ؟ أصحيح ؟

فكانت انتحابات السيدات وكان بكاؤهن أبلغ جواب على أسئلة فوما .

وتابع فوما :

ـ آ ... صحيح اذن هذا .. تذكرت الآن ... تذكرت أننى بعد قصف الرعد وسقوطى، ركضت الى هنا تسبقنى الصاعقة، اذ كان علىّ أن

أقوم بواجبي المقدس قبل أن أغيب الى الأبد . أنهضوني . انني أشعر باعياء شديد ، ولكن عليّ أن أقوم بواجبي .

أنهض فوما ، فما ان انتصب حتى اتخذ وضع الخطيب ، باسطا يديه ، وقال بصوت عال :

ــ يا كولونيل ، ان ذاكرتي تعود اليّ الآن . لم تذهب الصاعقة بعقلي . ولكن أذني اليمنى ما تزال صماء . ولعل سبب ذلك ليس الصاعقة بل سقوطي من على درج الباب ... على كل حال ، ما لهذا من كبير شأن ! ما عسى أن يكون لأذن فوما اليمنى من قيمة ؟

قال هذه الكلمات الأخيرة بلهجة تبلغ من الحزن الساخر ، وأتبعها بابتسامة تبلغ من المرارة التي توقظ في النفس الشفقة ، أن أنات السيدات انفجرت مرة آخرى تترى ... وألقت السيدات على عمي نظرات عتاب ، بل ونظرات كره وبغض . فأخذ المسكين يفقد صموده أمام هذا الاستنكار العام الشامل . وبصق ميزنتشيكوف جانبا من قبيل الاشمئزاز ، ومضى نحو النافذة . أما باختشايف الذي نفد صبره وأصبح لا يطيق التلبث في مكانه ، فكان يلكزني بكوعه لكزات ما تنفك تقوى وتشتد .

وزأر فوما يقول وهو يلف كلا منا بنظرة واضحة متعالية متكبرة :

ــ آن لكم جميعا أن تسمعوا اعترافاتي . ولكم بعد ذلك أن تقرروا مصير أوبسكين الشقي . يا ياجور ايلتش ، انني أراقبك منذ زمن . ولقد راقبتك وأنا مختنق الصدر قلقا وخوفا ، ورأيت كل شيء ، كل شيء على الاطلاق ، بينما كنت أنت لا يخطر ببالك أنني أراقبك . يا كولونيل ، من الجائز أن أكون قد أخطأت التقدير ، ولكنني كنت أعرف أثرتك ، واسرافك في حب نفسك ، وشهوانيتك الجهنمية ، فمن ذا الذي يمكن أن يلومني اذا أنا اضطربت أشد الاضطراب خوفا على فضيلة تلك الانسانة التي هي أطهر الناس وأبرؤهن طرا ؟

ـ فوما ، فوما ، حذار ! لا تسرف في القول يا فوما !

كذلك صرخ عمي وهو ينظر قلقاً الى وجه ناستيا الذي ينم عن ألم شديد وعذاب ممض .

ولكن فوما تابع كلامه دون أن يبدو عليه أنه سمع تهديد عمي :

ـ ولم تكن طهارة هذه الانسانة التي تمحض ثقتها بريئة مخلصة ، لم تكن طهارة هذه الانسانة هي التي تثير وحدها القلق في نفسي . لقد لاحظت أن عاطفة رقيقة حنوناً تنبت في قلبها وتزهر كما يزهر الورد في الربيع . فتذكرت ، بالرغم مني ، الكاتب بترارك الذي قال : « ان البراءة هي على مسافة شعرة من ضياعها » ، فتنهدت قلقاً ، وانطلق الأنين من أعماق صدري خوفا ، ووددت لو أضحي بدمي حماية لهذه الفتاة النقية نقاء لؤلؤة ؛ اذ من ما من أحد يمكن أن يضمن سلامة سلوكك يا ياجور ايلتش ! .. لقد كنت أعرف أهواءك العارمة الجامحة التي لا يلجمها شيء ، وكنت أعرف استعدادك لتلبية هذه الأهواء بأي ثمن وفي أية لحظة، فهويت الى قاع الخوف والقلق ازاء هذا الخطر الذي يهدد آنسة هي أشرف الأوانس قاطبة ..

صرخ عمي يقول :

ـ فوما ! كيف أمكن أن تخطر ببالك أمور فظيعة رهيبة من هذا النوع ؟

ـ راقبتك ونفسي تموت موتاً ! فاذا كنتَ تحرص على أن تعرف مدى ما عانيت من عذاب وما قاسيت من ألم ، فعد الى شكسبير واقرأ « هاملت » تدرك الاضطراب الذي شب في نفسي ، والقلق الذي استعر في قلبي . أصبحت كثير الشك متوحش السلوك . أصبحت ، وأنا فيما أنا فيه من قلق شديد وخوف مستمر ، أرى كل شيء أسود حالكا ...

وثق أن « هـــذا السواد » الذى كنت آراه ليس السواد الذى يُغنى فى بعض أناشيد الهوى ! لا •• لا •• اننى لم أكن أفكر الا فى انقـاذها • وذلك هو السبب فى أنك رأيتنى أرغب تلك الرغبة القوية كلها فى ابعاد الفتاة عن هذا المنزل ؛ ذلك هو السبب فى أننى أصبحت فى الآونة الأخيرة كثير الغضب سريع الاهتيـاج ؛ ذلك هو السبب فى أننى أخـذت أكره النوع الانسانى كله ! من ذا الذى يستطيع أن يصالحنى الان مع الانسانية؟ نعم ، لعلنى كنت كثير التشدد والظلم تجاه ضيوفك ، تجاه ابن أخيك ، وتجاه السيد باختشايف الذى طالبته بان يكون على علم بحقائق الفلك • ولكن من ذا الذى لا يغفر لى اذا هو نظـر بعين الاعتبار الى الآلام التى التى كنت أعانيها ؟ وأستشهد مرة أخـرى بشكسبير فأقول ان المستقبل كان يبدو لى هوة ليس لها قرار ، هوةٌ يقبع فى قاعها تمساح • وشعرت ان من واجبى أن أوقىِّ من نازلة ستقع ، ان أجنِّب من كارثة ستحل•• كنت أشعر أننى انما أرسلت الى هنا من أجل هذا ، كنت أحس أننى انما و جدت هنا فى سبيل هذا • ولكن ما الذى حدث ؟ حدث انك لم تفهم شيئا من الآلام المقدسة التى كانت تضطرم نارها فى نفسى ، بل قابلت ذلك منى ، طوال الوقت ، بالكره والبغض ونكران الجميل والتهكم والاستهزاء والاذلال •

صاح عمى يقول وقد عصف به انفعال شديد :

ـ اذا كان الأمر كذلك ، فأنا أشعر بأن •••

ـ اذا كنت تشعر بشىء حقاً ، فأرجوك أن تصغى الى كلامى بغـير مقاطعة يا كولونيل • وهأنذا أكمل : ينتج مما تقدم أن ذنبى كله هو أننى قاسيت كثيرا من الألم والعذاب فى سبيل مصير هـــذه الطفلة وفى سبيل سعادتها •• ذلك أنها طفلة بالقياس اليك يا كولونيل •• وهكذا جعلنى الافراط فى حب الانسانية شيطاناً من شياطين العداوة وسوء الظن وكثرة

الحذر ، حتى صرت مستعدا لأن أهجم على أعناق الناس أثخنها جراحا • واعلم يا ياجور ايلتش أن افعالك جميعها لم تزد على ان عززت شكوكي وريبي وشبهاتي مزيدا من التعزيز • فامس مثلا ، حين نثرت ذهبك امامي بغية ان تبعدني ، قلت لنفسي : « انه يبعدني ، ولكنه في حقيقة الأمر انما يبعد ضميره متمثلا في شخصي ، رجاء الايغال في انفاذ جريمته بمزيد من اليسر والسهولة ••• » •

صاح عمي مصعوقاً :

ــ فوما ، فوما ، هل يمكن أن تكون قد راودتك بالأمس أفكار كهذه الافكار ؟ رباه ! وأنا الذى لم يخطر ببالي شيء من هذا قط •••

ــ من السماء انما هبطت على هذه المخاوف (هكذا تابع فوما كلامه) • وفي وسعك اذن ان تدرك ما فكرت فيه حين قادتني مصادفة عمياء في المساء الى آخر الحديقة عند ذلك المقعد المشئوم • يارب يارب ، لشدما قاسيت من ألم في تلك الدقيقة حين رأيت آخيرا ، بام عيني ، على حين فجأة ، رؤية واضحة صارخة ، أن جميع مخاوفي كانت في محلها ، وأن جميع شكوكي كان لها ما يبررها ويسوّغها ! ومع ذلك بقي لي امل أخير ، ضعيف جدا ، يجب أن اعترف بذلك ، ولكنه امل • فما الذى حدث بعدئذ ؟ حدث أنك في هذا الصباح نفسه قد حطمت ذلك الامل وبددته ! بعثت الىّ برسالة تبدي فيها أنك تنوي الزواج ، وترجوني أن لا أُفشي في الناس مارأيت • قلت لنفسي عندئذ : «لماذا يكتب الىّ بعد أن فاجأته ، ولم يكتب الىّ قبل ذلك ؟ لماذا لم يجيئني من قبل ، سعيدَ القلب جميل الوجه ــ والحب يجمّل الوجه ــ لماذا لم يجئني مرتمياً بين ذراعي باكياً في صدري فائض العينين بدموع السعادة التي لا حدود لها ، مفضياً الىّ بما يعتلج في قلبه ؟ أأنا اذن تمساح لا يصلح الا لابتلاعك والتهامك؟

ألست اذن بالقادر على أن أسدى اليك بنصيحة ؟ أأنا زنبــور كريه متفر لا يقدر على شيء الا أن يلسعك بدلا من أن يعمل فى سبيل سعادتك ؟ أأنا صديقه أم أنا حشرة مقزّزة ؟ » ذلك هو السؤال الذى ألقيتــه على نفسى فى هذا الصباح • ثم سألت نفسى أخيرا : « لماذا استدعى ابن أخيه من العاصمة بحجة انه يريد أن يزوجه هذه الفتاة ، الا أن تكون غايته من ذلك أن يخدعنا ويضللنا ، نحن وابن أخيه الطائش الذى لا عقل له ، وأن يستمر فى مكائده الاجرامية خفيةً ؟ » • لا يا كولونيل ، اذا كان ثمة انسان قد رسّخ فى ذهنى أن حبك الخفى حب آثم ، فهذا الانسان هو أنت ، أنت وحدك ! وانك لم تأثم فى حق هذه الفتاة النقية الطاهرة النبيلة ، فحسب ، وانما أنت بأثرتك وخراقتك وضعف ثقتك بى ، قــد عرّضتها لأسوأ الشبهات ، وشرّ الوشايات والتخرصات !

كان عمى يصغى الى كلام فوما خافضاً رأسه • لقد جردته فصاحة فوما من جميع وسائل الدفاع عن نفسه حتى انتهى شيئاً فشيئاً الى الاعتراف لنفسه بأنه آثم كل الاثم • وكانت الجنرالة وحاشــيتها يصــغين بصــمت مغتبط ، بينما كانت بيربلتسين تحــدّق الى ناستيا بنظــرات الكره الظافر والحقد المنتصر •

وتابع فوما كلامه :

ـ وفيما كنت على هذه الحال من الاضطراب والغضب والانهيــار ، حبست نفسى اليوم فى غرفتى ، أصلّى وأسأل الله أن يلهمنى السداد ! فانتهيت الى أن قررت أن أمتحنــك مرة أخيرة ! ولعلنى قد أفــرطت فى الاندفاع ، ولعل استيائى قد حملنى على شيء من الاسراف ، ما دمت قد رميتنى من النافذة جزاء ما انطوت عليه نفسى من أقدس النيّات ••• فلما سقطت من النافذة قلت لنفسى : « ذلك هو جزاء الفضيلة دائما فى هــذا

العالم » • وقد بلغت من الانهيار عندئذ أننى فقدت وعيى • ولا أذكر الآن ما الذى حدث بعد ذلك •

فما ان أتى فوما على ذكر هذه الذكرى المفجعة حتى تعالت صرخات حادة وانتخابات مريرة تقاطع كلامه • وأسرعت الجنرالة تحمل اليه زجاجة المالاجا التى اختطفتها من يدى ابنتها • ولكن فوما أقصى الزجاجة عنه بحركة متضخمة ، ثم أقصى الجنرالة ، وهتف يقول :

ـ انتظروا ! يجب أن أتم كلامى • اننى أجهل ما حدث بعد سقوطى • ولكننى أعلم أننى فى هذه الساعة ، وأنا مبتل بالماء حتى العظام، وأنا أوشك أن تنتابنى الحمى ، انما وُجدت هنا لاحقق لكم السعادة المتبادلة • يا كولونيل ، اننى أعتقد أخيراً ، على أساس قرائن لا أستطيع أن أكشف عنها الآن ، أن حبك كان طاهراً نقياً ، بل وكريما نبيلا ، رغم أن ضعف ثقتك قد جعله آثما • اننى بعد أن ضُربت وأذللت واتهمت بأننى أهنت فتاة يحلو لى أن أسكب آخر قطرة من دمى فى سبيلها كما يفعل فارس من فرسان القرون الوسطى ، قررت الآن أن أريكم كيف يثأر فوما أوبسكين لنفسه من الاهانات التى أُلحقت به • هات يدك يا كولونيل !

صاح عمى قائلا :

ـ يسرنى أن أمدَّ اليك يدى يا فوما ••• لا سيما وأنك وصفت ، على خير وجه ، شرف هذه الانسانة التى هى أنبل الناس قاطبة ••• نعم ، اليك يدى يا فوما ، مع كل أسفى على •••

قال عمى ذلك ، ومدَّ الى فوما يداً حارة ، دون أن يخطر بباله ما سيعقب ذلك •

وأردف فوما يقول بصوت واهن ، وهو يقصى جحفل السيدات المتحلقات حوله ، من أجل أن يخاطب ناستيا :

ـ وهات يدك أنت أيضاً !

فرفعت ناستيا عينيهـا نحو فوما خجـلى وجلى مضـطربة أشد الاضطراب .

قال فوما بحنان وهو ما يزال ممسكاً يد عمى :

ـ اقتربى ، اقتربى يا بنيتى الغالية ؛ لا بد من هذا لسعادتك .

دمدم ميزنتشيكوف يقول :

ـ ما عساه مدبراً من مكائد ؟

وتقدمت ناستيا من فوما على مضض وهى ترتجف ، فمدت اليه يدها الصغيرة بحركة خائفة .

تناول فوما هذه اليد الصغيرة ووضعها فى يد عمى ؛ وهتف يقـول بلهجة فخمة :

ـ اننى أجمع بينكما وأهب لكما مباركتى ، اذا كانت تنفعكما مباركة شهيد نزل به الشقاء . طوبى لكما ، ولتكونا سعيدين . هكذا ينتقم فوما أوبسكين لنفسه .

لا يملك أحد أن يصف الدهشة التى اعترت جميع الحضور . ان هذه الخاتمة التى لم تكن فى الحسبان قد جمدتنا جميعا . الجنرالة فغرت فاها وهى ممسكة زجاجة الملاجا بيدها . بيربلتسين امتقع لونها وارتجفت غيظاً وحنقاً . سيدات الحاشية صفقن أيديهن ثم تجمدت فى مكانهن . عمى أخـذ يرتجف كورقة فى مهب الريح ، وأراد أن يتـكلم لكنه لم يستطع أن ينطق بكلمة واحـدة . وكانت ناسـتيا شاحبة كميت فتمتمت تقول خائفة خجلة : «مستحيل ! ..» ولكن بعد فوات الأوان . واستجاب باختشايف لهتاف فوما أول المستجيبين .. يجب أن نعترف له بهذا الفضل

••• وكذلك فعلت أنا في اثره ، ثم كذلك فعلت ساشا بكل صوتها الفتى الواضح الصريح ؛ وسرعان ما ارتمت على عنق أبيها ؛ ومثل هذا فعل اليوشا ؛ ثم جاء دور ياجفكين ، وبعده جاء دور ميزنتشيكوف •

وعاد فوما يهتف مرة ثانية :

ـ طوبى لكما ، طوبى ! واركعا يا ابنى قلبى ، اركعا أمام أشد الأمهات حنانا ! اطلبا بركتها •• وسوف أشارككما الركوع اذا وجب ذلك ! •• كان عمى وناستيا طائشى اللب لا يفهمان ما يقع لهما ، وهاهما يهويان راكعين عند قدمى الجنرالة قبل أن يتسع وقتهما لتبادل نظرة واحدة • وتحلق الجميع حولهما • ولكن العجوز ظلت ساكنة لا تتحرك، ولا تعرف ماذا يجب عليها أن تفعل • وكان فوما هو الذى أنقذ الموقف مرة أخرى • فها هو ذا يرتمى عند قدمى الجنرالة ، فاذا بهذه البادرة منه تبدد تردد العجوز دفعة واحدة ، فتجهش باكية وتعلن أخيرا أنها موافقة• فيثب عمى عندئذ ، ويحضن فوما بذراعيه • ويبدأ يقول :

ـ فوما ! فوما !

ولكن صوته يختنق ، فما يستطيع أن يتابع كلامه •

زأر ستيبان ألكسيفتش ينادى :

ـ هاتوا شمبانيا ! طوبى •••

فانبرت بيريلتسين تقول محتجة ، وقد اتسع وقتها لأن تسترد وعيها وأن تنظر الى الأمر وما يشتمل عليه من عواقب :

ـ لا ••• لم يحن الأوان بعد • فانما يجب أولا اشعال شمعة أمام صور القديسين ، ولا بد من صلوات ودعوات ، ولا بد من المباركة ، كما يتم ذلك لدى جميع من يملكون ذرة من دين !

فأسرع الجميع يطيعون النصيحة التقية الفاضلة . وقامت بعد ذلك قيامة الدار . أشعلت شمعة . صعد ستيبان ألكسيفتش على كرسى ليضع الشمعة فى المكان المطلوب أمام الأيقونات . ولكن الكرسى تهاوى ، فوثب عنه الرجل الى الأرض ثقيلا بطيئا ، دون أن يفقد توازنه مع ذلك ؛ وأخلى السبيل للآنسة بيربلتسين مذعنا ، على شيء من الارتباك ، فتولت الآنسة النحيلة الضاوية اشعال الشمعة التى ارتضت أخيرا أن تشتعل . وسرعان ماطفقت المتدينة البتول وسيدات الحاشية يرسمن اشارة الصليب، ويسجدن على الأرض . وحملت صورة « المخلّص » يسوع المسيح الى الجنرالة. وارتمى عمى وناستيا راكعين من جديد ، وتتابع الاحتفال باشراف بيربلتسين التقية التى كانت أوامرها تعلو من دقيقة الى دقيقة : « اسجدا أمام أمكما ، ضعا شفاهكما على الأيقونة . قبّلا يد أمكما ! » وبعد الخطيب وبعد الخطيبة ، رأى السيد باختشايف أن يقبل الأيقونة هو أيضا ، وأن يقبّل يد السيدة الجنرالة كذلك . لقد أصبح من شدة فرحه لا يشعر بنفسه .

وصاح يقول مرة أخرى :

ـ طوبى . والآن هاتوا الشمبانيا !

وكان جميع الحضور مفتونين نشوة على كل حال . الجنرالة تبكى ، ولكن من الفرح . ان مباركة فوما للزواج سرعان ما أسبغت على هذا الزواج صفة النبل والقداسة . والنقطة الهامة هى أن الجنرالة تحس الآن أن فوما لن ينتزع منها فى هذه المرة أبدا . وكانت سيدات الحاشية جميعا يشاركن فى هذه الفرحة الشاملة ، ظاهراً على الأقل . وعمى يهرع تارة الى أمه فيركع أمامها ليقبل يدها ، ويسرع تارة أخرى الىّ فيعانقنى . وقبّل عمى جميع الحضور . ضمّ الى صدره باختشايف وميزنتشيكوف وياجفكين . أما اليوشا فقد كاد يخنقه من شدة حماسته فى عناقه . وكانت ساشا تحيط بذراعيها عنق ناستيا ، وتغمرها بوابل من قبل حارة . وكانت

براسكوفى ايلنتشنا تسكب سيولا من دموع ، فلما لاحظ باختشايف ذلك أسرع اليها وقبَّل يدها • وكان ياجفكين العجوز منتحياً أحد الأركان يجفف دموعه بمنديله ذى المربعات ، وقد فاضت نفسه عاطفة وحنانا • وفى الركن المقابل كان جافريلا يتأمل فوما فومتش تأمل عبادة ، وكان فالالى ينتحب بصوت عال ويتنقل بين الجمع يقبل الأيدى واحدة بعد أخرى • لقد استولى علينا سكر عاطفى • ما من أحد يحس بحاجته الى كلام أو شروح : لكأن كل شىء قد قيل • لم يبق الا أن نطلق اهات الفرح • ولم يستطع أحد ، على كل حال ، أن يدرك كيف أمكن أن تنتهى الأمور الى خاتمة رائعة هذه الروعة ، بسرعة كهذه السرعة • كل ما كنا نعلمه أن ذلك من عمل فوما فومتش ، وأن المسألة قد حلت حلاً حاسماً لا رجعة عنه •

ولكن ما ان انقضت خمس دقائق على هذه السعادة العامة الشاملة حتى ظهرت تاتيانا ايفانوفنا على حين فجأة • لقد كانت منحبسة فى غرفتها بالطابق الأول ، فكيف أحسَّت ، كيف شمَّت أن الناس ، تحت ، مهتمون بحب وزواج ؟ أسرعت تاتيانا ايفانوفنا بيننا مشرقة المحيَّا وضاءة الوجه دامعة العينين من الفرح ، مرتدية ثوباً أنيقاً أناقة فاخرة (لقد اتسع وقتها لتغيير ملابسها رغم كل شىء) ، وهرعت الى ناستيا رأساً وأخذت تقبلها وهى تصيح صيحات كبيرة :

ـ ناستيا ، ناستيا ، أكنت اذن تحبينه وأنا لا أعلم عن هذا شيئاً ؟ رباه ! انهما متحابان ، وكانا يتألمان فى صمت ، خفية • كانوا يضطهدونها ! يا لها من رواية ! عزيزتى ناستيا ، قصى علىَّ كل شىء ! احكى لى كل شىء ! أيمكن أن تحبى هذا الشيخ الخرف ؟

ولكن ناستيا قبلتها بحرارة بدلا من أن تجيب •

ـ رباه ! يا لها من رواية جميلة !

بهذا هتفت تاتيانا ايفانوفنا ، وصفقت يديها احديهما بالأخرى • ثم أردفت تقول :

ـ اسـمعى يا ناستيا ، اسـمعى يا ملاكى ! ان جميع الرجال ، من أولهم الى آخرهم ، عاقون أوباش لا يستحقون حبنا • ولكن لعل هـذا خير من الآخرين ؟ تعال هنا أيها الخرف ! (قالت ذلك وهى تتجه الى عمى ثم تمسك ذراعه) • قل لى : أصحيح أنك قادر على الحب ؟ أنظر الىّ ! اننى أريد أن أوغل فى قرارة عينيك لأرى هل أنت تكذب ! لا ، لا ، ان عينيه لا تكذبان ! انهما تسطعان حباً • أوه ! ما أسعدنى ! ناستيا ، صديقتى ، اسـمعى ! انك لست غنيـة • فسأعطيك ثلاثين ألف روبل • فاقبليها ناشدتك الله ! لست فى حاجة اليها ، لست فى حاجة اليها البتة • سوف يبقى معى مال كثير • لا ، لا ، لا (بهذا صاحت وهى تحرك يدها باشـارة انكار ، حين رأت ناسـتيا تهم أن ترفض) • وأنت يا ياجـور ايلتش ، اسكت ! ذلك أمر لا شان لك به ! لا ياناستيا ، لقد رتبت الأمور وكفى ! أريد أن أقدم اليك هدية منذ زمن طويل ، ولم أكن أنتظر من أجل ذلك الا حبك الأول ••• سوف أتأمل سعادتك • سوف تهينيننى اذا رفضت الهدية ! لتبكيننّى اذا رفضت الهدية ! ناستيا ••• كلا ، كلا ، كلا ، ثم كلا ! •••

كانت تاتيانا ايفانوفنا تبلغ من النشوة والافتتان ، فى تلك الدقيقـة على الأقل ، أن رفض عرضها كان مستحيلا بل قاسيا • لذلك لم يقرروا شيئا على الفور • ثم أسرعت تاتيانا ايفانوفنا تقبل الجنرالة وبيربلتسين ، وتقبلنا جميعا ، واحدا بعد واحد • واقترب باختشايف منها باحترام عظيم، وسألها أن تأذن له بتقبيل يديها وهو يهتف قائلا :

ـ اغفرى لى سلوكى الأحمق فى هذا الصباح يا حمامتى ، فاننى لم أكن أعرف قلبك الذهبى ! ••

فزقزقت تاتيانا ايفانوفنا تقول بلهجة السخر الرصين وهى تلطم ستيبان الكسيفتش على أنفه بقفازها :

ـ يا لك من مجنون !

ثم لمسته بثوبها الفخم ومرت خفيفة كالنسمة .

ابتعد الرجل السمين باحترام وتعظيم ليفسح لها مكانا ، وقال وقد غزته عاطفة رقيقة حنون :

ـ يا لها من آنسة محترمة !

ثم أسرَّ فى أذنى يقول والفرح يشع فى عينيه :

ـ أعيد أنف الألمانى الى مكانه لصقاً !

سألته :

ـ أى أنف ؟ أى ألمانى ؟

قال :

ـ اللعبة التى أحضرتها : الألمانى الذى يقبل سيدته بينما هى تجفف دموعها بمنديل . لقد رقعته لى أودوسيما مساء أمس . ومنذ قليل ، حين عدنا من المطاردة ، أرسلت رجلا على حصان ليأتينى به ؟ سيصل الألمانى بعد برهة . هو تحفة رائعة !

صاح عمى يقول وهو فى أوج الفرح :

ـ فوما ! لقد حققت لى سعادتى ، فكيف أستطيع أن أردَّ لك هذا الجميل ؟

أجاب فوما مشعَّث الوجه :

ـ لا تحفل بى يا كولونيل ! ثابر على عدم الاهتمام بى . كن سعيدا بدون فوما .

صاح عمى :

ـ ذلك أننا الآن مبتهجـون كل الابتهـاج يا فوما ! ألا ترى أننى أصبحت لا أعرف أين أنا ؟ ان حياتى كلها ودمى كله لن يكفيا للتكفير عن العذاب الذى سببته لك. لذلك ترانى ساكتا لا أحاول حتى أن أعتذر. ولكن اذا احتجت فى يوم من الأيام الى رأسى ، الى حياتى ؛ اذا وجب فى يوم من الأيام أن أرمى بنفسى الى هوة عميقة القـرار فى سـبيلك ، فلن يكون عليك الا أن تصدر أمرك فترى ! ... لن أزيد على ما قلته شيئاً يا فوما !

قال عمى ذلك وحرّك يده باشارة عجز ، لشعوره بأنه لا يستطيع أن يتكلم أكثر من ذلك ، وبأنه لا يسـتطيع أن يعبِّر عمّا يجيش فى أعماق فكره بمزيد من الكمال وبمزيد من القوة .

ـ أرأيتم الى عزيزنا فوما فومتش ، أى ملاك هو ؟

كذلك ماءت تقول بيربلتسين ، شرهةً هى أيضا الى التغنى بمدائح فوما .

ـ وصاحت ساشا :

ـ نعم ، نعم ! لم أكن أعرف أنك رجل على هذا الجانب العظيم من الشهامة يا فـوما فومتش ، ولقـد أخللت بواجب احترامك وتعظيمـك واجلالك ، فاغفر لى فوما ، واصـفح عنى ، وثق الآن أننى سأحبك من أعماق قلبى .. آه ! ليتك تعلم كم أقدرك وأعتبرك !

واستأنف باختشايف كلامه فقال :

ـ نعم يا فوما ، يجب أن تغفر لى أنا أيضا • يا لغبائى ما أشده ! اننى لم أكن أعرفك ! لا ، لم أكن أعرفك ! فأنت لست عالماً فحسب ، بل أنت بطل حقيقى أيضـــا ! ان منزلى كله فى خدمتك ، تحت تصرفك ! ما رأيك فى أن تزورنى بعد غد يا صديقى ، مصطحباً الجنرالة والخطيب والخطيبة ؟ ومن أيضا ؟ الدار كلها ! الجميع عندى ••• ولأهيئن لـكم وجبة من تلك الوجبات التى •• لا •• لا أريد أن أتباهى منذ الآن •• حسبى أن أقول انه لن يعوزنا هنالك الا أعشاش سنونو •• أحلف لكم بشرفى !

وفى وسط البهجة العامة والفرح الشامل ، دنت ناستيا أيضـا من فوما فومتش ، فقبلته من أعماق قلبها صامتة ، ثم قالت :

ـ فوما فومتش •• لأنت المحسن الينا • لقد بلغتَ من الاحسان الينا والتضحيه فى سبيلنا أننى لا أدرى كيف أشكر لك صنيعك • ولكن الشيء الذى أعلمه حق العلم هو أننى ساكون لك أختا هى بين الأخوات أكثرهن محبة وأشدهن احتراما •••

ولم تستطع ناستيا أن تتم كلامها ، فقد خنقتها الدموع • وأوشـك فوما أن يبكى ، وطبع قبلة على رأسها ، ثم قال :

ـ يا أولادى، يافلذات قلبى، ألا فلتعيشوا حياة سعيدة ، ألا فلتتفتحوا كالأزهار ؛ وفى لحظـات سـعادتكم ، تذكروا أحيـانا ذلك المنفيَّ المبعد المسكين ! أما أنا فأقول لكم مرة أخرى ان الشقاء أبو الفضيلة* • أحسب أن جوجول هو الذى قال هذه العبارة• صحيح أن جوجول كاتب خفيف، ولكن له فى بعض الأحيان أفكارا خصبة ! ان المنفى شقاء ! سأضرب بعد الآن فى الأرض حاجاً متوكئاً على عصاى • ومن يدرى ؟ فلعلنى بفضل شقائى أفعل مزيدا من الخير ! ان هذه الفكرة هى الفكرة الوحيدة التى تعزينى وتواسينى وتسرّى عنى !

صاح عمي مذعورا يقول :

ـ ولكن الى أين تذهب يا فوما ؟

وارتعش جميع الحضور ، وأسرعوا نحو فوما .

ـ كيف يمكنني أن أمكث في منزلك بعد الذى فعلته منذ قليل يا كولونيل ؟

كذلك سأل فوما بوقار متكبر متنفخ .

ولكنهم لم يدعوا له أن يتكلم . فهـذه احتجاجات ترتفع من كل حدب وصوب فتطغى على صوته . وأعادوه الى مقعده ، وتوسلوا اليـه ، وسكبوا الدموع بين يديه .. وكانوا مستعدين أن يفعلوا كل شيء ابتغاء مرضاته .. طبيعى أن فوما لم يكن ينوى أن يترك « هذا المنزل » أكثر مما كان ينوى ذلك بالأمس ، وأنه لم يكن يفكر فى ترك « هذا المنزل » أكثر مما كان يفكر فيه حين أخذ يعزق مربعا من الأرض قد زرع لفتاء هو الآن واثق أنهم سيحتفظون به فى كثير من الولاء والاحترام ، وأنهم سيتمسكون بتلابيبه ولا يدعون له أن يرحل . ومنذ جعل الجميع سعداء أصبح يعرف خاصة أنهم قد عادوا يعبدونه ، وأن كل واحد منهم سيعمل جاهدا على أن يجنبه أى سوء وأى هم ، وأن كل واحد منهم سيحس بأنه يسعده أكبر السعادة ويشرّفه أعظم التشريف أن يقبل منه فوما ذلك . الواقع أن عودته التعيسة وخوفه من العاصفة منذ برهة قد جرحا كبرياءه فى الموضع الحساس ، فحضه ذلك مزيدا من الحض على اظهار مزيد من العجرفة . فانما الشيء الأساسى عنده هو أن ينتهـز هـذه الفرصـة التى لا يخطر ببال أحد فيها أن يتصدى لمعارضـتـه ، من أجل أن يطنب فى الخطابة والوعظ ، ومن أجل أن يتعاظم ويتكبر ، ومن أن يفيض فى اطراء نفسه . انه عاجز عن مقاومة مثل هذا الاغراء . لذلك كان ينتزع نفسـه

من أولئك الذين يمسكون به ليصدوه عن الخروج ، ويتوسل اليهم أن يجيئوه بعصا مسافر ، قائلا انه يريد أن يشترى حريته بأى ثمن ، ليتاح له أن يطوف أركان العالم الأربعة ، مرددا أنه لم يرجع الى هذا البيت الذى أوذيت فيه كرامته ولطخ شرفه وضرب وأهين ، الا من أجل أن يهب السعادة للجميع ، وكيف يمكنه أن يمكث فى « منزل العقوق » وأن يأكل فيه « وجبات قد تكون دسمة ، ولكنها متبلة بالصفعات » ؟ وارتضى فوما أخيرا أن يقتنع بالبقاء ، فأعيد مرة أخرى الى مقعده . ولكن فصاحته لم تكن قد نفد معينها . صاح يقول :

ـ ما أكثر ما قاسيت هنا من ألم وعـذاب ! كم من مرة مدُّوا لى لسانهم ! وأنت نفسك يا كولونيل ، ما أكثر ما استهزأت بى وتهكمت علىَّ فى كل ساعة وبجميع الأساليب ، كما يفعل ولد من أولاد الشوارع هو أقل أولاد الشوارع أدباً ؟ نعم يا كولونيل ، اننى أتوقف عند هذا التشبيه، لأنك ان لم تستهزىء بى ماديا فقد استهزأت بى معنويا ، ورب استـهزاء معنوى أقسى اهانة وأمر مذاقاً من استهزاء مادى . ناهيك عن الضربات واللطمات ! ..

هتف عمى يقول :

ـ فوما ، فوما ، لا تقتلنى بهذه الذكرى ! لقد سبق أن قلت لك ان دمى كله لن يكفى للتكفير عن هـــذه الاهانة ومحوها . فكن رحيما ، واصفح واغفر ، وابق عندنا متأملا سعادتنا ! ان سعادتنا هى من صـنعك يا فوما ! ...

واستأنف فوما يقول :

ـ ... أريد أن أحب ، أن أحب انسانا ... وليس يوهب لى أحد أحبه ؛ اننى أُمنع من حب الانسان ، يُحال بينى وبينه ، يُنتزع منى .

هبوا لى الانسان الذى أستطيع أن أحبه • أين هو ؟ أين يختبىء ؟ لقد فعلت كما فعل ديوجين حين حمل مصباحه باحثا عنه ، فظللت طوال حياتى أبحث عنه ثم لا أجده ، وسوف أظل عاجزاً عن حب أحد ما لم أجد ذلك الانسان ! ويل لمن جعلنى أكره البشر ! اننى أصرخ قائلاً : هبوا لى الانسان الذى يمكن أن أحبه ؟ فاذا هم يدفعون الىّ بفالالى ! أأنا أحب فالالى ؟ أأنا أستطيع أن أحبه ؟ هل أقدر أن احبه ولو أردت ؟ لا ! لماذا ؟ لأن جميع الناس على هذه الأرض هم فالالى أو أشباه لفالالى ! لا أريد فلالى ! اننى أكرهه ، اننى أمقته ، اننى أبصق على فالالى ، اننى أدوسه • لو خُيِّرت بين أشمداى * وفالالى لاخترت أشمداى • تعال ، تعال الى هنا يا جلادى الأبدى ، تعال الى هنا (كذلك صرخ فوما مخاطبا فالالى على حين فجأة ، وكان فالالى واقفا على رءوس الاصابع ، وراء الجمهور المحتشد حول فوما فومتش، وقد لاحت فى وجهه براءة عظيمة). تعال الى هنا ! سوف أريك يا كولونيل (هكذا صاح فوما مرة أخرى وهو يشد فجأة يد فالالى الذى أصبح كالمجنون خوفا) ، سوف أريك يا كولونيل صدق ماقلته عن الاستهزاءات والسخريات التى تحملتها هناء تكلم يا فالالى ، قل الحقيقة ، اقصص ما رأيته فى منامك هذه الليلة ! سترى يا كولونيل ، سترى ثمرات ما غرست ! هيا يا فالالى ، تكلم ! اننى مصغ اليك !

ارتجف الصبى المسكين وألقى حوله نظرات زائغة • ولكن لم يتصدّ لنجدته أحد ، فان جميع الحضور كانوا يرتعشون خوفا وينتظرون جوابه •

ــ ماذا يا فالالى ؟ أنا منتظر !

ولكن فالالى ، بدلا من أن يجيب ، فغر فاه كبيرا ، وجأر كما يجأر عجل يُذبح •

ـ هل ترى هذا العناد يا كولونيل ؟ هل تظن هذا العناد طبيعيا ؟ يا فالالى ، أخاطبك آخر مرة ، وأسألك ماذا رأيت في المنام اليوم ؟

ـ رأيت ...

همس يقول له باختشايف ملقناً :

ـ قل له انك حلمت بى .

وقال ياجفكين يلقنه من الطرف الآخر :

ـ قل له انك حلمت بفضائله ...

ألقى فالالى الى ملقنيه نظرة ساذجة ، ثم زأر يقول وهو يقذف بسيل من دموع مرة :

ـ حلمت بفضائ ... حلمت بالبقرة البيضاء ! ...

فصاح الجميع صيحة واحدة . ولكن فوما فومتش كان قد قرر أن يبرهن على رفعته ولينه وهوادته . قال :

ـ أرى أنك صريح على الأقل . وهذه الصراحة لا يقع عليها المرء لدى جميع الناس . كان الله فى رعايتك ! اذا كنت تسخر منى بهذا الحلم عامداً ، وكنت تتبع فى ذلك نصيحة شخص آخر ، فليعاقبك الله ، أنت ومن ينصحونك ! أما اذا لم يكن الأمر كذلك ، فاننى أحمد لك صراحتك، لأننى تعودت أن أحسب حساب النفس المخلوقة على صورة الله حتى فى أحقر عباده ! اننى أغفر لك وأعفو عنك يا فالالى ! عانقونى يا أولادى ! سوف أبقى ! ..

صاح كل واحد مبتهجاً مفتتناً :

ـ سوف يبقى !

ـ أبقى وأغفر ! يا كولونيل ، اعط فالالى قطعة من سكر • لا أريد أن يبكى فى هذا اليوم الذى تعمه السعادة !

طبيعى أن يعجب الجميع بهذا الكرم وهذه السماحة • انظروا فيم يفكر الآن ! ومن أجل من ؟ من أجـــل فالالى ! وأسرع عمى يريد أن يطيع أمر فوما باعطاء فالالى قطعة من سكر ، فاذا هو أمام طبق من سكر فى يدى براسكوفى ايلنتشنا ••• لا يدرى الا الله من أين جاءت به •• أراد عمى أن يتناول بأصابعه المرتجفة قطعتين من سكر ، ثم ثلاثا ، ولكن قطع السكر أفلتت منه ؛ فلما رأى أخيرا أنه فى حالة يعجز معها عن فعل أى شىء من فرط انفعاله ، لم يسعه الا أن يسكب طبق السكر كله فى قميص فالالى ، وهو يصيح قائلا :

ـ خذ يا فالالى ، هذا من أجل عيد اليوم ، مكافأة لك على صراحتك! نعم مكافأة لك على صراحتك (كذلك أضاف عمى يقول جادا وقـورا رصينا) •

هتف فيدوبلياسوف وقد ظهر عند الباب ، هتف يعلن عن وصــول زائر ، قائلا :

ـ السيد كوروفكين !

حدث شىء من اضطراب • لا شك أن زيارة كوروفكين قد جاءت فى غير أوانها •

وألقى كل واحد من الجمع على عمى نظرة تساؤل •

هتف عمى يقول بشىء من التفخم :

ـ كوروفكين ! ألا اننى سعيد بزيارته ! •••

والتفت نحو فوما بنظرة وجلة • ثم أردف يقول :

ـ ومع ذلك لا أدرى هل نستطيع أن ندخله علينـــا فى مثل هذه اللحظة • ما رأيك يا فوما ؟

أجاب فوما متعاظما :

ـ لا ضير ! لا ضير ••• فى وسعه هو أيضا أن يشارك فى هــذه الفرحة العامة !

الخلاصة أن فوما قد برهن على مزاج حلو ملائكى •

قال فيدوبلياسوف :

ـ أسمح لنفسى بأن ألفت النظر باحترام الى أن كوروفكين ليس فى حالته الطبيعية •

فصاح عمى :

ـ ما هذا الكلام الذى تهرف به ؟

ـ هى الحقيقة بعينها يا سيدى • ان كوروفكين سكران •

ولكن عمى عرف كلمة السر قبل أن يتسع وقته لفتح فمه بكلام ، وقبل أن يحمر وجهه خجلا ، وقبل أن يخاف ويهلع ، وقبل أن يضطرب أشد الاضطراب • ذلك أن كوروفكين بنفسه قد ظهر على العتبة ، فأقصى فيدبلياسوف من طريقه ، وبدا أمام الحشد المذهول دهشةً •

انه رجل مربوع القامة ، قوى البنية ، فى نحو الأربعين من عمره ، له شعر قاتم قد وخطه الشيب ، مقصوص قصة الفرشاة ، على وجه مدور محمر ، وعينين صغيرتين محتقنتين دماً • ويتألف زيه الغريب من ربطة عنق عالية من سبيب ، مشدودة الى الوراء بدبوس ، ومن ردنجوت مجعَّد رث ، يغطيه زغب وأقذار ، متمزق تمزقا قويا تحت الابطين ، ومن سروال عجيب لا يتصوره العقل ، وقبعة متسخة اتساخا لا يتخيله خيـــال كان

يمسكها بيده • فبعد أن تقدم الى وسط الغرفة وقف مترنحا ، وحك رأس أنفه ذاهلا ذهول سكران ، ثم انشقت شفتاه بابتسامة بطيئة •

ـ معذرة سيداتي وسادتي ، أنا ••• مطبوخ قليلا •••

قال ذلك ونقر قذاله بيده •

وما لبثت الجنرالة أن اصطنعت هيئة من أهينت كرامتها • وأخذ فوما ، وهو جالس على مقعده ، يروز بنظره هذا الزائر الشاذ ساخرا • وتأمله باختشايف بقلق يخالطه مع ذلك شيء مع الشفقة والعطف • أما عمي فقد كان اضطرابه لا يُصدَّق • ان منظر كوروفكين يعذبه عذاب شهيد •

بدأ عمي يقول :

ـ كوروفكين ، اسمع ! ••

فقاطعه كوروفكين قائلا :

ـ دقيقة واحدة •• انني ألتمس معونتك كابن من أبناء الطبيعة ••• ولكن ماذا أرى ؟ ان ههنا سيدات ••• لماذا لم تنبهني الى أن هنالك سيدات أيها الوغد (كذلك قال وهو يلقي على عمي نظرة مشفوعة بابتسامة تواطؤ) ••• لا ضير ••• لا داعي الى الخجل ••• سوف أتقدم الى الجنس اللطيف وفقاً لقواعد الادب •• أيتها السيدات الفاتنات (كذلك أخذ يجمجم محركا لسانه الرخو بجهد كبير ، متوقفا عند كل مقطع من مقاطع ألفاظه) ••• ان أمامكن انسانا تعيسا شقيا قد ••• قد ••• الى آخره ••• البقية لا تقال ••• أيها الموسيقيون هلموا فاعزفوا لحن بولكا !

سأل ميزنتشيكوف صاحبنا كورفكين قائلا في هدوء :

ـ ألا تريد أن تستريح قليلا ؟

ـ أستريح ؟ أتريد أن تهينني ؟

ـ أبدا ••• لكن المرء يحتاج الى الراحة حين يصل من سفر •••

قال كولوفكين مستاءً ممتعضا :

ـ لا ••• أتظن أنني شربت ؟ لا••• أنا لم أشرب شيئا ••• ليست هذه هي المسألة ! ثم قل لي : أين يمكن أن ينام المرء في هذا المنزل ؟

ـ تعال ••• سأقودك الى حيث تنام •

ـ أين ؟ في العنبر ؟ لا يا صديقي ••• لا تعول على هذا ! لقد وصلت من عنبر ••• ولكن قدني مع ذلك ••• لماذا لا يتبع المرء انسانا شريفا ؟ لست في حاجة الى مخدة • من كان عسكريا ففي وسعه الاستغناء عن المخدات • هيء لي ديوانا يا صديقي ، ديوانا صغيرا ••• واسمع أيضا : (قال ذلك وهو يجمد في مكانه) أرى انك رجل شهم ••• فجئني بقليل من ال ••• هل فهمت ؟ كأس صغير يذهب الحزن والسأم ••• كأس صغير واحد ، لا لشيء الا تبديد الحزن والسأم •••

فأجابه ميزنتشيكوف :

ـ حاضر ••• حاضر •••

ـ عظيم ! ولكن انتظر ••• يجب علي أن أودع ••• وداعا سيداتي آنساتي ! الحق أنكن قد طعنتن قلبي ••• ولكن كفى ! سنشرح الأمور فيما بعد ••• أيقظوني حين يُهيأ كل شيء ••• بل قبل ذلك بخمس دقائق على الأقل • لا تبدأوا بدوني ، هل فهمتم ؟ اياكم أن تبدأوا بدوني !

وغاب السكران المازح سائرا وراء ميزنتشيكوف •

صمت الجميع . لم تتبدد الدهشة الا بعد لأى . وأخيرا راح فوما يضحك بصوت خافت ، قليلا قليلا ، على هون ... ثم اتسع ضحكه ، ثم أصبح قهقهة مجلجلة . فلما رأت الجنرالة ذلك أسرعت تضحك هى أيضا ، دون أن تفقد تعبير وجهها عن الاستياء والامتعاض . وانطلقت ضحكات من كل حدب وصوب على غير ارادة . وكان عمى واقفا وكأن الذهول قد صعقه صعقا ، وكان محمر الوجه من فرط الخجل والاضطراب حتى ليكاد يبكى ، ولبث زمنا لا يستطيع أن ينطق بكلمة .

قال أخيرا :

ـ رباه ! من ذا الذى كان يمكن أن يخطر بباله هذا ؟ ومع ذلك ، يمكن أن يقع هذا لكل انسان . فوما ! أؤكد لك أنه أشرف رجل ، وأنبل رجل ، وأنه على جانب كبير من العلم ... نعم يا فوما ، لترين هذا فيما بعد .

أجاب فوما يقول وهو يكاد يختنق من شدة الضحك :

ـ رأيت رأيت ... رجل رفيع الثقافة ، أليس كذلك ؟ رفيع الثقافة جدا !

قال ياجفكين يدس كلامه دسا بصوت خافت :

ـ وما أسلم تفكيره فى شئون السكك الحديدية ؟

قال عمى محتجا :

ـ فوما !

غير أن ضحكا شاملا طغى على كلامه . وبلغ ضحك فوما من القوة أن عمى أخذ يضحك هو أيضا آخر الأمر .

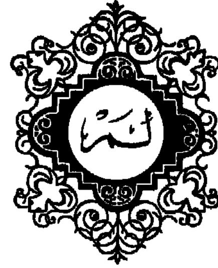
وصاح يقول متخففا :

ـ طيب ••• لا بأس ••• أنت سمح جواد يا فوما ••• ان لك قلبا كبيرا ••• لقد حققت سعادتى ••• وستغفر لكوروفكين أيضا •

كانت ناستيا وحدها لا تضحك • انها تنظر الى خطيبها بعينين كأنهما تقولان : « ما أجملك ! ما أطيبك ! ألا ان قلبك من ذهب ! ليتك تعلم كم أحبك ! » •

٦

خاتمة



يكن نجاح فوما نجاحا كاملا فحسب ، بل كان نجاحا حاسماً أيضاً . فبدونه ما كان ليدبر أمر ، وما كانت لتسوى قضية ؛ وهذا الواقع الذى لا مراء فيه قطع الطريق على جميع الشكوك ، وعلى جميع الاعتراضات . ان ما يشعر به أولئك الذين جعلهم سعداء ، من شكر وامتنان وعرفان بالجميل ، ليس له حدود . ان عمى وناستيا يحملانى على السكوت باشارات لوم وتأنيب متى سمحت لنفسى بأيسر تهكم على الطريقة التى توصل بها فوما فومتش الى تسهيل زواجهما . وان ساشا تصيح قائلة : « ما أطيب فوما فومتش وما أنبله ! لأحيكن له وسادة جميلة ! » ، وانها لتعيرنى بأن قلبى قاس هذه القسوة كلها . والمؤمن الجديد بفوما فومتش ، أعنى ستيبان ألكسيفتش ، يبدو عليه أنه يهم أن يذبحنى ذبحا حين أظهر أمامه شيئا ، ولو يسيرا ، من قلة الاحترام لفوما فومتش . انه يتبعه الآن كما يتبع كلب صاحبه ، وينظر اليه نظرة عابد الى معبوده ، ويصيح لدى كل كلمة يسمعها منه قائلا : « لأنت أقدس انسان يا فوما ! انك عالم عظيم يا فوما ! » . أما ياجفكين فقد أصبح فى السماء السابعة ! كان يعرف منذ زمن طويل أن ناستيا قد أدارت رأس عمى ، فكان لا يحلم لا ليلا ولا نهارا الا فى الوسيلة التى يزوجه بها ابنته . لقد جعل الأمر يطول ويطول ، ثم لم يعدل الا حين أصبح من المستحيل الا أن يعدل . وفى أثناء ذلك دبر فوما الأمر وسواه . لعل ياجفكين ، رغم اغتباطه وافتتانه ،

كان يدرك ما الذى يجب عليه أن يرضى به • انه يعرف صاحبه فوما معرفة تامة ، فلا شك أنه كان يقول لنفسه ان فوما فومتش سيسطر على هذا المنزل الى الأبد ، وان طغيانه فيه لن ينتهى • المألوف ان أشد الناس عجرفة وأكثرهم نزوة يرقون شيئا بعد شىء حين تتحقق رغباتهم كاملة • ولم تكن هذه حال فوما فومتش : ان غطرسته تتفاقم متى حقق نجاحا • وها هو ذا ، قبل الجلوس الى المائدة لتناول وجبة الطعام ، بعد أن بدل ملابسه الداخلية وارتدى كساء جديدا، هاهوذا يتربع على مقعده ويستدعى عمى ، ويلقى عليه خطبة وعظ أخرى على مرأى ومسمع من الأسرة كلها •

بدأ فوما يقول :

ـ يا كولونيل ، انك ستتزوج ، فهل تعرف الواجبات التى تقع على •••

وهلم جرا • تخيلوا عشر صفحات من حجم « جريدة المساجلات »، مطبوعة بأحرف صغيرة ، زاخرة بأغرب الغرائب • ذلك كان خطاب فوما فومتش • لم يشر الخطاب تقريبا الى الواجبات التى تقع على عاتق الزوج الجديد • وانما كان اطراء وقحا ومديحا سفيها لما يتصف به فوما فومتش وحده من رقة الشعور وعظمة النفس وشجاعة القلب ، والاخلاص والتفانى والتنزه عن المنفعة • كان الجميع جائعين أشد الجوع ، وكانوا يحترقون رغبة فى الانتقال الى المائدة • ولكن ما كان لأحد أن يخطر بباله أن يحتج • سمعوا خطبة فوما فومتش حتى النهاية باجلال وتعظيم • وحتى باختشايف الذى يشتهى الاكل كالغول لبث جالسا لا يتحرك ، مظهرا كل الاحترام • فلما شبع فوما فومتش من فصاحته وبلاغته ، ارتضى أخيرا أن يتمتع ، فظل يشرب أثناء العشاء حتى ثمل ، وأصبح يقترح أنخابا غريبة•

ولقد روى نكتا وقذف بمزاحات تشتمل على غمز ولمز فى حق الخاطبين. فصفق له الجميع وطفقوا يضحكون . غير أن بعض غمزاته ولمزاته بلغت من قلة الحشمة أن باختشايف احمر خجلا وحياء . وفى النهاية وثبت ناستيا عن المائدة وولت هاربة . وأصبح فوما من هربها فى مرح لايوصف .. ولكنه ما لبث أن ثاب الى نفسه وذكر مزايا الفتاة فى بضـــع كلمات منتقاة ، ثم اقترح نخبا على صحة الغائبة . فاذا بعمى الذى كان فى الدقيقة السابقة مضطربا متألما ، يصبح على حـــين فجأة مســتعدا لأن يقبل فوما فومتش . ويجب أن أذكر أن الخطيب والخطيبة أصبح كل منهما يشعر تجاه صاحبه بحرج من هذه السعادة التى تغمرهما . لقد لاحظت أنهمـا منذ اللحظة التى بوركت فيها خطبتهما لم يتبادلا كلمة واحدة ، حتى لقد أصبحا يتحاشيان أن ينظر أحدهما الى الآخر . فلما نهض الطاعمون عن المائدة غاب عمى . ومضيت أنا أبحث عنه ، فمررت بالسطحة ، فـرأيت فوما هنالك يرشف قهوته مفيضا فى الكلام تلك الافاضة التى يثيرها الافراط فى الشراب ، ولم يبق حوله الا ياجفكين وباختشايف وميزنتشيكوف . توقفت لأسمع ما يقوله فوما . كان فوما يصيح متسائلا :

ــ لماذا تروننى مستعدا لأن ارتقى المحرقة فى سبيل مبـــادئى التى أعتنقها وأومن بها ؟ ولماذا تعجزون أنتم جميعا عن فعل ذلك ؟ لمـاذا ؟ لمـاذا ؟

فقال له ياجفكين ساخرا :

ــ فيم المحرقة يا فوما ؟ علام المحرقة ؟ المحرقة أولا تحـدث ألمـا ، والمحرقة ثانيا تحرقك ، فماذا يبقى منك بعد ذلك ؟

ــ ماذا يبقى منى ؟ يبقى رماد مقدس . ولكن أنّى لك أن تفهمنى ؟ أنى لك أن تقدرنى ؟ انكم ، معشر الجهلة ، لا ترون العظمـــة الا فى

رجال مثل قيصر أو اسكندر! وما هى الأعمال التى يقوم بها رجال كهؤلاء القياصرة ؟ من هم الذين حقق لهم هؤلاء القياصرة السعادة ؟ بأى شىء يستطيع أن يتباهى الاسكندر وأن يفخر ؟ بأنه فتح الأرض كلها ؟ ألا فاعطونى الجحافل التى كان يملكها تروا فتوحاتى وفتوحاتك أيضا ، وفتوحاتكم جميعا ! لقد قتل هو كليتوس* الفاضل ، أما أنا فلم أقتل اى كليتوس فاضل ! ... لقد كان هو صبيا غرا ، كان انسانا لا قيمة له ! كان ينبغى أن يجلد بدلا من أن يوهب له المجد الخالد ... وكذلك قيصر ! ...

ــ وفرّ قيصر على الأقل يا فوما .

ــ لا ... لا رحمة بالحمقى الأغبياء .

كذلك صاح فوما .

أمّن ستيبان ألكسيفتش يقول بحرارة ، حرارة مردها الى الافراط فى الشراب أيضا :

ــ أنت على حق ! لا رحمة بالحمقى الأغبياء ! لا رحمة بهم . هؤلاء جميعا مذبذبون ، هؤلاء جميعا خذاريف يدورون على قدم ! فبحهم الله من آكلى مقانق ! ان منهم واحدا قد أراد أخيرا أن يهب منحة دراسيه! ما قيمة منحة دراسية ؟ صحيح أننى لا أفهم ما معنى المنحة الدراسية ، ولكننى أراهن على أنها دناءة من الدناءات ... لأضعنّ يدى فى النار ان لم تكن كذلك ! وما قولكم فى ذلك الآخر الذى جاء منذ حين مترنحا يطلب كأسا من خمرة الروم فى مجتمع من علية القوم ! أنا لا أرى ضيراً فى الشراب ، فليشرب المرء ما شاء له هواه أن يشرب ، ولكن شريطة أن لا يتجاوز الحدود ... ان فى وسع المرء دائما أن يستأنف الشرب ...

لا ••• لا رحمة ولا شفقة ! هؤلاء جميعـــا أوغاد ! أنت وحدك عالم يا فوما •••

هكذا كان باختشايف : متى وهب نفسه لانسان ، وهبها له كاملة ، بغير غرض مبيت ، وبدون أي تحفظ •

عثرت على عمي في الحديقة ، قرب الغدير ، في الموضع المنعزل • كان مع ناستيا • فلما لمحتني ناستيا خجلت ، فاختفت في الادغال مارقة مروق السهم • وهبّ عمي الى لقائي مشرق الوجه منبسط الأسارير : كانت عيناه تفيضان بدموع الفرح • تناول يدي ، وضغطهما ضغطا شديدا يكاد يحطمهما • قال لي :

ـ صديقي العزيز ، لمّا أستطع بعد أن أكون واثقا من سعادتي••• لا ولا ناستيا ••• اننا لا نملك الا ان ندهش ونستغرب ، وأن نحمد الله ونشكر له نعماءه • ان ناستيا لم تفعل شيئا غير البكاء • تصور أنني حتى هذه اللحظة أشعر بأنني مضطرب كل الاضطراب ، أشعر بأنني طائش اللب ضائع الصواب ، أصدق ولا أصدق ! ••• لماذا أستحق مثل هـــذه السعادة ؟ لماذا ؟ ماذا صنعت حتى أكون جديرا بها ؟

ـ اذا كان ثمة انسان يستحق السعادة فهو أنت يا عمي ! ما رأيت في حياتي انسانا له ما لك من شرف ونبل وطيبة •••

كذلك قلت في حرارة • فأجاب عمي بشيء من الحسرة والأسف :

ـ لا يا بني سرجي ، هذه مبالغة • والمصيبة أننا طيبون مع الناس (أتكلم عني وحدي) حين يكون الناس طيبون معنا ! لقد تحـــدثنا أنا وناستيا في هذا الأمر منذ هنيهة • هل تصـــدق ؟ لطالمـــا سطع فوما أمام عيني ، ومع ذلك يخيل الى أنني الى هذا اليوم لم أمحضه ثقة كاملة ،

حتى حين كنت أحاول اقناعك بتفوقه • نعم ، حتى أمس ، كان الشك ما يزال يراودني حين رفض هديتي ! انني اعترف بذلك مستحييا خجلا! الا آن قلبي لينتفض حين أتذكر ما فعلته في هـذا الصباح • لقـد ذهب صوابي ، وطاش لبي ••• حين تكلم عن ناستيا أحسست أن قلبي يطعن ••• ولم أفهم الى أين كان يريد أن يصل من ذلك، فوثبت عليه كالوحش الكاسر •

ـ ولم لا يا عمي ؟ يخيل الىّ أن ذلك كان أمرا طبيعيا •

أوقفني عمي باشارة من يده •

ـ لا ، لا ، يا صديقي ، لا تقل هذا ! كل شيء انما يرجع الى أن طبيعتي فاسدة ، الى انني أناني مغرور ذو كبرياء ، عاجز عن كبح جمـاح أهوائي • تلك أقوال فوما نفسه (بماذا أستطيع أن أجيب عن هذا ؟)

وتابع عمي يقول بعاطفة عميقة :

ـ أنت لا تعرف يا بني سرجي كم مرة كنت حانقا بغـير رحمة ، ظالما متكبرا ••• وليس ذلك مع فوما وحده ! الآن أتذكر هــذا كله فيخنقني الشعور بالعار من أنني لم أصنع شيئا يجعلني جديرا بهــذه السعادة • لقد قالت ناستيا هذا نفسه عن نفسها منذ هنيهة ، ولكنني لا أرى في أي أمر كانت آثمة • ما ناستيا بامرأة بل هي ملاك • قالت اننا مدينون لله بدين كبير ، وان علينا الآن أن نعمل جاهدين على اصلاح نفسينا وعلى فعل خير كثير ••• آه ••• ليتك سمعت ما كان في أقوالها من حـرارة وجمال • رباه ما أروعها من فتاة !

وقطع الانفعال صوت عمي • ثم استأنف يقول بعد دقيقة :

ـ لقد قررنا يا صديقي العزيز أن ندلل ، ما وسعنا التدليل ، فوما

وأمي وتاتيانا ايفانوفنا ! آه ••• تاتيانا ايفانوفنا ! يا لهذه المخلوقة ماأنبلها ! آه ••• ما أكبر اثمي في حق الجميع ! وفي حقك أيضا ! آه •• لو خطر ببال أحد الآن أن يمس تاتيانا ايفانوفنا ، فويل له ! ••• ويجب أن نهيىء شيئا لصاحبنا ميزتشيكوف •••

ـ نعم يا عمي ، لقد غيرت رأيي في تاتيانا ايفانوفنا • يستحيل على المرء أن لا يقدرها ، وأن لا يقلق عليها !

أردف عمي يقول بحرارة :

ـ تماما ، تماما ••• يستحيل على المرء أن لا يقدرها • واليك مثالا آخر : كوروفكين ! لعلك تريد أن تسخر منه وأن تتهكم عليه (أضاف عمي ذلك وهو يرمقني بنظرة خجلى) • لقد استهزأنا به جميعا منـــذ قليل • ولكنني أرى أن سلوكنا هـــذا أمر لا يغتفر • ربما كان هـــذا الرجل أنبل الناس وأشرفهم قاطبة ••• ولكن القدر أصابه • لقد قاسى آلاما كثيرة ، ونزلت به مصائب جمة ••• أنت لا تصدق هذا الكلام مع أنه قد يكون هو الحقيقة بعينها كاملةً دقيقة •••

ـ لماذا تظن أنني لا أصدق هذا الكلام يا عمي ؟

قلت هذا وأخذت أفيض في الحديث عن الأشخاص الذين زلت أقدامهم وسقطوا ويمكن أن يشعروا رغم ذلك بأنبل العواطف الانسانية؛ وفي الحديث عن أغوار النفس الانسانية التي لا يسبر لها قرار ، وعن الاثم الذي يرتكبه المرء حين يحتقر أولئك الذين يسقطون ، بدلا من أن يهب الى نجدتهم وأن يقيلهم من عثرتهم ، وعن خطأ آرائنا الأخلاقية حين نريد أن نقيس الخير والشر ••• الخلاصة أنني بلغت من التهاب الحماسة في نفسي أنني مضيت الى حد التحدث اليه عن المدرسة « الطبيعية » * ، وختمت كلامي بانشاد أبيات الشعر الشهيرة :

فكان من شأن ذلك أن أثار حماسة عمى ، فاذا هو يندفع قائلا لى :

ـ صديقى ، صديقى العزيز ، لقد فهمتنى حق الفهم ، وعبرت عما كنت أود أن أعبر عنه ... عبرت أنت عنه خيرا مما كان فى وسعى أن أفعل . نعم ، هذه هى الحقيقة ! رباه ! لماذا كان الانسان خبيثا شريرا ؟ لماذا تصرفت تصرفا سيئا ذلك السوء كله ، مع أن المرء يشعر بسعادة كبيرة حين يكون خيّرا ، ومع أن الخير شىء جميـــل غاية الجمال ؟ لقد قالت ناستيا هذا الشىء نفسه منذ هنيهة ! ...

ثم أضاف عمى يقول وهو ينظر الى ما حولنا :

ـ انظر ما أجمل هذا الركن من الأرض ! انظر ما أروع الطبيعة ! انظر ما أفتن هذه اللوحة ! وهذه الشجرة ، هل تراها ؟ ما من رجـــل يستطيع أن يحيطها بذراعيه ! يا للنسغ الذى يترقرق فيها ، يا للأوراق الخضر التى تتوجها ! وهذه الشمس ... هل ترى ما أجملها ! ان كل شىء فرح ، ان كل شىء يبدو كأنه غُسل وتجدد بعد العاصفة ! يجب أن نقدر أن الأشجار تفهم وتدرك على طريقتها الخاصة ، وأنها تشعر وتحس ، وأنها تستمتع بالحياة ... نعم ، لم لا يكون هذا الكلام صحيحا صادقا ؟ هه ؟ ما رأيك أنت ؟

ـ ذلك جائز جدا يا عمى ... على طريقتها الخاصة طبعا ...

ـ طبعا طبعا ... على طريقتها الخاصـــة ... ما أعظم الخالق ! نعم ، ما أعظم الخالق ! ولكن قل لى : لا بد أنك تتذكر هذه الحديقـة جيدا يا سرجى . لقد لعبت فيها وطفت بها طولا وعرضا أيام طفولتك ! اننى ما أزال أراك وأنت صبى صغير ... (أضاف عمى ذلك وهو يرمقنى بنظرات تفيض حبا وسعادة) . لم تكن تُمنع من الذهاب وحدك الا الى

ضفة الغدير ؛ هل تتذكر ؟ وفى ذات مساء ، نادتك كاتيا ، فقيدتى الغاليه، وأخذت تلاطفك ... كنت َ قد عدوت كثيرا فى الحديقة ، فاصطبغ وجهك بلون الورد . ما كان أجمل شعرك أيامذاك ! كان زاهيا متموجا . لعبت كاتيا طويلاً بضفائرك ، ثم قالت : « آه ... ما أحسن ما صنعت اذ جئت بهذا اليتيم الينا » . هل تتذكر ؟

ـ قليلا يا عمى .

ـ كان ذلك عند هبوط المساء ، وكانت الشمس تلقى ضوءها عليكما كليكما . وكنت أنا جالساً أدخن فى أحد الأركان وأنظر اليكما ... سوف أزورها كل شهر يا بنى سرجى ، فى قبرها بالمدينة (أضاف يقول ذلك بصوت أجش يحس فيه السامع ارتجاف العبرات المكبوحة) . لقد تحدثت فى هذا الأمر مع ناستيا ؟ فقالت لى ناستيا اننا سنذهب نزورها معا فى المقبرة ...

وصمت عمى ليكبح انفعاله .

وفى تلك اللحظة دنا منا فيدوبلياسوف .

صاح عمى مضطربا :

ـ فيدوبلياسوف ! هل فوما هو الذى أرسلك ؟

ـ بل جئت من تلقاء نفسى .

ـ طيب ، طيب جدا اذن ! سوف نعرف ماذا صار اليه كوروفكين . كنت أريد أن أسأل عنه منذ قليل ... هل تعلم يا سرجى ؟ لقد أرسلت فيدوبلياسوف يرى ما يجرى ! ايه فيدوبلياسوف ! الى أين وصلنا ؟

قال فيدوبلياسوف :

ـ أسمح لنفسى بأن أذكرك أنك تفضلت أمس فنظرت فى رجائى

اليك أن تمنّ على بحمايتك السامية لى من الاهانات التى تلحق بى كل يوم •••

ـ أتراك تعود تكلمنى مرة أخرى فى أمر اسمك ؟

كذلك صاح عمى مروّعا •

ـ ذلك أمر لا بد منه • انهم يهينوننى بغير انقطاع •••

ـ آه ••• فيدوبلياسوف ، فيدوبلياســوف ! ماذا يجب أن أصنع بك ؟

قال عمى ذلك فى شجن وأسى ، ثم أردف يسأله :

ـ طيب ، ما هى الاهانات التى تشكو منها ؟ لتفقدنّ عقلك اذا أنت بقيت على هذه الحال ، ولتضطرنّ الى وضعك مع المجانين !

أجاب فيدوبلياسوف يقول :

ـ أعتقد اننى ما زلت أملك عقلى كاملا •

فقال عمى مقاطعا :

ـ طيب ، طيب ••• ان ما أقوله يا بنى انما هو فى سبيل خيرك • أنا لا أحاول أن أؤلمك • اشرح لى هذه الاهانات التى تشير اليها • أراهن منذ الآن على أنه ليس هناك ما يستحق أن تضرب من أجله قطة •

ـ يستحيل الاستمرار على هذه الحال •

ـ بسبب من ؟

ـ بسبب الجميع ، ولا سيما ماترونا • ان حياتى مسممة بسببها • ان جميع الأشخاص الممتازين الذين رأونى منــذ طفولتى رددوا أننى أشبه الأجانب ، ولا سيما بملامح وجهى يا سيدى • ومن أجل هــذا ياسيدى انما أصبحت حياتى الآن لا تطاق • فما ان أمر قرب هذا أو ذاك

حتى تنطلق ورائى صيحات تشتمل على جميع أنواع القول الهاجر ••• الصبيان الصغار أنفسهم ، الصبيان الصغار الذين يستحقون أن يضربوا على أقفيتهم ، يعاملوننى بوقاحة ••• منذ قليل ، قبل أن أجىء الى هنا كانوا ما يزالون يصيحون ••• لقد نفد صبرى يا سيدى • أسبغ على حمايتك !

ـ آه ••• فيدوبلياسوف ••• قل لى : بماذا يصيحون ؟ لا شك أنهم يصيحون بكلام تافه لا يستحق الالتفات اليه •

ـ كلام لا حشمة فيه يا سيدى •

ـ قل لى ما هو هذا الكلام مع ذلك •

ـ أستحى •

ـ بل قل •

ـ هم يصيحون :

بلع جرشكا الهولاندى
لفتا ضخما يزن رطلا

ـ هه ! ظننت أنهم صاحوا لا يدرى الا الله بماذا ! لا تبال بصياحهم يا فيدوبلياسوف ، وامض فى طريقك دون أن تلوى على شىء !

ـ حاولت أن لا أبالى ، ولكن ذلك لم يمنعهم من التمادى •••

قلت :

ـ اسمع يا عمى • هو يشكو من أنه أصبح لا يطيق الحياة هنا • فارسله زمنا الى موسكو ، الى أستاذه فى الخط • أظن أنك قلت لى انه عمل عند خطاط ، أليس كذلك ؟

ـ من سوء الحظ يا عزيزى أن ذلك الخطاط أيضا قد انتهى نهاية سيئة !

ـ كيف ؟

أجاب فيدوبلياسوف :

ـ اقترف جريمة الاستيلاء على مال غـيره ، فجنى من ذلك ، رغم موهبته ، أن أودع السجن ، حيث يقضى بقية عمره .

قال عمى :

ـ طيب ، طيب يا فيدوبلياسوف ! هدىء روعك الآن ، وسأسوى هذا الأمر كله . أعدك بذلك ! ولكن ماذا يفعل كوروفكين ؟ أما يزال نائما ؟

ـ أبدا ... لقد أراد أن يرحل ، وجئت أنبئك بذلك .

ـ أن يرحل ؟ ماذا تقول ؟ وهل تركته ينصرف ؟

كذلك صرخ عمى .

فأجابه فيدوبلياسوف :

ـ سمحت له أن ينصرف رأفةً به ! كان منظره يثير الشـفقة فى القلب . فانه حين استيقظ من نومه تذكر كل ما جرى ، فأخذ يعـول ويطلق صرخات أليمة ، ويضرب رأسه بقبضة يده .

ـ أخذ يعول ؟

ـ لكى أستعمل تعابير أقرب الى الاحترام أقول انه أخذ يئن أنواعا من الأنين . كان يصرخ متسائلا : « كيف يمكننى أن أمثـل الآن أمام الجنس اللطيف ؟ » . وأضاف بعد ذلك يقول : « لست جديرا بأن أكون انسانا » . وقد قال ذلك كله بحزن شديد وكلمات منتقاة !

ـ ألم أقل لك يا سرجى ؟ ان له قلبا حساسا مرهفا . ولكن لماذا تركته يذهب يا فيدوبلياسوف مع أننى أمرتك صراحةً بأن تحتفظ به ؟ يا رب ! ...

ـ اذا كنت قد تركته يذهب ، فما كان ذلك منى الا شـــفقة به ورحمة . لقد رجانى أن لا أقول لأحد شـــيئا . وكان حوذيه قد أطعم الحصـــان وقرنه الى العربة . أما عن المبلغ الذى أقرضـــته اياه منذ ثلاثة أيام ، فقد أمرنى بأن أشكره لك باحترام ، وأن أُبلغك انه سيرد اليـــك دينك فى بريد قريب .

سألت عمى :

ـ ما هو هذا المبلغ يا عمى ؟

فأجاب فيدوبلياسوف :

ـ تكلم عن خمسة وعشرين روبلا .

ـ هو مبلغ أقرضته اياه فى المحطة . كان يعوزه هذا المبلغ ليدفع ما عليه . سيرده الىّ فى أول بريد دون أى شك . قل لى يا سرجى : ما رأيك فى آن أبعث استدعيه ؟

ـ لا يا عمى ، الأفضل أن لا تجبره على العودة .

ـ ذلك تقديرى أيضا . هل ترى يا سرجى ؟ اننى لست بفيلسوف، ولكننى أعتقد أن فى كل انسان من الخير أكثر مما نحسبه فيه حين ننظر الى مظهره . كذلك كوروفكين : انه لم يطق احتمال الخزى الذى شعر به . ولكن هيا بنا الى فوما ! لقد تأخرنا كثيرا . لعله يشعر من عقوقنـــا ومن قلة اكتراثنا بجرح فى كرامته ... هيا بنـــا ! تعال معى ! آه ... كوروفكين ... كوروفكين ! ...

انتهت روايتى . تزوج الحبيبان واستقر ملاك الخير فى منزل عمى متجسدا فى شخص فوما . فى وسعنا هنا أن نسوق ملاحظات شتى وأن نزجى تعليقات كثيرة . ولكن لا فائدة من ذلك فى حقيقة الأمر . هذا رأيى على الأقل . لذلك سأستغنى عن الملاحظات والتعليقات ببضع كلمات

عن المصير الذى كتب على أبطال قصتى • ذلك أمر لا بد منه ، ولا تكمل بدونه روايتى •

لقد تم زفاف الخطيبين السعيدين (بفضل فوما) بعد انقضاء ستة أسابيع على الأحداث التى أتيت على وصفها ؛ تم الزفاف فى داخل الأسرة بدون جلبة أو ضوضاء ، فلا مظاهر أبهة ولامدعوين من الخارج • لاأحد الا بعض الأصدقاء • كنت أنا فتى الشرف لناستيا ، وكان ميزنتشيكوف فتى الشرف لعمى • وطبيعى أن الشخصية الأولى والرئيسية انما كانت شخصية فوما فومتش : فهو الذى تحلق حوله القوم ، وهو الذى كيل له المديح ، وهو الذى لوطف وجومل • ومع ذلك حدث ان نُسى ذات مرة حين صبت الشمبانيا • فسرعان ما نشبت مشكلة صحبتها ملامات واعوالات وأنات • هرع فوما يحبس نفسه فى غرفته ويقفل بابها بالمفتاح صائحا انهم يحتقرونه ، وانه أصبح الآن مع « الناس الجدد » الذين دخلوا فى الأسرة نفايةً لا تصلح لغير أن ترمى • وحزن عمى من ذلك حزنا شديدا ، واستبد به كرب عميق• وأخذت ناستيا تبكى • وسقطت الجنرالة مغشيا عليها كما جرت العادة بذلك ••• واستحالت مائدة الزفاف الى مائدة جنازة •

وخلال السنين السبع التى عاش فيها فوما فومتش بعد ذلك فى منزل عمى ، ذاق عمى المسكين وذاقت ناستيا المسكينة الأمرين من سلوك فوما صاحب الفضل عليهما • لقد ظل الى أن مات (وقد مات فى السنة الماضية) لا يكف عن تصديعهما بشراسة طبعه ، ونوبات اعتكار مزاجه ، وملاماته، وغضباته ، وتهديداته ، ولكن تفانى « الزوجين السعيدين » فى سبيله لم يضعف بسبب ذلك قط • بالعكس : كان تفانيهما فى سبيله يزداد بازدياد نزواته • لقد بلغ ياجور ايلتش وبلغت ناستيا من سعادة كل منهما بالآخر أنهما كانا يخشيان حتى هذه السعادة التى يتخيلان أن الله نفسه قد تجاوز

بها حدود القصد والاعتدال • واذ كانا يحسان أنهما لا يستحقان كل هذه الرحمة التى غمرهما بها الرب ، انتهيا الى الاقتناع أن عليهما أن يدفعا ثمن سعادتهما محنة قاسية • ففى وسع القارىء ان يفهم والحالة هـذه كيف استطاع فوما أن يفعل فى هـذا المنزل كل ما كان يخطر له على بال •••

ألا ما أكثر ما اخترع وابتكر أثناء هذه السنين السبع ! لا يستطيع المرء أن يتصور مدى ما مضت اليه نفسه العاطلة من شذوذ وغرابة ، ولا أن يتخيل الاكتشافات الأخلاقية والنزوات اللوقولوصية* التى كانت تتغذى بها هذه النفس العاطلة• ولقد ماتت الجنرالة بعد زواج عمي بثلاث سنين• فأصبح فوما يتيما ، وأظهر من الحزن والكرب مالا سبيل الى مغالبته • انهم حتى هذه اللحظة يستبد بهم الذعر والرعب حين يتذكرون الحالة التى ظهر بها عند موت الجنرالة ؟ ولا ينسون أنه بعد أن أهيل التراب على حفرة قبرها ارتمى معولا قائلا ان عليهم أن يدفنـوه مع المتـوفاة • وخلال الأشهر الثلاثة التى أعقبت الوفاة لم يتركوا بين يديه لا سكينا ولا شوكة مخافة أن ينتحر • وفى ذات مساء فتحوا فمه عنوة ليخرجوا منه دبوساً زعم أنه يريد ان يبلعه • وقد لاحظ احد شهود الدرامه اثناء ذلك أن فوما فومتش كان فى وسعه ألف مرة أن يبلع الدبوس أثناء الصراع لو شاء ذلك ، ولكنه لم يفعل • غير أن أهل البيت الذين سمعوا هـذا الكلام قد امتعضوا أشد الامتعاض ، ووصفوا قائله بأنه انسان شرير لا قلب له • ناستيا وحدها ابتسمت ابتسامة خفيفه ولزمت الصمت ؟ ولذلك رشقها عمي بنظرة قلق جاد • يجب أن نلاحظ مع ذلك أن فوما فومتش ، رغم ازدياد غطرسته ورغم النزوات التى لم يشأ أن يعدل عنها ، ولم يعد يسمح لنفسه بذلك الاستبداد الطاغى الذى كان يمارسه من قبل، ولم يعد يزجى لعمى ما هب ودب من الخطب الطويلة والنصائح الكثيرة كما كان

يفعل من قبل • كان فوما يتشكى ويتذمر ويندب ويكيل لعمى اللوم بعد اللوم ، ولكنه أصبح لا يهينه بمثل الوقاحة التى كان يعمد اليها • لم تتكرر مشاهد من نوع مشهد « صاحب السعادة » ، وعمى مدين بهذا لناستيا • فلقد استطاعت ناستيا ، دون أن يلاحظ أحد ذلك تقريبا ، ان تجبر فوما على انهاء أنواع الاذلال التى كان يوقعها فى زوجها • لقد أبت أن ترى فوما يستهزىء بزوجها ويضعه موضع السخرية ، وظفرت بتحقيق ما ارادته • أدرك فوما ادراكا واضحا أنها قد فهمته تقريبا ؛ وانما اقول « تقريبا » لان ناستيا نفسها كانت تدلل فوما وتعجب به ، وتجارى زوجها وتعاونه كلما أخذ يتغنى بمحاسن الرجل العظيم ويطرى مزاياه • وكانت تحرص أكثر ما تحرص على أن يحترم الجميع اراء عمى ، وكان هذا السبب وحده كافيا لان تشارك عمى تعلقه بفوما فومتش • وانى لمقتنع مع ذلك بان ناستيا قد نسيت الاهانات القديمة ، وبأنها غفرت لفوما كل شىء منذ اليوم الذى آذن فيها بتزوجها عمى • أضف الى ذلك أنها قد اقتنعت بفكرة عمى القائلة بأن على المرء أن لا يتشدد مع انسان « شهيد » كان فى الماضى مهرجا ، بل وأن على المرء أن يراعى مثل هذا الانسان وأن يدارى نفسه التى اصبحت شديدة التاذى• ان ناستيا المسكينة التى كانت فى الماضى من معشر المذلين ، والتى تحملت هى نفسها أشياء كثيرة ، وقاست آلاما كبيرة ، تدرك هذا الأمر خيرا مما يدركه أى انسان • ولقد هدأ فوما فى الشهر الذى أعقب الزواج ، حتى لقد ظهر خلال ذلك الشهر دمث الطبع لين العريكة طيب القلب • غير أن نوبات لم تكن فى الحسبان قد أخذت تظهر : لقد بدأ يشعر بتخدرات غريبة قريبة من داء التخشب (الكاتالبسيا) ، وكانت هذه النوبات من الدقة والاحكام بحيث تروع من يراها • من ذلك أن المريض كان ، أثناء كلام يقوله أو ضحكة يطلقها ، يتجمد فجأة على الوضع الذى كان عليه متى وافته النوبة : فاذا كان

يضحك ظل فمه منفرجا على الابتسامة ، واذا كان قد رفع شـــوكة ظلت الشوكة مشهرة بيده فى الهواء • ثم تسقط اليد أخيرا ، ولكن فوما لا يسترد وعيه فورا ، وانما يستمر يجيل عينيه الشاردتين ذاهلا ، لا يقول كلمة ولا يســـمع شيئا ، ولا يفهم أمرا • وكان يدوم هذا فى بعض الاحيان ساعة كاملة ويوشك المنزل كله أن يموت خوفا أثنــاء ذلك : فالحضور يحبسون أنفاسهم ، ويمشون على رءوس الأصابع ، ويسكبون الدموع • ويفيق فوما أخيرا ، فيشكو من اعياء رهيب ، ويؤكد أنه لم يسمع شيئا ولا رأى شيئا • هل يمكن أن يكون انسان قادرا على التظاهر بالألم ساعات برمتها لا لشىء الا ليستطيع أن يقول بعـــدئذ : « انظروا ! اننى أحس احساسات أعنف من احساساتكم ! » ؟ وحدث أخيرا فى ذات يوم ، بعد أن عاب فوما على عمى أنه « يهينه كل يوم ، وأنه يغض من قيمته ولا يوليه الاحتـــرام الذى يستحقه » حدث أن مضى فوما يسكن عند السيد باختشايف • وكان ستيبان ألسكيفتش قد تشــاجر مع فوما فومتش ، بعد زواج عمى ، مرارا ومرارا ، ولكن الأمور كانت تنتهى فى كل مرة نهاية واحدة : يأتى السيد باختشايف من تلقاء نفسه يسأل فوما أن يعفو عنه وأن يغفر له • وفى تلك المرة الأخيرة تحزب لفوما بحرارة شديدة ، وناصره على عمى مناصرة قوية ، واندفع يعـــرض عليــه أن يستضيفه • فلما مضى اليه فوما أكرم وفادته وأحسن علفه ، ثم قرر أن يشهر الحرب على عمى ، وأن يقاضيه أمام المحـــاكم • ذلك أنه كان هنالك قطعة من أرض غير مقسومة لم يختصم الرجلان عليها فى يوم من الأيام لأن عمى لم يخطر بباله أن ينازع فيها ستيبان ألكسيفتش يوما ، ولا أن يعارض دعاواه ومطامعه •

هيأ السيد باختشايف عربته دون أن يقول كلمة واحدة ، ومضى عدواً الى المدينة ، فأودع الشكوى وفقا للاصول ، طالبا من المحـاكم أن

تقضى له بملكية الأرض المتنازع عليها كاملة ، وأن تحكم بتعويضه عن جميع الأضرار ، وأن تقضى له بجميع الفوائد ، مع احتفاظه بحقــه فى مقاضاة عمى عن استيلائه على الأرض استيلاء غير مشروع • ولكن فوما فومنتش قد سئم الحياة فى منزل باختشايف أشد السأم ، فلما جاءه عمى فى الغداة معتذراً ، غفر له وعفا عنه ، ومضى معه على الفــور عائدا الى ستيبانتشيكوفو • حتى اذا رجع السيد باختشايف من المدينة فلم يجــد فوما فومنتش جن جنونه حنقا • لكنه ظهر فى ستيبانتشـيكوفو بعد ثلاثة ايام نادما تائبا ، يستغفر عمى بدموع غزار ، ثم يمزق شكواه • وسرعان ما صالحه عمى مع فوما فومنتش ، واصبح ستيبان الكسيفتش يتبــع فوما كما يتبع كلب صاحبه ، وعاد يردد بعد كلمة ينطق بها فوما قوله : « انت عالم يا فوما ! ما أذكاك يا فوما ! » •

ان فوما فومتش يرقد الآن قرب الجنرالة • وقد شيد على قبــره ضريح فخم من المــرمر الأبيض نقشت عليه كلمـات دامعة ، واماديح شعرية • وان ناستيا وياجور ايلتش يجيئان فى بعض الأحيان أثناء نزهاتهما الى المقبرة الصغيرة التى تحيط بالكنيسة فينحنيان أمام قبر فوما باحترام • وهما حتى هذه الساعة لا يستطيعان أن يجيئا على ذكره الا ويستولى عليهما حزن خاص وأسى مرير • انهمـــا يتذكرات كل كلمـة من كلماته ، ويتذكران ما كان يأكل وما كان يحب • وقد حُفظت أشياؤه كما تحفظ كنوز • ان موت فوما قد تركهما فى وحشة ، فازداد تعلق كل منهمـا بالآخر • ولم يهب لهما الله أولادا • فشعرا من ذلك بحزن عميـق ، ولكنهما لا يجرؤان أن يشكوا • وقد تزوجت ساشا منذ زمن شابا ممتازا •• أما اليوشا فهو يدرس فى موسكو • وهكذا فان عمى وناستيا يعيشان وحيدين ، ولا يحيا كل منهما الا بالأخر ؛ حتى ليوشك اهتمام كل منهما بأن يوفر السعادة لصاحبه أن يكون قلقا مرضــيا • وان ناستيا ما تنفك

تصلى من أجل زوجها وتدعو له • وأحسب أنه لو مات أحدهما لما عاش الثاني بعده آكثر من ثمانية أيام • أسأل الله أن يحفظهما وأن يمـــد في عمرهما ! انهما يستقبلان زوارهما بمودة عظيمة وايناس كبير ، وهمـــا مســـتعدان لأن يشاركا كل انسان معذب ما يملكان • وان ناستيا تحب قراءة حياة القديسين ، وتدّعي بتواضــع أن الأعمـــال الصـــالحة العادية لا تحقق خيرا كافيا ، وأن على المرء أن يهب كل شيء للبؤساء ، وأن ينشد السعادة في الفقر •

ولو كان عمي لا يحفل بمستقبل ساشا واليوشا لبدد ثروته منـــذ زمن طويل ، لأنه يوافق زوجته دائما• ولم تتركهما براسكوفي ايلنتشنا، وهي تعنى بهما أشد العناية ، وهي التي ما تزال تدير شـئون المنزل • وقد عرض عليها السيد باختشايف الزواج بعد زفاف عمي بمدة قصيرة ، ولكنها رفضت رفضـــا قاطعا • استنتج الناس من ذلك انهـــا تريد دخـــول الدير ، ولكن هذا الافتراض لم يتحقق • ان في طبيعـــة براســـكوفي ايلنتشنا سمة بارزة ، هي حاجتها الى نسيان نفســـها دائما في سبيل من تحبهم ، والى البحث في قرارة أعينهم عن رغباتهم الخفية بغية تحقيقهـــا لهم على خير وجه ، أي الى السير وراء من تحبهم خطوة خطـــوة ، والى خدمتهم بغير انقطاع • ومنذ ماتت الجنرالة ، أمها ، اعتقدت أن من واجبها أن لا تترك أخاها قط ، وأن تفعل كل ما تستطيع فعله في سبيل ارضـــاء ناستيا • وما يزال الشيخ ياجفكين حيا ، وقد أصبح في هذه الآونةالأخيرة يكثر من زيارة ابنته • كان في أول الأمر يبعد نفسه هو وقطيعه (كذلك كان يسمي أولاده) عن المنزل ، فكان ذلك يحزن عمي أشد الحزن، ولم يُجد فيه الحاح عمي ولا نفعت فيه لجاجته، فلقد كان الرجل علىجانبعظيم من الكبرياء، حتى أن كرامته وحساسيته تكتسيان في بعض الأحيانصورة مرضية • كان اذا تصور أنه ، هو الرجل المعوز ، يمكن أن يكون استقباله

في منزل ثرى نوعا من البر والاحسان ، وأن يكون في مجيئه الى هـذا المنزل ازعاج لأحد ، كان اذا تصور ذلك ، يبلغ من النفـور في بعض الأحيان أنه يرفض حتى المعونة الزهيدة التى كانت تقدمها اليه ناستيا ، وهو لم يرض أن يأخذ منها الا القدر الضئيل الذى لا بد منه ولا غنى عنه . أما من عمى فلم يقبل أن يأخذ قرشا واحدا في يوم من الأيام . لقد أخطأت ناستيا خطأ كبيرا حين قالت لى أثناء لقائنا في الحديقـة ان أباها يمثل دور المهرج في سبيلها هى . صحيح أنه كان يرغب كثـيرا في أن يرى ناستيا متزوجة عمى . ولكنه كان لا يمثل دور المهرج الا من أجل أن يجد منفذا لضروب الغضب التى كانت تتراكم في نفسه . ان حاجته الى السخرية والى سلاطة اللسان كانت أقوى منه . كان مثلا يصطنع أوضاع رجل متملق دنىء دناءة كريهة ؛ ولكنه كان يحـرص على أن لا يُخدع أحد في أمر هذا التملق : كان كل انسان يدرك ان تملقه هذا مصطنع ، فكلما كان تملقه أكبر كانت سخريته ألذع . هكذا خلق . وقد أتيح لجميع أولاده أن يعهد بهم الى مدارس جيدة بموسكو أو بطرسبرج ، ولكن ذلك لم يتم الا بعد أن استطاعت ناستيا أن تبرهن لأبيها بالحجة المقنعة أن تعليمهم سيكون على نفقتها هى ، أى من الثلاثين ألف روبل التى أهدتها اليها تاتيانا ايفانوفنا .

والحق أن هذه الثلاثين ألف روبل لم تقبل من تاتيانا ايفانوفنـا يوما ؛ ولكن من أجل أن لا تحزن تاتيانا ايفانوفنا ، ومن أجل أن لاتشعر باهانة ، وُعدت بأن يُلجأ اليها متى احتاجت الأسرة الى أى مال . ومن أجل اقناعها اقناعاً تاما اقتُرض منها فعلا مبلغٌ ضخم في مرتين . ولكن حين ماتت تاتيانا ايفانوفنا منذ ثلاث سنين آلت هذه الثلاثون ألف روبل الى ناستيا رغم ارادتها . وقد ماتت المسكينة تاتيانا ايفانوفنا فجأة . كانت الأسرة تستعد كلها لحضور حفلة راقصة ستقام في منزل أحد الجـيران

من أصحاب الأملاك • فما ان فرغت تاتيانا ايفانوفنا من ارتداء ثوب الحفلة، ومن تتويج رأسها بأكليل رائع من ورود بيضاء ، حتى شعرت بألم على حين فجاة ، فتهالكت على كرسيها ولفظت أنفاسها الأخيرة • وقد دفنت مع اكليل الورد الذى توجت به رأسها • واستبد بناستيا عندئذ حزن شديد وكرب عظيم • ولقد كانت تاتيانا ايفانوفنا قبل موتها تدلل فى المنزل كثيرا وتدارى كما يدارى طفل • وما كان أشد دهشة الناس حين اطلعوا على وصيتها فرأوا ما فيها من حكمة • لقد أوصت تاتيانا ايفانوفنا بباقى ثروتها ، بعد اقتطاع الثلاثين ألف روبل التى خصت بها ناستيا ، أوصت بباقى ثروتها ، وهو يبلغ حوالى ثلاثمائة ألف روبل ، لليتيمات تنفق فى تعليمهن وفى تزويدهن ببائنة حين ينهين دراستهن •

وفى السنة نفسها التى ماتت فيها تاتيانا ايفانوفنا ، تزوجت بيربلتسين. لقد ظلت فى منزل عمى بعد وفاة الجنرالة ، أملاً منها فى التشبث بتاتيانا ايفانوفنا • وفى أثناء ذلك توفيت امرأة الموظف المتقاعد الذى كان قد اشترى ميشينو ـ وميشينو هى تلك القرية الصغيرة نفسها التى جرى فيها ذلك المشهد بين أوبنوسكين وأمه من جهة وبين مطاردى تاتيانا ايفانوفنا من جهة أخرى ـ وكان لهذا الموظف ، وهو انسان مناكد مشاكس كريه ، كان له من زوجته الأولى ستة أولاد صغار • وقدّر الرجل أن بيربلتسين تملك بعض المال ، فبعث يخطبها زوجة له ، فسرعان ما لبت الطلب • ولكن بيربلتسين كانت فقيرة فقر أيوب • انها لا تملك الا الثلاثمائة روبل فضة التى أهدتها اليها ناستيا بمناسبة زفافها • فالزوج والزوجة يتشاجران الآن من الصباح الى المساء • انها تشد شعر الأولاد ، وتوزع عليهم اللطمات قوية شديدة • حتى لقد قيل انها تنشب أظافرها فى زوجها ولا تنقطع عن تذكيره بأنها ابنة ليوتنان كولونيل •

ولميزنتشيكوف نهاية أيضا • لقد احتكم ميزنتشيكوف الى عقله فعدل

عن تاتيانا ايفانوفنا ، وانصرف شيئا فشيئا الى دراسة الزراعة • وقد زكاه عمي لكونت ثري ، وأوصاه به خيرا • كانت أملاك الكونت تقع على مسافة نحو ثمانين فرسخا من ستيبانتشيكوفو وكان عدد أقنانها ثلاثة الاف نفس• وكان الكونت لا يزور أراضيه الا لماما • لاحظ الكونت كفاءات ميزنتشيكوف فاخذ بها ، ونظر بعين الاعتبار الى تزكية عمي وتوصيته أيضا ، فعرض على ميزنتشيكوف أن يتولى ادارة قرية له كان قد طرد منها ناظرها القديم منذ قليل ، وهو رجل ألماني نهب الكونت وجرده كما تجرد شجرة زيزفون من قشرها ، رغم ما عرف به الألمان من أمانة هي مضرب المثل • فما انقضت خمس سنين على استلام ميزنتشيكوف ادارة القرية حتى تغير وجه القرية فلا تكاد تعرف ؛ اغتنى الفلاحون ، وباشروا زراعات كانت تعد قبل ذلك مستحيلة ، وتضاعفت الايرادات •• فذاع صيت الناظر الجديد ، وأصبح الناس لا يتحدثون في المنطقة كلها الا عن ثقافته وكفاءاته ومقدرته • ولذلك ما كان أشد ذهول الكونت وما كان أشد حزنه حين أعلن له ميزنتشيكوف ، بعد توليه ادارة القرية مدة خمس سنين ، أنه لن يبقى في خدمته ؛ أعلن ميزنتشيكوف ذلك للكونت جازما قاطعا ، غير حافل بتوسلات الكونت وضراعاته ، وغير عابىء بما عرضه عليه الكونت من اجزال العطاء له • وقد ظن الكونت أن أحد جيرانه هو الذي أغرى ميزنتشيكوف بتركه ، أو أن أحد أصحاب الأملاك في المنطقة المجاورة هو الذي حضه على ذلك ليعهد اليه بادارة أملاكه • فما كان أشد دهشة الناس حين علموا بعد شهرين أن ايفان ايفانوفتش قد استقر في قرية جميلة عدد أقنانها مائة ، وتبعد عن قرية الكونت مسافة أربعين فرسخا ، وقد اشتراها من أحد رفاقه القدامى في الجيش بعد أن دمرهذا نفسه في الفحش والفجور! وسرعان مارهن ميزنتشيكوف

عقاره ، ثم اذا هو يملك مائة وستين نفسا بعد انقضاء سنة واحدة على ذلك •

أصبح الآن اذن من أصحاب الاملاك ، وأملاكه هي من تلك الأملاك التي لا ينقصها شيء • والناس جميعا يتساءلون من أين جاء بهذا المال كله ، وبعضهم يهز رأسه محترسا لا يريد أن يورط نفسه في كلام • ولكن ايفان ايفانوفتش يحتفظ بهدوئه لا يعكره عليه شيء ، ويشعر انه على حق تام في كل ما فعل • وقد استدعى أخته من موسكو ، وهي أخته تلك التي أعطته الروبلات الثلاثة الأخيرة التي كانت تملكها ، من أجل أن يرقّع حذاءيه قبل رحيله الى ستيبانتشيكوفو • انها فتاة رائعة ، قد تجاوزت سن الشباب الأول، لطيفة ودود محببة مثقفة، ولكنها وجلة وجلا شديدا • لقد تعذبت زمنا طويلا بموسكو ، حيث كانت تعمل وصيفة لسيدة محسنة ، فهي الآن تطرى أخاها اطراء عظيما ، وتدير شئون منزله ، وتطيعه طاعة عمياء ، وتعلن أنها سعيدة كل السعادة • وأخوها لا يدللها كثيرا ، حتى انه يهملها بعض الاهمال ، ولكنها لا تلاحظ هي ذلك • والناس في ستيبانتشيكوفو يحبونها كثيرا ، وقد هزت نفس السيد باختشايف ، حتى ليقال انه يود لو يخطبها لولا أنه يخشى أن ترفضه • على أننا نأمل أن نتكلم عن السيد باختشايف بمزيد من الافاضة في رواية قريبة •

أحسب انني استعرضت جميع الناس ، ولكن لا! ••• نسيت أن أقول ان جافريلا قد طعن في السن كثيرا فنسي ما تعلمه من اللغة الفرنسية نسيانا تاما • أما فالالي فهو الآن حوذي رائع ، وأما فيدوبلياسوف فقد أدخل مستشفى المجانين منذ زمن طويل ، وأظن أنه قد مات فيه ••• سوف أسافر قريبا الى ستيبانتشيكوفو ، فأسأل عنه عمي •••

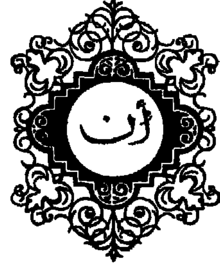
حلم العم

١٨٥٩

« حلم العم »   Diadouchkine sone

كتبت سنة ١٨٥٨ بمدينة سيميبالاتنسك ، ونشرت فى مجلة « كلام روسيا » ، آذار مارس ١٨٥٩ .

الفصل الأول



ماريا الكسندروفنا موسكاليوفا هى السيدة المرموقة في مورداسوف • ذلك امر لا مراء فيه ، ولا يمكن أن يخالطه ظل من شك • يحسب المرء حين يراها أنها ليست فى حاجة الى أحد ، وأن جميع الناس فى حاجة اليها • والحق ان الناس لا يحبونها كثيرا • حتى ان كثيرا منهم يكرهونها كرها واضحا • ولكنها تبث الخوف فى القلوب ، ولا شىء يحلو لها أكثر من ذلك، لأنه دليل على سياسة عليا • مثلا : لماذا نرى ماريا الكسندروفنا التى تحب النمائم الى درجة العبادة ، ولا يغمض لها جفن طوال الليل اذا هى لم تستطع أثناء النهار أن تعرف شيئا جديدا ، لماذا تتمكن رغم ذلك من اصطناع هيئة الفخامة والأبهة الى هذا الحد ؟ ليس يخطر ببالنا أبدا أن سيدة على هذا الجانب العظيم من النبالة يمكن أن تكون أكبر نمامة فى العالم ، أو أكبر نمامة في موردا سوف على الاقل • بالعكس : ان المرء لمستعد أن يحلف أن الأقاويل لا يمكن أن تتداولها الألسن فى حضورها، وأن ناقلات الأنباء لا بد أن تحمر وجوههن وترتجف أجسامهن أمامها كتلاميذ المدرسة أمام معلمهم ، وأن الحديث لن يدور عندها الا على موضوعات سامية رفيعة • ومع ذلك فانها بارعة فى معرفة الأنباء براعة عظيمة بحيث لا تخفى عليها خافية ولا تغيب عنها شاردة ولا واردة • وهى تعرف عن بعض سكان موردا سوف فضائح سرية تبلغ من الفظاعة أنها لو بدا لها أن تكشف عنها فى اللحظة المناسبة وأن تبرهن على صحتها

برهانا لا يستطيع غيرها منله ، اذن لاهتزت موردا سوف على قواعدها اهتزاز لشبونة حين باغتها الزلزال • ولكن ماريا الكسندروفنا تظل منطوية على أسرارها انطواء شديدا ، لا تشير اليها الا فى مناسبات خطيرة لأصدقاء حميمين جدا ؛ وهى تكتفى بالالماع الى ما تعرفه الماعا خاطفا ، لأنها تؤثر أن تروّع محدثها (أو محدثتها) وأن تجعله يحبس أنفاسه ، على ان تسحقه سحقا حاسما • تلك براعة ، تلك موهبة • وقد تميزت ماريا ألسكندروفنا بيننا دائما بأنها سيدة لائقة ؛ ذلك أمر لا يضارعها فيه أحد • وبفضل أنها سيدة لائقة انما يصعب أن تعد بين نمامات مورداسوف العاديات • ان فى وسعها أن تمزق احدى غريماتها شرّ تمزيق ، أو أن تدفنها تحت الأرض ، مع تظاهرها بأنها قالت الكلمة القاتلة سهوا وغفلة • وأنتم تعلمون أن هذا النوع من اللطف والرهافة وقف على أبناء المجتمع الراقى • ومهما يكن من أمر فتلك عندها براعة من براعات الحواة تفوقت فيها على « بينتى » * •

ولماريا الكسندوفنا علاقات كثيرة • ان أكثر الأشخاص الذين يزورون مورداسوف يطرون حفلاتها أشد الاطراء ، حتى اذا غادروا مورداسوف أخذوا يبادلونها الرسائل • حتى لقد نظم أحدهم فى تكريمها قصيدة شعر كانت ماريا تظهر عليها الناس معتزة فخورة ؛ كما أن كاتبا من الكتاب أهدى اليها رواية من تأليفه بعد أن قرأها فى سهرات منزلها حين كان مارا بالمدينة ؛ فكان لهذا الاهداء أثر من أعظم الآثار ؛ كما أن العالم الألمانى الذى جاء من كالسروهى خصيصا للكشف عن الدور الخاص الذى تقوم به الدودة القرناء فى افساد قمح مقاطعتنا ، والذى كتب عن هذه الدودة أربع كراريس ، قد بلغ من تأثره باستقبال ماريا الكسندروفنا له وتوددها اليه ولطفها فى معاملته أنه ما يزال حتى يومنا هذا يبعث اليها من كالسروهى برسائل تفيض احتراما وعلما وأخلاقا •

حتى لقد مضى بعضهم فى بعض الظروف الى حد تشبيهها بنابليون • لا شك أن هذا التشبيه قد أطلقه اعداؤها ، من قبيل السخرية لا من قبيل الاعجاب المحض • ولكن مع اعترافى بسخف هذا التشبيه فاننى أتجرأ فالقى هذا السؤال البسيط : لماذا دار رأس نابليون حين ارتفع ذلك الارتفاع العظيم ؟ لقد قال دعاة الشرعية * ان ذلك يرجع الى أن نابليون لا ينحدر من سلالة ملوك ، بل ولا هو رجل راق من طبقة عالية ؛ لذلك كان لا بد أن يشعر بدوار حين رأى نفسه مرتفعا ذلك الارتفاع كله بالقياس الى المكانة التي يستحقها • ورغم البراعة الواضحة فى هذا الجواب الذى يذكر بأحسن عهد من عهود النظام القديم ، فاننى أجازف فأتساءل أيضا : لماذا لن تشعر ماريا الكسندروفنا يوما بدوار فى أى ظرف من الظروف ؟ لماذا ستظل سيدة مورداسوف الأولى غير منازعة ؟ صحيح أنه مرت أحداث معينة وظروف صعبة كان كل واحد فيها يقول : فلنر ما عسى تفعل ماريا الكسندروفنا ! ولكن الخطوة المحرجة قد خُطيت وتم تجاوزها ووُجد المخرج منها دون عقبات ، وسار كل شيء بعد ذلك كما كان يسير من قبل ، بل وخيراً مما كان يسير من قبل ! من ذلك مثلا أنه حين فقد آناستازى ماتفئتش منصبه (وهو زوج ماريا ألكسندروفنا) لعجزه وقلة ذكائه بعد أن أثار غضب مفتش كان يقوم بجولة ، توقع الناس أن يروا ماريا ألكسندروفنا ذليلة تتوسل وتتضرع •• أى تخفض جناحها وتخنع ! ولكن أبدا ••• لقد شعرت ماريا ألكسندروفنا أن لا فائدة من التوسل والضراعة • ثم قادت المركب ببراعة تبلغ من الاحكام أنها لم تفقد شيئا من نفوذها وأن منزلها ظل يعد أول منزل في مورداسوف • ولقد تولت زوجة وكيل النيابة ، آنا نيكولايفنا آنتيبوفا ، وهي العدوة اللدود لماريا الكسندروفنا ، وصديقتها فى الظاهر ، تولت اشاعة النبأ فى الناس والتشهير بسقوط غريمتها ،

ولكن حين لوحظ أن ارباك ماريا الكسندروفنا ليس بالآمر السهل، أ درك انها أصلب عودا وأقوى بأسا مما تُصوِّر فى أول الأمر •

وما دمنا قد ذكرنا اسم اناستازى ماتفئتش ، زوج ماريا ألسكندروفنا، فلنقل عنه بضع كلمات • هو أولا رجل مهيب الطلعه جداً ، له وجـــه فلاح • ولكنه فى اللحظات الحرجه يفقد سيطرته على نفسه ويصبح أشبه بخروف ضل طريق الخروج من حظيرته • حقا ان له مظهرا مهيبـا ، ولا سيما حين يحضر حفله عشاء ذات أبهة ، لابسا ربطة عنق بيضاء • ولكن هذه المهابة كلها وهذه الفخامة كلها تنهاران متى أخـــذ يتكلم • وليس على المرء عندئذ الا آن يصمّ أذنيه • انه حقاً غير جدير بأى ينتمى الى ماريا آلكسندروفنا • ذلك رأى الناس جميعا • وهو على كل حال ما كان ليحتل منصبا من المناصب لولا عبقرية زوجته • وفى رأيى المتواضع أنه كان ينبغى منذ زمان طويل آن يجعل فزّاعة لتخويف العصافير فى الحديقة • فهناك ، هناك فقط ، كان يمكن أن ينهض بالدور الذى لايمكن انكاره عليه ، الدور الذى يناسب هيئته الفخمة ، وهو أن يكون حاميا • ومن أجل ذلك انما اتخذت ماريا آلكسندروفنا قرارا له ما يسوغه حـين أبعدت آناستازى ماتفئتش الى أرضها التى تملكها على مسافة ثلاثة فراسخ من موردا سوف ـ وهى أرض تضم مائة وعشرين نفساً هى (يجب أن نذكر هذا عابرين) جميع الموارد التى بفضلها تعيش ماريا الكسندروفنا تلك الحياة المحترمة فى منزلها• وقد أدرك كل واحد عندئذ أنها لم تحتفظ بزوجها قريبا منها قبل ذلك الا لمنصبه وراتبه وما ينشأ عنهما من منافع • أما وقد أصبح لا يتقاضى شيئا ، فقد كان لا بد من اقصائه ، لأنه لا يصلح لشىء ولافائدة منه • ولذلك حظيت ماريا ألكسندروفنا حين أقصت زوجها بامتداح جميع الناس سدادَ رأيها وصلابة عزيمتها •

ويعيش آناستازى ماتفئتش فى القرية حياة هادئة • لقد ذهبت اليه

أزوره ، وقضيت معه ساعة كاملة ممتعة جدا • انه يجرب ربطات عنقه البيضاء ، ويلمع أحذيته بنفسه ، لا عن عوز وحاجة ، بل حبا بالفن ، فهو يحرص أشد الحرص على أن تكون أحذيته باهرة بلمعانها • وهو يحب الاستحمام حبا عظيما ، ويرشف شايه ثلاث مرات فى اليوم ، ولا تتعدى سعادته هذه الحدود • هل تتذكرون تلك الحكاية الكريهه التى شاعت بيننا منذ سنة ونصف سنة عن سلوك زينائيد آتاناسيفنا ، الابنة الوحيدة لماريا ألكسندروفنا وأتانازى ماتفئتش ؟ ان زينائيد ـ وهذا مشتق من اسمها زينا ـ فتاة بارعة الجمال حسنة الثقافة، قد بلغت الثالثةوالعشرين من عمرها ، ومع ذلك لم تتزوج • فمن بين الأسباب التى يرد اليها أنها لم تملك حتى الآن زوجا سبب" هو أهم تلك الأسباب ، وهو تلك الشائعات الغامضة التى سعت فى الناس عن علاقات غريبة قامت منذ ثمانية عشر شهرا بينها وبين معلم مدرسة من مدارس القرى ، وهى شائعات تصر على أن لا تنطفىء ، فما زالت ألسنة الناس تتحدث حتى الآن عن رسالة غرامية كتبتها زينا ، وتناقلتها الأيدى فى مورداسوف • قولوا لى مع ذلك : من ذا الذى رأى تلك الرسالة ؟ واذا كانت الأيدى قد تناقلتها فمن أين وصلت الى هذه الأيدى ؟ لقد سمع كل واحد كلاما عن هذا الأمر ، ولكن ما من أحد رأى بعينيه شيئا ! على كل حال ، أنا لم ألق أحداً رأى بعينيهتلك الرسالة • واذا ألمع أحد الىأمر الرسالة أمام ماريا ألسكندروفنا، فانها لا تزيد على أن لا تفهم ••• فافرضوا أن هناك رسالة كتبتها زينا حقا ، افرضوا أن زينا سطرت بضع كلمات (ويغلب على ظنى أن زينا قد فعلت ذلك) ، أفلا ترون اذن الى هذه البراعة من جانب ماريا ألكسندروفنا ؟ هل من وسيلة تفضل هذه الوسيلة لسحق قضية كهذه القضية ، وخنق فضيحة كهذه الفضيحة ؟ ان لم يوجد أثر فلا دليل ! والله يعلم كم جهدت ماريا ألكسندروفنا هذه نفسها ، التى تترفع عن الاصغاء

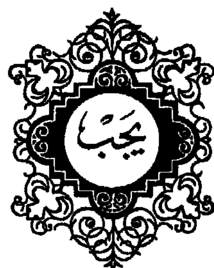
الى نميمة كهذه النميمة ، كم جهدت فى سبيل أن تحافظ على شرف ابنتها الوحيدة سليماً لا يمسه أذى ! ثم انه لامر يسهل فهمه أن لا تكون زينا قد تزوجت • فأين الشاب الذى يصلح زوجا لها هنا ؟ ان زينا لا يمكن أن تتزوج الا أميرا حاكما • هل رأيتم جمالا كهذا الجمال فى يوم من الايام ؟ الحق أن زينا مزهوة بنفسها ، ولعلها مسرفة فى الزهو بنفسها • وقد قيل ان موزجلياكوف يسعى اليها • ولكن هل هذا زواج ممكن ؟ من هو موزجلياكوف هذا ؟ صحيح أنه شاب وسيم أنيق ، وهو يملك مائة وخمسين نفسا ، وهو قادم من بطرسبرج • ولكن طائش ثرثار أهوج ، متشرب بآراء عصرية مفرطة • ما قيمة مائة وخمسين نفسا حين يتباهى صاحبها بأفكار جديدة ؟ لا ، ذلك زواج مستحيل !

ان كل ما قرأتموه الآن انما كُتب منذ حوالى خمسة أشهر ، أثناء اندفاعة عاطفية حنون معجبة • وانني لأعترف لكم سلفا بأننى متعلق قليلا بماريا ألكسندروفنا • كنت أود لو أكتب بضع كلمات مديح عن هذه السيدة الممتازة ، فى صورة رسالة شبيهة بتلك الرسائل التى طبعت فى الزمان الماضى (ذلك الزمان الذى أحمد الله على أنه لن يعود قط) فى جريدة « نحلة الشمال » * وغيرها من الجرائد والمجلات • ولكن الواقع أنه ليس لى صديق ، ناهيك عما أشعر به من خجل يشعر بمثله الكتاب • لذلك بقيت لى هذه الصفحات ذكرى استرخاء وادعٍ أثناء ساعات ضجر ؛ ولم تكن الا محاولة قلم مهجور على الطاولة •

انقضت اذن خمس سنين؛ وفجأة وقع حادث غريب فى مورداسوف: ففى ذات صباح ، فى ساعة مبكرة من ذات صباح ، ظهر الأمير ك فجأة فى المدينة ونزل ضيفا على ماريا ألكسندروفنا ؛ وكانت نتائج وصول الأمير ك من الأمور التى لا سبيل الى حسابها • لم يمكث الأمير ك فى مورداسوف الا ثلاثة أيام ، ولكنها ثلاثة أيام خلفت ذكرى تتصف بأنها قدر لا رادّ

له ؛ بل يجب أن أقول أكثر من ذلك : يجب أن أقول ان الأمير قد قلب المدينه عاليها سافلها • ولا شك أن قصة هـــذا الانقلاب هي صفحة من الصفحات الرئيسيه في تاريخ مورداسوف • فهذه الصفحة هي التيفررت أخيرا ، بعد تردد كثير ، آن أقدمها للجمهور الكريم في صورة أدبيـــه ليحكم عليها • ان كتابي يشتمل على الحكاية الغريبة الكاملة لصعود نجم ماريا ألكسندروفنا وما حظيت به من مجد ، وما هوت اليه بعـد ذلك من سقوط كان له دوى كبير ، كما يشـــتمل على حكاية منزلهـــا كله في مورداسوف ، وذلك موضوع يغـــرى الكاتب أيما اغراء • على أن من الضرورى قبل كل شيء أن أشرح جانب الغرابة في دخول الأمير ك الى مورداسوف ، وكذلك في وصوله الى منزل ماريا ألسكندروفنا • لهـذا لا بد من بضـــع كلمات عن الأمير ك • ناهيك عن أن سيرة حياة هـذه الشخصية أمر لا يمكن الاستغناء عنه اطلاقا لاتمام قصتنا • واذن فلأبدأ •

الفصـــل الثـاني



أن أقول قبل كل شيء ان الامـــير ك لم يكن طاعنا فى السن كثـيرا • ومع ذلك فان المرء لا يملك حين يقع عليه بصره الا أن يتصــــور أنه يوشك أن يتهاوى ، من فرط ما يبدو متهدما بل قل مهترئاً •

لطالما ر ويت عنه فى مورداسوف حكايات تفوق غرابتها الخيــال • حتى لقد قيل ان هذا الشيخ قد رجع عقله الى الطفولة • والأمر الذى كان يبدو لجميع الناس غريبا غرابة خاصة هو أن هذا الملاّك الذى يملك أربعة آلاف نفس والذى ينحدر من محتد نبيل ، والذى كان فى وسعه ، لو شاء ، أن يمارس نفوذا كبــــيرا على اقليمنا ، انما كان يعيش متوحدا منعزلا فى أملاكه العظيمة ؛ وأكثر الذين عـــرفوه منذ سبع ســـنين أو ثمان أثناء اقامته فى مورداسوف يزعمون أنه كان فى ذلك الأوان لايطيق الوحدة والعزلة ، ولا يتصف بشيء مما يتصف به ناسك معتكف •

اليكم مع ذلك ما استطعت أن أعرفه عنه من أحدهم :

لقد دخل الأمير ، ابان شـــبابه ، وذلك يرجع الى عهـــد بعيد جداً ، دخل الحياة دخولا ساطعا يبهر الأبصار ، وأنفق أموالا طائلة فى غـــير مبالاة ، وغنى أغنيات غرام ، وقال فكاهات جناس ، دون أن يبرهن على ذكاء أو كفاءة فذة • وكان طبيعيا أن تذهب فى ذلك ثروته كلها ، حتى

اذا تقدمت به السن رأى نفسه صفر اليدين على حين فجأة • فنصحه أحدهم يومئذ أن يعود الى املاكه التي كانت ستباع بالمزاد • فعزم أمره على ذلك ، وجاء الى موورداسوف يقيم فيها ستة أشهر • وقد أعجبته الحياة في الريف كثيرا ، وبدد هنالك آخر قرش كان قد بقي له ، بدّده في فجوره المألوف وفي مغامرات عاطفية مع عدة سيدات من البندر • على أن الامير كان انسانا ممتازا رغم أفعاله الشاذة الغريبة الاميرية ، حتى ان هذه الأفعال الشاذة الغريبة نفسها لم تسؤ الناس ولا نفرتهم ، بل لقد أحدثت أثرا في أهل موورداسوف الذين كانوا يرون فيها سمةً من السمات التي يتميز بها المجتمع الراقي • والسيدات هنّ اللواتي لم ينقطع اعجابهن بهذا الضيف الفتان الأخاذ • وقد احتفظ الناس عن ذلك العهد بعدة ذكريات طريفة • يقال مثلا ان الامير كان يقضي أكثر من نصف النهار في اتمام زينته ، وانه كان كمن يتألف من قطع مجلوبة من هنا ومن هناك •• لم يكن أحد يدري أين ولا متى تفكك هذا التفكك • كان له شعر اصطناعي ، وشاربان اصطناعيان ، ولحيتان اصطناعيتان ، أي كان شعر رأسه كله اصطناعيا مصبوغا بسواد فاحم • وكان يخضّب وجهه بالمساحيق في كل يوم • ويقال انه بفضل نوابض مخبأة ببراعة تحت قبعة شعره الاصطناعي ، كان يخفي تجاعيد وجهه • ويقال أيضا انه كان يلبس مشدا لأن أحد أضلاعه كان قد تحطم حين قفز من النافذة قفزة سريعة أثناء احدى مغامراته الغرامية في ايطاليا • وكان الأمير يعرج بساقه اليسرى ، وكان الناس يؤكدون أن هذه الساق اصنطاعية ، وأن ساقه الصحيحة الأولى قد كسرت في باريس ، أثناء مغامرة أخرى ، فأبدلت بساق اصطناعية تحاكي الأولى محاكاة جيدة • وما أكثر ما كان يقال على كل حال ! ••• والحق أن عينه اليمنى كانت من زجاج ، ولكن هذا الزجاج كان يحاكي العين الأصلية محاكاة فنية بارعة ؛ كما أن

أسنانه قد صنعتها له يد ماهرة • كان يقضي النهار كله في التطيب والتعطر والتدهن • ويتذكر الناس مع ذلك أن الأمير قد أخذ منذ ذلك الحين يهوي الى الهرم والتقحل سريعا ، وأنه أخذ يثرثر ثرثرة لا تطاق • اذن لقد انتهت حياته • وكان الناس جميعا يعلمون ان جيبه قد خوت ، وانه اصبح لا يملك فجلة ! ولكن في تلك اللحظة ماتت احدى قريباته فجأة، وهي امرأة طاعنة في السن كانت تقيم دائما بباريس ، وكان هو لا يأمل ان يرثها بحال من الأحوال ، ماتت فجأة بعد شهر واحد من دفنها وريثها الشرعي ، وذلك أمر لم يكن في الحسبان • فكذلك أصبح الأمير يملك ارضا زراعية عظيمة تضم أربعة آلاف نفس ، وتقع على مسافة ستين فرسخا من مورداسوف ، يملكها خالصة له بغير شريك • وسرعان ما سافر الأمير الى بطرسبرج يسوّي أموره ويدبر شئونه • وفي ذلك الحين انما أولمت له سيداتنا مأدبة وداع جمعن نفقاتها اكتتابا • فما كان أزخر تلك الحفلة بنكات الجناس ، وعجائب الفكاهات المرحة والنوادر المليحة والأمازيح المسلية ! ••• وقد وعد الأمير ليقيمنّ قريباً في دوخانوف (القرية التي تمثل في نظره اكتشاف كنز جديد) ، وحلف ليتابعنّ الحفلات والنزهات والبالات والأسهم النارية بغير انقطاع متى عاد • وفي أثناء السنة التي انقضت على سفره لم تتحدث السيدات الا عن هذه الحفلات الموعودة بانتظار عودة شيخهن اللطيف العزيز • ومن أجل أن يخادعن لهفتهن الرهيبة الى تحقيق هذه الوعود ، قمن برحلات الى دوخانوف ، حيث كان يوجد منزل عريق من منازل السادة الكبار ، له حديقة تتناثر فيها أكواخ جميلة ، وبيوت صغيرة ، ومبان أخرى رائعة ، وتزينها أشجار الأكاسيا مقدودةً على صور أسودٍ ، وتحلّيها تلال مصنوعة ، وغدران تنزلق على صفحة أمواهها مراكب ، وتماثيل خشبية تمثل أتراكا ينفخون في شبابه•

وعاد الأمير أخيرا • ولكن ما كان أشد دهشة الجميع ، وما كان أشد



الأمـــير

بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

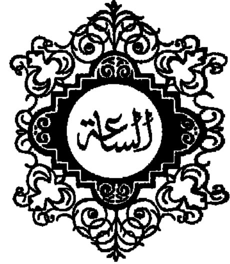
عجبهن ، حين لم يتوقف في مورداسوف بل مضى الى دوخانوف رأسا ليقيم فيها متوحدا معتزلا • وانتشرت عندئذ شائعات غريبة ، حتى صارت حكاية الأمير منذ ذلك الحين حكاية غامضة تحيط بها الاسرار وتنسج حولها الأساطير • قيل أولا ان الأمور في بطرسبرج لم تجر هينةً لينةً ، وان بعض أقرباء الأمير ممن سيكونون ورثته قد حاولوا بسبب خرف الأمير ان يتم عليه الحجر وأن تقام عليه وصاية ، مخافة أن يبدد أمواله مرةً أخرى • بل قيل آكثر من ذلك : قيل ان أقرباءه هؤلاء الذين سيرثونه قد حاولوا ادخاله مستشفى للمجانين ، غير أن واحدا من أقربائه ، وهو شخصية خطيرة الشأن رفيعة المنزلة ، قد اعترض على ذلك مبرهنا برهانا واضحا على أن الأمير المسكين الذي يوشك أن يكون ميتا منذ الآن ، لن يطول عمره ولن يلبث أن يلفظ أنفاسه الأخيرة ، وعندئذ تئول جميع أملاكه الى ورثته ، فلا لزوم للجوء الى مستشفى المجانين ! ويقال ان هذا كله قد بلغ من ترويع الأمير ومن بث الرعب والهلع في قلبه أن طبعه قد تغير تغيرا تاما فدفعه الى نشدان الوحدة والتماس العزلة • وقد ثار فضول بعض أهل مورداسوف فمضوا الى دوخانوف يزورون الأمير مهنئين بسلامة العودة ، فاما أنهم طردوا شر طردة ، واما انهم استقبلوا استقبالا غريبا الى أبعد حدود الغرابة • لقد أصبح الأمير لا يعرف أصحابه القدامى • وقيل عندئذ انه يتظاهر بذلك عامدا • وقد مضى الحاكم يزوره أيضا •

فلما عاد قال ان الأمير قد اختلط عقله بعض الاختلاط فعلا ؟ وأصبح الحاكم منذ ذلك الحين لا يذكر زيارته دوخانوف الا ويتصعَّر وجهه • أما السيدات فانهن لم يفعلن ازاء ذلك الا أن يطلقن صيحات الاستياء والامتعاض • وقد علم في تلك الأثناء أمر هام هو التالي : أن الأمير واقع تحت سيطرة امرأة تسمي ستيبانيد ماتفئفنا ، لا يدرى الا الله من أين

خرجت • انهـا امرأة ضخمة بدينـة متقدمة فى السن ، جاءت معـه من بطرسبرج ، ترتدى أثواباً هندية ، وتحمـل مجمـوعة المفاتيح ؛ والأمير يطيعها فى كل امر ، ولا يجرؤ أن يخطـو خطوة بدون اذنهـا ؛ وهى تغسله بنفسها ، وتسليه وتسرى عنه وتدلله وتهدئه كأنه طفل صـغير • وقد دبّرت الأمر بحيث تقصى عنه جميع الزائرين ، ولا سيما الأقـرباء الذين أخذوا يتوافدون شيئا فشيئا على دوخانوف مستطلعين •وقد تناقش الناس بموررداسوف طويلا فى أمر هذه العلاقة التى لا يفهمها العقـل • وكان من حقهن أن تستولى عليهن الدهشة فعلا : فان هـــذه المرأة التى يقال لها ستيبانيد ماتفئفنا كانت تسـوس أملاك الامير على ما تشاء ، فهى تصرف النظار أو الخدم ، وهى تتقاضى الايرادات ، بل لقد اسـتطاعت أن تحكم الفـلاحين وأن تجعلهم راضين سـعداء ، يغبطون أنفسهم على ما كتب لهم • وفيما يخص الامير نفسه ، عـُلم أنه ينفق القسم الأكبر من يومه فى اتمام زينته ، وتجريب شـــعره المستعار ، وارتداء « فراكاته » الكثيرة • ثم هو يقضى باقى الوقت فى صحبة ستيبانيد ماتفئفنا يلعب الورق ويحقق انتصارات • وهو يقوم بنزهات فى بعض الأحيان ، راكبا حصانا انجليزيا وادعا هادئا • وفى مثل هذه الأحوال تتبعه ستيبانيد ماتفئفنا على عربة مغطاة من قبيل الاحتياط ، لأن الأمير لا يمتطى الحصـان الا دلالا وغنجاً فهو ما ينفك يترنح ويتهـزز فى ركابيه • وقـد يـُرى فى بعض الأحيان سائرا على قدميه ، مرتديا معطفا ، واضعا على رأسه قبعة من قش ضافية الحافات ، لافاً عنقه بمنديل وردى اللون ، جاعلا نظارته فوق عينه ، حاملا سلة صغيرة بيده ، مطوّفاً هنا وهناك يجمع فطورا أو يقطف أزهارا برية • وفى مثل هذه الأحوال تتبعه ستيبانيد ماتفئفنا ماشية على قدميها ، بينما يسير وراءهما ، وعلى مسافة منهما ، خادمان طويلان مع العربة • فاذا اتفق مصادفة أن مر أحـد الفلاحين رأيت الفـلاح يصطف جانبا ،

ويرفع طافيته ، وينحني انحناء شديدا ويقول : « سلاما ايها الامير يا ابانا؛ سلاماً يا صاحب السعادة يا شمسنا » ، فيسارع الامير الى وضع نطارته على عينه ناظرا الى الفلاح ، ثم يحني راسه قليلا ويقول : « سعدت يوما يا صاحبي ، سعدت يوما » • ور ويت في مورداسوف اشياء كثيرة من هذا القبيل ، لان الناس في مورداسوف قد ابوا ان ينسوا الامير ، وذلك لانه جار قريب جدا ! لذلك ما كان اشد دهشتهم وذهولهم جميعا حين شاع بينهم في ذات صباح ان الامير، هذا الناسك المعتكف ، هذا الانسان الغريب الاطوار ، موجود بنفسه الان في المدينة وأنه نزل ضيفا على ماريا الكسندروفنا ! تحرك الناس جميعا واضطربوا ، منتظرين أن تتضح الامور ، وتساءل كل منهم عن دلالة ذلك ، وتهيا بعضهم للذهاب الى منزل ماريا ألكسندروفنا نفسها يستطلع الانباء ••• فالى هذا الحد بدا لهم وصول الامير حدثاً عجيبا من الاحداث • وتبادلت السيدات البطاقات ، وتزاورن، وأرسلن وصيفاتهن وحتى أزواجهن ليأتونهن بالأخبار • والامر الذى كان يبدو غريبا عجيبا هو أن الامير قد آثر ماريا ألسكندروفنا ، وخصها بالنزول ضيفا عليها من دون سائر الناس • والسيدة التى أظهرت أشد الاستياء انما هى آنا نيكولايفنا آنتيبوفا التى يمت اليها الأمير بقربى بعيدة• ولكن لا بد لنا ، حتى نوضح جميع هذه الأسئلة ، أن نمضى الى منزل ماريا ألكسندروفنا نفسها ، راجين من قرائنا الأجلاء أن يصحبونا فى هذه الزيارة • ولئن كانت الساعة لم تتجاوز العاشرة من الصباح ، فلا شك أن ماريا ألكسندروفنا لن ترفض استقبال أصدقائها الخلص • فلنذهب اذن اليها واثقين مطمئنين •

الفصل الثالث



هى العاشرة من الصباح . نحن الآن فى منزل ماريا ألكسندروفنا ، الذى يقع فى عرض شارع كبير . ونحن من هذا البيت فى الغرفة التى تسميها ربة المنزل صالونها فى الأيام الكبرى . ولماريا ألكسندروفنامقصورة خاصة بها أيضا . ان أرض هذا الصالون معتنى بها كثيرا ، والجدران قد شد عليها ورق لا بأس به . اللون الأحمر يغلب على أثاث الصالون ، وهو أثاث دميم على كل حال . هناك مدفاة ، وعلى المدفأة مراة ، وأمام المرآة ساعة يعلوها تمثال يمثل اله الحب ، وهو تمثال لا يدل على ذوق رفيع . وبين الفراغات التى تفصل النوافذ مرآتان أخريان رفع عنهما غطاءاهما على عجل . وأمام المرآتين ، وعلى الطاولات الصغيرة ، وضعت ساعات أيضا . وفى آخر الصالون يمتد البيانو الرائع الذى جلب لزينا ، ملاصقا للجدار : ان زينا موسيقية . وأمام المدفأة ، التى تشتعل فيها نار جميلة ، قد صُفَّ ما أمكن صفه من مقاعد ، فى فوضى فنية ؛ وبين المقاعد وضعت منضدة صغيرة . وتشغل الطرفَ الآخر من الغرفة منضدة ثانية يغطيها غطاء ناصع البياض ، وعلى الغطاء يستريح سماور من فضة يغلى فيه الماء ، والى جانب السماور طقم جميل للشاى . وتقع مهمة مراقبة السماور والفناجين على عاتق سيدة ناضجة تمت الى ماريا ألكسندروفنا بقربى بعيدة ، هى آناستازيا بتروفنا زيابلوفا . ولنقل كلمتين عن هذه السيدة . انها أرملة ، تجاوزت من عمرها الثلاثين ، سمراء لطيفة القوام ، نضرة الوجه، لها عينان كحلاوان تفيضان حياة؛ وهى

تظهر مزاجا مرحا ، فتضحك بسهولة ؛ ولا تعوزها المهارة ولا ينقصها الحدق ، فهي تحسن تدبير شئونها الصغيرة ، ولكنها مهذار مكثار . ان لها ولدين قد عهدت بهما الى مدرسة داخلية في مكان ما . وهي تتمنى كثيرا لو تتزوج مرة ثانية ، وتحافظ على شيء من الخيلاء لان زوجها كان ضابطا في الجيش .

ان ماري ألكسندروفنا نفسها هي الجالسة قرب المدفأة . انها تبدي مزاجا رائقا رائعا ، وهي ترتدي ثوبا أخضر رقيقا يناسبها . لقد أضرم فيها وصول الأمير فرحاً شديدا ، والامير هو الان في الطابق الاعلى يعنى بامر زينته . ان ماريا ألكسندروفنا تبلغ في هذه اللحظة من السعادة أنها لا تحمّل نفسها عناء اخفاء فرحتها . وأمامها يقف شاب يروي لها أمرا من الأمور فيحرارة وحميّاء فمن رأى عيني هذا الشاب ادرك انه يشتهي أن يحظى باعجاب السيدة التي تصغي الى كلامه . الشاب في الخامسة والعشرين من عمره . وكان يمكن أن يبدو مظهره مظهر رجل رفيع التهذيب لولا أنه يسرف في اطلاق صيحات التعجب ، ولولا أنه على وجه الخصوص يطمع كثيرا في ابراز روح النكتة والفكاهة لديه . وهو أشقر اللون حسن الهندام معجب بنفسه . ولكن هانحن أولاء تكلمنا عنه : انه السيد موزجلياكوف ، شاب له مستقبل ، وهو أمل كبير من آمال الزواج في المنزل . صحيح أن ماريا ألكسندروفنا ترى أن فيه شيئا من طيش ، ولكنها تحسن استقباله . انه يسعى الى خطبة ابنتها ويعلن أنه مجنون حبا بها . وهو يتجه في كل لحظة الى زينا محاولا أن ينتزع من فمها ابتسامة بالفكاهات والأمازيح . ولكن زينا فاترة نحوه فتورا شديدا، تكاد لا تعبأ به ولا تكترث له . وهي في هذه اللحظة منتحية جانبا قرب البيانو ، تقلب بأطراف أصابعها صفحات مجلة . انها امرأة من تلك النساء اللواتي يحدثن أثرا ويثرن دهشة واعجابا حين يظهرن في مجتمع . هي

جميله جمالا لا يصدّق : فارعة الطول ، سمراء اللون ، هيفاء القـوام ، بارزة الصـــدر ، لها عينان رائعتان تشـــبهان ان تكونا سوداوين تماما ؛ ويوشك كتفاها وذراعاها أن تكون من الاكتاف والاذرع التى نراها فى تماثيل النحت القديم ؛ أما ساقاها ففاتنتان ساحرتان ، واما مشيتها فمشية ملكه . هى تبدو اليوم شاحبة قليلا ، ولكن شفتيها كالقرمز حمرة ، وهما ممتلئتـان بعض الامتـلاء ، مرسومتان رسـما بديعا ، تسطع بينهما أسنان منظومة كعقد اللؤلؤ ، اذا رايتها مرة ظللت تراها فى المنام ثلاثة أيام . ويبدو على زينا كثير من الجد بل ومن القسوة . ويبدو على موزجلياكوف انه يتحاشى نظرتها الثابته ويتجنبها ؛ او قل على الاقل انه يشـعر برهبـة كلما تجرأ أن يلتفت نحو هذه الفتاة التى تبلغ هذا المبلغ من التعالى وعدم الاكتراث . وهى ترتدى ثوبا بســيطا من الموسلين الابيض ؛ واللون الابيض يناسبها كثيرا ويفتن عليها الألباب . وان كل شيء ليناسبها على كل حال . وفى أصبعها خاتم من شعر مضفور لا يبدو أن لونه هو لون شعر أمها . ان موزجلياكوف لم يجسر أن يسـألها يوما عن صاحب الشـعر الذى ضفر منه هذا الخاتم . وزينا تبدو فى هذا الصباح صامتة صمتا فوق ما عـهد فيها من صــمت . لذلك نرى ماريا ألكسندووفنا لا تنفـك ، مع تدفقها فى الكلام بغير انقطاع ، تلقى على ابنتها نظرات تفيض قلقا ، ولكنها تختلس هذه النظرات اختلاسا كأنها خائفة من الفتاة .

هتفت الأم تقول :

ــ أنا مسرورة جدا يا بافل ألكسندروفتش ، أبلغ من السرور أننى أوشك أن أعلن هذا من فوق جميع الأسطح ! لست اقول شيئا عن هذه المفاجأة الجميلة التى فاجأتنا بها ، أنا وزينا ، بمجيئك قبل الموعد بخمسة عشر يوما . طبعا . وانما أنا مفتتنة أشــد الافتتان بأنك جئتنا بهذا الأمير العزيز . انك لا تستطيع أن تتصور مدى حبى هذا الشيخ الرائع ! لا ،

انك لا تستطيع تصور مدى حبى اياه ! ومهما أحلف لك أغلظ الأيمان فلن تستطيع وانت شاب فى مقتبل العمر أن تفهم هذه العاطفة ! هل تعلم ماذا كان بالنسبة الىّ فى الماضى قبل ست سنين ؟ ـ هل تتذكرين يا زينا ؟ آ... لقد نسيت ... كنت تقيمين يومئذ عند عمتك ... لا ... انك لن تصدق يا بافل ألكسندروفتش ! لقد كنت له مرشدة ، كنت له أختا ، كنت له أماً . وكان يطيعنى كطفل . وكان فى صداقتنا سذاجة ، وحنان ، ونبل . كان فى صداقتنا شىء يشبه أن يكون شعرا من الأشعار التى يترنم بها الرعاة ... لا أعثر على اللفظ المناسب للتعبير ! ... ذلك هو السبب فى أن هذا الأمير المسكين يتذكر اليوم منزلا واحدا هو منزلى ، يتذكره وهو يحس كثيرا من الاعتراف بالجميل ! هل تعلم يا بافل ألكسندروفتش؟ لعلك قد أنقذته حين رددته الى هنا ؟ ان قلبى ينقبض منذ ست سنين متى فكرت فيه ! هل تصدّق أننى أراه فى المنام ؟ لقد قيل ان تلك المرأة الشيطانية كانت تسحره وتمضى به الى الضياع ! وأخيرا خلصته أنت من براثنها ! وانما ينبغى الآن أن ننتهز هذه الفرصة لانقاذه انقاذا تاما . ولكن قل لى مرة أخرى : كيف استطعت أن تظفر بذلك ؟ صف لى لقاءكما تفصيلا . اننى لم أنتبه منذ قليل الا الى الأمر الاساسى ، وذلك من شدة انفعالى ، مع أن التفاصيل ، مهما تكن يسيرة ، ثمينة فى نظرى : فهى ملح الأمر ان صح التعبير . اننى أحب التفاصيل حبا عظيما ، ولا سيما فى الحالات التى لها شأن خطير . اننى أولى التفاصيل اهتماما كبيرا .. و .. بانتظار أن يفرغ من اتمام زينته ...

أجاب موزجلياكوف يقول متهيئاً لتكرار الأشياء التى ذكرها مرة عاشرة :

ـ نعم يا ماريا ألكسندروفنا ... كما سبق أن رويت لك ... ظلت العربة تعدو بى ليلة بكاملها ، وكانت ليلة بيضاء طبعا ـ فتستطيعين أن

تصورى اذن مدى تعجلى العودة ! (هتف يقول ذلك مخاطبا زينا) • الخلاصة : لقد هددت وصرخت وطلبت خيولا ، حتى لقد شتمت الناس من أجل أن أحصل على خيول فى المحطات • ألا لو كتب هذا لخرجت منه قصيدة من نوع القصائد التى نقرأها فى هذا الزمان ! ولكن فلنعد الى الموضوع : فى نحو الساعة السادسة من الصباح وصلت الى ايجيشيفو ، وهى آخر محطة • وكان قد أضنانى البرد ، ولكن لم يخطر ببالى أن أنشد شيئا من الدفء ، بل صرخت أقول : « هاتوا خيولا ! » ؛ وبلغت من تخويف زوجة ناظر المحطه التى كانت تحضن طفلا أن لبن ثدييها لا بد أن يكون قد غاض الآن ••• وكان طلوع الشمس رائعا • انك تعرفين ذلك النوع من عجاج الصرّ الذى يحمرّ ثم يصير بلون الفضة•• ولكننى لم أعبأ به • كنت لا أفكر الا فى الوصول بأقصى سرعة • الخيول الأخيرة التى حصلت عليها انما انتزعتها انتزاعا من موظف تحديته وكدت أدعوه الى المبارزة • ولكن قيل لى ان أميرا قد مضى فى عربة منذ ربع ساعة بعد أن بات فى المحطة ! فما ان سمعت هذا الكلام حتى قفزت الى العربة ، وطرت طيرانا كأن الشيطان يطاردنى ••• اننا نقع على شىء من هذا القبيل لدى فيت * ، لا أدرى فى أية قصيدة من قصائده • فلما صرت على مسافة تسعة فراسخ من المدينة ، عند منعطف صومعة سفيتوزيرو ، لمحت مشهدا خارقا : عربة كبرى من عربات السفر منقلبة على جنبها • كان الحوذى وخادمان متسمرين أمامها يتأملونها فى ارتباك وحيرة • بينما تخرج من داخلها زفرات وأنات تفطّر القلب ألمًا • ومع ذلك قررت أن أمضى غير حافل • ماذا يهمنى من أمر هذا الرجل ؟ ان فى امكانه أن يبقى حيث هو • ولكن العاطفة الانسانية غلبتنى • لقد صدق الشاعر هاينى حين قال ان هذه العاطفة الانسانية تحشر أنفها فى كل شىء • فتوقفت ، وهببنا للنجدة أنا وخادمى سيميون ، والحوذى أيضا ، وهو

نفس روسية حقا ، واستطعنا أخيرا نحن الستة أن ننهض المركبة ، وأن نقفها على عجلاتها ، والحق انها لم يكن لها عجلات تماما ، وانما كانت على زلاجات • وقد ساعدنا ايضا فلاحون كانوا مارين من الغابة الى المدينه ، فنفحتهم مكافاة •• قلت لنفسي فجاة : « ايمكن ان يكون هو الامير ؟ » ونظرت ، فاذا هـــو الامير نفسه ، الامير جابرييل ! يا لها من مصادفة ! صحت اقـول له : « يا امير ، يا عمي ! » ، ولم يتعـرفني في أول الامر طبعا ، لم يتعرفني في اول الامر ••• ولكنه حين القى على نظرة ثانيه كاد يدرك من انا ••• واني لالفت نظرك مع ذلك الى أنه الان لا يكاد يعرف من انا ••• واظن انه يحسبني شخصا اخر غير قريبه ••• لقد رأيته في بطرسبرج مند سبع سنين،ولم اكن يومئذ الا صبيا كما تقديرين• لقد تذكرته انا : فلقد كان فيه ما يفجا البصر ••• اما هو فاني له أن يتذكرني !

وعرفته بنفسي ، فاظهر اغتباطا وفرحا شديدا وحضنني بين ذراعيه، وهو يرتجف من الخوف ويبكي ، نعم يبكي ••• قلت أنصحه أخـيرا : « اركب عربتي وتعال نقضي يوما في مورداسوف لنستريح » ، فوافق دون أن يحملني على التوسل اليه ••• وذكر لى انه كان ذاهبـا الى صـومعة ســـفيتوزيرو ليرى الكاهن ميشيل الذى يقدره أكبر التقدير ويحترمه أشـــد الاحترام • أما ستيباند ماتفئفنا ـ من ذا الذى لا يعرفها منا معشر أقربائه ، من ذا الذى لم يسمع عنها ؟ أما آنا فقد طردتني فى العلم الماضى شر طردة مشهرة علىّ مكنسة ـ اما ستيباند ماتفئفنا هذه ، فكانت قد تلقت رسالة مستعجلة تنبئها بأن أحد أهلها يحتضر في موسكو •• لا أدرى أهو أبوها أم هى ابنتها ، ولا حاجة بى الى أن أعرف ذلك •••• ولعلهما كليهما ، الأب والابنة معا ، مع ابن أخ أو ابن أخت فوقهما •• الخلاصة أنها اضطربت أشد الاضطراب وبلغت من القلق أنها قررت منـذ عشرة

أيام أن تفارق الأمير وأن تطير الى المدينة تجمّلها بحضورها • وانتظر الامير يوما ويومين يجرب طاقيات شعره المستعار ، ويتطيب ويتخضب ، ويستطلع الغيب في الورق وربما في الفول ؟ ولكنه لا يستقر على حال من القلق في غياب ستيبانيد ماتفئفنا • وعندئذ أمر باعداد عربته ومضى مسرعا في اتجاه سفيتوزيرو ! وقد حاول واحد من المنزل أن يصده عن ذلك خوفا من ستيبانيد ماتفئفنا الغائبة ، ولكن الأمير أبى أن يسمع شيئا • لقد سافر أمس بعد الغداء ، وبات في محطة ايجيشيفو ، ثم غادرها عند الفجر؟ وفيما كان ذاهبا الى الكاهن ميشيل ، وعند مفترق الطريق تماما ، انما كاد يهوى مع عربته في واد عميق • لقد أنقذته ونصحته أن يأتي الى صديقتنا المشتركة ، ماريا آلكسندروفنا المحترمه جـــدا • وهو يقول انك ألطف سيدة رآها في حياته • وهكذا وصلنا الى بيتك • ان الأمير يصلح زينته فوق ، بمســاعدة خادمه الذى لم ينس أن يصطحبه ولا ينسى يوما أن يصطحبه في أى ظرف من الظروف ، لأنه يؤثر أن يموت على أن يظهر أمام السيدات بدون بعض الاستعدادات أو بعض الاصلاحات بتعبير أدق ••• انتهت قصتي ! ••• هي قصة جميلة !

صاحت ماريا ألكسندروفنا تقول بعد الاصغاء :

ـ هه ! لأنت رجل فكه ! ما كان أجمل طريقته في سرد الحكاية ! ولكن يا صديقى بافل ، هناك سؤال أريد أن ألقيه عليك : اشرح بالتفصيل قرابتك بالامير • أنت تسميه « عمك » ، أليس كذلك ؟

ـ والله يا ماريا ألكسندروفنا أنا لا أعرف كيف أمت اليه بقــربى ، ولا أعرف من جهة أى شخص جاءت هذه القربى • أحسب أنهــا ترجع الى الجيل السابع تقريبا ، ولكن ما ينبغى الاطمئنان الى هذا كثيرا •• وأنا لا أحس أى احساس بأننى مسئول عن هذه القرابة • واذا كان هنــاك

آثم ، فهو عمتى أجلائى ميخائيلوفنا • على أن عمتى أجلائى ميخائيلوفنا لم تزد يوما على أن تعدّ ذوى قرباتا على رءوس اصابعها • وهى التى حضتنى فى السنة الماضية على الذهاب الى دوخانوف لزيارة الأمير ؟ ألا انه من المؤسف أنها لم تذهب اليه بنفسها • ولست أرى فى ذلك أى مكر على كل حال ••• فأنا أنادى الأمير « يا عمى » ، وهو يجيبنى • ذلك هـو الأمر بيننا ، الآن على الأقل •••

ـ رغم كل شىء أعود فأقول ان الله وحده هو الذى ألهمك أن تجىء به الى منزلى • اننى لأرتجف حين أتصور ما كان يمكن أن يحدث له ، أن يحدث للأمير المسكين ، لو مضى الى مكان آخــر غير منزلى • نعم ، لو وقع فى منزل غير منزلى لكان يمكن أن يجرد وأن يقطّع وأن يلتهم التهاماً ••• لو وقع فى منزل غير منزلى لارتموا عليه ارتماءهم على منجم، ارتماءهم على أرض من ذهب • انك لا تستطيع أن تصدق ما يتصف به أهل هذه المدينة من شراهة ودناءة وحطة يا بافل ألكسندروفتش ! انهم لا يتورعون عن شىء !

أسرعت آناستازى بتروفنا تقول وهى تصب الشاى :

ـ هه ••• والى أى منزل كان يمكن أن يؤخــذ ؟ الى منزل آنا نيكولايفنا ؟ ••• ماذا ؟ لا تريدون ؟

قالت ماريا ألكسندروفنا وهى تنهض عن مقعدها نافدة الصبر :

ـ على كل حال ، لقد غاب كثيرا ••• ذلك أمر غريب •••

ـ عمى ؟ أنا واثق أنه لن يفرغ من زينته قبل انقضاء خمس ساعات أخرى • ولقد فقد الأمير ذاكرته فلم يبق له منها شىء ، فمن الجائز جدا أن يكون قد نسى أنه فى زيارة عندك • انه رجل غريب صاحب مفاجآت يا ماريا ألكسندروفنا !

ـ أوه ! كفى ، أرجوك !

ـ هذه هي الحقيقة يا ماريا ألكسندروفنا ، مهما يكن رأيك . لقد أصبح الامير أشبه برجل من ورق . أنت رأيته منذ ست سنين ، أما أنا فقد رايته منذ ساعة . أؤكد لك أنه مشرف على الموت ، هو شبح انسان نسوا أن يدفنوه ! له عين من زجاج ، وله ساق مصنوعة ، وهو مركب على نوابض .. وحتى اذا شئت انطاقه فلا بد أن تضغطى على نابض .

صاحت ماريا ألكسندروفنا تقول وهي تصطنع هيئة قاسية :

ـ رباه ! ليتني لم أحمِّل نفسي عناء الاصغاء اليك أيها الرأس الطائش .. كيف لا تستحي أيها الفتى أن تقول هذا الكلام عن شيخ محترم وأنت تمت اليه بقربى . فاذا كنت تنسى سخاءه الذى لا حدود له (وهنا اتخذ صوت ماريا ألكسندروفنا نبرة انفعال قوى) ، فلتتذكر على الاقل أنه البقية الباقية من ارستوقراطيتنا ! أكنت تمزح يا صديقي ، يا صديقي العزيز ؟ ان ما تردده هو ثمرة الأفكار الجديدة . والله ، أنا أيضا مع الأفكار الجديدة . وأنا أدرك أن لهذه الافكار الجديدة أساسا رائعا ، وان فيها جانبا ساميا . ولكن ذلك لا يمنعني من أن ارى من الأمور جانبها العملي ان صح التعبير . لقد عشت في المجتمع ، فلي من الخبرة ما ليس لك . ثم انني أخيرا أم ، أما أنت فلست الا شابا في ريعان الشباب . انه هو شيخ هرم ، وهذا وحده كاف لأن يجعله مضحكا في نظرك . وهناك ما هو أدهى من هذا . لقد ذكرت لنا في المرة الأخيرة أنك تنوي أن تعتق أقنانك وأن من واجب المرء أن يفعل شيئا في سبيل التقدم . كل ذلك لأنك قد أخذت تدرس شكسبير ! صدقني يا بافل ألكسندروفتش ؟ ان شكسبير قد انقضى زمانه ، واذا بعث الآن حيا فلن يفهم من عاداتنا وأخلاقنا شيئا رغم كل ذكائه . واذا كان هنالك شيء من

فروسية ونبل في عالمنـا الآن ، فانما ينبغي أن نبحث عنـه في مجـالات أخرى • الأمير يظل أميرا ، سواء أكان في كوخ أم كان في قصر • اليك هذا المثال : ان زوج ناتاليا دميتريفنا قد ظن أنه يسمو الى مرتبة النبالة اذا هو بنى قصرا ، ومع ذلك ظل هو زوج ناتاليا دميتريفنا لا أكثر • وناتاليا دميتريفنا هذه ، رغم الأثواب المنفوخة الخمسين التي تزيّن بها قفاها تظل هي ناتاليا دميتريفنا • وأنت نفسك انما تنتمي بمحتدك الى الطبقة النبيلة • وأنا أيضا لا أشعر أنني غريبة عن الارستقراطيـة ، لذلك أقول : ويل للطائر الذي يحتقر عشه ! ثم انني على ثقة يا عزيزي بافل ، انك ستتعمق هذه الأمور خيرا مني ، وستترك صاحبك شكسبير جانبا في يوم من الأيام •• أنا أتنبأ لك بذلك • أنا على يقين من أنك غير صادق ولا مخلص في هذه اللحظة ، وانك انما تصطنع هذا الوضع اصـطناعا • ولكن احسب انني ثرثرت كثيرا • انتظرني هنا يا عزيزي بافل ، أنا صاعدة الى فوق ، لأرى ما يجري • قد يكون الأمير في حاجة الى شيء ما ••• وأنت تعلم ان خدمي •••

وهنا أسرعت ماريا ألكسندروفنا تخرج من الغرفة لتراقب سلوك خدمها •

ـ ان ماريا ألكسندروفنا تبدو سعيدة كل السعادة بأن الأمير لم يذهب الى تلك المتصنعة المتكلفة آنا نيكولايفنا • ومع ذلك فان هذه السيدة تروى لكل قادم أنها قريبة الأمير • لا بد أن تكون الآن حانقة حنقا مسعورا •

كذلك قالت آناستازيا بتروفنا ؛ ولكن السيدة زيابلوفا ، وقد لاحظت أنه ما من أحـد يصغي الى كلامها ، ألقت نظـرة الى جهة زينا وبافل ألكسندروفتش ، فأدركت أن حضورها زائد ، فأسرعت تخرج كأن هناك عملا يجب أن تعمله في خارج الغرفة هي أيضا • ومع ذلك ما ان اجتازت

الباب حتى توقفت وأصاخت بسمعها • انها تهوى هذا النوع من التنصت هوى شديدا •

ما لبث بافل ألكسندروفتش أن التفت نحو زينـــا • انه فى حالة هيجان لا سبيل الى وصفها • كان صوته يرتجف • قال بلهجة يمتـزج فيها الخوف بالضراعة :

ـ زينائيد آتاناسيفنا ، ألست غاضبة مني ؟

ـ منك ؟ لماذا ؟

كذلك أجابته زينا وقد احمرت قليلا ورفعت اليه عينين رائعتين •

ـ لعودتى قبل الأوان يا زينائيد آتاناسيفنا • لم يكن فى وسعى ان أنتظر خمسة عشر يوما أخرى • لا ••• لم يكن فى وسعى ذلك ••• كنت أراك فى أحلامى دائما ••• وأسرعت أخيرا لأعرف المصير الذى تخبئينه لى ••• ولكني أراك تقطبين ، أفأنت حانقة علىّ ؟ هل يعقل أن أبقى الى الآن لا أعرف شيئا حاسما ؟

كانت زينا قد قطبت حاجبيها فعلا •

وقالت وهى تخفض عينيها من جديد ، قالت بصوت قاطع قاس فى آن واحد ، ويختلج فيه مع ذلك شىء من أسف :

ـ كنت واثقة أنك ستستأنف الكلام فى هذا• واذ أن الانتظار يشق على نفسى أنا أيضا ، ففى رأيى أن الاسراع فى حسم الموضوع أولى • انك تعيد طلب يدى أو قل بتعبير أصح انك ترجونى ان أعطيك جوابا • فاسمح لى أن أكرر لك ما سبق أن قلته وهو أن جـوابى لا يمكن أن يتغير : انتظر • أكرر لك أننى لم أتخذ قرارا بعد ، ولا أملك أن أعدك بأن أصبح زوجتك • ذلك أمر لا يُفرض فرضا يا بافل ألكسندروفتش•

ومع هذا أحب أن أقول لك مرة أخرى ، من أجل أن أهدئك وأطمئنك، انني لا ارفض رفضا حاسما • فارجو أن تدع هذا ماثلا في ذهنك • ولئن كنت أدع لك أن تأمل في جواب يرضيك ، فانني لا أفعل هذا اشفاقا على نفاد صبرك • ولكنني أعود فاقول لك انني أحرص الان على أن أظل حرة طليقة ؛ فاذا قلت لك في المستقبل انني أرفض طلبك ، فليس لك أن تؤاخذني على أنني تركت لك للرجاء بابا مفتوحا في غير طائل • ذلك ما يجب أن تقنع به الآن •

صاح موزجلياكوف يقول بصوت شاكٍ :

ـ نعم ، أنا أعرف ما يجب عليّ أن أقنع به • فهل أستطيع أن أعدّ هذا أملا ؟ هل في أقوالك ما قد يكون لي فيه حظ يا زينائيد اتاناسيفنا ؟

ـ تذكر ما قلته لك ، واستخلص منه النتيجة التي تحب • ذلك شانك أنت • اما أنا فليس عندي ما أضيفه • انني لمّا أرفضك بعد ، كل ما قلته هو أن عليك ان تنتظر • وأكرر لك أنني أحتفظ بكامل حريتي في رفضك اذا انا استحسنت ذلك في المستقبل • وأحب أن ألفت نظرك الى شيء اخر يا بافل ألكسندروفتش • اذا كنت قد جئت قبل الموعد المضروب لجوابي ، معتمدا على حماية أحد ممن يحيطون بي ، على حماية أمي مثلا ، فقد أخطأت خطأً كاملا • وأرجو ان تدرك أنني في مثل هذه الحالة سأرفضك قطعا • كفى الآن هذا • وآمل أن لا تعود الى الاشارة الى هذا الأمر قبل الأوان المحدد •

قالت الفتاة هذا الكلام كله بلهجة جافة خشنة ، قاطعة جازمة ، بلا تردد ، كأنما هي قد أعدته من قبل • وأحس السيد بافل ألكسندروفتش بوهن في قواه • وفي تلك اللحظة انما عادت فظهرت ماريا ألكسندروفنا، وظهرت وراءها السيدة زيابلوفا على الفور تقريبا •

ـ أعتقد أنه آت حالا يا زينا ! اسرعي يا آناستازيا بتروفنا ، فأعدي شاياً جديدا !

كان يبدو على ماريا ألكسندروفنا أن اضطرابا قليلا قد اعتراها .

قالت آناستازيا بتروفنا وهي تهرع نحو السماور :

ـ لقد بعثت آنا نيكولايفنا من يستطلع الأنباء . فان خادمتها آنيوتا قد تسللت الى مطبخنا تسال عن الاخبار . في وسعكم أن تتأكدوا أنها مسعورة حنقا .

قالت ماريا ألكسندروفنا تجيب من فوق كتف السيدة زيابلوفا :

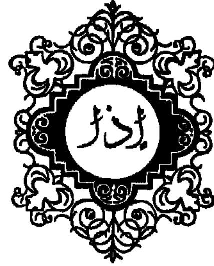
ـ ما شاني انا ؟ أتحسبين أنني أهتم بما تفكر فيه صاحبتك آنا نيكولايفنا ؟ ثقي انني لن ارسل احدا الى مطبخها ، انا ! ... ولكن من حقي ان استغرب ، ان استغرب أشد الاستغراب ، أن تعديني عدوةً لهذه الانا نيكولايفنا المسكينة ، لا انت وحدك بل سائر الناس في المدينة أيضا . انني احتكم اليك يا بافل ألكسندروفتش ، فانت تعرفنا كلينا : فيم أكون عدوتها ؟ ااكون عدوتها من أجل الأسبقية أو الأولوية ؟ ألا انني لا آعبأ بهذه الاسبقية او الاولوية ! ان لآنا نيكولايفنا أن تعد نفسها الاولى ماشاء لها هواها ذلك ! وانني لمستعدة أن أذهب اليها فأهنئها على أنها هي الأولى. انني ادافع عنها ، وأشعر أن عليّ أن أدافع عنها . ما أكثر ما قالوا في حقها ! لماذا تنتقدونها جميعا على هذا النحو؟ انها شابة ، فهي تحب التبرج، فأي ضير في هذا ؟ في رأيي أن حب الغنج والدلال خير من نقيصة أخرى .. كنقيصة ناتاليا دميتريفنا التي تحب .. أشياء يحسن السكوت عنها ! أتأخذون على آنا نيكولايفنا أنها لا تنفك تطوّف زائرة هنا وهناك بدلا من المكوث في بيتها ؟ ولكن سبب هذا هو أنها لم تتعلم ، فمن الطبيعي أن لا تستطيع فتح كتاب ، أو الانشغال بأي شيء من الأشياء دقيقتين

متتابعتين ! أتأخذون عليها أنها تأخذ تلعّب عينيها على النافذة حين يمر رجل فى الشارع ؟ اذن عليكم ان لا تؤكدوا لها انها جميلة ، فى حين أنها ليس لها من الجمال الا ذلك الشحوب الشديد ! أفلا يقولون لها مع ذلك انها لا يضارعها أحد فى رقص البولكا ؟ صحيح أنها تضع زينات وقبعات غير معقولة ، ولكن الذنب ليس ذنبها اذا لم يكن لها ذوق ، واذا كانت سريعة التصديق . فحين تقولون لها ان « الموضة » توجب غرس شرائط فى الشعر ، فلا بد أن تغرس فى شعرها شرائط ! أما عن الهذر ، فمن ذا الذى يبرأ من الهذر ؟ من ذا الذى لا يثرثر كثيرا ؟ وتقولون انها تستقبل سوشيلوف ذا اللحيتين صبحا ومساء وربما ليلا ، فماذا تريدون لها أن تفعل اذا كان زوجها يظل يلعب بالورق حتى الساعة الخامسة من الصباح ؟ فلماذا تتصورون الشر فى كل أمر ؟ من ذا الذى لا يتقول عليه الناس هنا فى شىء من الأشياء ؟ ثم ان هذا كله قد لايكون الا نمائم كاذبة . لسوف أظل أكرر فى كل زمان ومكان : اننى أدافع عنها ! آه ... رباه ! هذا هو الأمير ! ... انه هو ... انه هو ! ... أعرفه ، وسأعرفه بين ألف رجل .

وهتفت ماريا ألكسندرا تستقبل الأمير وهى تهب الى لقائه :

ـ أخيرا أراك يا أميرى !

الفصل الرابع



أدركت

نظرت الى الأمير نظرة سطحية أولى ، فلن تحسبه شيخا . ولكنك اذا أنعمت النظر قليلا أدركت أن الرجل ليس فى الواقع الا مومياء تتحرك بنوابض . لقد استُعملت جميع الحيل المصنوعة من أجل الباس هذه المومياء لبوس رجل شاب . شعر مستعار ، لحيتان صغيرتان فى العارضين ، شاربان ، قبعة من الطراز الاسبانى حالكة السواد تخفى نصف الوجه ... والوجه مخضب ببياض وحمرة ، لاتكاد ترى فيه تجاعيد ! انه ليستحيل عليك أن تحزر ماذا صُنع بالرجل حتى يظهر بهذا المظهر ! والامير يرتدى ملابس على آخر « موضة » ، حتى لكأنه صورة منتزعة من « ألبوم » خياط كبير . انه يلبس « جاكيتة » أو شيئا من هذا القبيل ، لا أستطيع أن أطلق اسما دقيقا على هذا النوع من الرداء الرائع الذى جعل ملائما لذوق العصر ، وصُنع خصيصا لزيارات الصباح . أما القفازان ورباط العنق والصديرة والقميص وكل ما يتبع ذلك فهى نضرة نضارة تبهر الأبصار ، وهى منتقاة انتقاء يدل على ذوق رفيع ! والأمير يعرج قليلا ، ولكن عرجه يبلغ من الحذق أن الناظر اليه يحسبه ضرورة من ضرورات « الموضة » أيضا . وهو يضع نظارة على عينه الزجاجية ، وتفوح منه رائحة العطور . واذا تكلم كان يلح على بعض المقاطع الحاحا خاصا ، اما بسبب ضعف الشيخوخة ، واما بسبب أسنانه ، واما بسبب تعمده ذلك اظهارا لخطورة الشأن وعلو المنزلة ؛ فهو ينطق بهذه المقاطع على نحو رخو جدا ، متكئا اتكاءً خاصاً على الحرف

e ؛ فاذا أراد أن يقول مثلا : « da » (نعم) ، خرجت الكلمة من فمه dé ، مع مزيد من النعومة والليونة • وذلك كله يكشف عن انسان متصنع متكلف ظل طول حياته يظن أنه لا سبيل الى مقاومته ؛ ذلك كله بقايا سناء قديم ، ولكن هذه البقايا قد بلغت الآن من التغير ان هذا الانسان المزهو بنفسه لم يبق منه الا ظله • فهو لا يملك اليوم الا الجانب الذى يثير الشفقة من شيخوخة زائدة لن يرد اليها النضارة عطّار ولا خياط ولا مزيّن • لذلك فان الافضل أن نبادر فنعترف بان الرجل ان لم يكن قد فقد عقله بعد ، فانه قد فقد ذاكرته منذ زمن طويل • فهو فى كل لحظة يتأتىء ، ويكرر ، ويهرف ، وينسى ما يريد ان يقوله • فلا بد للمرء من صبر طويل وحنكة بارعة حتى يستطيع أن يجرى معه حديثا• ولكن ماريا ألكسندروفنا تستطيع الاعتماد على نفسها ، فما كادت ترى الامير حتى أخذت تتدفق فى الكلام معربة عن اعجابها •

صاحت تقول وهى تمسك يدى الأمير وتجلسه على مقعد وثير مريح :

ـ انك لم تتغير قط ، لم تتغير قط ، يا أمير • اقعد يا أميرى اقعد • ست سنين ، ست سنين كاملة لم ارك خلالها ! وما من رسالة طوال هذه المدة ، ولا من كلمة قصيرة ! آه ••• انك مقصّر فى حقى يا أمير •• أنا زعلانة منك أشد الزعل يا أميرى العزيز ! ولكن أين الشاى ؟ أين الشاى ؟ ماذا تنتظرين حتى تقدمى الشاى يا آناستازيا بتروفنا ؟

زأزأ الأمير يقول :

ـ أشكرك •• أشـ •• كر •• كـ •• أع •• ـتـ •• ذ •• ر (نسينا أن نقول ان الأمير اذا كان يتأتىء ، فمن قبيل التجمل والتظرف أيضا) •

وأضاف يقول شارحا وهو ينظر فى الصالون متفرسا :

ـ لقد أردت منذ السنة الماضية أن أجيء الى هنا ، ولكنني خفت •• فقد قيل لى ان الكو •• ليرا •• كانت منتشرة ••

أجابت ماريا ألكسندروفنا :

ـ لا يا أميرى ، لم يكن عندنا كوليرا •

وتدخل موزجلياكوف قائلا ليظهر نفسه :

ـ كان هناك وباء من الأوبئة التى تصيب الحيوانات يا عمى •

فرشقته ماريا ألكسندروفنا بنظرة قاسية •

قال الأمير :

ـ نعم •• وباء •• أو شيء من هذا القبيل •• فعدلت عن المجيء • طيب •• فكيف حال زوجك يا آنا نيكولايفنا الرائعة ؟ أما يزال وكيل نيابة ؟

قالت ماريا ألكسندروفنا وقد انتصبت قامتها :

ـ لا يا أمير ، ليس زوجى وكيل نيابة •

هتف موزجلياكوف قائلا :

ـ أراهن على أن عمى يحسبك آنا نيكولايفنا آنتيبوفا !

ولكن موزجلياكوف لم يلبث أن عض على شفته حين لاحظ أن ماريا ألكسندروفنا تعرف ما عليها أن تعمله بدون تدخله •

ـ نعم نعم •• طبعا يا آنا نيكولايفنا •• لقد خانتنى ذاكرتى ••• آنتيبوفا •• نعم •• آنتيبوفا •

كذلك كرر الأمير •

قالت ماريا ألكسندروفنا وهى تبتسم ابتسامة مرة :

ـ لا يا أميرى •• أنت مخطىء •• أنا لست آنا نيكولايفنا •• وما كان لى أن أصدق أن ترانى فما تعرفنى ! انك لتدهشنى يا أميرى •• أنا صديقتك القـــديمة ماريا ألكسندروفنا موســـكاليوفا •• هل تذكرت يا أميرى ؟

ـ ماريا ألكسندروفنا ؟ مستحيل ! •• كنت أحسب •• نعـم كنت أحسب •• كنت أحســـبك آنا فاسيلفنا ! شىء ممتع ! ••• كنت أظن يا صاحبى أنك انما جئت بى الى منزل آنا ماتفئفنا تلك ! شىء رائع ! على أننى يحدث لى كثيرا أن أضل طريقى •• ولكن يسرنى ، يسرنى جدا أن أضل طريقى •• ولكن يسرنى ، يسرنى جدا أن هذا وقع لى ! اذن لست آناستازيا فاسيلفنا ؟ لط •• يف •••

ـ أنا ماريا ألكسندروفنا يا أميرى ! آه •• ما أكبر ذنبك فى حقى ! أتنسى خير صديقة لك ؟

ـ حقا •• خير صديقة لى •• عفوا •• عفوا !

كذلك تأتأ الأمير يقول وهو يغرس نظره فى زينا •

قالت ماريا ألكسندروفنا :

ـ هذه ابنتى زينا • انك لا تعرفها بعد يا أميرى • لم تكن زينا فى المنزل أثناء اقامتك الأخيرة ، هل تتذكر •••

ـ آ ••• هى ابنتك ! رائعة ! رائعة !

هكذا جمجم الأمير وهو يتفرس زينا بشراهة ثم يقـول دون أن يخفى اضطرابه :

ـ ولكن ما أجملها !

ـ هل لك بشىء من الشاى يا أمير ؟

كذلك قالت ماريا ألكسندروفنا وهي تلفت انتباه ضيفها الى القوزاقى الواقف أمامه حاملا صينية بين يديه • فتناول الأمير الفنجان وتأمل الفتى ذا الخدين المدورين الورديين ، ثم قال يسأل :

ـ أهو ابنك ؟ يا له من فتى جميل ! هل سلوكه حسن ؟

فبادرت ماريا ألكسندروفنا تقاطعه قائلة :

ـ لقد سمعت يا أمير عن الحادثة الرهيبـــة التي وقعت لك ••• فاضطربت أشد الاضطراب • وقلقت أشد القلق • هل أصبت بسوء ؟ هل جُرحت ؟ انتبه ! ما ينبغي لك أن تهمل نفسك !

صاح الأمير حانقا :

ـ لقد قلبني ، قلبني ، الحوذى قلبني ! رأيت نجوم الظهر •• غفر الله لى •• حسبته يوم القيامة • لم أكن أتوقع ذلك ! لم أكن أتوقعه أبدا• هى خطيئة تيوفيل ، الحوذى ! واننى أعتمد الآن عليك يا صديقى : قم بتحقيق دقيق ، تحرَّ الأمر جملة وتفصيلا ، اكتشف الاسباب ••• أنا على يقين أنه كان يريد قتلى !

أجاب بافل ألكسندروفتش يقول :

ـ طيب يا عمى طيب ، سأدبر الأمور • ولكن صدقنى يا عمى ••• اغفر له هذه المرة •

ـ أبدا ، لن أغفر له •• لن أعفو عنه • أنا متأكد من أنه كان يريد أن يقتلنى ، هو ولوران أيضا ، لأننى تركت لوران فى المنـــزل • هـــل تتصورون أنه أصبح يدين بالآراء الجديدة ؟ لقد أخذ يجحد كل شيء •• انه شيوعى بأقوى معانى هذه الكلمة • صرت أخشى أن ألتقى به وحيدا•

صاحت ماريا ألكسندروفنا :

ـ ما أصدق ما تقوله يا أمير • لا تستطيع أن تتصور مدى ما أقاسى أنا أيضا من هؤلاء الخدم الكريهين • تخيل أننى غيرت اثنين منهم ، فهما من الغباء بحيث لا بد لى أن ألاحقهما من الصباح الى المساء • ليس فى وسعك أن تتصور مدى بلاهتهما يا أمير !

قال الامير سعيدا كسائر الشيوخ بانتباه الناس الى هذرهم :

ـ نعم ، نعم • ومع ذلك يجب علىّ أن أقول لك اننى أوثر الخدم الذين يكونون على شىء من الغباوة • فالغباوة تناسب الخدم : هى عندهم مزية ، شريطة أن يكونوا صادقين صريحين طبعا •• ان الغباوة تسبغ على الخادم مظهرا وقورا ، وتضفى عليه شيئا من الأبهة ، وتجعل أدبه أفضل؛ وما أنشده أنا فى الخادم هو المظهر الحسن • مثال ذلك واحد من خدمى هو تيراسى •• هل تتذكر تيراسى يا صديقى ؟ اننى منذ رأيته فى أول مرة تنبأت بكل شىء • قلت له : لانت السويسرى بالفطرة ! انه غبى غباء رهيبا ! ان رأسه أشبه برأس خروف ظمآن يبحث عن ماء يشربه • ولكن ما أروع مظهره ! ما أحسن أبهته ! ان لون جوزة عنقه هو اللون الوردى الجميل الشاحب •• فاذا لبس ثياب الحفلات وعقد ربطة الرقبة أحدث فى الناظر اليه أثرا عظيما ! اننى أحبه من أعماق قلبى • وفى بعض الأحيان أقول لنفسى : ان هيئته كهيئة من يناقش رسالة •• انه أشبه بأستاذ ألمانى، انه الفيلسوف « كَنْتْ » ، بل هو خير من ذلك ، ديك رومى معلوف•• ذلك هو النموذج المناسب فى خادم •

كانت ماريا ألكسندروفنا تصغى الى الأمير بانتباه واعجاب ، فلما فرغ من كلامه طفقت تضحك وهى تصفق براحة يدها • وجاراها فى ذلك بافل ألكسندروفتش • لقد أعجبه عمه كثيرا • وانطلقت آناستازيا بتروفنا تقهقه هى أيضا • أما زينا فقد تواضعت فابتسمت •

صاحت ماريا ألكسندروفنا :

ـ أنت تفيض فكاهة ومرحا ونكتة يا أمير ! ان لك قدرة عجيبة على اظهار أخفى المضحكات ! فكيف تعتزل المجتمع فتسجن نفسك خمس سنوات برمتها يا أمير ؟ أتكون لك هذه الموهبة الفذة الفريدة ثم تعتكف؟ ان عليك أن تكتب يا أمير ! لو كتبت لكنت فونفيزين ثانيا ، أو جربويدوف آخر •• لو كتبت لكنت جوجول جديدا ! *

قال الأمير مسرورا :

ـ طبعا ، طبعا •• أستطيع ذلك •• هل تعرفين أنني كنت في شبابي فكها جدا ؟ حتى لقد كتبت تمثيلية هزلية •• وكانت تشتمل على حوار رائع •• ولكنها لم تُمَثَّل •••

ـ آه •• لا بد أن قراءتها ممتعة جدا ! هل تعرفين ماذا يجب أن نعمل يا زينا ؟ اننا نستعد هنا لتمثيل مسرحية يرصد ريعها لجرحى الحرب يا أمير ، فليتك تعطينا هذه المسرحية لتمثيلها !

ـ حقا ! أنا مستعد لاعادة كتابتها •• ولكنني نسيتها تماما • أتذكر أن قد كان فيها نكتتان أو ثلاث قائمة على الجناس اللفظي هي من النكت التي تبلغ من الحلاوة أن من يسمعها يلحس يديه متلمظا (قال الامير ذلك وهو يجري حـــركة اللحس والتلمظ) • ثم انني حين كنت في الخارج كنت أثير أشد الحنق والغيظ •• نعم أشد الحنق والغيظ ! انني أتذكر الآن اللورد بايرون • كنا صديقين• لقد رقص رقصة الكراكوفياك في مؤتمر فيينا * فكان أحسن الراقصين •

ـ اللورد بايرون يا عمي ؟ صحيح ؟

ـ طبعا ، طبعا ، اللورد بايرون ! على كل حال ، وربما لم يكن هو

اللورد بايرون ! لا ... لم يكن هو اللورد بايرون ، بل شخص آخر ، شخص بولندى ! اننى أتذكره الآن تذكرا واضحا ! لقـــد كان شخصا غريبا على جانب عظيم من التفرد والشذوذ ! كان يدعى أنه كونت مع أنه لم يكن الا طباخا ! ولكن ما كان أبرعه فى رقصة الكراكوفياك ! ومن المؤسف أن ساقه كسرت بعد ذلك . وفى هذه المناسبة انما كتبت أقول :

صاحبنا البولياك

قد رقص الكراكوفياك *

والتتمة ... نسيت التتمة

الساق منه كسرت

رقصاته توقفت

صاح موزجلياكوف وهو ماينفك يزداد حماسة :

ـ لا بد أن يكون هـــذا هو ما قلته ، هذا تماما ، أليس كـذلك يا عمى ؟

فأجاب الأمير :

ـ أحسب أن هذا هو ما قلته ، أو هو شيء قريب منه .. على كل حال ، قد لا يكون هذا هو ما قلته .. ولكن هذه الأبيات قد عادت الى ذاكرتى الآن .. اننى أنسى أشياء كثيرة .. ذلك لأننى مشغول جدا ..

سألته ماريا ألكسندروفنا باهتمام :

ـ قل لى يا أمير ، بماذا كنت منشغلا ذلك الانشغال كله طوال هذه المدة من الاعتكاف ؟ لطالما فكرت فيك يا أميرى العزيز ، حتى بلغت من ذلك أننى أصبحت أحترق شوقا الى معرفة بعض التفاصيل ..

ـ بماذا كنت منشغلا ؟ أوه .. بأشياء كثيرة جدا . حين يعتزل المرء

نشدانا للراحة فان خياله يعدو فى بعض الأحيان عدوا سريعا لا يدرى أحد الى أين ...

ـ لا شك أن لك خيالا غنيا يا عمى !

ـ غنيا جدا .. حتى ليتفق لى فى بعض الأحيان أن أتخيل أشياء تثير دهشتى أنا نفسى ... وحين كنت فى كادوييف .. بالمناسبة ! ألم تكن نائب حاكم كادوييف ؟

صاح بافل الكسندروفتش :

ـ أنا يا عمى ؟ ما هذا الكلام ؟

ـ تصور يا عزيزى أننى حسبتك نائب الحاكم ، فقلت لنفسى : « كيف يمكن أن يصبح له وجه آخر على حين فجأة ؟ » ... ذلك أن نائب الحاكم كانت هيئته على جانب من الفخامة والأبهة والرصانة . وكان رجلا فكها الى حد كبير .. وكان ينظم شعرا فى كل مناسبة ... واذا نظرت اليه من جانب رأيته يشبه الشاه فى لعبة الشطرنج .

قالت ماريا ألكسندروفنا تقاطعه :

ـ أحلف لك يا أمير أن حياة كالتى تعيشها سوف تضيعك . كيف تحبس نفسك خمس سنين ، معتزلا الناس لا ترى أحدا ولا تسمع شيئا ؟ اسأل من شئت يقل لك انك على منحدر سىء ...

صاح الأمير يقول :

ـ أهذا ممكن ؟

ـ أؤكد لك يا أمير .. وانما أنا أقول لك هذا الكلام قول صديقة مخلصة ، قول أخت محبة ، لأنك عزيز جدا فى قلبى ، لأن ذكرى الماضى

مقدسة فى نفسى • فيم هذا ؟ ألا انك ان لم تغير طرز حياتك رأسا على عقب ، كنت تهيء نفسك للمرض والانهاك والموت السريع •••

ـ آه •• يا رب ! أأنت تعتقدين اذن بأننى أوشك أن أموت ؟

كذلك صاح الأمير مذعورا ، ثم أضاف يقول :

ـ لقد قلت عين الصواب • اننى أتألم كثيرا من البواسير ، ولا سيما منذ زمن قريب •• وحين توافينى النوبات تظهر عندى أعراض غريبة تبعث على الدهشة • وسأصفها لك الآن تفصيلا قبل كل شيء •••

هنا قاطعه بافل ألكسندروفتش قائلا :

ـ ستشرح لنا ذلك فى مرة أخرى يا عمى • أما الآن فعلينا أن نفكر فى الانصراف ، أليس كذلك ؟

ـ بلى ! وسأشرح لك هذه الأمور فى مرة أخرى ان شئت ؛ وما هى بالأمور الشائقة التى يسر سماعها على كل حال • اننى أدرك ذلك الآن •• ولكنه مرض نادر عجيب مع ذلك •• هناك مراحل عدة • ذكّرنى بهذا فى المساء يا صديقى •• سأروى لكم تفاصيل دقيقة •

وقاطعته ماريا ألكسندروفنا من جديد تقول :

ـ اسمع يا أمير •• عليك أن تسافر الى الخارج طلبا للعلاج •

ـ الى الخارج ! صحيح ! صحيح ! سأسافر الى الخارج بغير ابطاء • أتذكر اننى فى عام ١٨٢٠ قضيت فى الخارج زمنا رائعا جدا • لقد كنت شبه متزوج بفيكونتسة فرنسية • كنت مولّها بها ، وكنت أريد أن أقف عليها حياتى • ومع ذلك لست الرجل الذى تزوجها ، وانما تزوجها رجل آخر • ويالها من قصة عجيبة ! فارقتها ساعتين لا أكثر ، فاذا برجل آخر

يسبقنى فيتزوجها أثناء هاتين الساعتين • لقد اختطفها منى • كان الرجل نوعا من بارون ألمانى اضطروا بعد ذلك بقليل الى ايداعه مستشفى للمجانين •

ـ عليك اذن يا أميرى العزيز ، كما قلت لك ، أن تعنى بصحتك عناية جدية • ان فى الخارج أطباء ممتازين ••• ثم ان السفر سيكون فوق ذلك كله تغييرالطراز الحياة الذى تعيشه • عليك أن تترك دوخانوف هذه مهما كلف الامر ، ولو الى حين !

ـ طبعا ، طبعا ، أنا أفكر فى هذا منذ زمن طويل • وهل تعلمين ماذا أنوى آن أفعل ؟ أنوى أن أتداوى بالمياه !

ـ بالمياه ؟

ـ طبعا • وقد سبق أن تداويت بالمياه• ذهبت الى منطقة مياه معدنية• وهناك التقيت بسيدة من موسكو نسيت اسمها الآن ، كانت فى نحو السبعين من عمرها ، وكانت على جانب عظيم من الشاعرية الأخاذة ! وكانت تصحبها ابنتها التى كانت فى نحو الخمسين من عمرها وهى أرملة فى عينها نقطة كانت هى أيضا لا تكاد تتكلم الا شعرا • غير أن نازلة ألمت بها : غضبت ذات يوم من أحد خدمها فقتلته ، حتى أنها أحيلت الى القضاء • فهاتان السيدتان هما اللتان نصحتانى بالتداوى بالمياه المعدنية • طبعا لم يكن بى أى مرض ، ولكنهما كانتا تلاحقانى ، ولا تنفكان تقولان لى : « هيا •• عليك بالمياه المعدنية » • فأخذت أتبع العلاج بالمياه المعدنية مجاراة لهما ، وأدبا معهما • فلاحظت فعلا أننى تحسنت • شربت وشربت ثم شربت •• كدت أبلع نهرا بكامله مثل نياجارا •• ان التداوى بالمياه المعدنية شىء عظيم حقا ، كما قلت لكم •• لقد أحسنت الىّ المياه كثيرا ، ولولا أننى مرضت فى آخر الأمر ، لكنت شفيت شفاء كاملا •••

ـ هذه نتيجة صادقة صدقا واضحا ياعمى • قل لى يا عمى ، هل درست المنطق ؟

صرخت ماريا ألكسندروفنا تقول مستاءة أشد الاستياء :

ـ ما هذا السؤال الذى تلقيه ؟

وأجاب الأمير :

ـ نعم لقد درست المنطق يا صديقى ، منذ زمن طويل • تعلمت الفلسفة بألمانيا ، حيث تابعت دروس الفلسفة كلها ، ولكننى نسيتها على الفور • غير أن علىّ أن أقول لك ••• انك قد بلغت من تخويفى من هذه الأمراض كلها أننى اضطربت اضطرابا شديدا ••• سأعود فورا •• اسمحى لى ••

ـ الى أين تذهب يا أمير ؟

كذلك صاحت ماريا ألكسندروفنا مذهولة ، فأجابها الأمير :

ـ أنا عائد حالا ، عائد حالا • ولكننى أريد أن أسجل فكرة تشغلنى • الى اللقاء •

هتف بافل ألكسندروفتش وهو ينفجر ضاحكا :

ـ هه ! فى ريعان الصبا !

فلما سمعت ماريا ألكسندروفنا ذلك نفد صبرها ، فطفقت تقول بحرارة :

ـ أنا لا أفهم أبدا لماذا تسخر هذا السخر ! من ذا الذى يضحك من شيخ محترم ، من قريب حميم ، من ذا الذى يستغل ما يتصف به مثله من طيبة ملائكية ليستهزىء بكل كلمة يقولها ؟ ألا اننى لا أرى فيه

ما يضحك ؟ واننى لأخجل عنك يا بافل ألكسندروفتش • ما الذى تراه فيه مضحكا جديرا بسخريتك ؟

ـ هو لا يتعرف الناس ، وهو يهرف ويخلط دائما فى كل ما يقوله !

ـ ولكن مرد ذلك الى الحياة التى يحياها ، الى هذه السنين الخمس الفظيعة التى عاشها سجينا تحت رقابة تلك المرأة الجهنمية ! علينا أن نرثى لحاله لا أن نسخر منه • لقد رأيت انه لم يستطع حتى أن يتعرفنى • ذلك يتجاوز الحدود ••• واجبنا أن ننقذه ! ولئن نصحته بأن يسافر الى الخارج فاننى لم أفعل ذلك الا أملا فى أنه قد يتخلص من هذه المرأة •••

هتف بافل ألكسندروفتش يقول :

ـ هل تعلمين يا ماريا ألكسندروفنا ؟ يجب تزويجه !

ـ أما تزال تسخر منه ؟ الا انك انسان لا يمكن أن يغفر له ياسيد موزجلياكوف •

ـ لا يا ماريا ألكسندروفنا ! لست أهزل فى هذه المرة ، وانما أنا أتكلم كلاما كله جد • لماذا لا يُزوَّج ؟ هذه أيضا فكرة ! هذا رأى كغيره من الآراء ! فيم يمكن أن يكون الزواج ضارا به مسيئا اليه ؟ بالعكس : من كان فى مثل وضعه فان اجراء كهذا الاجراء لا يمكن الا أن ينقذه ! هو أمام القانون ما يزال من حقه أن يتخذ لنفسه زوجة • وهذا يخلصه أولا من تلك الأفاقة (عفوا اذا استعملت هذا التعبير) ؟ وثانيا ـ وذلكم هو الأمر الأساسى ـ تصوروا أنه اختار فتاة أو قولوا أرملة لطيفة طيبة ذكية حنونا ، فقيرة على وجه الخصوص ، تعنى به كأنها ابنته وتدرك جميله عليها اذا تزوجته •• هل يمكن أن يتمنى ، هو ، خيرا

من أن تكون الى جانبه بغير انقطاع انسانة نبيلة مخلصة صادقة بدلا من تلك المرأة •• الثرثارة المهذار ؟ لا بد طبعا أن تكون الزوجة جميلة ، لأن عمى ما يزال يحب النساء الجميلات • ألم تلاحظى كيف كانت عيناه حين نظرت زينائيد آتاناسيفنا ؟

قالت آناستازيا بتروفنا وقد أصغت الى كلامه بانتباه شديد :

ـ أين عساك واجداً له امرأة كهذه التى تصفها ؟

ـ عين الصواب ! انك أنت تلك المرأة اذا شئت • اسمحى لى أن ألقى عليك هذا السؤال : لماذا لا تتزوجين الأمير ؟ أولا : أنت امرأة جميلة ؟ ثانيا : أنت أرملة؟ ثالثا : أنت نبيلة؟ رابعا : أنت فقيرة •• ذلك انك لست فى الواقع غنية كثيراً ؟ ـ خامسا : أنت ذكية جدا ، ومعنى ذلك انك ستحبينه ، أنك ستلفينه بالقطن محافظة عليه ، وأنك ستدفنين الأفاقة فى باطن الأرض • سوف تحملينه على السفر الى الخارج ، سوف تسقينه مغلىّ الحشائش والأعشاب النافعة ، سوف تطعمينه أنواع الحلوى الشهية ، مثل السميد بالسكر ، وكل ذلك الى الدقيقة التى يبارح فيها هذا العالم الفانى ، وهذا لن يتأخر كثيرا ، وانما سيقع بعد سنة وقد يقع بعد شهرين ونصف شهر • وعندئذ تصبحين أميرة غنية أرملة ، ثم تتزوجين مركيزا أو جنرالا ، مكافأة لك على ما بذلت من جهد ، وقدمت من تضحية ، وأظهرت من اخلاص وتفان • هذا جميل ، أليس كذلك ؟

ـ أوه ! أحسب أن الاعتراف بالجميل وحده سيكون كافيا لجعلى هائمة بحبه اذا هو عرض علىّ الزواج !

كذلك صاحت السيدة زيابلوفا وقد أصبحت عيناها تسطعان بنيران ذات دلالة • ثم أضافت تقول :

ـ ولكن ذلك كله ليس الا جنونا محضا •

ـ ليس الا جنونا محضا ؟ طبعا هو جنون محض . ولكن اطلبيه مني بكياسة ولباقة ، ولك عليّ أن أقطع اصبعي اذا لم تمسي في هذه الليلة خطيبة الامير ! لا شيء أسهل من اقناع عمي ، أو من المكر به . لا يقال له شيء الا ويجيب : « طبعا ، طبعا ! » . هل لاحظت ذلك ؟ لسوف نكون قد زوجناه قبل أن يخطر بباله أي شيء ؛ ولكن هذا سيكون في سبيل سعادته ، ومن باب الرحمة به والاشفاق عليه . هيا اعتني بهندامك ، وارتدي أجمل ما عندك ، يا آناستازيا بتروفنا !

استعرت حماسة السيد موزجلياكوف ، وسال ريق السيدة زيابلوفا رغم أنها امرأة عاقلة .

وقالت تجيب :

ـ لست في حاجة اليك حتى أعلم أن ملابسي كملابس «ساندريون»*. انني مذعنة مستسلمة ، ولم أعد أحلم قط . لقد أصبحت امرأة مسكينة تعمل في خدمة المنزل . ولكن قل لي مع ذلك : هل هيئتي هيئة طباخة ؟

في أثناء ذلك الوقت كله ظلت ماريا ألكسندروفنا ساكنة لا تتحرك، وقد تقبض وجهها تقبضا غريبا . ولست أخطيء اذا قلت انها أصغت الى العرض العجيب الذى عرضه بافل ألكسندروفتش بنوع من الاستياء والامتعاض والاستنكار ، بل بنوع من الخوف والذعر ... ولكنها ثابت الى نفسها فقالت تقاطع موزجلياكوف بلهجة لا جواب عليها :

ـ قد يكون هذا كله خيالا جميلا ، ولكنه حماقة محضة وأمر لا محل له هنا اطلاقا ...

فانبرت لها السيدة زيابلوفا تسألها :

ـ لماذا يا عزيزتي الغالية جدا ماريا ألكسندروفنا ؟ لماذا تعدين ذلك حماقة محضة ، ولماذا تعدينه أمرا لا محل له ؟

ـ لأسباب كثيرة أولها أنك عندى ، وأن الأمير ضيفى ، وأننى لن أسمح لأحد أن ينسى ما يجب لمنزلى من احترام . أنا لم أحمل أقوالك الا على محمل المزاح يا بافل ألكسندروفتش . ولكن الحمد لله ، هذا هو الأمير !

هتف الأمير وهو يدخل الغرفة :

ـ هأنذا ! ما أشد عجبى لسيل الأفكار الجديدة التى تتدفق فى رأسى اليوم يا صديقى ! قد لا تصدّق اذا قلت لك انه يتفق لى أن لاتخطر ببالى فكرة واحدة من هذه الأفكار طوال أيام برمتها ...

ـ لعل مرد ذلك الى الصدمة التى عانيتها فى هذا الصباح يا عمى.. لقد هزّت الصدمة أعصابك ، و ...

ـ قلت لنفسى هذا يا صديقى العزيز . اننى أرى أن ذلك الحادث قد نفعنى كثيرا . لقد عزمت فى هذه المرة على أن أغفر لخادمى تيوفيل. هل تدرى لماذا ؟ أعتقد أنه لم يحاول قتلى ، ما رأيك ؟ ثم انه قد سبق أن عوقب فلا حاجة الى عقاب جديد . لقد حلقنا له لحيته فى الآونة الأخيرة .

ـ حلقتم له لحيته يا عمى ، وله لحية واسعة كألمانيا ؟

ـ طبعا طبعا كألمانيا ! ان النتائج التى تخلص اليها صادقة دائما يا صاحبى العزيز ! ومع ذلك فان هذه اللحية مصنوعة . لقد وصلتنى منذ مدة قائمة أسعار على حين فجأة . وكان بعضهم قد استورد من الخارج لحى ذقون للسادة والحوذيين ، ولحىً للعارضين ، وشوارب وما الى ذلك، من نوع جيد بأسعار بخسة . قلت لنفسى : فلنطلب لحية ، ولنر ما تكون. وفعلا بعثت أطلب لحيةً لحوذى ، فلما وصلت اللحية رايتها رائعة حقا .

ولكن المشكلة أن اللحية الطبيعية لصاحبنا تيوفيل كانت تساوى ضعفيها طولا وغزارة • وكان لا بد من اتخاذ قرار • فاما أن نحلق لحية الجوذى الطبيعية حتى يمكن أن نضع له اللحية المصنوعة ، واما أن ندعه بلحيته الطبيعية ••• وبعد تفكير طويل قررت أن اللحية المصنوعة أفضل •

ـ طبعا لأن الفن يفضل الطبيعة يا عمى !

ـ تماما ! فما كان أشد حزنه حين نُزعت لحيته ••• يمينا لقد حَزن حُزن من تنزع منه مهنته • ولكن أما ان لنا أن ننصرف ياعزيزى؟

ـ أنا مستعد يا عمى !

ـ آمل يا أمير أن لا تذهب الا الى الحاكم •

كذلك صاحت ماريا ألكسندروفنا تقول بانفعال ، وأضافت :

ـ أنت الآن لى أنا يا أمير ، انك ملك آسرتنا طوال هذا النهار • لست أقول شيئا عن الناس الذين قد تلقاهم فى المدينة • لعلك ترغب فى أن تزور آنا نيكولايفنا • لا أحب أن أنهاك عن هذا • ولكننى واثقة من أن التجربة ستقنعك • تذكر أمرا واحدا على كل حال ، هو أننى مضيفتك وأختك ومطعمتك فى هذا النهار كله ، واننى ارتجف خوفا عليك يا أمير • انك لا تعرف ما هؤلاء الناس !

قال موزجلياكوف :

ـ سأبر بوعدى يا ماريا ألكسندروفنا ••• اعتمدى علىّ •

ـ أأعتمد عليك أنت أيها الطائش ؟ أأعتمد عليك أنت ؟ اننى أنتظرك على الغداء يا أمير • نحن نجلس الى المائدة فى ساعة مبكرة • لشد ما يؤسفنى أن زوجى الآن فى القرية • ما أكثر ما كان يسعده أن يراك ! انه يحترمك كثيرا ، وانه متعلق بك أشد التعلق •

قال الأمير :

ـ زوجك ؟ هل لك اذن زوج ؟

ـ آه يا أمير ... لقد ضعفت ذاكرتك . أتراك نسيت الماضى كله ؟ ألا تتذكر زوجى آتانازى ماتفئتش ؟ أهذا ممكن ؟ هو الآن فى أرضنا ، ولكنك رأيته ألف مرة . تذكر يا أمير : آتانازى ماتفئتش ؟

ـ آتانازى ماتفئتش ! فى القرية ! تخيلوا هذا ! شىء جميل ... لك اذن زوج ؟ أمر غريب ... تماما كما فى تلك التمثيلية الهزلية : خرج الرجل من الباب ، والمرأة ... معذرة ... ها قد نسيت ! خرج الرجل منذ هنيهة ، والمرأة خرجت بعده تذهب الى مكان ما ، الى تولا ، أو الى ياروسلاف .. ومن ذلك تتألف لُبْسة" مسرحيةمسلية مضحكة.

ـ خرج الزوج من الباب ...

ـ والمرأة ذهبت الى تفير يا عمى .

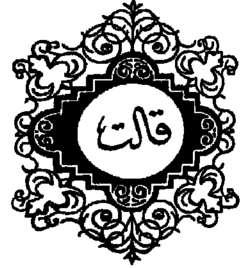
كذلك صاح موزجلياكوف .

ـ صحيح ، طبعا ، طبعا ! أشكرك يا صديقى ! هذا هو تماما ... الى تفير ! رائع ، رائع ! شىء متقن جدا ... قافية جميلة ... انك تجيد القافية المناسبة دائما يا صديقى * . نعم . تذكرت الآن تذكرا غامضا ! الزوج فى ياروسلاف ، أو فى كوستروما ، أو فى مكان آخر ، والمرأة ذهبت أيضا ! رائع ، رائع ! على أننى نسيت ما كنت أريد أن أقوله ... هيا بنا ، هيا بنا يا صـــديقى ! الى اللقاء يا سيدتى ، الى اللقاء يا آنستى الفاتنـــة (كذلك أضاف الأمير يقول ملتفتا نحو زينا ، مقبــلا أطراف أصابعه) .

صرخت ماريا ألكسندروفنا تقول فى اثره :

ـ عد حتما للغداء يا أمير ! حاول أن ترجع بأقصى سرعة !

الفصل الخامس



ماريا ألكسندروفنا بعد أن شيعت الأمير :

ـ عليك أن تلقى نظرة على المطبخ يا آناستازيا بتروفنا • يخيَّل الىَّ أن هذا الشيطان نيكيتكا سيفسد لى الغداء • وأنا واثقة أنه سكران منذ الآن •

فسرعان ما نهضت آناستازيا بتروفنا ، ولكنها لم يفتها وهى تمضى أن تلقى نظرة مريبة على ماريا ألكسندروفنا اذ لاحظت أنها مضطربة أشد الاضطراب • لذلك لم تذهب لترى ما يفعله « الشيطان نيكيتكا » ، وانما اجتازت الصالون ، وانتقلت الى الدهليز ، ومضت من هناك الى غرفتها ، ثم مضت من غرفتها الى حجرة مظلمة تستعمل مستودعا ففيها حقائب وصناديق وملابس قديمة معلقة ، وفيها الثياب المعدة للغسيل • تقدمت آناستازيا بتروفنا ماشية على رءوس الأصابع حتى وصلت الى باب مغلق ، فحبست أنفاسها ، ومالت الى أمام ، ونظرت من ثقب القفل ، وأخذت تتنصت • ان هذا الباب المحكم اغلاقه واقفاله هو أحد أبواب ثلاثة تفضى الى الصالون الذى لبثت فيه زينا وأمها •

ان ماريا ألكسندروفنا التى تعد آناستازيا بتروفنا امرأة قليلة الورع، تظنها أيضا طائشة طيشا كبيرا • ولا بد أن السيدة موسكاليوفا قد قدَّرت غير مرة أن محميتها تتنصت على الأبواب ، ولكنها كانت فى هذه المرة من شدة انشغال البال بحيث نسيت أن تحترس وأن تحاذر • وها هى ذى

غارقة فى مقعدها تنظر الى ابنتها بانتباه • ان ضيقا أليما يقبض قلب زينا التى تحس بهذه النظرة ثقيلة عليها •

ـ زينا !

لفتت زينا وجهها الشاحب ببطء ، ورفعت نحو أمها عينيها الحالمتين اللتين تنظران نظرة مظلمة قاتمة •

ـ زينا ، علىّ أن أكلمك فى أمر خطير غاية الخطورة •

نصبت زينا قامتها ، وصالبت يديها ، وانتظرت ماسوف تقوله أمها• ان وجهها يعبِّـر عن ضجر وسخر فى آن واحد ، ولكنها تحاول مع ذلك أن تخفى هذا الضجر وهذا السخر •

ـ أريد أن أسألك يا زينا كيف رأيت اليوم موزجلياكوف «هذا» •

قالت زينا على مضض :

ـ أنت تعرفين رأيى فيه منذ زمن طويل •

ـ نعم يا بنيتى ••• ولكن يخيل الىّ أن هذا الشاب يصبح أقـرب الى الوقاحة فى طريقة ••• مغازلتك ! •••

ـ هو يقول انه يحبنى ، والحاحه فى السعى الىّ يجعله خليقا بأن يُعذر •

ـ عجيب ! كنتِ قبل الآن لا تعـذرينه ! بالعكس : كنت تغضبين كلما حدثتك عنه •

ـ العجيب خاصة أنك قد دافعت عنه دائما ، أنك قد أردت دائمـا أن تحمليني على تزوجه ، وأنك تهاجمينه اليوم لأول مرة •

ـ تقريبا ! لست أخالفك يا زينا • لقد أردت أن أدفعك الى تزوج

موزجلياكوف . لقد شق على نفسى أن أراك دائمة الحزن ، وأن ألاحظ أن هناك شجنا يضنى روحك ، وهو شجن استطيع أن افهمه هذا الفهم ، مهما تطنى ... وكنت من ذلك قلقة مســـهدة لا أنام ، حتى وصلت الى الاعتقاد بانه ما من شىء يمكن أن ينقذك الا أن تتغير حياتك تغيرا جذريا . وهذا التغير لا يمكن ان يتم الا بالزواج . فما نحن بالاغنياء الى حد كاف، والا كان يمكن أن نسافر الى الخارج . ان حمير هذه المدينة يدهشهم أن تبلغى الثالثه والعشرين قبـــل أن تتزوجى ، ويروجون عنك أنواع الشائعات . ولكن هل كان يجب على بسبب هذا أن أزوجك واحدا من موظفينا أو ان أزوجك ايفان ايفانوفتش ، المحامى المغمـــور ؟ هل فى هذه المدينة زوج جدير بك ؟ ورأيت أن موزجلياكوف ، رغم أنه رأس بلا دماغ ، أفضل من هؤلاء الجفاة على كل حال ، فهو من أسرة نبيلة ، وله أقرباء محترمون ، ويملك مائة وخمسين نفسا . فآثرت هذا الزواج على أن أراك تعيشين فى المنزل بائسة حزينة أو ما أشـــبه ذلك . ولكن لئن وافقت على زواجك بموزجلياكوف يمينا ما استلطفته ، حتى اننى أعتقد الآن ان الله تعالى هو الذى حمانى منه ، أو حذرنى منه ! واذا بعث الله الينا بزوج لك أفضل ... ألا انه لحظ عظيم انك لم تعطه جوابا ! هل قلت لك اليوم شيئا نهائيا يا زينا !

صاحت زينا تقول حانقة غضبى :

ـ لماذا اللف والدوران يا أمى اذا كان يمكن أن يقال كل شىء فى كلمتين ؟

ـ لف ودوران ؟ لف ودوران ؟ كيف يمكن أن تخاطبى أمك بهذا الكلام ؟ وا أسفاه ! لقد أصبحت منذ زمن طويل لا تولينى ثقتك . لقد أصبحت منذ زمن طويل تعدين أمك عدوة لك !

ـ كفى يا أمي ! لن نتشاجر بسبب كلمة ؟ أليس تعرف كل منا الأخرى ؟ أحسب أن كلا منا تعرف الأخرى معرفة عميقة منذ زمن !

ـ ولكنك تهينينني اهانة قاسية يا بنيتي ! انك لا تريدين أن تصدقي أنني مستعدة لكل شيء ، نعم لكل شيء ، تحقيقا لسعادتك !

نظرت زينا الى أمها متململة ساخرة ، وقالت وهي تبتسم ابتسامة غريبة :

ـ أتراك مثلا تنوين أن تدفعيني الى الزواج بالأمير « تحقيقا لسعادتي » ؟

ـ أنا ما مسست هذا الموضوع بكلمة واحدة يا زينا ، ولكن ما دام في وسعي أن أتحدث فيه ، فانا اقول انه اذا أتيح لك أن تتزوجي الأمير فسيكون هذا سعادة لك ، ولن يكون جنونا ...

ـ أما أنا فأرى ذلك جنونا .

كذلك صرخت زينا تقول في حنق . وتابعت كلامها متدفقة :

ـ هذا جنون ! هذا سخف ! وأنا أرى يا أمي أنك مسرفة في الخيال قليلا ! انت « امرأة شاعرة » بكل معنى الكلمة ، أو هذا ما يقولونه عنك في مورداسوف على الاقل . أنت لا تنفكين تبنين المشاريع فوق المشاريع ، لايصدك عن ذلك أنها من أسخف الترهات والخزعبلات! لقد لاحظتك منذ جاء الأمير الينا . فحين أخذ موزجلياكوف يستهزيء بالأمير زاعماً أن من الواجب تزويجه ، قرأت في وجهك جميع أفكارك . أنا مستعدة أن أراهن على أنك لم تفكري الا في هذا الأمر ، وأن جميع ما قلته كان يرمي الى هذا الهدف . ولكن مشاريعك المستمرة التي تتعلق بي قد أخذت تضجرني حتى الموت يا أماه ، وأخذت تشعرني بالخزي

والعار ! لذلك أطلب أن لا تعودى الى الكلام فى هذا الموضوع ، هل تسمعين ؟ اعرفى هذا مرة الى الأبد !

كانت زينا تختنق غيظا وحنقا . فاجابتها ماريا السكندروفنا بصوت متوسل ضارع :

ـ زينا ، بنيتى ، ما أنت الا طفلة مهتاجة مريضة ! انك تسرفين فى امتهانى ! ما من ام يمكن ان تحتمل ما احتمله انا منك كل يوم ! ولكنك مهتاجة الاعصاب يا بنيتى ، وانا ام مسيحية قبل كل شىء ، فيجب ان أحتمل وان أغفر . كلمة أخرى يا زينا : لماذا ترين أن هذا كله سخف ؟ اما انا فاعتقد أن موزجلياكوف لم يكن فى يوم من الايام ذكيا كذكائه حين أوضح حاجة الامير الى الزواج ... لا بأناستازيا القذرة هذه طبعا ... فها هنا قد تجاوز موزجلياكوف الحدود ...

ـ اسمعى يا أمى ، كونى صريحة ، قولى لى : أأنت تلقين علىّ هذا السؤال لمجرد حب الاطلاع ، أم لانك تبيتين نية مقررة ؟

ـ أنا انما أسألك لماذا ترين الأمر سخيفا الى هذا الحد ...

ـ مرة أخرى ؟ ما هذا المصير الذى كتب لى ! ...

كذلك صرخت زينا وهى تضرب الأرض بقدمها من شدة تململها : وأردفت تشرح :

ـ سأقول لك لماذا أرى هذا الأمر سخيفا اذا كنت لم تدركى ذلك حتى الآن : لن أتعرض لجميع الأمور الغريبة العجيبة فى مثل هذا التفكير ، وحسبى أن أشير الى أن استغلال خرف هذا الشيخ المسكين من أجل خداعه ، وان تزوج هذا الرجل المهدم فى سبيل ابتزاز ماله ، وتمنى الموت له فى كل يوم وفى كل لحظة أثناء ذلك ، أقول ان هذا

كله هو فى رأيى عمل دنىء ، لا سخيف فحسب ••• نعم ، هو عمل دنىء يبلغ من الحطة أننى لا أهنئك على أنه خطر لك ببال يا أمى !

أعقبت ذلك لحظة صمت •

وسألت ماريا ألكسندروفنا فجأة :

ــ هل تتذكرين يا زينا ما حدث منذ عامين ؟

فانتفضت زينا مذعورة ، ثم قالت بصوت رصين :

ــ أمى ، لقد قطعت لى على نفسك عهدا صريحا بأن لا تشيرى الى هذا الأمر يوما •

ــ والآن أطلب منك طلبا صريحا يا بنيتى أن تسمحى لى فى هذه المرة بان أخلف هذا الوعد الذى بررت به حتى هذه اللحظة • لقد ان لنا أن نتصارح تصارحا واضحا • لقد كانت هاتان السنتان من الصمت رهيبتين • لا يمكن الاستمرار فى هذا الصمت ! اننى مستعدة لان ابتهل اليك راكعة أن تسمحى لى بالكلام • اصغى الى • ان أمك هى التى تضرع اليك جاثية يا زينا ! ولك علىّ عهد مقدس ، لك على عهد أم شقية تعبد ابنتها ، أن لا أتكلم فى هذا الموضوع مرة أخرى قط ، مهما يكن العذر ، ولو لانقاذ حياتى اذا أصبحت حياتى فى خطر • هذه آخر مرة ••• أما الآن فلا بد لى من الكلام ، لا غنى لى عن الكلام !

كانت ماريا ألكسندروفنا تعرف كيف تعتمد على الأثر الذى تحدثه أقوالها •

قالت زينا وقد شحب وجهها شحوبا واضحا :

ــ تكلمى •

ــ شكرا يا زينا • منذ سنتين دخل الى منزلنا • لتعليم ميتيا ، أخيك الصغير الذى مات ، دخل الى منزلنا مدرس شاب •••

قاطعت زينا أمها تقول مشمئزة :

ـ لماذا تبدئين كلامك بكل هذا الانشاء الغامض يا أماه ؟ لماذا كل هذه الجمل الطويلة وكل هذه التفاصيل الجوفاء ؟ نحن نعرف هذه التفاصيل كلتانا ، وهي شاقة علينا كلتينا •

أجابت الأم :

ـ لأنني ، وأنا أمك ، في حاجة الى أن أبرىء نفسي أمامك ! لأنني في حاجة الى أن أعرض لك الأمور في ضوء يختلف كل الاختلاف عن الضوء الفاسد الذي تنظرين اليها فيه ؟ ولسوف تدركين عندئذ ادراكا أفضل وأصدق ، النتيجة التي قررت أن أخلص اليها • لا تتصوري يا بنيتي انني أريد أن أعبث بقلبك ! لا يا زينا ! لسوف تجدين في آما حقيقية ، وقد لا تملكين عندئذ أن تحبسي بضع عبرات عن الهطول بين قدمي « المرأة الدنيئة » التي هي أنا في نظرك ••• (لقد وصفتني بهذا النعت منذ هنيهة) ، وأن تطلبي مني الصلح ، هذا الصلح الذي ترفضينه منذ زمن طويل • ذلك هو السبب الذي يدفعني الى شرح كل شيء يازينا، كل شيء ، منذ البداية ••• والا صمت فلم أقل شيئا •••

ـ بل تكلمي •

كذلك قالت زينا وهي في قرارة نفسها تلعن هذا السيل المتدفق من الأقوال المتفخمة التي تصدر عن أمها •

ـ هأنذا أتم كلامي يا زينا • ان ذلك المدرس من مدرسي القرى ، وهو لا يعدو أن يكون صبيا ، قد أحدث في نفسك أثرا لم أستطع أن أتخيله يوما • ومع ذلك كنت آمل أن تفلتي من الخطر ••• كنت أعتمد على ذكائك ، وعلى كبريائك الفطرية ، وكنت أعتمد خاصة على هذه النقطة الهامة: تفاهة الشاب (يجب أن أذكر الأمور كما هي)• وهأنت ذي

فجأة تجيئين الى ذات يوم لتعلنى لى بلهجة قاطعة أنك تنوين الزواج به يا زينا • كان ذلك طعنه خنجر أصابت قلبى ! صرخت وسقطت مغشيا على • ولكن ••• أنت تتذكرين هذا كله • طبيعى اننى استعملت كل سلطتى ، فوصفت انت هذه السلطة بانها طغيان واستبداد وظلم • فكرى مع ذلك • لقد كان ذلك المدرس شابا صغيرا ، وهو ابن خادم كنيسة ، وكان اجره يبلغ اثنى عشر روبل فى الشهر ، وكان شويعرا مسكينا تُنشر قصائده فى مجلة «حجرة القراءة» * من قبيل الشفقة عليه والرافه به ، كان ثرثارا لا يحسن غير الحديث الطويل عن شكسبير ذاك اللعين ! أيكون هذا الصبى زوجا لك ؟ ايصبح هذا الصبى زوج زينائيد موسايوفا ؟ الا آن ذلك ينتمى الى فلوريان* وقصائده عن الريف والبقر والرعاة • وسامحينى يا زينا اذا كان مجرد تذكر هذا الامر يخرجنى عن طورى ! ولقد طردت أنا ذلك الشاب ، ولكن لم ينفع فيك لوم ولا صدك تقريع • أما أبوك فعلى عادته لم يزد على أن يطرف بعينيه دون أن يفهم شيئا مما كنت أحاول أن أشرحه له • واستمررت أنت فى علاقاتك بهذا الشاب ، تضربين له المواعيد وتلتقين به ؟ وأنكى من ذلك أنك تجرأت فبادلته الرسائل • ومضت الاقاويل تنتشر فى المدينة • وسمعت أنا غمزا ولمزا جارحين • كان الناس يبتهجون شامتين منذ ذلك الحين ، وأخذوا يتقاذفون النبأ هنا وهناك • وفجأة تحققت نبوءاتى واضحة قوية : تشاجرت أنت مع الشاب لا أدرى لأى سبب ، وانكشفت لك كل حقارة هذا الصبى (الذى لا أستطيع أن أصفه بأنه رجل) ، وهددك بأن يظهر الناس كلهم على رسائلك ليقرأوها ، فبلغت عندئذ من الالم فى مشاعرك انك ثرت ثورة شديدة وعنفت عليه الى حد الصفع • نعم يا زينا ، أناأعرف هذه الواقعة التفصيلية أيضا ! ••• أعرف كل شىء ، كل شىء على الاطلاق • وفعلا ، فى ذلك اليوم نفسه ، أطلع الشاب الوغد على احدى

رسائلك تلك المرأة الدنيئة زاوشين ، وما انقضت ساعة الا وكانت الرسالة عند ناتاليا دمتريفنا ، عدوتي اللدود . حتى اذا جاء المساء استبد اليأس بهذا الشاب المجنون فحاول أن يسمم نفسه غبيا كل الغباء . فكانت فضيحة رهيبة ، كانت جرسة فظيعة. وأسرعت الىّ هذه البهيمة آناستازيا تخبرنى بالنبأ المخيف مروَّعة مذعورة : قالت لى ان رسالتك هى بين يدى ناتاليا دمتريفنا منذ ساعة طويلة ! وما هى الا ساعتان حتى كانت المدينة كلها تتناقل عنك النمائم وتتحدث عن خزيك وعارك ! وبذلت أنا جهدا كبيرا فى سبيل أن أتغلب على نفسى فما أسقط مغشيا علىّ ، ولكن ما كان أقسى تلك الطعنة التى طعنت بها قلبى يا زينا ! وقالت اناستازيا انها تستطيع اختلاس الرسالة لقاء مائتى روبل . فهرعت بنفسى ، من قبل أن يتسع وقتى لخلع خفىّ المنزل ، هرعت بنفسى ، تحت وابل الثلج المنهمر ، الى اليهودى بوشتاين أرهن لديه علبتى الصغيرة التى كنت أحتفظ بها ذكرى من أمى المرحومة ! وبعد ساعتين كنت أمسك الرسالة : لقد استطاعت آناستازيا أن تسرقها بكسر قفل الصندوق الذى كانت الرسالة مخبأة فيه. وبذلك أُنقذ شرفك ، اذ لم يبق هنالك دليل . آه ما أكثر ما قاسيت من ذعر بسببك فى ذلك اليوم الكريه المقيت ! ولاحظت فى غداة ذلك اليوم، لاحظت لأول مرة ، وجود شعرات بيض فى رأسى يا زينا ! لقد غيرت أنت نفسك رأيك فى هذا الصبى . ولعلك تدركين اليوم ، بغير قليل من المرارة ، أنك كنت ستقترفين حماقة لا توصف حين أردت أن تهبى له حياتك ! ومع ذلك لم تكفى عن الحزن حتى هذه اللحظة يا بنيتى : انك لا تستطيعين أن تنسيه ... ومن أجل أن نعبِّر عن الحقيقة تعبيرا أدق يجب أن نقول انك لا تعجزين عن نسيان شخصه هو ، فلقد كان هو دونك دائما ، وانما أنت تعجزين عن نسيان سراب الحب الأول . وهذا الشاب الشقى هو الآن على وشك الموت ، فانه مصاب بالسل فيما يقال ،

لذلك لا تريدين ، وأنت ملاك من ملائكة الطيبة ، لا تريدين ما ظل حيا أن تتزوجي حتى لا تحطمي قلبه بالغيرة التي ما تزال تعذبه . ومع ذلك فأنا على يقين كامل من أنه لم يشعر نحوك بحب صادق نبيل في يوم من الأيام ! أنا أعلم أنه حين عرف بتردد موزجلياكوف علينا قد أخذ يتجسس عليك . لقد أشفقت أنت عليه يا بنيتي ، وأدركت أنا ذلك ، والله أعلم بالدموع المرة التي أغرقتُ بها وسادتي ! ...

قاطعت زينا أمها تقول وقد اعتراها غم لا يقاوم :

ـ كفي يا أمي كفي ! لا داعي الى اخراج وسادتك على مسرح الأمور لمزيد من الابراز ... ما هذا كله الا جمل مصنوعة ، ما هذا كله الا رياء متكلف !

ـ آه يا زينا ! انك لا تريدين أن تصدقي ما أقول ! لاتنظري اليَّ هذه النظرة التي تفيض بالعداوة يا بنيتي ! يمينا ما جفت عيناي خلال هاتين السنتين ، ولئن استطعت أن أخفي عنك دموعي ، فانني قد دب اليَّ الهرم ، احلف لك ! انني أفهمك منذ زمن طويل يا زينا ! ومع ذلك أعترف لك بأنني لم أدرك مدى حزنك الا الآن. أيمكن اتهامي ياعزيزتي اذا كنت قد عددت عاطفتك ثمرة من ثمار الرومانسية التي بثها في نفسك شكسبير هذا اللعين الذي يبدو كأنه يحشر أنفه عمدا في كل مكان لا يدعى الى أن يحشر أنفه فيه ؟ أية أم لا تجد أعذارا ، سواء للذعر الذي شعرت به آنذاك ، أو للاجراءات التي اتخذتها ، أو للقسوة التي اتصف بها حكمي ! ولكنني الآن ، أمام آلامك التي دامت سنتين ، أدرك وأحترم وأقدر حساسيتك الموجعة . صدقي أنني فهمتك ، ولعلني فهمتك أكثر مما تتخيلين ! انني لعلى يقين من أن هذا المجنون ، هذا الصبي المسكين ليس هو الذي تحبين ، وانما أنت تحبين أحلامك الذهبية ،

وسـعادتك الضائعة ، ومثلك الأعلى الذى زال • لقد أحببت أنا أيضـا ، ولعلنى أحببت حبا أقوى من حبك • ولقد تألمت أنا أيضاً، وكانت لى كذلك أوهام • فما من أحد يستطيع اذن أن يديننى ، ولا سيما أنت ، اذا كنت أرى اليـوم أن زواجك بالامير ليس فى الظـروف الراهنة بالأمر الذى يجب رفضه ، وأنه هو الخلاص والسلامة !

كانت زينا تعلم أن أمها لا تصطنع هذه اللهجـة أبدا الا لهدف • وقد أصغت الى هذا الخطاب الطويل بدهشة صارت الى ذهول حين وصلت ماريا الكسندروفنا الى هذه الخاتمة التى لم تكن فى الحسبان • صاحت وهى تنظر الى أمها مذعورة ذعرا حقيقيا :

ـ هل يُعقل أن تفكرى جادة فى تزويجى الامير ؟ اذن ليس الامر حلماً ، ليس مشروعا فى الهواء ، وانما هو قرار قاطع انتهيت اليه ؟ اذن لقد حزرت ! ••• كيف تتصورين أن هذا الزواج سـينقذنى ؟ كيف ترين أنه لا بد منه فى الظرف الراهن ؟ وأية علاقة يمكن أن تكون بين ما ذكرته وبين هذه القصة ؟ لقد أصبحت لا أفهمك قط يا أماه !

ـ ومن حقى أنا أن أستغرب أن لا يكون هذا الأمر مفهوما عندك يا ملاكى !

كذلك صاحت تقول ماريا ألكسندروفنا ، لاهثة هى أيضا ، وأردفت توضح :

ـ أولا : الأمر الرئيسى بالنسـبة اليك هو أن تغـيرى الجو الذى تعيشين فيه ، وأن تدخلى الى عالم جديد • يجب أن تتركى الى الأبد هذه المدينة الكريهة المقيتة الملأى بمرّ الذكريات فى نظرك ، هذه المدينة التى لم تجدى فيها لا مودة ولا عاطفة ، هذه المدينة التى يغتابك كل ساكن من سكانها ، هذه المدينة التى يكرهك جميع غربانها العور من نسائها الثرثارات

بسبب جمالك . انك تستطيعين أن تسافرى الى الخارج منذ الربيع القادم، تسافرين الى ايطاليا ، وسويسرا ، واسبانيا ، يا زينا ، نعم اسبانيا التى فيها قصر الحمراء ، التى فيها نهـــر الوادى الكبير بدلا من الساقية الصغيرة الكريهة التى تمر بهذه المدينة والتى يقبح حتى اسمها ...

ـ كفى يا أمى كفى ! ... انك تتكلمين كما لو كنت قد تزوجت ، أو على الأقل كما لو كان الأمير قد طلب يدى !

ـ لا يصدعنك هذا يا ملاكى ، فأنا أعرف ما أقول . ولكن اسمحى لى أن أتم كلامى . انتهيت الآن من البند الأول ، وهأنذا أنتقل الى الثانى. اننى أدرك يا بنيتى مدى الاشمئزاز الذى ستشعرين به اذا أنت ارتضيت الزواج بموزجلياكوف هذا الذى ...

صاحت زينا تقاطع أمها قائلة بحرارة :

ـ لن أكون زوجته فى يوم من الأيام ؟ أنا أعرف هذا دون أن تكونى فى حاجة الى ذكره .

قالت زينا هذا وقدحت عيناها شررا .

قالت أمها :

ـ آه ... ليتك تعلمين أيضا الى أى حد أفهم نفورك هذا ! انه لا شىء أشق على نفس الفتـــاة من أن تحلف أمام الهيــكل يمين الوفاء لانسان لا تستطيع أن تحبه ! لا شىء أفظع من أن يملك الفتاةَ رجــل لا تستطيع أن تحترمه ! ولسوف يطلب منك ملاعبات وملاطفات ومداعبات! .. انه يتزوجك من أجل أن يمتلكك ... هذا واضح فى النظرات التى يلقيها عليك حين تشيحين بوجهك ! لا ، لا ، لا شىء أبشع من التظاهر والرياء ! لقد اضطررت أنا الى هذا الرياء خمسة وعشرين عاما . كان

أبوك ضياعي ! ... في وسعي أن أقول انه امتص صباى حتى النخاع ! ألم تريني أبكي مرارا ؟

ـ دعي أبي وشأنه يا أماه ، أرجوك ... إنه يقيم الآن في القرية.

ـ اعرف انك دافعت عنه دائما . آه يا زينا ، لقد كان قلبي يتفطر ألمًا حين كنت أتمنى أن تتزوجي موزجلياكوف في سبيل المال . أما زواجك بالامير فهو على الأقل لا يحتاج الى رياء .... واضح أنك لا تستطيعين أن تحبيه .. حبا .. وواضح أنه هو نفسه «عاجز» عن مطالبتك بالحب ...

ـ ما هذا الهذر يا رب ! ثقي يا أمي أنك مخطئة في الأمر كله ، من أوله الى آخره ! واعلمي انى لا أريد أن أضحي بنفسي دون أن أعرف لماذا ! واعلمي خاصة أنني لا أريد أن أتزوج أى رجل ، وانني أوثر أن أظل عانسا ! لقد عذبتني تعذيبا كافيا منذ سنتين الى الآن لأنني كنت أرفض جميع الخاطبين . ولكنك أنت المخطئة في حق نفسك . لا أريد أن أتزوج ... هذا كل شيء ، كل شيء ...

ـ عزيزتي ، بنيتي زينا ، ناشدتك الله لا تغضبي قبل أن تصغي الى كلامي . ألا ما أسرع اهتياجك حقا ! اسمحي لي أن أعرض لك الأمور من وجهة نظري ، وأنا على يقين من أننا سنتفق في الرأى فورا . ان الامير يمكن أن يعيش سنة أخرى ، أو سنتين أخريين في أكثر تقدير : ولأن تكوني أرملة شابة خير من أن تكوني فتاة طاعنة في السن ، ناهيك عن أنك ستكونين عند موت الأمير أميرة حرة غنية مستقلة . عزيزتي ، قد تنظرين نظرة احتقار الى جميع هذه الحسابات القائمة على موت زوج. ولكنني أمك ، وأية أم يمكن أن تدينني اذا أنا فكرت في المستقبل ؟ وأخيرا اذا كنت بسبب طيبتك الملائكية تبلغين من الاشفاق على ذلك الصبى

أنك لا تريدين أن تتزوجى ما دام حياً (فيما أعتقد) فاعلمى انك بزواجك الأمير تهدئين روعه وتردين الفرح الى قلبه • ذلك أنه اذا كان له ذرة من عقل فلا بد أن يفهم أن أية غيرة من الأمير ستكون فى غير محلهـا ، فضلا عن أنها ستكون غلظة وفظاظة • ان عليه أن يدرك انك تقدمين على زواج عقل لا زواج حب ، أنك تقدمين على زواج لا بد منه ولا محيص عنه • ويجب عليه أخيرا أن يدرك ••• أن يدرك شيئا سأعبر عنه ببساطة ••• وهو أنك تستطيعين متى مات الأمير أن تتزوجى من تشائين •••

ـ لنسم الأمور بأسمائها ، ولنصفها كما هى : أقبل الامير ، أضحك عليه ، أنهبه ، أعوّل على موته لاتزوج بعد ذلك •• عشيقى •• هـــذا حساب ذكى محكم حتى النهاية ! انك تريدين أن تغرينى بهذه العروض ••• أنا أفهم كل شىء يا أمى ، كل شىء تماما ••• انك لا تستطيعين الا أن تظهرى عواطف نبيلة ، حتى فى قضية حقيرة دنيئة ••• لقد كان أولى بك أن تقولى لى رأساً : « زينا ، هذا عمل دنىء ، ولكن فيه ربحا فيجب أن تعمليه » • لو قلت ذلك يا أمى لكانت لك ميزة الصراحة على الأقل •

ـ لماذا ، يا بنيتى ، تنظرين الى الامور من هذا الجانب وحـده ، جانب الخداع واليسوعية والطمع ؟ انك تعدين حساباتى هذه خســة ومخادعة • ولكننى استحلفك بكل ماهو مقدس أن تقولى لى أين المخادعة، وأين الخسة ؟ انظرى الى نفسك فى المرآة : انك جميلة جمالا يستحق أن تضحى فى سبيله مملكة بأسرها • ومع ذلك ••• انك تضحين فجأة لشيخ هرم بأحسن سنى عمـرك ••• فتضيئين غـروبه كنجمة متـلألئة رائعة ، وتنضّرين دربه كلبلابة دائمة الخضرة • أنت تنقذينه من تلك المرأة الأفاقة ، من تلك الأفعى السامة ، من تلك العلقة التى حجرت عليه وأخذت تمتص دمه بشراهة • هل يعقل أن تعدى نفسك أدنى شأنا من

الثراء وأهون قيمةً من لقب الأمير ؟ فأين الخداع اذن وأين الحطة ؟ الا انك لا تعرفين ماذا تقولين يا زينا ؟

ـ أنا أقول الكلمات المناسبة لمن تتزوج رجلا ذا عاهة ! هذا خداع يا أمي ، هذا خداع ، أية كانت الغاية !

ـ بالعكس يا عزيزتي بالعكس ! فانما يجب أن ننظر الى الأمر من عل ، ولا سيما من وجهة النظر المسيحية يا بنيتي • ألم تشائي أنت نفسك، ذات يوم ، في لحظة من حماسة أن تصبحي ممرضة ؟ كان قلبك مضنى ممرورا ، وكنت تقولين (عرفت أنا ذلك) انك لن تستطيعي أن تحبي بعد الآن • فيا عزيزتي ، حين يفقد الانسان ايمانه بالحب ، فهو ينقل عاطفته الى مجال آخر ، ينقلها الى موضوع أسـمى وأرفع ، ينقلها الى رحاب أخرى ببراءة طفل وبكل ما يحمله طفل في قلبه من اخلاص وتفان • وعندئذ فان الله هو الذي سيجزيك خير الجزاء • ان هذا الشيخ قد تألم هو أيضا • انه شقي ، وانه مستغَل • أنا أعرفه منذ سنين طويلة ، ولقد شعرت نحوه دائما بعاطفة غير مفهومة ، عاطفة قريبة من المحبـة ، كأن شيئا قد نبأني بما سيحدث • فكوني صديقته ، كوني ابنته ، بل كوني له لعبة اذا وجب أن تسمي الأشياء بأسمائها ، ولكن أدخلي الدفء الى قلبه• وأؤكد لك أن هذا سيكون منك عملا خيِّرا ، سيكون منك حسنة ترضي الله • هو رجل مضحك ، رجل أصبح نصف رجل • فلا تنظري اليـه ، بل أشفقي عليه ما دمت مسيحية !. احملي نفسك على ما لا تحبين • لو ذهبت الى المستشفيات تضمدين الجراح ، لكان ذلك منك تضحية وتفانيا• اننا نشمئز من تنشق الهواء الموبوء في قاعات المرضى ! ومع ذلك هنـاك ملائكة يفعلن هذا ويشكرن لله على أنه أتاح لهن أن يفعلنه ! ذلك هـو الدواء الذي يمكن أن يشفي قلبك الجريح يا زينا ؟ هذا شاغل يشغلك عن همومك ، وعمل انساني أخلاقي يساعدك في مداواة جرحك ! فأين

الأنانية هنا ؟ أين الخسة هنا ؟ ولكنك تصرين على الشك فيّ • ولعلك تتصورين أنني أبالغ حين أتكلم عن الواجب والعمل الانساني الأخلاقي؟ انك لا تستطيعين أن تدركي أنني ، وأنا المرأة الخفيفة الاجتماعية ، يمكن أن يكون لي قلب ، ويمكن أن تكون لي عاطفـــة ، ويمكن أن يكون لي عقل ! ودعينا من هذا ! انك لتهينين أمك برفضك تصديقها ••• ولكن عليك أن تعترفي مع ذلك بمدى ما تشتمل عليه أقوالها من حكمة ومن سلامة • افرضي ان امرأة غيري هي التي تتكلم الآن • أغمضي عينيك وأديري ظهرك وتخيلي أنك تسمعين صوتا لا ترين صاحبه • ان مايقلقك هو أن المسألة مسألة مال ، هو أن المسألة أشبه بصـــفقة شراء أو بيع • فارفضي المال اذا كنت تكرهين المال هذا الكره كله ، ولا تأخذي منه الا ما هو ضروري ثم وزعي الباقي على الفقراء • ساعدي مثلا ذلك الشاب المسكين الذي يرقد الآن على فراش الموت !

قالت زينا في رفق كأنها تخاطب نفسها :

ـ لن يقبل أية مساعدة !

فأجابت ماريا ألسكندوفنا بلهجة المنتصر :

ـ هو لن يقبل ، ولكن أمه ستقبل عنه • ستأخذ المال بدون علمه • أنا أعرف أنك بعت قرطي الأذنين اللذين أهدتهما اليك عمتك من أجل أن تساعديه ، منذ ستة أشهر • وأعرف أيضا أن أمه عملت غسّالة في سبيل أن تطعم ابنها الشقي •

ـ قريبا لن يكون في حاجة الى شيء !

قالت ماريا ألسكندروفنا متدفقة الالهام :

ـ أنا أعرف أيضا ماذا تريدين أن تقولي بهذا الكلام • ولكن من

ذا الذي يدعى هذا ؟ لقد سألت عن صحته بنفسي منذ بضعة أيام ، سألت كالستي ستانسلافتش* • انني أهتم به لان لي قلبا يازينا • فقال لي انمرضه خطير حتما ، ولكن في رأيه أن المسكين لم تصب رئتاه حتى الان ، وانما هو مصاب بتخرب في القصبات • اسألي كاليستي ستانسلافتش بنفسك • ولقد قال لي مخلصا كل الاخلاص ان المريض يمكن أن يبل من مرضه اذا هو غيَّر الهواء ، وغيَّر المناخ ، واذا تغيرت مشاعره خاصة • وذكر لي كاليستي ستانسلافتش أن في اسبانيا ــ وهذا شيء سبق أن سمعته من غيره ، بل وقرأته أيضا ــ أن في اسبانيا جزيرة عجيبة أظن أن اسمها مالاجا ، نعم مالاجا ، فانه شبيه باسم نوع من أنواع الخمور ، يكفي مناخها لشفاء المصدورين ، وحتى المصابين بالسل • وهنالك انما يذهب للاستشفاء طبعا كبار أصحاب الأملاك ، وربما بعض الأثرياء جدا من التجار • على أن قصر الحمراء الساحر الأخَّاذ ، بما فيه من أشجار الآس والليمون ، يكفي وحده لاحداث أثر كبير في نفس حساسة وطبيعة شاعرية • فهل تظنين أنه لن يقبل مساعدتك ، أنه لن يقبل مالك من أجل القيام بهذه الرحلة ؟ اذا كنت تظنين ذلك ، واذا كنت تشفقين عليه حقا ، فما عليك الا أن تخدعيه ، فان الكذب مغتفر حين يكون الهدف منه انقاذ حياة انسان • ابعثي في نفسه الأمل في حبك ، عديه مثلا أن تتزوجيه متى أصبحت حرة طليقة • كل شيء في هذا العالم يمكن أن يُنال بطريقة شريفة • لن تعلمك أمك شيئا منكرا يا بنيتي • وانما أنت تفعلين ذلك ، اذا فعلته ، انقاذا لحياة الشاب المسكين ، وهذا يسوِّغ فعلك ! لسوف تردينه بالأمل الى الحياة ، لسوف يأخذ يهتم بصحته من تلقاء نفسه ، لسوف يعتني بمعالجة مرضه ، فيسمع نصائح الطبيب ، ويحاول أن يُبعث بعثا جديدا في سبيل أن يكون سعيدا • قد لاتتزوجينه، ولكنه يكون قد استرد عافيته وتكونين أنت قد أنقذته وبعثته الى الحياة •

ثم ان من الممكن أن يشعر المرء نحوه بعدئذ بشيء من العطف ، من الممكن أن يكون مصيره قد علّمه شيئا ، من الممكن أن يصبح رجلا خيّرا ... فاذا أحسست عندئذ أنه غدا جديرا بك ، فلك أن تفعلي ما تشائين ، وأن تتزوجيه متى ترملت . سوف تكونين حرة مستقلة . سوف يكون من حقك ، بعد أن شفيته من مرضه ، أن تؤمني له مركزا في هذه الحياة ، وأن تشقي له طريقا جديدا . وسوف يكون زواجك به بعدئذ مغتفرا ، على حين انه الآن غير مغتفر . ما الذي ينتظركما اذا أنتما ارتكبتما هـذا الجنون الآن ؟ لا شيء الا احتقار الناس ، وبؤس المعيشة ، والصبية الصغار الذين توجب عليه المهنة أن يشد آذانهم ، وقراءة شكسبير معا ، والحياة السجينة في مورداسوف ، ثم موته الذي لن يتأخر في مثل هذه الظروف؟ على حين أن الواجب الذي يقع على عاتقك هو أن تبعثيه الى الوجـود ، وأن ترديه الى حياة نافعة ، وأن تضفي عليه الشرف والكرامة . انعفوك عنه سيحمله على أن يعبدك عبـادة . سوف يخجل من فعلته الدنيئة ؟ وتكونين أنت ، رغم كل شيء ، قد رددته الى حياة جديدة ، تكونين قد رأفت به وأسبغت عليه من رحمتك ، ومحوت بغفرانك كل شيء ، وأعدت الرجاء والأمل الى قلبه ، وصالحته مع نفسه ! وسيكون في وسعه عندئذ أن يسعى سعيا حثيثا الى الحصول على مركز مرموق ، وأن يرتقي في سلم المناصب . وهبي أنه لم يبل من مرضه ، فانه سيموت عندئذ سعيدا ، مطمئن النفس ، راضي البال ، بين ذراعيك ، (اذ سيكون في وسعك أن تمكثي الى جانبه في تلك اللحظة) واثقا من حبك ومن غفـرانك ، في ظل أشجار الآس والليمون ، تحت سماء لازوردية في بلد جميل . آه يا زينا ... ان كل شيء هو الآن بين يديك ! ان جميع الأمور ستسلس لك قيادها اذا أنت تزوجت الأمير .

سكتت ماريا ألكســـندروفنا • وأعقب ذلك صمت طويل • وكان يبدو على زينا انفعال لا يوصف •

لن نحاول أن نصف عواطف زينا ، فاننا لا نستطيع أن نحزرها •• ولكن يظهر ان ماريا ألكسندروفنا قد وجدت السبيل الذى تنفذ منـه الى قلبها • لقد سارت فى أول الأمر تتلمس طريقها تلمسـا بين الحـالات النفسية التى يمكن أن تكون عليها ابنتها ، ثم أفلحت أخيرا فى معـــرفة الوسيلة الناجعة ، فاتكأت عندئذ بغير مراعاة ولا مداراة على الجرح من قلب زينا ، دون أن تغفل طبعا عن اظهار أنبل العواطف وأكرم المشاعر ، وهى عواطف ومشاعر لم تنطل على ابنتها مع ذلك ولا أعمتها عن رؤية الحقيقة • ولكن ماريا ألسكندروفنا كانت تقول لنفسها : « ماذا يهمنى أن لا تصدقنى ؟ حسبى أن أفلح فى حملها على التفكير ، وأن أبث فى ذهنها بالاشارات البارعة ما يســتحيل أن أقوله لها صراحــــة ! » وبلغت ماريا ألكسندروفنا هدفها • لقد أحدث كلامها أثره • فكانت زينا تصغى اليها بشراهة ، محترقة الخدين ، لاهثة الصدر •

وقالت زينا أخيرا بلهجة قاطعة (غير أن الصفرة التى اصطبغ بهـا وجهها فجأة قد كشفت عن مدى ما يكلفها قرارها) :

ـ اسمعى يا أمى •••

وفى تلك اللحظة نفسها سمعت فى الدهليـــز ضجة لم تكن فى الحسبان ، هى صوت حاد صارخ يسأل عن ماريا ألسكندروفنا • فاضطرت زينا أن تتــوقف عن الكلام • ووثبت ماريا السكــندروفنا من مكانها • وهتفت :

ـ أوه ! يا رب ! شيطان يأخذ هذه البومة التى تدعى كولونيلة ••

ثم أضافت تقول بلهجة تنم عن أشد الكرب :

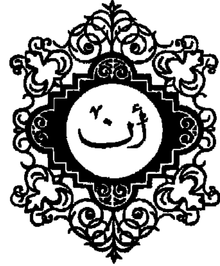
ـ لقد كدت أطردها طردا منــذ خمســـة عشر يوما ••• ولكن يستحيل عليّ ان لا أستقبلها الآن ••• يستحيل ••• لا شك أنها تحمل أنباء ••• والا لما تجرأت أن تظهر ••• الأمر هام يا زينا ••• يجب أن أعرف ••• ما ينبغي اهمال شيء في هذه اللحظة •

ثم صاحت تقول وهي تهبّ الى لقاء الزائرة التي دخلت الصالون :

ـ أوه ! •• ما أسعدني بهذه الزيارة ! ما الذي ذكرك بي ياعزيزتي التي ليس لها مثيل ••• يا صوفيا بتروفنا ؟ ما أجمل هذه المفاجأة !

وانتهزت زينا هذه الفرصة فهربت •

الفصل السادس



السيدة الكولونيلة صـــوفيا بتروفنا فاربوخينا لا تشبه البومة الا شبها نفسيا ، أما من الناحيـــة الجسمية فهى الى العصفور الدورى أقرب • هى امرأة قصيرة فى نحو الخمســـين من عمرها لها أنف صغير مفلطح ، وعينان حادتان ، وبقع حمراء وصـفائح صفراء على الوجه ؛ وهى تكسو جسمها اليابس ، المغروس على ساقين دقيقتين قويتين طويلتين ، بثوب من حرير أسود ما ينفك يخفخف لأنها لا تستطيع أن تستقر فى مكان واحد ثانيتين متتاليتين • انها من النساء اللواتى يسعـين بالاقاويل والوشايات والنمائم هنا وهناك بروح الشؤم والحسد والانتقـام والتشفى • ورغم أنها مزهوة الى حد الجنـــون بلقب الـكولونيلة الذى تحمله ، فانها كثيرا ما تشتجر مع زوجها ، الكولونيل المحال على التقاعد ، حتى ليصل التشاجر الى حد التضارب بالأيدى ، فيتخدش وجه الرجـل المسكين • هذا الى أنها تشرب فى الصباح أربعة أقداح صغيرة من الكحول ، وتشرب مثل ذلك فى المساء • وهى تكره انا نيكولايفنـــا آنتيبوفا كرهـا شديدا يبلغ درجة المقت ، لأن آنا قد طردتها من منزلها فى الاســـبوع الماضى ، كما تكره ناتاليـا دمتريفنا باسـكودين التى شـاركت فى ذلك الطرد •

صأت تقول وهى تدخل :

ـ جئت للحظة واحدة يا ملاكي • لا داعي الى جلوسي • وانما أردت أن أطلعك على ما يجري • شيء لا يُصدَّق • ان هذا الأمير قد أفقد المدينة كلها عقلها ! نساؤنا المتآمرات يطاردنه بغية اصطياده • انهن يجتذبنه الى شباكهن • وتحاول كل منهن أن تنتزعه من الأخرى ••• الشمبانيا تسيل ••• لا تستطيعين أن تتصوري الى أي حد ••• لماذا تركته يغادر منزلك ؟ هل تعلمين أنه الآن عند ناتاليا دميترفنا ؟

صرخت ماريا ألسكندروفنا تقول وهي تنتفض عن مقعدها :

ـ عند ناتاليا دميترفنا ؟ كيف ؟ لم يكن يريد أن يذهب الا الى الحاكم ، وربما الى آنا نيكولايفنا بضع دقائق بعد ذلك !

ـ نعم ، بضع دقائق ••• القطيه الآن اذا استطعت • لم يجد الحاكم، وعندئذ دخل منزل آنا نيكولايفنا ، ووعدها أن يتناول الغداء عندها • وقامت هذه الشريرة ناتاليا التي لا تترك آنا لحظةً في هذه الأيام ، قامت فاقتادت الأمير الى منزلها لتناول وجبةٍ خفيفة بانتظار الغداء • ذلك ما وصل اليه أميرك الآن !

ـ ولكن ••• وموزجلياكوف ؟ لقد وعد بأن •••

ـ اتكلت على موزجلياكوف ؟ ألا انك مسرفة في الثقة ! هه ••• هو الآن معهم هناك • أرجو على الأقل أن لا يأخذ في اللعب بالورق فيخسر كما حدث في العام الماضي ! والأمير أيضا ••• لا شك أنهم سيجلسونه الى مائدة القمار لينتفوه كما تنتف دجاجة ! وما أكثر ما تذمك ناتاليا هذه ! ما أكثر ما تسوقه في حقك من طعن وقدح ! انها ما تنفك تزعم أنك اجتذبت الأمير ••• في سبيل أهداف معلومة ••• هل تفهمين ؟ حتى أنها تشرح هذا للأمير ••• والأمير لا يفهم شيئا بطبيعة الحال ، بل يظل قابعا كقطعة مبللة ، ويظل يجيب عن كل ما يحكى له بقوله : « طبعا •••

طبعا ! ... » وهذا الطاعون ناتاليا ... آه .. ان الشعور بالخجل والعار لا يخنقها ... لقد جاءت بابنتها صوفيا ... تخيلي ... خمسة عشر عاما ... وما تزال ترتدى تنورة قصيرة لا تكاد تستر ركبتيها ... تصوري ... واستدعت كذلك ماشا ، اليتيمة ... ألبسوها ثوبا قصيرا ... ثوبا أقصر من تنورة صوفيا أيضا ... يكشف عن كل ما تشائين ، ثوبا يعلو الركبتين كثيرا ! ... رأيت هذا بمنظاري ... ووضعوا على رأس الصبيتين أنواعا من قبعات صغيرة حمر ذات ريش ... لا أدري ما معنى هذا ... وحملتهما ناتاليا على أن ترقصا رقصة القوزاق على أنغام البيانو ... وأنت تعرفين العيب الصغير في الأمير : « ما أجملها أجساما ! ما أجملها أجساما ! » كذلك كان الأمير يردد واللعاب يسيل من فمه . كان يتابع التحديق اليهما بنظارتيه ، والصبيتان الطائشتان تتحمسان في الرقص وتتباريان ... واحمر وجهاهما حتى صارا بلون القرمز ، وهما ما تنفكان تدوران وتدوران كالاعصار من فرط الحماسة .. رقصتا رقصا عنيفا كعنف رقص الرجال ! يا له من رقص ! ... لقد سبق لي أنا أن رقصت « رقصة الشال » ، في المدرسة الداخلية الراقية التي كانت تديرها مدام جارني ، فما كان أعظم نجاحي في الرقص ! كان هناك أعضاء من مجلس الشيوخ صفقوا لي ! كانت المدرسة تضم بنات كونتات وأمراء .. ولكن الرقص في منزل ناتاليا هذه قد غدا رقصا فاجرا حقا ! لقد احترقت شعورا بالخزي والعار وأنا أنظر الى الصبيتين تتحركان ، نعم احترقت شعورا بالخزي والعار ! حتى انني لم أشأ أن أقعد !

ـ ولكن لماذا عدت الى عند ناتاليا دمتريفنا ؟ كنت أظن أنك ...

ـ نعم نعم ، لقد أهانتني في الأسبوع الماضي . لست أتحرج من ذكر ذلك لجميع الناس . ولكنني يا عزيزتي كنت أحرص على أن أرى الامير ، كنت أحرص على أن أراه من قرب ، ولو اقتضاني ذلك أن أنظر

من خلال ثقب مفتاح ! فلذلك انما ذهبت اليها رغم كل شيء ••• فلولا الأمير لانتظرت كثيرا قبل أن تراني عندها ••• وتصوري هذا : لقد قدموا شكولاتة لجميع الحضور ، الا أنا ••• ولم يخاطبوني بكلمة واحدة • فعلت ذلك عامدة • ولكنني سأعرف كيف أنتقم لنفسي منها ، هذه البرميل ••• الى اللقاء يا ملاكي ، أنا مستعجلة ، مستعجلة جدا ••• يجب على حتما أن ألقى آكولينا بانفيلوفنا ، وأن أروى لها بعض الاشياء •• أنت الآن كأنك ودعت أميرك الى الأبد ! ••• لن يعود اليك ! لاحظى أنه قد فقد ذاكرته تماما ، فسترده آنا نيكولايفنا اليها بغير ابطاء •• انهما كلتيهما تخشيان أن تكون قد قامت في ذهنك فكرة بشأن ••• هل تفهمين ؟ بشأن زينا !

ـ يا للفظاعة !

ـ كما أقول لك ! المدينة كلها لا تهتف الا بهذا • وستدبر آنا نيكولايفنا أمورها بحيث يتناول الأمير غداءه عندها ، ثم يبقى في منزلها • هذا « مقلب » هيأته لك يا ملاكي • لقد ألقيت نظرة على فناء منزلها ، فما أكثر ما رأيت من حركة واستعداد ! انهم يحضرون الغداء •• سكاكين تقطيع اللحم ما تنفك تضرب ••• وقد بعثوا بمن يجيء لهم بشمبانيا • أسرعي فاقبضي عليه في الشارع عائدا الى عندها ! ألم يعدك قبل أن يعدها ؟ انه ضيفك لا ضيفها ! هل تسمحين لهذه المغامرة ، لهذه المتآمرة ، لهذه المخاطة ، أن تسخر بك وتضحك عليك ؟ هي السيدة زوجة وكيل النيابة ، ولكنها لا ترتقي الى كعبي ••• أنا زوجة كولونيل ! تعلمت في المدرسة الداخلية الراقية التي كانت تديرها مدام جارني ! هه ! ••• هه ! ••• والآن استودعك الله يا ملاكي • عربتي على الباب ، والا لكان يمكن أن نذهب معا •••

وغابت الجريدة المتنقلة • ان ماريا ألكسندروفنا ترتجف قلقا • ولكن نصيحة الكولونيلة واضحة عملية الى أبعد الحدود • ما ينبغي اضاعة دقيقة واحدة • وهرعت ماريا الكسندروفنا الى غرفة نومها •

كانت زينا تمشي في الغرفة طولا وعرضا ، مصالبةً ذراعيها ، خافضةً رأسها • انها شاحبة الوجه من شدة الانفعال • وهذه دموع تتلألأ في عينيها • ومع ذلك كان عزمها يُقرأ في نظرتها التي أدارتها نحو أمها • أسرعت الفتاة تخفي دموعها ، وظهرت على شفتيها ابتسامة ساخرة •

قالت تحذر ماريا ألكسندروفنا :

ـ اسمعي يا أمي ، لقد لفقت لي منذ قليل عبارات جميلة كثيرة ، كثيرة مسرفة في الكثرة ••• ولكنك لم تستطيعي أن تعمي بهذه العبارات بصري • ما أنا بطفلة • لأن يقنع المرء نفسه بأنه يقوم بعمل من أعمال راهبات المحبة ، مع أنه لا يحقق أية رسالة ؟ ولأن يبحث عن عذر للخسة والحطة والدناءة التي يقترفها بدافع الأثرة المحضة ، وذلك بتزيينها بهدف كريم ، فذلك كله تفان يسوعي لا يمكن أن ينطلي عليَّ ، وأنا أحرص على أن تعلمي هذا •••

هتفت ماريا ألكسندروفنا تقول :

ـ ولكن يا ملاكي •••

ـ اسكتي يا أمي ••• وتكرمي عليَّ بالاصغاء الى كلامي حتى النهاية • انني رغم علمي الكامل بأن هذا كله ليس الا نفاقاً يسوعياً ، ورغم يقيني التام بأن قرارا كالقرار الذي سأعلنه لك الآن لا يتصف بشيء من الشرف ، فانني أقبل ما عرضته عليَّ جملةً واحدة ، هل تفهمين ؟

« جملة واحدة » • انني أعلن لك أنني مســـتعدة لتزوج الأمير ، بل ولمساعدتك بكل قواي في اقناعه بزواجي • أما لماذا اتخذت هذا القرار ، فما أنت في حاجة الى أن تعرفي ذلك• حسبك أنني اتخذت هذا القرار • لقد عزمت أمري على كل شيء : على أن ألبسه حذاءيه ، على أن أكون له خادمة ، على أن أرقص له لأسلّيه وأسرِّي عنه • سأستر عن نظـريه شعوري بالصغار والحطة ، سأفعل كل شيء في سبيل أن لا يندم عـــلى زواجه بي • ولكنني أسألك ، في مقابل رضاي هـذا كله ، أن تكوني صريحةً معي : ما الذي ستعمدين اليك من حيلة ؟ لا شك أن في ذهنك خطة مدبَّرة ، فما كان لك أن تتكلمي عن هذا الأمر كل ذلك الكلام لولا أن في ذهنك خطة مدبرة • فكوني صريحةً مرةً واحدة في حياتك على الأقل : ان الصراحة لازمة في مثل هذا الظرف ، فليس يمكنني أن أقرر شيئا ما لم أعلم على وجه الدقة ما الذي ستعمدين اليه من حيلة !

بلغت ماريا ألكسندروفنا من الانشداه لهذه النتيجة أنها لبثت برهة من الوقت متسمرة أمامها ، محملقة فيها ، عاجزة عن قول كلمة أو اجراء حركة • لقد كانت تتوقع أن تخوض معركة حامية الوطيس مع ابنتها التي تتصف باستقامة رهيبة ونزاهة مخيفة ، كما تتصف بروح رومانسية عنيدة فاذا هي تعلم فجأة أن زينا موافقة على كل شيء رغم جميع قناعاتها ••• ألا ان الأمور لتجري الآن اذن مجرى جديا الى أبعد حدود الجد •

صاحت تقول في حماسة :

– بنيتي زينا ، صغيرتي زينا ، أنت لحمي ودمي ••• أنت لحمي ودمي •••

ثم لم تستطع أن تضيف شيئا ، فأسرعت تحضن ابنتها بذراعيها •

صرخت زينا تقول في تململ يشوبه اشمئزاز :

ـ ما حاجتى الى قبلاتك هذه ! ما حاجتى الى حماستك هذه ! أنا لا أطلب منك الا جوابا عن سؤالى ، لا أكثر !

ـ ولكننى أحبك يا زينا ، وأعبدك ، فكيف تصدينني هذا الصد ؟ أنا فى سبيل سعادتك انما أعمل ...

قالت الأم ذلك وتلألأت فى عينيها دموع غير متكلفة ... ان ماريا ألكسندروفنا تحب ابنتها « على طريقتها الخاصة » ، وقد جعلها الانتصار والانفعال فى هذه المرة عاطفية حقا ! وكانت زينا ، رغم أن نظرتها الى الامور نظرة محدودة بعض الشيء ، تعلم أن أمها تحبها ، وكانت تتألم من هذا الحب . فلو كانت أمها تكرهها ، لكان كل شيء أسهل ...

قالت زينا لتهدىء أمها :

ـ لا تزعلى يا أمى ، فأنا مضطربة اضطرابا شديدا .

ـ لست زعلانة يا ملاكى ، لست زعلانة أبدا .

بهذا تمتمت ماريا ألكسندروفنا وقد استردت انتعاشها على الفور ، وتابعت تقول :

ـ اننى أفهم انفعالك حق الفهم . وأنت تطلبين منى الصراحة اذن يا عزيزتى . فاعلمى اننى سأكون صادقة ماشئت من صدق مخلصة ما شئت من اخلاص . كل ما أسألك اياه هو أن تثقى بى . يجب أن أقول لك أولا اننى لمّا أتصور بعد أية خطة نهائية . ذلك غير ممكن يا زينا . وأنت تملكين من الذكاء ما يجعلك قادرة على ادراك السبب . بل اننى لأتنبأ ببعض المصاعب . منذ هنيهة صدعت رأسى هذه البومة العوراء بأمور كثيرة ... (آه ... يا رب ! يجب أن استعجل !) . هأنت ذى ترين أننى صريحة . ولكننى أحلف لك أننى سأبلغ هدفى وأحقق غايتى . وليس يستند يقينى هذا الى سراب ، كما قلت منذ برهة

يا ملاكى ، وانما هو قائم على وقائع • انه يستند على ما يتصف به الأمير من ضعف عقلى شديد • انه نسيج يمكن أن يطرّز عليه المرء ما شاء له هواه أن يطرّز ••• آه ••• شريطة أن يتسع لى الوقت من أجل أن أعمل ! ان جميع هاته البهائم الحمقاوات يحسبن أنهن سينتصرن علىّ ! (كذلك صاحت ساطعة العينين وهى تضرب المائدة بيدها) • ولكن سنرى ! لن أضيّع دقيقة واحدة ، يجب أن أفرغ اليوم من الأمر الرئيسى ، اذا أمكن ذلك !

ـ طيب يا أمى ، ولكن اليك « حقيقة » أخرى : هل تعلمين لماذا يعنينى كثيرا أن أعرف خطتك ، ولماذا لا أثق بك ؟ لأننى غير متأكدة من نفسى • لقد قلت لك اننى مستعدة لارتكاب هذه الدناءة • ولكن اذا كانت تفاصيل خطتك باعثة على اشمئزاز شديد ، فاننى أبلغك منذ الآن أننى فى هذه الحالة لن أتبعك ، بل سأتراجع عن كل شىء • أنا أعلم أننى أقترف حطة مضاعفةً اذا أنا ، بعد أن ارتضيت أن أسبح فى هذا الوحل ، لم أملك من الشجاعة ما يمكننى من البقاء فيه • ولكن لا حيلة لى فى الأمر، فهذا ما سيكون !

قالت ماريا ألكسندروفنا فى خجل ووجل :

ـ دعيك من هذا الكلام يازينا ، أين الحطة فى هذا العمل ياملاكى؟ ليس الأمر الا أمر زواج مناسب ، كما يفعل جميع الناس • يجب أن لا ننظر الى الأمور الا من هذه الزاوية • فاذا فعلنا اكتسى كل شىء مظهرا سليما لا غبار عليه •

ـ أوه ••• أستحلفك بالله يا أمى أن لا تمكرى فى مخاطبتى • أنت ترين أننى موافقة على كل شىء ، كل شىء • فماذا تريدين أكثر من ذلك ؟ أرجوك ، لا تخجلى من أن تسمى الأشياء بأسمائها ؛ وقد يكون هذا عزائى الوحيد فى هذه الساعة •

قالت الفتاة ذلك وطافت فى شفتيها ابتسامة مرة .

ـ طيب طيب يا ملاكى . قد نختلف فى الرأى ، ثم تظل كل منا تقدّر الأخرى . ومع ذلك اذا كنت قلقةً بشأن بعض التفاصيل ، اذا كنت تخشين أن تكون بعض التفاصيل وسخة كثيرا ، فاعتمدى علىّ ولا يشغلن بالك أى هم . يمينا لن تلطخك قطرة واحدة من وحل . أيمكن أن أرتضى أنا أن أسىء الى سمعتك فى نظر الناس ؟ اتكلى علىّ . سوف يتم كل شىء على خير وجه ، سوف يجرى كل شىء مجرى حسنا . لن يكون ثمة أية فضيحة ، واذا عجزنا عن تفادى فضيحة ما ، فستكون فضيحة يسيرة ، تافهة ، صغيرة ، لا قيمة لها ! ولاحظى أننا سنكون عندئذ بعيدين ! أنت تعلمين أننا لن نقبع هنا طويلا ! فليصرخوا بعد سفرنا ما شاءوا أن يصرخوا ، فلن يضيرنا صراخهم فى قليل أو كثير ! وصراخهم لن يكون الا صراخ الحسد ... فعلام نهتم به ونكترث له ؟ انك تدهشيننى يا زينا (ولكن لا تغضبى !) : كيف تكونين فى مثل هذه العزة وهذا الكبرياء ثم تخشين الناس ؟

قالت زينا مستاءة :

ـ آه ... أمى ... لست من الناس خائفة ! انك لا تفهمينى أبدا .

ـ طيب طيب يا عزيزتى الحلوة ، لا تزعلى ! وانما أريد أن أقول ان هؤلاء الناس يقارفون شرا فى كل يوم من الايام التى خلقها الله ، أما أنت فمرةً واحدة فى حياتك ... نعم ! ... أوه ... ما أغبانى ! ما هذا الذى أقول ؟ أين الشر فيما تعملين ؟ أين السوء ؟ بالعكس : ان ما تعمله لهو فعل نبيل ! سأبرهن لك بدقة ووضوح يا زينا . أولا : أعود فأقول لك ان كل شىء رهن بالزاوية التى ننظر منها الى الأمر ...

صرخت زينا وهى تقرع الأرض بقدمها مهتاجة :

ــ كفى براهين يا أمى !

ــ طيب يا عزيزتى ! هأنذا أسكت ، هأنذا أسكت ! لقد اندفعت الى الكلام من جديد •••

أعقبت ذلك دقائق صمت • كانت ماريا ألكسندروفنا تنظر الى ابنتها زينا ضارعة ككلب صغير خائف من صاحبه •

واستأنفت زينا كلامها تقول باشمئزاز :

ــ ما زلت لا أفهم كيف ستجرين الأمور • أنا متأكدة أنك ستذلين نفسك • اننى أحتقر رأى الناس ، ولكن الناس سيقولون عنك أنت الأقاويل •••

ــ أوه ! اذا كان هذا هو ما يعذبك يا ملاكى ، فاهدئى بالا ، أرجوك ••• لا تقلقى ! يكفى أن نتفق أنا وأنت حتى تستوى عندى بعد ذلك كل الأمور ! ليتك تعرفين ما سبق أن اجتزت من مصاعب ، ليتك تعلمين ما سبق أن تغلبت عليه من مخاطر ، ليتك تعلمين ما سبق أن عانيت من مخاوف ، وما اكتويت به من نيران ! هيًّا ••• دعينى أجرب•• وانما يجب ، قبل كل شىء ، وبأقصى سرعة ممكنة ، أن نختلى بالأمير ! تلك هى الخطوة الأولى ! والتتمة كلها رهن بها ! وأنا أتنبأ بالتتمة ! سوف يسابقوننى ويزاحموننى ••• ولكن ليس لهذا من قيمة ! سأعرف كيف أتخلص من المزعجين ! ولكن الذى يقلقنى قليلا انما هو موزجلياكوف •••

ــ موزجلياكوف ؟

كذلك سألت زينا باحتقار • فأجابتها أمها :

ـ نعم موزجلياكوف ؟ ومع ذلك لا تخشى شيئا يا زينا ! ثقى أننى سأعرف كيف أداوره ، حتى أنه سيهب الى مساعدتنا هو نفسه • انك لم ترى حتى الآن كيف تعمل أمك يا زينا ! انك لا تعرفين مقـدرتى فى العمل ! آه يا بنيتى زينا ، آه يا كنزى العزيز ! اننى منذ سمعت كلاما عن الأمير خطرت ببالى فكرة هذا الزواج ! لكأن الفكرة أشرقت فى ذهنى بوحى والهام • هل كان يمكن أن أتوقع هذه الزيارة ؟ ان فرصة كهذه الفرصة قد تُنتظر ألف سنة ، صدقينى يا صغيرتى زينا ، ياملاكى العزيز! ليس العار أن تتزوج الفتاة شيخا ذا عاهة ، وانما العار أن تتزوج رجلا لا يمكن أن تطيقه ثم هو مع ذلك يطلب منها أن تكون زوجته «فعلا» • وأنت تقدرين أنه لا شىء منهذا وارد اذا أنت تزوجت الأمير! لن تكونى زوجته فعلا ! لن يكون هذا الزواج الا صورة ، الا خيالا ، لن يكون الا وهما ! لن يكون الا عقد زواج • أما هذا الابله المسكين فانه سيجنى منك كل خير • ستكون هدية زفافه سعادة لا تقدَّر ! آه ••• ما أروع جمالك اليوم يا بنيتى زينا ! أنت أكثر من فتنة ! لو كنت رجلا لوهبت لك نصف مملكة متى رغبت فى ذلك أيسر رغبة ! جميع الرجال هنا حمير ببرادع! كيف أملك أن لا أبوس هذه اليد الجميلة ؟ (قالت ماريا ألسكندروفنا ذلك وباست يد ابنتها) • نعم • أنت جسدى ، أنت لحمى ، أنت دمى • اجبرى نفسك على تزوجه ، هذا الأبله المسكين ! ولكم سنسعد أنا وانت ياملكتى الصغيرة ! ذلك انك لن تنفصلى عنى يا عزيزتى الغاليـــة ! لن تطردى أمك بعد أن تجدى السعادة ! لقد أمكن أن نتشاجر ، ومع ذلك هأنت ذى ترين أن خير صديقة لك انما هى أنا • ولكن •••

قالت زينا متململة :

ـ أمي ، اذا كنت قد عزمت أمرك ، فقد آن أوان ••• العمل • أنت هنا تضيعين وقتك سدى •

فأسرعت ماريا ألكسندروفنا تقول :

ـ نعم آن الأوان يا بنيتي زينا ! آه ••• لقد أسرفت في الثرثرة • ما أشد رغبتهم هناك في تضليل الأمير ! سوف أركب عربة على الفور ! وأركض الى هناك ! أصل ، فاستدعي موزجلياكوف ، وعندئذ ••• سأجيء به عنوةً اذا اقتضى الأمر ••• الى اللقاء يا صغيرتي العزيزة زينا ، يا كنزي الحبيب ••• لا تأسفي على شيء ، لا تشكي في شيء ، لاتحزني من شيء • ما ينبغي أن تحزني ••• ذلك هو الامر الاساسي • ثم ان كل شيء سيجري هينا لينا ، سيجري سريعا على عجلات ، سيتم على نحو كريم طاهر نظيف ••• ان كل شيء رهن بالزاوية التي تنظر منها الى الأمور يا عزيزتي ••• يا الله ••• الى اللقاء ، الى اللقاء ! •••

رسمت ماريا ألكسندروفنا على ابنتها اشارة الصليب ، وأسرعت تخرج من الغرفة • وما ان تلبثت أمام مرآتها بعد ذلك دقيقتين حتى كانت تعدو في شوارع مورداسوف راكبةً عربتها الزلاجة التي يكون حصانها مقرونا بها دائما في هذه اللحظة من النهار لجولة ممكنة • لقد كانت ماريا ألسكندروفنا تعيش حياة غنية •

« لا لن أسمح لكن بمزاحمتي • وما دامت زينا قد وافقت فقد أُنجز نصف المهمة • أما الباقي فلا أحفل به • آه ••• لقد وافقت زينا هذه أخيرا ! ان لك مطامحك أنت أيضا يا آنسة ! ولكن ما أروع آفاق المستقبل المغرية هذه التي شققتها لها ! لقد قلبتها كما يُقلب قفاز ! شيء لم يسبق له مثيل ، جمالُها في هذا النهار ! انني بجمال كهذا الجمال قادرة على وضع نصف أوروبا في جيبي ! ولكن فلننتظر قليلا ! لسوف

يطير شكسبير أخيرا حين تصبح أميرة ، وحـــين تعـــرف مذاق بعض الأشياء ! ••• ماذا تعرف الآن ؟ موررداسوف ومدرّســـها ! هيم ••• فلتصبح أميرةً أولا ثم نرى ما يكون ! انني أحب فيها هذه الكبرياء ، هذه الأنفة ، هذا العجب والزهـــو الذى لا يلين ! لكأنها حين ترفع عينيهـا ملكة" تنظر ! فكيف لا تفهم مصلحتها اذن ؟ لقد فهمتها وستفهم البقية فى النهاية ••• على كل حال ، سأكون الى جانبها ! يجب أن تكون على وفاق معى فى كل الأمور ! وبدونى لن تحسن صنع شىء البتة ، ولن يجرى أمر كما يجب أن يجرى ! سأكون أنا الاميـرة الحقـــة • ســتعرفنى بطرسبرج كلها • وداعا يا هذا الوكر الحقير ، موررداسوف ! ســـوف يموت الشيخ ، وسوف يموت الشاب أيضا • وسأزوج ابنتى عندئذ أميرا حاكما • هناك شىء يقلقنى : ألم أسرف قليلا فى الثقة بها ؟ ألم أسرف قليلا فى الصراحة معها ؟ ألم أسرف فى اللعب على العاطفة ؟ آه ••• ما أكثر ما تخيفنى ! ما أكثر ما تخيفنى ! »

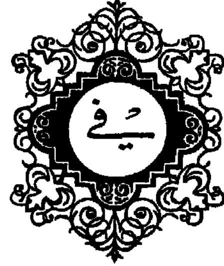
بهذا كله كانت ماريا ألكسندروفنا تحدث نفسها • وغرقت ماريا ألكسندروفنا فى تأملات شائكة • ولكن ألا يقال ان الحظ يبتسم لمن كان جريئا شجاعا ؟

ولنعد الى زينا • ان زينا وقد تُركت وحدها ، عادت الى خواطرها وطفقت تسير فى الغرفة طولا وعرضا من جديد ، مصـــالبةً ذراعيها ، خافضة رأسها • كان هناك ما يبعثها على التفكـــير • وها هى ذى تردد قائلة ، دون أن تشعر بذلك : « لقد آن الأوان ، لقد آن الأوان منذ مدة طويلة » • تُرى ماذا كان معنى هـــذا الهتاف المتقطـع ؟ ••• وتلألأت الدموع غير مرة على حافة أهدابها الطويلة الحريرية • ولم يخطر ببالها لا أن تجففها ولا أن تكفكفها • لم يكن هنـــاك اذن داعٍ الى قلق أمها

بشأنها : ان زينا قد عزمت أمرها عزما تاما كاملا ، فهي تستعد لجميع النتائج التي تترتب على قرارها ...

أما آناستازيا بتروفنا فقد كانت تحدث نفسها وهي تخرج من الحجرة المتخذة مستودعا ، كانت تحدث نفسها بعد انصراف الكولونيلة قائلة : « انتظروا قليلا ! هه ! كنت أتصور أن أعلق على ثوبي شريطا وردي اللون تكريما لهذا الأمير ! ألا ما أغباني حين صدقت أنه سيتزوجني ! آه ... انه يناسبك جدا ، هذا الشريط يا آناستازيا ! وماريا ألكسندروفنا؟ أنا بهيمة ، شحاذة ، قذرة ، أقبل مائتي روبل « بقشيشا » ! يا متصنعة أوضاع ! يا صانعة مزعجات ! تظنين أنني أفوّت فرصة أخذ شيء منك ! لقد قبلت هذا المال بشرف ، أخذته كمشاركة مشروعة في النفقات ! ذلك أمر لا يعنيك ، أنني لم أرفض أن أسطو على قفل بيدي ! من أجلك انما عملت يا كسلى ، يا متوانية ! أنت لا تصلحين لغير التطريز ! انتظري قليلا ، لأرينك أنا كيف يكون التطريز ! لأرينكما كلتيكما هل أنا بهيمة ؟ ستتعلمان معرفة آناستازيا بتروفنا، وما تخبئه في جعبتها من أمور لطيفة! ».

الفصل السابع



أثنــاء ذلك كانت ماريا ألكســندروفنا منقادة لعبقريتها . انها تركّب مشروعها الكبير الجرىء. ان تزويج ابنتها أميرا غنيا ذا عاهة ، على غير علم من الناس ، باستغلال ضعف العقل لدى ضيف عاجز عن حماية نفسه ، ان تزويجها ابنتها بالمكر والحيلة ، كما سيقول أعداؤها مشهـِّرين بها ، لهو جرأة متهورة . لا شك أن المشروع مغر ، ولكن اذا لم ينجح فانه سيجلل تلك التى دبرته بخزى لم يسبق له مثيل. على أن ماريا ألكسندروفنا التى لا تجهل شيئا من هذا لا تتراجع بسهولة. « ما أكثر ما سبق أن اكتويت بنيران » ، بهذا اعترفت لابنتها . ولقد صدقت فيما قالت . أليس هذا دية البطولة ؟

ان هذا المشروع الذى له جميع مظاهر الأعمال التى يقوم بها قطاع الطرق لايبث الاضطراب فىنفس ماريا ألكسندروفنا. ان لها فىهذا الشأن رأيا صحيحا كل الصحة : « من تزوجت فقد تزوجت » . وهذه الفكرة البسيطة جدا قد فتحت لخيالها آفاقا تبلغ من السناء أنها تحس بتنميل يسرى فى جسمها ؛ حتى ليمكن أن نوجز فنقول انها بانفعالها الذى تجاوز جميع الحدود كانت فى قرارة عربتها كالقاعدة على ابر . ولقد استطاعت ماريا ألكسندروفنا ، وهى المرأة الملهمة التى تنعم بفكر خلاق لا يجحد ، أن تضع خطة عملها منذ الآن . غير أن هذه الخطة « الاجمالية » ما تزال غامضة بعض الغمــوض . ان ماريا ألكسندروفنا

تحس أن هذه الخطة محفوفة بهوة من التفاصيل والمفاجآت التى لا يمكن التنبؤ بها . واذ كانت ماريا ألكسندروفنا لا تعوزها الجرأة فليس الخوف من الاخفاق هو الذى يقلقها أكثر من أى شىء آخر . لا ... وانما الذى يقلقها هو استعجالها الشروع فى العمل بأقصى سرعة ، هو حرصها على خوض المعركة مستميتة على الفور . ان هـذا الاستعجال ، وهو استعجال نبيل ، كان يضرم فى نفسها نارا حين تتصور العقبات التى قد توقفها عن المضى فى طريقها لمجرد أنها قد تأخرت منذ الآن تأخرا كبيرا. ولكننا نستأذن القارىء ، بمناسبة تأخرها هذا ، فى أن نشرح فكرتنا بعض الشرح . ان ماريا ألكسندروفنا تتوقع أسوأ الاحتمالات من سكان مدينتها النبلاء ، ولا سيما من كبريات سيدات مورداسوف . انها تعرف معرفة دقيقه ما تحمله لها هذه السيدات من كره لا يخمد أواره لحظة . هى مثلا واثقة كل الثقة من أن المدينة كلها فى هذه اللحظة تعرف نياتها ، رغم أن أحدا لم يتكلم عنها صراحة حتى الآن . هى تعرف بأكثر من تجربة مرة حزينة أن أيسر حادث يقع فى منزلها فى الصباح ، يصبح حديث المدينة كلها فى المساء ، مهما يكن سرا . ان كل واحد من سكان المدينة، حتى آخر تاجر صغير فى قرارة دكانه ، وحتى آخر بائعة من البائعات فى السوق ، يعلق عندئذ على هذا الحادث ويطلق لسانه فى النقد والتجريح والتشهير . فمن حق ماريا ألكسندروفنا اذن أن تتصور منذ الآن الخطر الذى يحيق بمشروعها . ومهما يكن من أمر ، فان مشاعرها لم تكذبها فى هذه المرة ولا فى المرات السابقة . فاليكم ما حدث مما لم تكن تعلمه بعد علم اليقين .

فى نحو الظهر من ذلك النهار ، أى بعد وصول الأمير الى موردا سوف بثلاث ساعات تماماً انتشرت شائعات غريبة . من أين خرجت هذه الشائعات ؟ لا أدرى ... ولكنها انطلقت تجرى فى المدينة بسرعة

كسرعة البرق ••• فكان الناس يقولون فى كل جهة من الجهات ان ماريا ألكسندروفنا تطمع فى الأمير زوجا لابنتها التى لا تملك مهرا ، لابنتها زينا التى بلغت من العمر منذ الآن ثلاثة وعشرين عاما ؟ وان موزجلياكوف قد استبعد بالتواطؤ والتآمر ، وان الأمر كله قد تقرر وتم الاتفاق عليه • ما هو أصل هذه الشائعات ؟ أكان الناس يبلغون من كمال معرفتهم بماريا ألكسندروفنا أنهم قد حزروا خواطرها الخفية على الفور ؟ المهم أنه لا شيء أمكن أن يصرف سكان مورداسوف عن تصديق هذا الأمر والاقتناع به والتأكد منه ، لم يصرفهم عن ذلك لا سخف شائعة كهذه الشائعة ، ما دام هذا النوع من المشاريع قلما يتحقق خلال ساعة واحدة فى الأحوال العادية ، ولا صرفهم عنه أن هذا النبأ الذى لا يعرف أحد أصله كان يعوزه الدليل ، ويفتقر افتقارا واضحا الى أساس يقوم عليه حتى يمكن تصديقه • والغريب أن هذه الشائعة كانت بسبيل الترسخ بسرعة صاعقة لحظة كانت ماريا الكسندروفنا تشرع فى التحدث مع زينا فى هذا الموضوع نفسه • هذه رهافة الاحساس لدى سكان الأقاليم ! ان غريزة كتاب القصة من سكان الأقاليم تبلغ فى بعض الأحيان من الصدق مبلغا لا يكاد يتخيله العقل ••• ولهذا أسبابه طبعا • انه ناشىء عن سنين طويلة من الاهتمام الشديد بالناس • ان كل واحد من سكان الأقاليم يعيش تحت كرة من زجاج ان صح التعبير • فيستحيل عليه اطلاقا أن يخفى أى شيء عن مواطنيه المحترمين ••• كل فرد من الأفراد يعرفك هناك على ظهر القلب ، يعرف عنك حتى ما تجهله أنت عن نفسك ! لذلك فان ساكن الاقاليم عالم من علماء النفس بطبيعته ، عارف من العارفين المرهفين بالقلب الانسانى فطرة وغريزة • وهذا هو السبب فى أننى أدهشنى أحيانا أن أرى بين سكان الاقاليم أغبياء كثيرين بدلا من أرى علماء بالنفس وعارفين مرهفين بالقلب الانسانى • ولكن

هذه الفكرة خارجة عن موضوعى • فلنعد اذن الى الموضوع • لقد انتشرت الشائعة بسرعة كسرعة البرق • وبدا زواج زينا بالأمير لجميع الناس أمرا يبلغ من الانطباق على القواعد ومن الجلب للمنافع ومن النجاح والبريق، أن الجانب الغريب فى القضية قد غاب عن أبصارهم • ويجب أن نلاحظ شيئا آخر أيضا : كان الناس يكرهون زينا أكثر مما يكرهون أمها تقريبا • لماذا ؟ الله أعلم ! لعل جمال زينا أحد أسباب هـــذا الكره ! ولعل ماريا ألكسندروفنا كانت رغم كل شىء أقرب الى سكان موردا سوف وأشبه بهم من ابنتها ، ومن يدرى ؟ لعلهم اذا غابت ماريا ألكسندروفنا عن المدينـة ذات يوم أن يأسفوا لفراقها وأن يشعروا بالحسرة لبعدها • ألم تكن تبث الحياة فى المجتمع بحكاياتها التى لا تنتهى ؟ لسوف يموتون ضجراً وساما اذا هى تركتهم • ولا كذلك زينا ، فانها بوضعها وبحياتها فى السحب ، لا تعدُّ من موردا سوف • انها من أولئك الناس الذين لا تحس معهـم بالألفة وزوال الكلفة • ولعلها كانت تصـطنع ، دون أن تشـعر بذلك ، أوضاعا من الكبرياء والخيلاء لا تحتمل ولا تطـاق • ولكن ها هى ذى تصبح على حين فجاة زينا اخـــرى غير زينـا التى كانت تروج فى حقها الوشايات الفاضحة والنمائم المشينة • ان هذه الآنسة المتكبرة المزهوة التى تحتقر الناس وتزدريهم ستصبح أميرة ، ستصبح من أصـحاب الملايين ، ستدخل المجتمع الراقى ! وبعد نحو سنتين من ترملها ستتزوج دوقاً وربما جنرالا ، أو ربما حاكما (كان حاكم موردا سوف أرمل وهو من كبـار عشاق النساء الجميلات) ••• وستغدو اذن السيدة المرموقة فى الاقليم • كان طبيعيا اذن أن تثير هـذه الفكرة سكان موردا ســوف اثارة شديدة ، وأن تعضهم عضاً قوياً • ما من نبأ فعل ما فعله فيهم هـذا النبأ بمثل هذا العنف قبل اليوم• لذلك سرعان ما علا الصياح فى كل جهة حانقاً مهتاجاً• صرخوا يقولون ان هذا الزواج سيكون اثما دنيئا ، وان الشيخ لا يملك

عقله ، وان ماريا ألكسندروفنا وابنتها تستغلان خرفه للتغرير به وخداعه وتضليله ؛ وان من الواجب انقاذ الأمير من براثن هاتين الجشعتين ؛ وان هذا الأمر ينافي الاخلاق ؛ وانه نهب وسلب ؛ وان الفتيـــات الأخريات لسن دون زينا قيمة ، ولسن أقل من زينا جدارة بزواج الأمير • وكانت ماريا ألكسندروفنا التي تتوقع هذه النمائم وهذه الثرثرات تسترد مزاجها المشرق كله • كانت تعلم علم اليقين أن جميع سكان مورداسوف ، بغـير استثناء أحد منهم ، سوف يعملون الممكن والمستحيل للوقوف في طريقها• انهم قادرون في هذه اللحظة على مصادرة الأمير، فعليها من أجل استرداده أن تناضل ويكاد ينبغي لها أن تقاتل • وعليها اذا هي ظفرت بالاسـتيلاء عليه ورده الى منزلها رأسا أن لا تبقيه في المنزل زمنا طويلا • فمن ذا الذي يضمن أن لا تغزو سيدات موردا سوف صالونها في هذا النهار نفسه، بعد ساعة أو ساعتين ، جوقةً واحدة ، تحت ستار حجه تجعل التملص من زيارتهن أمرا مستحيلا ؟ لئن أغلقت أمامهن الباب فلسوف يدخلن من النافذة ، وهذا أمر يكاد يستحيل في غير هذه المدينة ، ولكن سـبق أن حدث في موردا سوف • الخلاصة : ما من دقيقة يجب أن تضيع ، والامر لمَّا يكد يسير • هنا ومضت في ذهن ماريا ألكسندروفنا فكرة عبقرية ، بسرعة كسرعة البرق ، وسرعان ما تجسدت هذه الفكرة • لن يفوتنا أن نتكلم عن هذه الفكرة في محلها وزمانها • وحسبنا أن نذكر هنا أن بطلتنا كانت في تلك الدقيقة تطير في شوارع موردا سوف ، مهددة متوعدة ملهمة عازمة على القتال اذا لزم القتـــال ، من أجـل أن ترد الأمير الى منزلها • لم تكن تعرف ، بعد ، كيف تتأتى لهذا الأمر ، وأين تجـد الأمير • ولكنها كانت تعلم حق العلم أنها تؤثر أن ترى موردا سوف تغور تحت الأرض على أن تترك من مشاريعها مثقال ذرة •

وكانت خطوتها الأولى انتصارا • لقد أتيح لها أن تلتقي بالأمير في

الشارع وأن ترده الى منزلها لتناول الغداء • فاذا سألتموني كيف تسنى لها ، رغم جميع مكائد أعدائها ، أن تحافظ على مواقعها وأن تصفع آنا نيكولايفنا هذه الصفعة ان صح التعبير ، فانني سأكون مضطرا لأن أعترف لكم بأنني أعد هذا السؤال اهانة لماريا ألكسندروفنا • أليست تستطيع أن تنتصر على أية آنا نيكولايفنا آنتيبوفا ؟ انها لم تزد على أن سدت الطريق أمام الأمير عند عتبة منزل غريمتها دون أن تراعي أي شيء ، ثم أركبت الشيخ عربتها رغم اعتراضات موزجلياكوف نفسه الذى كان يخشى وقوع فضيحة ! ان ماريا ألكسندروفنا انما تتميز على منافساتها بهذه النقطة : انها في اللحظة الحاسمة تندفع الى أمام غير عابئة بالفضيحة ، لأن شعارها أن الغاية تبرر الوسيلة • وطبيعي أن الأمير لم يظهر مقاومة تذكر • فانه على عادته سرعان ما نسي الى أين كان ذاهبا ، وأعلن أنه سعيد بهذا اللقاء• وقد ظل طوال فترة الغداء يثرثر بلا توقف ولا انقطاع ، فهو يلقي نكتا قائمة على الجناس ، ويروي نوادر ، ويقص فكاهات ويحكي ملحا لا يتمها أو يخلط بعضها ببعض قافزا من واحدة الى أخرى دون أن يشعر بذلك • وكان قد شرب ثلاثة أكواب من الشمبانيا عند ناتاليا دمتريفنا ؛ فها هو ذا يشرب مزيدا أثناء الغداء الى أن طاش لبه تماما • وكانت ماريا ألكسندروفنا هي التي تتولى ملء كأسه • وكان الغداء رائعا• ان « هذا الشيطان نيكيتكا » لم يغفل شيئا ولم يخطىء في شيء • وكانت ربة الدار تحاول أن تغمر ضيوفها بأشعة مزاجها المشرق النادر • ومع ذلك كان بعضهم يظهر ضيقا شديدا • ان زينا صامتة صمتا يمكن أن يوصف بأنه صريح • وموزجلياكوف لم يكن منشرح الصدر ولا أكل بشهية • لقد كان يبدو بوضوح أنه غارق في تأملات تبلغ من العمق انها روّعت ماريا ألكسندروفنا • أما آناستازيا بتروفنا فقد كانت عابسة الوجه ، وكانت تغمز موزجلياكوف ، خفية ، غمزات غريبة لا يلاحظها

موزجلياكوف • فلولا ما كان يشع من ربة الدار من حماسة ، اذن لكان الغداء أشبه بغداء جنازة •

وفي أثناء ذلك ازداد قلق ماريا ألكسندروفنا واشتد اشتدادا كبيرا• لقد أصبحت مذعورة أقصى الذعر مما يبدو من حزن واضح في وجه زينا التي كانت عيناها حمراوين • وان أصعب ما في المهمة لم يتم بعد : يجب على ماريا ألكسندروفنا أن تسرع ، وأن لا تضيع دقيقة واحدة • ما بال موزجلياكوف هذا اللعين لا ينصرف بل يمكث غبيا دون أن يشعر بأن حضوره زائد ؟ انه ليستحيل تسيير الامر أمام عينيه وا أسفاه ! ونهضت ماريا الكسندروفنا عن المائدة وهي في حالة نفسية رهيبة • ولكن ما كان أشد دهشتها وفرحها ومخاوفها في الوقت نفسه ، ان صح التعبير ، حين رأت موزجلياكوف يجيء اليها عند النهوض عن المائدة ويعلن لها أمرا لم يكن في الحسبان وهو أنه مضطر الى الانسحاب آسفا أشد الاسف •

سألته ماريا الكسندروفنا بلهجة الشفقة الشديدة المألوفة فيها :

ــ ماذا هنالك ؟

فأخذ موزجلياكوف يقول وقد بلغ من شدة القلق أنه لا يعثر على الكلمات التي يفصح بها عن نفسه :

ــ لقد حصل لي حادث سخيف يا ماريا الكسندروفنا • لا أدري كيف أقصه عليك ••• انصحيني يا ماريا ألكسندروفنا ناشدتك الله !

ــ ماهو الأمر ؟

ــ صادفت اليوم اشبيني بوردويف ••• أنت تعرفينه •• التاجر ؟ انه غاضب جدا ، هـــذا الشيخ المسكين ، وقد أغـرقني بسيل من اللوم والتقريع ••• هو يزعم أنني أتكبر • أعترف أن هذه ثالث مرة أجيء

فيها الى مورداسوف دون أن أضع قدمى فى منزله • قال لى أخيرا : « انتظرك اليوم فى موعد الشاى » • والساعة الآن هى الرابعة ، والرجل يشرب الشاى على الطريقة القديمة ، عند صحوه من القيلولة ، فى الساعة الخامسة • فماذا يجب أن أعمل • ثقى يا ماريا ألكسندروفنا أننى لا أحرص على زيارته ، ولكنه قد أنقذ أبى من مأزق فى ذات يوم • كان أبى يوشك أن يشنق نفسه لأنه خسر فى القمار مالا من أموال الحكومة• وقد أصبح اشبينى على اثر ذلك • فاذا تزوجت زينائيد أتاناسيفنا فاننى لا أملك الا مائة وخمسين نفسا ، أما هو فانه يملك مليون روبل ، بل يزيد ، فيما يقال • وعمره سبعون عاما •• تصورى •• فمن يدرى ؟ ان من الجائز جدا أن يوصى لى بنحو مائة ألف روبل •••

صرخت ماريا ألكسندروفنا تقول دون أن تظفر باخفاء فرحها :

ـ آه ! ••• رباه ! ••• ألا ما أسخفك ! ماذا تنتظر ؟ اذهب اليه •• لا تتباطأ ! لا مزاح فى أمر كهذا الأمر ! آ ••• اذن هذا هو السبب فى أنك كنت تبدو حزينا أثناء الغداء ! اذهب اليه يا صديقى ، اذهب اليه ! •• كان عليك منذ هذا الصباح أن تستميله بزيارة ، أن تبيِّن له أنه عزيز عليك ، وأنك تقدر عاطفته نحوك ! آه من هؤلاء الشباب ! آه من هؤلاء الشباب ! •••

هتف موزجلياكوف يقول :

ـ ولكنك يا ماريا ألكسندروفنا قد أخذت علىّ هذه العلاقة أنت نفسك ••• لقد وصفت اشبينى بأنه رجل تافه ، وقلت عنه انه لحية عتيقة، وعبته بأنه أشبه بمدمنى الحانات أو أصحاب الخمارات •••

ـ آه •• يا صديقى ••• ما أكثر ما يطلق المرء من كلام فى الهواء• أنا أيضا يمكن أن أخطىء ••• لست معصومة من الزلل ••• لا أتذكر

ما لعلني قلت من كلام ، ولكن لا شك في أنني كنت عندئذ معتكرة المزاج ••• ثم انك لم تكن في ذلك الوقت تسعى الى ابنتي ••• أنا أدرك أن الأنانية وحدها تدفعني الى هـــذا القول ، ولكن يجب عليَّ أن أنظر الى الأمور الآن من زاوية أخرى مختلفة كل الاختلاف • أية أم يمكن أن تلومني على هذا ؟ اذهب اليه ، اذهب اليه ، لا تضيِّع دقيقة واحدة ••• اقض السهرة كلها معه ••• آه ••• اسمع أيضاً ••• لا تنس أن تدبر الأمور بحيث تكلمه عني • قل له انني أقدره ، وانني أحمل له محبـة واحتراماً ولكن عليك أن تقول له ذلك بأقصى ما يمكن من حذق ولطف وكياسة ! آه ••• كيف يفوتني هذا وقد كان يجب عليَّ أن أتنبأ به وأن أسدي اليك النصح فيه ؟ •••

قال موزجلياكوف بحماسة :

ـ انك تردين اليَّ الحياة يا ماريا ألكسندروفنا ••• الآن أحلف لأطيعنك في كل أمر • ما أغباني ! لقد كنت أخشى أن أحدثك في هـذا الموضوع ! هيا ! ••• الى اللقاء ••• أنا ذاهب ! اعتذري عني لزينائيد آتاناسيفنا ••• ولكنني عائد فور الانتهاء من زيارته على كل حال ! •••

ـ اذهب يا صـــديقي اذهب ! لا تنس أن تذكـر اسمي ! انه في الواقع رجل لطيف ! لقد غيرت رأيي فيه منذ زمن طويل ! والحق أنني أحببت فيه دائما عراقة الأرض الروسية ••• الى اللقاء يا صديقي ، الى اللقاء ! •••

حدثت ماريا ألكسندروفنا نفســـها قائلة وهي تتنفس الصعداء : « جاءت في وقتها ، هذه القصة ! لا شك أن الله معي ! » •

كان بافل ألكسندروفتش قد وصل الى حجرة المدخل يرتدي معطفه

حين خرجت له آناستازيا بتروفنا لا يدرى أحد من أين • لقـد كانت تترقبه وتترصده •

سألته وهى تمسكه من ذراعه :

ـ الى أين ؟

ـ الى عند بورودويف يا آناستازيا بتروفنا • انه اشبينى ، حملنى عند تعميدى •• وهو رجل واسع الثراء ، وسيورثنى شـيئا ، فيجب أن أتملقه قليلا ••

كان يافل الكسندروفتشى قد استرد مزاجه المشرق •

ـ تذهب الى عند بوروديف ! ودع خطيبتك اذن الوداع الأخير !

ـ لماذا « الوداع الأخير » ؟

ـ نعم ، ودعها الوداع الأخير ••• أتتخيل أنك قابض عليها مع أن الأمير هو الذى سيتزوجها ؟ لقد سمعت هذا بأذنى •

ـ الأمير ؟ هل جننت يا آناستازيا بتروفنا ؟

ـ جننت ؟ قل لى : هل تحب أن ترى بعينيك وأن تسمع بأذنيك ؟ اذن دع فراءك حيث هو واتبعنى من هنا !

ترك بافل ألكسندروفتش معطفه مذهـولا وتبـع آناستازيا بتروفنا سائرا على رءوس الأصـابع • فقادته الى تلك الحجـرة نفسـها المتخذة مستودعاً ، التى قبعت فيها عند الصـباح تتنصت واضـعة عينيها على ثقبى المفتاح •

ـ ماذا تريدين منى يا آناستازيا بتروفنا ؟ اننى لا أفهم شيئا البتة !

ـ أريد شيئا واحدا : أن تفتح عينيك • مل على هـذا الثقب ، واسمع ! لا شك أن التمثيلية على وشك أن تبدأ •

ـ أية تمثيلية ؟

ـ شت ! ••• لا ترفع صوتك ! هى التمثيلية التى ستبرهن لك على

أنهم يسخرون منك ! فى هذا الصباح ، حين ذهبت مـع الأمير ، أخذت ماريا ألكسندروفنا تعظ ابنتها زينا خلال سـاعة كاملة بضرورة تزوجهـا الامير • وقد زعمت لها أنه لا شيء أسهل من التغرير به ودفعه الى هذا الزواج ! انك لا تستطيع أن تتخيل الحيل التى عمدت اليهـا والمكر الذى توسلت به، حتى شعرت من ذلك بألم فى قلبى آخر الامر ! ولقد وافقت زينا • ما أحلى ما تدبرانه لك كلتاهما ! ••• انهـا تعدانك أغبى الاغبياء قاطبة ! ••• حلفت زينا أغلظ الايمان أنها لن تكون زوجتك فى يوم من الآيام • ألا ما أغبانى أنا ! كنت أريد أن أعلق بثوبى شريطا وردى اللون! اسمع ، اسمع !

ـ اذا صح ما تقولين فهذا هو الخداع الشيطانى بعينه !

كذلك دمدم بافل ألكسندروفتش قائلا وهو يغـرس فى آناستازيا بتروفنا نظرات بلهاء !

ـ أنظر ••• لتسمعن المزيد أيضا •

ـ من أين يجب أن أتنصت ؟

ـ من هنا ! ميلْ على هذا الثقب الصغير !

ـ آناستازيا بتروفنا ! لا أستطيع أن أتجسس هذا التجسس •

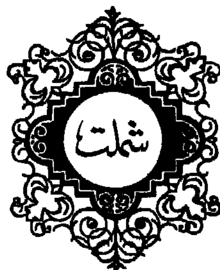
ـ دعك من هذا الهراء وافتح أذنيك !

ـ ولكن •••

ـ اذا كنت تعجز عن التنصت عــلى الأبواب ، فما عليك الا أن تهلك ! أهتم بأمره وأرثى لحاله ، ثم هو يتصنع الاشمئزاز ! اننى من أجلك انما أعمل يا هــذا ! والا لحملت متاعى وانصرفت من هنا قبل حلول المساء •

أذعن بافل ألكسندروفتش ، فمال على الثقب • كان صدغاه ينبضان كقلبه • أصبح لا يفهم ما يجرى له •••

الفصل الثامن



شملت ماريا ألكسندروفنا ساحة معركتها المقبلة بنظرة نهمه من نظرات الوحوش الكواسر والطيور الجوارح، ثم بدات الحديث وهى تصطنع هيئة بريئة غاية البراءة ، بينما يتمزق قلبها قلقا ، قالت :

ـ هل أحسن استقبالك عند ناتاليا دمترفينا يا أمير ؟

كانوا قد اقتادوا الأمير فور انتهاء الغداء الى « الصالون » الذى استقبل فيه صباحا ، وهو الصالون الذى تعتز به ماريا ألكسندروفنا اعتزازا عظيما ، والذى تجرى فيه عندها جميع الأحداث وتقام فيه جميع الاستقبالات • كان الشيخ وقد شرب ست أقداح من الشمبانيا لا يكاد يستطيع الوقوف على ساقيه ، ولكنه كان يثرثر بغير انقطاع• وكانت سرعة دندنته قد ازدادت وتفاقمت ، فأدركت ماريا ألكسندروفنا أن الأمير لن يلبث أن يستبد به النعاس بعد هذا الانتعاش الذى شب فى نفسه كنار الهشيم ، فلا بد اذن أن تنتهز الفرصة وتستغل اللحظة ؛ وقد لاحظت وهى تنظر الى ساحة معركتها أن الرجل ، وهو شهوانى جدا بطبيعته ، كان يتأمل زينا بعينين ملتمعتين التماعا خاصا ، فافرحها هذا فرحا عظيما ، وأخذ قلبها ، قلب الأم ، يرتجف ارتياحا واغتباطا •

أجاب الأمير :

ـ جدا ، جدا ••• وهل تعلمين ؟ انها لامرأة لا تضارع ، ناتاليا دمتريفنا هذه ، لا تضـ •• ا •• ر •• ع ••

فلسعت ماريا ألكسندروفنا لسعا أليما من هـــذا المـديح يـُزجى لغريمتها ، رغم انها مشغولة البال بخططها الكبرى •

صاحت تقول وقد قدحت عيناها شررا :

ـ أوه ! ما هذا الكلام الذى تقوله يا أمير ؟ اذا كانت صاحبتك ناتاليا دمتريفنا هذه امرأة لا تضارع ، فانني لاتساءل من ذا الدى لا يتصف اذن بأنه لا يضارع ؟ ألا انه لواضح أنك لا تعرف شيئا عن الناس هنا يا أمير! ان العواطف الكريمة لا وجود لها هنا الا مظهرا خلابا وتمثيـلا صرفا وطلاء ذهبيا كاذبا ، فمتى حككت الطلاء لم تجد الا جحيما تحت أزهار ، ولم تجد الا عش زنابير تتهيأ للدغك حتى العظام !

هتف الامير يقول :

ـ أهذا ممكن ؟ ان هذا ليذهلنى حقا !

قالت ماريا ألكسندروفنا :

ـ يمينا ان ذلك هو الحقيقه بعينها ! آه يا أمير ! اسمعى يا زينـا : أرانى مضطرة أن أذكر للأمير ما صنعته ناتاليا دمتريفنا هذه فى الاسبوع الماضى من أمور سخيفة تبعث على الاشمئزاز ، هل تذكرين ؟ نعم يا أمير : حكاية صغيرة عن ناتاليا دمتريفنا هذه التى ترفعها الى السحاب مدحا ! آه يا أمير ! ••• أؤكد لك أننى لست بالنمامة ؛ ولكن لا بد لى من أن أقص عليك هذه الحكاية مهما كلف الأمر ••• لسوف تسليك هذه الحكايه ، ولسوف تظهرك فى الوقت نفسه على حقيقة الناس هنا كأنك تراهم على لوحة بمنظار • منذ خمسة عشر يوما جاءتنى ناتاليا دمتريفنا هذه • فبعد أن قدمت لها القهوة اضطررت أن أخرج ، لا أذكر الآن لأى سبب • ولكننى أذكر جيدا أن سكريتى الفضية كانت ملأى حتى لتكاد تطفح •

فلما عدت فوقع بصرى على السكرية لم أر الا ثلاث قطع من السكر فى قاعها . ولم يكن فى الغرفة أحد غير ناتاليا دمتريفنا ! فانظر كيف تتصرف! ذلك أمر غليظ مضحك سخيف ، ولكن احكم على تربية الناس هنا وعلى أخلاقهم !

كرر الامير يقول وقد دهش دهشة صادقة :

ـ أ .. ه .. لذا .. مم .. كن ؟ .. تلك شراهة عجيبة ! أيمكن أن تكون قد أكلت جميع قطع السكر ؟

ـ هذه هى سيدتك التى « لا تضارع » يا أمير ! فكيف ترى آدابها ؟ يمينا لكنت مت خزيا وعارا قبل أن أفارف أمرا كهذا الامر !

ـ طبعا ، طبعا .. ولكن هل تعلمين ؟ انها امرأة جميلة !

ـ من ؟ ناتاليا دمتريفنا ؟ أرجوك يا أمير ! ... أهذه « البرميل » جميلة ؟ آه ... أمير ... أمير ... ما هذا الذى تقول ؟ كنت أحسب أنك صاحب ذوق لا يخطىء ! ...

ـ طبعا .. طبعا .. برميل .. ولكن هل تعلمين ؟ انها مغرية ... والصغيرة أيضا ، تلك التى رقصت ، انها مغرية كذلك ...

ـ الصغيرة صونيا ؟ ولكنها طفلة يا أمير ! ... انها لم تكد تبلغ الرابعة عشرة من عمرها !

ـ طبعا ، طبعا .. ولكن هل تعلمين ؟ انها مرنة جدا .. ان لها أشكالا .. تتشكل .. وهى لطيفة هذه الصغيرة .. وكذلك الأخرى .. التى رقصت .. أشكال تتشكل ..

ـ آه .. الثانية يتيمة بائسة يا أمير ! انهم كثيرا ما يحضرونها !

ـ يتيمة ! نعم ، حقا ! لقد بدت لى متسخة • كان ينبغى لهـــا أن تغسل يديها •• ولكنها كانت جذابة جدا هى أيضا •

قال الأمير هذه الكلمات وسدد نظارته نحو زينا ، وتأملها بمزيد من النهم ، ثم زأزأ يقول بصوت خافت ولهجة جذلى :

ـ ما أفتنها ! •••

قالت الأم :

ـ يا زينا ، اعزفى لنا شيئا ، بل غنى لنا شيئا ! آه ••• ما أحسن غناءها يا أمير ! يمكن أن يقال انها موسيقية موهوبة ، موهوبة حقا !

ثم تابعت تقول بصوت خافت ، بينما كانت زينا تمضى الى البيـانو بخطى لينة رخصة ، بخطى مجنحة ان صح التعبير ، بخطى كفيله بأن تدوخ الشيخ المسكين :

ـ ليتك تعرف أية فتاة هى يا أمير ! ليتك تعرف مدى قدرتهـا على الحب ! ما أشد حنانها على ! ما أعظم عاطفتها ! ما أرق قلبها !

قال الامير مقاطعا وهو يبلع ريقه :

ـ طبعا طبعا •• عاطفتها •• قلبها •• هل تعلمين ؟ اننى لم أر فى حياتى كلها الا امرأة واحدة يمكن أن تضاهيها جمالا•• هى المرحـومة الكونتيسة نانيسكى •• لقد ماتت منذ ثلاثين عاما • امرأة لا تضارع ••• جمال لا يو •• صف ! •• تزوجت طباخها •

ـ طباخها يا أمير ؟

ـ طبعا طبعا ، طباخها •• هو فرنسى •• تزوجته فى الخارج ••• انها منذ وصلت الى الخارج خلعت عليه لقب كونت •• وكان رجلا مهيب الطلعة ، واسع الثقافة ، الى شاربين صغيرين جميلين •

ـ وهل تفاهما يا أمير ؟

ـ طبعا طبعا •• ولكن ذلك لم يدم زمناً طويلا •• جردها من مالها ثم انسل ••• لقد دب بينهما الشقاق •• على أثر مسألة ما ••

سألت زينا :

ـ ماذا أعزف يا أمي ؟

ـ الأفضل أن تغني يا زينا • انها تحسن الغناء كثيرا يا أمير • هل تحب الموسيقى ؟

ـ طبعا طبعا ! شيء رائع ، رائع ••• أحب الموسيقى كثيرا •• لقد عرفت بتهوفن في الخارج •••

صرخت ماريا ألكسندروفنا متحمسة :

ـ بتهوفن ؟ هل تسمعين يا زينا ؟ لقد عرف الأمير بتهوفن ! آه •• هل صحيح أنك عرفت بتهوفن ؟

ـ طبعا طبعا ، كنا نعيش صديقين • وكان أنفه ملطخا دائما بالتبغ •• شيء مضحك !

ـ بتهوفن ؟

ـ طبعا طبعا ! على كل حال قد لا يكون هو بتهوفن ، بل ألماني آخر • يوجد ألمان كثيرون هناك ! يخيل الى أنني أستطرد •••

سألت زينا :

ـ ماذا أغني يا أمي ؟

ـ آه •• زينا •• غني أغنية الفروسية تلك •• سيدة القصر وشعراء

التروبادور ••• آه يا أمير ! انني أعبد كل ما يتصل بالفروسية • تلك الأبراج ، القرون الوسطى ، أولئك الشعراء التروبادور، أولئك الفرسان، تلك المباريات •• سأرافقك في الغناء يا زينا • تعال اجلس هنا يا أمير•• قرب •• آه ما أروع تلك القصور ، ما أجمل تلك الابراج ! ••

ـ طبعا طبعا •• تلك القصور ! أنا أيضا أحب القصور •

وكان الامير كمن يشرب زينا بعينه الوحيدة •

أردف يهتف قائلا :

ـ ولكن ••• رباه ! هذه الأغنية أنا أعرفها ! سمعتها من زمان طويل ••• هذه الاغنية ••• ذلك يذكّرني بـ ••• آه ••• رباه ! ••

لن أجازف فاحاول أن أصف الحالة النفسية التي صار اليها الأمير من غناء زينا • لقد غنت أغنية عاطفية فرنسيه كانت رائجة في الزمان القديم ، غنتها فأحسنت غناءها غاية الاحسان • كان صوتها الصافي ينفذ الى القلب • ان وجهها الفتان ، وعينيها الاخاذتين ، وأصابعها الطويله الدقيقة التى كانت تقلب بها صفحات دفتر الموسيقى ، وشعرها الكثيف الأسود اللامع ، وصدرها المتموج ، وشخصها النبيل المتكبر الرائع كله ، ان هذا جميعه قد فتن الأمير عن نفسه وسحره وأجهز عليه • فكان الأمير لا يحول عنها بصره أثناء الغناء ، ولا ينفك يسيل لعابه من شدة الانفعال • ان قلبه الذى أدفأته الشمبانيا والموسيقى والذكريات (من منا ليس له ذكريات حب ؟) يخفق الآن خفقاً متسارعاً كما لم يخفق منذ زمن طويل •

صاح وهو يقبل رءوس أصابعها :

ـ بنيتى الفاتنة ! انك لتسحرينني ! الآن تذكرت ••• الآن تذكرت ••• آه يا بنيتى الفاتنة ! •••

عجز الأمير عن اكمال كلامه • وشعرت ماريا ألكسندروفنا اللحظة الفاصلة قد حانت • فصاحت تقول :

ـ لماذا تضيّع نفسك يا امير ؟ ما اكثر ما تدفن في هذه الوحدة التي تحياها من عاطفة ، وحيوية ، وغنى روحي ! لماذا تتجنب المجتمع ، والاصدقاء ؟ ألا ان هذا لامر لا يغتفر ! فكر يا أمير ، أنظر الى الامور بعين بصيرة ان صح التعبير ! استحضر في قلبك الماضي ، تذكر شبابك الذهبي ، وأيامك البهيجة ، أيقظ هذا كله في روحك ، ابعث نفسك ! عد الى الحياة في العالم بين الاحياء ! سافر الى الخارج ، الى ايطاليا ، الى اسبانيا ••• اسبانيا يا أمير ! ولا بد لك من مرافق يهديك ، لا بد لك من قلب يحبك ، ويمجدك ، ويفهمك ! ان لك أصدقاء ! نادهم ، ادعهم الى مساعدتك يهرعوا اليك ذرافات ! وأنا أول من يهرع اليك تاركةً كل شيء في سبيل تلبية ندائك • انني أتذكر ما كان بيننا في الماضي من مودة يا امير ! لسوف أترك زوجي وأتبعك ••• لو كنت أكثر شبابا ، لو كنت كابنتي جمالا ونضارة عود ، اذن لجعلت نفسي صاحبتك في الطريق ، اذن لجعلت نفسي رفيقتك ، اذن لجعلت نفسي زوجتك ، متى أظهرت أيسر رغبة في ذلك !

ـ أوه ! أنا واثق أنك كنت في شبابك امرأة فاتنة •

كذلك قال الأمير محتجا ، وهو يمخط ، وقد اتسخت عيناه بالدموع •

أجابت ماريا ألكسندروفنا تقول متحمسة :

ـ نحن نعيش في أولادنا حياة ثانية يا أمير • أنا أيضا لي ملاكي الحارس : ابنتي ، صديقة أفكاري وقلبي يا أمير • لقد رفضت حتى الآن سبعة أزواج في سبيل أن تبقى معي •

ـ اذن ستصحبك اذا صحبتني الى الخارج ؟ اذا صحّ هذا فأنا

مسافر الى الخارج حتما ! لأسافرنّ فورا اذا كان يمكن أن أمنيّ نفسى بهذا الأمل ؟

كذلك صاح الأمير غارقا فى الانفعال ، وأضاف يقول :

ـ ألا انها لصبية لا تضا .... رع ! أوه ! بنيتى الفاتنة !

وعاد الأمير يقبل رءوس أصابع زينا . مسكين هذا الشيخ ! أصبح لا يشتهى الا شيئا واحدا : أن يجثو أمامها !

ـ ما هذا الذى تقوله يا أمير ؟ اذا كان يمكن أن تمنى نفسك بهذا الأمل ؟ ما أغرب شأنك يا أمير ؟ أتظن اذن أن النساء يمكن أن لاتهزهن عاطفة نحوك ؟ ليس الجمال فى الشـباب يا أمير ! تذكر أنك فرع من أنبل فروع ارستقراطيتنا الروسية ، وتذكر أنك تمثل أرهف العواطف وأقربها الى الفروسية ... هذا الى أرفع الآداب الاجتماعية وأسماها . أما تولهت ماريا حبا بصـاحبها مازيبـا ؟ * وانى لأتذكر اننى قرأت أن لاوزون ، ذلك المركيز الرائع فى بلاط لويس... نسيت أى لويس... قد كان شيخا على حافة قبره حين هامت بحبه فتاة هى أكمل فتيات البلاط جمالا ! ... ومن ذا الذى قال لك انك شيخ ؟ من ذا الذى أوهمك بهذا ؟ وهل يشيخ رجال من طينتك ؟ هل تشيخ انت ، أنت الذى يزخر قلبك بكل هذه العواطف الغنية ، أنت الذى تفيض حياة ومرحا وذكاء وخيالا، انت الذى تملك آدابا رائعة كل هذه الروعة ؟ الا انه ما عليك الا أنتظهر فى أى مكان ، الآن ، فى مدن المياه المعدنية ، فى الخارج ، مع امرأة شابة ، جميلة كجمال زينا مثلا ـ لست أقصد زينا ، وانما هو تشبيه ـ حتى ترى الأثر العظيم الذى سوف تحدثه فى نفوس الناس ! أنت عمد من أعمدة ارستقراطيتنا ، وهى امرأة بارعة الحسن فتانة الجمال ! تناولها ذراعك فى فخامة وجلال ، فتغنى لك فى المجتمع الراقى . ألا ان كل انسانسيجرى

ليراكما ويعجب بكما ! ولسوف تتحدث أوروبا كلها عنك : جميع الجرائد، جميع الصحفيين ، سيرددون بصوت واحد : « الأمير ، الأمير ! » أفبعد هذا تقول : « اذا كان يمكن أن أمنى نفسى بهذا الأمل » ؟ ...

همهم الأمير يقول خافضا بصره دون أن يفهم نصف كلام ماريا ألكسندروفنا :

ـ طبعا طبعا ... الصحفيون ... سيكون هذا فى الجرائد ... يا بنيتى ، اذا كنت لم تتعبى ، فأعيدى لى هذه الأغنية التى غنيتها !

ـ انها تعرف أغنية أخرى يا أمير ... أغنية أجمل من هذه أيضا ... هل تتذكر أغنية «السنونو»* يا أمير ؟ لا شك أنك سمعتها !

ـ طبعا طبعا ، أتذكرها ... بل نسيتها . لا ، لا ، فلتغن الأخرى ، الأخرى ، تلك التى غنتها الآن .

كذلك قال الأمير بصوت مبتهل ، كطفل .

غنت زينا الأغنية مرة أخرى ، فلم يستطع الأمير أن يتمالك نفسه، فاذا هو يرتمى على قدميها باكيا ، ويصيح بصوت جعله الانفعال المضاف الى الشيخوخة مختلجا مرتجفا :

ـ أواه يا صاحبة القصر الجميلة ! أواه يا ربة القصر الفاتنة ! يا بنيتى الحلوة ... لقد ذكرتنى ... بما حدث منذ زمن بعيد ... كنت أيامئذ أرى الأشياء أجمل مما أصبحت أراها بعد ذلك ... كنت أيامئذ أغنى أغنيات لاثنين ... أغنيها مع الفيكونتيسة ... كنت أغنى هذه الأغنية ... والآن ، لا أدرى أين أنا من هذا كله ...

نطق الأمير بهذه الكلمات لاهثا متمتما . كان لسانه رخوا ، وكان بين ألفاظه مالا يُفهم . والشىء الوحيد الذى كان واضحا هو أن انفعاله

طافح . فأسرعت ماريا ألكسندروفنا تصب الزيت على النار . صاحت تقول فجأة وهى تشعر أنها شارفت لحظة الانتصار :

ـ ولكنك هائم حبا بزينا يا أمير !

فجاء جواب الشيخ فوق كل ما كان يجيش فى صدرها من آمال . قال وهو ما يزال جاثيا وقد انتعش فجأة وعاد يرتجف :

ـ أنا بها مجنون . أنا مستعد أن أقف عليها حياتى كلها ! ... آه ليتنى أستطيع أن أمنّى نفسى فحسب ، ليتنى أستطيع ان أؤمل فحسب .. ولكن ساعدونى على النهوض ... اننى أشعر بوهن شديد ... آه ... ليتنى أستطيع أن أمنّى نفسى بأن أهب لها قلبى ... وعندئذ ... سوف ... تغنى لى هذه الأغنية كل يوم ، وسوف أتأملها ... أتأملها بغير انقطاع ... آه ... يا رب !

ـ أنت تخطبها يا أمير ... أتريد أن تنتزعها منى ؟ أن تسلبنى عزيزتى زينا ، أن تخطف ملاكى الحبيب ؟ لا ... لن أدع لك أن تذهبى يا زينا ... كيف تُنتزعين من بين ذراعى ؟ كيف تنتزعين من بين ذراعى أمك ؟

كذلك هتفت ماريا ألكسندروفنا ثم ارتمت على ابنتها وحضنتها حتى لتكاد تخنقها من قوة العناق ، رغم جميع الجهود الواضحة التى بذلتها زينا لابعادها عنها ... كانت زينا تشعر من أعماق نفسها بأن أمها قد تجاوزت حدود القصد والاعتدال ... وقد تابعت هذه التمثيلية مشمئزة اشمئزازا لا يوصف . ومع ذلك فقد صمتت ، وكان هذا كل ما تريده ماريا ألكسندروفنا .

وعادت الأم تصرخ قائلة :

ـ لقد رفضت تسعة ازواج حتى لا تنفصـــل عن أمها ! ••• أما الآن فان قلبى يحدثنى أن الفراق مقبل ! لقد لاحظت منذ هذا الصــباح كيف كانت تنظر اليك ••• لقد غلبتها بنبلك وكمال آدابك يا أمير ! آه ••• انك ستفرّق بيننا ••• تنبأت أنا بذلك !

ـ أعـ ••• ـبـ ••• ـد ••• ك ••

كذلك تأتأ الأمير وهو ما يزال يرتجف كورقة فى مهب الريح •

صاحت ماريا ألكسندروفنا تخاطب ابنتها وهى ترتمى على عنقها مرة أخرى :

ـ أتتركين أمك اذن يا زينا ؟

فأسرعت زينا تسدل الستار على هذا المشهد الشاق المؤلم ، اذ مدت الى الأمير يدها الجميلة صامتةً ، بينما طاف فى شفتيها شىء يشــبه أن يكون ابتسامة • فتناول الأمير هذه اليد الصغيرة نهما وأغرقها بالقبل ، وهمهم يقول وهو يغلى حماسة :

ـ الآن بدأت أحيا ! •••

قالت ماريا ألكسندروفنا ظافرة منتصرة :

ـ زينا ! أنعمى النظر فى هذا الرجـــل ! انه بين الرجال أنبلهم وأكرمهم ! هو فارس من فرسان القرون الوسطى ! ولكنها تعرف ذلك يا أمير ! تعرفه واحزناه ! ••• أواه ! لماذا أنت هنا يا أمير ؟ ان علىّ أن أتنازل لك عن كنزى ، عن ملاكى ! أحطها بعنايتك يا أمير ! ان التى تضرع اليك فى هذا أم ، وأية أم يمكن أن لا تفهم حزنى ؟!

دمدمت زينا تقول لأمها :

ـ كفى يا أمى !

ـ سوف تتولى حمايتها من الأشرار يا أمير ! سوف يتلألأ سـيفك أمام أعين النمامين والكائدين الماكرين الذين يجسرون أن يمسوا عزيزتي زينا بسوء !

ـ كفى يا أمي ، والا فسوف أ ...

ـ طبعا طبعا ، سوف يتلألأ ... الآن بدأت أحيا ... أريد أن يتم الزواج فورا ، في هذه اللحظة نفسها ! سارسل أحدا الى دوخانوف رأسا ليأتيني بماساتي ... فأضعها بين قدميها ! ...

صاحت ماريا ألكسندروفنا تقول :

ـ يا لها من حرارة ! يا لها من حماسة ! يا له من سخاء وكرم ! فكيف كنت تريد أن تضيّع نفسك يا أمير ، كيف كنت تريد أن تضيّع نفسك الى الأبد بأن تحيا حياة ناسك بعيدا عن العالم ! لن أملَّ من القاء هذا السؤال ألف مرة ! انني أخرج عن طوري كلما تذكرت تلك المرأة الجهنمية التي ...

قال الأمير معترفا وهو يجهش في بكاء عنيف :

ـ لم يكن لي في الامر حيلة ! لقد أرادوا أن يسجنوني في مستشفى للمجانين ... نعم ... أرادوا ذلك ، فخفت ...

ـ في مستشفى للمجانين ؟ يا للشياطين الأوغاد ! يا لهؤلاء الناس الذين لا ضمير لهم ! يا للحقارة والدناءة ! الا أنهم هم المجانين ! ولكن لماذا ؟ لماذا ؟

أجاب الشيخ يقول وقد بلغ من التعب أنه تهالك في قاع المقعد :

ـ لا أدري . هل تعلمين ؟ لقد قصصت نكتة في حفلة رقص ، فلم تعجبهم ، فنجمت عن ذلك حكاية طويلة ...

ـ هل يُعقل أن يكون هذا هو السبب يا أمير ؟

ـ كلا ••• ولكنني لعبت بالورق بعـــد ذلك مع الأمير بطرس ديمانتتش ••• فكانت تنقصني ورقة الستة ••• كان معى ورقتان « روا » وثلاثة أوراق « دام » ••• بل قولى ثلاثة أوراق « دام » وورقتان «روا» ••• لا بل كان معي ورقة « روا » واحدة ••• وجاءت ورقات ال «دام» بعد ذلك •••

ـ أمن أجل هذا ؟ أمن أجل هذا ؟ ألا ما أقل ضميرهم ••• ألا ان لهم وجدانا جهنميا ! ••• على أن هذا لن يقع بعد اليوم يا امير ! سأكون بعد اليوم بجانبك يا أمير ! لن أنفصل عن زيناء وسوف نرى هل يجرؤون أن يفتحوا افواههم ! هل تعلم أن زواجك سيذهلهم يا امير ! ســـوف يشعرون بالخزى والعار من أنفسهم ! سوف يعرفون قيمتك ••• سوف يدركون أن فتاة رائعة الحسن بارعة الجمال كهذه الفتـاة لا يمكن أن تتزوج رجلا خرفا ! فى وسعك الآن أن ترفع رأسك عـــاليا ••• فى استطاعتك الآن أن تحدق اليهم تحديقا •••

ـ طبعا ، طبعا ••• تحديقا •••

كذلك تمتم الأمير الذى كانت أجفانه تطبق •••

حدثت ماريا ألكسندروفنا نفسها قائلة : « لقد نفدت قواه •• ولقد غاض ريقى ، وجف لسانى » •

ـ يا أمير ، أرى أنك متعب كثيرا • فأنت بعد انفعال كهذا الانفعال، فى حاجة الى هدوء ، الى راحة •

كذلك قالت له وهى تميل عليه كما تميل أم حنون على ابنها الحبيب •• فأجاب :

ـ طبعا طبعا ••• أود أن أرقد لحظة •••

ـ نعم ، عليك بشىء من الراحه بعد هذا الانفعال يا أمير ! انتظر •• سوف أصحبك ••• وسأرقدك على السرير بنفسى اذا اقتضى الامر • لماذا تنظر الى هذه الصورة كثيرا يا أمير ؟ انها صـــورة أمى ••• هى ملاك لا امرأة ! آه ••• لماذا ليست معنا الآن ؟ لقد كانت هى الاستقامة بعينها •• كذلك كنت أسمّيها ولم أسمّها بغير ذلك •••

ـ الاستقامة ••• هذا جميل ••• أنا أيضا كان لى أم ••• الاميرة ••• لقد كانت امرأة سمينة سمنة هائلة ، هل تتصورين ؟ على أن هـذا ليس ما كنت أريد أن أقوله ••• اننى أشعر بشىء من التعب •• استودعك الله يا بنيتى الفاتنة ••• سوف أنتظر مبتهجا أشد الابتهاج ••• اليوم •• أو غدا •• لا قيمة لهذا على كل حال ••• الى اللقاء ••• الى اللقاء •

هنا أراد الشيخ أن يحرك يده باشارة الوداع ، ولكنه لم يستطع ، وكاد يسقط على العتبة •

صرخت ماريا ألكسندروفنا تقول :

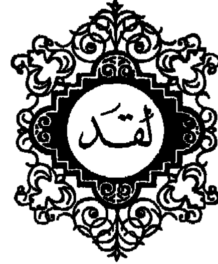
ـ انتبه يا أمير ! اتكىء على ذراعى !

ثأثأ الأمير يقول وهو يبتعد :

ـ رائع ! رائع ! اليوم انما بدأت أحيا •••

لبثت زينا وحدها • ان حملا لا يطاق ، يسحق قلبها • انااشمئزازها من نفسها يشعرها بأنها توشك أن تختنق • لم تقم بحركة واحدة ، وظلت خداها ملتهبتين ، ويداها منقبضتين ، وأسنانها مكتزة ، ورأسها مخفوضا • وفى هذه اللحظة ، صُفق الباب ووثب موزجلياكوف الى الغرفة •

الفصل التاسع



سمع كل شيء ، كل شيء على الاطـــلاق • لم يدخل الغرفة دخولا ، بل اقتحمها اقتحاما ، وقد شوّه وجهه الانفعال والحنق • رفعت زينا نحوه عينين مدهوشتين • صاح وهو يلهث :

ـ أكذلك أنتِ اذن ! الآن عرفت قيمتك أخيرا !

ـ قيمتى ؟

كذلك رددت زينا التى نظرت اليه وهى تتساءل أهو مجنون ؟ ولكن نظرتها لم تلبث أن سطعت بكره وبغض • ثم قالت له وهى تتقدم نحوه :

ـ من منحك حق مخاطبتى بهذه اللهجة ؟

فصاح موزجلياكوف يقول بلهجة المنتصر :

ـ سمعت كل شيء !

قال ذلك وتراجع خطوةً بالرغم منه •

قالت زينا وهى ترشقه بنظرة تحمل معنى الاحتقار العميق :

ـ سمعت كل شيء ؟ تنصت على الأبواب ؟

فأجابها موزجلياكوف وقد ازداد خوفه من نظرتها :

ـ نعم ، تنصت على الأبواب ! نعم ، ارتضيت لنفسى هذه الحطـــة لأعرف أخيرا من أنت •••

ـ ما دمت قد سمعت ، فما مأخذك عليّ ؟ بماذا تتهمني ؟ وبأى حق تتهمني ؟ وباى حق تخاطبني بهذه الوقاحة ؟

ـ أنا ؟ بأى حق ؟ أتجرؤين أن تسأليني هذا السؤال ! أتقبلين الأمير زوجا لك ، ثم لا يكون لى حق ؟ فأين العهد الذى قطعته لى اذن ؟

ـ متى ؟

ـ كيف متى ؟

ـ ألم أذكر لك صراحةً ، في هذا الصباح ، حين ألححت ، أنني لا أستطيع ان أجيبك اجابة حاسمة ؟

ـ ولكنك لم تصديني ، لم ترفضيني قط ••• أكنت تتخذينني اذن خطيبا احتياطيا ؟

تقبض وجه زينا الغاضب تقبضا أليما ، كأن وجعا شديدا مفاجئا قد ألمّ بها ، ولكنها لم تلبث أن سيطرت على نفسها ، فأجابت بصوت واضح قاطع يلقى عليه الارتجاف النفسى ظلا منه :

ـ اذا كنت لم أصدّك ، فما كان ذلك منى الا شفقة صرفا ! أنت نفسك ابتهلت الىّ أن أتمهل ، فلا أقول « لا » على الفور ، وأضفت تقول: « فمتى أيقنت أنني رجل شريف ، فلعلك عندئذ لا ترفضينني » • تلك أقوالك بنصّها منذ أول صلة بيننا • أفى استطاعتك أن تنكرها ؟ فكيف تسمح لنفسك أن تقول لى الآن اننى ادخرتك خطيبا احتياطيا ؟ ألم تلاحظ اذن نفورى منك حين رأيتك اليوم مرة أخرى قبل الموعد المضروب بخمسة عشر يوما رغم وعودك ؟ اننى لم أخف عنك ذلك النفور ••• بالعكس ••• وأنت قد لاحظته جيدا ، بدليل أنك سألتنى بنفسك أأنا

غاضبة من عودتك قبل الأوان • ألا فاعلم أنه ليس فى الامكان اجتذاب أحد الى شخص لا يطيق ولا « يريد » أن يكتم اشمئزازه منه • افتجرؤ بعد هذا أن تدعي أنني ادخرتك خطيبا احتياطيا ؟ اسمع ، سأقول لك رأيي فيك • كنت أقول لنفسي : « لئن لم يكن واسع الذكاء ، فان فى وسعي أن أتزوجه اذا كان رجلا شريفـا » ••• أما وقد أيقنت الآن ـ في الوقت المناسب من حسن الحظ ـ أنك رجل أبله ، وأنك فوق هذا ـ وذلك أسوأ وأنكى ـ رجل أبله ولا خلاق له ، فلم يبق عليّ الا أن أتمنى لك سفرا موفقا وأن أرجو لك السعادة • الوداع !

قالت زينا هذا الكلام ، ثم استدارت واتجهت بخطى بطيئة نحـو الباب •

واذ أدرك موزجلياكوف أنه خسر المعركة فقد كان يغلي غيظا وحنقا •• وصاح يقول :

ـ نعم ، أنا الآن أبله ••• أبله لا أكثر ••• طيب ••• الوداع ! ••• ولكنني قبل أن أرحل سأقص على المدينة كلهـا كيف تصرفتما انت وأمك العزيزة للتغرير بالامير بعد أن أسكرتماه • سأروى كل هذا لكل انسان • لتأتينك أخبار موزجلياكوف !

ارتجفت زينا وجمدت في مكانها كأنما لتجيب ، ولكنها بعد لحظة من تفكير رفعت كتفيها احتقارا ، وصفقت الباب وراءها •

وفي تلك اللحظة ظهرت ماريا ألكسندروفنا في العتبة • لقد أدركت الأمر اذ سمعت صرخة موزجلياكوف ، فألم بها خوف شديد • حدثت نفسها قائلة : موزجلياكوف ما يزال هنا ! موزجلياكوف سيبقى بجـانب الأمير ! موزجلياكوف سيقرع الأجراس في المدينة كلها بينما يجب أن يبقى الأمر سرا مكتوما ، ولو الى حين • واذ رازت الظروف في طـرفة

عين ، عزمت على تهدئة موزجلياكوف ، فقالت له وهى تدنو منه وتمد اليه يدها على مودة :

ــ ما بك يا صديقى ؟

ــ أتقولين يا صديقى ؟ أبعد كل ما قارفته تجرؤين أن تناديني : يا صديقى ؟ كل شيء الا هذا يا سيدتى المحترمة ! أتظنين أن في استطاعتك أن تخدعيني مرة أخرى ؟

ــ يؤسفني ، نعم يؤسفني كثيرا يا يافل ألكسندروفتش أن أراك في حالة نفسية غريبة هذه الغرابة ! ما هذه التعابير التى تستعملها ؟ أتُراك أصبحت لا تستطيع حتى أن تزن أقوالك أمام سيدة ؟

ــ أمام سيدة ؟ أأنت سيدة ؟ أنت ما تشائين ولكنك لست بسيدة ! ..
كذلك صرخ موزجلياكوف .

لا أدرى على وجه الدقة ماذا أراد أن يقول موزجلياكوف بهذه الصيحة . لعله أراد أن يلحق بها الاهانة الكبرى ...

فنظرت اليه ماريا ألكسندروفنا نظرةً لا تخلو من اشفاق ورحمة . ثم قالت له بلهجة يشيع فيها الحزن والأسى وهى تدله على المقعد الذى كان يجلس عليه الأمير قبل ربع ساعة .

ــ اجلس .

فأعول موزجلياكوف يقول خاضعا مستكينا :

ــ ولكن اسمعى أخيرا يا ماريا ألكسندروفنا . انك تنظرين اليَّ نظرة عجيبة ، فكأنك لست أنت المذنبة في حقى ، وكأننى أنا المذنب فى حقك . ألا ان هذا لاسراف ! ما هذه اللهجة ؟ ذلك يتجاوز الحدود أخيرا ... هل تفهمين ؟

أجابت ماريا ألكسندروفنا :

ـ صديقى ! اسمح لى أن أناديك بهذا الاسم ، لأنك ليس لك فى هذا العالم صديقة خير منى . أنت يا صديقى تتعذب وتتألم ويفيض قلبك مرارة . فلا عجب والحالة هذه أن تخاطبنى بتلك اللهجة التى خاطبتنى بها . ولكننى قررت أن أكشف لك كل شىء ، أن أفتح لك قلبى كله ، لا سيما وأننى أشعر بأننى مذنبة فى حقك . فاجلس اذن لنتحدث قليلا .

كان صوت ماريا ألسكندروفنا متلطفا غاية التلطف ، وكان وجهها يدل على تاثر شديد . ذهل موزجلياكوف وجلس بجانبها على المقعد . فتابعت تقول وهى تنظر اليه نظرة تحمل معنى العتب المتسامح :

ـ هل تنصت على الباب ؟

ـ نعم تنصت ! ولو لم أفعل لكنت غبيا غاية الغباء . فبهذا التنصت عرفت على الأقل ما تدبرينه لى فى الخفاء !

كذلك أجابها بغلظة وفظاظة موزجلياكوف الذى كان الحنق يقوم عنده مقام الشجاعة .

ـ أأنت ، أأنت بتهذيبك وأدبك ومبادئك ، ترتضى لنفسك أن تعزم على أمر كهذا ؟ آه ... يا رب !

ارتعش موزجلياكوف على مقعده . ثم صاح :

ـ ماريا ألسكندروفنا ! ان سماع كلام كهذا لهو شىء لا يحتمل ولا يطاق أخيرا . تذكرى ما دبرته أنت بمبادئك من مكائد منذ قليل ، وبعد ذلك يحق لك أن تحكمى على غيرك !

قالت دون أن تجيب عن غمزاته :

ـ سؤال آخـــر : من نصحك بأن تتنصت على الأبواب ؟ من الذى نبَّهك ؟ من الذى يتجسس فى منزلى ؟

ـ اعذرينى ، لا أستطيع أن أذكر لك ذلك !

ـ طيب ، سأعرفه بنفسى ! قلت لك يا بافل اننى مذنبة فى حقك . ولكن أنظر فى جميع الظروف ، فى جميع الظروف بغير استثناء ، تدرك اننى لست بمذنبة . كل ما هنالك اننى أريد لك خيرا كثيرا ...

ـ لى أنا ؟ تريدين لى أنا خيرا كثيرا ؟ لا ... لن تخدعينى فى هذه المرة ! فما أنا بصبى غر على كل حال .

قال ذلك وتحرك فى مكانه تحركا بلغ من القوة أن نوابض المقعد صرَّت صريرا مسموعا .

قالت ماريا ألكسندروفنا :

ـ أرجوك أن تسترد هدوءك يا صديقى اذا كان ذلك فى الامكان. فاذا أصغيت الى كلامى بشىء من الانتباه فسرعان ما ستوافق على رأيى كل الموافقة . اعلم أولا أننى كنت أريد أن أبلغك كل شىء . فلو لم ترتض لنفسك أن تنزل الى مستوى التنصت على الأبواب ، لعرفت منى أنا أدق التفاصيل . ولئن لم أقل لك شيئا قبل الآن ، فما ذلك الا لأن الأمر كان مشروعا لا أكثر ، وكان يمكن أن لا ينتهى هـــذا المشروع الى شىء . ها أنت ذا ترى اننى صريحة معك كل الصراحة . واعلم ثانيا أن عليك أن لا تتهم ابنتى ، فهى تحبك حبا جنونيا ، وقد اضـطررت أن أضغط عليها ضغطاً شديدا لأحملها على الانفصال عنك ، ولأجبرها على قبـــول ما عرضه الأمير .

قال موزجلياكوف ساخرا :

ـ لقد أتيح لى شرف الاستماع منذ لحظة الى الدليل القاطع على هذا الحب الجنونى ! •••

ـ طيب ! ولكن قل لى : كيف كلمتها أنت ؟ أهكذا يخاطب الشاب فتاة يعبدها ؟ آالى طريقة كهذه الطريقه يعمد ؟ آأسلوبا كهذا الاسلوب يختار ؟ ابلهجه كهذه اللهجه يتكلم رجل مهذب ؟ لقد اهنتها اهانة كبيرة، ودفعتها الى الغضب دفعاً أنت أيضا !

ـ ليس الامر هنا أمر لهجة كيسة أو فظة يا ماريا ألكسندروفنا • فى هذا الصباح لاطفتمانى كلتاكما ، فما ان ادرت ظهرى حتى أخذتما تقولان فى حقى هاجر القول ••• انا اعلم ذلك ، اعلم كل شىء !

ـ ولا شك أنك تعلمه من ذلك المصدر الدنىء نفسه ؟

كذلك سألته ماريا ألكسندروفنا وهى تبتسم ابتسامة احتقار • ثم تابعت كلامها تقول :

ـ نعم يا بافل ألكسندروفتش ••• لقد سودت صفحتك ، لقد قلت فى حقك هاجر القول ••• ولقد ناضلت كثيرا حتى وصلت الى هذا • كنت فى حاجه الى ان اسود صفحتك امامها ، وربما الى أن أغتابك بما ليس فيك ، وهذا يدل على ما لقيت من عناء فى سبيل أن أكرهها على الرضى بهجرك ! يالك من رجل جاحد ! لو كانت لا تحبك ، أفكنت أنا فى حاجة الى أن أسوّد صفحتك ، الى أن أضعك فى موضع الهزء والسخرية ، الى أن أقلل اعتبارك وأغمطك حقك ، الى أن أصطنع أساليب مريبة كهذه الأساليب ، الى أن أتوسل بحيل سيئة كهذه الحيل ؟ وانك لمّا تعرف بعد كل ما استعملته من سلطة الأم على ابنتها فى سبيل أن انتزعك من قلبها • وأكثر من ذلك أننى بعد كل هذا الضغط الشديد الذى لا يتصوره خيال لم أظفر منها الا بموافقة سلبية • فاذا كنت قد تنصتّ حقا

حقا على الأبواب ، فلا بد أنك لاحظت أنها لم تدعمنى أمام الأمير باشارة ولا بكلمة • انها لم تنطق طوال المشهد الذى جرى بكلمة واحدة • ولقد غنت كما تغنى آلة • وكانت نفسها تفيض حزنا وكان يضنى الشجن قلبها، فرثيت لها ورأفت بها وأشفقت عليها ، فاضطررت أن أمضى بالأمير • وانى لعلى يقين من انها بكت حين خلت الى نفســـها • ولا شك أنك لاحظت دموعها حين دخلت عليها •

تذكر موزجلياكوف فعلا أنه حين دخل الغرفة فاجأ زينا باكية • وصاح يسال ماريا الكسندروفنا :

ـ ولكن لماذا كنت أنت ضدى يا ماريا ألكسندروفنا ؟ لماذا اغتبتنى كما تعترفين بذلك الآن ؟

ـ ذلك شأن آخر ••• ولو أنك ألقيت السؤال فى حكمة وتعقل ، جمله واحدة ، اذن لحصلت على الجواب منذ زمن طويل • نعم انك على حق • فأنا ، أنا وحدى ، فعلت كل شيء • فلا تقحم زينا فى الامر • اما لماذا فعلت ذلك فاليك الجواب : لقـــد فعلته أولا فى سبيل زينا • فالامير رجل غنى محترم ، وهو ذو صـــلات • فزواج ابنتى به يجعلهـا نجما متلألئا • حتى اذا مات ـ وقد يموت قريبا ما دمنا جميعا سنموت ـ فان زينا ستستطيع ، وقد أصبحت غنية أميرة ، ودخلت المجتمع الراقى ، ان تتزوج من تشاء ، وأن تحقق زواجا ثريا كل الثراء • وطبيعى ان تتزوج عندئذ الرجل الذى تحبه ، الرجل الذى كانت تحبه منذ أن قبلت الامير على مضض ، محطمة القلب • ان الندامة وحدها كافية لأن تحملها على التكفير عن الخطيئة التى ارتكبتها فى حق الرجـــل الذى كان أول من أحبت •

همهم موزجلياكوف يقول وقد ثبت بصره على حذائيه :

ـ هيم ...
وتابعت ماريا ألكسندروفنا كلامها تقول :
ـ هذا من جهه ، ومن جهة اخرى ... ولكنني أريد ان أوجـز ، فان من الجائز جدا ان لا تفهم ما اقول ... انك لا تزيد على ان تقرأ صاحبك شكسبير ، فتستمد منه جميـع انواع العواطف العظيمـــه وهى عواطف « ممتازة » فى الواقع ، ولكنك مازال شابا ياباقل الكسندروفتش، اما انا فانا ام يا باقل الكسندروفتش : اسنمع الى جيدا : اننى ازوج زينا الامير فى سبيل الامير نفسه اولا ، لاننى اريد بهذا الزواج ان انقذه . اننى اكبره من زمن بعيد لما يتصف به من نبـــل النفس وطيبـة القلب ولاخلاق الفروسيه التى ينعم بها . لقد كنا صديقين . وهو الان شقى ، واقع بين براثن تلك المراة الجشعه الكريهة . ولسوف تقوده هذه المرأة الى القبر . ويعلم الله اننى فى سبيل ان اجبر زينا على الموافقة اضطررت ان أوضح لها كل ما ينطوى عليه العمل الذى ستقوم به من قداسة الفداء وجمال التضحية . فبذلك تسنى لى أن أؤثر فى عواطفها الرفيعة ، لان جانب الفروسية فى روحها قد افتتن بروعة التضحيـة ، لا سـيما وأننى عرضت لها الأمر من الناحية المسيحية السامية ، وأبنت لها كيف أنهاستكون لهذا الانسان الذى قد لا يعيش أكثر من سنة أخرى شقية ، كيف أنهـا ستكون لهذا الانسان سنداً وعضداً ، وعزاء وسلوى ، وصديقة وابنـةً ومعبوداً فى آن واحد ؟ فلا يشعر هذا الانسان بعد ذلك ، فى أيامه الأخيرة على هذه الأرض ، لا بخوف ولا بحزن ، ولا تحاصره امرأة دنيئة كتلك المرأة التى تحاصره الآن ، وانما تكون بجانبه امرأة تهب له الضياء والمودة والحب ، وتجعل أيامه الأخيرة تمهيدا للجنة التى سيدخلها فى القريب . فأين الأنانية فى هذا كله ؟ هلاّ قلت لى أين الأنانية فى هذا ؟ تلك تضحية تقوم بها راهبة من راهبات المحبة ، لا أنانية ...

قال موزجلياكوف بصوت مرير :

ـ فانما فعلت اذن ذلك في سبيل الامير وحـــده ؟ انما أردت أن تضحي بجانبه راهبة من راهبات المحبة ؟

ـ انني افهم ايضا هذا السؤال يا بافل السكندروفتش • هو سؤال واضح • لا شك انك تظن أن هذا كله مكائد يسوعية لا تهدف الى خـير الامير ، وانما تطمع في ترواته الشخصية ؟ ولكن لم لا ؟ هذا أيضا قد دار في خاطري يا بافل الكسندروفتش ، لا عن مكر يسوعي ، بل بالرغم مني • أنا أعلم أن الصراحة في مثل هذه الاعتراف خليقة بان تدهشـك يا بافل ألكسندروفتش ، ولكنني أحرص على هـــذا الاعتراف الصريح لأرجوك أن لا تقحم زينا في الامر ! ان زينا بريئة براءة يمامة ! انهـا عاجزة عن الحساب • انها لا تحسن الا ان تحب ، بنيتي العزيزة الحلوة العذبة ! واذا كان هنالك أحد أجرى حسابا فهو أنا ، أنا وحدي ! ومـع ذلك فانني أطلب اليك أولا أن تسال ضميرك سؤالا صارما وأن تقول لي : أية أم في مكاني وفي فرصة كهذه الفرصة لا تفعل ما فعلت ؟ اننا ننشد مصلحتنا حتى في أعظم أعمالنا وأبعدها عن المنفعة • اننا نحسب من حيث لا نشعر ولا نريد ! وكل واحد منا تقريبا يعرف كيف يقنع نفسه بأنه لا يصدر في أفعاله الا عن كرم محض وجود صرف ، ولكنني لاأستسلم للأوهام في هذا الصدد ! انه لبديهي أن الحساب قد كان له دخل هنا ، رغم نبل الغاية المبتغاة • ومع ذلك تساءل : هل أجريت أنا هذا الحساب في سبيل نفسي ! لقد انقضى زماني ؟ وانما أنا أحسب من أجلها وفي سبيلها، نعم انما أنا أحسب في سبيل ملاكي ، في سبيل حبيبتي العزيزة ، فأية أم يمكن أن تأخذ عليّ هذا وأن تلومني ؟

قالت ماريا ألكسندروفنا هذا الكلام وتلألأت الدموع في عينيها •

وكان بافل ألكسندروفتش حائر اللب مشتت الفكر يستمع الى هـــذا الاعتراف الصريح وهو يدير على ما حوله عينين بلهاوين • وردّد أخيرا يقول :

ـ نعم ••• فعلا ••• أية أم ••• انك لتحســنين الصداح جـدا يا ماريا ألكسندروفنا ••• ولكن ••• أنت قد قطعت لى عهدا ••• أنت قد جعلتنى آمل ••• لقد منيتنى بأعذب المنى ، فهل تظنين أنه يسرنى الآن أن أحدّث نفسى بأننى خدعت ، وأن آمالى كانت سرابا ؟ •••

ـ هل تجرؤ أن تتصور أننى لم أفكر فيك يا عزيزى بافل ؟ لقـد تضمنت حساباتى كلها منافع لك تبلغ من السعة أن ذلك قد شجعنى مزيدا من التشجيع على المضى فى هذا المشروع وانجازه •

صاح موزجلياكوف يقول وقد طار صوابه فى هذه المرة تماما :

ـ منافع لى أنا ؟ كيف هذا ؟

ـ غريب أمرك • هل يمكن أن تكون على هـــذا القدر كله من البساطة والسذاجة وقصر النظر ••• رباه !

كذلك صرخت ماريا ألكسندروفنا وهى ترفع بصرها الى السماء • ثم تابعت كلامها تقول :

ـ شباب ! شباب ! انظروا الى الغرق فى قراءة شكسبير ما جدواه ! انظروا الى الاسترسال فى الأحلام الطائشة ما نفعه ! انظروا الى البحث عن الظهر فى الساعة الرابع عشرة ما نتيجته ! ان المرء يصل من هذا الى أن يحيا بنفس ليست نفسه ، وأن يعيش مع أفكار ليست أفكاره • تسـألنى يا عزيزى الطيب بافل الكسندروفتش أين منفعتك أنت هنا ؟ فاسمح لى اذن باستطراد صغير بغية ايضاح الأمور • ان زينا تحبك ••• ذلك شىء لا مجال لانكاره أو المماراة فيه ! ولكننى لاحظت ، رغم حبها الواضـح

الذى يخطف البصر ، أنها تخفى شيئا من الشك فيك ، شيئا من الشك فى صدق عواطفك ؟ ولاحظت أنها تشبه أن تلجم نفسها عن الاندفاع فى حبك ، وتتعمد أحيانا أن تبدو باردة تجاهك ، وذلك ثمرة التردد والشك .. ألم تلاحظ ذلك يا بافل ألكسندروفتش ؟

ـ لاحظته ... حتى فى هذا اليوم ... ولكن الى أين تريدين أن تصلى من هذا يا ماريا ألكسندروفنا ؟

ـ هل رأيت ؟ لقد لاحظت ذلك بنفسك ! ما أخطأ اذن ظنى ! ذلك هو الأمر تماما : ان فى نفسها نوعا غريبا من الشك فى ثبات عواطفك . أنا أم ، وكيف تعجز أم عن ادراك ما يجرى فى قلب ابنتها ؟ فتصور الآن أنك بدلاً من أن تقتحم الصالون لائما مقرعا شاتما ، بدلا من أن تهينها وتخنقها وتجرح شعورها ، وهى على ما هى عليه من أنفة وكبرياء وطهارة وجمال ، وان ياتى سلوكك هذا مصدّقا لشكوكها فيك ومخاوفها من سوء ميولك ، دون أن تريد أنت ذلك ، تصوّر أنك ، بدلا من هـذا ، قد استقبلت النبأ بتروٍ ورفق وهدوء وأناة ، ثم سكبت دموعا تعبـر عن الحسرة واللوعة ، بل وتعبر عن الكمد والكرب واليأس ، وتعبر خاصةً وقبل كل شىء عن النبل والشهامة والمروءة ...

ـ هِمْ ...

ـ لا تقاطعنى يا بافل ألكسندروفتش ! فانما أنا أردت أن أجلو لك جميع جوانب اللوحة التى لا بد أن تثير خيالك . تصور أنت جئت اليها وقلت لها قولا كهذا : « زينائيد ! أحبك أكثر مما أحب حياتى ... غير أن أسبابا قاطعة وبواعث حاسمة تفرّق بيننا . وأنا أفهم هذه الأسباب حق فهمها . فهى تتعلق بسعادتك ، وليس لى حق الاعتراض عليها . زينائيد ! اننى أودعك الوداع الأخير ! فكونى سعيدة اذا استطعت الى السـعادة

سبيلا ! » • وتصور أنك نظرت اليها عندئذ نظرة حملٍ ذبيح ان صح التعبير • تصور هذا كله وفكر فى الأثر الذى كان يمكن أن تحدثه أقوالك فى نفسها !

ــ طيب يا ماريا ألكسندروفنا • لنفرض أن هذا حدث • أنا أفهم هذا الكلام • ولكن ماذا كان يمكن أن أجنى منه ؟ لقد كان فى وسعى أن أقوله ثم أرجع كما جئت •••

ــ لا ، لا ، لا ، لا ياصديقى ! لا تقاطعنى ! سوف أجلو لك اللوحة كاملة ، بجميع مراحلها ، حتى أؤثر فى شعورك وأثير خيالك ! تصور أنك لقيتها بعد ذلك فى المجتمع ، بعد زمن ما • تصور أن هذا اللقاءحدث فى مكانٍ ما ، فى حفلة رقصٍ ، تحت أضواء ساطعة ، على أنغام موسيقى مسكرة ، بين جماعة من كبريات السيدات • وتصور نفسك فى زحمة هذا الاحتفال ، وحيدا ، حزينا ، شاحب اللون ، واجما مطرقا ، مستندا الى عمود تتابعها بنظرك فى زوبعة الرقص ، ولكن بشرط أن تكون فى موضعٍ لا يخفيك عن الأبصار • انها ترقص • ومن حولك تنتشر نغمات ساحرة هى نغمات فالس من تلحين شتراوس • وفى كل مكان حولك يتبادل الناس الفكاهات ؛ وأنت واقف فى مكانك لا تبرحه ، شقى النفس ، مبتئس الروح ، مصدَّع القلب هوى وحبا ! فما هو الشعور الذىستشعر به زينائيد حين تبصرك فى موضعك ذاك على حالك تلك ؟ وما هى النظرة التى ستلقيها عليك ؟ سوف تقول لنفسها : « لقد شككت فى هذا الرجل الذى ضحى من أجلى بكل شىء ، وحطمت أنا قلبه تحطيما ! » • ومن الطبيعى أن ينبعث فى نفسها الحب القديم قويا قوة لا سبيل الى مغالبتها !

توقفت ماريا ألكسندروفنا عن الكلام برهة لتتنفس • واستدار موزجلياكوف على مقعده بعنف واستأنفت ماريا ألكسندروفنا كلامها تقول :

ـ ان زينا ، من أجـــل صحة الأمير ، سترافقه الى ايطاليا ، والى اسبانيا حيث أشجار الاس والليمون ، حيث السماء الزرقاء ونهر الوادى الكبير ، الى اسبانيا أرض الحب ، حيث تستحيل الحياة بغير حب ، حيث الورود والقبلات تطير في الهواء ان صح التعبير ! وستلحق بهما انت الى هناك . تترك مركزك ، وواجباتك ، وكل شيء ! وهناك يضطرم هـواك اضطراما لا يستطيع شيء ان يوقفه . الحب ، الشباب ، اسبانيا ... رباه ! وسيكون حبك افلاطونيا في اول الامر طبعا . ولكنكما من كثرة ماسيتامل احدكما الاخر ستضويان في النهايه ! هل تفهمني يا صديقي ؟ ســيكون هنالك اناس عاميون دنيئون اشقياء يدعون ان ما دفعك الى السفر ليس هو ما يحمله قريب لقريبه الشيخ المريض من عاطفه . لذلك تعمدت انا أن اصف حبك بانه افلاطوني، فان اولئك الناس سيصفونه وصفا اخر مختلفا عن هذا الوصف كل الاختلاف . ولكنني ام يا بافل الكســندروفتش ، فكيف ادفعك الى الشر واحضك عليه ؟ ... وطبيعي ان الامير بن يكون في حاله تمكنه من مراقبتكما ، وما قيمة هذه المراقبه على كل حال ؟ وهل ينبغي أن تتهما بأمر دنيء الى هذا الحد من الدناءة ؟ واخيرا يموت الامير ... فقل لي : بمن عسى تتزوج زينا عندئذ ان لم تتزوجك انت ؟ انك قرابتك بالأمير قرابه تبلغ من البعد أنه لا يمكن أن يكون هنالك أية عقبة تمنعكما من الزواج . فستتزوجها اذن شـــابة في ريعان الشباب ، ثرية واسعة الثراء ، مدلّلة غاية الدلال . وفي أية لحظة ؟ في لحظة يكون فيها أعظم العظماء مستعدا للاعتزاز بزواجها أشد الاعتزاز ؟ كذلك تدخـل بفضلها أرقى المجتمعات وتصعد الى أرفع الآفاق ؟ وبفضلها تحصــل فجأة على مركز تـحسد عليه ، وتنال رتبة عالية . أنت تملك الآن مائة وخمسين نفسا . وكذلك ستصبح عندئذ غنيا . سيكون الأمير قد رتب كل شيء في وصيته . أنا أتعهد بذلك . فانما المهم كما ترى هو أن تثق بك زينا ثقة

تامة ، وأن تطمئن الى صدق قلبك وخلوص عواطفك ، وأن تنظر اليك نظرتها الى بطل من أبطال السماحة والجود والتفاني • أرأيت الآن أين منفعتك في هذا كله ؟ ألا انه لا بد أن يكون المرء أعمى حتى لا يتصور ذلك وحتى لا يلاحظه ، وأن لا يطمئن الى هذه المنافع وهي على مسافة خطوتين منه تنظر اليه وتبتسم له وتناديه قائلة : « هذه أنا » ! هلا فكرت قليلا يا بافل ألكسندروفتش ؟

صرخ موزجلياكوف يقول وقد بلغ غاية الانفعال :

ـ ماريا ألكسندروفنا ! الآن فهمت كل شيء ! ألا انني لجبان ! •• لقد تصرفت تصرف رجل فظ غليظ القلب !

قال ذلك ووثب عن مقعده وأمسك بشعره يشده • فأضافت ماريا ألكسندروفنا الى كلامها قولها :

ـ تصرفت تصرف رجل طائش على وجه الخصوص ، تصرف رجل طائش طيشا كبيرا •••

فاستأنف موزجلياكوف كلامه يقول وقد كاد يبلغ منتهى الكرب والكمد :

ـ أنا أكبر حمار يا ماريا ألكسندروفنا ! كيف أفعل هذا ، أنا الذي أحبها حب الجنون ! لقد ضاع الآن كل شيء !

فأجابت ماريا ألكسندروفنا في رفق وهدوء كأنما هي تفكر في أمر ما :

ـ لا ••• ربما لم يضع كل شيء بعد •••

فقال موزجلياكوف :

ـ آه ••• يا ليت ! ••• ساعديني ! ••• قولي لي ما الذي يجب عليّ أن أفعله ! أنقذيني ! •••

وأجهش موزجلياكوف باكيا •

فهتفت ماريا ألكسندروفنا تقول له في رحمـــة ورأفة وشفقة وهي تمد اليه يدها :

ـ يا صديقي ، أنت انما صدرت فيتصرفك عن حزن شديد لاحدود له ، عن عاطفة تغلي وتفور ، أي عن حب صرف ••• كنتَ منهك القوى لا تستطيع أن تسيطر على نفسك ولا أن تكبح جماحك •• ولسوف تفهم هي هذا حق الفهم •••

صرخ موزجلياكوف يقول :

ـ انني أحبها حب جنون ، وانني مستعد لبذل جميع التضحيات في سبيلها !

ـ اسمع ، سأسوِّغ تصرفك في نظرها •

ـ ماريا ألكسندروفنا !

ـ نعم ، سآخذ هذا الأمر على عـاتقي ! سأجمعـكما وجها لوجه ، فتقول لها كل شيء ، كل شيء ، على الطريقة التي نصحتك بها !

ـ آه ••• يا رب ! ••• ما أطيب قلبك يا ماريا ألكسندروفنا! ولكن ••• كيف عسانا نستطيع أن نفعل ذلك فورا ؟

ـ لا ينقصنا الا أن نفعله فورا ! آه ما أقل خبرتك ياصديقي ! لو فعلناه فورا لعدّته من شدة كبريائها فظاظة جديدة ، اهانة ثانية ! غـدا ، نعم غدا ، سأهيىء لكما لقاء ، أما الآن فامض الى مكانٍ ما ، امض الى عند

صاحبك التاجر مثلا ••• وعد فى السهرة اذا شئت ، ولكننى لا أنصحك بذلك !

ـ أنا ذاهب ، أنا ذاهب ! باركينى ! سؤال آخر: ماذا لو تأخر موت الأمير ؟

ـ آه ••• رباه ! ما أشد سذاجتك يا عزيزى بافل ! بالعكس ••• ان واجبنا أن ندعو له بالصحة والعافية• واجبنا أن ندعو بطول العمر لهذا الشيخ الطيب الذى يبلغ هذا المبلغ من شرف النفس وروح الفروسية • أنا أول من سيبتهل الى الله باكيةً فى النهار والليل من أجل سعادة ابنتى• ولكن وا أسفاه ! ان صحة الأمير لا تشجع على الأمل • لذلك يجب أن نسرع مزيدا من الاسراع • ان على الأمير أن يصطحب زينا الى العاصمة •• وأن يدخلها المجتمع الراقى ! ان مخاوفى رهيبة • اننى أتساءل ألا يمكن أن يجهز هذا على الأمير المسكين ؟ سوف ندعو له ، أليس كذلك يا عزيزى بافل ، أما ما عدا ذلك فنتركه لله ••• آأنت منصرف منذ الآن ؟ اننى آباركك يا صديقى ، اذهب فى أمان الله ! لا تفقد الرجاء ، ولا تفقد الصبر ، وكن رجلا بخاصة ! اننى ما شككت يوما فى نبل عواطفك •••

قالت له ماريا ألكسندروفنا هذا وهى تصـــافحه بكل ما أوتيت من قوة ، وخرج موزجلياكوف سائرا على رءوس الأصابع •

فلما صار فى خارج الغرفة قالت تحدث نفسها منتصرة : « ها قـد تخلصت من أبله • وعلىَّ الآن بالباقين ••• » •

وفُتح الباب ، فدخلت زينا • لقد ازداد شحوبها الطبيعى ، وكانت عيناها تتقدان • صرخت تقول لأمها :

ـ أمى ، أسرعى فخلصينى من هذا الأمر ! لم تبق فىَّ قدرة على الاحتمال ! هذا شىء دنىء حقير خسيس وضيع ، يبلغ من الدناءة والحقارة

والخسة والضعة أننى أصبحت لا أرغب الا رغبة واحدة ، هى أن أهرب من هذا المنزل ! اننى أشعر بتقزز وغثيان ، هل تسمعين ؟ ان هذا الوحل كله يبعث فى نفسى ميلا الى التقيؤ !

ـ زينا ! ماذا دهاك يا عزيزتى ؟ أتراك أنصت الى ما دار بيننا من كلام ؟

كذلك صرخت تقـول ماريا ألكسـندروفنا وهى تلقى على ابنتهـا نظرة فاحصة قلقة . فأجابتها زينا بقولها :

ـ نعم أنصت ... هل تظنـين أنك تستطيعين ان تخجلينى وان تشعرينى بالخزى والعار كما فعلت بدلك الابله ؟ يمينا لو استمررت فى تعذيبى ، وفى حملى على تمثيل هذه الادوار الحقيرة فى هده المسرحيـه الهزلية الدنيئة ، لانتيهيـن من الامر كله دفعة واحـدة . حسبى اننى وافقت على الخسة الأساسية ! ... اننى ارى الآن اننى لم أكن اعرف نفسى . وهأنذا أقول لك : ان هذه العفونة تخنقنى خنقا ! ...

وهنا خرجت صافقةً الباب ، فأتبعتهـا ماريا ألكسندروفنا نظرها ، وغرقت فى أفكارها . ثم هتفت تقول وهى تقرع الارض بقدمها : « يجب الاسراع ، يجب الاسراع ، ان زينا فتاة يخشى أمرها كثيرا ، انها هى الخطر الرئيسى ! واذا لم يدعنا جميع هؤلاء الأوغاد وشأننا ، اذا تدخلت المدينة كلها فيما لا يعنيها ، وهذا ما يغلب على ظنى ، فقد ضاع كل شىء . ذلك أن زينا لن تقبل احتمال الورطة ، وسترفض المضى فى الأمر الى آخره . يجب أخذ الأمير الى القرية بأية وسيلة ! سوف أسرع أنا الى القرية أولا ، فأهز المعتوه ، وأجىء به الى هنا . ان فى وسعه أن يكون نافعا فى شىء من الأشياء مرةً فى حياته ! حتى اذا استيقظ الآخر من نومه مضينا جميعا الى القرية ودبرنا الباقى ! » .

وسرعان ما قرعت الجرس ، فظهر الخادم فسألته :

ــ هل قرنتم الخيول ؟

فأجابها بقوله :

ــ منذ مدة طويلة ،

لقد أمرت ماريا ألكسندروفنا بالخيول منذ اللحظة التى صحبت فيها الامير الى الطابق الاعلى ،

وارتدت ثيابها ، ولكنها قبل أن تذهب ، دخلت الى غرفة ابنتها لتظهرها على الخطوط العريضة من القرار الذى اتخذته ، ولتزودها ببعض التعليمات التكميلية ، غير أن زينا لم تكن فى حالة تستطيع معها الاصغاء الى كلام أمها وا أسفاه ! كانت زينا راقدةً على سريرها ، دافنةً راسها فى وسادتها ، مجهشةً فى بكاء شديد ، داسةً ذراعيها البيضاوين حتى الكوعين فى شعرها الرائع تشده من فرط حزنها ، وكانت ترتعش بين الفينة والفينة كأنما من برد ، ارتعاشا يترجع فى جسمها كله ، ارتجلت ماريا ألكسندروفنا خطابا ، ولكن زينا لم ترفع رأسها ،

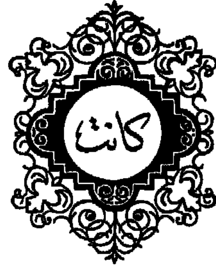
لبثت ماريا ألكسندروفنا متسمرة فى مكانها أمام ابنتها برهة من الوقت ، ثم خرجت من الغرفة قلقة أشد القلق ، ومن أجل أن تتدارك ما فاتها وأن تعوّض خسرانها ، ركبت العربة وأمرت بضرب الخيول بالسوط استعجالا لجريها ،

وحدّثت نفسها وهى فى العربة : « انه لشىء مزعج أن زينا أنصتت الى مادار بينى وبين موزجلياكوف من حديث، لقد أخضعت موزجلياكوف بنفس الحجج التى أخضعتها بها تقريبا ، فلا بد أن هذا جرح كبرياءها .. هِمْ ... المهم على كل حال أن ننجز الأمر بأى ثمن قبل أن تسرى

الشائعات وتروج الأقاويل ••• ولكن ماذا اذا لم يكن معتوهى هناك ؟ تلك هى الطامة الكبرى ! •••• » •

وحين خطرت ببالها هذه الفكرة بلغت من شدة الغيظ والغضب درجة لا تبشر بخير يصيب المسكين آناستازى ماتفئتش • ولقد وصل نفاد الصبر عند ماريا ألكسندروفنا الى حيث كانت ترتجف وهى جالسه فى مكانها من العربة ارتجافا شديدا • وكانت الخيول تعدو سريعه سريعة •

الفصل العاشر



كانت العربة تجرى اذن سريعة • وقد سبق أن قلنا ان فكرةً عبقريةً قد ومضت فى ذهن ماريا ألكسندروفنا فى الصباح ، بينما كانت ساعيةً تفتش عن الامير ؛ ووعدنا القارىء بأن نذكر له هذه الفكرة فى حينها وموضعها • فالقارىء يعرف الآن أن هذه الفكرة هى مصادرة الأمير ، واقتياده بأقصى سرعة ممكنة الى ذلك البيت الريفى الذى يعيش فيه صاحبنا الطيب آناستازى ماتفئتش حياة وادعة مريحة • ويجب ان لا نكتم القارىء أن ماريا ألكسندروفنا كانت تشعر بقلق لا يوصف يستولى عليها أكثر فاكثر • ذلك يحدث للأبطال الحقيقيين فى اللحظة التى يشارفون فيها على تحقيق الهدف وبلوغ الغاية • ان غريزة غامضة كانت تنبهها الى أن فى البقاء بموردا سوف خطرا خطيرا • ولقد حدثت نفسها بقولها وقد عزمت أمرها : « أنا أعلم أن المدينة سينقلب عاليها سافلها متى استقررنا فى العزبة ، ولكننى لا أبالى هذا ولا أعبأ به ولا أكترث له ! » • ثم ان الأمر ، حتى فى العزبة ، ليس أمر توقف أو ذهول أو راحة ، فليس على ماريا ألكسندروفنا متى استقرت فى القرية مع الأمير أن تهدأ عن العمل والنشاط ؛ فانما ينبغى توقع كل شىء ، كل شىء على الاطلاق ؛ ومع ذلك فنحن لا نحب أن نصدِّق الشائعات التى أذاعها أعداء بطلتنا الألداء عنها ، وهى أنها كانت فى تلك اللحظة خائفة حتى من الشرطة • صفوة القول أن ماريا ألكسندروفنا كانت تحس أن زواج

زينا بالأمير يجب أن يتم بأقصى سرعة ممكنه • وهي تملك لهذا وسائله واسبابه • فالزفاف يمكن أن يتم في بيتها نفسه على يد كاهن القرية ، في غداة غد ، بل وفي الغد اذا اقتضى الامر ذلك • وما أكثر الحالات التي انعقد فيها زواج في غضون ساعتين ! لسوف توهم الامير بانهذا الاسراع، بأن هذا الاستغناء عن اقامة حفلة الخطوبة انما توجبه الكياسة التي لا بد منها ، وسوف توقع في وهمه أن الأمور تكون بهده الطريفه اقرب الى اللياقة وأدنى الى الحشمة • ثم ان عليها أن ترتب الامور بحيث تضفى على ذلك طابعا رومانسيا ، فتمس بذلك وترآ حساسا في نفس الامير • وينبغي كذلك أن تحمله على الافراط في شرب الخمر ، أو قل أن تبقيه في حالة ثمل دائم وسكر مستمر • وليس يعنيها ما قد يحدث بعد ذلك ، ما دامت زينا ستصبح أميرة على كل حال • صحيح آنه لا مفر من الفضيحه ولا مناص من الجرسة ، وقد تصل الفضيحة والجرسة حتى الىبطرسبرج وموسكو ، حيث تقيم أسرة الأمير ؛ ولكن ماريا ألكسندروفنا لا تعدم بعض العزاء حتى في هذا • فالفضيحة ما تزال الى الآن في حيز الظن والتخمين ، أو ما تزال الى الآن خطرا لا يتعدى حدود الامكان • ذلك أولا • وأما ثانيا فلقد كانت ماريا ألكسندروفنا تعلم علم اليقين أن المجتمع الراقي لا يكاد يحدث فيه شيء بغير جرسه ، ولا سيما في شئون الزواج• فالفضائح في هـــذا المجتمع الراقي أمر مألوف ، بل انها لدليل على علو القيمة ورفعة المنزلة ؛ لقد كانت ماريا ألكسندروفنا ترى أن الجرســة في المجتمع الراقي لا بد أن تشتمل دائما على شيء من عظمة ، كما هو الحال في «مونت كريستو» أو في « مذكرات الشيطان » * • أضف الى ذلك أنه سوف يكفي أن تظهر زينا في المجتمع تحيط بها أمها وتدعمها وتسدد خطاها بالنصح حتى يذعن جميع أفراد المجتمع الراقي وحتى يخضعوا ويستكينوا • ما من واحدة من أولئك الكونتيسات أو الأميرات يشق على

ماريا ألكسندروفنا أن « تغسل لها دماغها » سواء على مرأى ومسمع من الناس ، أو فى خلوة لا يراها فيها أحد •

كانت أمثال هذه الاعتبارات خليقة بأن تحض ماريا ألكسندروفنا على مزيد من الاسراع فى الجـرى الى منزلهـا الريفى • انها الآن ساعية الى آناستازى الذى اصبح فى خطتها على حين فجأة امرءاً لا غنى عنه قط • ذلك أن اقتياد الامير الى القرية معناه أخذه الى آناستازى ماتفئتش الذى قد لا يكون الامير حريصا على معرفته البتـة • ولكن اذا قام آناسـتازى ماتفئتش نفســه بدعوة الأمير فسرعان ما سـتجرى الأمور عندئذ مجرى آخر • ثم ان مجىء الاب المحترم الوقور الى الامير ، من قرية بعيـدة ، حاملا قبعته بيـده ، مرتديا ثيابه الرسمية مع ربطـة العنق البيضاء ، لانه سمع بوصول الامير الى منزله بالمدينة ، لا بد أن يحدث فى نفس الامير أجمل الأثر بل ولا بد أن يرضى غروره • حـدثت ماريا ألكسندروفنا نفسها قائلة : « انه لمن الصعب أن يرفض الأمير دعوة سريعة ملحاحاً كهذه الدعوة ، انه لمن الصعب أن يرفض الامير دعوة تبلغ هذا المبلغ من شدة الاحتفال وعظمة الأبهة ! » •

فبعد أن قطعت العزبة ثلاثة فراسخ عدواً سريعا أوقف الحـوذى سوفرونى خيـوله عند مدخـل مبنى خشبى طويل تحف به أشـجار الزيزفون الوقور من كل جانب • ان البيت يتألف من طابق أرضى تنخره السوس وصبغه الدهـر بالسواد ، وله سلسلة طويلة من النـوافذ • انه المنزل الريفى والمقر الصيفى لماريا ألكسندروفنا • وكانت المصابيح قـد اشتعلت فيه منذ ذلك الوقت •

صرخت ماريا ألكسندروفنا تقول وهى تدخل الى الغرف دخـول الزوبعة :

ـ أين الأبله ؟ لماذا هذا الغسيل هنا ؟ آه ••• كان يغتسل ! كان

لا يزال في الحمام ! آه ••• انه يحتسي شايه ، كما يفعل دائما ! ••• لا داعي الى الحملقة ! ••• ما معنى هذا الشعر ؟ جريشا ، جريشا ! لماذا لم تقص شعر مولاك كما أمرتك في الاسبوع الماضي ؟

حين دخلت ماريا ألكسندروفنا المنزل كانت تتهيأ لمخاطبة آناستازي ماتفئتش بلهجة أرق • ولكنها حين اكتشفت أنه خارج من الحمام ، وانه يحسو شايه راضيا مغتبطا ، لم تملك أن تكبح جماح نفسها وأن تسيطر على استيائها وامتعاضها واستنكارها • فعلا : ما أكثر مشاغلها وهمومها ومتاعبها هي ، وما أعظم الدعة والراحة التي يتمتع بها هـذا التافه الذي لا يصلح لشيء ولا ينفع في شيء ، هذا العاجز آناستازي ماتفئتش ! ذلك تضاد من شأنه أن يدمي القلب حقا ! وفي أثناء ذلك كان الأبله ، أو قل بمزيد من الانصاف كان الشخص الذي يوصف بهذه الصفة ، جالساً أمام سماوره ، يشبه أن يتجمد دهشة من ظهور امرأته المفاجيء هـذا ، فهو ينظر اليها فاغر الفم محملق العينين • وفي حجرة المدخل كان يُرى وجه جريشا نعسان أخرق يطرف لهذا المشهد بكل ما أوتي من قوة • قال يدمدم بصوت أبح :

ـ لم يأذن لي سيدي بأن أقصّ له شعره • لم يرض أن أفعل • جئت اليه حاملا المقص عشر مرات على الأقل ، أقول له : « اذا وصلت مولاتي ، فسوف تقبض علينا كلينا ، فما عسانا نفعل عندئذ ؟ » ، فكان مولاي يجيبني بقوله : « لا ، فأنا أريد أن أجعّد شعري ليوم الأحد ، فيجب أن أحتفظ به طويلا مزيدا من الطول • • » •

ـ ماذا ؟ أهو يجعّد شعره ؟ اذن انت ما تزال تدبر أمرك بحيث تجعّد شعرك أثناء غيابي ؟ ما معنى هذا ؟ هه ••• ما أجمل الشعر المجعّد على رأسك الضخم ! ••• رباه ! ما هذه الفوضى ؟ وما هذه الرائحة ؟ انني أسألك أيها المسخ : ما هذه الرائحة التي أشمها ؟

كذلك صاحت الزوجة وقد ازداد غيظها وغضبها من الرجل البرىء آناستازى ماتفئتش •

بلغ الزوج من الرعب أنه لم يتحرك من مكانه ، وانما أدار عينيه الضارعتين نحو نصفه الجميل ، قائلا :

ـ صديقتى الطيبة ! صديقتى الطيبة !

فاجابته قائلة :

ـ كم مرة قلت لك أيها الحمار أننى لست صديقتك الطيبة ؟ كيف يمكن أن آكون الصديقه الطيبة لغبى من طرازك ؟ كيف تجرؤ أن تنادى بهذا سيدة نبيلة مكانها فى المجتمع الراقى لا بجانب جحش مثلك ؟

ـ نعم ، نعم ••• ولكن ••• يا ماريا ألكسندروفنا ••• أنت مع ذلك زوجتى شرعا ، لذلك أخاطبك مخاطبة الزوج زوجته •••

كذلك أراد أن يشرح آناستازى ماتفئتش وهو يرفع يديه الى رأسه كأنما ليحمى شعره •

صرخت ماريا ألكسندروفنا تقول :

ـ آه ••• يا للغبى السخيف ! يا للبغل ! هل يمكن أن يسمع الانسان جوابا أشد بلاهة من هذا الجواب ؟ اننى أتسا ل ماذا يريد أن يقول بهذا الكلام ! ما من أحد يستعمل مثل هذا التعبير فى المجتمع الراقى ! انه تعبير أحمق ، مضحك ، كريه ، خليق بتلاميذ المدارس الدينية : « زوجته شرعاً » ! ••• أنظروا ماذا يقول ! ••• كيف تجرؤ أن تذكرنى بأننى زوجتك وأنا أحاول أن أنسى ذلك من أعماق قلبى ؟ ولماذا تضع يديك هكذا على رأسك ؟ أنظروا الى هذا الشعر ! انه مبلل،

فلا بد من ثلاث ساعات حتى يجف ! فكيف آخذه الى المدينة ؟ يستحيل أن أظهره للناس وهو على هذه الحال ! ما عساى فاعلة ؟ ما عسى أصير اليه ؟

قالت ماريا ألكسندروفنا ذلك وأخذت تذرع الغرفة جيئة وذهابا وقد خرجت عن طورها وطفقت تحرك يديها باشارات الكرب والياس. والحق أن النازلة لم تكن كبيرة ، وكان يسهل تدارك الأمر واصلاح الحال . ولكن ماريا ألكسندروفنا ، وهى امرأة تعودت أن ترى كل شىء ينحنى أمامها ويخضع لارادتها ويذعن لمشيئتها، لم تستطع أن تسيطر على مزاجها الجامح وأن تروّض اندفاعها العنيف ! وكان آناستازى ماتفئتش بالنسبة اليها هو التربة الصالحة دائما لأن تصب عليها جام غضبها المستمر، لأن الاستبداد عادة تغدو مع الأيام حاجة ملحة . وكل انسان يعلم على كل حال أنواع التناقض وضروب التضاد التى تعتمل وراء الكواليس لدى سيدات هن فى مجتمع الناس من أرهف السيدات لطفاً وأكيسهن سلوكاً. وكان آناستازى ماتفئتش قد تخضب وجهه بحمرة شديدة أمام نظرات زوجته ، فهو يتابع كل حركة من حركاتها مضطربا مرتعشا فى قرارة نفسه .

وصرخت أخيرا تقول :

ـ جريشا ! ألبس مولاك فورا : ألبسه سروالا ورداء وصديرة وربطة عنق بيضاء ! أسرع ! أين فرشاة الشعر ؟ أين الفرشاة ؟ الفرشاة ! ...

ـ صديقتى الطيبة ، اننى خارج من الحمام ، ولسوف يصيبنى زكام اذا أنا ذهبت الى المدينة ...

ـ لن يصيبك زكام !

ـ ولكن شعرى مبلّل كثيرا •••

ـ سيجفف لك ! جريشـا ••• هات فرشـاة الشعر ، فلا تزل تجريها في شعره حتى يجف • بمزيد من القوة ! بمزيد من القوة ! نعم، هكذا ••• هيّا ابدأ !

انصاع جريشا المطواع لهذه الأوامر الصارمة فطفق يغرق شعر مولاه بكل ما اوتى من قوة ، ممسكا كتفه لتسهيل المهمة الموكوله اليه ، حتى لقد قلبه على الأريكة قلباً من قوة الشد• فكان آناستازى مقطب الوجه عابس النظرة يوشك الدمع أن يطفر من عينيه •

ـ والآن تعال الى هنا • امسك رأسه جيدا يا جريشا ! أين دهن الشعر ؟ هاته فورا ! هيا ••• انحنِ الى أمام يا من لا تصلح لشىء ! •••

وراحت ماريا ألكسندروفنا تدهن زوجها بنفسها ، وهى تشد ، بغير شفقة ولا رحمة ، شعره الكثيف الذى وخطه الشيب ولم يُجزّ • أطلق آناستازى ماتفئتش بضع آهات وأوهات ، ولكنه لم يصرخ ، وانما احتمل العملية احتمال رجل مذعن للأقدار •

وتابعت ماريا ألكسندروفنا كلامها تقول :

ـ مصصت دمى يا أيها الوبش الذى لا يصلح لشىء ! هيّا ••• انحنِ الى أمام مزيدا من الانحناء ••• ما لك لا تنحنى ؟ •••

تمتم الزوج شاكيا وهو يحنى رأسه أشدّ احناء ممكن :

ـ فيم مصصت دمك ؟

ـغبى ••• أبله ••• انه لا يفهم حتى التشابيه والاستعارات ••• انه لا يفهم حتى المجاز ••• والآن ، ها قد جف شعرك ! وأنت ، ألبسه ملابسه ••• أسرع ! •••

قالت بطلتنا هذا ، واستقرت على أحد المقاعد ، وتابعت بنظرة فاحصة حفلة الباس آناستازى ماتفئتش • واتسع وقت الرجل أثناء ذلك لالتقاط أنفاسه ، واسترداد رباطة جأشه ، فلما وصل الخادم من الباسه الى عقد ربطة عنقه بلغ من جرأته أنه أبدى رأيه في شكل الابزيمين وجمالهما ؛ حتى اذا أُلبس رداءه « الفراك » ، كان الزوج المحترم قد استرد من الثقة بنفسه ما جعله ينظر الى هندامه فى المراة شاعرا بغير قليل من الرضى والسرور • وها هو ذا يسأل زوجته وهو يصعِّر خديه أمام المرآة :

ـ الى أين تقودينني يا ماريا ألكسندروفنا ؟

فلم تصدق ماريا ألكسندروفنا أذنيها ، وصرخت تقول :

ـ هل تسمعون هذا السؤال ؟ انه يسمح لنفسه بان يسالنى الى أين أقوده ، هذا المهرِّج !

ـ ولكن هذا شيء يجب أن أعرفه يا صديقتى الطيبة •••

ـ اسكت ••• اذا ناديتنى مرة أخرى بقولك يا صديقتى الطيبة ، ولا سيما في المكان الذى سأقودك اليه ، فسوف ترى مغبة فعلتك ! لأحرمنَّك من الشاى عندئذ شهراً بكامله !

فلما سمع الزوج هذا التهديد ذعر وصمت •

وتابعت الزوجة كلامها وهى تتأمل رداء « الفراك » الجديد الذى يرتديه آناستازى ماتفئتش ، فقالت :

ـ تصوروا أن هذا الأبله لم يحصل حتى الآن على أى وسام ! أهذا معقول ؟

عندئذ خرج آناستازى ماتفئتش عن طوره فقال محتجاً وقد جُرح شعوره وأوذيت كرامته :

ـ يا صديقتي الطيبة ••• الأوسـمة انما تمنحهـا الحكومة ، وأنا مستشار في الدولة لا أبله •

ـ ماذا ؟ ماذا ؟ ماذا ؟ آه ••• كأنك انما تتعلم هنا الردّ على الكلام أيها المجتر القذر ، أيها الرائل الوسخ ! ولكن وقتي لا يتسع الان لتلطيخ كرامتي بملاسنتك ! لسـوف ترى فيما بعـد ! ناوله معطفه يا جريشا ! هيًّا ••• ناوله معطفه ••• بسرعة ! وهنا ، أثناء غيابي ، رتب الغـرف الثلاث ، ونظف الغرفة الخضراء أيضا ••• الغرفة التي في آخر البيت• وأسرع في ذلك ••• انزع غطاء المرآة ، وغطاء البندول أيضا • وافرغ من ذلك كله في غضـون ساعة ، ساعة واحـــدة لا أكثر ، هل تسـمع يا جريشا !

وركب الزوجان العربة • ولبث آناستازي ماتفئتش مذهولا لا يعرف ما يراد به • كانت ماريا ألكسندروفنا تفكر أثناء ذلك في الطريقة التي يجب أن تعمد اليها من أجل أن تدخل في دماغ زوجها بعض الأوامر اللازمة في الظرف الراهن ادخالا يجعلها مفهومة له واضحة في ذهنه • ولكن زوجها سـبقها الى الكلام • قال فجأة في وسـط هـذا الصمت المشترك :

ـ هـل تعلمين يا ماريا ألكسـندروفنا ؟ لقـد حلمت الليلة حلماً غريباً •

ـ اف ••• رأس من خشب ! هــذا ما يهمه بينما أنا مغـرقة في التفكير ! ما هذا الحلم الذي حلمت به أيضا ؟ كيف تجرؤ أن تكلمني عن أحلامك السخيفة البلهاء ! اسمع : انني أنذرك آخر انذار : اذا سمحت لنفسك اليوم ، في الدار ، مرة واحدة ، أن تجيء على ذكر أحـلامك ، أو على ذكر أي شيء آخر ••• فلأفعلن فيك الأفاعيل ••• والآن اصـغ

جيدا الى ما أريد أن أقوله لك : ان الأمير «ك» هو الآن فى بيتى ••• هل تتذكر الامير «ك» ؟

ـ أتذكره يا صديقتى الطيبة • ولماذا شرفنا بزيارته ؟

ـ اسكت ••• ليس هذا من شأنك ! وانما عليك أن تصطنع كل ما أنت قادر عليه من لطف وكياسة وذوق وأن تمثل دور رب الدار بدعوته الى السفر معك فورا الى أرضنا • ذلك ما جئت أصطحبك من أجله • يجب أن نرحل جميعا ، فى هذا اليوم نفسه ، الى القرية • فاذا سمحت لنفسك بعد ذلك بأن تفتح فمك بكلمة واحدة ، مرةً واحدة ، الليلة ، أو غدا ، أو بعد غد ، أو فى أية لحظة ، فلأجعلنك حارساً للأوز سنةً بكاملها ••• اياك أن تنطق بحرف ، اسكت ، وأحسن السكوت ! ذلك هو ما عليك أن تفعله • هل فهمت ؟

ـ فاذا سئلت عن شيء ؟

ـ اسكت أيضا !

ـ ولكن يستحيل على المرء أن يسكت دائما ياماريا ألكسندروفنا

ـ فليكن جوابك اذن بحرف واحد أو ببضعة أحرف ، كأن تقول : هِمْ ••• نعم ••• أو شيئا من هذا القبيل ••• أى ما لا بد منه لتظهر انك رجل ذكى ، وأنك تفكر قبل أن تجيب •

ـ هِمْ •••

ـ حاول أن تفهم عني أخيراً ••• أنت انما جئتَ لأنك سمعت بوصول الأمير ، فشرَّفك أن تهرع فورا لتقدم اليه تحيتك ولتعرب له عن احترامك ولترجوه أن يقبل دعوتك اياه الى عزبتك • هل فهمت ؟

ـ هِمْ •••

ـ ما بك الآن حاجة الى هذه الـ « همْ » يا غبى ••• وانما عليك الآن أن تجيبنى •

ـ حسن ••• يا صديقتي الطيبة ••• لأفعلن كل شيء على ماتحبين، ولكن لماذا يجب عليّ أن أدعو الأمير ؟

ـ لماذا ؟ لماذا ؟ هأنت ذا تعود الى التدخل فيما لا يعنيك • ما شأنك أنت وهذا ؟ وكيف تجرؤ أن تأذن لنفسك بالقاء هذا السؤال ؟

ـ انما أسألك هذا السؤال يا ماريا ألكسندروفنا لأنني ، اذا لم يكن من حقي أن أتكلم ، لا أستطيع أن أدعوه •

ـ سأتكلم نيابة عنك ••• لن يكون عليك الا أن تنحني ، هل فهمت ؟ تنحني ممسكا قبعتك بيدك ، فهمت ؟

ـ فهمت يا صديقتي الطيبة ماريا ألكسندروفنا •

ـ الأمير على جانب عظيم من الذكاء • فمهما يقل ، لك أو لغيرك ، فعليك أن تبتسم ابتسامة عذبة بريئة كابتسامة طفل ، هل فهمت ؟

ـ هِمْ •••

ـ عدنا الى « هِمْ » ؟ ••• لا داعي الى « هِمْ » هذه معي ، من فضلك ! أجب عن سؤالي بغير مداورة لا فائدة منها : هل فهمت أم أنت لم تفهم ؟

ـ فهمت يا ماريا ألكسندروفنا فهمت • كيف يمكنني أن أفعل غير ما فعلت ؟ انني أقول « هِمْ » لأتعلم الاجابة على نحو ما تريدين لي ان أجيب • غير أن هنالك شيئا ما يزال يقلقني يا صديقتي الطيبة • لقد أمرتني بأن أنظر وأبتسم حين يتكلم الأمير • فماذا أفعل اذا هو ألقى عليّ سؤالا ؟ •••

ـ حقا انك لمعتوه ! لقد سبق أن ذكرت لك مايجب عليك أن تفعله: اسكت وأجيب أنا نيابة عنك • ليس عليك الا أن تنظر وأن تبتسم •

دمدم آناستازى ماتفئتش قائلا :

ـ ولكنه سيحسبنى أخرس !

ـ يا للمصيبة ! لقد يظن فيك الأمير هذا الظن •• ولكن ••• لأن يحسبك أخرس خير من أن يعرف أنك أبله !

ـ هم ••• فماذا أفعل اذا ألقى علىّ آخرون بعض الأسئلة ؟

ـ لن يلقى عليك أحـــد سؤالا • سنكون وحـــدنا • فاذا اتفق ـ لا سمح الله ! ـ أن دخل علينا أحد ، فقال لك أى شيء أو ألقى عليك أى سؤال ، فليكن جوابك ابتسامة سخرية • هل تعرف ماهى ابتســامة السخرية ؟

ـ هى ابتسامة الفكاهة ، أليس كذلك يا صديقتى الطيبة ؟

ـ الفكاهة يا أحمق ؟ آه ••• من الذى ينتظر منك أن تكون فكها يا سخيف ؟ ابتسامة السخرية هى ابتسامة الاستهزاء ، هى ابتسامة التهكم والاحتقار ، هل فهمت ؟

ـ هم •••

قالت ماريا ألكسندروفنا تحدث نفسها على حدة : « يجب أن نخشى كل شيء من هذا الاهبل ! لا شك أنه أقسم ليمتصن كل دمى ! أحسب أننى كنت أحسن صنعا لو استغنيت عنه ! » •

وفيما كانت ماريا ألكسندروفنا تدير فى خاطرها هذه الأفكار قلقة النفس مهمومة البـــال ، كانت لا تنفك تخـرج رأسها من نافذة العربة وتصرخ مهيبةً بالحوذى أن يسرع مزيدا من الاسراع • كانت الخيــول

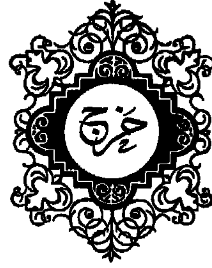
تمرق مروق الريح في حقيقة الامر ، ولكنها في نظر ماريا ألكسندروفنا تراوح في مكانها ولا تتقدم ! وكان آناستازي ماتفئتش يتمرن في ركنه بينه وبين نفسه ، على الدرس الذي أمرته زوجته بأن يحفظه • ووصلت العربة أخيرا الى المدينة ، ووقفت أمام منزل ماريا ألكسندروفنا • فما ان وثبت بطلتنا الى درج المدخل حتى لمحت المركبة الزلاجة التي تتسع لشخصين وتظللها خيمة ، وهي المركبة التي اعتادت آنا نيكولايفنا آن تركبها حين تخرج من منزلها ، أقول ما ان وثبت ماريا ألكسندروفنا الى درج المدخل حتى لمحت هذه المركبة قادمة الى دارها • كان في المركبة سيدتان • فأما الاولى فهي آنا نيكولايفنا طبعا ، وأما الثانية فهي ناتاليا دمتريفنا التي أصبحت منذ برهة وجيزة صديقتها الحميمة التي تتبعها في كل أمر والى كل مكان • شعرت ماريا ألكسندروفنا بانقباض في صدرها • ولكن وقتها لم يتسع لأكثر من اطلاق صيحة تعجب • فها هي ذي مركبة ثانية تتبع المركبة الأولى ، ولا شك أن فيها زائرة أخرى • وسرعان ما تعالت صيحات الفرح وصرخات البهجة :

ـ أماريا ألكسندروفنا مع آناستازي ماتفئتش؟ انهما هما ! ياللمصادفة السعيدة ! لقد جئنا نقضي السهرة عندكم ! هه ••• يا لها من مفاجأة ! ••

واجتازت الزائرات درج المدخل وهن يثرثرن كالببغاوات • لم تصدّق ماريا ألكسندروفنا لا عينيها ولا أذنيها •

قالت بينها وبين نفسها : « شيطان يأخذكن ••• الرائحة رائحة مؤامرة ••• كان ينبغي توقع ذلك! ولكن لستن من يغلبني ياغرباناً عوراً ! لسوف ترين ! ••• » •

الفصل الحادي عشر



موزجلياكوف من عند ماريا ألكسندروفنا وقد اطمأنت نفسه وهدأ باله . لقد غيَّرته ماريا ألكسندروفنا تغيرا كاملا . ولكنه لم يذهب الى بورودويف ، لأن حاجة الى الوحدة والعزلة قد ألمت به . ان سيلا جارفاً من الأحلام الرومانسية ، والأحلام البطولية، يحرمه من الراحة . انه يتخيل الموقف الرائع الذى سيقفه أمام زينا شارحا لها أمره معتذرا اليها عن خطئه ساكبا دموع الغفران الكريمة التى يطفح بها قلبه ؛ وانه يتخيل شحوب لونه وكمد نفسه فى حفلة الرقص الساطعة تلك التى سيحضرها ببطرسبرج ، ويتخيل اسبانيا ونهر الوادى الكبير ، والحب المتبادل بينه وبين زينا ، والأمير وهو يضم يده الى يدها ساعة احتضاره ؛ ويتخيل نفسه بعد ذلك بجانب زينا التى ستمحضه الحب الدائم والعبادة المستمرة جزاء بطولته وسمو نفسه وشهامة قلبه؛ ثم يتخيل زواجه بها وهى أرملة الامير «ك» ، ويتخيل ماقد يعود به عليه هذا الزواج من حظوة لدى كونتيسة أصيلة ومن دخول باهر الى المجتمع الراقى حيث لا يلبث أن ينال أنواع المساندة والدعم من أجل أن يصبح نائب حاكم وأن يجنى مبالغ طائلة . صفوة القول أن ما وصفته له ماريا ألكسندروفنا بفصاحتها تلك كلها يتخاطر الآن مرة أخرى فى فكره المستكين ، فيداعبه ويهز مشاعره ويتملق غروره . لكنه حين شبع من هذه النشوة ـ الحق

أننى لا أعرف كيف أشرح الأمر ـ حين شبع من هذه النشوة وافت ذهنه على حين بغتة فكرة تبعث فى القلب أشد الحزن ؛ قال يحدث نفسه : ذلك كله جميل ••• ولكنه يقوم على الظن والتخمين ، فلا يمكن الركون اليه والتعويل عليه ، ولا ينفى أنه ، هو موزجلياكوف ، قد تم التـآمر عليـه فسُلب الفتاة التى يحبها ، وأُبعد عنها ، وحرم منها • وحين وافته هذه الفكرة ، لاحظ أنه كان قد تاه بعيدا جدا فى ضاحية مجهولة من ضواحى مورداسوف • وكان ضوء النهار يغيب • وأخذ موزجلياكوف يسمع نباح الكلاب الشرسة فى كل مكان على طول الشوارع التى تحف بها بيـوت حقيرة متداعية ، وهى تلك الكلاب التى يكثر عددها كثرة رهيبة فى مدن الأقاليم ، ولا سيما فى الأحياء التى ليس فيها شىء يستحق أن يحـرس وليس فيها شىء يستحق أن يؤخذ • وكان يهطل ثلج مبلل • ومن حين الى حين ، يصادف موزجلياكوف عاملا متأخرا عن موعد أوبته الى منزله ، أو امرأة من نساء الشعب تنتعل حذاءين طويلين وتتدثر بجلد من جلود الخراف • ذلك كله قد انتهى أخيرا باحناق بافل ألكسندروفتش ، يعلم الله لماذا ••• وكان هذا علامة شر ونذير سوء ، لأن الأشياء فى غير هذه الحالة ، حين تجرى الأمور مجرى حسنا ، انما تكتسى فى نظرنا مظهرا جميلا ممتعا • وتذكر بافل ألكسندروفتش بالرغم منه أنه كان حتى هذه اللحظة فى مدينة مورداسوف سيداً مرموقا ؛ وكان يبهجه كثيرا أن يسمع الناس ، حيثما ذهب ، يغبطونه ويهنئونه على أنه شاب تتمنى الآنسات أن تتزوجه ، حتى لقد كان يتغطرف من سماع مثل هذا الكلام • وها هو ذا الآن سيبدو فى نظر الجميع على حين فجأة خطيبا مرفوضا منبوذا ، وسيكون أضحوكة الملأ كافه • ولن يصدق أحد أقواله ، فلا بد أن يحتفظ لنفسه دون غيره برؤاه وأحلامه التى تصـــوَّر له نهر الوادى الـكبير ، وقاعة حفـــلات الرقص ذات الأعمدة فى مدينـة بطرسبرج العظيمـة ! فكان

موزجلياكوف يزداد انزعاجا وهماً وغماً كلما أمعن فى التفكير • ثم اذا هو يتلبث آخيرا على هــذه الفكرة التى كانت تقرص قلبه منــذ زمن ، متسائلا : «أهذا كله صحيح ؟ هل ستُرتب الأمور كلها على نحو ما ادعت ماريا ألكسندروفنا ؟ » • وهنا تذكر أن ماريا ألكسندروفنا امرأة تتصف بأنها ماكرة مكرا شديدا ، وأنها رغم ما تنعم به من تقـــدير الناس كافه لا تنفك تراكم الاكاذيب فوق الأكاذيب والنمـــائم فوق النمائم ، نهارها كله • فلماذا لا يكون هنالك فى هذه اللحظة دواعٍ شخصية تحضها على ابعاده عن منزلها ؟ ألم تُشتهر بأنها أستاذة قديرة فى فن الكلام المزوّق والوصف البارع ؟ وفكّر موزجلياكوف أيضا فى زينا ، فتراءت له مرة أخرى نظرة الوداع الأخـير التى ألقتها عليه ، وهى أبعـد ما تكون عن النظرة التى تعبّر عن حب مكظوم أو هوى مكبوح • وتذكر أنهـا قـد طردته منذ ساعة شر طردة كما يُطرد أغبى الأغبياء • فلما خطرت بباله هذه الذكرى تجمد فى مكانه فجأة، وقد احمر وجهه ودمعت عيناه خجلا وعارا • واختلط فى ذهنه كل شىء • ثم شاء سوء الحظ فى الدقيقة التالية أن يتعثر فى خطوه وأن تزل به قدمه فاذا هو يثب وثبة مشئومة من على الرصيف الخشبى الى كومة من الثلج ، واذا هو حين أراد أن ينهض وأن ينفض عنه الثلج يرى الكلاب التى كانت حتى ذلك الحين تلاحقــه بنباحها تنقض عليه الآن من كل جانب ؛ واذا أصغر هذه الكلاب ، وهــو أوقحها وأشرسها ، يتشبث بأذياله وينشب كلاليبه فى فرائه• فلما استطاع أن يتخلص من هذا الكلب وهو يندب حظه ويلعن قدره بصوت عال ، كان أحد أذياله قد تمزق ، وكانت نفسه تفيض حزنا وكمدا ، ووصــل أخيرا الى طرف شارع من الشوارع ، وعندئذ انما أدرك مدى ما بلغه من ضلال وتيه فى طريقه • وأنتم تعلمون أن الانسان الذى يضل طريقه ، ولا سـيما فى حى ليس له فيــه أى نقطة يستهديها فى سراه ، لايتوصل

أبدا الى اتباع شارع من الشوارع رأسا ، فهو ما ينفك ، من دقيقه الى دقيقه ، يوغل في طريق ضيق أو في ممر عرضاني ، فكان حتما على بافل ألكسندروفتش أن يتوه بهذا الأسلوب توهاً كاملا لا مخرج منه . وها هو ذا يقول لنفسه وهو يبصق على الارض احتقارا : « شيطان يأخذ هذه الافكار الكبرى كلها ! شيطان ياخذك أنت وعواطفك العظيمة، ونهر الوادى الكبير فوق ذلك ! ... » . ولست أزعم أن هيئة موزجلياكوف كانت في تلك اللحظة هيئة فاتح منتصر . واخيرا ، بعد ساعتين من سير مضن ، وجد موزجلياكوف نفسه على عتبة منزل ماريا ألكسندروفنا وقد تجلد جسمه من شدة البرد . فما كان أشد دهشته حين رأى عربات عدة مرابطة هنالك . تساءل موزجلياكوف : « اهى سهرة ومدعوون ؟ فما هي الغاية من السهرة اذن ؟ » . وسال عن ذلك خادما كان عائدا الى المنزل فعلم أن ماريا ألكسندروفنا كانت قد ذهبت الى العزبة لتحضر آناستازى ماتفئتش بربطة عنق بيضاء ، وأن الأمير قد استيقظ من نومه ولكنه لمّا ينزل الى الصالون بعد . فتسلل بافل ألكسندروفتش الى عمه في الطابق الأول دون أن يقول لأحد شيئا . كانت حالته النفسية في تلك اللحظة حالة انسان ضعيف الارادة سيطرت عليه الرغبة في الانتقام ، واستبد به حب الثأر ، فهو لا يستطيع أن يفكر مزيدا من التفكير في العواقب التي تترتب على العمل الدنيء الذى سيقارفه ، ولا في مخاطر ندمه طول حياته على ما جنت يداه .

وجد الأمير مستقرا على مقعد أمام حقيبة سفره عارى الجمجمة تماما ، ولكنه قد وضع شاربيه ولحيتي عارضيه ؛ وكانت طاقية شعر رأسه في يدى خادم عجوز أشيب هو ايفان باخومشتس ، كان يجرى فيها فرشاة الشعر وقد بدا في وجهه الهم والاحترام معا . أما الامير فانه لمّا يصح صحوا كاملا بعد سكره ، فمنظره منظر يبعث على الشفقة حقاه وهاهو ذا

ينظر الى دخول موزجلياكوف دون أن يبدو عليه أنه تعرفه ، جالسا على مقعده ، متخدد الوجه ، طارف العينين ، فارغ الرأس .

سأله موزجلياكوف قائلا :

ـ كيف حالك يا عمى ؟

فتمتم الشيخ أخيرا يقول :

ـ آ ... أهذا أنت ؟ هل تعلم يا صديقى ؟ لقد نمت لحظة .

ثم صرخ على حين فجأة يقول بصوت منتعش قوى :

ـ آه ... يا رب ! ... لم أضع طاقية شعرى ! ...

ـ لا تقلق ياعمى ! سوف ... سوف أساعدك فى وضعها اذا شئت .

ـ ولكنك اكتشفت سرى ! مع أننى أمرت باغلاق الباب بالمفتاح ! يا صديقى ، عليك أن تقطع لى على نفسك عهد الشرف بأن لا تذكر لأحد أن شعرى مستعار .

ـ طبعا يا عمى ! أفتظننى أرتضى لنفسى أن أفعل فعلا مشينا كهذا ؟

كذلك صاح يقول موزجلياكوف ، راغبا فى استمالة الشيخ اليه من أجل ما كان يريد أن يحاوله بعد ذلك .

قال الشيخ :

ـ طبعا طبعا ... واضح أنك رجل شريف . لذلك سوف أدهشك فأفضى اليك بسرى كله . قل لى يا عزيزى : ما رأيك فى شاربىَّ ؟

ـ هما رائعتان يا عمى ، رائعتان ! كيف فعلت حتى احتفظت بهما على هذه الصورة مدة طويلة هذا الطول كله ؟

ـ الحق يا صديقي أنهما مستعاران مصنوعان •

بهذا اعترف الامير وهو يلقى على بافل ألكسندروفتش نظرة انتصار. فأجابه هذا بقوله :

ـ مستحيل ! لا أكاد أصدق ! ولحيتا عارضيك اذن ؟ أأنت تصبغهما يا عمى ؟

ـ أصبغهما ؟ هه ••• لا يا صديقى ••• هما مصنوعتان أيضا !

ـ مصنوعتان ؟ لا يا عمى ! لا تبالغ ! لست أصدّق حرفاً من هذا الكلام ! أتضحك علىّ ؟

صاح الشيخ يقول وقد تهلل وجهه وانبسطت أساريره :

ـ أقسم لك بشرفى يا صديقى ! وتصور أن جميع الناس يُخدعون فى أمرهما ، جميع الناس بغير استثناء ! حتى ستيبانيد ماتفئفنا لا تصدق أنهما مصنوعتان ، رغم أنها هى التى تضعهما لى فى بعض الأحيان• ولكننى أعتمد عليك يا صديقى فى كتمان هـذا السر • احلف لى بشرفك أنك ستكتم السر •

ـ أحلف بشرفى أننى سأكتم السر يا عمى ؟ أفتظننى أرتضى لنفسى أن أقارف فعلا مشينا كهذا الفعل ؟

ـ آه يا صديقى ! ما أكبر الوقعة التى وقعتها اليوم فى غيابك ! لقد قلبنى تيوفيل مرة أخرى •

ـ مرة أخرى ؟ متى يا عمى ؟

ـ بينما كنا ذاهبين الى الدير ؟

ـ أعرف يا عمى ، فى هذا الصباح •

ـ لا ، لا ، لا فى هذا الصباح ! بل منذ ساعتين فى أكثر تقدير ! كنت ذاهبا الى الدير ، وكان تيوفيل يقود العربة ، فقلبها ••• وقد بلغت من شدة الخوف أن قلبى ما يزال يخفق خفقانا شديدا •••

قال موزجلياكوف مدهوشا :

ـ ما هذا الكلام يا عمى ؟ لقد كنتَ نائما •••

ـ طبعا طبعا ••• لقـــد نمت ••• ثم ركبت العربة ••• على كل حال •• من الجائز جدا •• آه •• شيء غريب !

ـ أؤكد لك يا عمى أنك رأيت هذا فى الحلم ، فأنت قد استرحت هادئا منذ تناولت الغداء •

ـ أهذا ممكن ؟

كذلك سأل الامير ، ثم أخذ يفكر •

ثم قال أخيرا :

ـ طبعا ••• من الجائز جدا أننى حلمت • فى أول الأمر رأيت ثورا رهيبا ذا قرنين كبيرين مقبلا علىّ ، ثم رأيت وكيل نيابة ذا قـرنين أيضا ، فيما يخيل الىّ •••

ـ لا شك فى أنه نيكولا فاسيلفتش يا عمى !

ـ طبعا طبعا • جائز جدا • وبعد ذلك رأيت نابوليون بونا •• برت ••• هل تعرف لماذا يا صديقى ؟ ان جميع الناس يرون أن وجهى يشبه من الأمام وجه نابليون بونابرت ، وأنه من الجانب صورة وجه بابا قديم • فما رأيك أنت يا صديقى ؟ هل ترى أن لى رأس بابا من بابوات الكنيسة؟

ـ أحسب أنك أشبه بنابوليون بونابرت يا عمى !

ـ طبعا طبعا ، من الأمام ! أنا أيضا متأكد من ذلك • لقد رأيته اذن في جزيرته ، ولا تستطيع أن تتخيل مدى ما كان عليه من مرح وثرثرة• لقد أضحكني كثيرا •

ـ أعن نابوليون تتكلم يا عمى ؟

كذلك سأل بافل ألكسندروفتش ، وهو ينظر الى الشيخ مفكرا • قد أخذت تتجسم فى ذهنه فكرة غريبة ، فكرة لمَّا يستطع حتى الآن أن يتبين كل قيمتها •

أجاب الشيخ قائلا :

ـ طبعا طبعا ، عن نابوليون • وقد أخذنا نتحدث فى الفلسفة فلا نتوقف عن الحديث • هل تعلم يا صديقى ؟ اننى آسف أشد الأسف على القسوة التى عامله بها ••• الانجليز • صحيح أنه لو لم يكبل بالأغلال، لهجم على الناس من جديد • انه رجل مسعور حقا • ولكننى أرثى له مع ذلك • لو كنت فى محل أعدائه لما أنزلت به هذا العقاب ، وانما اكتفيت بسجنه فى جزيرة خالية •••

سأل موزجلياكوف وكان لا يصـــغى الى كلام الشــيخ الا بأذن واحدة :

ـ لماذا خالية ؟

فأجاب الشيخ قائلا :

ـ لا خالية تماما •• وانما يسكنها أناس عقلاء فحسب ••• ولكنت هيأت له جميع أسباب التسلية على نفقة الدولة : مسرح ، موسيقى ، باليه• ولكنت سمحت له بأن يتنزه ••• مع حرس طبعا ••• والا هرب • ولقد كان يحب نوعا خاصا من الفطائر الصغيرة حبا كثيرا• لذلك فاننى لو كنت

فى مكان خصومه لأطعمته منها كل يوم ••• ولكنت أعامله معاملة ابن•• ولكان ندم عندى على ما فعل !•••

كان موزجلياكوف يقضم أظافره وهو يستمع لثرثرة الشيخ الطيب الذى يشبه أن يكون نائما • وكان يتمنى لو يدير الحديث على مشروع الزواج الذى انعقدت عليه النية • ان غضبا رهيبا يغلى فى نفسه دون أن يعرف كثيرا لماذا يغلى فى نفسه هذا الغضب الرهيب • وفجأة أطلق الشيخ صرخة دهشة ، وقال :

ـ آ ••• كدت أنسى أن أذكر لك أننى فى هذا اليوم قد تقـدمت بطلب زواج •

فسأله موزجلياكوف منتعشا :

ـ طلب زواج يا عمى ؟

ـ طبعـا طبعـا ، طلب زواج • هــل انتهيت يا باخومتش ؟ أنت منصرف ؟ طيب ، طيب • هى فتاة رائعة يا صديقى ••• ولكن •• يجب أن أعترف لك يا عـزيزى أننى تصرفت تصرفا طائشا بعض الطيش • الآن انما أدرك ذلك • آه ••• يا رب !

ـ عمى ، اسمح لى أن ألقى عليك هذا السؤال: متى تقدمت بعرض الزواج هذا ؟

ـ الحق أننى يا صديقى لا أدرى • لعل هذا أيضا كان فى الحلم ! ••• أمر غريب مع ذلك ! •••

ارتعش موزجلياكوف من شدة الفرح • ان فكرة جديدة كانت قد ومضت فى ذهنه بسرعة البرق •

قال وقد نفد صبره :

ـ الى من تقدمت بطلب الزواج هذا يا عمى ، ومتى تمّ ذلك ؟

ـ الى الفتاة التى فى هذا المنزل يا صديقى ••• الى تلك الفتـــاة الجميلة ••• نسيت اسمها على كل حال • ولكننى أعترف لك يا صديقى بأننى لست فى حالة تمكننى من احتمال زواج • فماذا علىّ أن أفعل ؟

ـ نعم ، صحيح ، لتخسرن نفسك اذا أنت تزوجت • ولكن اسمح لى بسؤال آخـــر يا عمى : أأنت واثق كل الثقــة من أنك تقدمت بطلب الزواج هذا ؟

ـ طبعا طبعا ، أنا واثق كل الثقة •

ـ فاذا لم يكن هذا الا حلماً كالحلم الذى رأيته فى شأن انقــلاب العربة بك ؟

ـ آه ••• يا رب ! ••• على كل حال ••• جائز جدا أن يكون هذا حلما كذلك • فماذا يجب علىّ أن أفعل حين ننزل الى تحت ؟ اسمع يا صديقى : يجب أن نجد حيلة تثبت لنا بوسيلة أو بأخرى أننى تقدمت بطلب الزواج أو أننى لم أتقدم به • لا تستطيع أن تتصور مدى حيرتى وارتباكى الآن •

ـ هل تعــلم يا عمى ؟ مهما أفكر فى الأمر ، فاننى لا أحسب أن علينا أن نحاول الاستطلاع •

ـ كيف ؟

ـ أنا على يقين من أن الأمر كان حلما رأيته فيما يراه النــائم من أحلام •

ـ أنا أيضا أظن ذلك يا صديقى العــــزيز ، لا سـيما وأننى كثيرا ما أرى أحلاما من هذا القبيل •

ـ أرأيت يا عمى ؟ ولاحظ أنك شربت قليلا أثناء الافطار ، ثم أثناء الغداء ، وأن •••

ـ طبعا طبعا يا صديقى ، هو كذلك ، هو كذلك •••

ـ أضف الى هذا يا عمى أنك ما كان لك أن تتقدم بطلب يبلغ هذا المبلغ من ••• قلة التبصر ، حتى ولو كنت في غير حالتك الطبيعية• ذلك أنك يا عمى ، اذا صدقت معرفتى بك ، رجل على جانب عظيم من الروية والأناة ، و •••

ـ طبعا طبعا !

ـ تخيل شيئا واحدا : تخيل ما قد يحدث اذا علم بهذا الطلب أقرباؤك الذين يبيتون لك منذ الآن ما يبيتون من سيء النيات ••• تخيل ما عسى أن يقع عندئذ ! •••

صرخ الأمير مذعورا يقول :

ـ آه ••• يا رب ! طبعا ما عسى أن يقع ؟ •••

ـ لسوف يهتفون بصوت واحد أنك انما فعلت ذلك لأنك فقدت عقلت ، لسوف يهتفون بصوت واحد أنك مجنون ، وأن من الواجب أن يحجر عليك ، وأنك قد ضُلِّلت وغُرِّر بك ؛ وليس هناك أدنى شك فى أنهم سيحبسونك عندئذ ليراقبوك من كثب !

لقد عرف موزجلياكوف كيف يبث الهلع والجزع والرعب فى نفس الشيخ المسكين • فصاح الامير قائلا وهو يرتجف كورقة فى مهب الريح :

ـ آه ••• رباه ! أيحبسوننى اذن ؟

فقال موزجالياكوف :

ـ لذلك أسألك يا عمى أن تحكم بنفسك : هل يعقل أن تكون قد تقدمت بطلب الزواج الا فى الحلم ؟ انك تعرف العواقب الوخيمة التى تترتب على مثل هذا الطلب حق المعرفة • وانى لأؤكد لك جازما ان ذلك كله كان حلماً أثناء النوم •

ـ حتما ••• كان ذلك كله حلما أثناء النوم ••• آه ••• ما أصدق ادراكك للأشياء يا عزيزى ! اننى شاكر لك من أعماق قلبى أنك أرجعت الأمور الى نصابها ، ووضعتها فى موضعها !

ـ وأنا سعيد جدا يا عمى بأننى لقيتك الآن • والا كان من الممكن فعلا أن تتعذب بتوهم أنك قد خطبت الفتاة ، وبنزولك اليهم بهذه الصفة، صفة الخطيب ••• هه ! •• هل تتصور الورطة التى كنت ستقع فيها يا عمى ؟

ـ طبعا طبعا ، ورطة•• ورطة ••

ـ ولاحظ أن هذه الفتاة قد بلغت الثالثة والعشرين من عمرها منذ الآن ولم يخطبها أحد ؟ ثم اذا بك أنت الغنى النبيل تخيّل اليهم أنك خطبتها ! لا شك أنهم سيتلقفون الكرة عندئذ فيؤكدون لك أنك خطيب ابنتهم فعلا ، وسيزوجونك اياها قسرا ••• صدقنى اذا قلت لك ان هذا هو ما كان سيقع ! ثم لا يبقى عليهم بعد ذلك الا أن ينتظروا موتك !

ـ هكذا ؟

ـ ولاحظ أخيرا يا عمى أن رجلا فى مثل قيمتك ومنزلتك •••

ـ طبعا طبعا ، فى مثل قيمتى ومنزلتى •••

ـ وفى مثل ذكائك وثقافتك وأدبك •••

ـ طبعا طبعا ، فى مثل ذكائى وثقافتى وأدبى ••• طبعا طبعا •••

ـ وأنت أخيرا أمير ••• أفيمكن أن تختار لنفسك زوجة كهذه

الفتاة اذا كنت فى حاجة الى الزواج حقا ؟ ألا فكرت فيما عسى أن يقوله أقرباؤك ؟

ـ آه يا صديقى ••• لسوف يلتهموننى التهاما ان فعلت ! لقد سبق أن جربت ما هم قادرون عليه من جرأه وشر وخبث ودناءة ! تصور أننى أشتبه فى أنهم ينوون أن يحبسونى فى مستشفى للمجانين ••• فقل لى يا صديقى : هل يمكن أن يصدق المرء أمرا كهذا ؟ ما عسى أن أصبح اذا حُبست ••• فى دار مجانين ؟

ـ لذلك لن أبتعد عنك قيد أنملة حين تنزل يا عمى • وهناك زوار تحت !

ـ زوار ؟ آه ••• يا رب ! •••

ـ لا تخف يا عمى ! سأظل بجانبك •

ـ آه ••• ما أعظم شكرى لك وامتنانى منك يا عزيزى ! أنت منقذى وكفى ! ولكن هل تعلم ؟ ان من الأفضل أن أسافر •••

ـ غدا يا عمى ، غدا فى الصباح ، منذ الساعة السابعة • أما هذا المساء فتعلن عن سفرك أمام الجميع ، وتودّع •

ـ سأسافر حتما • سأذهب الى الأب •• ولكن ، ياصديقى ، ماذا لو حاولوا هناك ، تحت ، أن يزوجونى قسراً واكراها رغم ارادتى ؟

ـ لا تخش شيئا يا عمى ! سأكون بجانبك • ثم ان عليك ، مهما يقولوا من كلام ، ومهما يسوقوا من اشارات ، أن تردد أنك رأيت ذلك كله فى الحلم ••• كما هى الحقيقة فعلا !

ـ طبعا طبعا ، فى الحلم ••• ومع ذلك ، هل تعلم يا صديقى ؟ لقد

كان الحلم رائعا مثيرا . ان لها جمالا مذهلا ... وان لها أشـــكالا ... أشكالا ...

ـ هيا .. الى اللقاء يا عمى .. سأنزل أنا الآن ، أما أنت ...

صاح الامير مذعورا :

ـ ماذا ؟ أتتركني وحدى ؟

ـ لا يا عمى ، بل تنزل واحدا بعد آخر . أنزل أنا أولا ، ثم تنزل أنت . ذلك أفضل .

ـ طيب ، طيب . ثم ان هناك فكرة هامة يجب أن أدوّنها قبل أن أنزل .

ـ هو كذلك يا عمى . دوّن فكرتك ، ثم انزل بلا ابطاء . أنت تعلم أنك فى صباح غد ...

ـ فى صباح غد ، عند الأب ميسائيل ... بلا ابطاء ... عند الأب ميسائيل ... رائع ! رائع ! آه ... ليتك تعلم يا صديقى ! ان لها جمالا نا ... د ... را ! وأشكالا ... أشكالا ... لو كان علىّ أن أتزوج لتزوجتها بلا ابطاء ، فالى هذه الدرجة أنا ...

ـ حماك الله يا عمى !

ـ طبعا طبعا ، حمانى الله ! ... هيّا ... الى اللقاء بعـــد قليـــل يا صديقى العزيز جدا ... لن أزيد على تدوين فكرة . بالمناسبة ، كنت أريد منذ زمن طويل أن أسألك هذا الســـؤال : هل قرأت « مذكرات كازانوفا » * ؟

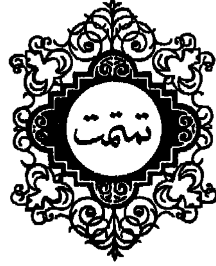
ـ طبعا قرأتها . ولكن لماذا تسألني هذا السؤال ؟

ـ طيب طيب ... نسيت ما كنت أريد أن أقوله ...

ـ ستتذكره فيما بعد يا عمي . الى اللقاء !

ـ الى اللقاء يا صديقي ، الى اللقاء . كان حلما رائعا مع ذلك ، حلما را .. ئعا ! ...

الفصل الثاني عشر



آنا نيكولايفنا تقول وهى تدخل :

ـ جئنا اليك جميعا ! وستجيء براسكوفيا ايلنتشنا أيضا ، وقد تجيء لويزا كارلوفنا كذلك .

ان آنا نيكولايفنا سيدة قصيرة ظريفة الشكل تظن فى نفسها أنها لا سبيل الى مقاومتها . وهى ترتدى ثيابا غنية ولكن زاهية . فلما دخلت الصالون فتشت بنظرها جميع أركانه ليقينها من أن الامير مختبىء فيه مع زينا .

وأضافت ناتاليا دمتريفنا :

ـ وستجيء كاترينا بتروفنا ، وقد وعدت فيلساتى ميخائيلوفنا بأن تجيء أيضا .

ان ناتاليا دمتريفنا هي السيدة التى فتنت أشكالُها الامير فتنة عظيمة. انها امرأة طويلة ضخمة يمكن أن تُجعل جنديا من خيرة الجنود . وقد وضعت على نقرتها قبعة صغيرة وردية اللون تثير أكبر الدهشة . لقد أصبحت الصديقة الحميمة لآنا نيكولايفنا منذ ثلاثة أسابيع بعد أن توددت اليها زمنا طويلا ، فأصبحت الآن ترافق فى كل مكان تلك الانسانة الصغيرة التى يمكنها فى الظاهر أن تبلعها من القدم الى الرأس لقمة واحدة .

قالت ماريا ألكسندروفنا وقد فاءت من انفعالها الأول :

ـ لن أقول شيئا عن فرحي العظيم برؤيتكما معـــا في بيتي ، هذا المساء خاصة • ولكن قولا لى ، أرجوكما ، بأية معجزة أراكما الليلة هنا مع أنني يئست من الحصول على هذا الشرف منذ زمن طويل ؟

فأجابت ناتاليا دمتريفنا محتجة بصوت يتعمل اللطف والحلاوة :

ـ ما هذا الذى تقولين يا ماريا ألكسندروفنا ؟ •••

قالت ذلك متغنجة خجـلى محمرة ، فكان هـــذا يتعارض تعارضا مضحكا أشد الاضحاك مع مظهرها وقامتها •

واستأنفت آنا نيكولايفنا كلامها تقول بصوت ما يزال يتمتم تمتمة :

ـ ولكن يا عزيزتي الفاتنة ، كان لا بد لنا من الانتهاء من وضـــع برنامجنا لاخراج الحفلة التمثيلية التي نزمع اقامتها • ففي هذا اليوم نفسه قال بطرس ميخائيلوفتش لكالستي ستانسلافتش انه غاضب غضبا شديدا من انه لا شيء يجـــرى قُدُماً ، واننا لا نصـــلح لشيء غـير التشاجر والتخاصم • لذلك بعـــد أن اجتمعنا نحن الأربع عـزمنا أمرنا قائلين : « فلنذهب الى ماريا ألكسندروفنا ، ولنحل القضية دفعة واحدة» • وتولت ناتاليا دمتريفنا ابلاغ الأخريات ، فسيجئن جميعا ، فنتناقش فيصبح كل شيء على ما نحب ، فلا يستطيع هؤلاء السادة بعد ذلك أن يدعوا أننـــا لا نصلح لشيء غير التشاجر والتخاصم ••• أليس كذلك يا ملاكي (هذا ما أضافته بلهجة فرحة وهي تقبل ماريا ألكسندروفنا) • آه ••• يا الهي! زينائيد آنا ناسيفنا ، ما أكثر ما تزدادين جمالا وسناء ، يوما بعد يوم !•••

كذلك قالت آنا نيكولايفنا وارتمت على زينا تعانقها •

قالت ناتاليا دمتريفنا بلهجتها المتغنجة وهي تفرك يديها العريضتين عرض مضربين :

ـ نعم ، لا يمكن الا أن تزداد حسنا وجمالا •

حدثت ماريا ألكسندروفنا نفسها قائلة : « شيطان يأخذهن ! الحفلة التمثيلية ؟ ••• هذا « مقلب » مبيت ! يا للغربان العور ! ••• » •

وتابعت آنا نيكولايفنا كلامها قائلة :

ـ لا سيما ، يا ملاكى ، وأن عندك ذلك الامير العزيز• أنت تعرفين يا عزيزتى أن قد كان فى دوخانوف دائمـــا مسرح يرثه الأبنـــاء عن الآباء • وقد استطلعنا فعرفنا أن هذا المسرح يضم بعض اللواحق ، فهناك ستارة قديمة ، وديكورات شتى ، وملابس كثيرة مصفوفة فى ركن ما • وقد مرّ الأمير بمنزلى هذا الصباح ، ولكننى بلغت من الدهشة لرؤيته أننى فاتنى أن أحدّثه فى هذا الأمر • وانما جئنا الآن خصيصا لنسأله عن هذا الموضوع ، ولا شك أنك ستساعديننا ، فيرسل الامير أحدا ليأتينا بهــذه الأشياء القديمة من دوخانوف • وهل فى هذه المدينة أحد يمكن أن نتجه اليه طالبين امدادنا بأى ديكور ؟ فانما المهم أن نجعـــل الامير يهتم بحفلتنـــا التمثيلية • ويجب أن نحمله على التبرع مهما كلف الامر • فأنت تعلمين أن ريع الحفلة للفقراء • وقد يقبل أن يمثل معنا دورا من الأدوار • انه لطيف جدا ، مطاوع جدا • فلا شك أن الامور ستجرى سريعة على عجلات •

قالت ناتاليـا دمتريفنا تؤيد قول صـاحبتها ، بلهجـة مثقـلة بمعان مضمرة :

ـ سيقبل أن يمثل دورا ، من غير شك • سيقبل أن يمثـــل أى دور ! •••

لم تبالغ آنا نيكولايفنا • فان سيدات أخريات ما تنفك تصـــل من

دقيقة الى دقيقة ؛ وماريا ألكســندروفنا ما تنفك تهب الى لقائهن مطلقــة صيحات الفرح التي لا بد منها في مثل هذه الحالة • فكانت كل واحــدة منهن تبارى الأخرى فى حسن التلطف والذوق والأدب •

لا أريد أن أصف جميع الزائرات • وحسبى أن أقول انها هيئاتهن جميعا كانت أقرب الى التعبير عن الســـخرية • وكان المرء يلاحظ فى وجوههن نوعا من الارتجاف العصبى الذى يدل على نفاد الصبر • ان بعضهن ، وقد جئن خصيصا على نيه محددة هى أن يشهدن فضيحة فذة ، كان يمكن أن يزعجهن أشد الازعاج أن يعدن أدراجهن دون أن يرين شيئا مما كن يمنين أنفسهن برؤيته • ولئن لم تتخلَّ واحدة منهن عن اصطناع المبالغة فى التـــودد والتلطف فى الظـاهر ، فلقـد كانت ماريا ألكسندروفنا تشعر شعورا يقينيا بقرب نشـوب المعـركة • ان الزائرات يطرحن عليها أسئلة عن الأمير تبدو فى ظاهرها طبيعية ، ولكنها تخفى فى باطنها غمزا ملتويا• وقدمت الشاى• واستقرت السيدات فى أماكنهن• وهذه جماعة منهن تتحلق حول البيانو • ودعيت زينا الى العزف والغناء، ولكنها أجابت فى جفاف وخشونة بأنها مريضة • ان شحوب وجهها يبلغ من الدلالة على مرضها أن السيدات أخذن يرثين لها ، ولكنهن انتهزن هـــذه الفرصة ليلقين غمـزات لا تخلو من بعض الوضوح • وســألن عن موزجلياكوف موجِّـهات أسئلتهن الى زينا • وكانت ماريا ألكسندروفنا تلاحظ كل ما يجرى فى أركان الغرفة الأربعة بانتباه شديد • ورغم أن عدد الزائرات بلغ اثنتى عشرة سيدة، فقد كانت ماريا ألكسندروفنا تجيب عن أسئلة كل واحدة منهن بلا كلال ولا تخاذل • وكانت ترتجف خوفا على زينا ؛ وأدهشها أن زينا لم تخرج من الغرفة ، على عادتها فى استقبالات أمها • وقد لوحظ أيضا وجود آناستازى ماتفئتش ، فكانت السيدات تحب أن تتهكم عليه رغبة منهن فى لسع امرأته • كان وجوده فرصة مواتيــة

لاحراج هذا الرجل الطيب الذى هو أبسط من أن يستطيع الدفاع عن نفسه • فكانت ماريا ألكسندروفنا تنظر بغير قليل من القلق الى الموقف الذى يُحمل زوجها على وقوفه ، وهو موقف الرجل المحاصر من كل جانب ؛ وكان الرجل مرتبكا أشد الارتباك ، وكان لا يزيد على الاجابة عن الأسئلة التى توجهها السيدات اليه بقوله « هِم » ، فكان فى هـذا كله من الشؤم ما هو خليق باثارة غضب ماريا ألكسندروفنا الى حد الحنق الشديد المسعور •

صرخت تقول سيدة قصيرة جريئة ثاقبة النظرة لا تخشى أحدا ولا يبث الاضطراب فى نفسها شىء :

ـ ماريا ألكسنندروفنا ، ان آناستازى ماتفئتش يرفض أن يكلمناء فأصدرى اليه أمرك بأن يكون أرقّ من ذلك فى معاملة السيدات !

فأجابت ماريا ألكسندروفنا تقول مبتسمة الثغر متهللة الوجه وهى تقطع حديثها مع آنا نيكولايفنا وناتاليا دمتريفنا :

ـ لا أدرى ماذا أصابه اليوم ! لا أدرى لماذا هو اليوم صموت الى هذا الحد ! لم أستطع أن أحمله على أن يقول كلمة واحدة ! لماذا لاتجيب فليساتى ميخائيلوفنا يا آناستازى ؟ ماذا سألته ؟

قال الرجل المسكين يدافع عن نفسه مروّعاً :

ـ ولكن •• ولكن •• يا صديقتى الطيبة ، أنت التى •••

كان فى تلك اللحظة قائما ، قد جعل ظهره للمدفأة، وصالب ذراعيه على صديرته فى وضـــع تزيينى ، وتهيأ لتذوق شايه • وكانت أسـئلة السيدات قد بلغت من احراجه أن وجهه احمر احمرارا شديدا كوجه فتاة • فلما حاول أن يشرح سبب صـمته التقى بصره بنظـرة زوجته ،

فرأى ما كان في هذه النظرة من حنق ، فكاد يسقط مغشيا عليه • واذ لم يعرف ماذا يعمل ولا كيف يتصرف ، واذ أراد أن يسترد رصانته ووقاره واعتباره ، رشف رشفة من شايه ، ولكن الشاي كان لا يزال يغلي ، فحرق الرجل حلقه حرقا شديدا ، فترك الفنجان يسقط من يده ، واختنق ، وأخذ يسعل سعالا بلغ من القوة أنه اضطر الى ترك الصالون ، فاضطرب الحضور من ذلك اضطرابا قويا • صفوة القول أن الأمور كانت واضحه • لقد أدركت ماريا ألكسندروفنا أن زائراتها ، وهن على علم بكل شيء ، لم يجتمعن عندها الا وهن يبيتن نيات سيئة • هذا ظرف من احرج الظروف وادقها • ان في وسعهن أن يحملن زوجها على الاسراف في الكلام دون أن يكون لها حيلة في منعه • ثم ان هذه السيدات قد يفسدن الأمور بينها وبين الأمير ، حتى لقد يجررنه الى مكان آخر أثناء هذه السهرة نفسها • نعم ، ان عليها أن تتوقع كل شيء • ولكن القدر كان يخبيء لماريا ألكسندروفنا امتحانا جديدا : فها هو ذا الباب يُفتح ، وها هو ذا موزجلياكوف يدخل الصالون وكانت تظن أنه عند بورودويف ولم تكن تنتظر أن تراه البتة • ارتجفت ماريا ألكسندروفنا كأن شيئا قد لسعها • ووقف موزجلياكوف في العتبة وتفرس وجوه السيدات بشيء من الحيرة والاضطراب • ولم يقدر أن ينتصر على الانفعال الذي كان يُقرأ واضحا في وجهه •

صرخت أصوات تقول :

ــ آ ••• يا رب ! بافل ألكسندروفتش !

ــ آه ••• يا رب ! هو بافل ألكسندروفتش حقا ! ••• فما ذلك الكلام الذي قلته لنا اذن يا ماريا ألكسندروفنا ؟ أما يجب عليه أن يكون عند بورودويف ؟ لقد قيل لنا انك مختبيء عند بورودويف يا بافل ألكسندروفتش •

ذلك ما هتفت به ناتاليا دمتريفنا بصوت حاد كأنه النباح • فأجاب موزجلياكوف يقول بابتسامة متصنعة :

ـ مختبيء ؟ يا لها من فكرة ! عفوك يا ناتاليا دمتريفنا • أنا لا أختبيء عند أحد ، ولا أنوى قط أن أفعل (أضاف بافل بافلوفتش ذلك وهو يلقى على ماريا ألكسندروفتش نظرة ذات دلالة) •

ارتعشت ماريا ألكسندروفنا مزيدا من الارتعاش • وحدثت نفسها قائلة وهى تنعم النظر فى الشاب : « أليس من الجائز أن يكون هذا الأبله قد عصى وتمرد ؟ اذا كان ذلك كذلك فهى الطامة الكبرى والبلاء الأعظم ! » •

ـ بافل ألكسندروفتش ، أصحيح أنك استقلت ••• من الوظيفة طبعا ؟

كذلك سألته فليساتى ميخائيلوفنا الوقحة وهى تغرس فى قرارة عينيه نظرة ساخرة •

ـ استقلت ؟ أنا استقلت ؟ أبدا ••• وانما انتقلت من وزارة الى وزارة أخرى • لقد وجدت وظيفة فى بطرسبرج •

بهذا أجاب موزجلياكوف فى جفاف وخشونة •

فتابعت فليساتى ميخائيلوفنا كلامها تقول :

ـ ها ••• طيب ••• أهنئك اذن • لقد جزعنا أشد الجزع حين علمنا أنك تنوى الاستقرار فى مورداسوف ! ان الوظائف هنا لا مستقبل لها يا بافل ألكسندروفتش ، وسرعان ما تطير !

صاحت ناتاليا دمتريفنا تقول :

ـ بل الوظائف هنا كثيرة ! ان وظائف مدرسٍ فى مدرسة المديرية ما تزال شاغرة •

هذه غمزة واضحة قوية عنيفه ، تبلغ من الوضوح والقوة والعنف أن آنا نيكولايفنا اضطرت أن تدوس خفية على قدم صديقتها التى أسرفت فى دس السم فى كلامها •

وماءت فليساتى ميخائيلوفنا قائلة :

ـ أتحسبين أن بافل ألكسندروفتش يمكن أن يرضى بوظيفة مدرس صغير ؟

ولم يجد بافل ألكسندروفتش مايجيب به على هذا الكلام• واستدار فاصطدم بآناستازى ماتفئتش فمد اليه هذا يده يريد أن يصافحه • ولكن موزجلياكوف ، بدلا من أن يصافح اليد الممدودة اليه ، انحنى انحناءً قويا حتى صار نصفين ، متكلفا الاحترام الساخر والتعظيم المستهزىء • وكان قد بلغ من الحنق أنه مضى رأسا الى زينا ، فتفرس فى عينيها ودمدم يقول :

ـ أنت أردت هذا كله • انتظرى ! لأرينَّك فى هذا المساء نفسه هل أنا غبى أبله !

قال موزجلياكوف ذلك وأسرع يتقهقر مذعورا من رنة صوته العالية •

وعزمت ماريا ألكسندروفنا أمرها أخيرا فسألته :

ـ أأنت عائد من عند بورودويف ؟

ـ بل من عند عمى •

ـ من عند عمك ؟ أكنت اذن مع الأمير ؟

قالت ناتاليا دمتريفنا وهى تنظر الى ماريا ألكسندروفنا متغنجة :

ـ فالأمير اذن مستيقظ وقد قيل لنا انه نائم ؟ •••

فأجاب موزجلياكوف :

ـ لا تقلقى على الأمير يا ناتاليا دمتريفنا ! لقد صحا من نومه الآن ؛ وأحمد الله على أنه استرد عقله كاملا • لقد سُقى خمرا طول النهار : عندك أولا ، ثم هنا للاجهاز عليه ، فبلغ من السكر أنه فقد رشده ، وما هو بالراشد كثيرا حتى قبل أن يسكر • غير أن حديثا طويلا جرى بينى وبينه الآن ، فعاد يفكر تفكيرا سليما من حسن الحظ • وسينزل بعد هنيهة ليحييك يا ماريا ألكسندروفنا وليشكر لك حسن الوفادة وكرم الضيافة • وغدا نسافر معا منذ الفجر الى الدير ، ثم أنقله من هناك بنفسى الى دوخانوف لأجنّبه وقعةً أخرى كوقعة هذا الصباح • وهناك أسلّمه يداً بيد ان جازَ التعبير ، فان ستيبانيد ماتفئفنا لا بد أن يكون قد عادت الآن من موسكو ، ولن تدع له أن يسافر بعد الآن مهما يكن العذر • ذلك أمر أضمنه منذ الآن •

كان موزجلياكوف ، وهو يقول هذا الكلام ، يرشق ماريا ألكسندروفنا بنظرة عداوة ، فكانت ماريا ألكسندروفنا تبدو متجمدة من فرط الذهول • يجب أن أعترف ، وأنا أشعر بشىء من المرارة ، أن بطلتنا قد ألم بها جزع وهلع ، ربما لأول مرة فى حياتها •

سألت ناتاليا دمتريفنا ، مخاطبةً ماريا ألكسندروفنا :

ـ اذن يسافر غدا ، في الفجر ؟

وأضافت آنا نيكولايفنا تقول وهى تتصنع البراءة والسذاجة :

ـ كيف يمكن هذا ؟

ورددت عدة زائرات تقول بسذاجة :

ـ كيف يمكن هذا ؟ لقد سمعنا أن الامير ... حقا ... ذلك أمر لا يتصوره العقل !

لم تعرف ربة الدار بماذا تجيب . ولكن انتباه الحضور جميعا لم يلبث أن استيقظ فجأة على نحو غريب لم يكن فى الحسبان . لقد سمعت ضجة عجيبة تقوم فى الغرفة المجاورة ، وأعقبت الضجة صرخات حادة ، ثم ظهرت صوفيا بتروفنا كاربوخينا بغتةً فى الصالون . ان الناس فى مورداسوف يعدون صوفيا بتروفنا أشذّ سيدات المدينة قطعا ؛ وكان شذوذها من نوع جعل سيدات المدينة يقررن منذ زمن طويل أن ينقطعن عن استقبالها فى بيوتهن . ويجب أن نذكر هنا أن هذه السيدة كانت فى كل مساء ، عند الساعة السابعة تماما ، تتناول وجبه خفيفة ، تحاشيا لمغص فى معدتها كما تقول ؛ فمتى تناولت هذه الوجبة الخفيفة أصبحت فى حالة نفسية « طلقة » ، حتى لا أقول أكثر من ذلك ... وفى هذه الحالة النفسية بعينها انما كانت حين هرعت مسرعة الى منزل ماريا ألكسندروفنا.

صاحت تقول بصوت مجلجل يُسمع من أول الغرفة الى آخرها :

ـ آ ... أهكذا أنت اذن يا ماريا ألكسندروفنا ؟ أهكذا تعاملينني اذن ؟ لا تخافى ! لن أمكث الا دقيقة واحدة . لا ، لا أحب أن أجلس قط . وانما جئت لأعلم هل صحيح ما يقال ! ألا انه اذن لصحيح ! آه.. هى فى منزلك سهرة خطوبة ... ترقصون وتولمون وتفرحون ، بينما صوفيا بتروفنا فى منزلها تحيك ! دُعيت المدينة كلها الى الحفلة الا أنا ، لقد وصفتنى بأننى صديقتك العزيزة و « ملاكك » الغالى حين جئت أنبئك بما يدبرونه للأمير عند ناتاليا دمتريفنا ؛ ثم ها هى ذى ناتاليا دمتريفنا نفسها التى كنت تقولين فى حقها وكانت تقول فى حقك ما يوجب أكثر

من الشنق ، ها هى ذى نفسـها تزورك الآن ! لا تقلقى علىّ يا ناتاليـا دمتريفنا ! لست فى حاجة الى شكولاتتك ، « ماركة الصـحة » ، التى يباع القضيب منها بقرش ! ... ثقى أننى أشرب منها فى بيتى أكثر مما تشربين ! ...

قالت ناتاليا دمتريفنا :

ـ حقا ، هذا واضح !

وصرخت ماريا ألكسندروفنا تقول وقد احمرت من الغيظ :

ـ ماذا دهاك يا صوفيا بتروفنا ؟ هلاّ ثبت الى صوابك على الأقل ؟

ـ وأنت أيضا لا تقلقى علىّ يا ماريا ألكسندروفنا ! أنا أعرف كل شىء ، كل شىء ... علمت بكل شىء . (كذلك صرخت صوفيا بتروفنا تقول بصوتها الحاد الثاقب ؛ وقد طربت الزائرات لهذا المشهد فتحلقن حولها) . نعم ، علمت بكل شىء ! جاءتنى صاحبتك آناستازى مسرعةً فقصت علىّ الحكاية . اصطدت هذا الأمير الذى يساوى أربعة قروش ، فما زلت تسقينه الخمر وتسكرينه حتى حملته على خطبة ابنتك التى كانت ستبور . نعم ، وتتصورين أنك ستصبحين أنت نفسك شخصية مرموقة عالية المقام رفيعة المنزلة ، أنك ستصبحين دوقة تتزين بفاخر الثياب وجميل الحلى ! هه ... لا تجزعى ... أنا لا يهمنى أن أصبح دوقة أنا ! ... أنا كولونيلة ! واذا لم أُدع الى حفلة الخطوبة ، فلست أعبأ بهـذا ولا أكترث له . لقد عاشرت أناسا أوسع منك ثراء وأعلى مقاما ! تعشيت عند الكونتيسة زاليخفاتسكى ، وأراد المفوض كوروتشكين أن يتزوجنى . أفأنتظر بعد هذا دعواتك القذرة ! هه ...

أجابتها ماريا ألكسندروفنا وقد خرجت عن طورها :

ـ صوفيا بتروفنا ! لا تفتحي باب منزل محترم حين تكونين « في مثل هذه الحالة » • واذا لم تريحيني من حضورك ومن كلامك فورا ، فسأجدني مضطرة لاتخاذ بعض الاجراءات •

ـ أعرف • ستأمرين خدمك باقتيادي ؟ لذلك أعود فأقول لك : لا تزعجي نفسك ، سأجد الباب وحدي بغير دليل يرشدني اليه • زوّجي ابنتك لمن تشائين ! أما أنت يا ناتاليا دمتريفنا ، فلا حاجة بك الى هذه السخرية كلها• انني لا أعبأ بشكولاتتك ! أنا لا أصلح لأن أُدعى الى هنا، ولكنني لا أرقص رقص القوازق لأسليّ الأمراء واسريّ عنهم • وأنت يا آنا نيكولايفنا ، ممّ تضحكين ؟ لقد كسرت ساق سوشيلوف منذ هنيهة ، فأعيد الى منزله • وأنت يا فليساتي ميخائليوفنا ، اذا لم تأمري صاحبتك ماتريوشكا بأن تطرد بقرتك التي تجيء تجأر تحت نوافذي كل يوم ، فلأكسرنّ ساقي هذه « الحفيانة » ! الى اللقاء يا ماريا ألكسندروفنا ، أتمنى لك كثيرا من السعادة ! هه •••

وغابت صوفيا بتروفنا • وانفجرت السيدات ضاحكات • وأصبحت ماريا ألكسندروفنا لا تدرى أين تغور !

سألت ناتاليا دمتريفنا بصوت يتصنع الرقة :

ـ لا شك أنها سكرى ، أليس كذلك ؟

ـ هذه وقاحة رغم كل شيء !

ـ يا لها من امرأة كريهة !

ـ ما أقل كياستها !

ـ ولكن لماذا تكلمت عن خطوبة ؟ أية خطوبة تعنى ؟

كذلك سألت فلستيا ميخائيلوفنا مستهزئة •

صاحت ماريا ألكسندروفنا تقول وقد نفد صبرها وانفجرت آخر الأمر :

ـ ألا انه لشيء كريه جدا ! ان نساء ممسوخات من هذا النوع هن اللواتى يسكبن بالقـــواديس هذا القـــدر كله من الشائعات البلهاء ! لا يا فليساتى ميخائيلوفنا ! لا غرابة فى أن نقع على سيدات من هـــذا النوع فى مجتمعنا ! وانما الغرابة فى أن هناك أناساً هم فى حاجة الى هاته السيدات ، والى الاستماع لهن ، والى دعمهن ، والى تصديقهن ...

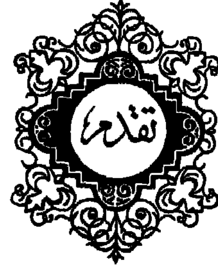
صرخت الزائرات فجأة تقول :

ـ الأمير ! الأمير !

ـ آه ... يا الهى ! الحمد لله ! سوف نعرف الحكاية الطريفة كلها الآن .

بهذا وشوشت فليساتى ميخائيلوفنا جارتها .

الفصل الثالث عشر



الأمير مبتسماً في تلطف وتودد . ان كل الخوف الذى زرعه موزجلياكوف منذ ربع ساعة فى نفسه الهلعة كدجاجة قد اختفى عند رؤية السيدات ؟ فسرعان ماتميع كالمربب الذى يذوب فى الفم ذوبانا . وقد استقبلته السيدات بصرخات فرح حادة ؟ وأخذن يتملقن صاحبنا الشيخ القصير بغير انقطاع ، ويعاملنه بألفة بالغة وبغير كلفة أو تحرج. ان شخصيته تسليهن كثيراء وكانت فليساتى ميخائيلوفنا قد أكدت فى صباح ذلك اليوم نفسه ـ على سبيل المزاح طبعا ـ أنها مستعدة أن تقعد على ركبتيه اذا كان ذلك يمكن أن يسره وأن يبهجه .. نعم انها مستعدة أن تقعد على ركبتى « هذا الشيخ القصير اللطيف ، اللطيف الى حد لا يصدقه العقل ! » . وهذه ماريا ألكسندروفنا ، التى تحضنه بعينها ، تحاول أن تقرأ فى وجهه وأن تدرك من نظراته مخرجا من الموقف الحرج الذى كانت فيه . كان واضحا أن موزجلياكوف قد قارف منذ قليل شراً رهيبا وأن القضية كلها ستترنح على قواعدها ترنحا قوياً حتى لتوشك أن تتداعى . ولكن لم يكن من الممكن أن يُقرأ شيء فى وجه الأمير الذى كان فى تلك اللحظة على ما كان عليه من قبل ، على ما كان عليه دائما .

صاحت سيدات تقول :

ـ آه ••• يا الهى ! هذا هو الأمير ! كنا ننتظرك ، كنا ننتظرك !

وأضافت أخريات :

ـ بفارغ صبر يا أمير ، بفارغ صبر !

فقال الأمير متغنجا وهو يجلس الى المائدة التى كان يغلىعليها سماور الشاى :

ـ هذا يسرنى كثيرا •

وسرعان ما أحاطت به السيدات وتحلقن حوله ، فلم يبق بجانب ماريا ألكسندروفنا الا آنا نيكولايفنا وناتاليا دمتريفنا •

وكان آناستازى ماتفئتش يبتسم باحترام • وكان موزجلياكوف يبتسم هو أيضا ، ويحدق بنظرة وقحة الى زينا التى كانت قد جلست قرب أبيها أمام المدفأة ، دون أن تنتبه أى انتباه الى مكر موزجلياكوف •

صأت فليساتى ميخائليوفنا شاكية تقول :

ـ آه يا أمير ! هل صحيح أنك تريد أن تبارحنا ؟

ـ طبعا طبعا يا سيداتى ، أنا مسافر • أريد أن أسافر الى الخارج فو •• را •••

صاح كورس السيدات كله قائلا :

ـ الى الخارج يا أمير ؟ الى الخارج ؟ لماذا ؟

فردد الأمير يقول متلطفا :

ـ نعم الى الخارج ؟ أريد أن أذهب الى الخارج لاستمد أفكارا جديدة •

قالت السيدات وهى تتبادل النظرات :

ـ أفكارا جديدة ؟ فى أى أمر ؟ فى أى موضوع ؟

ـ طبعا طبعا ... أفكارا جديدة ... كل الناس يسافرون الآن الى الخارج لهذا الغرض وبهذه النية . هذا هو السبب فى أننى أريد أن أسافر أنا أيضا .

قال موزجلياكوف الذى كان يحرص على أن يظهر ما يملك من روح الفكاهة وحضور البديهة أمام الجنس اللطيف :

ـ لا أحسب مع ذلك أنك ستنتمى الى الماسونية يا عمى !

فأجابه الامير اجابة لم تكن متوقعة . قال :

ـ طبعا طبعا يا صديقى ، ما أنت بمخطىء . لقد سبق فعلا أن انتميت فى الخارج الى جمعية ماسونية ، فجنيت من ذلك كثيرا من الأفكار الكريهة. وأردت عندئذ أن أعمل بقوة فى سبيل الافكار الجديدة. ففى فرنكفورت مثلا أردت أن أعتق خادمى سيدور الذى كنت قد اصطحبته . فما كان أشد دهشتى حين هرب من تلقاء نفسه ! كان سيدور رجلا غريب الأطوار حقا ! وهأنذا ألقاه فى باريس بعد سنة من ذلك : ما كان أثقل دمه ! كان بلحيتين فى العارضين، وكان يذرع الجادة الكبرى مصطحبا « مدموزيلا » ، وكانت المدموزيل قد غاض ماء الحياء فى عينها ، صدقنى ! آه ... يا لها من وغدة ! يا لها من وبشة !

صرخ موزجلياكوف يقول وهو يقهقه قهقهة مجلجلة :

ـ عليك اذن فى هذه المرة يا عمى أن تعتق جميع أقنانك قبل سفرك الى الخارج !

فقال الأمير دون أن يلاحظ فى كلام موزجلياكوف أى تخابث :

ـ طبعا يا عزيزى ! لقد حزرت عين الحقيقة ! أريد أن أعتقهم جميعا !

صرخت فليساتى ميخائيلوفنا تقول :

ـ اسمح لى يا أمير : انهم سيهربون فورا ، فمن ذا الذى يدفع لك عندئذ ريع أراضيك ؟

قالت آنا نيكولايفنا قلقة :

ـ لا شك أنهم سيهربون جميعا .

فصرخ الأمير يقول مدهوشا :

ـ آه ... يا رب ! هل يمكن أن يهربوا جميعا ؟

فألحت ناتاليا دمتريفنا قائلة :

ـ يهربون جميعا وتبقى وحيدا .

قال الأمير :

ـ لن أعتقهم اذن ! على أن ما قلته لم يكن الا كلاما ...

فقال موزجلياكوف بدوره :

ـ ذلك أفضل يا عمى !

حتى تلك اللحظة ، كانت ماريا ألكسندروفنا تصغى الى الحديث وتراقب الجمع دون أن تقول شيئا . وخيِّل اليها أن الأمير قد نسيها نسيانا تاما ، وأن هذا النسيان غير طبيعى . فبدأت تقول بصوت عال وهيئة وقورة :

ـ ائذن لى يا أمير أن أقدم اليك زوجى آناستازى ماتفئتش . لقد جاء من العزبة خصيصا منذ علم بأنك شرفت منزلى بحضورك .

تغطرف أناستازى ماتفئتش كأنما قد كيل له مديح ، وابتسم واتخذ وضعا نبيلا •

قال الأمير :

ـ تشرفت • آناســـتازى ماتفئتش ! تذكرت ••• تذكـرت ••• آناستازى ماتفئتش ! طبعا طبعا ، هو الذى يقيم فى العزبة • جميـل ••• جميل ! ••• تشرفت •

ثم هتف الأمير يقول مخاطبا موزجلياكوف :

ـ هل تتذكر يا صديقى ؟ ذلك يتفق تماما مع الجملة المقفاة المأثورة التى كنت أفتش عنها منذ قليل • كيف كانت الجملة ؟ « الزوج على الباب والزوجة ••• » طبعــا طبعــا ••• « ذهب الزوج الى المدينة ، فأسرعت الزوجة تذهب الى مكان آخر ••• » •

قالت فليساتى مؤيدة :

ـ هو كذلك يا أمير : « عاد الزوج من رحلته ، فلم يجد امرأته فى بيته » • كان ذلك فى المسرحية الهـزلية التى مثلناها هنا فى العـام الماضى •

ـ طبعا طبعا ! صحيح ! لقد نسيت الجملة ! جميل •• جميل ! •• اذن هذه حالكما أنتما ! تشرفت كثيرا بمعرفتك ••• كيف صحتك ؟

قال الأمير ذلك دون أن يتحـــرك عن مقعـده وهو يمـد يده الى آناستازيا ماتفئتش المبتسم •

ـ هيمْ •••

ـ صحته جيدة جدا ، جيدة جدا •

كذلك أسرعت تجيب ماريا ألكسندروفنا .

قال الأمير :

ـ طبعا طبعا ! واضح أن صحته جيدة . اذن أنت تقيم دائما فى العزبة ؟ تشرفت ... تشرفت ... ما أجمل خديه الحمراوين ! وما أحسن ابتسامة !

انحنى آناستازى ماتفئتش المبتسم ، حتى لقد قرع كعبيه أحدهما بالآخر . ولكنه اضطرب عند سماع الملاحظة الأخيرة التى عبّر عنها الأمير ، فلم يعرف ماذا يجب عليه أن يعمل ، ثم اذا هو ينطلق فىضحكة بلهاء لا محل لها ولا داعى اليها . وانطلق الجميع يقهقهون معه ، فكانت السيدات توعوع من شدة الفرح .

تخضب وجه زينا بحمرة شديدة ، وقدحت عيناها شررا ، ونظرت الى أمها التى كانت من جهتها تغلى حنقا . لقد آن أوان صرف الحديث عن هذا الاتجاه .

سألت ماريا ألكسندروفنا الأمير بصوت مكظوم وهى ترشق آناستازى ماتفئتش بنظرة مهددة متوعّدة ، فسرعان ما يعود الزوج يقبع فى مكانه .

ـ هل نعمت بقيلولة طيبة يا أمير ؟

فأجابها الأمير :

ـ آ ... طبعا طبعا ، نعمت براحة عظيمة ، وحلمت حلما رائعا ، نعم ... رائعا ! ...

هتفت فليساتى ميخائيلوفنا تسأله :

ـ ها ... حلمت ؟ اننى أحب سماع رواية الأحلام حبا شديدا .

وأضافت ناتاليا دمتريفنا :

ـ وأنا أيضا ، أحب سماع رواية الأحلام •

فردد الأمير يقول وهو يبتسم ابتسامة شرهة :

ـ حلم رائع ! ••• را •• ئع ! ولكن ذلك سر كبير ! •••

فقالت آنا نيكولايفنا بصوت هامس :

ـ ألن تقول لنا شيئا عن هـذا الحلم اذن يا أمير ؟ لا بد أن يكون حلما رائعا حقا !

فقال الامير وقد أبهجه فضول السيدات :

ـ هو سر كبير !

فصرخت السيدات قائلات :

ـ لا بد أن يكون سماعه شائقا مثيرا •

وهتفت فليساتى ميخائيلوفنا :

ـ أراهن أن الامير رأى نفسه فى المنام يغازل فتاة جميلة ، ويركع أمامها • هيَّا يا أمير ! اعترف بأن هذا ما حلمت به !

فقال الامير أخيرا :

ـ طبعا طبعا ••• فرغم أن الحلم الذى رأيته سرٌ من الأسرار يجب أن أعترف لك يا سيدتى بأنك كدت تحزرين •

فقالت فليساتى ميخائيلوفنا متحمسة :

ـ لا بد أن أحزر طبعا • وانما عليك الآن أن تقول لنا يا أمير : من هى تلك الحسناء الفاتنة التى رأيتها فى حلمك ؟

ـ اعترف فورا !

ـ أهي موجودة بيننا ؟

ـ اعترف أيها الامير العزيز !

ـ اعترف أيها الامير اللطيف . انك تقتلنا قتلا ! هيا اعترف ! ...

كذلك تعالت الهتافات من كل حدب وصوب .

قال الأمير وقد رقّ قلبه :

ـ سيداتى ، سيداتى ، اذا كنتن تحرصن هـذا الحرص على أن أذكر لكن بعض الايضاحات فاننى لا أستطيع مع ذلك أن أقول لكن الا شيئا واحدا هو أنها بين الفتيات أجملهن جمالا وأكملهن كمالا .

قال الامير ذلك متئدا فى الكلام ، متأنيا فى النطق .

ـ أجملهن جمالا ؟ ... وهى من هنا ... فمن عساها تكون ؟

كذلك سألت السيدات وهن ما زلن يتبادلن نظرات ذات معنى .

قالت ناتاليا دمتريفنا ، وهى تفـرك راحتيها الضـخمتين الحمراوين وتسدد نحو زينا نظرة ناعمة :

ـ لا بد أن تكون هى الفتاة التى تُعدُّ هنا أجمل فتيات المدينة .

قالت فليساتى ميخائيلوفنا وهى تلف الحضور بنظرة بليغة الدلالة زاخرة بالمعانى :

ـ فاذا كنت قد حلمت حلما جميلا هذا الجمال كله يا أمير ، فلماذا لا تتزوج وقد استيقظت ؟

فصاحت سائر السيدات :

ـ آه ... ما أكثر ما سيسعدنا أن نراك متزوجا ! ...

وتعالى الصياح من كل جانب :

ـ هلاّ تزوجت اذن يا أميرنا العزيز !

قال الامير في مثل رجع الصدى مذعنا لهذه الصيحات :

ـ طبعا طبعا •

فأسرع موزجلياكوف يتدخل قائلا :

ـ عمى •

فأجابه الامير :

ـ طبعا طبعا يا صديقي ! ••• أنا أسمعك •••

ثم أردف يخاطب السيدات :

ـ انما أردت أن أقول لكن يا سيداتي انني لست في حالة تمكنني من أن أتخذ لنفسي امرأة • لذلك فانني بعد أن أقضي سهرة را •• ئعة عند مضيفتنا اللطيفة سأرحل غدا الى صومعة الأب ميسائيل ، ثم أسافر من هناك رأسا الى الخارج لأشارك في حضارة أوروبا كما ينبغي •

انكفأ لون زينا ، ونظرت الى أمها نظرة فيها من الحزن ما لا سبيل الى وصفه • ولكن ماريا ألكسندروفنا كانت قد عزمت أمرها واتخذت قراراتها • لقد لبثت حتى ذلك الحين ترقب الموقف وتنظر ما عسى يحدث رغم ادراكها أن الأمور قد فسدت وأن الأحوال قد ساءت وأن أعداءها قد انتصروا عليها انتصارا كبيرا ؛ فلما اتضح أمام عينيها كل شيء على حين فجأة قررت أن تهوى بضربة قوية مدمرة على الأفعى ذات الرءوس المائة• فها هي ذى تنهض من مكانها بوقار وأبهة ، وتقترب من المائدة بخطى ثابتة ، وتلقى على الأقزام ، أعدائها ، نظـرة متكبرة • ان نار الوحي والالهام تسطع في عينيها • لتصعقن هؤلاء الثرثارات النمامات السامات صعقا ؛ لتسحقن هـذا الموزجلياكوف الوغد كما يُسحق صرصور ؛ ولتستردن ، بالضربة الحاسمة التي ستضربها ، سلطانها على هـذا الامير الأبله في ثلاثة أرباعه ! وواضح أنه لا بد لهـذا من جرأة غير عادية ،

ولكن الجرأة لا تعوز ماريا ألكسندروفنا أبداء وها هي ذي تقول متفخمة مشدّدة كلماتها (ولقد كانت ماريا ألكسندروفنا تملك قدرة كبيرة على اتخاذ الاوضاع المتفخمة) ، ها هي ذي تبدأ كلامها فتقول :

ـ سـيداتي ، لقد أصغيت صابرةً الى حديثكن المزيّن بالامازيح المرحه ، واحسب انه قد آن لي أن أقول لكن شيئا من عنـدي • أتتن تعلمن ان المصادفه وحـدها جمعتنا (وأنا بذلك سعيدة ، سـعيدة كل السعادة ! ! ••• وما كان لي قط أن أقرر أن أكون البـادئة باطلاعكن على سرّ أسرتي ، وباذاعته ونشره قبل الاوان الذي توجبـه المواضعات الاجتماعية الصارمة ؛ وأنا لذلك أستميح ضـيفنا العزيز عذرا قبل كل شيء ، ولكنني أتصور أنه لا بد أن يشاطرني رأيي بعد كل الغمزات التي سمعناها ، فبدلا من أن يسوءه كلامي ، سـوف يسره أن أشرح الامر صراحة ، بل لا بد أن يكون راغبا في هذا حريصا عليه • أليس ذلك صحيحا يا أمير ! أأنا مخطئة ؟

أجاب الامير متمتما دون أن يفهم الامر :

ـ لا ••• لست مخطئة ••• يشرفني جدا ، يشرفني جدا •••

واذ أرادت ماريا ألكسندروفنا أن تعزز تأثيرها وتقوي موقفهـا ، فقد توقفت عن الكلام تسترد أنفاسها وتنظر الى مستمعاتها • كنّ جميعا يشربن أقوالها شربا ، ويشعرن بفضـول واحد وقلق واحـد • وكان موزجلياكوف قد انتفض مرتاعا • وكان آناسـتازي ماتفئتش قد قطب حاجبيه ومخط أنفه بانتظار الكشف عن سرٍ خارق •

واستأنفت ماريا ألكسندروفنا كلامها قائلة :

ـ نعم يا سيداتي ، انني لأشعر بفرح وأنا أتهيأ لاظهاركن على سر

أسرتنا : في هذا اليوم ، بعد الغداء ، شرّف الامير ابنتي بخطبتها زوجة له اذ فتنه جمالها وفتنته مزاياها •

ثم ختمت كلامها مخاطبة الامير بصوت مختلج متهدج والدموع تملأ عينيها :

ـ ما ينبغي لك يا أمير أن تستاء من قلة تحفظي ، فان الفرح الطافح وحده ، فرح الأم بسعادة ابنتها ، هو الذي انتزع من قلبي هذا السرّ الجميل قبل اللحظة المرسومة ••• وأي أمٍ يمكن أن تلومني في مثل هذا الظرف ؟

انني لا أجد الكلمات التي يمكن أن تصف الأثر الذي أحدثه اعتراف ماريا ألكسندروفنا هذا • لكأن كل واحد قد تجمَّد دهشة عند سماع هذا الكلام • ان هاته الزائرات الوقحات اللواتي تواطأن على احراج ماريا ألكسندروفنا باطلاعها على أنهن يعرفن سرّها ؛ وتواطأن على السخرية منها باظهارها بمظهر من يخفي سراً يعرفه جميع الناس ؛ ان هاته الزائرات اللواتي أردن أن يحيِّرنها بغمزاتهن ولمزاتهن وأن يبثثن في قلبها القلق والجزع، قد صعقهن هذا الاعتراف الجريء صعقاء ان مثل هذه الجسارة في الصراحة تحمل في ذاتها برهانا على النصر وثقة به ويقينا منه • « اذن فقد خطب الأمير الفتاة حقا ؟ اذن ، فهو يتزوج زينا بارادته ، لم يضلَّل ولم يغرَّر به ولم يُفتن ولم يُسكر ؟ اذن لم يدفع الى الزواج بالحيلة والمكر والدهاء ؟ اذن ليس على ماريا ألكسندروفنا أن تخشى أحدا ؟ اذن ما دام الأمير لم تُفرض عليه الخطبة فرضاً ، فليس في الامكان صرفه عن هذا الزواج وثني عزمه عن اتمامه ؟ » • وانقلب التهامس العام الشامل الذي أعقب كلام ماريا ألكسندروفنا ، انقلب فجأة الى صيحات فرح حادة • وبادرت ناتاليا دمتريفنا فكانت أول من ارتمت على

عنق ماريا ألكسندروفنا تعانقها ، ثم فعلت مثل ذلك آنا نيكولايفنا وفليساتي ميخائيلوفنا . وقد وثبت جميع السيدات عن مقاعدهن واندفعن الى أمام . وكانت عدة سيدات منهن قد امتقع لون وجوههن مع ذلك من شدة الحنق. وأخذ الجميع يهنئون زينا التى كانت مضطربة أشد الاضطراب . حتى لقد تشبثوا بآناستازى ماتفئتش . وشقّت ماريا ألكسندروفنا طريقها الى ابنتها فاحتضنتها بحركة مسرحية . أما الأمير فكان يتأمل هذا المشهد بدهشة غريبة . انه ما يزال يبتسم ، وقد سرّه ما كان يجرى وأبهجه ؛ حتى أنه حين رأى القبلات التى تطبعها الأم علىوجنتى ابنتها أخرج منديله ليجفف دمعة ظهرت فى زاويه عينه . وأسرع الحفل اليه يهنئه هو أيضا كما تقدرون ، فكانت الأصوات تتعالى من كل صوب قائلة له :

ـ تهانينا كلها يا أمير ، تهانينا كلها يا أمير .

ـ هل تنوى اذن أن تتزوج ؟

ـ هل تنوى أن تتزوج حقاً ؟

ـ هل عزمت على الزواج أيها الامير اللطيف ؟

أجاب الامير الذى جعلته هذه الملاطفات مرحا ضاحكا :

ـ طبعا طبعا ! يجب أن أقول لكن اننى مفتتن كل الافتتان بما تظهرن لى من كياسة ولطف ، واننى لن أنسى لكن هذا ما حييت . رائع ! رائع! لقد أثرتن فى نفسى تأثيرا شديداً ترقرقت له دموعى !

هتفت فليساتى تقول بصوت أعلى من صوت الجميع :

ـ قبلنى يا أمير !

تابع الأمير كلامه يقول بينما جميع السيدات يقاطعنه !

ـ ويجب أن أقول لكن اننى مذهـول مدهوش الى أبعد حـدود

الذهول والدهش . ان ماريا ايفانوفنا ، مضـــيفتنا الكريمة ، قد حزرت الحلم الذى رأيته ببراعة لا يتخيلها الخيال ، حتى لكأنها كانت معى حين رأيت ذلك الحلم . فيالها من براعة قوية ، ويالها من بصيرة نافذة ! يالها من بصيرة نا..فذة ! ...

ـ آه يا أمير ، أتعود الى الكلام على حلمك ؟

ـ هلاَّ اعترفت بالوقائع يا أمير ! هلم اعترف بها .

كذلك صاحت تهيب بالامير جميع السيدات .

قالت ماريا ألكسندروفنا بلهجة قاسية جازمة :

ـ نعم يا أمير ، لم يبق ثمة ما يجب اخفاؤه وكتمانه ، آن لنا أن نظهرهن على سرِّنا . لقد أدركت أنا ما عمــدتَ اليه من تورية لطيفــة ورهافة فروسية فى سبيل أن تفهمهن أنك خطبت ابنتى ! نعم ياسيداتى ! ان ما قلته لكن صحيح . ففى هذا اليوم نفسه ، جثا الامير أمام ابنتى ، وخطبها فى الواقع لا فى الحلم .

قال الامير مؤكدا :

ـ تماما كما لو كان ذلك قد جرى فى الواقع لا فى الحلم ؛ وتماما فى هذا الاطار نفسه .

ثم التفت نحو زينا فتابع كلامه يقول لها فى مودة عظيمة ولطف كبير ، وهى لمَّا تفق من ذهولها بعد :

ـ يا آنسة ، يمينا ما كان لى أن أسمح لنفسى بالاشارة اليك لولا أن سبقنى غيرى الى ذلك . ولقد كان حلما رائعا فى حقيقة الامر ، نعم كان حلما را .. ئعا ؛ واننى لسعيد سعادة مضاعفة اذ كنت شريكتى فى هــذا الحلم . جميل ! جميل !

همست آنا نيكولايفنا فى أذن ماريا ألكسندروفنا التى تشعث وجهها من شدة الانفعال :

ـ هل تدركين ما معنى هذا ؟ انه لا يتكلم الا عن حلمه !

ولم تكن ماريا ألكسندروفنا فى أية حاجة الى هـــذا الانذار ، وا أسفاه ! لقد كان انقباض صدرها يشتد ثم يشتد .

وتهامست السيدات وهى يتبادلن النظرات من جديد :

ـ ماذا هنالك اذن ؟

قالت ماريا ألكسندروفنا متبسمة ابتسامة هى الى التصعير أقرب :

ـ اسمح لى يا أمير . انك تذهلنى حقا ! ما معنى كلامك هـذا عن حلم حلمته ؟ يمينا لقد كنت أظنك حتى الآن مازحا لا جاداً . فاذا كنت تمزح ... اذا كنت تمزح ، فقد طالت هذه المزاحة ... واننى لاريد ، واننى لأرغب أن أردّ ذلك كله الى شرودك ، ولكن ...

قالت ناتاليا دمتريفنا :

ـ قد يكون للشرود دخل فى هذا مع ذلك !

فقال الامير مؤيدا ، وهو ما يزال لا يفهم ما يُراد منه :

ـ طبعا ، ذلك جائز جدا . اسمعوا : سأقص عليكم نكتة . دُعيت مرةً فى بطرسبرج الى ماتم لدى آناس كرام . انه منزل بورجوازى ، لكنه محترم . فأخطأت فى الأمر فظننت انهم يحتفلون بعيد اسم الشخص الشاب المتوفى . وكان عيده قد انقضى عليه أسبوع واحد على كل حال. فأمرت ببطاقة من زهر الكاميليا ، ومضيت الى منزل المتوفى ، فماذا رأيت ؟ رأيت رجلا ضخم الجثة عريض المنكبين ، محترما جدا ، رأيته ممددا على نعش ! دُهشت ، فلم أعرف ماذا أصنع حقا ببطاقة الزهر ...

قاطعته ماريا ألكسندروفنا قائلة في حزن وأسى :

ـ يا أمير ، ليس هذا أوان رواية النكت . ان ابنتي لم تسع يوما الى من يخطبونها ؟ ولكنك منذ برهة ، هنا قرب هذا البيانو قد صرحت لها بحبك وخطبتها ، لم يحضك أحد على هذا ولا دفعك اليه. ويمكن القول انني انا التي تحيّرت ... وسرعان ما وافتني فكرة ... فكنت لا أنتظر الا صحوك حتى أضع الامور في نصابها . انا أم يا أمير ، وهي ابنتي ، وانك لتفهم هذا ... لقد تحدثت منذ لحظة عن حلم رايته ، فقدرت انا أنك أحببت بالتورية أن تطلع هؤلاء السيدات على خطبتك . وانني لاعرف ذهولك وشرودك حق المعرفة ؟ حتى انني أحزر على وجه الدقة من الذي غيـر رايك وصرفك عن عزمك ... غـير آن عليك أن تشرح الأمور يا أمير ، عليك أن تشرح الامور بأقصى سرعة شرحا مناسبا ، فليس يجوز المزاح على هذا النحو في منزل محترم ...

ردد الامير يقول على غير شعور ، وان يكن قال ذلك وقد ألم به قلق ما ينفك يزداد :

ـ طبعا طبعا ، لا يجوز المزاح على هذا النحو في منزل محترم .

ـ انك لم تجب عن سـؤالي يا أمير ! فانما يجب عليك أن تشرح الأمور . فهلاّ أكدت الان ، بحضـــور الجميع ، انك قد خطبت ابنتي زوجة لك .

ـ طبعا طبعا ، أنا مستعد لأن أؤكد ذلك ... لقد سبق لي أن قلت هذا ، ولقد حزرت فليساتي ياكوفليفنا الحلم الذى رأيته حزراً صحيحا .

صرخت ماريا ألكسندروفنا وقد بلغت ذروة الحنق :

ـ لم يكن ذلك حلما يا أمير ! ما هذا الكلام الذى تقول ؟ لم يكن ذلك حلما بل كان واقعا ••• أأنت تسمع ؟ لقد كان ذلك واقعاً لا حلما !

فصاح الأمير يردّد مدهوشا وهو ينهض عن مقعده :

ـ واقعاً لا حلما ؟

ثم أضاف وهو يلتفت نحو موزجلياكوف :

ـ أرأيت يا صديقى ؟ ان كل ما تنبأت لى به قد وقع • أيتها السيدة المحترمة ماريا ستيبانوفنا ، أؤكد لك أنك مخطئة • أنا واثق كل الثقة أن ذلك كان حلما لا واقعا !

ـ يا رب ! يا رب !

كذلك صاحت ماريا ألكسندروفنا •

واعتقدت ناتاليا دمتريفنا أن عليها أن تقول كلمة • فاندفعت تقول :

ـ لا تحزنى لأمر يسير يا ماريا ألكسندروفنا ••• ان من الجائز أن يكون الامير قد نسى ، ولكن ذاكرته ستعود اليه •

فأجابت ماريا ألكسندروفنا مستاءة :

ـ انك لتدهشيننى يا ناتاليا دميتريفنا • أهذه أمور تُنسى ؟ كيف يمكن أن تُنسى هذه الأمور ؟ يا أمير ، أرجوك ••• أأنت تسخر منا وتستهزىء بنا ؟ أتراك تريد أن تمثل هنا دور رجل ماكر من زمان « الوصاية » على نحو ما يروى دوماس ؟ أتراك تمثل دور رجل مثل « لاوزوم » ؟ أؤكد لك أن هذا لا يناسب سنك ، ولا يليق بك ! ليست ابنتى فيكونتيسة فرنسية • منذ برهة ، هنا ، فى هذا المكان نفسه ، غنَّت لك ابنتى أغنية رومانسية ، فافتتنت أنت بغنائها ، فارتميت عند قدميها تطلبها زوجة لك • أأنا أحلم ؟ أأنا نائمة ؟ قل لى يا أمير : أأنا نائمة ؟

قال الأمير طائش اللب :

ـ طبعا طبعا ... ذلك ممكن ... يجب عليّ أن أقول اننى أعتقد الآن أن ذلك لم يكن حلما . لقد نمت منذ قليل ، وهذا هو السبب فى أننى رأيت ذلك الحلم ... هذا هو السبب فى أننى رأيت فى الحلم أننى ...

ـ كفى يا أمير ! ما معنى هذا الكلام ؟ لم يكن ذلك فى الحلم ، لم يكن ذلك في الحلم ، لا ، لم يكن ذلك فى الحلم ! ... ألا ان الشيطان نفسه ليذهب صوابه وتطير قرونه من هذا الكلام ! أتراك فقدت عقلك يا أمير ؟

ـ طبعا طبعا ... الشيطان يذهب صوابه وتطير قرونه ... على كل حال ، يخيَّل الىّ أننى قد ضللت ...

كذلك تابع الامير وهو يجيل على الحضور نظرة قلقة .

فقالت ماريا شارحة :

ـ كيف يمكن أن يكون هذا حلما اذا أنا استطعت أرويه بهذه التفاصيل كلها قبل أن تحدث عنه أحدا بكلمة واحدة ؟

سألته ناتاليا دميتريفنا :

ـ لعلك قد رويت الحلم لأحد يا أمير ؟

ـ طبعا طبعا ... من الجائز جدا أن أكون قد رويته لأحد .

بذلك أجاب الأمير محتارا .

وهمست فليساتى ميخائيلوفنا فى أذن جارتها تقول :

ـ يا للتمثيلية الهزلية !

وصرخت ماريا ألكسندروفنا وهى تلوى يديها كمدا وحزنا :

ــ آه ••• رباه ! ••• ألا ان هذا لخليق بأن يذهب بكل صبر ! لقد غنت لك أغنية عاطفيه يا أمير ، أغنية عاطفيه ! فهل يمكن أن تكون قد سمعت هذه الأغنية فى الحلم ؟

هتف الأمغ متجها نحو موزجلياكوف :

ــ نسيت أن أحكى لك منذ برهة يا صديقى ، نعم نسيت فعلا أن أحكى لك أنه كان هنالك أغنية رومانسية ، وكان فى تلك الاغنية قصور، قصور كثيرة ، كثيرة ••• وكان فيها شعراء تروبادور أيضا ••• نعم نعم ، أتذكر الآن ذلك تذكراً واضحا ••• حتى لقد بكيت ••• الآن أحاول أن أعرف أأنا سمعت هذا فى الحلم حقا !

أجابه موزجلياكوف بأهدأ لهجة ممكنة ، ولكن بصوت يجعله الاضطراب النفسى مرتجفا بعض الارتجاف :

ــ يا عمى ، أؤكد لك أن من السهل جدا ايضاح الامر • أحسب أنك حقا قد سمعت غناء • ان زينائيد آتاناسيفنا تغنى غناء رائعا • ولقد جىء بك الى هنا بعد الغداء ، وغنت لك زينائيد آتاناسيفنا أغنية رومانسية• أنا لم أكن معكم ، ولكنى على يقين من أن الآغنية قد أيقظت فى نفسك ذكرى قديمة لعلها ذكرى تلك الفيكونتيسة التى كنت تصاحبها فى الغناء والتى حدثتنا عنها فى هذا الصباح • ثم نمت على هذه الاحساسات الممتعة والمشاعر اللذيذة ، فرأيت نفسك فى الحلم شاباً عاشقا يخطب فتاة •••

صُعقت ماريا ألكسندروفنا من هذه الوقاحة الدنيئة الحقيرة •

وصاح الامير يقول مسرورا :

ــ آه يا صديقى ••• تلك هى الحقيقة بعينها • تلك هى الحقيقة

يعينها ! نعم ، على أثر احساسات ممتعة ومشاعر لذيذة ! أتذكر تذكراً واضحا أن قد غَنَّيت لى أغنية عاطفية ، وأننى لهذا السبب انما اردت أن أتزوج •• فى الحلم ! وكانت الفيكونتيسه موجـــودة ايضا ! اه ••• ما أذكاك فى ترتيب الأمور يا عزيزى ! طبعاً طبعاً • أنا الآن واثق اننى حلمت ! يا ماريا فاسيلفنا ، أؤكد لك أنك على خطأ ! لقد كان ذلك فى الحلم ! ولولا ذلك ما سمحت لنفسى بان أعبث بعواطفك النبيله ! •••

صاحت ماريا ألكسندروفنا تقول مسعوره من شدة الحنق وهى تتجه بالكلام الى موزجلياكوف :

ـ آ ••• الان ادرك من الذى حشر أنفه فى هذا الامر ••• هو انت يا سيد ، هو أنت يا قليل الشرف ! انها حيلك ومكائدك ! لقد شوشت كل شىء فى دماغ هذا الابله المسكين ، لانك ر فضت هنا ! ولكنك ستدفع لى ثمن هذا الغدر ، يا وغد ، يا دنىء ••• سوف تدفع لى ثمن هذا الغدر، سوف تدفعه لى غاليا ! •••

صرخ موزجلياكوف يقول وقد احمر احمرارا شديدا على حين فجأة :

ـ ماريا ألكسندروفنا ! ان أقوالك هذه تبلغ من ••• لا أستطيع أن أنعت أقوالك هذه بوصف ••• ما من سيدة من المجتمع الراقى تاذن لنفسها باطلاق لسانها فى أقوال كهذه الأقوال • أنا انمـا أحمى قريبى وأدافع عنه • هلاّ اعترفت بأنك قد شددته الى حبائلك وشباكك •••

ـ طبعا طبعا ، شدتنى •••

كذلك ردد الأمير وهو يحاول أن يختبىء وراء موزجلياكوف •

أعولت ماريا ألكسندروفنا تقول بصوت لا يُعرف ، وهى تلتفت الى زوجها :

ـ آناستازى ماتفئتش ! ألا تسمع كيف نُهان وكيف يلطخ شرفنا بالعار ؟ هل فقدت الاحساس بواجباتك جميعا ؟ من أنت اذن ؟ أأنت رب أسرة أم أنت قطعة حقيرة من خشب ؟ لماذا تصفق أجفانك ؟ لو كان زوج غيرك فى مثل هذا الموقف لسفح الدم منذ زمن طويل انتقاما لأهله من الاهانة التى تلحق بهم !

قال آناستازى ماتفئتش فى وقار ، وقد أشعره بكثير من الاعتزاز أن يكون آخر الامر مفيدا لنصفه الحلو :

ـ يا امرأة ! أليس من الجائز أن تكونى قد رأيت هذا كله فىالحلم أنت نفسك ، حتى اذا استيقظت خلطت بين ما هو حق وما هو باطـل كما تفعلين ؟ ...

لم يتح لآناستازى ماتفئتش من الوقت ما يمكنه منالتعبير عنشكوكه الذكية الى آخرها . فان الحضور الذى اقتصروا حتى ذلك الحين على اصطناع احترام منافق مراء ، قد انفجروا دفعة واحدة ، فاذا بقهقهـة طويلة تدوى من أول الصالون الى آخره ، واذا ماريا ألكسندروفنا تنسى جميع المواضعات الاجتماعية فتندفع نحو زوجها عازمة عزماً واضحاً على أن تفقأعينيه بأظافرها . ولكن الحضور حالوا بينها وبين ذلك بالقوة . وانتهزت ناتاليا دميتريفنا هذه الظروف لتسكب قطرة صغيرة جديدة من حقدها وسخيمتها . قالت بصوتها المتغنج :

ـ آوه ! ماريا ألكسندروفنا ! منالجائز جدا أن يكون هذا ماحدث. فلماذا تغضبين فى غير طائل ؟

فصرخت ماريا ألكسـندروفنا التى لم تدرك قـول صاحبتها تمـام الادراك :

ــ ماذا ؟ ماذا تحسبين أننى ظننت ؟

فأجابتها ناتاليا دميتريفنا :

ــ أوه ! ... هذا يحدث كثيرا ! ...

ــ ما الذى يحدث كثيرا ؟ أتريدين موتى ؟

ــ طبعا طبعا ، لا شك أنك رأيت ذلك فى الحلم !

ــ فى الحلم ؟ أنا ؟ فى الحلم ؟ أفتجرؤ أن تقول لى هـــذا الكلام وجهاً لوجه ؟

قالت فليساتى مقاطعة :

ــ على كل حال ، لماذا لا يكون من الجائز أن تكونى قد رأيت ذلك فى الحلم ؟

قال الأمير مدمدماً :

ــ طبعا طبعا ! لا شك أن هذا ما حدث !

فصرخت ماريا ألكسندروفنا تقول وهى تعقف يديها :

ــ ما هذا ؟ أفيتدخل هو أيضا ؟

ــ لا تقتلى نفسك حزنا يا ماريا ألكسندروفنا ! تذكرى أن الأحلام من عند الله ؟ وما يريده الله لا يستطيع البشر أن يزيلوه ! ما من شىء يحدث الا بمشيئة الله . فلا داعى الى الغضب !

ردد الامير يقول :

ــ طبعا طبعا ... لا داعى الى الغضب .

قالت ماريا ألكسندروفنا وقد هدّها التعب واختنقت من الحنق :

ـ ماذا ؟ أتظنونني مجنونة ؟

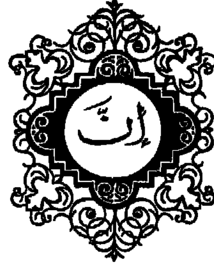
كان ذلك كله فـوق ما يطيقه صـبر البشر • وأسرعت ماريا ألكسندروفنا تفتش عن كرسي وتتهالك عليه • وأعقب ذلك لجب وصخب•

قالت ناتاليا دمتريفنا توشوش آنا نيكولايفنا :

ـ انما أغمى عليها حياء واحتشاما •

ولكن فى تلك الدقيقة ، فى الدقيقة التى بلغ فيها الاضطراب أوجه، دخلت الى المشهد شخصية لبثت حتى ذلك الحين صامتة لا تتكلم ، فاذا وجه الأمور يتغير فورا •

الفصل السابع عشر



زينائيد آتاناسيفنا ذات طبع يتصف بأنه خيالى في الدرجة الأولى • لا ندرى هل صحيح ما تزعمه ماريا ألكسندروفنا من أن مردّ هذا الى « شكسبير الأبله » ذاك الذى أسرفت زينا في العكوف على قراءته وشرحه مع مدرسها • ولكن زينا ، طوال المدة التى قضتها من حياتها في مورداسوف ، لم تكن قد سمحت لنفسها حتى ذلك الحين باندفاعة فيها من الخيالية بل قل من البطولة ما في الاندفاعة التى سنصفها الآن •

تقدمت زينا على حين فجأة ، مرتعشة الجسم ، شاحبة الوجه ، حازمة النظرة ، قد زاد الاستياء جمالها روعة وبهاء • ودون أن تحفل بالنظرات المسددة اليها ، ووسط الصمت الذى شمل الغرفة على حين فجأة ، دنت من أمها التى فتحت عينيها وصحت من اغمائها منذ أول خطوة خطتها ابنتها نحوها ، وقالت لأمها :

ـ أمى ، لماذا الكذب ؟ علام تسيئين الى كرامتك بمزيد من الأكاذيب ؟ ان كل شيء يبلغ من الخسة والدناءة والوضاعة ما لا يجوز معه حقا اخفاء هذا الوحل كله •

صرخت الأم مرتاعة مذعورة وهى تثب عن مقعدها قائلة :

ـ زينا ! زينا ! ماذا دهاك ؟

تابعت زينا كلامها تقول :

ـ قلت لك سلفا يا أماه ، نعم قلت لك سلفا اننى لن أطيق احتمال هذا العار . فعلام تذلين نفسك مزيدا من الاذلال ، علام توسخين نفسك مزيدا من التوسيخ ؟ اعلمى يا أماه أننى أتحمل تبعة كل شيء ، لاننى أنا الآثمة المذنبة أولا . اننى بموافقتى قد أتحت حبك هذه المؤامرة الحقيرة ! أنت أم . وأنت تحبيننى . وقد أردت أن تكفلى لى السعادة على طريقتك. فيمكن أن يُغفر لك أنت ، أما أنا فلا ...

ـ زينا ، ما هذا الذى تقولين ؟ !ه ... رباه ! لقد تنبأت بأن هذا الخنجر سيطعن قلبى ! ...

ـ نعم يا أماه ! أريد أن أذكر كل شيء . لقد تلطخت أنا بالعار ، وتلطخت أنت به مثلى ! ...

ـ أنت تغالين يا زينا ! انك لا تعرفين ماذا تقولين ! وعلام الكلام ؟ انك لا تفكرين فى الأمر ... وعلى كل حال ، اذا كان ثمة عار ، فليس عارا علينا ... سأبرهن لك ، سأبرهن لك فورا أن العار ليس علينا !

قالت زينا محتجة بصوت جعله الاستياء مرتجفا متهدجا :

ـ لا يا أماه ! لا أريد أن أسكت أمام أناس أحتقر رأيهم ، أمام أناس لم يجيئوا الى هنا الا ليسيئوا الى كرامتنا . لا أريد أن أحتمل غمزاتهم ولمزاتهم مزيدا من الاحتمال . ما من واحدة من هذه النسوة يحق لها أن ترمينى بحجر . انهن جميعا مستعدات ، فى هذه اللحظة نفسها ، لأن يفعلن شرا مما فعلنا أنا وأنت ، مائة مرة . فبأى حق يجرؤون أن يسمحن لأنفسهن بالحكم علينا ، بأى حق يستطعن أن يحكمن علينا ؟

صاح الجميع من كل صوب

ـ كلام جميـــل ! كلام ليس فيه لغو ! ••• لكأننا نحن المذنبـات الآثمات اللواتى يجب أن يؤاخذن ! ان هذه الفتاة تهيننا نحن !

وقالت ناتاليا دمتريفنا :

ـ لقد بلغت من فرط الغضب أنها لا تفهم ما تقول •

ولنلاحظ ـ عابرين ـ أن ناتاليا دميتريفنا قد قالت حقا • فلو كانت زينا ترى أن هاته النسوة ليست جـــديرات بأن يحكمن عليهـا ، فلماذا تسوق اليهن اعترافها بهذه الأبهة كلها ؟ لقد أخطأت زينائيد آتاناسيفنا حين بادرت هذه المبادرة • وذلك هو الرأى الذى أعلنه العقلاء من سكان موردسوف بعد ذلك على كل حال • والحق أن ماريا ألكسندروفنا قـد أفسدت الأمور ، هى ايضا ، بفرط تعجلها وشدة تكبرها • فانه لم يكن عليها الا أن تسخر صراحة من هذا الشيخ الأهبل ، وأن تطرده من منزلها• ولكن زينا رغم كل الحس اسليم وكل الحكمة الموردسوفية، انما اتجهت بكلامها الى الامير تخاطبه هو ، كان الامر مقصود ، فما كان من الامير الا أن أسرع ينهض وقد اضطرب لموقفها أشد الاضطراب • قالت :

ـ اغفر لى يا أمير ، اغفر لى ! لقد فتناك ، لقد ضللناك ، لقد غررنا بك !

صرخت ماريا ألكسندروفنا تقول هاذية :

ـ هلاّ سكت أيتها الشقية !

واحتج الأمير مرتاعا يقول :

ـ يا آنسة ، يا آنسة ، يا ابنتى اللطيفة !

ولكن طبع زينا المتكبر الجامح ، الحالم الى أقصى حد ، حمل الفتاة

بعيدا عن المواضعات التي يفرضها الواقع • لقد نسيت حتى أمها التي كان اعتراف ابنتها امام الناس يروّعها ترويعا رهيبا •

ـ نعم لقد ضللناك كلتانا يا امير : ضللتك أمي لأنها أرادت أن تدفعك الى تزوجي دفعا ، وضللتك انا لانني وافقت على ذلك • لقد سقيت خمرا ؟ وارتضيت أنا ان اغنى وان اتغنج امامك ••• أمامك أنت الضعيف لا تستطيع ان تحمي نفسك ••• نعم لقد ضللت كما قال ذلك بافل ألكسندروفتش ، طمعا في مالك وفي لقب « الامير » الذي تحمله• وذلك كله كريه دنيء ، وانا نادمة عليه • ومع ذلك أؤكد لك يا امير انني لم أقرر مقارفه هذه الخطة لاجنى منها ربحا دنيئا ، وانما أردت ••• ولكن ماذا انا فاعلة ؟ ألا انني لاضاعف المسيئة اذ انا حاولت تسويغها وانما ينبغي أن اذكر لك يا امير هذه الحقيقه : لئن ارتضيت انا اى شيء، فانني كنت سأدفع ثمن ذلك أن أكون لعبتك ، وخادمتك ، وراقصتك ، وعبدتك ••• لقد آليت على نفسي لابرنّ بالعهد !

وألم بالفتاة تشنج اضطرها الى التوقف عن الكلام • كان جميع الحضور يصغون محملقين • لقد صعقهم هذا السلوك الذى لايمكن توقعه ولا يمكن فهمه من جانب زينا • أما الأمير الذى لم يدرك نصف أقوال زينا ، فقد تأثر تأثرا شديدا حتى دمعت عيناه • وتمتم يقول :

ـ طبعا طبعا ، سأتزوجك يا بنيتي الجميلة اذا كنت ترغبين في ذلك هذه الرغبة كلها ، وسيسعدنى هذا أكبر السعادة • ولكنني أؤكد لك أن الأمر كله كان في الحلم ، كان حلما جميلا ! انني أرى في منامي أشياء كثيرة !

والتفت الامير نحو موزجلياكوف يسأله قائلا :

ـ ولكن لماذا يحزنون هذا الحزن كله ؟ أحسب أنني لا أفهم من الامر شيئا يا صديقي • هلاّ شرحت لي ما يجرى ؟

وتابعت زينا كلامها تقول مخاطبة موزجلياكوف :

ـ وأنت يا بافل ألكسندروفتش ، يا من قورت أنا فى لحظـــة من اللحظات آن أنظر اليك نظرتى الى زوجى فى المستقبل ؟ أنت يامن انتقمت منى الآن هذا الانتقام القاسى ، كيف أمكنك أن تنضم الى هؤلاء النساء لتجليلى بالخزى والعار ! لقد كنت تدعى أنك تحبنى . ولكن ليس لى أن أحكم عليك وأن أدينك . فان ذنبى أعظم من ذنبك ، وان اثمى أكبر من اثمك . لقد أسرفت فى الاساءة اليك حين خدعتك بالوعود . وما قلته لك فى هذا الصباح نفسه لم يكن الا كذبا ورياء وخداعا . أما ما أحببتك فى يوم من الايام ، واذا ارتضيتك زوجا ، فما ذلك الا لأستطيع أن أسافر من هنا ، أن أبرح هذه المدينة اللعينة ... ومع ذلك فاننى أحلف لك أننى لو تزوجتك لكنت لك نعم الزوجة الشريفة المخلصة الوفية .. لقد قسوت فى الانتقام ، حين أردت أن تضمد جرح كبريائك ...

صرخ موزجلياكوف :

ـ زينائيد آتاناسيفنا !

ـ اذا ظللت تكرهنى هذا الكره كله ...

ـ زينائيد آتاناسيفنا !!!...

ـ اذا كنت قد أحببتنى فى يوم من الايام ...

كذلك تابعت زينا تقول وهى تحبس دموعها .

ـ زينائيد آتاناسيفنا !!!...

قالت ماريا ألكسندروفنا منحتبة :

ـ زينا ، زينا ، بنتى !

وقال موزجلياكوف وقد بلغ أوج الانفعال :

ـ أنا جرو يا زينائيد آتاناسيفنا ، أنا جرو ، أنا جرو لا غـير ! •••

وتعالت صرخات الدهشة والامتعاض ، ولكن الفتى ظل واقفا كأنه متجمد بلا فكر ولا صوت •••

ان أصحاب الطباع الضعيفة التي اعتادت الخضوع المستمر ، اذا هم قرروا أن يحتجوا وأن يغضبوا ، اذا هم قرروا أن يبرهنوا على صلابتهم وتماسكهم ، يصلون دائما بسرعة عظيمة الى قصاراهم في القوة والعزم• هم يحتجون في أول الامر باندفاع مستميت يشارف الهذيان •• ينطلقون الى أمام مغمضي الأعين دون أن يملكوا في أكثر الأحيان القدرة على حمل العبء الذي ألقي على أكتافهم فجأة • ولكن الشخص المندفع ما يلبث أن يتجمد متى وصل الى أوج الاندفاع • فهو الآن أشبه بقوس يرتخي • هو يلقي على نفسه الآن هذا السؤال الذي يطيش اللب ويذهب بالعقل ، كأنما صعقه الذعر وجمده الهول : « لماذا فعلت هذا ؟ » • وهو يحس فجأة أن قواه قد انهدت وانهارت ، فيأخذ يئن وينتحب ، ويحـاول أن ينتحل الأعذار ، ويجثو على ركبتيه ، ويتضرع أن تعود الأمور الى حيث كانت في الماضي • فذلك هو على وجه التقريب ما أحسه موزجلياكوف • كان قد خرج عن طوره ، واستعرت نفسه غضبا ، فسبَّب ذلك الشـقاء كله الذي يتهم به نفسه الآن • ولقد شبع من خبثه وأنانيته ، ثم اشمأز من ذاته فتوقف يمزقه عذاب الضمير ويدمره سلوك زينا الذي لم يكن في الحسبان ؛ ثم جاءت الكلمات الأخيرة التي قالتها فأجهزت عليه اجهازاً ، فسرعان ما انتقل من النقيض الى النقيض • قال :

ـ أنا حمار يا زينائيد آتاناسيفنا ••• لا ، ليس يكفي أن اسـمي نفسي حمارا ••• أنا أسوأ من ذلك ••• أنا دون ذلك كثيرا ! ولكنني سأبرهن لك يا زينائيد آتاناسيفنا على أن في استطاعة حمار أن يكون رجلا

شريفا مع ذلك . يا عمي ! لقد كذبت عليك ! نعم ، أنا كذبت عليك ! انك لم تحلم ؛ وانما خطبت هذه الآنسة في الواقع . ولكنني أنا زعمت لك أن كل شيء قد جرى في المنام ، وذلك انتقاما وثأرا ، لأنني صُددت ورُفضت .

همست ناتاليا دميتريفنا في اذن آنا نيكولايفنا تقول :

ـ هذه أمور عجيبة يُكشف لنا عنها !

أجاب الأمير قائلا :

ـ يا صديقي، هدئ نفسك ، أرجوك ! ان صرخاتك هذه تخيفني. أؤكد لك ذلك . وأؤكد لك أيضا أنني مستعد لأن أتزوج اذا اقتضى الأمر ، ولكن ألم تشهد لي أنت نفسك بأن ذلك كان حلماً ؟ لقد كان ذلك كله حلما ...

ـ أواه ... كيف أحملك على أن تصدقني ؟ قولوا لي أنتم : كيف السبيل الى اقناعه ؟ عمي ، عمي ، هذه مسألة خطيرة ، هذه مساله عائلية خطيرة كل الخطورة ! حاول أن تفهم ! فكِّر ! ...

ـ لا مانع عندي يا عزيزي ! طيب انتظر ... دعني أرتب ذكرياتي . في أول الامر رأيت الحوذي تيوفيل ...

ـ لا شأن لنا بتيوفيل الآن يا عمي !

ـ طبعا طبعا ! لنفرض أنه لا شأن لنا بتيوفيل الآن . ثم رأيت نابوليون . وبعد ذلك ، أظن أنني شربت الشاي ، والتهمتْ سيدة من السيدات كل السكر ...

قاطعه موزجلياكوف يقول وقد طاش صوابه تماما :

ـ دعك من هذا يا عمي ، ان ماريا ألكسندروفنا نفسها هي التي روت لك ذلك عن ناتاليا دمتريفنا . لقد كنت أنا حاضرا ، وسمعت كل شيء . كنت قد اختبأت عن أنظاركم أراكم وأسمعكم من ثقب القفل ...

صاحت ناتاليا دمتريفنا غاضبة :

ـ ماذا ؟ أتروين للأمير أنني أسرق السكر من سكريتك ؟ أأنا أجيء اليك من أجل ذلك خصيصا اذن ؟

فهتفت ماريا ألكسندروفنا وقد جاوز يأسها كل حد :

ـ دعيني وشأني !

ـ لا ، لن أدعك وشأنك يا ماريا ألكسندروفنا ! انك تسرفين حقاء أأنا أسرق سكّرك ؟ لطالما حُكي لي أنك تقولين هذه السخافات في حقي ! ان صوفيا بتروفنا لم تكتمني حرفاً مما تقولينه عني . اذن فأنا سرقت سكّرك ، هه ؟

صاح الأمير :

ـ دعن هذا يا سيداتي ، ما دام الأمر أضغاث أحلام ! ما أكثر ما أرى أنا في نومي من أحلام !

قالت ماريا ألكسندروفنا بصوت ضعيف واهن :

ـ يا لكِ من برميل لعين !

فأعولت ناتاليا دمتريفنا تقول :

ـ ماذا ؟ أنا الآن برميل ؟ فما أنت اذن ؟ انني أعلم منذ زمان طويل أنك تصفينني هذا الوصف ! غير أن لي أنا زوجاً على الأقل ، أما أنت فتكتفين برجل أبله ...

ـ طبعا طبعا ... تذكرت الآن ... كان هناك برميل أيضا .

كذلك جمجم الأمير يقول كالغائب عن وعيه وقد تذكر الكلمات التى قالهتا ماريا ألكسندروفنا في الصباح . فصاحت ناتاليا دمتريفنا :

ـ ماذا ؟ أأنت أيضا تشترك فى اهانة امرأة نبيلة ؟ كيف تجرؤ أن تفعل يا أمير ؟ لئن كنت أنا برميلا ، لأنت كسيح مقعد ! ...

ـ من ؟ أنا ؟ كسيح مقعد ؟

ـ نعم ، كسيح مقعد ... وأنت فوق هذا ألطع لا أسنان لك ... ذلك أنت !

وأضافت ماريا ألكسندروفنا صارخة :

ـ وأنت بعد هذا وذاك أعرج !

واستأنفت ناتاليا دمتريفنا كلامها فقالت :

ـ عمودك الفقرى مسنَّد بخشب !

ـ ووجهه من نوابض .

ـ وشعره كله مصنوع .

ـ شارباه مستعاران ، هذا الغبى الأحمق .

كذلك أضافت ماريا ألكسندروفنا .

فصاح الأمير مبهوتاً من هذه الفضائح المباغتة :

ـ انفى على الأقل ، دعيـه لى ، يا ماريا سـتيبانوفنا ! انه أنفى أنا ! لقد خنتنى يا صديقى ! أنتَ الذى رويت لهن أن شعرى مستعار !

ـ عمى !

ـ لا ، لا يا صديقى ، لا أريد أن أبقى هنا لحظة زيادة ! خـذنى

الى حيث تشاء ••• ما هذا المجتمع الذى جئت بى اليه ؟ ما هذه المغـارة التى قدتنى اليها ؟

صرخت ماريا ألكسندروفنا تقول :

ــ أبله ، تافه !

فتنهد الأمير المسكين قائلا :

ــ آه ••• رباه ! لا أدرى لماذا جئت الى هنا ، ولكننى سأظل أتذكر هذه الزيارة • خذنى يا صديقى الى أى مكان ، والا فسوف أُفك هنـا قطعة قطعة ! على كل حال ، هناك فكرة جديدة أساسية يجب على أن أدوّنها •

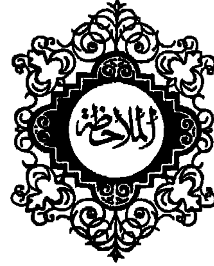
ــ هلم يا عمى ، لم نتأخر كثيرا ، سأنقلك الى فندق ، وسأقيم قريبا منك •

ــ طبعا طبعا ، الى الفندق ! ووداعاً يا ابنتى الجميلة ! أنت وحدك ، نعم أنت وحدك تحسنين التصرف هنا • انك فتاة نبيلة ! هلم يا صـديقى هلم • آه ••• يا رب ! •••

لا داعى الى وصف المشهد البشـع الذى أعقب انصراف الأمير • لقد خرجت السيدات من الدار وهن يطلقن الصرخات والشتائم• ووجدت ماريا ألكسندروفنا نفسها آخر الأمر وحيدة بين خرائب مجدها الغابر ! واحسرتاه ! لقد أفل سلطانها ، وغناها ، واحترامها ، ومهابتها ، دفعـة واحدة ! وأدركت ماريا ألكسندروفنا أنها لن تستطيع أن تنهض من هذه الكبوة • ان استبدادها بمجتمع مورداسوف خلال سنين طويلة قـد زال نهائيا • ماذا بقى لها ؟ الفلسفة ! ••• ولكنها تجهل الفلسفة • وقضـت ماريا ألكسندروفنا ليلتها فى حنق مسـعور • لقد تلطخت زينـا بالعار ، ولسوف تجرى النمائم فى حقها كنار جهنم ! يا للفظاعة !

يجب أن أذكر ، من حيث أنني كاتب منصف ، أن الشخص الذى آ سيئت معاملته أكثر من أى شخص آخر انما هو آناستازى ماتفئتش الذى انتهى الى الاعتصام بمكان ما فى قرارة حجرة صغيرة ؛ وظل يرتجف هنالك حتى الصباح • وطلع الفجر ، ولكن الفجر لم يحمل خيراً • ان المصائب لا توافى واحدةً واحدة ، بل تأتى مجتمعة •••

الفصل الخامس عشر



قديمة : متى أنزل القدر مصيبة بأحد، فان الضربات تتعاقب عندئذ عليه الى غير نهاية • ان الخزى والعار والفضيحة التى تجللت بها ماريا ألكسندروفنا فى الليلة البارحة لم تكن كافية • لا ! لم تكن كافية ؛ وكان لا بد من شيء أوسع مدى وأبعد خطراً !

كان قلب كل انسان ، منذ الساعة العاشرة صباحا ، من أقصى المدينة الى أقصاها ، ينبض بفرح حاد • ان شائعة غريبة لا تصدق قد انتشرت فى أرجاء المدينة كأنما لتعزز الكره وتقوى البغض فى نفوس جميع السكان• هى شائعة من تلك الشائعات التى تجرى بين الناس دائماً فى اعقاب كل جرسة عنيفة • « يا للعار ! يا لقلة الحياء ! يا للدناءة ! يا لقلة الاحتشام ! يا للوقاحة الصريحة ! ألا ان ذلك ليتجاوز الحدود ! » • كذلك كانت الصيحات تتعالى فى كل ناحية •

ذلك أن شيخة بائسة مسكينة تسكب دموعا غزاراً من فرط الألم وشدة اليأس ، قد أسرعت الى منزل ماريا ألكسندروفنا منذ الساعة السابعة من الصباح تتضرع الى الخادم أن توقظ الآنسة بأقصى سرعة ممكنة ، بشرط أن لا توقظ الا الآنسة وحدها ، على غير علم من ماريا ألكسندروفنا • وهرعت زينا الى الشيخة شاحبة الوجه مصعوقة القلب • فجثت الشيخة على ركبتيها ، وقبلت قدمى الفتاة وأغرقتهما بالدموع ، وتوسلت اليها أن تتبعها الى حيث يحتضر فاسيا • قالت لها منتحبة : « لقد

عانى آلاماً كثيرة في هذه الليلة ، فليس يرجى أن يعيش يوما آخر • ».
وأضافت أن فاسيا نفسه قد سأل أن تجيئه زينا ليستغفرها قبل أن يموت، فهو يستحلفها بجميع قديسي الجنة وبكل ما كان بينهما ، أن لا تدعه يموت حزينا يائساً • لم تتردد زينا لحظة واحدة • فتبعت العجوز لاتلوى على شيء ، ولا يهمها أن تجيء تلبيتها هذا الرجاء مصدّقة لجميع النمائم، وجميع الشائعات السيئة ، التي راجت بين الناس قبل ذلك عن رسائلها وسوء سلوكها • ألقت على كتفيها معطفاً ، وطفقت تسعى مع العجوز راكضة خلال المدينة ، حتى بلغت أفقر ضاحية من ضواحي موورداسوف، وحتى بلغت من تلك الضاحية شارعا صغيرا هو أكثر شوارعها وحشة وكآبة ؛ وفي آخر ذلك الشارع كان يوجد بيت حقير متداعٍ غائص في الأرض وأكوام الثلج ، له نوافذ ضيقة كأنها شقوق •

في ذلك البيت ، في قاع حجرة صغيرة واطئة السقف تشغل المدفأة نصفها ، على سرير من أحطاب فوقها فراش رقيق، كان يرقد فتى يلتحف معطفا عتيقاً بالياً ممزقاً • ان في وجهه صفرةً هي صفرة الاحتضار ، وان في عينيه وميضا هو وميض نار المرض ، وان يديه اليابستين تبدوان من النحول كأنهما شفافتان ، وان تنفسه الأبحّ يقبض صدر من يسمعه • ورغم أن المرض قد شوه وجهه تشويهاً رهيباً ، فان من يراه يستطيع أن يدرك أنه كان فتى وسيم الطلعة جميل المحيّا • ان قسماته الدقيقة تحمل ذلك القناع الغريب المحزن الذي يلاحظه المرء في وجوه جميع المصدورين حين يصلون الى الساعة الأخيرة ، يلاحظه لدى جميع المحتضرين • وكانت أمه الشيخة التي ظلت سنة بكاملها وحتى هذه الدقيقة تؤمل أن يسترد ابنها فاسيا عافيته ، قد أدركت أخيرا أنه سيبرح هذا العالم • فهي الآن ، وقد هدّها الحزن ، ماثلة اليه حانيةً عليه ضامةً احدى يديها الى الأخرى ، لا تذرف دمعة واحدة ، وانما تلتهمه ببصرها

التهاما وتشربه بنظراتها شرباً ، ثم لا تثوب الى رشدها ولا تفيء الى عقلها، فقد أطار صوابها ما يجول في خاطرها من أن ابنها المسكين الشقي فاسيا سيدفن بعد بضعة أيام في مقبرة الفقراء تحت التراب الصاقع وأكوام الثلج • ولكن فاسيا لم يكن ينظر اليها هي في تلك اللحظة • ان وجهه الضامر يعبر الآن عن معنى العبادة • ان فاسيا يرى أمامه أخيرا تلك التي ظل يحلم بها سنة ونصف سنة ، في نومه وصحوه وأرقه ، طوال ليالي مرضه التي لا تنتهي ••• وهو يدرك الآن أنها غفرت له ما دامت قد جاءت الى فراش نزعه الأخير ملاكا من عند الله • وها هي ذي تتناول يديه ، وتبكي عليه ، وتبتسم له ، وتتأمله بعينيها الرائعتين ، وها هو ذا الماضي المندثر ينبعث من جديد • ان الحياة قد شبت نارها مرة أخرى في نفس هذا المحتضر ، كأنما لتهب للمسكين الشقي فرصة معاناة ألم الفراق بمزيد من اللوعة • قال :

ـ زينا ، صغيرتي ، زينا ، لا تبكي عليّ ! لا تألمي لي ! لا تذكّريني بأنني سأموت وشيكا • سوف أموت دون أن أشعر وأنا أنظر اليك كما أنظر الآن • دعيني أظن أن روحينا التقتا من جديد ، وأنك غفرت لي ، وأنني ما زلت أستطيع أن أقبل يديك ، وأن أموت دون أن أشعر بأنني أموت • لقد نحلت يا عزيزتي زينا ! ما أكثر الطيبة في نظرتك يا ملاكي الغالي ! هل تذكرين ضحكتك في الماضي ؟ هل تذكرين ؟ آه يا زينا ! انني لا أستغفرك ! انني لا أريد أن أفكر فيما كان ••• لعلك قد غفرت لي أنت يا زينا ، ولكنني لم أستطع أنا أن أغفر لنفسي قط ! قضيت ليالي لا نهاية لها يا زينا ، ليالي رهيبة بغير نوم ، وفي أثناء تلك الليالي ، هنا ، على هذا السرير الذي كنت أظل ممددا عليه ، فكرت كثيرا ، وتأملت كثيرا • انني أعلم منذ زمن طويل أن الموت خير لي من الحياة • نعم هو خير لي من الحياة كثيرا ! أنا لا أستحق الحياة يا عزيزتي زينا •

كانت زينا تنتحب ولا تزال تضغط يديه كأنها تتمنى أن توقفه عن الكلام • وتابع المريض يقول :

ـ لماذا تبكين يا ملاكي ؟ ألأني أموت الآن ؟ ولكن ألم يمت ماضينا ويدفن منذ زمن طويل ؟ انت أذكى مني ، وان قلبك أنقى من قلبي ، ولقد أدركت مدى حطتي وتعاستي ، فكيف يمكن أن تحبيني الى الآن ؟ وكيف أحتمل أن أتصور أنك تعرفين مدى حقارتي ؟ لقد كنت شديد العجرفة يا زينا ، وهي عجرفه ربما كانت نبيلة ! آه يا عزيزتي ! لم تكن حياتي كلها الا حلماً ! أنا ماحييت ، وانما كنت أحلم دائما بغير انقطاع• كنت متكبرا مزهواً صلفا ، احتقرت الناس ، ومع ذلك فبأي شيء يمكنني أن أباهيهم وأن أفاخرهم ؟ أنا نفسي أجهل ذلك ، لأن نقاء قلبي ونبل عواطفي لم يكونا الا أضغاث أحلام ! يا زينا لقد قرأنا شكسبير معا فلما كان عليَّ أن أعمل ، لمَّا آن أوان العمل ، رأيتِ ما كان مني وعرفت قيمتي وأدركت قوتي الأخلاقية التي كنت أزعمها لنفسي •

قالت زينا :

ـ كفى كفى ، ما كان كل شيء باطلا كما تحب أن تقول الآن ! اسكت ! انك تقتل نفسك •••

ـ لماذا أسكت يا زينا ؟ أنا أعلم انك غفرت لي ، ولعلك غفرت لي منذ زمان طويل ، ولكنك حكمتِ عليَّ وعرفتِ قيمتي ، وذلك بعينه هو ما يعذبني • لم أكن جديرا بحبكِ يا زينا ! كنتَ أنت عظيمة ! كنت أنت الكرمَ نفسه ، والسماحة نفسها • أعلنت لأمك أنك ان تزوجتِ فسوف تتزوجينني أنا ، ولن تتزوجي أحداً غيري ! واني لعلى يقين من أنك كنت ستفين بالوعد وستبرين بالعهد ، لأنني أعلم أنك صادقة فيما تقولين، فقولك ذهب خالص ! لم أدرك يومئذ يازينا انه كان عليك أن تضحي بي•

لم أستطع أن أفهم أنك حين تقبلينني زوجا فربما كنت تحكمين على نفسك بالموت جوعا • لقد غلبني الهوى على أمري وأخرجني عن طوري فكنت لا أرى الا شيئا واحدا هو أنك تتزوجين شاعرا كبيرا « أو رجلا يُمنى نفسه بأن يكون شاعرا وا أسفاه » ! لم أشأ أن أتصور الاعتراضات التى أثرتها حين تقدمت اليك بطلب زواجنا •• وسرعان ماعذبتك واضطهدتك وأهنتك واحتقرتك ، ثم وصلت من ذلك أخيرا الى تهديدك بتلك الرسالة، والحق أننى لم أكن وغداً فى تلك اللحظة ، وانما كنت انساناً يرثى له ! آه ••• لا بد انك شعرت نحوى بكثير من الاشـمئزاز والتقزز ! نعم يا زينا انها لنعمة أن أموت ! انها لنعمة انك لم تتزوجينى ! لقد كان يمكن لو تزوجتنى أن لا أفهم شيئا من تضحيتك ، وكان يمكن أن أسومك سوء العذاب ، وأن أحملك تبعة ما نلقى من بؤس وشقاء ، وما نعانى من عسر وفقر ! الله يعلم كيف كان يمكن أن تنقضى السنين! لعلنى كنت سأكرهك كرهى عقبةً تقف فى طريقى وتحول بينى وبين الوصول الى أهـدافى وتحقيق رسـالتى ! أما الآن فان الدموع المرة قد طهرت قلبى وصفّت روحى على الأقل ! آه يا صغيرتى زينا ! أحبينى بعض الحب الذى محضتنيه فى الماضى ! افعلى هذا فى ساعتى الأخيرة ! ••• أنا أعلم أننى لا أستحق حبك ••• ولكن ••• ولكن ••• أواه يا ملاكى !

حاولت زينا أثناء هذه الأقوال كلها أن تسـكته مرارا وهى تبكى وتنتحب ولكنه كان لا يسمع لها ولا يصغى اليها • لقد استبدت به الرغبة فى الاعتراف فهو يتابع كلامه فى مشقة وعناء ، بصوت مبحوح مكدود لاهث أصم • قالت زينا :

ـ لو لم تعرفنى ولو لم تحبنى لما كنتَ اليوم هنا ••• آه ! لمـاذا التقينا ؟

تابع المريض كلامه يقول :

ـ لا يا عزيزتي ••• لا تتهمي نفسك بموتي ! أنا وحدي الجاني !
لقد جاوزت أنانيتي كل حد ! وما قولك في اندفاعي ذاك الرومانسي ؟
هل قصوا عليك قصتي الغبية يا زينا ؟ منذ ثلاث سنين كان يسكن هنا رجل حكم عليه بالسجن • كان انسانا حقيرا وغداً ، كان نفسا ضائعه ، فلما جاءت لحظة تنفيذ العقوبة ظهر جبنه الشديد • لقد علم ان المرضى لا يقادون للجلد ، فهيأ خمرا وصب في الخمر تبغا والتهم هذا الشراب ، فألم به تقيؤ بلغ من الشدة والاستمرار أن رئتيه فسدتا ، فنقل الى المستشفى ، فما هي الا بضعة أشهر حتى مات مصدورا • آه يا ملاكي !
تذكرت هذا السجين في ذلك اليوم الذي ••• تعرفين ••• بعد البطاقة !
فقررت أن أقلده ••• آه ما عساك تصورت حين علمت أنني أصبت بالسل • لماذا لم أنتحر شنقا أو غرقا ؟ أخوفاً من موت عنيف ؟ ربما •••
ولكنني أعتقد أيضا يا صغيرتي زينا أن الاندفاعات الجنونية الرومانسية المذبة قد ساهمت في ذلك• كانت تطاردني في تلك اللحظة هذه الفكرة:
كنت أقول لنفسي : ما أجمل أن أتمدد على حصيرة لأموت بمرض السل!
وكنت أتصور أنك ستندبين حظي وترثين لحالي وتتمزقين من اعتقادك بأنك سبب مرضي ، وستأتين الىَّ نادمة تائبة ، تركعين أمام سريري فأغفر لك يا زينا وأموت بين ذراعيك ••• غباءٌ ذلك يا زينا غباء • أليس هذا حقاً يا صغيرتي ؟

صاحت زينا تقول :

ـ لا تذكر هذه الأشياء ! لا تتحدث عنها ! ما أنت كما تصف !
أحرى بنا أن نتكلم عن سعادتنا الحلوة •

ـ المرارة هي التي تجبرني على الكلام يا صديقتي ! لم أرك منذ ثمانية عشر شهرا فيجب عليَّ الآن أن أكشف لك عن نفسي عارية • انني طوال هذه المدة التي قضيتها مع ذاتي وجها لوجه ، لم تمرَّ بي دقيقة

واحدة دون أن آفكر فيك يا ملاكى المعبود . هل تعرفين يا صغيرتى زينا أننى وددت أيضا لو أنهض للعمل رجاة أن أستحق اعتبارك وتقـــديرك من جديد ؟ وكنت حتى هذه الآونة الأخيرة لا أظن قط أننى سأموت . اننى لم أفقد قواى دفعة واحدة بل طال بى الأمد مع صدرى المريض . ما اكثر ما تصورت من مشاريع ضخمة ! كنت أتخيلنى مثلا أنظم على حين فجأة قصيدة عبقرية تنشر فى مجلة « حوليات الوطن » * ، قصيدة ما عرفت الدنيا لها شبيها ولا نظيرا ؛ كنت أتصور أن اسكب فى القصيدة كل عواطفى بغية أن ابقى معك حيثما تكونى ، بغية أن توقظ آشـعارى ذكراى فى نفسك بغير انقطاع . نعم كان أجمل حلم من أحلامى ان اراك اخر الامر ترجعين عن حكمك علىّ ورأيك فىّ وتقولين : « لا ، لم يكن سيئاً الى الحد الذى ظننت ! » . غباء ذلك غباء يا صديقتى زينا.. توافقين على أنه غباء ؟

قالت زينا :

ـ لا ، لا يافاسيا ، لا ! ...

وتهاوت على صدره وآخذت تلثم يديه .

ـ آه ما كان أشد غيرتى طوال ذلك الوقت ! كان يخيل الى أن نبأ زواجك سيكيل لى الضربة القاضية! تجسست عليك وآرسلت من يرصدك ويرقبك ، وقد فعلتْ ما آردت (قال ذلك مشيرا الى آمه) ! انك لاتحبين موزجلياكوف ، أليس كذلك يا صغيرتى زينا ؟ أواه يا ملاكى ! أتراك ستذكريننى بعد أن أموت ؟ أنا أعرف أنك ستذكريننى ، ولكن الســنين ستنقضى تلو السنين وسيجف قلبك شيئا فشيئا ويتجمد ، ثم يستقر الشتاء فى روحك فتنسيننى يا صغيرتى زينا ! ...

ـ لا ، لا ، أبدا ... لن أتزوج أبدا ... أنت حبى الأول ... والأبدى

ـ كل شيء يموت يا صغيرتي زينا ، حتى الذكرى تموت ! ••• عواطفنا النبيلة تموت ، لا يبقى في مكانها الا العقـل ! فيم الاحتجاج ؟ انتفعي بالحياة يا زينا ! عيشي طويلا ! عيشي سعيدة ! أحبي رجلا آخر اذا استطعت ، بدلا من أن تتعلقي بميت • ولكن تذكريني من حين الى حين • الشر ، انسيه ••• اغفريه ••• ذلك أن حبنا يا صغيرتي زينا كان فيه خير أيضا ! يا للأيام الرائعة التي لن تعود ! اسمعي يا ملاكي : لقد أحببت دائما ساعة الغروب فتذكريني في هذه الساعة اذا أمكنك ذلك ! ••• أوه ••• لا ••• لا ••• لماذا أموت ؟ أوه ما أشـد ما أتمنى أن أستأنف الحياة الآن ! تذكري ذلك الاوان يا عزيزتي : كنا أيامئـذ في فصل الربيع ، فأشعة الشمس صافية مضيئة ، والأزهار تتفتح عن أكمامها، وكل شيء من حولنا عيد بهيج • أما الآن فانظري ! انظري •••

قال الشقي ذلك ومد يده نحو النافذة المغشاة بالجليد ثم تناول يد زينا فوضعها على عينيه وشدها اليهما وأخـذ ينتحب انتحابا مرا ، فكان النحيب كأنما يمزق صدره تمزيقا •

ظل الفتى طـول ذلك النهار يتألم ويشـكو ويبكي • فكانت زينا تواسيه وتعزيه ما استطاعت الى ذلك سبيلا ، رغم العذاب القاتل الذي كانت تقاسيه • لقد كانت روحها تتألم ألماً رهيباً • وردَّدت على مسامعه أنها لن تنساه ، وأنها لن تحب انسانا كما أحبته ، فكان يصدقها ، ويبتسم لها ، ويقبل يديها• غير أن ذكرى الماضي كانت تعود اليه فتحرقه وتمزقه• انقضى النهار كله على هذه الحال• وفي أثناء ذلك كانت ماريا ألكسندروفنا مرتاعة مذعورة فبعثت نحواً من عشر مرات بمن يتوسل الى زينا أن تعود الى البيت وأن لا تفقد سمعتها فقدانا تاما في نظر جميع الناس ؟ وأخيرا ، عند غياب الشمس ، عزمت أمرها على أن تمضي بنفسها الى ابنتها ، وقد أوشكت أن تجن كرباً وكمداً ، فنادتها الى غرفة مجاورة ، وتضرعت اليها

راكعة « أن تجنب قلبها هذا الخنجر الأخير » • لقد جاءت زينا الى أمها ملتهبه الراس مريضه ، فاصغت الى كلامها دون أن تفهمه • ثم عادت ماريا الكسندروفنا ادراجها وقد اياسها قرار ابنتها التى أصرت على أن تقضى الليله فى منزل الفتى المحتضر • لبثت زينا بجانب المريض الذى كانت تبرحه فواه شيئا بعد شيء فلما طلع الصباح كان كل أمل قد زال• وكانت العجوز تذهب وتجيء كالمجنونة تقدم الى ابنها الأدوية فيدفعها عنه رافضاً أن يتجرعها • وطال النزع مع ذلك • حتى اذا اصبح المحتضر عاجزاً عن الكلام ظلت تحشرج فى صدره ألفاظ لا ترابط بينها ولا تسلسل فيها ، ألفاظ هى أصوات مبحوحة • ولبث الى آخر دقيقة شاخصا ببصره الى زينا ، مثبتاً نظره عليها يتفرس فيها ويحدق اليها • وانطفأ الضوء فى حدقتيه ، ومع ذلك ظل يتلمس يد الفتاة ليشد عليها فى يده • وشارف هذا النهار القصير من أيام الشتاء على نهايته الآخيرة • هذا شعاع أخير من أشعة الشمس يلقى لونه الذهبى على النافذة الصغيرة الوحيدة المغشاة بالجليد من الغرفة ، وهذه روح فاسيا المعذبة تفيض فى اثر الشعاع الغارب بعيدا عن جسمه الذى نضبت فيه الحياة • فأدركت الأم فجأة أن لم يبق أمامها الا جثة هامدة ، فرفعت ذراعيها وأخذت تعول وارتمت على صدر ابنها •

ـ أنت قتلته أيتها الأفعى اللعينة ! أنت قتلته أيتها الجنية !

كذلك صرخت الأم تقول لزينا وقد بلغت ذروة اليأس • ولكن زينا لم تكن قادرة على أن تفهم شيئا • انها واقفة أمام الميت كالمتجمدة ، ومع ذلك فها هى ذى تنحنى آخر الامر، فترسم على فاسيا اشارة الصليب، وتقبله ، ثم تخرج من الغرفة بخطى آلية ، عيناها تحترقان ورأسها يدور• ان المشاعر الرهيبة التى أحستها فى هاتين الليلتين اللتين قضتهما بغير نوم قد ذهبت بصوابها • كانت تشعر شعورا غامضا بأن الماضى كله قد انتزع

من قلبها ، وأن حياة جديدة تنفتح أمامها مثقلة بالمخاطر مشحونة بالحزن. ولكن ما ان خطت فى خارج المنزل عشر خطوات حتى انبثق موزجلياكوف امامها كمن خرج من تحت الارض . لا شك أنه كان ينتظرها فى هذا المكان .

همس يقول وهو يلقى على جميع الجهات نظرات مختلسة خاطفة ، لان الغسق كان ما يزال فيه بقية من ضياء :

ـ زينائيد آتاناسيفنا ، لقد كنت حمارا ... ذلك أمر لا ينكر ! لكننى لست الآن بحمار اذا سمحت ... ها أنت ذى ترين أننى أسلك فى معاملتك سلوكا نبيلا . اننى نادم على أننى كنت حمارا ... ولكن مالى أضطرب فى الكلام فلا أعرف ماذا أريد أن أقول ؟ اعذرينى يا زينا أتاناسيفنا ، فان هنالك أسبابا خطيرة تجعلنى مضطربا هذا الاضطراب ..

نظرت اليه زينا دون أن تراه ، وتابعت سيرها صامتة . واذ كان الرصيف الخشبى العالى لا يتسع لشخصين يسيران جنبا الى جنب ، واذ لم تحاول زينا أن تتنحى قليلا ، فقد نزل بافل ألكسندروفتش عن الرصيف ، وسار محاذياً زينا رافعاً عينيه الى وجهها من تحت . وتابع كلامه يقول :

ـ زينائيد أتاناسيفنا ! لقد فكرت فى الامر ، وانى لأجدد طلبى اذا كنت لا تمانعين . اننى مستعد لأن أنسى كل شىء يا زينائيد أتاناسيفنا ! اننى مستعد لأن أنسى حتى الاهانات . اننى مستعد لأن أغفر لك ، ولكن بشرط واحد : هو أن تبقى الأمور سراً مكتوما ما بقينا هنا . تتركين أنت هذه المدينة فى أقرب وقت ، ثم أتبعك أنا خفية ، ونتزوج فى ركن بعيد على غير علم من أحد . وبعد ذلك نسافر رأساً الى بطرسبرج ، فى عربة ركاب اذا اقتضى الأمر ، حاملين حقيبة صغيرة واحدة ... هه ! أأنت

موافقة يازينـــائيد أتاناسيفنا ؟ تكلمى بسرعة ، فليس فى الوقت متسـع للانتظار ، والا رأونا معا •

ولكن زينا نظـــرت الى موزجلياكوف بدلا من أن تجيبه ، وكانت نظرتها بليغة فسرعان ما أدرك موزجلياكوف الموقف ، فرفع قبعته محييا وانحنى لزينا احتراما ، وغاب عند أول منعطف •

حدث موزجلياكوف نفسه قائلا : « كيف هذا ؟ لقد كانت فى مساء أول امس تفيض عاطفة وتتهم نفسها بكل شيء ! ان الايام تتعاقب ولكن لا يشبه بعضها بعضا » •

وكانت الاحداث أثناء ذلك فى موورداسوف تجرى مجراها، وكان أحدها مفجعاً • فان الامير بعد أن نقله موزجلياكوف الى الفندق مرض فى تلك الليلة نفسها ، واشتدت عليه وطاة المرض حتى أصبح فى خطـر • وعلم سكان موورداسوف بالنبأ فى الصباح من الغداة • واسرع كاليستى ستانسيلافيتش يقيم بجانب وسادة المريض ، حتى اذا جاء المساء د عى سائر أطباء المدينة ليعودوا المريض ويتذاكروا فى أمره • وقد كتبت الدعوات باللغة اللاتينية ؛ ولكن الامير ، رغم اللغة اللاتينية ، لم يثب الى رشده ، فكان يجمجم ولا ينفك يتكلم عن شعره المســتعار ويضرع الى كاليستى ستانيسلافيتش أن يغنى له شيئا ، ثم يلم به هلع من حين الى حين فياخذ يصرخ • وأجمع الأطباء على أن الاستقبال الذى استقبل به الامير فى صالونات موورداسوف قد أحدث له ارتباكا هضميا وأن المرض قد صعد من المعدة الى الدماغ حين انتقاله الى الفندق • وأشار الاطباء أيضا الى أن من الجائز أن تكون قد وقعت له هزة عصبية • والخلاصة أن النتيجة التى انتهى اليها الاطباء هى أن الامير سيموت لا محالة ، وأنه مهيأ للموت منذ زمن طويل على كل حال • ولم يخطىء ظن الاطبـــاء ، فان الشيخ

المسكين قد فاضت روحه غداة غد مع المســاء • لم يكن أحد يتوقع ان تنتهى الامور هذه النهاية الخطيرة • وهرع الناس ذرافات الى الفندق حيث يرقد جثمان الامير الذى لم يكفّن بعد ، فكانوا يتناقشون ويهزون رؤوسهم ثم يحكمون اخــر الامر حكما قاسيا جدا على «قتلة» الامير المسكين ، وكان واضحا أنهم يقصدون بالقتلة ماريا ألكسندروفنا وابنتها• كان كل واحد يحس أن هذه القصة قد يكون لها عواقب وخيمة ، وقد تمضى بعيدا جدا بسبب الفضيحة التى لابستها • ولكن ما أكثر ما يقوله الناس ! وكان موزجلياكوف أثناء ذلك مضطربا أشد الاضطراب فهــو يسرع الى هنا ويهرع الى هناك ، ثم فقد صوابه تماما ، وعلى هذه الحالة النفسية الاليمة انما كان حين سعى الى لقاء زينا • الحق ان موقفــه قد أصبح شائكا ، فهو الذى جاء بالامير الى مورداسوف ، وهو الذى نقله الى الفندق ، فماذا عساه يفعل الآن ؟ أين ينبغى أن تكون الجنازة ؟ من يجب أن ينبأ بالخبر ؟ هل ينبغى أن ينقل الجثمــان الى دوخانوف ؟ لقــد كان موزجلياكوف يعد قريب الامير ، فكان من حقه أن يضطرب وأن يرتعد• أليس من الممكن أن يتهم بأنه عجل وفاة الشــيخ المسكين ؟ « أرجو أن لا يصل الامر الى المجتمع الراقى فى بطرسبرج على الاقل • كذلك كان يحدث نفسه جزعاً مرتاعا • وهو لا يستطيع أن يتكل على نصيحة أحد فى مورداسوف • فلقد كان الناس كمن صعقهم الخوف • ولئن أصبح الميت مهجورا فى عزلته لقد أصبح موزجلياكوف مهجورا فى عزلته هو أيضا • ولكن المشهد تغير على حين فجأة • ففى ساعة مبكرة من الصباح غداة موت الامير ، وصل أحدٌ الى المدينة ، فاذا بمورداسوف كلها تأخذ تتكلم عن وصوله بسرعة كومض البرق•ولكنها تتكلم عن وصوله خافضة صــــوتها هامسة همسا • وأخذت العيون ترقبه من خلال شقوق مصاريع الابواب ، بينما كان يسير فى الجادة الكبرى ذاهبا الى عند الحاكم • لم

يعرف بافل ألكسندروفتش الذى اشتدت عليه وطأة القلق ما هو الموقف الذى يجب أن يتخذه تجاه القادم الجديد • ان القادم الجديد قريب للمتوفى • انه الأمير شتيبتيلوف ؛ وهو شخص مرموق ما يزال شابا لم يتجاوز الخامسة والثلاثين ، على كتفيه شارات كولونيل • ان هذه الشارات وحدها قد أحدثت فى نفوس موظفى المدينة رهبة يمازجها احترام ، وقد اضطرب ضابط الشرطه آمامه أول المضطربين • وسرعان ما علم أن الامير شتيبتيلوف كان اتيا من بطرسبرج فتوقف أثناء طريقه فى دوخانوف ، فلما لم يجد فيها أحدا أسرع وراء عمه الى مورداسوف ، حيث كان ينتظره هذا الخبر الذى نزل عليه نزول الصاعقة • ولم يعلم بهذا الخبر الفاجع فحسب بل علم كذلك بالشائعات المختلفه التى ذاعت عن موت الامير الشيخ • وكان وجه بافل ألكسندروفتش وهو يدلى بمعلوماته ينم عن ذعر شديد لا يملك المرء حين يراه الا أن يرثى لحاله• على أن جميع سكان مورداسوف قد أشعروا القادم الجديد شعورا واحدا هو انهم كمن ضبطوا على حين غرة متلبسين بالاثم مجترحين الجرم • وكيف لايشعر المرء بحرج كبير وارتياع شديد أمام هذا الوارث الممتعض المستاء الرصين الوجه الصارم النظرة ؟ ولم يلبث القادم الجديد أن قبض على ناصية الامور كلها ، فما وسع موزجلياكوف ازاء هذا الرجل الذى يستطيع أن يتباهى صادقا بقرابته للأمير المتوفى الا أن يختفى على الفور • وسرعان ما تقرر أن يُنقل الجثمان الى الدير وأن يُصلّى عليه هناك • وكان القادم الجديد يلقى أوامره فى كل شأن من الشئون بعبارات موجزة ولهجة قاسية وسلطة قاطعة ولكنه يفعلذلك بحذق مناسب وكياسة مرضية • حتى اذا جاء الغد مضت المدينة كلها الى الدير لحضور صلاة الجنازة ، وانتشرت بين السيدات شائعة بلهاء ، فقيل ان ماريا ألكسندروفنا

ستذهب الى الكنيسة من أجل أن تركع آمام النعش مستغفرة بصوت عال كما يوجب القانون ذلك • ولكن القارىء العزيز يدرك ان تلك شائعات لا اساس لها من الصحة ، ويحزر ان ماريا الكسندروفنا لم تظهـــر فى الكنيسة قط • نسيت أن أقول ان ماريا ألكسندروفنا قد رات منذ عـودة ابنتها الى المنزل أن البقاء فى المدينة اصبح مستحيلا ، فقررت أن تصطحب ابنتها في ذلك المساء نفسه الى منزلها الريفى • ومن هناك أخذت ماريا الكسندروفنا تتسقط أخبار المدينة قابعة في ركنها ؛ فسرعان ما علمت من تسقط الانباء بمقدم الامير شتيبتلوف ، فانتابتها من ذلك حمى• انالطريق الدى يفضى من الدير الى دوخانوف يبعد عن ارضـها مسـافه تقل عن فرسخ واحد ، لذلك استطاعت ماريا ألكسندروفنا بسهولة أنترى الموكب الذى اتجه من الدير الى دوخانوف بعد انتهاء صلاة الجنازة • كانالنعش محمولا على مركبة عالية العجلات يتبعها طابور من العربات • لقد شيعت هذه العربات الامير المتـــوفى الى المكان الذى يلتقى فيه الطـريق بالجادة الكبرى ، وظلت المركبة السوداء ذات العجلات العالية التى تحمل جثمان الامير وتسير خيولها بخطى بطيئة ، ظلت بعد ذلك زمنا طويلا تتهادى على الحقول البيضاء من الثلج ، بما يجب لها من جلال ووقار • ولكن ماريا ألكسندروفنا لم تستطع أن تواصل النظر فانكفأت عن النافذة •

وبعد أسبوع ، سافرت الى موسكو مع مع آتانازى ماتفئتش وابنتها• فما هو الا شهر حتى علم الناس فى موررداسوف أنهم باعوا منزلهم فى المدينة وفى القرية• فكذلك فقدت موررداسوف الى الأبد سيدة من الطراز الاول • وحتى فى هذا لم تجر الامور بغير أقاويل • لقد قيل فيما قيـل ان آتانازى ماتفئتش قد بيع مع الأرض ••• وانقضت سنة ثم انقضـت سنة أخرى ، ونُسيت ماريا ألكسندروفنا نسيانا يشبه أن يكون كاملا • هكذا تجرى الامور على هذه الارض واحسرتاه ! وحكى مع ذلك أنهـا

قد اشترت أرضا أخرى ، وأنها قد استقرت في بندر آخر حيث قبضت على ناصية الأمور كلها ، وأن زينا لم تتزوج ، وأن أتانازى ماتفئتش ... ولكن فيم أردد هذه الشائعات وليس فيها واحدة صادقة ؟!...

انقضت ثلاث سنين على كتابتي هـــذه الجمل الاخيرة من الفصـــل الاول من « حوليات موررداسوف ». من ذا الذى كان يمكن ان يتنبا بانني قد تتاح لى فرصه فتح دفترى من جديد واضافه بضع صفحات اخرى الى قصتي ؟ ولكن فلنصل الى الوقائع ! ولابداً بصاحبنا بافل آلكسندروفتش موزجلياكوف . انه حين اختفى من موررداســـوف سافر الى بطرسبرج حيث حصل بغير عناء على الوظيفة التي كان يطمع فيها منذ زمن طـــويل . وسرعان ما نسي كل ما يتصل بمدينة موررداسوف من قريب أو بعيد ؛ وسرعان ما اندفع في اعصار حيـــاة المجتمع الراقي ، فأخذ يختلف الى جزيرة فاسيلفسكي والى بحيرة القوارب * ، ويعيش حياة بهجة وتمتع باللذائذ شاباً أنيقاً عاد اليه مرحه . وقد عشق مرة أخرى فخطب فصـــد وطُرد من جديد فلم يتألم من ذلك ألماً شديدا . ولكنه لخفة طبعه وفراغ وقته طلب أن يسافر مع بعثة كان ينظِّم سفرها الى ركن بعيد من أركان امبراطوريتنا الواسعة ، فتم له ما أراد ، وكانت مهمة البعثة القيام بتفتيش لا أدرى ما هو على وجه الدقة . فبعد أن قطعت البعثة صحارى وفيافى وغابات ، دون أن تلقى مصاعب كثيرة ، وبعد أسفار طويلة لا نهاية لها ، بلغت المدينة الرئيسية من تلك البلاد البعيدة ، فلم تلبث أن ذهبت تزور الحاكم العام . انه جنرال طـــويل القامة جافي الطبـــع قاسي اللهجة ، عسكرى " شيخ تملأ جسمه الجروح ، ويزين صدره وسامان ، ويتدلى على عنقه صليب أبيض . استقبل الحاكم العام أعضاء البعثة بوقار متكبر ، ثم دعاهم الى حضور حفلة راقصـــة يقيمها في تلك الليلة نفسها تكريما للسيدة الجنرالة التي يقع عيدها في هذا اليوم . سر بافل ألكسندروفتش

بهذه الدعوة وفرح لها ؛ فلما جاء المساء ارتدى رداءه البطرسبرجي الذى كان يعوّل عليه كثيرا لاحداث اثرٍ كبير فى نفوس من يرونه • ثم دخل القاعة الكبرى منطلق الحركات منبسط الهيئة • ولكنه لم يلبث ان شعر بشيء من الذهول حين راى ما راى من ثياب باذخة ورتب عالية وأردية عسكرية مثقله بالأوسمة• وما هي الا أن تقدم ليحيي ربة المنزل التي سبق أن امتدح له صباها وجمالها ، حتى وقف متجمدا في مكانه • لقد رأى أمامه زينا ، متكبرة متعالية متجبرة تجللها جواهر الماس ويزينها ثوب رائع من أثواب حفلات الرقص • لم تتعرف زينا صاحبنا بافل ألكسندروفتش ، بل مرت على وجهه بنظرة سريعة لا تُبالي ولا تكترث، لتنقل بصرها بعد ذلك فورا الى رجل اخر • بهت موزجلياكوف، و ذهل عن نفسه ، فمضى ينتحي جانبا من القاعة • والتقى بين الجمهور بموظف شاب خجول كان يشعر من وجوده فى هذه الحفلة بكثير من الروع والهول ، فأسرع بافل ألكسندروفتش يسأله عن أمرين أو ثلاثة أمور كانت تهمه كثيرا ، فعلم أن الحاكم العام قد تزوج منذ سنتين أثناء قضاء اجازته في موسكو بفتاة تملك مهرا ضخما وتنتمي الى أسرة عريقة نبيلة؛ وأن الجنرالة جميلة جمالا يفوق كل جمال ، فذلك أمر لا يمكن أن يباري فيه أحد، ولكنها متكبرة تكبرا شديدا، ولاترقص الا مع جنرالات ، وأن حفلة هذه الليلة تضم تسعة جنرالات بين مقيم فى المنطقة ومارٍ بها، وفيهم طبعاً مستشارو الدولة ، وأن السيدة الجنرالة تعيش معها أمها ، وأن هذه الأم رغم انتمائها الى طبقة نبيلة جدا ورغم ذكائها النادر ، خاضعة لارادة ابنتها كالجنرال نفسه سواء بسواء • وحاول موزجلياكوف أن يعرف بالتلميح شيئا عن آتانازى ماتفئتش فأدرك أن هذا الركن البعيد من الامبراطورية يجهل وجوده كل الجهل • فلما استرد موزجلياكوف شيئا من رباطة جأشه طاف فى الصالونات ، فاذا هو يلمح ماريا

ألكسندروفنا متزينة للسـهرة بأبهى حله ممسكة بيدها مروحة فخمـة ترجحها أمام وجهها بغير اكتراث، متحدثة مع موظف من الدرجة الرابعة، ومن حولها تزدحم سيدات يتوددن اليها ويسعين الى الحظوة برضاها ، فتظهر ماريا الكسندروفنا لهن جميعـا لطفاً عظيماً ورقة كبيرة . جازف موزجلياكوف فظهر لها ، فاذا بماريا ألكسندروفنا ترتجف ارتجافة صغيرة سرعان ما كبتتها ؛ وتنازلت فسألته بكثير من اللطف عن أخبار بطرسبرج مظهرة مع ذلك دهشتها من انه ليس في الخـارج . ما من كلمة عن مورداسوف ! لكان هذه المدينة لم توجـد في يوم من الأيام ! وذكرت أخيرا اسم أمير من أشهر الامراء بالعاصـمة في ذلك الوقت ، وقبل أن يفهم موزجلياكوف شيئا ، اتجهت بالكلام الى رجل من كبار رجال الدولة أشيب الصدغين معطر الشعر كان قد اقترب منها ، فسألته عن أنباء ذلك الأمير . هكذا ، في أقل من دقيقة ، أحس بافل ألكسندروفتش بامّحاء وجوده من عالمها . فعاد الى قاعة الرقص حاملا قبعته بيده وقد طافت بفمه ابتسامة ساخرة . ولا ندري لماذا اعتقد أنه بلغ من امتلاء نفسه بالمرارة ومن اصابة كرامته بالاهانة انه قرر أن لا يرقص قط ، فلبث السهرة كلها حزين الوجه مهموم النظرة مرّ البسمة متكئا اتكاء مسرحيا على عمود في القاعة لبث عنده ساعات طويلة لا يتحرك ، جامدا في مكانه ، متابعا زينا بنظره . ولكن واحسرتاه ! لا حزن وجهه ولا رومانسية أوضـاعه ولا الغم الذي يلوح في هيئته ، لا شيء من ذلك أو غيره قد أجداه نفعا . ان زينا لم تلاحظ وجوده . واستبد به الحنق أخيرا وثقلت ساقاه من طول وقوفه فخرج عائدا الى الفندق يجتر عاره حانقـا ، اذ لا يليق بعاشـق محزون أن يبقى للعشاء ! وهنالك في الفندق استيقظ في ذاكرته ما كان قد نسيه منذ زمان طويل فتأخر نومه . غير أن أوامر قد وصلت في الغداة

للقيام بمهمة جديدة • فتهيأ موزجلياكوف للسفر وقد سرّى عنه • لقد شعر من ترك هذه المدينة بكثير من التخفف •

على الصحراء التى لا نهاية لها كان يمتد بساط من ثلج باهر ، وعند الأفق حيث تلتقى السماء. بالأرض كانت تبدو غابة من الغابات كأنها بقعه سوداء •

الخيول تعدو صاهلة فى الثلج الباهر • الجلاجل ترن • وفى قرارة العربة أخذ بافل ألكسندروفتش يفكر ثم يحلم ثم يغرق فى نوم هادىء • ولم يستيقظ الا عند ثالث محطة وقد طابت نفسه وأشرق مزاجه وزخر رأسه بخواطر جديدة •••

٣ نيسان (أبريل) ١٨٥٩

حواش

١٩ ★ « الفرسخ » مقياس روسى قديم يساوى كيلو مترا على وجه التقريب (١٠٦٧ متر) •

٢٠ ★ « ايليوشا » : تصغير ايليا ، ويقال تحببا •

٢٣ ★ « أوبسكا » : كلمة تعنى بالروسية « زلة قلم » ، وقد اشتق منها الكاتب اسم « أوبسكين » سخرية •

٢٥ ★ هو ايفان ياكوفلفتش كوريشــا (١٧٨٠ ــ ١٨٦١) ، رجل شاذ عرف في موسكو بتنبؤاته عن المستقبل ، وكان يعد « وليا من أولياء الله » •

٣٤ ★ تحاكي هذه العناوين محاكاة هزلية عناوين الروايات التاريخيه المزعومة ، على طريقة والتر سكوت ، التى لفقتها أقلام خفيفة كأقلام زاجوسكين ولايتشنيكوف ومازيالاسـكى ومارلتسـكى وأضرابهم ، والتى كان يسخر منها الناقد سنكوفسكى سخرا جميلا ممتعا ، وكان يمهر مقالاته فى نقدها بتوقيع مستعار هو اسم « البارون برامبئوس » ، وكان ينشر هذه المقالات زوايا فى مجلة « حجرة القراءة » •

٤٢ ★ دمرت الحرائق مدينة قازان مرتين ، الأولى سنة ١٨٤٢ والثانية سنة ١٨٤٨ •

٦٣ ★ اسم فيدوبلياسوف منحوت من كلمتين احداهما « فيد » ومعناها مظهر والثانية « بلياس » ومعناها رقص ، فاذا سمع الروسى هذا الاسم استغربه •

٦٦ ★ « فوما » هو الصورة الروسية لاسم توما (توماس) •

٨٥ ★ « فرول سيلين » هو بطل قصة كتبها كارامزين بعنوان « فرول سيلين ، رجل الخير » ، وظهرت سنة ١٧٩١ •

٩٣ ★ « تاليران » السياسي الفرنسي المعروف في عهد نابوليون ؛ والاهابة هنا الى الاقتداء بما اشتهر به من دهاء ومكر وحيلة واسعة ٠

٩٥ ★ « آديلائيد » ، زهرة الليلك الناصع ، والكلمة فرنسية كانت تطلق في الماضي على نوع من الحشرات ، وهي مشتقة من الكلمة اليونانية آديلوس ، ولا شأن لها باسم الشخص آديلائيد ، كما سيتوهم راوى القصة ٠

٩٦ ★ « آجرافينا » : ان اسم آجرافينا هو الشكل الروسى الشعبى لاسم « آجريبين » ٠

١٠٥ ★ « الأخرق » : عنوان رواية آ ٠ بيزمسكى التى ظهرت سنة ١٨٥٠ ؛ والكلمة معناها الحقيقي « الفراش » ، ومعناها المجازى « الأخرق » ٠

١١٥ ★ « معاون قاض » ، موظف من الدرجة الثامنة يقابل رتبة « ميجر » في الجيش ؛ وهذه الرتبة تعطى صاحبها الحق في لقب « النبيل الرفيع » ٠

١١٨ ★ « أسرة هولمسكى ، بعض ملامح أخلاق السادة الروس ، المتزوجين منهم والعازبين » : رواية كتبها د ٠ ن ٠ بيجتشيف ، وصدرت سنة ١٨٣٠ ، وهي تصور أسرة كثيرة الأولاد ٠

١٣٤ ★ « رقصة الكامارنسكايا » : رقصة روسية شعبية يرقصها الرجال وحدهم ، وتصاحبها أغنية مرحة منطلقة عن « فلاح كامارينو » ٠

١٣٨ ★ بالفرنسية في الأصل ٠

١٤٠ ★ « كاتب ديوان » موظف من الدرجة الرابعة عشرة ، وهي أخفض الدرجات في سلم الرتب ٠

« البيشوخونيزى » هو ساكن مقاطعة بيشوخوني ذات الغابات؛

وتطلق هـذه الصفة فى العـادة على الرجل الجـافي الثقيـل المتخلف ٠

١٥٦ ★ « ايفان بوروزدنا » : شاعر تافه لا قيمة له ، ولكن فوما فومتش يضعه لجهله وحماقته فى مصاف بوشكين ولرمونتوف ٠

١٥٦ ★ « اننى أعرف روسيا ، وروسيا تعرفنى » ، كلمة للمؤرخ الناقد نيكولا الكسيفتش بولفوى (١٧٩٦ ــ ١٨٤٦) ، أثارت سخرية معاصريه منه واستهزاءهم به ٠

١٥٨ ★ « نيكولا كارامزين » (١٧٦٦ ــ ١٨٢٦) : مؤرخ شهير ألف كتابا جميـلا فى « تاريخ روســيا » ، وكتب كذلك روايات وأقاصيص عاطفية منها قصــة « فرول سـيرين » التى تصف حياة تاجر يتحلى بالفضيلة ٠

١٥٩ ★ « الناسخ » : هو الاسم الأدبى المستعار الذى كان الكاتب ن ٠ كوكولنيك يمهر به كتاباته ٠

١٧٠ ★ « ايمليان بوجاتشيف » ، قوازقى من الدون ، هو قائد التمرد الكبير الذى قام به القـوازق والفـلاحون بين سـنتى ١٧٧٢ و ١٧٧٤ ٠

٢٠٢ ★ « مكيافيللى و مركادانتى » : جمع ساخر بين الكاتب والمؤرخ الشـهير مـكيافيلى (١٤٦٩ ــ ١٥٢٧) وبين الملحن الايطـالى الصغير سافريو مركادانتى (١٧٩٧ ــ ١٨٧٠) ٠

٢٠٧ ★ « فيدو بلياسوف » راجع حاشية الصفحة ٦٣

٢١٤ ★ « جرتنا ــ جرين » قرية بايتوسيا اشتهرت بما يتم فيها من عقود قران لا تتطلب توافر شرطى المسكن والاعلان ٠

٢١٥ ★ « بورتسوف » هو آ ٠ ب ٠ بورتسوف (١٧٨٤ ــ ١٨٣٩) ، الضابط فى سلاح الفرسان الذى اشتهر ببسالته وقصفه معا د وقد تغنى به الشاعر الفارس دينيس دافيدوف ٠

٢٣٤ ★ ان اسم « فيرني » ومعناه المخلص يجانس في النص الروسى كلمة سكفرني ومعناها الخبيث ؛ كما ان اسم أولانوف (المشتق من كلمة « أولان ») يذكر بكلمة بالفانوف (المشتقة من كلمة « بولفان » ، ومعنساها الأبله) • وقد تصرف المترجم العربى بهذين الاسمين التصرف الذى يراه القارىء ، تحقيقا للجناس اللفظى على نحو يسوغ التهكم عليهما • واسم « دانستيف » مشتق من كلمة « دانس » الفرنسية ومعناها الرقص •

٢٩٦ ★ « حصار بامبا » : قصيدة نظمها الكونت الكسى ك تولستوى بالتعاون مع أقربائه الاخوة جمتشوينيكوف ، ونشرها في مجلة « المعاصر » عدد آذار مارس ١٨٥٤ ، باسم مستعار هو كوزما بروتكوف • والقصيدة معارضة هزلية للأسلوب الرومانسى وقد تولى الشاعر أحمد عبد المعطى حجازى صياغتها للترجمة العربية شعرا •

٣٠٠ ★ « آنا راد كليف » (١٧٦٤ ــ ١٨٢٣) روائية انجليزية ألفت قصصا يسودها السر والرعب ؛ وقد حظيت احــدى هــذه القصص وهى « أسرار أودولف » بشهرة موقتة •

٣٠٢ ★ « كوزما بروتكوف » : راجع حاشية الصفحة ٢٩٦ •

٣٠٣ ★ كانت مجلتا « المعاصر » و « حوليات الوطن » أشهر المجــلات الروسية بين ١٨٤٠ و ١٨٦٠ •

٣٠٤ ★ نشرت مجلة « حوليات الوطن » في عــدد شــهر تموز يوليو ١٨٥١ مقالا طويلا وضعه الكاتب الروسي المعروف ، المهتم بوصف عادات الأقوام ، وهو آ • ن • آفانازيف ، بعنوان : « المنزل الروسى وما يتصف به من طابع دينى ووثنى » • وقد تذكر دوستويفسكى هذا المقال في احدى رسائله التى كتبها سنة ١٨٦١ ، فسماه سافرا « فصل المقال فى المكنســة والمعزقــة والمجرفة وما من خطير الشأن فى الأساطير الروسية القديمة »

٣١٤ ★ « من الخرافات التي كانت شائعة فى الشعب الروسى أن الرعود والصواعق انا يرسلها النبى ايليا (وتصغيره ايليوشا) الذى يتجول فى السماوات على عربته ، وأنه لا بد أن تهب زوبعة فى كل عام يوم عيده ، وهو اليوم العشرين من شـهر تموز يوليو

٣٤٣ ★ « ٠٠٠الشقاء أبو الفضيلة » : كتب نيكولا جوجول فى احدى رسائله يقول : « ان الشـقاء يرقق قلب الانسـان ويرهف طبيعته » (« رسائل جوجول الى أصدقائه » ، ١٨٤٧) ٠ ومن الملاحظ أن دوستويفسكى كثيرا ما يتهكم على جوجول فى هذه الرواية ، من خلال شخصية فوما فومتش ٠ راجع التقديم الذى صدرنا به هذا المجلد الثالث من أعمال دوستويفسكى ، وفيه نتعرض لهذه المسألة ٠

٣٤٦ ★ « اشمداى » اسم يرجع فى أغلب الظن الى أصل فارسى ، وبه يسمى شيطان الشهوانية والحب الفاسق ٠

٣٥٧ ★ من المعروف أن الاسكندر الكبير قتـل صديقه كلتيوس أثناء سورة غضب ٠

٣٦٠ ★ « المدرسة الطبيعية » المقصودة هنا هى المدرسة الواقعية فى الأدب الروسى فى الأربعينات من القرن التاسع عشر ؛ وكان الناقد بيلنسكى يرى طلائعها وبداياتها فى أعمال جوجول ٠ والقصيدة هنا للشاعر ن نكراسوف ؛ وقد نشرت سنة ١٨٦٠ ، وفيها يخاطب الشاعر فتاة ضائعة يريد أن يبعثها بحبه بعثا جديدا ٠

٣٦٨ ★ نسبة الى ليسينيوس لوقولوص السياسى الرومانى الذى عرف بحب البذخ فى الطعام والشراب ٠

٣٨٠ ★ « بينتى » ، حاو ايطالى اشتهر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر .

٣٨١ ★ « دعاة الشرعية » هم أنصار الملكية التى يعدونها شرعية .

٣٨٤ ★ « نحلة الشمال » : جريدة كان يصدرها ف . بولجارين

٣٩٧ ★ هو « آنا ستازى فيت شنشين » ، شاعر غنائى روسى (١٨٢٠ ــ ١٨٩٣) ، بدأ حياته الأدبية سنة ١٨٤٠ .

٤١٣ ★ دنيس فونفيزين (١٧٤٤ ــ ١٧٩٢) ، وألكسندر جريبويدوف (١٧٩٥ ــ ١٨٢٩) ونيكولا جوجول (١٨٠٩ ــ ١٨٥٢) ، ثلاثة من كبار كتاب المسرحيات الهزلية فى روسيا .

٤١٣ ★ « مؤتمر فيينا » ١٨١٤ ــ ١٨١٥ .

٤١٤ ★ « الكراكوفياك » أو الكراكوفية : رقصة بولندية كانت ترقص كثيرا فى حفلات الرقص بروسيا .

٤٢١ ★ « ساندريون » هى فى حكاية بيرو الفتاة التى أساءت امرأة أبيها معاملتها واحتقرتها أخواتها ، وألزمت المطبخ ، وألبست ثيابا خلقة ، ثم استطاعت أن تحضر حفلة رقص أقامها ابن الملك، فأحبها وافتتن بها . وقد أصبح اسم « ساندريون » يعنى فتاة مهملة رثة الملابس .

٤٢٤ ★ فى عنوان التمثيلية الهزلية Mouje v dver, a jéna v tver (ومعناه : يخرج الزوج من الباب فتذهب الزوجة الى تفير نلاحظ أن كلمتى dver و Tner تتجانسان قافية ، أما مدن تولا وياروسلان وكوستروما فان أسماءها لا تحقق هذا التجانس فى القافية ، ولا تجعل العنوان مسجوعا .

٤٣٢ ★ « حجرة القراءة » ، مجلة واسعة الانتشار كان يصدرها أو سنكوفسكى .

٤٣٢ ★ « فلوريان » هو ه · بيير فلوريان (١٧٥٥ ــ ١٧٩٤) ، مؤلف حكايات خرافية وروايات ريفية ·

٤٤١ ★ كالستى ستانسلافتش طبيب بولندى الأصل ·

٤٧٧ ★ « ماريا ومازيبا » ، الاشارة هنا الى غرام الفتاة ماريا كوتشوبى بعرابها الشيخ ، رئيس القوزاق ، مازيبا ، الذى ثار على بطرس الاكبر سنة ١٧٠٧ ؛ وذلك هو موضوع القصيدة الشهيرة التى نظمها بوشكين وعنوانها : بولتافا ·

٤٧٨ ★ « السنونو » أغنية عاطفية شهيرة للملحن الروسى آليابييف ، وقد وضعها سنة ١٨٣٤ ، فاقتبسها للبيانو فرانتس ليست

٥٠٥ ★ « كونت مونت كريستو » ، رواية لألكسندر دوما ؛ و «مذكرات الشيطان » ، رواية من تأليف ملتشيور فرانسوا سوليبه (١٨٠٠ ــ ١٨٤٧) ·

٥٣٠ ★ « جيوفانى جياكومو كازانوفا » المغامر الايطالى الذى اشتهر بمذكراته ·

٥٨٤ ★ « حوليات الوطن » ، مجلة تحررية كان يصدرها ف · بيلنسكى ·

٥٩٢ ★ « وأخذ يختلف الى جزيرة فاسيلفسكى والى بحيرة القوراب ··· » : عبارة ساخرة ، لأن هذه الأماكن هى أحقر أحياء العاصمة ·

فهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الأعمال الأدبية الكاملة

المجلد الأول

الفقراء
المثل
قلب ضعيف

المجلد الثاني

نيتوتشكا نزفانوفنا
الليالي البيضاء
بروخارتشين
الجارة
المهرج
السارق الشريف
البطل الصغير
قصة في تسع رسائل
شجرة عيد الميلاد والزواج
زوجة آخر، ورجل تحت السرير

المجلد الثالث

قرية ستيبانتشيكوفو وسكانها
حلم العم

المجلد الرابع

مذلون مهانون

المجلد الخامس

ذكريات من منزل الأموات

المجلد السادس

في قبوي
قصة اليمة
ذكريات شتاء عن مشاعر صيف
التمساح

المجلد السابع

المقامر
الزوج الابدي

المجلد الثامن

الجريمة والعقاب -١-

المجلد التاسع

الجريمة والعقاب -٢-

المجلد العاشر

الأبله -١-

المجلد الحادي عشر

الأبله -٢-

المجلد الثاني عشر

الشياطين -١-

المجلد الثالث عشر

الشياطين -٢-

المجلد الرابع عشر

المراهق -١-

المجلد الخامس عشر

المراهق -٢-
قصص

المجلد السادس عشر

الاخوة كارامازوف -١-

المجلد السابع عشر

الاخوة كارامازوف -٢-

المجلد الثامن عشر

الاخوة كارامازوف -٣-

دوستويفسكي

الأعمال الأدبية الكاملة

"إن معاصري دوستويفسكي قد أساءوا فهمه ، فأكثرهم لم يشأ أن يرى فيه إلا كاتباً اجتماعيا يدافع عن "الفقراء والمذلين المهانين" فإذا عالج مشكلات ما تنفك تزداد عمقاً أخذ بعضهم يشهّر به ويصفه بأنه "موهبة مريضة" ومن النقاد من لم يدرك أن "الواقعية الخيالية" التى يمكن أن توصف بها أعمال دوستويفسكي إنما تسبر أعمق أغوار النفس الإنسانية ، وأن دوستويفسكي كان رائداً سبق نظرية التحليل النفسى التى أنشأها فرويد وآدلر ، وأنه زرع هذه المشكلة الميتافيزيقية ، مشكلة الصراع بين الخير والشر ، فى كل نفس.."

الكسندر ف سولوفييف